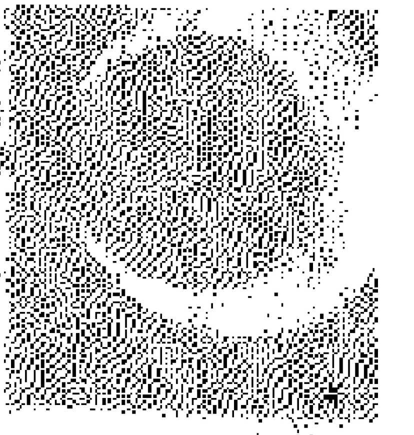
كتاب الهلال



سلسلة ثقافية شهرية

الأبطال

• توماس كارلايل • محمد السباعي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٢٦ ـ صفر ١٣٩٨ ـ فبراير ١٩٧٨

No. 325 — January 1978

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا . فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٥ر٢ جك ـ والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

الأبطال

•

تأليف

كارلايل

ترجمة

محمد السباعي

•

دار الهلال

البطل فى صورة إله

انما يضمنى واياكم هذا المقام وتواليه ، للكلام شيئا عن عظماء الرجال ومظاهرهم على مسارح الحياة ، والأشكال التى تشكلوها فى تاريخ البشر ، وآراء الناس فيهم ، وماذا أحدثوا من الأعمال – للكلام عن الأبطال وعما استقبلهم به أهالى أزمانهم وعما صنعوا هم من جلائل الأمور – ولعل هذا مبحث عويص لا أرانى موفيه حقه – مبحث لعمر الله قصى الغاية ، يشق على نزع الخواطر مرماه ، ويقع وراء جهد الأوهام منتهاه .

وماظنكم بمبحث هوالتاريخ بحذافيره ؟ اذ فى اعتقادى ان التاريخ العام – تاريخ ما أحدث الانسان فى هذا العالم – انما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء ، فهم الائمة ، وهم المكيفون للأمور ، وهم الأسوة والقدوة ، وهم المبدعون لكل ما وفق اليه أهل الدنيا. وكل ما بلغه العالم ، وكل ما تراه قائما فى هذا الوجود كاملا متقنا ، فاعلم انه نتيجة أفكار أولئك العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم الى الناس ليؤدى كل ما ناطته به القدرة الالهية من الخير . فروح تاريخ العالم انما هو تاريخ اولئك الفحول ، وظنى أنه مبحث لن يسعه هذا المقام !

بيد أن من أسباب العزاء أن فى ذكرى العظماء ،كيفما كانت ، نفعا وفائدة . والرجل العظيم لايزال بعد موته ينبوع نور يتدفق . فليس أحسن من مجاورته شيء .. نور يضيء ، وكان يضيء ظلمـات الحيـاة . وليس هو كسراج اشتعل ، ولـكنما نجم شبته يد الله بين أشباهه من كواكب الأفق ، هو كما قلت ينبوع نور يتـدفق بالحكمة ومعانى الرجولة والشرف الـكبير ، وهو الذى فى شعاعه انس الأرواح وروح النفوس ومتعة الخواطر. وليس فى ظنى أن احدا منكم يحجم برهة عن ورود تلك المناهل العذبة كيفما كان طريق المورد .

ويقينى ان نظرة فى تواريخ الأبطال الشتى الصنوف الذين أنا آخذ الآن فى سرد سيرهم ، جديرة أن تكون بمثابة نظرة فى مخ تاريخ البشر وصميم لبـابه . وما أسعدنى لو استطيع فى مثل هـذا العصر الذى ضعف فيه اجلال الرجل للرجل أن أفهمكم شـيئا من معانى عظمة الأبطال وجلالهم ، أى من معانى البطولة ، والبطولة فى مذهبى هى العروة المقدسة التى تعقد ما بين الرجل العظيم وبين سائر الناس ، ما أسعدنى لو أتيح لى ذلك ولـكنى محاول وباذل مجهودى .

لقد قيل — وصدقا ما قيل — ان أهم ما فى الرجل دينه — والأمة مثل الفرد فى ذلك — ولست أذهب بلفظة الدين الى النحلة التى يتخذها الفرد والمذهب الذى ينتسب اليه والقواعد الملية التى يعددها ويشهد بها ، فقد ترى الرجـل الذى ذلك شأنه يسفل الى أدنى حضيـض اللؤم والخسة على الرغم من شـدة تمسكه بقواعد الدين . فهذا ما لا أسـميه الدين ، هذه الاقرارات والاعترافات ابعد ما تكون فى الحقيقة

من الدين . اذ هو اعتراف واقرار لم يصـدر الا من ظواهرالرجل وبواديه ـ أعنى من ناحية اللسان والقوى البرهانية ـ وذلك أقصى ما عنده .

ولـكن جوهر المسـائل للرجـل والأمر الذى عليه يترتب سائر الأمور هو ذلك الشىء الذى يعتقـده حق الاعتقـاد ويوقن به كل اليقين فيما يتعلق بالروابط الجوهرية التى تربطه بهذا الـكون الجم الأسرار، وفيما يتعلق بواجبه فى هذه الدار ووظيفته ـ ذلك هو دينه ، وربما كان الحاده وكفره ـ هو اعتقاده أنه متصل بعالم الالهيات أو بلا عالم مطلقا ـ فاذا علمت عن الرجل ذلك علمت أى رجل هو وأى شىء يجدر به أن يصنعه فى هذه الحياة .

لذلك كان أول سؤالنا عن الرجل أو الأمة ما ديانته او ديانتهم ؟ هل هى الوثنيـة أو تعدد الآلهة ـ أعنى تمثيل سر الوجود تمثيلا حسيا وعبادة القوى الطبيعية ـ أم هى النصرانية والاعتقاد بعالم سرى حقيقى وبخلود الروح وارتـكاز الوقت على عالم الابدية . أعنى بذلك اسـتبدال دولة الأسرار المقدسة التى هى أشرف وأسمى ، بدولة الوثنية وعواملها من قوى الطبيعة أم هى الشك والريبة ؟ هل هناك عالم خفى وسر مجهول ام لا ؟ بل ربما كان الحادا محضا وكفرا مبينا ، فعندى ان الاجابة عن هذا السؤال هو اعطاؤنا روح تاريخ الفرد أو الأمة ، اذ أن أعمال الأمة أو الفرد أنما هى بنـات أفـكارهم . وما نتجت ظواهر الآثار الا من مستسر الضمائر ، ومن ثم اقول ان دين الأمة هو أهم مالديها.

فجدير بنا فى هـذه المحاضرات أن نجعل الوجهة الدينية من اخطر وجوه البحث واكبر اركانه ، فانه

متى أجدنا معرفة هذه برح الخفاء عن كلّ شيء . وقد جعلنا أول أبطالنا « أودين » ألرجل الذى كان يعبده قدماء السويد والنرويج ، وكان قطب دائرة الوثنية فى تلك الأقطار . فلننظر برهة الى البطل فى صورة معبود وهو أقدم أشكال البطولة .

* * *

حقا لقد كانت الوثنية شيئا من أعجب الأشياء لايكاد يتصوره الوهم . وهل كانت الا متكاثفات أضـــاليل وسخافات وأباطيل قد نبتت فى الحياة الغابرة فالتفت أعياصها ، واســتأشبت أدغالها ، وخيمت على أكناف الحياة غواشي قبابها ودواجي ظلالها ! مما لايكاد يصدق به العقل أو يتصوره الوهم أن ناسا عقلاء أيقاظا صاحين يعيشون عيشة كتلك ويعتقدون عقائد كهاتيك . أعني يعبدون رجلا منهم ! لا بل يعبدون الخشب المســندة والأحجار وما اليها من أصــناف الحيوان والجماد ، ويصوغون لأنفسهم خليطا مشوشــا من كل أضــلولة وأبطولة فيحسبونه فلسفة الكون – أما والله ما أحسب كل هذا الا حديث خرافة .

بيد أنه لاشك فى أنهم كانوا يأتون ذلك . كانوا وهم رجال مثلنا يعتقدون تلك الـكفريات الفظيعة المنـكرة ويطمئنون اليها ويعيشون بها ، عجبا اىعجب ! وخليق بنا أن نطرق مليا ونتأمل والأسف ملء قلوبنا ما يوجد فى نفس الانسان من أعماق الضلال وظلمــات الجهل ، فان ما أشرت اليه من مستنكر المدهشـــات قد كان فى الانسان ولا يزال ، بل هو فى جميع الناس وفينا أيضا.

بين الجدليين جماعة ليس لديهم من القول فى الوثنية الا كلمة واحدة ، اذ يقولون هى باطل وغش ، وانه لم

يؤمن بها عاقل قط وانما هي أكذوبة لفقت لخداع أناس لا يصح ان يسموا عقلاء ! وأرى من الواجب علينا أن ندفع عن الآدميين وعن أعمالهم وتاريخهم أمثال هذا الحكم الجائر . واني لأدفعه الآن عن الوثنية وعن كل ديانة حاول أن يسير بها الانسان دهرا ما في هذه الحياة .

فلم يك دين قط الا وفيه عنصر من الحق . ولولا ذلك لما اتخذت أمة من الأمم دينا ما — ولا ننكر أن الأخاديع والأكاذيب تكثر في الأديان ولا سيما فيعهودها المتأخرة ، اذ يعتورها الوهن والاضمحلال . ولكن الكذب ما كان قط المسبب الأول للأديان — انه ما كان قط للأديان حياة وقوة ، بل كان داءها ونذير آجالها — فاعلموا ذلك أصلحكم الله ولا تنسوه : فاني لأظن ان من شر السفسطة وأخبث الباطل أن يقال ان دينا من اديان المتوحشين كان منشؤه الكذب ، فان الكذب لاينشأ عنه شيء قط وليس من شأنه أن يحدث ويلد ، وإنما من دابه أن يفني ما أصاب ويقتل كل شيء حتى اننا لو حاولنا ان نحيط علما بأمر ما فاتيناه من ناحية أكاذيبه كان ذلك جديرا أن يخفي عنا حقيقته . وهي ما لاينكشف لنا حتى ننفي تلك الأكاذيب البتة كأنها امراض ومفاسد واجب على كل امرىء استئصال شأفتها سواء من الأذهان والأعمال . اذ أن الانسان — حيثما كان — عدو الأكاذيب .

بل اني لأرى الحق حتى في وثنية أهل التبت (من اقاليم الصين) ، اقرأ ما دونه الجهبذ الصادق النظر الصريح القول المستر « تيرنر » في حديث سفارته الى تلك البلاد تجد ان لهؤلاء المساكين عقيدة أن الله يرسل

كل حين الى الأرض بشرا يمثله ويحمل صورته ، وهو بمثابة اعتقادهم فى بطريق أو بابا أو بمثابة اعتقادهم أن هنالك رجلا هو أفضل الرجال قاطبة — وان هــذا الرجل يمكن الاهتداء الى معرفته من بين سائر القوم : فأما أن الله مرسل فى كل جيل رجلا يمثله فهذا هو الحق الكائن فى عقيدة هؤلاء ، وأما كون هذا الرجل يمكن معرفته من سائر الناس فهذا هو خطأ المذهب المذكور . ولقساوســة هــذه الأمة طرق الى اكتشاف الرجل الأفضل من بين سوادهم ليولوه زعامتهم — طرق وأيم الله عقيمة ولكنها ليست أعقم من طريقتنا نحن ، اذ لا نفتأ نولى علينا الابن الأكبر من أسرة بعينها (الأسرة الملكية) .. وا أسفاه ! ..

ولكن ارجع الى ذكر الوثنية فأقول انه قد يرجى لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولا انها كانت فى حين من الأحيان دينا صحيحا فى اعتقاد أهلها . فلنوقنن كل اليقين أن الناس كانوا يؤمنون بوثنيتهم حق الايمان، ولم يكن بهم ذهول ولا جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك أصحاب العقول والحواس ، أيقاظا قد صورهم الله على صورنا ، وخلقهم كخلقنا ، لا فرق بينهم وبيننا بحال من الأحوال . لنوقنن كذلك انا لو كنا وجدنا معهم لآمنا بما كانوا به يؤمنون ، ولكنا وهم سواسية فى سائر الأشياء . واذ قد علمتم منى ذلك فعليكم أن تسألونى : ماذا كانت تلكم الوثنية ؟

يقول آخرون من ذوى الجدل — وهو قول أوجه — ان منشأ الوثنية هو شعر الشعراء . أعنى أن الشعراء كانوا يرون آراءهم فى الكون ثم يخرجون تلك الآراء والاحســاسات فى رموز من الأقاصيص وضروب من

المجاز والتشبيه بالأشخاص والحيوان والجماد ، جريا على قانون أساسي من قوانين النفس البشرية وهو : ان كل ماجرى فى وجدان المرء من احساس شديد لايرى بدأ من اخراجه بواسطة النطق ، ومن رؤيته ممثلا لعينيه فى شيء منظور ، حتى كأنما هو شيء حي ، ذو حقيقة تاريخية .

ولاشك فى أن هنالك قانونا كذلك وانه من أرسخ قوانين النفس البشرية وأرساها وأشدها تأصلا واستمكانا ، ولا شك أيضا فى انه قدكان لذلك القانون دخل عظيم وأثر قوى فى أمر الوثنية . وانى وان شهدت بشيء من الصحة لتلك النظرية التى ترجع بأمر الوثنية كله أو جله الى الرموز الشعرية ، لكنى لا أعدها النظرية الصحيحة . وانى انشدكم الله : هل كنتم قط مؤمنين ومسترشدين فى ظلمات الحياة بقصص ناظم وعبث شاعر ؟ أما وربكم ان الأمر لأخطر من ذلك وأجل ، وأحوج الى الجد منه الى اللعب . ان أمر الحياة من أكبر الجد ، وما أمر الممات وما عساه يحدث بعد الممات بلهو ولا عبث ، بل انه الجد أمر من كل جد ، والحق امر من كل حق .

فقد رأيت ان أولئك القائلين فى الوثنية بأمر الرموز الشعرية وان كانوا قد اخذوا فى منهج الحق لكنهم لم يبلغوا الغاية . فالوثنية ولا شك رموز شعرية وتمثيل بالمرئيات لما جرى فى وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره ، وكذلك كل دين انما هو رمز وتمثيل يختلف باختلاف تلك الآراء والاحساسات . ولكنى أرى رأى هذه الفئة رأيا معكوسا بقولهم عن النتيجة انها السبب وعن الغاية انها الأصل .

فان الناس ما كانوا ليجعلوا عمل الأقاصيص الشعرية أول حاجتهم واكبر همهم ، وانما أكبر همهم هو أن يعرفوا أى عقيدة يتخذون فى هذه الكائنات ، وأى سبيل يسلكون فى تلك الحياة . وماذا يرجون وماذا يخشون ، وماذا يأتون وماذا يتركون .

ا اذا أخرج الشاعر قصة موفقة جعلها رمزا لمعتقدات جيله أتحسب انها أقدم عهدا من تلك المعتقدات ؟ كلا . بل كانت العقائد أولا ثم انشئت القصيدة رمزا اليها وتمثيلا لها . فالعقيدة أصل والشعر صورة ، والعقيدة حقيقة والشعر ظلها ، ثم هو مهما بلغ فى مراتب الجد فانما هو لعب وفكاهة ولهو من عبث الخاطر اذا قيس الى تلك الحقيقة الراسخة فى النفوس التى يحاول به تمثيلها . فقصارى القول ان الرموز الشعرية هى نتيجة الحقيقة لا مسببها ، فعلينا اذن فى شأن الوثنية أن نبحث من أين جاءت هذه الحقيقة ـ وماذا كانت ؟



تذكرون ماتوهمه أفلاطون من أنه لو ولد انسان فى حجرة فى جوف الأرض ، فترك ثمة حتى بلغ أشده وكمل عقله ثم أخرج بغتة الى ظاهر الأرض فاذا الشمس بارزة فى موكب لألائها . ماذا يبلغ به العجب والاندهاش من منظر لا نبرح نراه فلا يحرك فينا ساكنا ؟ ولكن ذلك الرجل يراه بعينى طفل قد برأهما الله من شوائب أكدار الحياة ، فرؤيتهما فى منتهى الصفاء . ثم يراه كذلك بعقل ناضج ، فليس عجيبا أن يرقص قلبه طربا لذلك المنظر الباهر . ثم ينفذ بصره الثاقب الى ما أودع الله ذاك المشهد من روعة الجلال فيخر له ساجدا . فاعلموا معشر الاخوان ان أول رجل مفكر بين شعوب

المتوحشين ـ أول انسان بدأ يفكر انما هو كذلك الانسان الذى تخيله أفلاطون جامعا فى طبيعته بين الطفولة والرجولة .

كذلك كان أول المفكرين من قبائل المتوحشين ساذجا صريح الطبع كالطفل مع قوة الرجل وعمقه ، كانت الطبيعة أمامه بلا اسم ، ولم يكن قد حصر ذلك الكون العديم النهاية وما به من شتى المناظر والأصوات والأشكال والحركات العديمة العدد فى اسم مركب من ثلاثة أحرف كما فعلنا نحن حينما سميناه « كونا » و « طبيعة » وما شاكل ذلك . فطوينا جلاله العظيم فى أثناء لفظ حقير . ولكن الرجل المتوحش كان كل شىء جديدا فى نظره ، لم تخفه عنه حجب الأسماء والألقاب ، عاريا أمامه ساطعا لعينيه مشرق الرونق سافر الحسن وضاء الجمال يحار فى كنهه الوهم ويعجز عن وصفه اللسان . فتأثير جلال الكون فى نفس ذلك الانسان القديم المتوحش (المفكر) كتأثيره فى نفس الشاعر أو الفيلسوف أو النبى فى العصور الأخرى .

نعم ، أيها الاخوان ، ان للكون لو تدبر الانسان واعتبر لموقعا فى النفس أى موقع ، وروعة فى القلب أى روعة . تلكم الأرض الخضراء مبسوطها وحالقها ، وما يهتز عليها من ملتف النبات ومعشوشب الروض ، وتلكم الجبال الراسيات ، والأنهار الجاريات ، والبحار ذات الجرجرة والضجيج ، والجلجلة والعجيج ، وقبة الفلك الزرقاء تعزف فى أجوائها كل عصافة هوجاء تحدو من السحب كل دجنة وطفاء ، آنا تسح بالديمة المدرار ، وآونة بدفع الحريق وصواعق النار .. ما هذا أيها الاخوان ؟ بلى ما هذه ؟ أما ظاهرها فقد عرف العالم

عنه شيئا ، وأما الباطن فلا وربكم ما عرف ولن يعرف.

هــذا سر عميق لا ينفع معه علم عالم ولا تجربة كيماوى ، انما أولى بالمرء فى مثل هــذا المقام الاذعان والخشوع ، وللجهل هنا أفيد من العلم ، وما يستفيده المتوحش الجاهل من جمال الطبيعة بشعوره لأكثر مما يكتسبه المتمدين العالم بمنظاره وكيمائه . ماذا صــنع العلماء فى أسرار الــكون الا أنهم زادوها خفاء واكتتاما بالباسها براقع من الأسماء والاصطلاحات ؟ هم يسمون البرق كهرباء ، ويلقون الدروس والمحاضرات فى ذلك ثم يولدون مثال هذا البرق من الزجاج والحرير.. ولكن ما هو ذلك البرق ؟ وما الذى أحدثه ؟ ومن أين جاء ؟ وايان يذهب؟ لا أكذب الله ، قد أظهر العلم أشياء كثيرة ولــكن بئس ذلك العلم الذى يريد أن يحجب عنا جلال ذلك الــكون الرائع الذى يتضاءل العلم فى حضرته ويذل لعزته وعظمته ويطفو على جوه الهائل كريشة فى مهب الريح ، والحق يقال يا اخوانى ان هــذا الــكون على الرغم من العلم ودعواه لايزال عجيبة العجائب ومعجزة المعجزات .

بل كفى بالزمن معجزة ــ بذلك الشىء الفائق العــد والحصر، الدائم الــكر والمر، المستمر الصمت والسكون، دائبا يجرى ويتدفق متعجلا ساكتا كتيار البحر الزاخر حيث نطفو فوقه ، وسائر الــكون كخيالات تظهر ثم تغيب ، وأنفاس لا تكاد تصدر حتى تبيد .

أما كفانا بذلك معجزة ؟ أليس ذلك جديرا أن يلجم ألسنتنا فلا ننطق ؟ وبماذا ننطق ؟ بالله .. هذا الــكون الهائل ماذا كان يستطيع المتوحش القديم أن يفهم منه؟ وماذا عسانا نحن نفهم منه ؟ أليس أقصى ما نستطيع

ان نعلم عنه أنه قوة مركبة من ألف ألف قوة ، وانه شيء ونحن شيء آخر؟ هذا كل ما يمكننا معرفته. الكون شيء ونحن شيء غيره .. قوة فى قوة فى قوة ، فحيثما القيت البصر قوة ، ونحن بين هذه القوى المختلفة قوة مجهولة خفية ، وليست ورقة ملقاة على ظهر الطريق تعفن بعد الذبول الا وفيها قوة ، والا فكيف كان يتأتى لها أن تعفن ؟

ولعمرى ماذا يقول الملحد المفكر (ولا اخال الالحاد والتفكير يجتمعان) فى هذه القوى الفعالة الدائبة المحدقة بنا لا تكل ولا تنى ولا تفتر ولا أول لها ولا آخر ولا مبدأ ولا نهاية ؟ ماذا يقول فيها الا انها معجزة رائعة ، وقد يتساءل عنها المؤمنون فيقول أحدهم لأخيه : هى صنع الخالق ! ثم يجىء العلم بمنظاره وآلاته فيجعل يقلبها ويديرها كأنما هى جثة ميتة توضع فى الزجاجات وتباع فى الحوانيت . ولكن العقل الانسانى السليم الفطرة ما زال يرى فى هذا الكون شيئا حيا ــ شيئا يحار فيه الذهن ، الهى المرجع ، أولى الأشياء بنا ازاءه ــ مهما بلغ علمنا ــ أن نحنى الرأس له اجلالا ، وننكس البصر خشية ومهابة ، ونعبد ان لم يكن بالمنطق فبالصمت !

وكذلك كان شأن الانسان القديم المتوحش ازاء هذا الكون الباهر . فقد كانت عين فؤاده ثاقبة الرؤية جلية الانسان لم تغشها حجب الكفريات ولم تتراكم أمامها سحب الاصطلاحات والعلميات ، فكان الكون فى نظره الهى بالنسبة ، بل هو الاله ذاته . أما تنظر الى ذاك المتوحش الغابر اذ يعسف البيد والفلوات قد ضل السبيل ، فاذا الكوكب الوقاد قد طلع له كأنه ماسة

تلتهب بلألاء ابهر مما يرى أهل هذه العصور ، فيضيء فؤاد ذلك الضال كما يضيء له السبيل ، ويشرق فى نواحى نفسه كما يشرق فى نواحى الأفق وكأنه مقلة فى وجه السماء تنظر اليه من أعماق الأبدية وتشف له عن رونق السر القديم ونور اليقين . الا تفهمون بعد ذلك كله كيف كان المتوحشون يعبدون النجم ويصيرون من نسميهم : عباد الكواكب ؟

هذا هو ما اراه سر ألوثنية . اعنى افراط العجب والاندهاش من الشيء حتى يصير تقديسا وعبادة . وكذلك كان كل شيء فى نظر أولئك الأقدمين رمزا الى شيء الهى او الى اله .

وهل ينكر أن فى فعل الأقدمين هذا عنصرا من الحق؟ أفلو دققنا النظر له ، أما كنا نبصره فى كل نجم بل فى كل زهرة الها ظاهرا ؟ نحن لا نعبد الله الآن على هذا النحو ولكن ، الا يزال من مزايا الشاعر والدلائل على شاعريته انه يرى فى كل مخلوق جمالا الهيا .. وان كل شيء صاغته يد الله انما هو نافذة يشرف منها على أعماق الأبد ؟

نحن نسمي من كان له قدرة على استجلاء غوامض الجمال فى كائنات الله شاعرا ومصورا ونابغة وعبقريا .. فهل كان القدماء المتوحشون الا كذلك ؟ ألم يكونوا والشعراء سواء فى تعرف بدائع الخليقة ؟ وان لم ينطقوا بالقصيد ، أليس عملهم هذا أحسن على كل حال من عمل الرجل الجامد البليد ومن عمل الحصان والجمل ، وما أدراك ما عملهم ؟ هو لا شيء !

واذا كان كل ما نراه هو رمزا من رموز الخالق ، اذن فأكبر رموز الخالق وأعظمها هو الانسان . ان جوهر

النفس الانسانية وذلك السر الكائن فينا الذى يسمى نفسه «أنا» ـ وا خجلاه ما أجرأنا على صياغة الألفاظ لمعان تضمحل فى سعتها الآفاق ـ هذه النفس هى نفس من الله ، وكذلك الانسان هو مظهر الخالق فى الأرض . أليس هذا الجسم وهذه الحياة البشرية لباسا لذلك السر المجهول الذى نسميه الله ؟

قال الصالح « نوفيلا » : ليس فى طول الكون وعرضه الا معبد واحد وهذا هو جسم الانسان . وحقا لاشىء أقدس من هذه الذات الشريفة ، وما الركوع بين أيدى الرجال الا خشوع للذات الالهية بادية فى صورة الانسان ، فاما لمست جسم انسان فقد وضعت يدك على عرش الله ! وهذا الكلام حق لو تدبرتموه بالفكر الثاقب . كيف لا ونحن المعجزة الكبرى وسر الله الذى لاينال ـ ولا طاقة لنا بفهمه ، ولا ندرى كيف نتكلم فيه ، بيد انه قد يمكننا أن نعلم ذلك عنه ان شئنا ، وحسبنا بذلك وكفى .

هذه حقائق كان الأقدمون أسرع الى ادراكها منا نحن . نعم ، ان الأقدمين أولئك الذين كانوا يجمعون الى صفاء أنفس الأطفال عمق أرواح الرجال الذين لم يحسبوا أنهم قتلوا الأرض والسماء دراية وعرفوا كل شىء بمجرد وضع الأسماء والاصطلاحات ، ولكنهم كانوا بدلا من اللغو واللغط فى شأن الكائنات ينظرون اليها وجها لوجه والروع والاجلال حشو قلوبهم . أولئك كانوا أفهم لآيات الله فى كونه ، وأدرك لسر الله فى عبيده . هم كانوا يعرفون ـ ولا بأس فى عقولهم ـ كيف يعبدون الطبيعة ، واحسن من ذلك عرفانهم كيف يعبدون الانسان . واعنى بالعبادة كما قدمت : الافراط فى العجب والاجلال

الى ما لانهاية له ، وذلك ما كان فى طاقتهم اتيانه من سويداوات أفئدتهم وعقولهم كأوفر ما يكون وارجح .

وظنى أن عبادة الأبطال قد كانت أشرف أركان الوثنية وأكرم عناصرها ، وان مذهب الوثنية الذى شبهته بغابة ملتفة قد نبتت من عدة جذور . فكل اجلال لكوكب من الكواكب أو شيء من الكائنات كان كأنه أحد جذور تلك الغابة، ولكن أجلال الأبطال هو أذهب تلك الجذور فى الثرى ، وأغزرها مادة ، وأعودها على سائر الجذور بالغذاء الطيب .

واذا كانت عبادة النجم لم تخل من حكمة فما بالك بعبادة البطل ! وعبادة البطل هى ، كما قلت ، الافراط فى اجلاله افراطا لا حد له . ولا أحسب الا أن الأبطال ما برحوا موضع اجلال الناس حتى فى هذه العصور ، وانه لم يجل فى صدر الانسان معنى أشرف من اجلاله لمن هو اعظم قدرا منه . ولست بمخطيء ان قلت ان هذا المعنى هو الأثر الفعال فى حياة الانسان ، أو قلت انه الأساس الذى يقوم عليه الدين . لا أقصد الوثنية وحدها ، بل كل دين أشرف وأصدق — كل دين كان الى وقتنا هذا ، وهل ترون معشر الاخوان فى ديننا النصرانية ألا أنها عبادة واعجاب من صميم اللب وضراعة وخشوع لذات انسانية علية الهية هى ذات أشرف الأبطال قاطبة .. ذات من لا أسميه هنا ! بل أدع الصمت المقدس يتدبر ذلك الأمر المقدس .

واذا انحدرنا من قمة الدين الى منازل أحط وأدنى ، وجدنا فى جميعها من احترام الوضيع للشريف وولاء الحقير للجليل ما يماثل الايمان فى الدين . اذ الايمان انما هو الولاء لنبى أو بطل مقدس . وماذا ترى ولاء

الصغير للكبير الذى روح المجتمع الا فرعا من عبادة الأبطال ؟

فعبادة الأبطال اذن هى أساس المجتمع والرتب والدرج الذى يقوم عليه التعاشر والتواصل . هى ما يجوز أن نسميه « هيروارکی » أى حكومة الأبطال . فأهل الدرج والرتب فى الأمة هم لها بمثابة الأوراق المالية ، كلها يمثل الذهب وان كان الكثير منها لسوء الحظ مزورا . فقد نحتمل الأوراق المالية ونعيش بها وان وجد بينها المزور ، فأما أن تكون كلها مزورة فذلك ما لايقام عليه ولا يحتمل ، اذن تثور الفتن وتقوم الثائرات ويصاح بالديموقراطية والحرية والمساواة وغيرها .. اذ متى وجد الناس الأوراق كلها مزورة ، لاينال بها من الذهب كثير ولا قليل أخذهم اليأس فأقبلوا يصيحون : لا ذهب ولم يكن قط ذهب . والحقيقة ان الذهب ـ واعنى به عبادة البطل ـ موجود برغم كل شىء فى كل آن وكل بقعة ، ولن يفنى حتى يفنى الانسان .

فشا فى هذا العصر رأى باطل هو انكار وجود الأبطال، بل كراهة وجود الأبطال . أذكر لمعشر النقاد بطلا ـ الامام « لوثر » مثلا فاذا هم قد انبروا ينتقدونه ـ لايأخذون فى اجلاله بل فى أخذ مقاسه ، ويسفر المقاس عنه رجلا عاديا ضعيفا ضئيلا ! ثم يقولون ان ما ينسب اليه من العظمة هو مستعار من أحوال عصره وظروف وقته . فالوقت هو الذى أحدثه وشهره ، هو ابن الوقت وكل ماجرى على يديه هو من فعل الوقت لا فعله ـ هذا والله افن وسخف . أيقول النقاد ان الوقت هو الذى أحدث ذلكم الرجل ؟ وا أسفاه ! لقد طالما صاحت الأوقات تنادى أين البطل ولا بطل ، أين العظيم

ولا عظيم ، تصرخ الأوقات يا للفتى فيـــذهب نداؤها صيحة فى واد ونفخة فى رماد . وما ذاك الا أن البطل أو الفتى لم يكن وقت النداء موجودا ولم يكن الله قد أرسله رحمة للعالم ، وبعد أن يبح صـوت الوقت ولا مجيب تنهار أركانه وينهدم بنيانه ويعمه الخراب والتلف لأن البطل لم يدركه حينما صاح يستنجده !

والحقيقة انه ما كان عصر من العصور ليخرب ويتلف لو قد أتيح له رجل كبير يجمع بين العقل والتقوى — بين عقل يعرف به حاجة العصر وعزم يمضى به فى ابلاغ العصر حاجته ، وفى هـذين صـلاح العصر وفلاحه . ولـكنى أشبه العصور الضعيفة الواهنة ، المصابة بالكفر والبلاء والحيرة ، وأذهانها الشاكة العاجزة ، وأحوالها المختلطة المضطربة ، يحدو بها سائق الشقاء الى غاية التلف — أشبه كل هـذا بحطب يابس ميت ينتظر من السماء شهابا يشعله . وما الرجل العظيم ، مرسلا من قوس الله ، يجيش فى صـدره العزم ويغلى فى عروقه البأس ، الا ذلـكم الشهاب .. وما كلمته الا شفاء الغلة والتئام الجرح ومجمع الأهواء ومستقر العقـائد ، ثم لا يصيب الحطب حتى يلتهب من كل جانب نارا كناره.

ولـكن المنتقد يحسب أن الحطب هو الذى أوجـد ذلك الشهاب . نحن لا ننكر أن الحطب كان فى شـدة الحاجة الي الشهاب ، فأما انه أوجد الشهاب ! بالله من سخافة أولئك النقاد وحمقهم . اما انه ليس أدل على حطة امرىء ولؤمه من عدم ايمانه بالعظماء ، ليس ادل على خسة جيل من الأجيال وضعته ، من عماه عن نور الله المقدس ، وايمانه بالحطب اليابس الميت . هذا والله أقصى منتهى الـكفر ، اذ ان الرجل العظيم مابرح

فى كل آن مستنقذ جيله من وهدة البؤس ، والشهاب الذى لولاه ماشبت النار فى الحطب. وليس تاريخ العالم الا كما قلت : مجموع سير أبطاله .

أولئك النقاد الأصاغر يبذلون الجهد فى ترويج سوق الكفر ونشر أعلام الضلال ولكنهم لايفلحون . اذ ما زال يظهر الرجل العظيم من آن الى آن ، فيرمى بحقه باطلهم فاذا هو زاهق ، واذا هم قد ظلوا من مذاهبهم فى مثل بيت العنكبوت أو أوهى ، ثم لن يستطيعوا مهما حاولوا أن يقتلعوا من قلوب الناس عقيدة هى ان اجلال العظماء فطرية فى طبيعة الانسان لا تزول مهما اعتورها من الفساد والوهن ، واجلال العظماء باق ما بقى الانسان .

فالكاتب جونسون له من صديقه بوزويل أضرع مقدس ومجل ، رغم انهما كانا فى القرن الثامن عشرأشد العصوركفرا وفجورا . والأمة الفرنسية الكافرة تؤمن بفولتيرها ، وتظهر عبادتها الأبطال فى أغرب صورة حينما أمطروه بالأزهار حتى كاد يغرق بينهما ويختنق بها . فحقا اذا كانت النصرانية اعلى أنواع تقديس البطل ، فان الفولتيرية من أسفل انواعه ! فما أعجب أن يقع ذلك التقديس وتلك العبادة لرجل كانت حياته نقيض حياة المسيح ، وكان شيطانا مريدا ؟ هذا مع ان أبعد الناس من فضيلة التقديس والاجلال هم فرنسيو هذا الجيل .

وما ظنك بقوم كان الاستهزاء بكل شىء مذهبهم وشعارهم ، فليس فى نفوسهم موضع للاجلال والاكبار ومع هذا فانظروا كيف كان صنيعهم بفولتير . يدخل فولتير باريس عائدا من رحلة طويلة شيخا فانيا متهدما

قد جاوز الرابعة والثمانين فيحسون انه نوع من الأبطال أمضى حياته فى محاربة الضلال والظلم وكشف أمور المنافقين من ارباب المناصب ــ انه بالاختصار ممن جاهد جهاد الأبطال وان لم يسلك فى ذلك الا خطة غريبة. نعم ، انهم يحسون انه اذا كان الاستهزاء هو اكبر الأمور ، ففولتير اذن هو اكبر الناس ــ هو الامام الأعظم الذى يقتفون اثره ويتطلبون منزلته . فهو فى الحقيقة الههم الذى لا يصلح الا لهم ولا يصلحون الا له ، ولذلك عبدته فرنسا من الملكة مارى انطوانيت الى الحارس الذى على باب « سانت دينيس » ، بل لقد جعل الرجال من اولى المنزلة والجاه يتنكرون فى ازياء خدم الفنادق لتسهل لهم رؤيته ، ويصيح الحوذى بفرسه : اسعدى أيتها الفرس فانك تسيرين بالمسيو فولتير . وقد شبه احد كتابهم تلك المركبة تخترق باريس براس مذنب (نجم ذى ذيل) قد ملأ جميع الطرقات ذيله ، ثم كانت السيدات يتسابقن لأخذ شعرة من فروته لتبقى لمن تفوز بها أثرا طاهرا وذخرا ثمينا ، ولم يكن بين سكان فرنسا من شريف أو فاضل او جميل الا كان يعتقد أن فولتير أشرف وأفضل واجمل .

أجل ، ان البطل ما زال معبودا منذ « اودين » الى « جونسون » ومن المسيح الى احقر قسيس فى كل مكان وزمان ، وسيكون ذلك ما دام الليل والنهار . لأننا مامنا الا من يعشق الأبطال ــ يعشقهم ويجلهم وينحنى اكبارا لهم . وهل ينبغى الانحناء لغيرهم ؟ بل الا يحس المرء ان فى اجلاله لمن هو أرفع منه رفعة لنفسه ؟ وهل جال فى صدر المرء احساس هو أشرف من ذلك وأقدس ؟

وانه ليسرني ويشفي نفسي انه ليس في طاقة السفسطة والاستهزاء والفجور والجحود ان تذهب من نفس الانسان تلك الغريزة الفطرية ـ عبادة الأبطال . هذا وان أجيال الكفر التي تعقبها الفتن والثورات تكون مملوءة بدلائل الاضمحلال والبلى والخراب ، واني لأرى في غريزة عبادة الأبطال الصخرة الراسخة التي تتلقى الدول الساقطة في مهاويها فتمنعها من الضياع في أعماق الخراب، فاذا انتهت الدولة المتدهورة الى تلك الصخرة وقفت بها ريثما تهيىء نفسها للنهوض ثم تشرع ترتقى وتصعد حتى تعود الى أحسن مما كانت عليه .. وهكذا يظهر لي ان عبادة الانسان للبطل هي الصخرة الحية وسط كل سقوط وتدهور ـ هي النقطة الوحيدة الثابتة في التاريخ الثوري الحديث والا كان هذا التاريخ كالبحر لا يعرف عمقه قرارا ، ولا تعرف سعته شاطئا .

كذلك أجد ان الوثنية روحها الحق وان كان لها ظاهر مشوه . كيف لا والطبيعة ما زالت مظهر صنع الله ، وما زال البطل يعبد . ومن هذا وذاك تألفت الوثنية وان اتخذت من الأشكال والأوضاع الحقير والمنكر، وظني ان وثنية قدماء النرويج أمتع لنا من كل ما عداها لأنها (أولا) آخر الوثنيات عهداً ، اذ بقيت مستمرة حتى القرن الحادي عشر ، فمنذ ثمانمائة عام كان أهل الاسكانديفيا يعبدون « أودين » . ثم هي هامة لنا من حيث انها ديانة آبائنا ، أولئك الذين ما برحت دماؤهم جارية في عروقنا ، والذين نشبههم في عدة وجوه . فعجبا أيها الاخوان ان يكون بين معتقدهم ومعتقدنا ذلك الخلاف .

« وبعد » فلنلق نظرة في عقائد أولئك القوم لجملة

أسباب ، ولنعلم ان ذلك من الممكن ثم من السهل ، لأن تاريخ هذه العقائد قد قدر له الحظ ، فسلم على تقلبات الدهور وغوائل الحدثان .

* * *

فى تلك الجزيرة العجيبة المسماة « ايسلاندة » التى يخبر علماء الأرض انه استثارها زلزال نارى من قعر البحر — وهى بقعة موحشة بباب جرداء يشوب أديمها تراب البراكين ومن خواصها أنها تبقى بضعة من اشهر العام مطوية فى أجواف العواصف السوداء الا أن لها مع ذلك فى فصل الصيف لألاء جمال موحش قفر — وهى وسط العباب الخضم تسمو صعدا مكفهرة الجبين جهمة الطلعة ، تبدو بها لمع الثلج كتفاريق الشيب فى الهامة الشمطاء ، وتفور فيها الينابيع الحارة حتى تئز مراجلها وتهدر (شقاشقها) الى غدران من سائل الكبريت وكهوف بركانية مظلمة فكأنما الجزيرة آثار معترك لمتكافح جيوش الجليد والنار — فى هذه الجزيرة ، وهى أبعد مايرجى أن يكون به تاريخ مرقوم ، عثر العاثرون على تاريخ الوثنية التى نحن بصددها .

وعلى شاطىء هذه الجزيرة القفر مستدق من تربة معشبة قد تعيش فيها الأنعام والانسان من خير هاتيك النعم ومما يجود به اليم ، وكأنما كان ناس هذه البقعة المخصبة قوما شعراء ، أعنى ذوى صدور جياشة بالمعانى ، وألسنة بها ناطقة ، فكلما تأملت علمت انه كان يفوتنا شىء كثير لو لم تبعث البراكين تلك الجزيرة من قعر المحيط ، فلم يعمرها طوائف الأسكانديناف ! اذ الحقيقة ان معظم شعراء الشمال القدماء كانوا من أهالى « ايسلاندة » .

وكان بالجزيرة فى أوائل أمر المسيحية قسيس نصراني يدعى « سيمند » لعله كان لايزال ينزع به عرق الى دين آبائه « الوثنية » فأخذ يجمع عددا من اغانيهم القديمة ـ مما قد طال عليه القدم فأمسى حوشيا مهجورا ـ وكان توحيديا صوفيا عليه مسحة دينية . وهذه المجموعة هى ما يسميه أدباء الشمال الـ «الالدار» أو الـ « ادا » الشعرية ، وهي كلمة مشكوك فى اشتقاقها لعل المراد بها « السلف » . وبعد قرن من ذلك جاء رجل من سادة الجزيرة يدعى « سنورو سترلسون » وكان قد تلقى العلم من حفيد القسيس « سيمند » فكتب فيما كتب تاريخا حافلا لعقائد الوثنية وجعله نثرا مفصلا بشذور من النظم ، فجاء كتابا بديعا مونقا بريئا من كل أثر للتعمل والكلفة ، وهو ما نسميه « عفو الخاطر » . وهذا الكتاب هو المسمى بال « ادا النثرية » .

فبفضل هذين المؤلفين وشتى أغانى غيرهما ، جلها « ايسلندى » ، وبفضل ماكتب عن جميعها من الشروح والحواشي بين « ايسلندى » وغير ايسلندى مما هو للآن مستمر فى البلاد الشمالية ، قد نستطيع أن نعرف بعض اليقين ونبصر تلك الوثنية وجها لوجه . ولنتناس قبل كل شيء انها دين باطل ، بل نتأملها على انها فكر قديم ، ثم ننظر اما يمكننا ان نعتذر لها ونرتاح اليها شيئا ما ؟

ان أول خواص هذه الوثنية فى رايى هو الايمان الصريح بأن القوى الكونية هى أرواح كبيرة مدهشة رائعة مقدسة . فتلك الأشياء التى تلقى فيها الآن علوم الطبيعة والفلك والكيمياء كان هؤلاء القدماء يندهشون

لرؤيتها ، ويركعون لها اجلالا ومهابة . أعنى ان مانراه نحن العلم كانوا يرونه هم دينهم وعبادتهم ، كانوا يصورون من القوى الكونية الضارة المخوفة جانا ومردة «جوتان» مخاليق جساما شعثا غبرا شنع الصور ، لهم طبائع الشياطين والأبالسة ، والجليد والنار وزوبعة البحر من هذه الجان والمردة ، اما القوى النافعة كحرارة الشمس والشمس فهى آلهة . وبين هذين الفريقين تنقسم دولة الكون ، وهما يعيشان منفردين كل فريق فى جهة ، ثم لا تخمد قط بينهما ثائرة الحرب . ويسكن الآلهة الجنة « اسجارد » فى السموات ، ويقطن المردة فى بقعة قصية مظلمة خراب اسمها دار المردة « جوتنهيم » .

عجب كل هذا ، أنا لا أراه باطلا ولا خرافيا . وكل من أصاب بالنظر الثاقب لبابه وسره ، وسبر بمسبار الفحص عمقه وغوره ، كان رأيه فيه رايى . فقوة النار التى نخفى نحن ما بها من آية العجب فى طى اسم كيماوى نجعله حجابا لروعة هولها ، كان القدماء يرونها عفريتا سريع الحركة خفى المدب من قبيلة المردة «جوتان» . وكذلك حسب قبائل المتوحشين من جزائر « لادرون » (هكذا ذكر أحد رحالة الأسبان) النار ، وكانوا لم يروها قط من قبل ، نوعا من الشياطين أو ضربا من الآلهة يعضك اذا مسته ويعيش بأكل الخشب. وكذلك ارى أنه ما كان فى قدرة أى كيمياء قط أن تخفى عنا ما بالنار من عجب لولا ما يعيننها من الحمق والغباوة — ما هى النار ؟ — أما الجليد فقد رآه كاهنهم القديم شيطانا فظيعا أشيب الرأس واللحية وسائر الشعر — المارد « هيرم » أو « رايم » وهى كلمة بطل استعمالها الا فى بعض أودية «سكوتلاندة» . وهكذا لم يكن الجليد عندهم

كما نراه الآن شيئا ميتا ولكنه شيطان حى تراه اذ أظلم الليل يسوق افراسه البلق الى كهف حيث يقبل عليهن بمشط شعورهن — وهذه الأفراس البلق هى سحب البرد ورياح الجليد ، أما بقره فهى جلاميد الثلج . ثم ان هذا الشيطان يضرب تلك الجلاميد بعين عفريت فتنفطر وتتصدع .

ولم يكن الرعد فى تلك الأوقات مجرد كهرباء وانما كان الاله «دونار» — « ثاندار » (١) اله الرعد ، وهو أيضا اله حرارة الشمس ذات الخير والبركة ، وانما زمجرة الرعد هى غضبه وسخطه، وما احتشاد السحاب السود وازدحامها الا تقطيب جبين ذلك الاله وكسر حاجبيه ، وما الصاعقة تنقض من السماء الا السنان اللامع يطير من كفه ، ثم هو يدفع عجلته الصخبة فوق قلل الجبال فدويها وقعقعتها هو جلجلة الرعد ، وتراه من غضبه ينفخ فى لحيته الصهباء فذلك حفيف الريح قبل الارعاد . و « بولدار » الاله الأبيض الجميل العادل المنعم (الذى وجد المبشرون الاوائل أنه أشبه شىء بالمسيح) هو اله الشمس — أجمل الأشياء الظاهرة — واحدى العجائب والأسرار رغما من جميع الفلكيين وعلم الفلك ! ولكن أعظم الآلهة فى ظنى هو ذلك الذى عثر على اثره العالم الاشتقاقى الألمانى « جريم » وهو الاله « ونش » أو « وش » (٢) اله الطلب الذى يعطينا كل ما نطلب ! أليس ذلك أخلص دعاء النفس الانسانية واعمق أصوات الروح وان لم تكن بعد دعاء مهذبا وصوتا منقحا . هذا أبسط آراء الانسان وهو مع ذلك

(١) كلمة انجليزية معناها « الرعد » .
(٢) كلمة انجليزية معناها « طلب » .

عنصر جوهرى فى احدث مذاهب الدين .

واذكر من باقى الآلهة « آجير » اله الزوبعة ، وذلك لأن النوتية بنهر « ترنت » (١) مابرحوا للآن متى أبصروا الماء قد طما فى حالة المد (وهى حالة خطرة) صاحوا : « حذرا فان آجير قادم » .. عجبا لهذا اللفظ قد بقى بعد زوال تلك القرون ، كأن دنيا طغى عليها الماء ففرقت فى عبابه الا ذؤابة قمة ما برحت لأبصارنا بادية ! وقد كان أسلاف هؤلاء النوتية فى العصور الغابرة يؤمنون بالاله آجير ، وما ذلك الا لأن تلك القبائل الشمالية البائدة قد نزلت ببلادنا قديما وضربت فى انسابنا ، فدمنا مريج من السكسوني والدانيماركي الشمالى ، ولا أرى بين أحد هذه الثلاثة والآخرين الا فرقا سطحيا مثل ما أرى بين النصرانى والمسلم والوثنى .

وعن الههم الأكبر أودين سنتكلم قريبا ان شاء الله ، ولكن اعرفوا قبل ذلك ماذا كان جوهر الوثنية الاسكندنافية او الشمالية : هو الايمان بقوى الكون واعتبارها الهية رائعة شخصية — أعنى آلهة وأبالسة . ولعله قول معقول ومفهوم . كذلك كان الفكر الانسانى فى طفولته يتفتح لرؤية الكون الهائل تفتحا مشفوعا بالعجب والهيبة . وقد أرى فى هذا النظام الوثنى معنى حرا جزلا شريفا ، وسذاجة قوية لم تهذب جد تهذيب مخالفة لرشاقة الوثنية اليونانية وخفتها . والحق يقال ان مذهب الوثنية الشمالية ما هو الا فكر صريح قوى من الفكر العميق الحر ، يتفتح فى قلوب صحيحة حارة لرؤية الكائنات رؤية وجه لوجه وقلب لقلب ، وهو أول خصائص الفكر الصحيح فى كل آن . فلست ترى

(١) نهر بانجلترا .

لتلك الوثنية الشمالية ما كنت ترى الأختها اليونانية من الرقة واللعب ، انما تتبين فيها قوة ساذجة وحقا مألوفا واخلاصا جما كبيرا . وانه لمن الغريب أن نهبط من صرح الوثنية اليونانية البديع مصفوفةصوره ، منضودة دماه فى أبدع نظام وأجمل نسق ، الى بيوت الوثنية الشمالية تمرح فى أفنيتها آلهتها ، وتخمر النبيذ لتشربه مع « آجير » اله الزوبعة ، ثم يرسلون « ثورا » اله الرعد ليحضر المرجل من ديار الشياطين ، ويذهب « ثورا » الى تلك الديار وبعد الجهد الجهيد يأخذ المرجل فيلبسه على رأسه كقلنسوة وينقلب راجعا وقد غاب تحت المرجل وبلغ المرجل مواطىء قدميه ! وكذلك ترى لهذا النظام الوثنى ضخامة جوفاء وجسامة شوهاء ، وقوة هائلة الا انها لم تهذب ، فهى كطفل المارد كبير القدم فسيح الخطوة ، لكنها قدم عاثرة وخطوة طائشة ، فانظروا أصلحكم الله ماذا كان رأيهم فى خلق الدنيا .

لما تجاوب الجليد والنار حدثت ريح حارة تكون منها مارد اسمه « يمير » ثم احتال الآلهة حتى قتلوا ذلك المارد واخذوا جثته فجعلوها دنيا ، فأما دمه فذلك هو البحر ، واما لحمه فهو الأرض ، والصخور عظامه ، ثم جعلوا حاجبيه مسكنا لهم ، أعنى الجنة أو «اسجارد» ، وجعلوا جمجمته قبة السماء ، وما بها من دماغ فهو السحاب ، فهذه استعارة طرفها فى المشرق والآخر فى المغرب واصلها فى الأرض وفرعها فى السماء — آراء جسام ماردية هائلة ما زالت بها العصور تنهنه جبروتها وتذلل طغيانها وتحولها عن الطبيعة الماردية الى الصفة الالهية ، والثانية اقوى ولاريب من الأولى — ما زالت بها العصور حتى حولتها الى أفكار شكسبيرية ومعان

لوثرية (١) فاولئك الوثنيون القدماء هم آباء أدياننا مثلما هم آباء أجسامنا .

ويعجبني منهم كذلك تشبيههم الحياة بشجرة جذرها في مملكة الموت ثم يسمو ساقها صعدا الى السماء فينشر ذوائب فروعه على جميع أنحاء الكون ، وهذه هي شجرة الوجود . ويجلس عند اصلها في مملكة الموت ثلاثة أقضية (جمع قضاء) الماضي والحاضر والمستقبل، يروون جذورها من البئر المقدسة ، ثم تمتد أفرعها وما يجرى بها من ايراق وازهار وأثمار وسقوط أوراق وأزهار وثمار — ويكني بهذه عن الحوادث والمحن وصروف الزمن وتقلبات الحال — تمتد أفرعها بكل هذه الأمور في جميع الأمكنة والأزمان . أليست كل ورقة من أوراق هذه الشجرة ترجمة انسان .. وكل خيط من خيوط تلك الورقة كلمة أو فعلة ؟ وأفرعها تواريخ الأمم ، ووسواسها صوت الحياة صادرا عن الأبد الى الأبد ، فاذا تنفس في خلالها النسيم فتلك زفرات القلب الانسانى ، وان صاحت بين أفنانها العاصفة فذاك صوت الآلهة . هذه شجرة الوجود — هى الماضى والحاضر والمستقبل — ما كان وما يكون وما سيكون — تصريف فعل « يكون » تصريفا لا نهاية له . فاذا تأملتم معشر الاخوان كيف ان جميع الأفعال البشرية تتسلسل وتتصل وليس واحد منها الا آخذا بعنق الآخر متداخلا فيه — وكيف ان الكلمة التي ألقيها عليك اليوم مستعارة من جميع العالم منذ جرت أول لفظة على لسان أول متكلم — اذا تأملتم كل ذلك رأيتم انه لا تشبيه قط أصدق من تشبيه الشجرة هذا : نعم ، ما أجمله وما

---

(١) نسبة الى لوثر رأس المذهب البرتستانتى .

أجله اذا قستموه باستعارة اهل هذا العصر التى تشبه الوجود بماكينة « ماكينة الوجود » . بل ارى تشبيه الاقدمين اشرف من ان يقاس بتشبيه المتاخرين وانبل! حقا أن مذهب أولئك الوثنيين الشماليين لعجيب مخالف لما نعتقده نحن فى الطبيعة ، فمن اين اتى ؟ من أفكار أولئك الشماليين ولا سيما من فكر أول رجل شمالى وهبه الله قوة الفكر — اول شمالى نابغة عبقرى كما ينبغى أن نسميه ! وكم قبل هذا الرجل قد عاش فى العالم من رجال غير ذوى فكر لم يك منهم ازاء هذا الكون الرائع الهائل الا العجب الابكم كالذى يحسه الحيوان ، أو العجب المشفوع بالسؤال والبحث المتعب الكاد بغير طائل كالذى يشعر به الانسان .. حتى اتى الرجل المفكر الكبير الرجل العبقرى الذى يوقظ فكره راقد الأفكار فى جميع الأذهان . وكذلك شأن المفكر او البطل الروحى . فان ما يقوله قد كان كامنا فى نفوس العامة وكانوا يحسونه ويتلهفون على أن ينطقوا به ولكن لا سبيل ، فما هو الا أن ينطق ذلك البطل حتى تثور جميع الأفكار من مكانها كأنما هبت من رقاد طويل ، فتجيب الدعوة أسرع اجابة ، فرحة به فرح السارى بالصباح . ولا غرو فانما هو خروج من العدم الى الوجود — من الموت الى الحياة — فياسقى الله عهد ذلك الرجل الكبير ، فانه جدير أن يسمى شاعرا وكبيراً وعبقريا وما شاكل ذلك ، وان حسبه اهل عصره ساحرا وصاحب معجزات ومسدى أياد وآلاء ونبيا والها ! والفكر متى انبعث فلن ينام بعد مبعثه أبدا ، بل يعود معدن أفكار تصدر عنه طائفة بعد طائفة ، ويزكو غرسه فى رجل بعد رجل وجيل بعد جيل حتى يبلغ كماله ، فاذا بلغه

لم يكن ثمة مجال للنماء وانما يقلع ذلك الفرس ويخلى مكانه لغيره .

ونحسب ان مثل هــذا الرجل كان موجودا فى امة الشمال وهو الذى كانوا يدعونه الاله اودين ـ وكان لهم أستاذا واماما فى أحوالهم الروحيــة والجسمانية ، وبطلا كبيرا لا تقدر قيمته ، أفرط اجلال الناس له حتى صار عبادة ، ولا جرم فانه أهل لذلك . أفما كان قد أوتى فضيلة النطق بالفكر الجليل وفضائل اخرى كانت اذ ذاك من المعجزات ؟ فما لهم لا يشكرون آلاءه من حبات قلوبهم ؟ اما فسر لهم لغز هذا الكون وعرفهم ماذا يجب عليهم فى هــــذه الدار وماذا ينتظرون فى الدار الآخرة وانطق الوجود وأحيا الحياة ! فهو منشــأ الوثنيــة الشمالية ، واكبر ظنى ان اودين هذا هو اول مفكر من امة الشمال كيفما كان اسمه. كان ولاشك رجلا يعيش بين الرجال وهو ما كاد ينشر رأيه فى الــكون حتى ثار فى جميع الأذهان مثل رأيه تماما ، فكأنما كان مكتوبا على صحائف الأذهان بالحبر المغطى، فما هو الا ان فاه بكلمته حتى انكشف غطاء الحبر فظهر واستبان . وكذلك ما زال قدوم الرجل المفكر على العــالم هو الحادثة الكبرى أم سائر الحوادث !

ثم لا ننسى شيئا آخر احسب ان فيه بعض البيان لمشكلات تاريخ الوثنيــة الشمالية الـ « ادا » ، وذلك انها ليست نظاما فكريا واحدا متماسكا ، ولكنها مجموعة نظامات شتى الأصول والأزمان ، ولن يعرف الناس قط تواريخ هذه النظامات وكيف تتقلب من صورة الى صورة مما أدخله عليها مفكر بعد مفكر الى ان لبست الهيئة التى نراها لها فى كتاب الـ « ادا » . كلا ، ولن يعرف

ما صنعه « أودين » نفسه . وماذا عسى أن يعرف من الانباء عن « أودين » بل انى يعرف عنه أنباء وكيف يكون له تاريخ ؟ وعجيب ان يكون اودين هذا بكسائه الوحشى ولحيته الوحشية ومقلته الوقادة الوحشية ولهجته الخشنة الشمالية بشرا مثلنا تناله احزاننا وأفراحنا ، ويمشى على مثل أرجلنا واقدامنا . عجيب أن يكون مثلنا حذوك القذة بالقذة ثم يكون قد اتى كل هاتيك المدهشات والغرائب ! ولكن هذه الغرائب قد بادت وباد الصانع الا اسمه : أودين ، اذ ان لفظة « ودنزداى » (١) أصلها « أودين زادىَ » ، ولعل فى هذه اللحظة أناسا ينطقون هذا اللفظ فليس يوجد لأودين تاريخ وليس فيما رجم فيه المرجمون مايستحق أن يذكر .

قد زعم المؤرخ « سونورو » زعما لم يخجل منه على وضوح سخافته بل شفعه بأمتن لهجات الثقة أوالقحة ، وذلك أن أودين كان أميرا وفارسا بطلا فى بقعة بقرب البحر الأسود ، له اثنا عشر تابعا كلهم سيد عشيرته ، ثم ان بلادهم ضاقت بهم فخفوا الى ناحية الشمال حيث نزلوا بعد أن فتحوا تلك الأقطار ، وان هذا الأمير أودين اخترع الحروف الأبجدية والشعر وغيرهما ، ثم آل به الأمر الى ان اتخذه أهل اسكاندينفيا الها معبوداً واعتبروا اتباعه الاثنى عشر أبناء له وآلهة كذلك . هذا مالايشك فيه المؤرخ « سونورو » ولكن المؤرخ « جراماتيكاس » وهو آخر من أهل الشمال أشد ثقة برأيه من «سونورو» لايصعب عليه ابدا ان يختلق لكل خرافة من خرافات القدماء اصلا وحقيقة ثم يدون ذلك كما لو كان حادثة

(١) انجليزية معناها يوم الاربعاء .

عادية وقعت ببلاد الدينمارك أو غيرها ، ويجىء المؤرخ « تورفوس » بعد هذين بقرون ، وهو يا للأسف عالم وعترس ، فيضع تاريخا لزمن أودين اذ يقول : ان أودين قدم أوربا عام سبعين قبل الميلاد .

وبما أن هذه الأقوال ظنون أساسها الشك ، قد كشف بطلانها الزمن ، فلا حاجة بى هنا الى تفنيدها ، بل حسبى أن اقول ان تاريخ أودين كان قبل عام ٧٠ بأدهار طويلة وازمان مديدة ! ولا ارى أودين وتاريخ وجوده ووقائعه وسائر تاريخه الا شيئا قد غاب عنا البتة وسط الالاف المؤلفة من غابر الأعوام .

ويجىء بعد ذلك المؤرخ «جريم» الألمانى فينكر وجود « ودين » بالمرة ، ويثبت قوله بعلم الاشتقاق فيقول : ان لفظة « فوتام » التى هى اصل كلمة « أودين » المجعولة علما على الاله الأكبر لدى جميع الشعوب التيوتونية فى كل مكان ــ هذه اللفظة التى تتصل حسبما زعم « جريم » باللفظة اللاتينية « فادير » واللفظة الانجليزية « ويد » الخ ــ معناها القديم « الحركة » و « القوة » ، فهى الاسم اللائق للاله الأكبر لا لمخلوق. قال جريم : وهذه الكلمة اسم لله عند قدماء السكسون والجرمان وسائر الأمم التيوتونية ، والنعوت المشتقة منها كلها فى معنى مقدس واكبر وما شاكل ــ حسن ، وايم الله ، ما قال المسيو «جريم» ثم لايسعنا الا الاذعان للسيد المذكور فى جميع المسائل الاشتقاقية ، فلنقر ولنقتنع بأن كلمة (فوتام) أو (أودين) يراد بها « الحركة » و « القوة » فما الذى يمنع أن تكون اسما لرجل بطل محرك كما انها اسم لاله ؟ فأما من حيث ان النعوت المشتقة منها كلها فى معنى مقدس واكبر ، اليس

قد اشتق الاسبانيون من اسم بطلهم الكبير « لوبى » حينما غلا بهم تقديسه لفظة « لوبى » نعتا لكل شيء افرط جماله حتى قالوا : بستان لوبى ، وورد لوبى ، وغادة لوبى . فلو أن ذلك استمر لأصبحت كلمة لوبى وهى نعت من نعوت الاسبانية معناه ملائكى الجمال أو الهى الجمال . ولقد قال آدم سميث فى مقالته على اللغة انه ما من نعت الا وكان فى الأصل اسما لشيء شارك الشيء الأصلى فى صفته ، فكلمة اخضر مثلا كانت فى الأصل اسما لشيء شديد الخضرة ثم ان الناس كلما ابصروا شيئا فيه خضرة ـ عشبا مثلا ـ قالوا عشب اخضر وما نزال تقول ساعة ذهبا وخاتما حديدا . فكل النعوت فى زعم «سميث» كان أصلها اسما واشياء . ولا يسعنا أن نعدم رجلا ونقضي عليه لمجرد مسائل اشتقاقية كهذه ! ولاشك فى أنه قد كان لأولئك القبائل القديمة رجل كان أول استاذ وقائد . وحقا لقد وجد فى وقت ما رجل هو « أودين » أو مثل « أودين » يبصر بالعين ويلمس باليدين وليس من النعوت ، بل يظل مصور من لحم ودم !

فأما كيفية صيرورة الرجل « أودين » الها ـ الاله الاكبر ـ فهذا ما لا احسب أن احدا يجب أن يتفلسف فيه . وقد قلت ان أهل عصره لم يعرفوا لاجلالهم اياه حدا ، بل لم يكن لديهم اذذاك ميزان يزنون به الاجلال. فان اردت أن تتصور اجلالهم ذاك فتوهم اجلالك لبطل من اكبر الأبطال وحبك اياه حبا من صميم الحشا لايزال ينمو ويزداد حتى يتجاوز كل مقدار ويفوت كل حد ، وحتى يمتليء به وعاء صدرك ويطفح . أو ربما كان ذاك الرجل « أودين » اذ منحه الله العقل الكبير وبعث فى

ذهنه نورا من لدنه وفجر فى نفسه ينبوعا من عنده أصبح يرى نفسه سرا من الأسرار ، ولغزا لا يحل ، وشيئا يوجب الرعب والدهش فى نفسه هو فحسب ، انه ربما كان الهى المنشأ ، اى شعبة من القوة الكبرى والذات العليات المسماة فوتان أودين (بمعنى القوة العظمى) انا لا احسب ان ذلك قد كان منه غشا أو تدليسا ، انما هى هفوة ، وهو أصدق ما لديه .

والحقيقة ان كل ذى نفس كبيرة صادقة لايعرف من ذا هو ـ فيخال نفسه طورا فى أعلى قمة وآنا فى أسفل حضيض ، ويظل ولا شىء أشكل عليه من أمر نفسه . ثم ترى ان رأى الناس فيه وظنه هو بنفسه يؤثر كل منهما فى الآخر مما يحدث نتيجة . فاذا أبصر الناس قد عكفوا عليه يقدسونه واحس هو فى فؤاده بحرارة وجدان شريف ووقدة شعور طاهر كبير وخليطا مشوشا من ظلمة حالكة ونور وهاج ، ثم نظر فاذا حواليه كون هائل يقطر من جميع انحائه ماء الجمال : هذا وقد علم انه لم يسبقه الى هذا المقام العلى انسان ـ خبرونى نشدتكم الله ، ماذا عساه يحسب نفسه ؟ كأنى به يناجى نفسه « انا قوة كبيرة » فاذا الناس اجمعون يجيبونه : « أجل قوة كبيرة ! » (فوتان) أو (أودين) !

ثم اذكروا ما لمجرد مر الدهور وتقادم العهد من التأثير العظيم فى مثل هذه الأمور ، وكيف ان الرجل الذى كان أثناء حياته عظيما تبلغ عظمته بعد الممات عشرة أمثالها ، وظلمة القدم من شأنها أن تجسم مايصير فيها . وكذلك اذا كان للشىء الهالك محبة فى الفؤاد واجلال استفحل فى الذاكرة وتجسم فى الخيال ، فما بالكم اذا كان العصر عصر ظلمات وجهل مطبق ، فلا

تاريخ ولا كتاب ولا رقعة ولا نقش فى حجر ، اللهم الا صخرة صماء على سبيل الأثر هنا وهناك . أجل ، والله انه لولا الكتب لأصبح كل رجل جليل بعد أن يمر على وفاته وفناء جيله أربعون عاما ضربا من أولئك الأبطال الذين تسمعون عنهم فى خرافات القدماء . فماذا يكون اذا مضت على وفاته ثلاثمائة او ثلاثة آلاف عام ! انه لا فائدة فى التفلسف فى مثل هذه الموضوعات فانها تأبى بطبيعتها البحث والاستقصاء . ولا مجال فيها لعلم المنطق والبرهان ، وحسبنا أن نلمح فى أقصى أعماق ذلك الدهر البائد وميض نور حقيقى يبرق فى جوف تلك الصورة المختلطة المعتمة — حسبنا انه لم يكن صميمها بزور ولا جنون وانما حق ومعقول .

ويزعم أن « أودين » اخترع حروف الهجاء وكان يأتى بها ضروبا من السحر . فهبوا ذلك صحيحا ، أفليس اختراع الحروف هو اكبر اختراع منذ أقدم الدهور الى وقتنا هذا ؟ وهل هناك شيء أكبر من ابراز كوامن الأفكار بعلائم ظاهرة ؟ اليس ذلك نطقا ثانيا لا يقل غرابة واعجازا عن الأول ؟ ثم الا تذكرون كيف كان اندهاش ملك « بيرو ، المسمى اتاهولبا » عندما رأى الحروف الهجائية وكيف صعب عليه أن يصدق بتلك المعجزة فأمر أحد حراسه من الجند الأسبانيين أن ينقش على ظفره لفظة « ديوص » ليمتحن بها الجندى الذى الى جانبه حتى يتحقق صدق هذه المعجزة ؟ فاذا كان اودين قد اوجد الحروف فى أمته فما باله لا يأتى بفنون من السحر ؟

ويحكى لنا المؤرخ « سونورو » ايضا أن « أودين » اخترع الشعر الذى هو موسيقى الكلام ، فتخيلوا —

اصلحكم الله — انفسكم فى هذه العصور ، عصور طفولة الامم — فى تبلج صباح الشعوب الأوربية اذ يشرق فى جميع الأنحاء لألاء جديد ندى ، واذ أوربا طفلة قد بدأت تفكر بل بدأت تكون ! فكل قلب به دهشة وكل نفس بها رجاء .. رجاء ودهشة يتوهجان فى جميع النفوس شعاعا جما ونورا عميقا ! أولئك كانوا ابنـاء الطبيعـة الأقوياء وكان لهم فى « أودين » فوق كونه قائدهم ، وفارس خيلهم ، شاعر ونبى ، ومفكر صادق كبير ومبدع ومخترع ، وكذلك سمة الرجل الجليل فى كل آن يكون بطلا من جميع جوانبه ، بطلا قبل كل شىء فى روحه وفكره ، وهكذا كان لذلك البطل المتوحش « أودين » بالنسبة الى أمته ، كان له قلب كبير قد فتح أبوابه فتلقى هذا الـكون الـكبير وتلقى الحياة الانسانية كما كانت حينذاك ثم قال كلمته فى هذه وذاك . فهو كما قلت بطل فى صورة وحشية اولية ولـكنه بطل عبقرى كريم النفس شريف الخلق . فاذا كنا نحن ابناء القرن التاسع عشر لا نزال نعجب بذلك الرجل ، فماذا كان اعجاب أولئك المتوحشين به ؟ حقا لقد كان عندهم بطلا بل نبيا بل الها ، أو بعبارتهم هم « فوتان » أى (أودين) ومعناها القوة الـكبرى . والفكر رعاكم الله فكر فى أى صـــورة بدا وعلى أى شكل ظهر ، حتى لأحسب ان (أودين) هذا هو من قبيل أكبر أبطال العالم . وحسبكم برهانا فكره الـكبير فى قلبه الوحشى العميق ! أفلا ترون فى كلماته الخشنة جذور ألفاظ انجليزية لا نزال نستعملها ؟ وما وجوده فى تلك العصور المظلمة بضمائره وهو نجمها اللامع وشهابها الساطع ...

فجدير بنا أن نرى فيه نموذج الرجـل الشمالى

واشرف بنى جلدته . ثم ما كاد يظهـر فى قومه حتى تفجرت قلوبهم له عن اخلص الولاء واصدق العبادة ، فهو الجذر الذى انبت أشياء جمة ولا تزال ثماره يانعة يرف رونقها فى جميع أرجاء الحياة التيوتونية ، حتى ان كثـيرا من أسماء بلادنا واسم يوم الأربعـاء كما ذكرت مشتق من لفظه (أودين) .. أفلا ترون بعد ذلك ان آثار الرجل قدجاوزت الى بلادنا ، وان أفرعا من فروعه قد امتدت الينا ومن ذلك الجذر ذياك الورق ؟

فاذا كان الرجل أودين قد باد وهلك ذكره فهذا ظله الواسع المـديد ما زال ينشر اعـلامه على تاريخ الأمم التيوتونية جميعها ، لأنه متى سلمنا ان اودين كان وقتا ما الها امكننا أن نفهم ان نظام افكار الأقدمين او عدم نظامهم أو بالاختصار كل ما كان لديهم قبل مجيء هذا الرجل قد اخذ بعد مجيئه وتعاليمه فى طريق آخر ، وليس هيئة جـديدة ، اذ جعل جميع الأمم التيوتونية ينقشون على ألواح ضمائرهم كل ما قال ذلك الرجـل وعلم بحروفه وشعره ، وأصبح مذهبه مذهبهم ، ورأيه رايهم ، وكذلك شأن الرجل الـكبير فى كل حين . أو ماترون فىالعقائد الاسكاندنافية التى يصعد ظلها الهائل من أعماق ظلمات الأعصر الخاليات فينتشر على الأفق الشمالى صورة الرجل (اودين) ؟ نعم ، الفكر فـكر كيفما كان ، وما كانت حياة الرجل العظيم لتكون قط عبثا ، وما تاريخ العالم الا مجموع سير أبطاله !

بيـد انى ارى فى صـورة ذلك التاريخ القديم شيئا مرققا للأفئدة ، وهو افراط أولئك القوم المتوحشين فى حب بطلهم وان شاب ذلك الحب سذاجة وعجز . نعم ، انه وان شابه منتهى العجز فلقد كان فى منتهى الوفاء

والشرف . وهو فوق ذلك وجدان قديم خلقه الله حين خلق الانسان ، وأما لو امكنني أن أفهمكم ما لم أزل اعتقده منذ زمن مديد من ان هـذا الوجدان هو عنصر الرجولة الحيوى وروح تاريخ الانسان في هذه الدنيا ، لـكان الـكم في ذلك غنية عن كل ما سوف ألقيه عليكم من هذه المحاضرات . نحن لا نعبد اعاظم رجالنا الآن . كلا ، ولا نفرط في اجلالهم بل نقتصـد — يا للأسف في اجلالنا لهم الأم اقتصاد ! فهذا وربكم شر ونكر، ولكن خلو العالم من العظماء أشر وانكر ، وأدهى وأمر .

وكذلك نرى في مذهب هؤلاء الوثنيين على علاته فضلا وقيمة ثمينة ، وهو وان لم يكن اليوم بحق فقد كان في يومه حقا . اليست كأنها صوت آبائنا الأول يصيح من أعماق القرون الغابرة يهيب بنـا نحن أبنـاءهم الذين لا تزال عروقنا تزخر بدمائهم يقول : « هذا رأينا في الدنيا . هذا كل ما استطعنا أن نصور به لأنفسنا سر هذه الحياة وهذا الكون ، فلا تحتقروا رعاكم الله رأينا ومبلغ جهدنا ، واجعلوا بدل احتقاركم لنـا شكرا لله الذي رفعكم فوقنا درجات فأصبحتم بحمده أكثر منـا اشرافا على كونه وأصح رؤية ، ولـكن لا تحسبوا أنكم بلغتم القمة ، فان رأيكم وان فضل رأينا لـكنه ما زال جزئيا ناقصا ، والأمر أعظم من أن تناله مدارك انسان لا أثناء الزمان ولا خارج الزمان ، وكأنى بالانسان بعد أن تمر عليه من هـذه اللحظة آلاف السنين بالرقى والنهوض لايزال يجد أن أقصى جهده هو الالمام بطرف من أطراف هذا الـكون . فان الأمر كما قلت أكبر من الانسان ، وليس في وسعه أن يفهمه . وكيف وهو شيء عديم النهاية .

الايمان بأن الكون شيء الهي مقدس ، ومناجاة المرء للقوى الخفية البادية آثارها فيما حوله من الكائنات ، هو عنصر خرافات الأسكاندناف وسائر الخرافات . ولعل الوثنية الاسكاندنافية اصدق فيهذا الأمر من جميع ماعداها ، اذ الاخلاص اكبر خواصها . وهذا الاخلاص هو عزاؤنا على خلو ذلك المذهب مما يزين وثنية اليونان من الرقة والتهذيب . فقد أحس أن هؤلاء الشماليين كانوا يتأملون الطبيعة بعين بصيرة وروح يقظى وقلوب صحيحة مخلصة جمعت بين معنيى الطفولة والرجولة ، الى سذاجة فى شرف احساس، وعمق فينشاط وصفاء ، واجلال فى شغف ، واخلاص فى شجاعة . فلله أولئك القوم ما كان أشجعهم وأصدقهم ، وكذلك ترى ان هذا الايمان بالطبيعة قد كان اكبر عناصر الوثنية ، فاما الايمان بعظمة الانسان وواجباته الالهية والأدبية ، وان لم يكن مفقودا من الوثنية ، فهو العنصر الأهم فى الأديان والأطهر والأصفى . كذلك ترى ان الانسان يذهب فى اول امره الى الطبيعة وقواها فيرتاع لها ويعبدها ، ثم يعرف انه لا قوة فى الحقيقة الا القوة الأدبية ، وان اهم الأمور هو تمييزه بين الخير والشر ، بين الفرض والمحرم ، الا بعد تصرم الدهور الطويلة .

اما من حيث الخرافات المذكورة فى كتابهم المسمى الـ « ادا » فهى كما ذكرت آنفا احدث عهدا من مدة « أودين » ، ولعلها لم تكن فى نظر أولئك الأقوام الا ضربا من اللهو والفكاهة . ولم تكن انجيلا لهم ولا توراة . اذ ان العقيدة كما قدمت لابد أن توجد أولا ، ثم تزدحم حولها الاقاصيص الشعرية التفاف الجسد بالروح . ولا احسب العقيدة الشمالية الا انها كانت قبل نظم الأشعار

حية فعالة فى نفوس أهلها وكذلك سائر العقائد تكون انشط وانمى كلما كانت اسكت واصمت .

ومما يرى فى كتابهم الـ « ادا » ذلك الكتاب المبهم المظلم يؤخذ ان رءوس العقائد لم تكن الا ما يأتى الايمان بالمنتخبين ، وهم الآلهة الموكلون بانتخاب من يقضى عليهم بالقتل فى ساحة الوغى وحومة الحرب ، ثم الايمان بالقضاء المحتوم وهو ان من قضى عليه أن يموت قتلا فلا مرد لذلك القضاء ولا مفر . ثم الاعتقاد بأن أول واجبات المرء هو أن يكون شجاعا ، أليست هذه الثلاثة هى أعظم أصول الشرائع العظمى .. شريعة لوثر وشريعة محمد ؟ بل ازيدكم وشريعة نابليون أيضا ، بل هى سنة الانسان أينما كان وكيفما كان ، وهى السلك الذى يؤلف نظام فكره أجمع ، والخيط الذى منه ينسج ثوب عقيدته . وهؤلاء المنتخبون يسوقون الشجعان الذين قضوا فى معترك القتال الى قاعة « أودين » ، أما الأرقة الأخساء والجبناء الأذلاء فينبذون فى ديار «هيلا» الهة الموت .

هذا هو فيما أراه روح الوثنية الشمالية جميعها ، فقد كان أولئك الأقوام يعتقدون أن الشجاعة راس كل شيء ، وانها على الحر الكريم فرض محتوم وضربة لازب ، وانهم يستوجبون سخط « أودين » ويستنزلون عقابه لهذا هم لم يشجعوا فى جميع المواطن . فانظروا بربكم ، أما ترون فى ذلك معنى عاليا كبيرا ؟ حقا انه لواجب أبدى وفرض سرمدى حتى اللحظة ، كما كان حقا فى تلك العصور ، ان يكون الانسان شجاعا ، ومازال أول واجبات المرء ان يقهر الخوف . وحقا انه ينبغى لنا ان نقطع دابر الخوف فانه لاسبيل الى العمل حتى

نصنع ذلك . فاذا لم يجعل المرء الخوف وراء ظهره وتحت قدمه كان خليقا أن تخبث نفسه ويفسد طبعه وتكون أعماله تقليدية لا استقلالية وأفكاره زورا وباطلا لصدورها عن نفس ذليل وقلب جبان .

ولذلك ارى أنه لو استخلص لباب المذهب الأوديني من قشوره لألفي حقا الى هذه الساعة . كيف لا وانما اول واجبات الانسان ان يكون كما قدمنا شجاعا ، وأن يمضي قدما في سننه ، ويكون رجلا في كل ما يحاول ويزاول ، ثم هو في جميع ذلك يؤمن بقضاء الله وقدره. وما زال ظفر المرء على الخوف وظهوره على الجبن هو ميزان فضله ومقياس رجولته في كل آن .

ولا شك في ان شجاعة أولئك الشماليين القدماء كانت وحشية جدا ، وقد روى المؤرخ « سونورو » أنهم كانوا يرون الموت في غير مواطن الحرب عارا وسبة .

تسيل على حد الظباة نفوسنا
وليست على غير الظباة تسيل
وما مات منا سيد حتف أنفه
ولا طل منا حيث كان قتيل

فاذا أحس احدهم دنو الأجل واقتراب الموت الطبيعي احدث الجراح في بدنه تزلفا بذلك الى « أودين » ليفسح له في جنساته مقاما . وكان الملوك اذا أشرفت عليهم مناياهم امروا بأنفسهم ان يجعلوا في سفن ثم ترسل السفينة في اليم منشورة القلاع تدب في خشبها نار بطيئة السرى فاذا انساب بها زاخر التيار وهبت له الريح ، تأججت في بدنها النار وطار في أركانها شواظها ، وكذلك يلقى البطل العظيم بين احشاء الماء وجوانح الهواء قبرا

ـ شجاعة وحشية قاســـية حمراء دامية ولـكنها شجاعة ، وخير من لاشيء . ثم أي نجدة روعاء وهمـة قعساء وأي عزيمة ومضاء قـد كانت لملوك البحر من أولئك الشماليين ! لـكأني والله أراهم مشـمرين على ظهور سفنهم صامتين مقفلي الشفاه غير شاعرين بأنهم قد أوتوا منتهى البسالة والنجدة ـ يكافحون البـحر الثائر وعفاريت أمواجه وشياطين حيتانه ونينانه ، بل يكافحون البر والبحر وكل ما عليهمـا . أولئـك آباء بحارتنا : رالي وبلاك ونلسون ! لقد ذهب أولئك الأبطال وما ترنم بعظائم أعمالهم شاعر كهوميروس . ألا اني أرى مآثر أجامنون (أحد أبطال اليونان في شعر هوميروس) تتضاءل في جانب مسعاة رجل من أولئك الأبطـــال الشماليين ، رجل مثـل « رولف » أو « رولو » أمير نورماندي ، ذلك الملك البحري الفاتك ، فاني أرى له الآن يداً في حكومة انجلترا وان كان قد مرت على عهده القرون والدهور .

ولم يـكن بلا فائدة كل ما فعله أولئك الأقوام من الجولان في البحار ومن الحروب والوقائع أثنـاء عـدة أجيال ، لأن ذلك لم يكن الا تنازع الرئاسة ليعلم أي أمة أقوى فتســود . ثم رأيت ان من أولئك الملوك الشماليين من كان يلقب قاطع الشـجر ، أعني الملوك الذين كان من شأنهم قطع الغابات وفي ذلك معنى وأيم الله كبير . ولقد أخطأ المؤرخ « سكالدز » حيث زعم أن هؤلاء الملوك كان أمرهم مقصورا على الحرب ، بدليل ان الحرب وحدها لا ترزق أمة ولا تمير شـــعبا وكيف وثمارها قليلة وخيراتها نزرة ! واني لأحسب ان المحارب

الصادق يكون كذلك الغابي (١) الصادق ، اعني انه يكون أيضا المصلح الصادق والمفكر الصادق والعامل الصادق ، لايدع أمرا الا ويتناوله برفق وصدق . وما ذلك الا لأن الشجاعة الصادقة هي الأساس لكل هذه الأمور ، والشجاعة الصادقة شيء ، والقسوة والفظاعة شيء آخر ، فقطع الغاب ضرب من الشجاعة الصادقة قد أبداه أولئك القوم ضد الغابات وضد الظلم الوحشي من قوى الكون ليذللوا لنا الطبيعة ! او لم نسر نحن أبناءهم في ذلك الطريق الذي نهجوه لنا ؟ اذن افلا يعد الله تلك الهمة وهاتيك الشجاعة .

ويظهر لي أن تعليم أودين قومه فضيلة الشجاعة ، واجابة القوم اياه لاصابة قوله هوى في نفوسهم ، وظنهم ان كلامه وحي جاء به من السماء ، وانه لذلك اله — يظهر لي ان هذا هو أول بذرة نبتت منها الديانة الشمالية وفروعها من الخرافات على اختلاف ضروبها والوانها ، والرموز الشعرية والقصائد والقصص والأناشيد والأغاني الخ .. أأقول نبتت ؟ ! عجبا عجابا! انما يقال نبت للشيء الحي ، وقد قلت ان هذا المذهب الوثني لم يك الا ظلمة حالكة يبرق في جوفها ذهن أودين كالنجم في الديجور. نعم ، ولكنها ظلمة حية . تدبروا رعاكم الله ذلك . هذه الظلمة هي الذهن المتوحش الجاهل — ذهن تلك الأمة البربرية الشمالية ، يصبو ويتلهف على أن يلهمه الله الفطنة والنطق فيستمر الى ماشاء الله في فطنته ونطقه ! نعم ان الفكر بذرة تنبت وتنمو ثم تنمو ثم لا تزال تنمو وتنمو ، كشجرة الهند متى أصبت بذرة منها فقد حصلت من شجرها على ما

(١) اعني قاطع الغاب .

لانهاية لعدده ، وذلك ان البــذرة تخرج شجرة ، فأى فروع هذه الشجرة أصاب الأرض صار فى الحال جذرا لشجرة جديدة تنبت فروعا فتصير جذورا وهكذا الى ماشاء الله . والفكر حي لايموت . وأول من فـكر من الرجال على ظهر هذه الأرض فهو باديء الجميع — ثم الثاني والثالث . بل كل مفكر صادق انما هو من قبيل « أودين » ، أو ان شئت فقل انما هو « أودين » على النكرة . ثم هو قد بعثه الله ليعلم الناس رأيه فى الله وفى الـكون والانسان ، ولينشر ظل صورته على أجزاء من تاريخ العالم .

فأما مزايا ذلك المذهب الشعرية فهذا ما لاموضــع له هنا . كلا ، ولا كبير أهمية ، وقد توجــد اشــعار نبوئية حادة حارة ، ولـكنها على كل حال ضرب من اللهو اضافها الى قواعد الدين أناس متاخرون ، وما احسب انه قد بقى من اشعارهم الا الأغاني . وأمثــال هؤلاء المتأخرين لايزال منهم من يترنم بالأشعار شــأن المصورين المحدثين ، لايبرحون يصورون لا من صميم القلوب كما كان قدماء المصورين وكما هو الأصــل فى التصوير والباعث عليه، بل ربما ليس من القلوب البتة. فاعلموا ذلك ولا تنسوه .

وقد حاول شاعرنا « جراى » أن يصف لنا عيشة أولئك الوثنيين القدماء فخاب خيبــة الشاعر بون اذ ترجم « الاليــاذة » فلم يؤاته الشــعر على ابراز روح هوميروس . وحسب جراى أن حياة أولئك القوم كانت موحشة مظلمة ترفرف عليهــا ظــلال الروع والرعب ، فصورها كذلك ولم يدر ان أهم عنــاصرها هى وعورة كوعورة صــخورها ، وخشونة كخشونة قفارها ، الى

انس لا وحشة وانشراح لا انقباض وشيء من الفكاهة والضحك بين مناظرها المهيبة ومشـاهدها الرهيبة ، وكان القوم غاية فى السذاجة لم يميلوا فى تصويرآلهتهم ووقائع هذه الآلهة الى ما مال اليه اخوانهم اليونان من روائع الرواية التمثيليـة ، فكأنى بأولئـك الشماليين لايجدون فى وقتهم فسحة لأن يقفوا مبهوتين مرتعدى الفرائص أمام مدهشـات المسرح ، ثم يعجبنى جـدا سذاجتهم وصـدقهم واستقامة نظرهم ، فمن ذلك ما يتخيلون من ان « ثورا » اله الرعد يقطب جبينه فى حنق صادق ويقبض على سيفه قبضة تبيض من شدتها مفاصل أصابعه . ثم أجد كذلك الرحمة بادية فى أجمل مظاهرها فى خرافاتهم تلك ، فمن ذلك ان «نولدار» الاله الأبيض ــ اله الشمس الـكريم المنعم الجميل يموت ، فلم يدعوا فى الطبيعة شيئا الا نقبـوا فيه عن دواء ، ولـكنه مات وقضى الأمر ، فتبعث أمه «فريجا» رسولا اسمه « هرمودر » ليبحث عنه ، ويطوى الرسول تسع ليـال وتسـعة أيام يخب فى اودية منخفضـة مظلمـة ومنعرجات معتمة مشكلة حتى يبلغ القنطرة وسـقفها الذهبى ، ويقول له الحارس : « نعم » لقـــد عبر « بولدار » ههنا آنفا ، ولـكن مملـكة الموت هنالك بعيدة جدا الى جهة الشمال . فيستمر الرسـول فى سبيله حتى يصـل باب مملـكة الموت ويرى بولدار يحادثه فاذا هو رهين بذلك الملك ، قد قضى عليه الا يغادره قضاء محتوما لا مفر منه ، وقد ابت ملكة الموت أن تطلقه . كلا ، ولو ارادت ذلك الآلهة جميعا . ثم ان امراته تطلب من أجله أن تموت لتؤنسـه فى ديار الموت فيجاب طلبها ، ويبقى الزوجان معا آخر الأبد ، ثم يرسل « بولدار » خاتمه الى « أودين » وترسـل

زوجته « نانا » خاتمها على سبيل الذكرى — وا أسفاه ووا رحمتاه ؟

والحقيقة ان الشجاعة ينبوع الرحمة — ينبوع الصدق والشرف والكرم والمروءة والبر وسائر المحامد والمناقب ، وقد قال المؤرخ « اهلاند » أليس من آيات القوة والشجاعة أن تجد نفوس هؤلاء القوم فى اله الرعد رفيقا مؤنسا ؟ والا تخاف ولا تذعر من رعده ، بل ترى انه لابد لحرارة الشمس وللصيف الحلو الجميل من مصاحبة الرعد ؟ وقد كان الرجل الشمالى يرتاح ويستأنس الى « ثورا » ويحبه ويحب سيفه القاذف بالصواعق ويلاعبه ويداعبه ، وكان ذلك الاله عنده هو اله الحرارة الشمسية أيضا ، اعنى اله العمل والأمن والخير والبركة وصاحب الفلاح ورفيقه فى الغرس والحرث ، ثم ان « ثورا » نفسه لايرتفع عن مباشرة جميع الأعمال الخشنة السوقية ، ولايزال يذهب الى ديار الشياطين ليذلل عفاريت الثلج والجليد ويقهرها ، وفى بعض هذه الأقاويل ما فيه من الفكاهة والضحك .

فمن ذلك ما ذكرنا من أن « ثورا » يذهب الى ديار « المردة » ليجلب مرجل « هيمير » حتى تصنع فيه الآلهة نبيذ الشعير ، فيدخل عليه « هيمير » شيخ الأبالسة ولحيته مرصعة بالبرد ، وكلما رمى ببصره عمودا من العمد انفلق من حدة نظرته ، وبعد طويل صخب وعربدة يأخذ « ثورا » المرجل فيلبسه فى رأسه فاذا هو قد بلغ قدميه ، ذلك لأنه مرجل مارد — «هيمير» الذى كأن كل بقرة من بقره هضبة من الثلج .

هذه أفكار ، وايم الله ، ماردية هائلة الجسامة غير انها تحتاج الى أن تراض وتذلل حتى تصير أفكارا

شاكسبيرية ودانتيــة (١) وجوتية (٢) ، ثم انى ابصر نسبة قريبــة بين « ثورا » اله الرعد و « جاك قاتل المردة » وبين « هندايتن » و « اينن الأحمر الايرلندى» اللذين ورد ذكرهما فى أقاصيص شعراء أحدث عهدا من شعراء تلـكم العصور الوثنية ، بل انى لا اجد «هاملت شاكسبير» الا فرعا من تلك الشجرة القديمة الشمالية، وهــذا ما لانزاع فيه ولاريب . نعم ، أن هامليت او امليت قد ورد فى خرافة قديمة من اســـاطير الأولين تحدثت عن مقتل ملك بصب السم فى اذنه أثناء نومه الى غير ذلك من حوادث الرواية الشاكسبيرية. خرافة قديمة اخذها اولا الشاعر القديم « ساكسو » فصاغ منهــا قصــة دانيماركية ثم تنــاول شاكسبير ماصنعه «ساكسو» فصور منها ما ترونه ، فهذا فرع من الشجرة الشمالية المنفسحة الأفياء قد نما طبيعة أو صــدفة !

وحقا ان فى هذه الأغانى الشمالية معنى صادقا شريفا شأن كل قول يتداوله الرواة وتتوارثه القرون ، وليس هو مجرد جزالة فى اللفظ وشرف فى الديباجة ، ولكنما شرف وجزالة فى المعنى وخشونة فى الروح ووعورة . وارى فى قلوب أولئك القدماء جدا صادقا وأطراقا فى غير ضجر ولا شكوى وكأنى بهؤلاء الشماليين قد رأوا بالبديهة والالهام ما رآه الناس فى جميع العصور بالروية والتفكير ، وهو ان الدنيا باطل وعرض زائل ، بل خيال لا حقيقة . وكذلك رأى الفلاسفة من كل أمة وملة .

العيش نوم والمنيــة يقظــة
والمرء بينهما خيــالٌ سارِ

(١) نسبة الى دانتى أكبر شعراء ايطاليا وأعظم رجالها قاطبة .
(٢) نسبة الى جوتة أكبر شعراء ألمانيا وأعظم رجالها على الاطلاق .

ومن أقاصيص القوم ذات الحكمة والعظة ان «ثورا» يذهب الى « أتجارد » ـ حديقة ارض المردة ، يصحبه اثنان من أتباعه : « ثيالفى » و « لوكى » ، وبعد حوادث مختلفة يأتون بلاد المردة ، فيجعلون يطوفون فى سهول وقفار بين صخور واشجار ، حتى اذا جن الليل آنسوا دارا ، وكان جانب من جوانبها كله باب فولجوه ، فاذا مكان خال فأقاموا به ، فلما سجى الليل راعهم ضجيج وضوضاء ، فأخذ « ثورا » معوله واعتور الباب متحفزا للقتال ، وجعل صاحباه يجريان هنا وهنالك فزعا يلتمسان مخرجا فوجدا غرفة صغيرة فعاذا بها ، وأقام ثورا بالباب يترقب عدوا مهاجما ولا عدو . ولما أصبحوا وجدوا ان الضوضاء لم تكن الا شخير مارد جسيم ولكنه مسالم ـ المارد « سكريمير » وكان نائما ناحية منهم ، وكان المكان الذى حسبوه دارا فباتوا فيه انما هو احدى قفازتى ذلك المارد قد القاها الى جانبه عندما اراد النوم ، وكانت الغرفة التى عاذا بها هى بيت الابهام ، ولم يكن للقفازة بيوت لسائرالأصابع .. يالها من قفازة عتيقة !

ثم ان المارد « بسكيرمير » صحبهم سحابة اليوم يحمل حقيبتهم ، ولكن « ثورا » ارتاب بالمارد وعزم على قتله متى نام ، وكذلك أتاه وهو راقد فضربه بمعوله ضربة تصدع الصخر الأصم ، فلم يفعل المارد أكثر من أنه انتبه وحك وجنته وقال : « ورقة سقطت » ، ثم عاد الى نومه . فأرسل « ثورا » على وجهه ضربة اشد ، فلم يك من المارد أكثر من انه همس قائلا : «ما هى الا حصاة » ، ثم نام . فصب عليه « ثورا » بيديه جميعا ضربة أحدثت اثرا بوجه المارد ، فما زاد على أن

قطع شخيره وقال : «أحسب أن بهذه الشجرة عصافير والا فما هذا الذى سقط على ؟ » . ثم أن « سكيرمير » دخل بأصحابه باب حديقة المردة ، وكان يوم لهو وشراب ، فناولوا « ثورا » كأسا وسألوه أن يشتف ما فيه بجرعة واحدة ، فكرع فيه ثلاثا طوالا وما كاد يحدث أثرا ، فقالوا له : « طفل ولاريب » . ثم اوما له الى قطة فسألوه : أيقدر أن يرفعها ، فحاول «ثورا» فما استطاع أن يرفع بعد الجهد الجهيد الا احدى اقدامها ، فقالوا له : ما انت يا هذا برجل ـ انظر ثمة الى تلك العجوز البالية ، أيمكنك أن تصرعها ؟ فعانقها « ثورا » وجهد وكد فما فعل شيئا .

ولما هموا بالرحيل شيعهم رئيس المردة وقال لثورا لقد غلبت ولكن لا تخجل فان فى الأمر سرا أنا كاشفه لك . فأما الكأس التى حاولت أن تشرب فلم تقدر ، فذلك البحر ، وحسبك انك احدثت به جزرا ، ومن ذا الذى يا ثورا يستطيع أن يشرب البحر ؟ واما الهرة التى أردت أن ترفعها فتلك هى الحية التى تلتف حول الأرض فتمسك أجزاءها وتضم أركانها ، فقل لى أكنت محاولا برفعك اياها أن تخرب العالم ؟ واما العجوز فهذه هى الدهر والهرم والدوام .. ومن ذا الذى يصارع ذلك ؟ لا انسان ولا اله ، فانها غلابة لكل شىء . وأما الضربات الثلاث التى ضربتها فتاويلها أن تنظر الى هذه الأودية الثلاث . «فهى من صنع ضرباتك» فنظر«ثورا» الى رفيقه فاذا هو المارد « سكيرمير » ، وهذا المارد هو الأرض ذاتها ، وما قفازته الا أحد الكهوف . واملس المارد فلم يبق له اثر. ثم ان ثورا التفت لينظر حديقة المردة فاذا هى قد صارت هواء ولم يبق الا صوت المارد

يهتف به ساخرا : « أولى لك الا تعود الى ديار المردة»
هــــذا من الرموز الشعرية الفكاهية لا من الاقاويل التنبؤية الجدية ، ولـكن اليس فيها على خرافتها مادة غزيرة وذهب ابريز؟ نعم ، ذهب أنقى وأصفى مما يوجد في خرافات اليونان وان كانت اجود صنعة وارشــق معرضا . وقد أرى لذلك المارد «سكيرمير» فكاهة جميلة أساسها الجد والاعتبار والحزن كأنها قوس قزح وسط الزوبعة السوداء ، ومن هذا القبيل كانت فكاهة شاعرنا الفحل « بين جونسون » ، وهي فكاهة تجرى في دمائنا حسبما يخيل الى لانى أكاد اسمعها الآن من أقاصي غابات امريكا يصدح بهاكاتبها الـكبير « أمرسون » .

ومن الرائع الـكبير من افــكار القوم ذلك الذى في الصورة الآتية ، وهو انه تقوم حرب بين المردة والآلهة فتنتهى بموت الجميع وخـراب الـكون ولـكنه موت مؤقت ريثما يتجدد كون ذو سماء أجمل وابهى وارض انضر واحلى واله اشرف واقوى يعدل بين الناس جميعا، فعجيب من هؤلاء الناس كيف أدركوا بطريقتهم الخشنة ومذهبهم الوعر سر القيــامة والبعث وهــذا فيما أراه القانون الأساسى لـكل مخلوق احدثه الدهر واقامه في دار الأمل (١) .. قانون قد نفذ اليه نظر ذوى الاخلاص والبصيرة وسينفذ ما دام الانسان .

ولننظر الآن الى الخرافة التى يذكر فيها آخر ظهور « ثورا » في الارض ونجعلها خاتمة هذا الباب ، ولعلها فيما يخيل الى آخر هذه الخرافات عهدا ، وفيها انكار لانتشار النصرانية مشفوع برنة حزن على ما تولى من

(١) الدنيا .

عهود الوثنية ـ وضعها على سبيل العتاب والشكوى رجل من محافظى الوثنيين فى أوائل انتشار النصرانية ببلاد النرويج وهذا فحواها :

بينما الملك « أولاف » أمير النرويج ، ذلك الذى كانت له اليد الطولى فى هدم صروح الوثنية ونشر ألوية النصرانية فى البلاد ، سائحا فى حاشيته على سواحل النرويج يتنقل من ثغر الى ثغر ويبث العدل فى الرعية أو يصلح من أمورها ، اذا بغريب بادى الوقار أصهب اللحية نبيل الصورة مهيب الطلعة قد طرأ ، ثم كان من حديثه ما أعجب الملك وراعه ، ولكنه ما لبث أن غير لهجة كلامه فخاطب الملك قائلا : «نعم أيها الملك «أولاف» ما أجمل هذا الشاطىء يزهو فى رونق الضحى ، وما أندى خضرته وأبهى نضرته ، فحبذا السهل وحبذا الجبل ، وهنيئا لك الملك والدولة والسلطان ، ولكن أذكر انك ما كنت ممتعا بذلك لولا ما مهده لك «ثورا» من أمر البلاد ، وما وطأه لك من شأن الملك ، فكم كافح دونه المردة ، وكم دافع عنه الأبالسة ، وكم لاقى فى ذلك من يوم أرونان (شديد) ونهار عصيب . والآن اذ استتب لك الأمر تناسيت « ثورا » ودفنت ذكره ؟ فيا أيها الانسان انتبه من رقدتك وكن من أمرك على حذر!» قال الغريب ذلك وقطب جبينه ، والتفت الملك وحاشيته فاذا هو قد غاب عن الأبصار ، وكان هذا آخر ظهوره على مسرح العالم !

وانى لأرى باعث حزن وشجن فى ذلك الصوت ـ آخر أصوات الوثنية الذى فنى معه «ثورا» والعالم الشمالى بأكمله فناء لا رجعة بعده ، وكذلك كل جليل ورائع وعظيم ، فالى الفناء مصيره . وما من شىء حبيب الينا

عزيز علينا الا وتجرى بالفراق بيننا وبينه بارحات الطير ونجوم النحس ويروعنا بنواه يوم وداع .

وكذلك كان الأولئك الشماليين الأمجاد فى تقديس الشجاعة (هكذا يمكننا أن نعرف وثنيتهم) ما كفاهم دينا وشرعا ، وما تقديس الشجاعة بالأمر الهين . ثم لا احسب الا أن عرفاننا بعض الشيء عن وثنية آبائنا شيء مفيد ، ذلك ان الدين لا يبرح منه فى نفوسنا ، وان لم نشعر بذلك ، أثر . فشعورنا به جدير أن يجعل صلتنا بالماضى آكد ، وفهمنا له أصفى وأثقب ، والماضى تعلمون ميراث لنا وأى ميراث ، وهو جزء من الحقيقة التى هى مجموع كل عصر وكل امة ، فعلمنا بالجميع خير من جهلنا به . وقد جاء فى كلام «جوته» ان رجلا اسمه « مايستر » سأل استاذه بأى الأديان الثلاثة انت مؤمن ؟ فأجاب : « بجميعها .. لأن من اجتماعها يتكون الدين الحق » .

البطل فى صورة رسول

محمد - الإسلام

نتنقل الآن من تلك العصور الخشنة ـ الوثنية الشمالية الى دين آخر فى أمة أخرى ـ دين الاسلام فى أمة العرب . وما هى الا نقلة بعيدة وبون شاسع ، بل اى رفعة وارتقاء نراه هنا فى أحوال العالم العامة وأفكاره .

فى هذا الطور الجديد لم ير الناس فى بطلهم الها ، بل رسولا يوحى اليه من الاله . وهذه هى الصورة الثانية للبطل ، فأما الاولى واقدم الجميع فقد ذهبت الى حيث لا تعود ابدا ، ولن ترى الناس يؤلهون البطل مهما عظم . بل لنا ان نسأل : أكان من أى ناس قط انهم عمدوا الى رجل يرونه ويلمسونه فقالوا هذا خالق الكون ؟ انا لا اظن ذلك ، انما يقولون هذا القول فى رجل يتذكرونه أو كانوا رأوه . على ان هذا ايضا لن يكون قط ، ولن يؤله البطل من ثم فصاعدا ولو بلغ منتهى العظمة .

لقد كان اعتبار الرجل العظيم الها غلطة وحشية فاحشة ، ولكن دعنا نقل أن الرجل العظيم ما برح فى جميع الأزمان لغزا من الألغاز لا ندرى كيف نفسره ولا

كيف نستقبله ونعامله ! ولعل اهم مزايا جيل من الاجيال هو كيفية استقباله لرجله العظيم ، كاله .. وسواء استقبلوه كاله او كنبى او كيفما كان فذلك هو السؤال الأكبر .. ومن طريق اجابتهم عن هذا السؤال وكيفية مذهبهم في ذلك الأمر يمكننا أن نبصر صميم حالتهم الروحانية كما لو كان من خلال نافذة .

فان الرجل العظيم اذا كان مصدره واحدا ـ أعنى من ذات الله ـ فهو جنس واحد : «أودين» او «لوثر» او « جونسون » او « بارنز » وارجو ان اوفق الى افهامكم ان جميع هؤلاء من طينة واحدة ، وانه لم يحدث الخلاف العظيم بين احدهم والآخر الا الهيئة التى يكتسونها هم او الطريقة التى يستقبلها بها اهل زمنهم .

لقد أصبح من أكبر العار على اى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى الى ما يظن من ان دين الاسلام كذب وان محمدا خداع مزور . وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فان الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون (١) من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا . أفكان أحدكم يظن ان هذه الرسالة التى عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والاحصاء كذبة وخدعة ؟ أما انا فلا أستطيع ان ارى هذا الراى ابدا . ولو ان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادقان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس الا بله ومجانين ، وما الحياة الا سخف وعبث وضلالة كان

(١) كان هذا عدد المسلمين أيام كارلايل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . الآن أصبح عددهم حوالى ٦٠٠ مليون.

الأولى بها الا تخلق .

فوا أسفاه ! ما اسوا مثل هـذا الزعم وما اضعف اهله وأحقهم بالرثاء والمرحمة .. (وبعد) فعلى من أراد ان يبلغ منزلة ما فى علوم الـكائنات الا يصدق شيئا البتة من أقوال أولئك السفهاء ! فانها نتائج جيل كفر وعصر جحود والحاد . وهى دليـل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان . ولعل العالم لم ير قط رأيا أكفر من هذا والأم ؟ وهل رأيتم قط معشر الاخوان أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجـد دينا ، عجبا ! والله ان الرجل الـكاذب لا يقدر أن يبنى بيتا من الطوب ! فهو اذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه ببيت وانما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد . نعم وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الأنفس ، ولـكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن . وانى لأعلم انه على المرء ان يسير فى جميع اموره طبق قوانين الطبيعة والا ابت أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته . كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار وان زخرفوه حتى خيلوه حقا ، وزور وباطل وان زينوه حتى أوهموه صدقا ، ومحنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوبا وامما بهذه الأضاليل ، وتسود الـكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل ، وانما هو كما ذكرت لـكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الـكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ويحيق مصابها بالغير لا به . واى مصاب وايكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسية وأشـباهها من الفتن والمحن تصـيح بملء أفواههـا : « هذه الأوراق كاذبة ! » .

أما الرجل الكبير خاصة فاني أقول عنه يقينا انه من المحال أن يكون كاذبا ، فانى أرى الصدق أساسه وأساس كل ما به من فضل ومحمدة . وعندى انه ما من رجل كبير - ميرابو أو نابليون أو بارنز أو كرومويل - كفء للقيام بعمل ما الا وكان الصدق والاخلاص وحب الخير أول بواعثه على محاولة ما يحاول . اعنى انه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شيء . بل اقول أن الاخلاص - الاخلاص الحر العميق الكبير - هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان . لا أريد اخلاص ذلك الرجل الذى لايبرح يفتخر للناس باخلاصه ، كلا : فان هذا حقير جدا وايم الله - هذا اخلاص سطحى وقح - وهو فى الغالب غرور وفتنة . انما اخلاص الرجل الكبير هو مما لايستطيع أن يتحدث به صاحبه ، كلا ولا يشعر به . بل لأحسب انه ربما شعر من نفسه بعدم الاخلاص . اذ اين ذلك الذى يستطيع ان يلزم منهج الحق يوما واحدا ؟ نعم ، ان الرجل الكبير لا يفخر باخلاصه قط بل هو لا يسأل نفسه : اهي مخلصة ، أو بعبارة اخرى اقول ان اخلاصه غير متوقف على ارادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه .. سواء أراد أم لم يرد .. هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله - حقيقة لايستطيع ان يهرب من جلالها الباهر مهما حاول ، هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقة ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته . هو يرى الكون مدهشا ومخيفا وحقا كالموت وحقا كالحياة ، وهذه الحقيقة لا تفارقه أبدا وان فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخبطوا فى غياهب الضلال والعماية . بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه ، كأنما هى مكتوبة بحروف من

اللهب لاشك فيها ولاريب ، ها هى : ها هى : فاعرفوا هداكم الله ان هذه هى أول صفات العظيم وهذا حده الجوهرى وتعريفه . وقد توجد هذه فى الرجل الصغير، فهى جديرة أن توجد فى نفس كل انسان خلقه الله . ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيما الا بها .

مثل هذا الرجل ما نسميه رجلا أصليا صافى الجوهر كريم العنصر — فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة الينا .. فقد نسميه شاعرا أو نبيا أو الها . وسواء هذا أو ذاك او ذلك فقد نعلم ان قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء . نعم هو يرى باطن كل شىء لايحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات وسخيف الأوهام والآراء . كيف ؟ وان الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها . ثم اذا نظرت الى كلمات العظيم شاعرا كان او فيلسوفا او نبيا أو فارسا أو ملكا الا تراها ضربا من الوحى ؟.. والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون ، فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، وقد دل الله على وجوده بعدة آيات أرى أن أحدثها واجدها هو الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة فوجب علينا أن نصغى اليه قبل كل شىء .

وعلى ذلك فلسنا نعد محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرع بالحيل والوسائل الى بغية أو يطمح الى درجة ملك او سلطان او غير ذلك من الحقائر والصغائر . وما الرسالة التى اداها الا حق صراح ، وما كلمته الا صوت صادق صادر من العالم المجهول. كلا

ما محمد بالكاذب ولا الملفق وانما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فاذا هى شهاب قد أضاء العالم اجمع . ذلك أمر الله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

وهب ان لمحمد (عليه السلام) غلطات وهفوات — واي انسان لايخطىء ؟ انما العصمة لله وحده — فانه ليس فى طاقة أية هفوات أو غلطات أن تزرى بتلك الحقيقة الكبرى وهى انه رجل صادق ونبى مرسل .

وأرانا على العموم نجسم الهفوات ونجعل من الجزئيات حجبا تستر عنا الحقائق الكلية — الهفوات؟ أيحسب الناس انه يخلو منها انسان ؟ ان اكبر الهفوات عندى أن يحسب المرء انه برىء من الهفوات . ما بال الناس لايذكرون نبى الله داود ؟ ..
يرتكب داود أفظع الجرائم وأشنع الآثام .. الا ما أهون أمر الذنوب واصغر خطر الأغلاط — الجزئيات والقشور — اذا كان لبابها كريما وسرها حرا شريفا وكان فى التوبة النصوح والندم الصادق ووخز الضمير ولدع الذاكرة اكبر مكفر للسيئات ومطهر لأدران الروح من أدران الشوائب . أليست التوبة أكرم أعمال المرء قاطبة وأقدس افعاله ؟ انما آلام الذنب هو كما قلت حسبان المرء انه برىء من كل ذنب . وكل نفس هذا شانها فهى فى نظرى مطلقة من الوفاء والمروءة ، بعيدة عن التقى والبر والحق — أو هى ميتة — أو ان تشأ فقل هى بقية بقاء الرمل الجاف الميت . وانى احسب ان سيرة داود وتاريخه كما هو مدون فى مزاميره لأصدق آية على ارتقاء المرء فى معارج المكرمات وعلى حرب العقل والهوى —

حربا طالما ينهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبه وتتركه لقى مشفيا على الانقراض . ولكنها حرب بغير نهاية ، مشفوعة أبداً بالبكاء والتوبة واستنهاض العزم الصادق الذى لايبرح يتجدد بعد كل هزيمة . يا ويل النفس الانسانية ، ما أشد خطبها بين ضعفنا وقوة شهواتها : أوليست حياة الانسان فى هذه الدنيا سلسلة عثرات ؟ وهل فى استطاعة المرء خلاف ذلك ؟ وهل يطيق فى ظلمات هذه الحياة الا الاعتساف والتخبط ؟ فما ينهض من عثرة الا لأخرى ، وبين هذه وتلك نحيب وعبرات وشهيق وزفرات. وانما الأمر الهام هو: ايظفر على هواه بعد كل هذه المجاهدات؟ وانا لنصفح عن كثير من الجزئيات ما دام اللباب حقا والصميم صحيحا وما كانت الجزئيات وحدها لتعرفنا حقيقة انسان .

* * *

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلادا كريمة ، وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق ، فكان ثمة شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم ، وبين جفاء منظرها وجفاء طباعهم . وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والدماثة ، كما كان يبسط من عبوس وجود البلاد رياض خضراء وقيعان ذات امواه واكلاء . وكان الاعرابى صامتا لايتكلم الا فيما يعنيه ، اذ كان يسكن ارضا قفرا تخالها بحرا من الرمل ، يصطلى جمرة النهار طوله ، ويكافح بحر وجهه نفحات القر ليله .

رأت رجلا اما اذا الشمس عارضت
فيضحى وأما بالعشى فيخصر

ولاحسب اناسا شانهم الانفراد وسط البيد والقفار

يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها ، الا ان يكونون أذكياء القلوب ، حداد الخواطر، خفاف الحركة ، ثاقبي النظر. وإذا صح أن الفرس هم فرنسيو المشرق فالعرب ولا شك طليانه . والحق أقول :

لقدكان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس كان أخلاقهم سيول دفاقة لها من شدة حزمهم وقوة ارادتهم أحصن سور وأمنع حاجز. وهذه وأبيكم أم الفضائل ، وذروة الشرف الباذخ . وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه ، فيكرم مثواه وينحر له ، فاذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه ، ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم أن يقاتله متى عادت به اليه الفرص . وكان العربي أغلب وقته صامتا فاذا قال أفصح . ويزعم ان العرب من عنصر اليهود ، والحقيقة انهم شاركوا اليهود فى مرارة الجد وخالفوهم فى حلاوة الشمائل ورقة الظرف وفى المعيشة القريحة وأريحية القلب ، وكان لهم قبل زمن محمد (عليه السلام) منافسات فى الشعر يجرونها بسوق عكاظ فى جنوب البلاد حيث كانت تقام أسواق التجارة فاذا انتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للأجود قريضا والأحكم قافية ، فكان الأعراب الجفاة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد ويجدون لرناتها أية لذة فيتهافتون على المنشد كالفراش ويتهالكون .

وأرى للعرب صفة واضحة فيهم وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمحامد بحذافيرها ، الا وهى التدين. فانهم ، مذ كانوا ، مابرحوا شديدى التمسك بدينهم كيفما كان . وكانوا يعبدون الكواكب وكثيرا من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر للخالق ودلائل على

عظمته ، فهذا وان يك خطأ فليس من جميع وجوهه ، فان مصنوعات الله مابرحت بوجه ما رموزا له ودلائل عليه . السنا كما قدمت نعتدها مفخرة للشاعر وفضيلة أن يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والاجلال أو « أسرار الجمال الشعرى » كما اصطلح الناس على تسميته ؟ وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقتضيه مبلغ علمه ورأيه . ثم ، أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدد واى تقوى واخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين ؟ وقد اتفق النقاد أن «سفرايوب» احد اجزاء التوراة كتابنا المقدس ، قد كتب فى بلاد العرب . ورايى فى هذا الكتاب ، فضلا عن كل ماكتب عنه ، انه من أشرف ما سطر يراع- ودونت يد كاتب ، ولا يكاد المرء يصدق انه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموها ــ عمومية تخالف التعصب والتحيز . وحسب الكتاب شرفا انه يضرب بعرق فى كل نفس ، ويمت بصلة الى كل قلب ، ويكون كالبيت يفضى اليه منتهى السبل ، وكالأرج الضائع تتنازعه جميع الانوف . والكتاب المذكور هو اول ما جاءنا عن مسالة المسائل ــ حياة الانسان وفعل الله به فى هذه الدار ــ وقد اتانا بذلك فى انصع بيان واشد اخلاص واحسن سهولة . وانى لاتبين فيه العين البصيرة والقلب النافذ الفهم الجم الخشوع . فهو الحق من حيث جئته ، والنظر الراسب فى قرارة كل شىء وصميم كل أمر ــ مادى وروحى ؟ الا تذكرون ما جاء فيه من ذكر الفرس « الله الذى اودع الرعد حنجرته » « فهل ترى صهيله الا قهقهة لرؤية الرماح ؟ » هــذا والله اجود الاستعارة، وما احسب ان فى عالم التشبيه كله مايماثل

ذلك أو يقاربه . ذلك الى ما فى الكتاب المذكور من آيات الحزن الشريف والتوكل الحسن الجميل . وما قرأت فيه قط الا حسبت قلب الانسانية يترنم شجى ووجدا، ودمع الانسانية يفيض حرقة وكمدا . فيالها من رقة فى شدة ورأفة فى قوة . وما أشبهها الا بسحر الليلة الصائفة — رقة نسيم فى جلال مشهد عظيم . والا بالكون وكل ما فيه من أنجم وبحار وليل ونهار . وما أحسب ان فى جميع التوراة شيئا يدانيه فضلا وقيمة.

والحجر الأسود ، كان من أعم مقدسات العرب ، ولا يزال للآن بمكة فى البناء المسمى « الكعبة » ، وقد ذكر المؤرخ الرومانى « سيسلاس » الكعبة فقال انها كانت فى مدته أشرف معابد العالم طرا واقدمها وذلك قبل الميلاد بخمسين عاما . وقال المؤرخ « سلفستاردى ساسى » « أن الحجر الأسود ربما كان من رجوم السموات فاذا صح ذلك فلابد ان انسانا قد بصر به ساقطا من الجو، والحجر موجود الآن الى جانب البئر زمزم والكعبة مبنية فوقهما ، والبئر كما تعلمون ، منظر حيثما كان سار مفرح تنبجس من الحجر الأصم كالحياة من الموت فما بالكم بها اذا كانت تفيض .

بديمومة لا ظل فى صحصحانها
ولا ماء لكن قورها الدهر عوم
ترى الآل فيها يلطم الآل مائجا
وبارحها المسموم للوجه الطم
أظل اذا كافحتها وكأننى
بوهاجها دون اللثام ملثم

وقد اشتق لها اسم زمزم من صوت تفجرها وهديرها. والعرب تقرر انها انبجست تحت أقدام هاجر واسماعيل

فيضا من الله وصفاء . وقد قدسها العرب والحجر الأسود وشادوا عليهما الكعبة منذ آلاف من السنين. وما أعجب هذه الكعبة وأعجب شأنها ، فهى فى هذه الآونة قائمة على قواعدها عليها الكسوة السوداء التي ترسل كل عام ، والتي يبلغ ارتفاعها سبعا وعشرين ذراعا حولها دائرة مزدوجة من العمد ، وبها صفوف من المصابيح وبها نقوش وزخارف عجيبة وتوقد تلك المصابيح لتشرق تحت النجوم المشرقة . فنعم أثر الماضي هى ونعم ميراث الغابر . هذه كعبة المسلمين ومن أقاصي المشرق الى أخريات المغرب — ومن دلهى الى مراكش تتوجه ابصار العديد المجمهر من عباد الله المصلين شطرها، وتهفو قلوبهم نحوها خمس مرات كل يوم . نعم ! لهى والله من أجل مراكز المعمورة واشرف أقطابها .

وانما من شرف البئر زمزم ، وقدسية الحجر الأسود، ومن حج القبائل الى ذياك المكان كان منشأ مدينة مكة . ولقد كانت هذه المدينة وقتا ما ذات بال وشان وان كانت الآن قد فقدت كثيرا من أهميتها . وموقعها — من حيث هى مدينة — سيىء جدا ، اذ هى واقعة فى بطن من الأرض كثير الرمال وسط هضاب قفرة وتلال مجدبة على مسافة بعيدة من البحر ، ثم تمتار لها جميع ذخائرها من جهات اخرى حتى الخبز ولكن الذى أضطر الى ايجاد هذه المدينة هو ان كثيرا من الحجيج كانوا يطلبون المأوى ثم ان اماكن الحج ما زالت من قديم الزمان تستدعى التجارة ، فأول يوم يلتقى فيه الحجيج تلتقى فيه كذلك التجار والباعة ، والناس متى وجدوا أنفسهم مجتمعين لغرض من الأغراض راوا انه لابأس عليهم أن يقضوا كل ما يعرض لهم من المنافع وان لم يكن فى الحسبان .

لذلك صارت مكة سوق بلاد العرب جميعها ، والمركز لكل ما مر من التجارة بين الهند وبين الشام ومصر بل وبين ايطاليا . وقد بلغ سكانها في حين من الأحيان مائة الف نسمة بين بائعين ومشترين وموردين لبضائع الشرق والغرب وباعة للماكولات والغلال ، وكانت حكومتها ضربا من الجمهورية الأرستقراطية عليها صبغة دينية ، ذلك انهم كانوا ينتخبون لها بطريقة غير مهذبة عشرة رجال من قبيلة عظمى فيكون هؤلاء حكام مكة حراس الكعبة ، وكانت لقريش في عهد محمد ، وأسرة محمد ، من قبيلة قريش ، وكان سائر الامة مبددا في انحاء تلك الرمال قبائل تفصلها بين الواحدة والاخرى البيد والقفار وعلى كل قبيلة امير او امراء : وربما كان الأمير راعيا أو ناقل امتعة ، وكانت الحرب لا تخمد بين بعض هذه القبائل وبعضها ، ولم يك يؤلف بينهم حلف على الا التقاءهم بالكعبة حيث كان يجمعهم على اختلاف وثنياتهم مذهب واحد والا رابطة الدم واللغة ، وعلى هذه الطريقة عاش العرب دهورا طوالا خاملي الذكر ، غامضي الشأن ــ اناسا ذوى مناقب جليلة وصفات كبيرة ينتظرون من حيث لايشعرون اليوم الذى يشاد فيه بذكرهم ويطير في الآفاق صيتهم وما ذلك ببعيد . وكأنما كانت وثنياتهم قد وصلت الى طور الاضمحلال وآذنت بالسقوط ، وقد حدثت بينهم دواعي اختلاط وفوران ، وكان قد بلغهم على مدى القرون غوامض انباء عن أكبر حادثة وقعت على وجه البسيطة ــ أعني حياة المسيح ووفاته وهي التي أحدثت انقلابا هائلا في جميع سكان العالم ــ فلم تعدم هذه الأنباء تأثيرها من الفوران في احشاء الأمة العربية .

وكان بين هؤلاء العرب التى تلك حالهم ان ولد الرجل محمد (عليه السلام) عام ٥٨٠ ميلادية ، وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش ، وقد مات أبوه قبيل مولده ، ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه — وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل ، فقام عليه جد شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحا بارا . وكان ابنه عبدالله احب أولاده اليه فأبصرت عينه الهرمة فى محمد صورة عبد الله فأحب اليتيم الصغير يملء قلبه ، وكان يقول : ينبغى ان يحسن القيام على ذلك الصبى الجميل الذى قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسنا وفضلا. ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به الى أبى طالب أكبر اعمامه رأس الأسرة بعده فرباه عمه — وكان رجلا عاقلا كما يشهد بذلك كل دليـل — على إحسـن نظام عربى .

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه فى اسفار تجارية وما أشبه ، وفى الثـامنة عشر من عمـره نراه فارسا مقاتلا يتبع عمه فى الحروب . غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذى حدث من قبل هذا التاريخ ببضع سنين — رحلة الى مشارف الشام اذ وجد الفتى نفسه هنالك فى عالم جديد ازاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جدا فى نظره — أعنى الديانة المسيحية . وانى لست أدرى ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس «بحيرا الراهب» الذى يزعم أن أبا طالب ومحمدا سكنا معه فى دار، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام فى هذه السن الصغيرة من أى راهب ما ، فان محمدا لم يكن يتجاوز اذ ذاك الرابعـة عشرة ولم يكن يعرف الا لغته . ولاشـك ان كثيرا من أحوال الشام ومشاهدها لم يك فى نظره الا خليطـا

مشوشا من اشياء ينكرها ولا يفهمها ، ولـكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ولابد من أن يكون قد انطبع ــ على لوح فؤاده أمور وشئون فأقامت فى ثنايا ضميره ولو غير مفهومة ريثما ينضجها له كر الغداة ومر العشى وتحلها له يد الزمن يوما ما فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات . فلعل هــذه الرحــلات الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة .

ثم لا ننسى شيئا آخر وهو انه لم يتلق دروسا على استاذ ابدا ، وكانت صناعة الخط حديثة العهد اذذاك فى بلاد العرب . ويظهر لى ان الحقيقة هى ان محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة ، وكل ما تعلم هو عيشــة الصحراء وأحوالها ، وكل ما وفق الى معرفته هو ما امكنه أن يشاهد بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الـكون العديم النهاية ، وعجيبة وايم الله أمية محمد ، نعم انه لم يعرف من العالم ولا من علومه الا ما تيسر له أن يبصره بنفسه او يصل الى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ، ولم يضره ولم يزر به انه لم يعرف علوم العالم لاقديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك . ولم يقتبس محمد من نور اي انسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ، ولم يك فى جميع اشباهه من الأنبيـــاء والعظماء ــ اولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات الدهور ــ من كان بين محمد وبينه أدنى صلة . وانما نشأ وعاش وحده فى أحشــاء الصــحراء ، ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفـكاره .

ولوحظ عليه منذ فتائه انه كان شابا مفكرا . وقد سماه رفقاؤه الأمين ــ رجل الصدق والوفاء ــ الصدق فى افعاله واقواله وافكاره . وقد لاحظوا انه ما من كلمة

تخرج من فيه الا وفيها حكمة بليغة . وانى لاعرف عنه انه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فاذا نطق فما شئت من لب وفضل واخلاص وحكمة ، لا يتناول غرضا فيتركه الا وقد انار شبهته وكشف ظلمته وابان حجته واستثار دفينته ، وهكذا يكون الكلام والا فلا . وقد رايناه طول حياته رجلا راسخ المبدأ صارم العزم بعيد الهم كريما برا رءوفا تقيا فاضلا حرا ــ رجلا شـــديد الجد مخلصا وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الايناس، بل ربما مازح مداعب ، وكان على العموم تضىء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ، لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعمـاله واحواله ــ هؤلاء لايستطيعون أن يبتسموا . وكان محمد جميل الوجه ، وضىء الطلعة حسن القامة زاهى اللون له عينان سوداوان تتلألآن . وانى لأحب فى جبينه ذلك العرق الذى ينتفخ ويسود فى حالة غضبه « كالعرق المقوس الوارد فى قصة القفازة الحمراء لوالترسكوت» وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ولـكنه كان ابين فى محمد واظهر. نعم ، لقد كان هذا الرجل حاد الطبع نارى المزاج ولـكنه كان عادلا صادق النية ، كان ذكى اللب شهم الفؤاد .

لوذعيـــــا كأنما بين جنبيــــ
ــه مصابيــــح كل ليـل بهيم

ممتلئا نارا ونورا ، رجــلا عظيما بفطـرته لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غنى عن ذلك ، كالشـــوكة استغنت عن التنقيح ، فادى عمله فى الحياة وحده فى اعماق الصحراء .

وما أروع وما أوضح قصته مع خديجة وكيف انه كان اولا يسافر فى تجارات لها الى أسواق الشام وكيف كان ينهج فى ذلك اقوم مناهج الحزم والأمانة ، وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو ، ولما زوجت منه كانت فى الأربعين وكان هو لم يتجاوز الخمسة والعشرين ، وكان

لايزال عليها مسحة من ملاحة ، ولقد عاش مع زوجه هذه على أتم وفاق والفة وصفاء وغبطة ، يخلص لها الحب وحدها ، ومما يبطل دعوى القائلين ان محمدا لم يكن صادقا فى رسالته ، بل كان ملفقا مزورا — انه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه فى تلك العيشة الهادئة ، المطمئنة ، لم يحاول اثناءها احداث ضجة ولا دوى مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة . ولما يك الا بعد الأربعين ان تحدث برسالة سماوية ومن هـــذا التاريخ نبتدىء حوادثه وشــــواذه حقيقية كانت أو مختلقة ، وفى هذا توفيت خديجة . نعم لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادىء الساكن ، وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه وجميــــل ظنونهم به . ولم يك الا بعد ان ذهب الشباب واقبل المشيب ان فار بصدره ذلك البركان الذى كان هاجما وثار يريد أمرا جليلا وشأنا عظيما .

ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمدا لم يكن يريد بقيامه الا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والســلطان .. كلا وايم الله ، لقد كانت فى فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات ، المتـوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة وحجى واربة ونهى — افكار غير الطمع الدنيوى ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه . وكيف لا وتلك نفس صامتة

ورجل من الذين لايمكنهم الا أن يكونوا مخلصين جادين، فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق اعتبارات باطلة ، ترى محمدا لم يرض ان يلتفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل . لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات .

لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه كما قلت بأهواله ومخاوفه وروائقه ومباهره . لم يك هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه « هأنذا » .. فمثل هذا الاخلاص لا يخلو من معنى الهى مقدس ، وما كلمة مثل هذا الرجل الا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة ، فاذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية وكل كلام ما عدا ذلك هباء وكل قول جفاء وما زال منذ الأعوام الطوال — منذ أيام رحلاته وأسفاره تجول بخاطره آلاف من الأفكار : ماذا انا ؟ وما ذلك الشيء العديم النهاية الذى اعيش فيه والذى يسميه الناس كونا ؟ وما هى الحياة وما هو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا أفعل ؟ فهل اجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شماريخ طود الطور أو تلك القفار والفلوات؟ كلا ولا قبة الفلك الدوار واختلاف الليل والنهار ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة .. لم يجبه لا هذا ولا ذاك ، وما للجواب عن ذلك الا روح الرجل والا ما أودع الله فيه من سره .

وهذا ما ينبغي لكل انسان أن يسأل عنه نفسه ، فقد احس ذلك الرجل القفرى ان هذه كبرى المسائل واهم الأمور وكل شيء عديم الأهمية فى جانبها . وكان اذا بحث عن الجواب فى فرق اليونان الجدلية أو فى روايات اليهود المبهمة أو نظام وثنية العرب الفاسد لم

يجده . وقد قلت ان أهم خصائص البطل واول صفاته وآخرها هي أن ينظر من خلال الظواهر الى البواطن ، فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فينبذها جيدة كانت أو رديئة وكان يقول في نفسه : « هذه الأوثان التى يعبدها القوم لابد من أن يكون وراءها ودونها شيء ماهى الا رمز له واشارة اليه ، والا فهى باطل وزور وقطع من الخشب لا تضر ولا تنفع ، وما لهذا الرجل والأصنام ، وانى تؤثر في مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لا بالذهب ، ولو عبدها الجحاجح من عدنان والأقيال من حمير؟ اى خير له في هذه ولو عبدها الناس كافة ؟ انه في واد وهم في واد .. يعمهون في ضلالهم وهو ماثل بين يدى الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الهائلة ، فاما أن يجيبها والا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين . فلتجبها يا محمد ! أجب . لابد من أن توجد الجواب .. أيزعم الكاذبون انه الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمدا وأثاره . حمق وأيم الله وسخافة وهوس . أى فائدة لمثل هذا الرجل في جميع بلاد العرب وفي تاج قيصر وصولجان كسرى ، وجميع ما بالأرض من تيجان وصولجانات . وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر؟ .. أفي مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أو في ملك كسرى وتاج ذهبى الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة ؟ كلا .. اذن فلنضرب صفحا عن مذهب الجائرين القائلة أن محمدا كاذب ، ونعد موافقتهم عارا وسخافة وحمقا ، فلنربأ بنفوسنا عنه لنترفع .

وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان ، فينقطع الى السكون والوحدة داب العرب وعادتهم ،

ونعمت العادة. ما أجلها وانفعها ولا سيما لرجل كمحمد؟ لقد كان يخلو الى نفسه فيناجي ضميره صامتا بين الجبال الصامتة ، متفتحا صدره لأصوات الكون الغامضة الخفية . أجل ، حبذا تلك عادة ونعمت. فلما كان فى الأربعين من عمره وقد خلا الى نفسه فى غار بجبل « حراء » قرب مكة شهر رمضان ليفكر فى تلك المسائل الكبرى اذ هو قد خرج الى خديجة ذات يوم — وكان قد استصحبها ذلك العام وانزلها قريبا من مكان خلوته — فقال لها انه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستثار كامن الأمر ، وانه قد انارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء ، وان جميع هذه الأصنام محال وليست الا اخشابا حقيرة ، وأن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، فهو الحق وكل ما خلاه باطل ، خلقنا ويرزقنا وما نحن وسائر الخلق والكائنات الا ظل له وستار يحجب النور الأبدى والرونق السرمدى. الله أكبر ولله الحمد : ثم الاسلام .. وهو أن نسلم الأمر لله وننذعن له ونسكن اليه ونتوكل عليه . وان القوة كل القوة هى فى الاستقامة لحكمته والرضا بقسمته أيا كانت فى هذه الدنيا وفى الآخرة . ومهما يصيبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه مبسوط ونفس مغتبطة راضية ونعلم انه الخير وأن لاخير الا هو .

ولقد قال شاعر الألمان واعظم عظمائهم «جوته» اذا كان ذلك هو الاسلام فكلنا اذن مسلمون . نعم ، كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم. وما قيل ان منتهى العقل والحكمة ليس فى مجرد الاذعان للضرورة — فان الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما يأتيه الانسان مكرها — بل فى اليقين بأن الضرورة الأليمة المرة

هى خير ما يقع للانسان وافضل ما يناله وان لله فى ذلك حكمة تلطف عن الأفهام وتدق عن الأذهان ، وانه من الأفن والسخف أن يجعل الانسان من دماغه الضئيل ميزانا لذلك العالم وأحواله . بل عليه أن يعتقد ان للكون قانونا عادلا وان غاب عن ادراكه . وان الخير هو أساس الكون ، والصلاح روح الوجود والنفع لباب الحياة . نعم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه فى سكون وتقوى .

اقول وما زالت ، هذه الخطة المثلى والمذهب الأشرف الأطهر ، وما زال الرجل مصيبا وظافرا وحرا وكريما وسائرا على المنهج الأقوم وسالكا سبيل السعادة ما دام معتصما بحبل الله متمسكا بقانون الطبيعة الأكبر الأمكن غير مبال بالقوانين السطحية والظواهر الوقتية وحسابات الربح والخسارة . نعم هو ظافر اذا اتبع ذلك القانون الكبير الجوهرى — قطب رحى الكون ومحور الدهر — وليس بظافر اذا فعل غير ذلك . وحقا ان أول وسيلة تؤدى الى اتباع هذا القانون هى الاعتقاد بوجوده ثم بأنه صالح بل لا شىء صالحا غيره ! وهذا يا اخوانى هو روح الاسلام ! وهذا هو أيضا روح النصرانية ، والاسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية . والاسلام والنصرانية يأمراننا أن نتوكل على الله قبل كل شىء ، وأن نفطم النفس عن الشهوات ، وننهى القلب عن الهوى ، والا نجمح فى عنان المنى ، وأن نصبر على البث والأسى ، وأن نعرف انا لا نعرف شيئا ، وأن نرضى من الله كل ما قسم ونعدها يدا بيضاء ونعمة غراء ونقول الحمد لله على كل حال وتبارك الله ذو الفضل والجلال ونقول : « انا بقسمة الله راضون ولو كان ما

قسم لنا المنون » .

فمن فضائل الاسلام تضحية النفس فى سبيل الله ، وهذا أشرف ما نزل من السماء على بنى الأرض . نعم هو نور الله قد سطع فى روح ذلك الرجل فأنار ظلماتها. هو ضياء باهر كشف تلك الظلمات التى كانت تؤذن بالخسران والهلاك وقد سماه محمد (عليه السلام) وحيا و « جبريل » . وأينا يستطيع ان يحدث له أسماء ؟ الم يجىء فى الانجيل ان وحى الله يهبنا الفهم والادراك؟ ولا شك ان العلم والنفاذ الى صميم الأمور وجواهر الأشياء لسر من اغمض الأسرار لايكاد المنطقيون أن يلمسوا منه الا قشوره ، وقد قال نوفاليس : « أليس الايمان هو المعجزة الحقة الدالة على الله ؟ » فشعور محمد اذ اشتعلت روحه بلهيب هذه الحقيقة الساطعة بأن الحقيقة المذكورة هى أهم ما يجب على الناس علمه لم يك الا امرا بديهيا ، وكون الله قد انعم عليه بكشفها له ونجاه من الهلاك والظلمة ، وكونه قد أصبح مضطرا الى اظهارها للعالم اجمع — هذا كله هو معنى كلمة « محمد رسول الله » وهذا هو الصدق الجلى والحق المبين .

ويخيل الينا ان الصالحة خديجة أصغت اليه فى دهشة وشك ثم آمنت وقالت : «أى وربى انه لحق». ونتصور ان محمدا شكر لها ذلك الصنيع ورأى فى ايمانها بكلمته المخلصة المقذوفة من بركان صدره جميلا يفوق كل ما اسدت اليه من قبل ، فانه ليس أروح لنفس المرء ولا أثلج لحشاه من أن يجد له شريكا فى اعتقاده . ولقد قال نوفاليس : ما رأيت شيئا قط آكد ليقينى واوثق لاعتقادى من انضمام انسان آخر الى فى رأيى.

نعم انه لصنيع أغر ونعمة وفيرة ، وكذلك ما انفك محمد يذكر خديجة حتى لقى ربه حتى ان عائشة — زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها — هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة سألته ذات يوم : ألست الآن أفضل من خديجة ؟ لقد كانت أرملة مسنة قد ذهب جمالها وأراك تحبنى أكثر مما كنت تحبها . فأجاب محمد : « كلا والله لست أفضل منها » . وكيف وهى التي آمنت بي والكل كافر ومنكر ، ولم يك لي في هذا العالم الا صديق واحد — وهذا الصديق هى . وآمن به مولاه (زيد بن حارثة) كذلك وعلى هؤلاء الثلاثة أول من آمن به .

وجعل يذكر رسالته لهذا ولذلك فما كان يصادف الا جحودا وسخرية حتى انه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام الا ثلاثة عشر رجلا وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ولكنه المنتظر فى مثل هذه الحال . وبعد هذه السنين الثلاث ادب مأدبة لاربعين من قرابته ، ثم قام بينهم خطيبا فذكر دعوته ، وانه يريد أن يذيعها فى سائر انحاء الكون ، وانها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة ، فأيهم يمد اليه يده ويأخذ بناصره ؟ وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب على وكان غلاما فى السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح فى أحد لهجة انه ذلك النصير والظهير ، فانه لايحتمل ان القوم كانوا منابذين محمدا ومعاديه وكلهم قرابته وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو على . ولكن رؤية رجل كهل أمى بعينه غلام فى السادسة عشرة يقومان فى وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو الى العجب المضحك ،

فانفض القوم ضاحكين . ولـكن الأمر لم يك بالمضحك بل كان غاية فى الجد والخطر ! أما على فلا يسعنا الا أن نحبه ونتعشقه فانه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبرا ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة وكان أشجع من ليث ، ولـكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان جـدير بها فرسـان الصليب فى القرون الوسطى ، وقد قتل بالـكوفة غيلة ، وانما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل انسان عادلا مثله ، وقال قبل موته حينما استشير فى قاتله : « ان أعش فالأمر الى ، وان أمت فالأمر لـكم ، فان آثرتم ان تقتصوا فضربة بضربة ، وأن تعفوا أقرب الى التقوى » .

وكان فى عمل محمـد هذا اساءة ولا شك الى قريش حراس الـكعبة وخدمة الأصـنام . وانضم اليه منهم رجـلان أو ثلاثة أولو بأس ونفوذ . وسرى أمر محمـد ببطء ولـكنه سريان على كل حال . وكان عمله بالطبع سيىء الوقع لدى كل انسـان ، حيث جعلوا يقولون : من هذا الذى يزعم انه أعقل منا جميعا والذى يعنفنا ويرمينا بالحمق وعبادة الخشب . وأشار عليه أبوطالب أن يكتم أمره ويؤمن به وحده وأن يكون له من نفسه ما يشغله عن العالم والا يسخط القوم ويثير غضـبهم عليه فيخطر بذلك حياته . فأجابه محمـد : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » كلا ، فان فى هـذه الحقيقة التى جاء بها لشيئا من عنصر الطبيعة ذاتها لا تفضله الشـمس ولا القمر ولا أى مصنوعات الطبيعة . ولابد لتلك الحقيقة من أن تظهر برغم الشمس والقمر مادام قد أراد أن تظهر ، وبرغم

قريش جميعها وبكره سائر الخلائق والـكائنات . نعم، لابد من أن تظهر ولا يسعها الا ان تظهر . بذلك اجاب محمد ويقال : « انه اغرورقت عيناه » . لقد أحس من عمه البر والشـفقة وادرك وعورة الحال وعلم انه أمر ليس بالهين اللين ولـكنه أمر صعب المراس مرالمذاق.

واستمر يؤدى الرسـالة الي كل من أصغى اليه ، وينشرمذهبه بين الحجيج مدة اقامتهم بمكة ، ويستعمل الأتباع هنا وهنـالك وهو يلقى أثنـاء كل ذلك منابذة ومناوأة ومناصبة بالعداوة ومجاهرة وشرا باديا وكامنا. وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة الى الحبشة فوقع خبرذلك العزم من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه فنصبوا له الاشراك وبثوا الحبائل وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمدا بأيديهم . وكانت خـديجة قد توفيت وتوفى أبوطالب ، وتعلمون أصلحكم الله أن محمدا ليس بحاجة الى أن نرثى له ولحاله النكراء اذ ذاك ومقاومة الضنك وموقفه الحرج ، ولـكن اعرفوا معى ان حاله اذ ذاك من الشدة والبلاء كما لم ير انسان قط ، فلقد كان يختبىء فى الكهوف ويفر متنكرا الى هذا المـكان والى ذاك لا مأوى ولا مجير ولا ناصر ، تتهدده الحتوف ، وتتوعده الهلكات ، وتفغر له أفواهها المنايا ، وكان الأمر يتوقف أحيانا على أدنى صـغيرة ــ كاجفال فرس من أفراس اتباع محمد ــ فلو حدث ذلك لضاع كل شيء ، ولـكن أمر محمد ــ ذلك الأمر العظيم ــ ما كان لينتهى على مثل تلك الحال .

فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجـد أعداءه متألبين عليه جميعا ، وكانوا أربعين رجـلا كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه ، والفى المقام بمكة مستحيلا،

هاجر الى يثرب حيث التف به الانصار ، والبلدة تسمى الآن المدينة اى مدينة النبى ، وهى من مكة على ٢٠٠ ميل ، تقوم وسط صخور وقفار ، ومن هذه الهجرة يبتدىء التاريخ فى المشرق . والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد ، فترون انه كان قد أصبح اذ ذاك شيخا كبيرا ، وكان أصحابه يموتون واحدا بعد واحد ويخلون امامه مسلكا وعرا وسبيلا قفرا وخطة نكراء موحشة ؛ فلو انه لم يجد من ذات نفسه مشجعا ومحركا ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به من عوابس الخطوب ويحيط به من كالحات المحن والملمات ، وهكذا شأن كل انسان فى مثل هذه الأحوال . وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط ، فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الاصغاء الى صوت ضميره وصيحة لبه حتى ارادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة — عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربى ، ولسان حاله يقول : « واما وقد أبت قريش الا الحرب فلينتظروا اى فتيان هيجاء نحن! وحقا راى». فان اولئك القوم اغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق وابوا الا تماديا فى ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها ويأتون كل اثم ومنكر وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والاناة فابوا الا عتوا وطغيانا ، فليجعل الأمر اذن الى الحسام المهند والوشيج المقوم والى كل مسرودة حصداء وسابحة جرداء ! وكذلك قضى محمد بقية عمره وهى عشر سنين أخرى فى حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا

مدر فواق .. وكانت النتيجة ما تعلمون !

ولقد قيل كثيرا فى شأن نشر محمد دينه بالسيف ، فاذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه فشد ما أخطأوا وجاروا ، فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف ولكن ما هو الذى أوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وانه حق . والرأى الجديد أول ما ينشأ يكون فى رأس رجل واحد فالذى يعتقده هو فرد ـ فرد ضد العالم أجمع فاذا تناول هذا الفرد سيفا وقام فى وجه الدنيا فقلما والله يضيع وأرى على العموم ان الحق ينشرنفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال أولم تروا ان النصرانية كانت لاتأنف أن تستخدم السيف أحيانا . وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون وانا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية آلة أخرى فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها واظافرها ، فانها لن تهزم الا ما كان يستحق أن يهزم وليس فى طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها ، بل ما هو أحط وأدنى ، فانها حرب لا حكم فيها الا الطبيعة ذاتها ، ونعم الحكم . ما أعدل وما اقسط وما كان أعمق جذرا فى الحق وأذهب اعراقا فى الطبيعة ، فذلك هو الذى ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة ناميا زاكيا وحده .

اقوال الطبيعة أعدل حكم ، بلى ما أعدل وما أعقل وما أرحم وما أحلم انك تأخذ حبوب القمح لتجعلها فى باطن الأرض وربما كانت هذه الحبوب مخلوطة بقشور تبن وقمامة وتراب وسائر أصناف الأقذاء ، ولكن لا بأس عليك من ذلك والق الحبوب بجميع ما يخالطها من القذى فى جوف الأرض العادلة البارة فانها لاتعطيك

الا قمحا خالصا نقيا ، فأما القذى فانها تبلعه فى سكون وتدفنه ولا تذكر عنه كلمة ، وما هى الا برهة حتى ترى القمح زاكيا يهتز كأنه سبائك الذهب الابريز ، والأرض الكريمة قد طوت كشحا على الأقذاء واغمضت. بل انها حولتها كذلك الى أشياء نافعة ولم تشك منها شجوا ولا نصبا ، وهكذا الطبيعة فى جميع شئونها ، فهى حق لا باطل ، وهى عظيمة وعادلة ورحيمة حنون. وهى لا تشترط فى الشيء الا أن يكون صادق اللباب ، حر الصميم ، فاذا كان كذلك حمته وحرسته ، أو كان غير ذلك لم تحمه ولم تحرسه . فترى لكل شيء تحميه الطبيعة روحا من الحق . اليس شأن حبوب القمح هذه والطبيعة هو وا أسفاه شأن كل حقيقة كبرى جاءت الى هذه الدنيا أو تجيء فيما بعد ؟ أعنى ان الحقيقة مزيج من حق وباطل ، نور فى ظلام ، وتجيئنا الحقائق فى أثواب من القضايا المنطقية ونظريات علمية من الكائنات لايمكن أن تكون تامة صحيحة صائبة . ثم لابد من أن يجيء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها وجورها فتموت وتذهب . نعم ، يموت ويذهب جسم كل حقيقة ولكن الروح يبقى ابدا ويتخذ ثوبا أطهر وبدنا أشرف ، ولايزال يتنقل من الأثواب والأبدان من حسن الى أحسن ومن جيد الى أجود .. سنة الطبيعة التى لا تتبدل . نعم ، ان جوهر الحقيقة الكريم حى لايموت ، وانما النقطة الهامة والأمر الوحيد الذى يعرض فى محكمة الطبيعة ومجلس قضائها هو : هل هذا الروح حق وصوت من أعماق الطبيعة ؟ وليس بهام عند الطبيعة ما نسميه نقاء الشيء أو عدم نقائه ، وليس هو بالسؤال النهائى. ليس الأمر الهام عند الطبيعة حينما تقدم اليها أنت لتصدر حكمها فيك هو : أفيك أقذار وأكدار أم لا .. وانما هو

افيك جوهر حق وروح صدق أم لا ؟ او بعبارة تشبيهية ليس السؤال الهام عند الطبيعة هو : أفيك قشور أم لا بل : أفيك قمح ؟ ايقول بعض الناس انه نقى ؟ انى اقول له : « نعم نقى ـ نقى جداً ولكنك قشر ـ ولكنك باطل وأكذوبة وزور وثوب بلا روح مجرد اصطلاح وعادة وما امتد بينك وبين سر الكون وقلب الوجود سبب ولا صلة والواقع انك لا نقى ولا غير نقى وانما أنت لاشىء والطبيعة لا تعرفك وانها منك براء » .

نحن سمينا الاسلام ضربا من النصرانية ولو نظرنا الى ما كان من سرعته الى القلوب وشـــدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء فى العروق لايقنا انه كان خيرا من تلك النصرانية التى كانت اذ ذاك فى الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان ـ تلك النصرانية التى كانت تصدع الراس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب ببطلانها قفرا ميتا : على انه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جدا وبفضله فقط آمن الناس بها . وحقا انها كانت ضربا كاذبا من النصرانية كالدعى بين الأصلاء ، ولكنها ضرب حى على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة .

ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم ـ نظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجلية الى لباب الأمر وصميمه فقال فى نفسه : الوثنية باطل ، وهذه الأصنام التى تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أخشاب لا تضر ولا تنفع ، وهى منكر وفظيع وكفر لو تعملون. انما الحق أن لا اله الا الله وحده لاشريك له ، خلقنا

وبيده حياتكم وموتكم ، وهو أرأف بكم منكم ، وما أصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون .

وان دينا آمن به أولئك العرب الوثنيون وامسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقا وجدير ان يصدق به .. وان ما أودع هذا الدين من القواعد هو الشيء الوحيد الذى للانسان أن يؤمن به ، وهذا الشيء هو روح جميع الأديان — روح تلبس أثوابا مختلفة واثوابا متعددة وهى فى الحقيقة شيء واحد . باتباع هذه الروح يصبح الانسان اماما كبيرا لهذا المعبد الأكبر «الكون» جاريا على قواعد الخالق تابعا لقوانينه لا محاولا عبثا أن يقاومها ويدافعها . ولم أعرف قط تعريفا للواجب أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب فى السير على منهاج الدنيا ، فان الفلاح فى ذلك (اذا كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح) : وجاء محمد وشيع النصارى تقيم اسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة وماذا افاد ذلك وماذا اثمر؟ اما انه الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن إنتاجها وانما هو ان خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى . لقد جاء الاسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له أن يبتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة . وما كاد يظهر الاسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية وكل ما لم يكن بحق .. فانها حطب ميت أكلته نار الاسلام فذهب والنار لم تذهب .

اما القرآن فان فرط اعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق فى الأمم المختلفة . هذا وان الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة ، ولذلك لا عجب اذا قلت ان الأوربى

يجد قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد، لايزال يقطع فى صفحاتها قفارا من القول الممل المتعب ويحمل على ذهنه هضابا وجبالاً من الكلم لكى يعثر فى خلال ذلك على كلمة مفيدة ، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ، ولأنه لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه . فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لانجيلهم وما برح فى كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع فى شئون الحياة ومسائلها ، والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضىء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ، ومصدر أحكام القضاة ، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به فى غياهب الحياة ، وفى بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئا على التوالى . .

وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته فى آذان الألوف من خلق الله وفى قلوبهم ، اثنى عشر قرنا فى كل آن ولحظة . ويقال ان من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة .

اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، واذا خرجت من القلب نفذت الى القلب . والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل الى أفئدة سامعيه وقارئيه . وقد زعم « براديه » وأمثاله انه طائفة من الأخاديع والتزاويق لفقها محمد لتكون أعذارا له عما كان يرتكب ويقترف وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته . ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال ، فانى لأمقت كل من يرمى محمدا بمثل هذه الأكاذيب ، وما كان ذو

نظر صادق ليرى قط فى القرآن مثل ذلك الراى الباطل، والقرآن لو تبصرون ما هو الا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكارالطوال فى الخلوات الصامتات ، وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزآحم فى صدره حتى لاتكاد تجد مخرجا ، وقل ما تطق به فى جانب ما كان يجيش بنفسه العظيمة القوية ، هذا وقد كان تدافع الوقائع وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول وتنميق الكلم ، ويا لها من خطوب كانت تطيح به وتطير فلقد كان فى هذه السنين الثلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات ، وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن ـ حروب مع قريش والكفار ، ومخاصمات بين أصحابه، وهياج نفسه وثوراتها ـ كل ذلك جعله فى نصب دائم وعناء مستمر ، فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط ، وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية وهى تتململ طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب، وتدور بها دوامات الفكر حتى اذا اسفرت لها بارقة رأى حسبته نورا هبط عليها من السماء ، وكل عزم مقدس يهم به يخاله جبريل ووحيه ، أيزعم الأفاكون الجهلة انه مشعوذ ومحتال ؟ ! كلا ، ثم كلا ! ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ .. لقد كانت حياته فى نظره حقا وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة .

والاخلاص المحض الصراح يظهر لى انه فضيلة القرآن التى حببته الى العربى البدوى . وهى أولى فضائل الكتاب أيا كان وآخرتها ، وهى منشأ فضائل غيرها ، بل لا شيء غيرها يمكنه أن يبعث للكتاب فضائل

أخرى . ومن العجب أن نرى فى القرآن عرقا من الشعر يجرى فيه من بدايته الى نهايته ثم يتخلله نظرات نافذات ــ نظرات نبى وحكيم . أجل لقد كانت لمحمد فى شئون الحياة عين بصيرة ، ثم كانت له قدرة عظيمة على أن يوقع أذهانها كل ما أبصره ذهنه . أنا لا أحفل كثيرا بما جاء فى القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأنى أرى لها فى الانجيل شبيها ، ولكنى شديد الاعجاب بالنظر الذى ينفذ الى أسرار الأمور ، فهذا أعظم مايلذنى ويعجبنى ، وهو ما أجده فى القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكان محمد اذا سئل أن يأتى بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة ، انظروا الى هذه الأرض ، أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ؟ هذه الأرض التى خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه ، وهذا السحاب المسير فى الآفاق لايدرى من أين جاء وهو مسخر فى السماء كل سحابة كمارد أسود ، ثم يسح بمائه ويهضب ليحيى أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا واعنابا .. أليس ذلك آية ؟ والأنعام خلقها لكم تحول الكلأ لبنا وهى فخر لكم .. والسفن ــ وكثيرا ما يذكر السفن ــ كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز فى سواء اليم لها حاد من الريح وبينا تسير اذا هى وقد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح معجزات .. وأى معجزات بعدها تريدون ؟ ألستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ، ثم لكم جمال وقوة وعقل ، ثم وهبكم الرحمة ، أشرف الصفات ، وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم ،

وتموتون فتصبحن غير موجودين » ثم وهبكم الرحمة »
لقد أدهشتني جداً هذه الجملة ، فان الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة ، فماذا كان يكون أمرهم ؟ هذه من محمد نظرة نافذة الى لباب الحقيقة . وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال ، واتبين فيه عقلا راجحا عظيما وعينا بصيرة وفؤادا صادقا ورجلا قويا عبقريا لو شاء لكان شاعرا فحلا أو فارسا بطلا أو ملكا جليلا أو أى صنف من أصناف البطولة .

نعم ، لقد كان العالم في نظره معجزة ، أى معجزة ، وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة ، وهو ان هذا الكون الصلب المادى انما هو في الحقيقة لا شيء ـ انما هو آية على وجود الله منظورة ملموسة ، وهو ظل علقه الله على صدر الفضاء لا غير . وكان يقول : هذه الجبال الشامخات ستحلل وتذوب مثل السحاب وتفنى . وكان يقول : الجبال أوتاد الأرض وانها ستفنى كذلك يوم القيامة وان الأرض في ذلك اليوم العظيم تنصدع وتتفتت وتذهب في الفضاء هباء منثورا فتنعدم وكان لايزال واضحا لعينيه سلطان الله على كل شيء وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورونق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة وهذا ما يسميه علماء العصر القوى والمادة ولا يرونه شيئا مقدسا ، بل لايرونه شيئا واحدا وانما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل في تسيير السفن البخارية ، فسرعان ما تنسينا الكيماويات والحسابيات ما يكمن في الكائنات من سر الله ! وما أفحش ذلك النسيان عارا واكبر هذه الغفلة اثما . واذا نسينا ذلك فأى الأمور يستحق الذكر اذن ؟ فمعظم العلوم أشياء

ميتة خاوية بالية ــ بقلة ذابلة . نعم ، وما أحسب العلوم لولا ذلك الا خشبا يابسا ميتا وليس هو بالشجرة النامية ولا بالغابة الكثيفة الملتفة التى لا تبرح تمدك بالخشب اثر الخشب فيما تمدك وتعطيك : ولن يجد المرء السبيل الى العلم حتى يجده أولا الى العبادة . اعني انه لا علم الا لمن عبد ، والا فما العلم الا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة .

وقد قيل وكتب كثيرا فى شهوانية الدين الاسلامى؟ ! وأرى كل ما قيل وكتب جورا وظلما . فان الذى أباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه وانما كان جاريا متبعا لدى العرب من قديم الأزل وقد قلل محمد هذه الأشياء جهده ووضع عليها من الحدود ماكان فى امكانه أن يضع . والدين الاسلامى بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين ، وكيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والوضوء والقواعد الصعبة الشديدة : اقامة الصلاة خمسا فى اليوم والحرمان من الخمر . وليس كما يزعمون ان نجاح الاسلام وقبول الناس اياه كان لسهولته ، لأنه من أفحش الطعن على بنى آدم والقدح فى أعراضهم ان يتهموا بأن الباعث لهم على محاولة الجلائل واتيان الجسائم هو طلب الراحة واللذة والتماس الحلو من كل صنف فى الدنيا والآخرة ! كلا فان أحسن الآدميين لايخلو من شيء من العظمة والجلال ، فالجندى الجاهل الجلف الذى يؤجر يمينه وروحه فى الحروب بأجر بخس له مع ذلك « شرف » يحلف به فتراه لا يبرح يقول : لأفعلن ذلك وشرفى . وليست امنية أحقر الآدميين هى أن يأكل الحلوى بل أن يأتى عملا شريفا وفعلا محمودا ويثبت للناس انه رجل فاضل كريم . ليعمد أيكم الى

أبلد انسان فيريه سبيل المكرمات والمحامد. فاذا هو قد تأجج قلبه حماسا واتقدت نفسه غيرة وصار في الحال بطلا — وما أظلم الذين يتهمون الانسان بقولهم انه ميال بفطرته الى الراحة وانه يستهوى بالترف ويستغوى باللذة ، انما مغريات الانسان وجاذباته هي الأحوال والصعائب والاستشهاد والقتل . أقدح ما بنفس المرء من زناد الفضل تذك نارا تحرق سائر ما فيه من الخسائس والنقائص ، وما كان قط اعتناق الناس لدين من دواعي الشرف والعظمة .

وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا . وشد ما نجور ونخطيء اذا حسبناه رجلا شهويا لا هم له الا قضاء مآربه من الملاذ — كلا . فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيا كانت . لقد كان زاهدا متقشفا في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره واحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار. وانهم ليذكرون — ونعم ما يذكرون — انه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد في الله قائم النهار ساهر الليل دائب في نشر دين الله ، غير طامح الى ما يطمح اليه اصاغر الرجال من رتبة او دولة او سلطان ، غير متطلع الى ذكر او شهرة كيفما كانت . رجل عظيم وربكم والا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما واكبارا واعظاما ، وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله . لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفية ، وكانوا حماة الأنوف اباة

الضيم وعر القادة صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا ، فذلكم وايم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا . وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه ؟ وظنى انه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد فى ثوبه المرقع بيده . فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال .

وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة — صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف أن يصعد الى ربه ، ولا نحسب أن شدة تدنيه أزرت بفضله . كلا ، بل زادته فضلا. وقد تروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين رزىء غلامه : العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول ما يسخط الرب : ولما استشهد مولاه « زيد بن حارثة » فى غزوة « مؤتة » قال محمد : لقد جاهد زيد فى الله حق جهاده ولقد لقى الله اليوم فلا بأس عليه . ولكن ابنة زيد وجدتها بعد ذلك تبكى على جثمان أبيها — وجدت الرجل الكهل الذى دب فى راسه المشيب يذوب قلبه دمعا ! فقالت : « ماذا أرى ؟ » قال : «صديقا يبكى صديقه» مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا فى محمد أخا الانسانية الرحيم — أخانا جميعا الرءوف الشفيق ، وابن امنا الأولى وابينا الأول .

وانى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لا يعول الا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه : ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا ، فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد يخاطب بقوله الحر المبين

قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشـــدهم الى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها . ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ولـكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران .

وكان محمد لا يعتذر من الأولى ولا يفتخر بالثانية . اذا كان يراها من وحي وجدانه وأوامر شعوره ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين . وكان رجـلا ماضي العزم لايؤخر عمل اليوم الى غد . وطالما كان يذكر يوم « تبوك » اذ أبى بعض رجـاله السـير الى موطن القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر ، فقال لهم : الحصيد! انه لايلبث الا يوما . فماذا تتزودون للآخرة؟ والحر! نعم انه حر ، ولـكن جهنم اشد حرا . وربما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية . اذ يقول للـكفار : « ستجزون يوم القيامة عن أعمالـكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة » .

وما كان محمـد بعابث قط ولا شاب شيئا من قوله شائبة لعب ولهو ، بل كان الأمر عنده أمرخسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء . ولم يك منه ازاءها الا الاخـلاص الشديد والجد المر . فأما التلاعب بالأقوال والقضـايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندى افظع الجرائم ، اذ ليس هو الا رقدة القلب ووسن العين عن الحق . وعيشة المرء في مظاهر كاذبة . وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الانسان هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب ، بل انه هو نفسه أكذوبة . وأرى خصلة المروءة والشرف ـــ شماع الله ـــ متضائلا في مثل ذلك الرجل مضطربا بين عوامل الحياة والموت . فهو رجل

كاذب لا انكر انه مصقول اللسان مهذب حواشي الكلام محترم في بعض الأزمان والأمكنة . لا تؤذيك بادرته ، لين المس رفيق الملمس ، كحمض الكربون تراه على لطفه سما بقيعا وموتا ذريعا .

وفي الاسلام خلة اراها من أشرف الخلال واجلها ، وهي التسوية بين الناس . وهذا يدل على أصدق النظر واصوب الرأي . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض. والناس في الاسلام سواء والاسلام لايكتفي بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الاسلام . ثم يقدرها بالنسبة الى ثروة الرجل فتكون جزءا من اربعين من الثروة . تعطى الى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا. وما هو الا صوت الانسانية ـ صوت الرحمة والاخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل ـ ابن القفار والصحراء .

وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره ، فأقول أن العيب في ذلك على الشراح والمفسرين لا على ماجاء في الكتاب. فان القرآن قد أقل جدا من اسناد الحسيات والماديات الى الجنة والنار ، وكل ما فيه عن هذا الشأن ايماء وتلميح ، وانما المفسرون والشراح الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى الحقوها بالجنة ، ولا عذابا بدنيا والما جسمانيا حتى اسندوه الى النار . ثم لا تنسوا ان القرآن جعل اكبر ملاذ الجنة روحانيا اذ قال : « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » فالسلام والأمن هما في نظر كل عاقل أقصى اماني المرء وأعظم الملاذ قاطبة ، والشيء الذي عبثا يتلمسه الانسان في الحياة الدنيا .

وقال أيضا : « ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين » وأى رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات ؟ وأى شيء أهنأ من التآلف والتصافى ؟

وأى دليل اشهر ببراءة الاسلام من الميل الى الملاذ من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشـــــهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقرع عن مآربها وهذا هو منتهى العقل والحزم . فان مباشرة اللذات ليس بالمنكر وانما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات وتنقاد لحادى الأوطار والرغبات . ولعل أمجد الخصال واشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان ، وان يجعل من لذاته لا سلاسل وأغلالا تعيبه وتعتاص عليه اذا هم أن يصدعها ، بل حليا وزخارف ، متى شاء فلا أهون عليه من خلعها ولا أسهل من نزعها . وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصودا من محمد معينا أو كان وحى الغريزة والهاما فطريا فهو والله نعم الأمر .

ويمكننا القول على كل حال بأن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثلما صـــــادفت في القرآن . وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التى يقول عنها : « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى » ماذا ترون كل هذا الا ظلا تمثل في خيال ذلك النبى الشاعر للحقيقة الروحانية الـكبرى راس الحقائق ، أعنى الواجب وجسامة أمره . لقدكان هذا الرجل يرى الحياة أمرا جسيما ويرى لـكل عمل انسانى مهما حقر خطورة كبرى ، فما كان من سيىء

فله من السوء نتيجة أبدية وما كان صالحا فله من الصلاح ثمرة سرمدية . وان المرء قد يسمو بصالحاته الى أعلى عليين ، ويهبط بموبقاته الى أسفل سافلين ، وان على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلتهب فى روح ذلك الرجل القفرى كأنما قد نقش ثمة بأحرف النار ، وكل ذلك قد حاول فى أشد اخلاص وأحد جد أن يخرجه للناس ويصوره لهم فأخرجه وصوره فى صورة تلكم النار والجنة . وأى ثواب لبسته هذه الحقيقة وأى قالب صبت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة فى أى أسلوب وأى صورة .

وعلى كل حال فهذا الدين ضرب من النصرانية وفيه للمبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها . فاعرفوا له قدره ولا تبخسوه حقه . ولقد مضى عليه مائتان وألف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لخمس العالم، وما زال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم . ولا أحسب ان أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين باسلامهم ــ اذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد . وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة أحد المارة : « من السائر ؟ » فيجيبه السائر : « لا اله الا الله » وان كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل وأطراف النهار فى أرواح تلك الملايين الكثيفة ، وان الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والملاى فيهدمون اضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الاسلام .. ونعم ما يفعلون .

ولقد أخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات الى النور، وأحيا به من العرب أمة هامدة وأرضا هامدة ، وهل كانت

الا فئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منهـا حركة ، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسـالة من قبله فاذا الخمول قد استحال شـهرة والغمـوض نبـاهة والضعة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء وعم ضوءه الأرجاء وعقد شعاعه الشـمال بالجنوب والمشرق بالمغرب ، وما هو الا قرن بعد هـذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الاسـلام حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبـأس والنجدة ورونق الحق والهـدى على نصف المعمورة . وكذلك الايمان عظيم ، وهو مبعث الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة رقى فى درج الفضـل وتعريج الى ذرى المجد ما دام مذهبها اليقين ومنهاجها الايمان . ألستم ترون فى حالة أولئك الأعراب ومحمدهم وعصرهم كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التى كان لا يبصر بها فضل ولا يرجى فيها خير فاذا هى بارود سريع الانفجار وماهى برمل ميت ، واذا هى قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى . ولطالمـا قلت ان الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسـائر الناس فى انتظاره كالحطب فما هو الا أن يسـقط حتى يتأججوا ويلتهبوا .

البطل فى صورة شاعر
دانتى - شكسبير

البطل فى صورة اله والبطل فى صورة نبى هما من ثمرات العصور الغابرة لا يعود بهما الزمان بعد ذلك أبداً ، وهما يدلان على جفاء فى الفكر وغلظة فى الفهم يمحوهما مجرد تقدم العلوم الطبيعية ، ومحال على الناس أن يحملهم فرط العجب والاعجاب برجل من الرجال حتى يخالوه ألها أوناطقا بصوت اله الا اذا كانوا عائشين فى عصر خال البتة من الأوضاع العلمية الطبيعية . نعم، لقد انقضى زمن الآلهة والأنبياء وجاء الزمن الذى يلبس فيه البطل صورة أقل عظمة وأبهة وان لم تك أقل فضلا وحقا ، أعنى صورة الشاعر ، والشاعر نوع من البطل لا ينفرد به عصر دون آخر ، جدير أن تنتجه أقدم العصور وأحدثها .

بطل نبى شاعر — الى غير ذلك من شتى الاسماء نعطيها للرجل العظيم فى شتى الأزمان والأمكنة وذلك حسبما نرى بينهم من الفروق وحسبما برعوا فيه من فنون الفضل وأبواب العلم ! أو على هذه القاعدة يمكننا أن نعطى كثيرا من الاسماء غير ذلك . وانى لأوقن بأنى لا احسب ان هناك رجلا عظيما لايمكنه أن يكون عظيما

فى كل فن ، فالشاعر الذى لا يستطيع الا ان يجلس الى يراعه وقرطاسه فينظم قصيدة مستحيل عليه ان ينظم قصيدة بارعة ، ولا أحسبه يجيد صفة الفارس الأروع الا اذا كان هو نفسه فارسا أروع ، ولا أحسب الشاعر الكبير الا انه يجمع فى نفسه بين السياسى والمفكر والمشرع والفيلسوف وانه قد كان يمكنه ان يكون — بل هو بالفعل — كل هذه . ثم لا افهم لماذا كان يستحيل على رجل مثل «ميرابو» صاحب القلب الكبير المتوهج المتأجج نارا المفعم دموعا ان يكون شاعرا ينظم القصيد والمبكيات التمثيلية والمقطعات فيقرع بها القلوب والأكباد لو قد ساقته الأحوال والأسباب الى ذلك . والأمر الأولى الجوهرى هو أن يكون الرجل عظيما ، وأن فيما قاله نابليون لكلمات لا تقل قيمة عن أكبر وقائعه ، وقد أذكر قواد لويس الرابع عشر فيخيل الى انهم كذلك شعراء ، وان فى كلمات القائد تورين ما يماثل اقوال صامويل جونسون حكمة وبلاغة ، فالقلب الكبير والعين البصيرة هما راس الفضائل ، وما كان لامرىء قط أن يجل ويعظم بغيرهما . أو لاتذكرون ان الشاعرين « بترارك » و « بوكاشيو » كانا يقومان بأعمال سياسية فيحسنا القيام بذلك ؟ ! أم لا تحسبون ان الشاعر « بارنز » لو قد جعله الله مكان « ميرابو » لأتى ما لم يستطعه ؟ ولا نعلم اى عمل من الأعمال كان شاكسبير لايؤديه على اكمل حال لو قد اسند اليه .

ولست انكر أن لكل امرىء طبيعة خاصة واستعدادا فطريا ، وان هنالك فروقا فى الغرائز ، ولكن فروق الأحوال والعلل أكثر واكبر . وما عظماء الرجال فى ذلك الأمر الا كأصاغرهم ، فانك لتتناول الطفل الممكن

تصبيره اى صانع فتعلمه حتى يصبح حدادا أو نجارا او بناء ، ومتى أصبح هذا اوذاك بقى كذلك طول عمره. واذا كنا لا نزال كما قال « أديسون » نجد الرجل الأعرج الموهون يعتمد على عصاه وهو مع ذلك حمال ينوء تحت ثقله الفادح ، وآخر ضخم الجثة شديد القوى عبل الشوى عادى الألواح كأنه الهيكل المبنى وهو مع ذلك خياط لايحمل الا خيطا وابرة يخف محمولهما على النملة ، على ان الأمر غير متوقف على الاستعداد الطبيعى . وكذلك الرجل العظيم ماذا يصير وبم يحترف — أيصير غازيا أم سلطانا أم فيلسوفا أم شاعرا ؟ انها لمناظرة عويصة معضلة بينه وبين العالم ! وما عليه الا أن يقرأ العالم وقوانينه ، والعالم وقوانينه صحيفة منشورة أمامه ، وما لدى العالم مسألة أهم وأخطر مما يراه ويقضى به فى شأن الرجل العظيم .

ان بين الشاعر وبين النبى فى نظر المتأخرين فرقا كبيرا . ولقد كان مدلولهما فى بعض اللغات القديمة واحدا . فلفظة « فاتيس » معناها شاعر أو نبى . والحقيقة انه ما زال بين النبى والشاعر لو يفقه الناس شبه قريب . وما برح جوهرهما واحدا من حيث أن كليهما ينفذ ببصره الى سر الكائنات المقدس ، أو ما يسميه «جوته» السر الجلى ، الجلى لكل انسان ولا يكاد يراه مع ذلك انسان . السر الالهى الكائن فى كل كائن — المستقر فى باطن « الظاهر » كما يقول «فيشتى» — السر الذى ما جميع الظواهر من النجوم الزاهرة الى الرياض الناضرة الى ظواهر الانسان وافعاله الا ثوب له وبدن يتراءى فيه ويظهر ، نعم . السر الالهى فى كل زمان ومكان موجود ولاريب ، وربما أغفله الناس فى

معظم الأوقات والجهات اذ يحسبون الـكون الذى هو « فكر الله المحقق » شيئا عاديا تافها هامدا كأنما هو شىء جامد تولى صنعه النجار والحداد . ولا داعى هنا للاكثار فى ذلك الموضـوع ولـكنى أقول : ويل للذين لايفقهون ذلك ولا يؤمنون به ، ويل لهم واسف عليهم ، ويا بؤس الحياة اذا كانت غير مشفوعة بذلك !

ولـكنى أقول : من كان من الناس ينسى ذلك ويغفله فان « الفاتيس » أعنى الشاعر أو النبى باحدى اللغات القديمة لم ينسه ولم يغفله ولـكنه نفذ اليه ببصيرته ، وانما أرسـله الله ليفعـل ذلك وليكشـف من سر الله ما غمض .

هذه هى ابداء رسالته الى الناس. أن يجلولنا غامض السر ــ ذلك السر الذى هو اليه أقرب وبه أعرف من سائر الخلق ، فاذا نسوه فقد ذكره مسوقا الى ذكره بأقوى دافع من ذات نفسه عائشا فيه من حيث لم يرد ولم يشعر . فهو ليس بتابع لمعتاد القول ولـكنه رجل نظارة مبتدىء محقق ، فهو لايستطيـع الا أن يـكون مخلصا ، ومن عاش من النـاس وسـط الظواهر فهو العائش فى صميم الحقائق ، المجتهد فى الله ، الجاد فى شـــئون الحياة والـكائنات ، ولو عبث العالم طرا فالاخلاص أول أسباب شاعريته ونبوته . وهكذا يشترك الشاعر والنبى فى ادراك سر الله الجلى ، فهما من حيث ذلك واحد .

أما الفرق بينهما فذاك : وهو أن النبى قد تناول هذا السر المقدس من وجهة نظر الخير والشر، المحظور والمباح ، وتناوله الشاعر من وجهة الجمـال والحسن والجلال وما شاكل ، فأحدهما الهادى الى ما نفعل ،

وثانيهما الدال على ما نعشق . على انهما بعد متداخلان ، وفرعان متعانقان لا يمكن الفصل بينهما وفصم عروتهما ، ولا يخلو النبي من تتبع الجمال أيا كان ، والا فكيف له أن يبصرنا ما يجب علينا اتيانه . ولقد جاء في التوراة — وهو قول نبي — آية جديرة ان تحسب كأبدع مانظم شاعر وهي : « انظر الى زهر الرياض فانك لا تراه يكدح ولا يغزل ولا ينسج وهو مع ذلك قد كسى من ثياب البهجة وبرود الحسن ما لم يكسه سليمان في ريعان سلطانه » اليست هذه الآية ثمرة البصيرة النافذة الى أعمق أعماق الجمال ؟ « زهر الرياض » رافل من فنون الوانه في أقشب من مطارف الأمراء وآنق من حلل الملوك وهي بعد نابتة من الثرى المتواضع والتراب المتطامن كأنها عيون الملاح ترنو اليه من خلال بحر الجمال الباطن . وهل كان للأرض ان تصوغ هذه الأزهار لو لم يكن الجمال جوهرها رغما من ظاهرها الجعد المتلبد ؟ ومن ثم قال «جيتا» قولا استنكره الكثيرون وهو « الجمال أفضل من الخير والجمال يشتمل على الخير وأكثر » وانما قصد الى الجمال الحق الذي يفضل الجمال الكاذب كما تفضل حدائق الجنة غابات « بولونيا » . وحسبنا ذلك بيانا للفرق بين الشاعر والنبي .

قليل في شعراء العصور القديمة والحديثة من يحسبهم الناس كاملين قد بلغوا الغاية القصوى . وهذا القول وايم الله ان كان ظاهره الصدق فهو في الواقع أخدوعة ، اذ الحقيقة انه ليس في جميع الشعراء كامل ، وانما الشعر عرق يجري في طبيعة كل امرىء لا يخلو منه ، وكل انسان يجد فهم قصيدة فهو في أثناء قراءتها شاعر . وما الفؤاد الذي يرتاع لتلاوة جحيم : «دانتي»

الا من طينة فؤاد ذلك الشاعر وان كان بعد أقل شاعرية. ولم يك غير شاكسبير بقادر على اشتقاق قصة هامليت من تلك الحكاية القديمة ـ حكاية الشاعر « ساكسو جراماتيكاس » ولكنه ليس من انسان الا ويستطيع ان يصنع قصة ما من تلك الحكاية يكون مقدارها من الجودة والرداءة بمقدار ما وهبه الله من قوة الخيال أو ضعفه . وارى التعريفات كلها اختيارية ذوقية ما لم يكن هنالك فرق محدود كما بين المربع والدائرة ، فكل رجل فاق حظه من المزية الشعرية حظوظ سائر قومه وجيله حتى نصع أمره بينهم كالغرة فى الفرس البهيم والأبلق وسط الدهم كان جديرا أن يسموه شاعرا . وكذلك شأن انتقادهم أكابر شعراء العالم ، فان من رأوه من الشعراء قد برز فى مضمار الشعر حتى بز القرناء وحلق فى سماء الخيال حتى علا النظراء اجمعوا على اجلاله وسموه شاعرا عاما . على ان مثل هذا الحكم ليس فى الحقيقة الا مسألة ذوق ورأى خاص ، فان فى جميع الشعراء بل فى جميع الناس معنى من الشعور العام أو الشاعرية العامة لم يخل فرد من ذلك ، وسرعان ما ينسى الناس معظم الشعراء . ثم لا تحسبن ان الأعاظم الأفضلين منهم : أمثال شاكسبير ، وهوميروس ، الا ملاقين من النسيان حظوظهم ، ولابد من يوم يصبح أمرهم فيه نسيا منسيا .

ولسائل أن يسأل أى فرق هنالك بين الشعر الحر وبين الحر من الكلام غير الشعرى ؟ فالأجوبة على ذلك كثيرة ولا سيما ما كتبه نقاد الألمان فى ذلك الصدد ، وفيها الذى لا يفهم لأول وهلة . فمن ذلك قولهم : ان الشاعر تكون روحه عديمة النهاية ثم هو ينفض هذه الخاصية ، أعنى عدم النهاية على كل شىء يصفه او

يصوره . فهذا الكلام وان لم يكن بمحكم ولكنه جدير بالذكر اذ كان انما قيل فى موضوع مبهم مثل الشعر ، ثم هو لا يخلو من بعض المعنى اذا تؤمل وتدبر . اما انا ، فانى أجد معنى جما فى التعريف القديم للشعر وهو : انه الكلام الموزون المودع شيئا من الموسيقى حتى لهو ضرب من الغناء . وحقا لو اضطر الانسان الى اعطاء تعريف للشعر لما كان متجاوزا ذلك التعريف القديم ، فاذا كان نظمك موسيقيا لا فى اللفظ فقط بل فى اللب والمادة وفى جميع الأفكار والمعانى والنظام والنسق فهو شعر والا فلا ، والمعنى الموسيقى هو ما اذا خرج من ذهن نفذ الى لباب الشيء وادرك مكنون سره ، أعنى النغمة الكامنة فى جوفه — اعنى ما يستتر فى ضمير ذلك الشيء من موسيقى الائتلاف والوئام — من تلك الموسيقى التى ليس الا بفضلها يوجد ذلك الشيء ويكون أهلا لان يوجد فى هذه الدنيا . ولقد يمكننا القول بأن لباب كل شيء موسيقى ، أعنى انه اذا بدا للناس بدا فى منطق موسيقى ، أى بدا فى صوت الغناء . وأنى أرى معنى الغناء عويصا عميقا ، اذ أين ذلك الذى يستطيع ان يصف لنا تأثير الغناء بالقلم أو باللسان ، والغناء ضرب من الكلام المستحيل النطق والمتناهى العمق الذى يذهب بنا الى شواطيء المجهول فيتركنا ننظر برهة فى ذلك البحر .

أجل ان فى جميع الكلام حتى فى اكثره استعمالا لشيئا من النغم والغناء ، وليس ثمة قرية فى العالم مهما حقرت الا ولأهلها لهجة قد خص بها منطقهم وكلامهم — فهذه اللهجة هى النغمة التى يغنى بها أولئك القوم ما يقولونه من الكلام ! نعم ان اللهجة ضرب من النشيد

والترنم ، وما من قوم الا ولهم لهجة خصوا بها وان كانوا لا يفطنون الا للهجات غيرهم . ثم اذكروا أيضا ان كل كلام صـــادر عن انفعال فانه يلبس بطبيعته ثوبا موسيقيا ، بل أرى كلام الغضبان صوتا من الغناء ، وهكذا كل لباب وصميم وشيء عميق فهو غناء ، بل يظهر لى ان الغناء هو لبابنا الجوهرى ، وان كل ما فينا بعد ذلك اللباب أو الغناء فانما هو لفائف وقشور وأغلفة ! نعم ، الغناء هو أول عناصرنا وعناصر جميع الأشياء . ولقد كانت اليونان تقول فى خرافاتها : ان للفلك فى مسيره موسيقى .. ولعل ذلك كان دليلا على ما كانوا يشعرون به من تركيب الكائنات الباطنى ونظامها الداخلى ، وان روح أصواتها وتعبيراتها لم يك الا غناء وموسيقى . وعلى ذلك فسنسمى الشعر : فكرا موسيقيا : والشاعر هو الذى يفكر على هـذه الصورة ، وأساس ذلك هو فى الحقيقة قوة الذهن ، وانه الاخلاص ونفاذ البصيرة هما اللذان يجعلان المرء شاعرا . انظر الى صميم الأشياء يكن نظرك موسيقيا ، فان قلب الطبيعة هو الموسيقى لو أمكنك ان تنفذ اليه.

ويظهر لى أن الشاعر ــ كاشف أسرار الوجود بنغماته ــ ينزل من نفوس الناس منزلة منحطة جدا عن منزلة النبى ، اذ يرون عمله تافها ووظيفته صغيرة ، فكان البطل عندهم أولا الها ، ثم نبيا ، ثم شاعرا . أليس فى ذلك دليل على انحدار الرجل العظيم فى انظارنا على توالى الزمن ؟ فانا نراه أولا الها ، ثم ذا وحى الهى ثم لا نرى فيه بعد ذلك الا ناظم أشعار جميلة ورجلا نابغة وبارعا وما أشبه ! هذا هو الظاهر لى ولكنى احمل نفسى على الاعتقاد بأن الأمر خلاف ذلك شعورا

منى بأنه لايزال فى بنى آدم الاجلال المفرط ــ لم ينقص مثقال ذرة ــ للعظمة والبطولة فى اية هيئة بدت وأى اسم اعطيت .

وقد أعلم أنه اذا كنا الآن لا نرى فى الرجل العظيم الها ولا نبيا فما ذلك ان رأينا فى الله وفى ينبوع الضياء الأقدس الأعلى ومنبع العظمة والعقل الأوفر الاوفى قد اتضع وخبا ، بل بالعكس لأنه قد سما وطاب . وجدير بكم أن تعوا ذلك وتذكروه .

ولا أنكر ان الشك والكفر والاستخفاف ، آفات هذه العصور ، قد أحدثت ضررا عظيما فى هذا الأمر الأجل الأعلى باضعافها فى نفوس الناس اجلالهم للبطل حتى أصبح معظمهم ينكرون وجود العظماء المستحقين للاجلال ، وهذه وأبيكم الأم العقائد وانكاها وأوخمها مغبة ، ولن يكون مع اعتقادها الا اليأس المطلق من الانسانية وسائر أمورها وأشيائها . ومع كل ذلك فانظروا الى نابليون ! ضابط صغير على طائفة من جند المدافع هذا هو ظاهر نابليون ولكنه مع ذلك قد أصاب من طاعة رجاله وتقديسهم اياه ما لم يصبه كثير من الأنبياء وجبابرة الملوك . ثم انظروا الى الشاعر بارنز ، كيف كان اذا أطرد به مجرى الحديث استوقف الأميرات وخدم الاصطبلات بسحر بيانه ، فلم يبق منهم الا من شعر بأن لذلك الرجل فتنة وجلالا لم يروهما لأحد غيره ، وانه هكذا تكون الرجال والا فلا ! فترون من ذلك انه قد كان يكمن فى قلوب هؤلاء القوم وان لم تصرح به السنتهم ، ويلمح من خلال حركاتهم وان لم يظهر ساطعا جليا ، انهم كانوا يرون عظمة وقوة وجلالة لايجدونها لسائر الرجال فى ذلك الفلاح الكثيف

الحاجبين الوقاد المقلتين صاحب الكلمات التى تستوكف الأعين تارة بهوامر الدموع وطورا تقوم بالضحك الشديد حنايا الضلوع ، أو لانشعر نحن أيضا بذلك ؟ ولكنه لو طهر الله نفوس الناس من ادران الشك والاستخفاف والعبث وسائر هاتيك الرذائل — وسيفعل الله ذلك يوما ما — نعم ، لو ابدلت القلوب من رذيلة الايمان بالمظاهر الكاذبة فضيلة الايمان بالجواهر الصادقة اذن فأى منزلة تكون لمثل الشاعر بارنز فى نفوسنا واى محبة واكبار تمجيد .

وعلى كل ذلك ألا ترون ان لدينا شاعرين ، هما وان لم ينالا منزلة الألوهية فقد نالا فى هذه العصور على ما بها من رذائل الاستخفاف والنكران والشك منزلة التقديس والولاية ، نعم ان شاكسبير ، ودانتى لوليان من أولياء الشعر حرام على كل انسان ان ينال مقامهما الشريف بأدنى اساءة . وهذه نتيجة وصل اليها العالم بالالهام والفطرة رغما مما قام فى طريقه من ظلمات الجهل والشك وعقبات الجحود والكفر . ويفصل هذين الشاعرين من الزمن مسافة قصية وكلاهما قائم فى فضاء الدهر كراهب فى فضاء القفر له مملكة من الوحدة ودولة من الوحشة غريب فى جيله وقومه .

غربته العلى على كثرة الأهـــ
ـــل فأضحى فى الأقربين غريبا

لا مثيل لهما فى سائر الشعراء ، تباركا عن الأنداد والأقران ، يحفهما فى نظر العالم نور من الجلال ورونق من الكمال ، فهما مقدسان وان لم يتول تقديسهما بطارقة وقسوس . وهكذا ترون كيف ان ما أودع نفوس البشر من فطرة البطل لايزال يحيا فى قلوبهم برغم

انتشــار الســخرية والاستخفاف واســتيلاء الجحــود والــكفر . وسنلقى نظرة فى تاريخ هذين البطلين .

لقد الفت عدة تراجم لدانتى وجملة حواش وشروح لـكتابه ولـكنها على العموم قليــلة الثمرة . أما تاريخ حياته فقلما يعرف عنه شىء . لقــد فقــد معظمه حتى لايمكن تداركه ، لم يك دانتى فى زمانه الا رجلا صــغير الشــأن شريدا طريدا مكسور الفؤاد مهيض الجنــاح ، قليلا اهتمام الناس به مدة حياته ، واسوأ من ذلك ان معظم أنباء ذاك الخمول والبلاء تراها على علاتها قــد بادت على ممر خمســة قرون . وعلى كثرة ما كتب عنه من التراجم والشروح فكتابه هو جل ما نعرفه عنه . كتابه وصورته المنسوبة الى المصــور « جيوتو » التى اذا ما نظرت اليها لم يسعك الا الشــهادة لصــانعها بالاحسان والاجادة ايا كان . أما انا فأرى ذلك الوجه أمس الوجوه لـكبدى ، وأقرعها لأحشائى . وارى آية الحزن والألم وآية الفوز كذلك والظفر على صحيفة ذلك الوجه البادى فى رقعة المصــور منفردا وحيدا لا يحفه شىء من الأثاث والمتــاع الا ما يرفرف عليه من روح الوحشة — ارى كل ذلك عنوانا على تاريخ دانتى ! وظنى انه أشجى وجه صور من عالم الحقيقة — وجه محزن مفتت للفؤاد ، أساس معانيه الرقة والرحمة والحنان لا كما تكون فى الرجل بل كما تكون فى الطفل ، ولكن قد خالط هذه المعانى الرقيقة معان أقسى وأمر ، معانى وحشة وسخط ، وألم فى تجلد وتعزز ، ويأس فى رفعة وكبرياء . روح رقيقة هواء قد لبست آية البــأس والقسوة والاستبداد والعبوس والاكفهرار ، كأنما تنظر اليك من وراء سجف من الثلج ! وقد قلصت شــفتاه

احتقارا وازدراء ـ لا كازدراء الانس ، بل كازدراء الآلهة ـ للشيء الذى يذيب حشاه ويأكل فؤاده ـ كأن ذلك الشيء هو أحقر ما يكون وادنى ، وكأن صاحب الوجه هو أشرف من ذلك الشيء وان كان يتجرع منه مر البلاء ويسام به سوء العذاب ، انما هو وجه رجل منابذ للدنيا ، مناصب لها ، معارض لأحكامها ، قد صب عليها غارة شعواء ، وأقام لها من الحرب سوقا ، بضاعها أبدا نافقة ، ورحى ما تبرع العمر دائرة . وهل هى الا محبة تحولت حنقا ـ لا يفتر ولا يستريح ـ متمهلا مطردا ساكنا كحنق اله ! ثم ترى للعين نظرة اندهاش واستفهام كأنها تسأل : لماذا خلق الله الدنيا على هذه الصفة ! هذا هو دانتى هذا هو صوت عشرة قرون خرس . هـذا هو الرجل الذى صدح لنا صوتا عن الجحيم والجنة !

وارى هناك مطابقة بين مانعرفه عن حياة دانتى وبين صورته وكتابه ـ ولد هذا الشاعر بمدينة فلورنس من اعمال ايطاليـا فى عام ١٢٦٥ ، وعلم وثقف على أحسن نظام كان اذ ذاك ، وكان فيما تلقاه كثير من الفقه والمنطق والأدب اللاتينى ـ وله قـدم راسـخة فى بعض أبواب العلم ، ولم يدع دانتى فيما نظن شيئا يتعلم حتى حصله ، وكان ذا فهم صفى مهذب ، وذكاء مشتعل ، وعقـل راجح ، وكان قد اتقن من العلم ماجاء فى الأزمان القريبة من عصره ، فأما ما بعد عنه فى أقاصى الغابر فلم يجد اليه سبيلا لخلو عصره من المطبوعات ومن أسـباب التواصل ، وسلك فى حياته المذاهب المعتادة ، فصحب جيش بلاده فى حربين ، وذهب مرة سـفيرا الى بعض الولايات ، واصبح بفضـل ذكائه وجده احد القضـاة

الأكابر وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان قد عرف فى طفولته صبية حسناء فى مثل سنه ومنزلته ، وكان يراها احيانا وكانت تمتد بينهما صلات على بعد ، وكلكم يعرف ما كان من أمره معها وما كان من الشتات والفرقة ومن اقترانها برجل غيره ووفاتها بعد ذلك بقليل ، وهى تشغل جزءا عظيما من كتاب دانتى ومن حياته أيضا . ويظهر لى انه لم يحب قط غيرها انساناء وكان حبا من صميم الأحشاء وان فؤاده ما برح يناجيها — والقبر ما بينه وبينها — وينزع اليها وهى مع الله ماتت ، وزوج من امراة اخرى ولكنه لم يسعد ، وشتان ما بينه وبين السعادة .

ولسنا متوجعين لدانتى آسفين لما أصابه ، فانه لولا تلك المصائب لما كان دانتي الا أحد قضاة بلده ولخسر العالم كلمات من ابرع ما أنشد وما تغنى به . نعم لقد كان يزيد قضاة « فلورنس » واحدا ولكن العشرة قرون الخرس كانت تستمرعلى خرسها والعشرة التالية المصغية (لأنه سيتم طبعا بعد تاريخ وفاة دانتى عشرة قرون واكثر) تحرم تلك القصيدة الرائعة — كتاب دانتي — وتخسر لذيذ مسموعها . نعم ، لا أسف ولا حرقة ولا حسرة وكيف وانما اراد الله لذلك الشاعر حياة أشرف وأسمى ، ولعلنا لا نعرف ايهما الأسعد الأهنأ — عيشة المرء الأليمة ، أم عيش هادىء عادى ، والسعادة والشقاء سر من الأسرار يعيى به البشر ، وكلهم فيه خابط عشواء وحاطب ليل .

وبينما دانتى عائش فى وطنه قائم بوظيفة القضاء اذ ثارت فتنة ادت الى نفيه وسائر جزبه فكتب عليه منذ ذاك الشقاء والويل وانتزعت املاكه واصبح وهو :

ناء عن الأهل صفر الكف منفرد
كالسيف عرى متناه عن الخلل

وكان يشعر وفى حشاه جمرة تتوقد بأن ما لقيه من افحش الظلم وأفظع الجور ، وحاول جهده أن يرجع الى وطنه وثروته ولم تدع وسيلة الا اتخذها حتى السلاح ولكن عبثا حاول وما زاده اجتهاده الا خطبا على خطب ومحنة فوق محنة فأهدر دمه ونودى متى قبض عليه أعدم احراقا ، هكذا وجد فى بعض الآثار وألفى أيضا رسالة تاريخها واقع بعد هذه الحوادث بعدة سنين ردا من دانتى على اقتراح قدمه اليه قضاة بلده يعدونه بالعفو والعودة الى منصبه وأملاكه اذا هو قبل أن يقدم معذرة وغرامة ، فأجاب فى عزة وكبرياء : « اذا أنا لم ارجع برىء الساحة موفور الكرامة ، فلا رجعت أبدا » .

وكذلك راح دانتى فى هذه الأرض الرحبة الفضاء بلا دار ينتقل من مضيف الى مضيف ، ومن محل الى محل منطبقا عليه قوله : « آه ، ما أوعر المسلك ، وما اخشن الطريق » ولم يكن دانتى بالجليس الممتع ، وأنى يكون كذلك من كان هو كسير القلب كسيف البال ؟.. كلا ، ولا كان دانتى وهو صاحب الطبع الحاد ، والفؤاد الجاد ، والأحزان والأشجان بجديرأن يلهىالغير بفكاهته ويضحكهم بنادرته . وقد روى عنه بترك انه لما كان فى بلاط الأمير « كانديلاسكالا » وقد لامه ذلك الأمير على اطراقه واكتئابه وصمته ، اجابه بجواب خشن ، وكان الأمير اذ ذاك وسط مجانه ومزاحه يضحكونه بغرائب النوادر ، فأقبل على دانتى يقول له : « أليس عجيبا ان نرى ذلك الماجن المسكين يجتهد ليجعل فى مقاله متاعا

ولذة ، وانت على ما بك من عقل وحكمة تطوى اليوم فى اليوم ، والشهر فى الشهر ، مطرقا صامتا ، لا تفوه بكلمة يكون لنا فيها مستمتع ومستلذ ؟ » فقال دانتى : « لا عجب ! أو لاتذكر المثل : ان الطيور على أشكالها تقع » . فمثل هذا الرجل الكبير صاحب الأجوبة المسكتات ، والكلمات الموجعات ، والصمت والاطراق، لم يك ممن تروج بضاعتهم بأفنية الملوك . وكذلك ما زالت الأيام بدانتى حتى أفهمته انه أصبح ولامأوى له على ظهر الأرض ، ولا ملاذ ، ولا ملجأ ، ولا أمل ، وان الدنيا قد نبذته ولفظته ليضرب فى انحائها شريدا .

كأنما هو فى حل ومرتحل
موكل بفضاء الأرض يذرعه

وانه ليس تحت نجوم الفلك قلب ينبض رحمة له أو حشا يخفق وجدا عليه ، وانه لا خل ولا صاحب ، ولا سلوى ، ولا عزاء .

وكذلك كلما صدت عنه الدنيا وتجافت جنح بالطبع الى جنح بالطبع الى الآخرة وتوجه وامتلأ خياله بصورة العالم الأبدى — ذلك العالم الحق الذى ليست هذه الدنيا وبلدانها ومناصبها ومصائبها الا ظلا كاذبا يرفرف عليه ، وناجته نفسه : أما وطنك « فلورنسا » فلست ناظرا آخر الأبد ، واما الجحيم والجنة فسوف ترى ! وماذا وطنك والأمراء وماذا العالم والحياة ؟ ! تلك لا شىء ! وكذلك اذ أصبح دانتى فى الدنيا بلا مأوى جعل مأواه فى عالم الآخرة الرائع الهائل وكذلك أصبح لايرى حقيقة غير الآخرة ، فصارت مسرح خواطره ومراح أفكاره . والآخرة سواء حسبها الناس شيئا معنويا او شيئا حسيا فانها ما برحت أهم أمورهم ، ولكن دانتى

كان يعتقد انها حسية تنظر بالعين وتوطأ بالقدم وتمس باليد ، وكذلك كانت عقيدة تلك العصور ، فلم يشك دانتى فى انه سيبصر طبقات الجحيم وينظر بها بركة « ماليبولج » كما يشك أحدكم فى انه يبصر القسطنطينية لو اصبح على شاطىء البوسفور ، فلما أفعم فؤاد دانتى من هذه الأفكار والخواطر ، وطال عليه تأملها فى سكوت وتدبرها فى صمت ، طفح بها اناء صدره وفاض فبرزت للعالم فى ذلك الشعر الباهر والغناء الساحر — كتابه المسمى « القصة المقدسة » أشرف الكتب الحديثة وأشهرها .

ولقد كان من أقوى أسباب العزاء لدانتى ، بل من اعظم دواعى الفخر ، انه استطاع ان يخرج ذلك الكتاب الأجل فى منفاه ومحنته ، وانه لم يك فى طاقة «فلورنسا» ولا فى قدرة اى رجل أو رجال أن يحولوا بينه وبين اتيان تلك المأثرة الكبرى ، والمفخرة العظمى أو يعيثوه عليها ، وكان يشعر بعض الشعور — انه عمل جليل كأجل ما يستطيعه انسان . وكان ذلك البطل الضخم يقول فى شدة بأسائه وازمة تكرائه : اذا أمضيت عزمك ظفرت — كل من سار على الدرب وصل — وكانت مئونة الكتابة كبيرة عليه جدا ، وكان نصبها شاقا حتى قال : « هذا الكتاب الذى تركنى عدة أعوام فى هزال » . أجل ، لقد احرز دانتى قصبات السبق بالكد والألم ، لا بالدعة والعبث — بل بالجد العلقمى والجهد الناصب . كيف لا وانما بدم فؤاده سطر ذلك الكتاب وخطه ، وكذلك معظم الكتب الجليلة تنقش بدماء كتابها . والكتاب مودع سيرته جميعها ، وكانت وفاته بعد ان اكمله بمدة يسيرة ولما يطعن فى السن —

وانما قضى فى السادسة والخمسين من عمره ـ ضحية الحزن والكمد ـ هكذا يقال .. وهو الآن مدفون حيث لاقى منيته فى بلدة « رافينا » . ولما مر على وفاته قرن طلب أبناء وطنه الجثة من أهالى « رافينا » فأبوا كل الاباء . وعلى قبر دانتى هذه الآية : « هانذا ـ دانتى ـ مدفونا بعيدا عن وطنى ومسقط راسى » .

قلت ان قصيدة دانتى غناء ، وقد سماها « تيك » غناء لغزيا عميقا ، وما عدا بذلك عين الحقيقة . وقد قال «كولريج » فى بعض كتاباته : ان كل جملة موسيقية التركيب يجرى فى أثناء لفظها حلو النغم فلابد من أن تكون ذات معنى جليل شريف لأنه ما زال أبدا بين الجسم والروح ، بين اللفظ والمعنى ، الفة وشبه . والشعر القديم الجيد ـ شعر هوميروس مثلا ـ كله غناء ، بل كل شعر حر غناء . وان كل شعر لا يصلح أن يتغنى به فما هو بشعر ولكنه قطعة نثر فصلت فى لفظ طنان فيه عقوق لقواعد النحو واذى ومصاب على القراء . واذا كان فى راس أحد الناس خاطر فما باله لايبديه فى عبارة سهلة قريبة ـ اعنى فى جملة نثرية ؟ بل ما باله لايسنريح او يخرجه ملتويا معقدا تطن به القافية ؟ اما انه لاحق له قط فى النظم والغناء بالقوافى حتى تتملك فؤاده حرارة الانفعال وموسيقى الوجد فيصبح صوت منطقه بفضل موسيقية أفكاره وعمقها وعظمتها موسيقيا ، اذن فله علينا أن ندعوه شاعرا ونصغى اليه على انه غريد الناطقين وهزار اللافظين ، والأدعياء فى ذلك كثيرون ولذلك كانت قراءة النظم على القارىء الأريب عملا شاقا ان لم نقل عملا لا يطاق ! وما أقبح النظم الذي لم تكن هناك ضرورة الى نظمه ـ الذي

كان اولى له أن يلقى الينا معناه فى وضوح واختصار من غير تقطيع ولا رنة ولا طنين . وانى انصح الى كل من امكنه أن يقول أفكاره الا يغنيها ، وأن يفهم انه لا مجال فى الأحوال الجدية وبين القوم الجادين للطنين بأفكاره والتلاعب بها ما دامت ليست مما يقذفه الجنان برغم صاحبه شعرا . وكما ان الغنـاء الحر يلذنا ويطربنا ، فكذلك الكاتب منه يؤلمنا ويوجعنا ولا يقع منا الا موقع الضوضاء الممقوتة المنكرة ، ولا نراه الا كطنين الذباب او دوى النحل .

وحسب دانتى فخرا أن أقول ان قصته هى غناء حسن . أجل ، انى لأحس الوزن الموسيقى يطرد فى جميع لفظها فكأنها نشيد من الاناشيد . ولعل لمزية اللغة الطليانية دخلا فى ذلك . بل ارى حركة اللسان فى تلاوتها تجرى على ميزان فكأنها ضرب من الرقص ، ولكن السبب الأكبر فى ذلك هو خروجها من أعماق الفؤاد ، فجوهرها ومادتها من الموسيقى ، وهى بفضل عمقها وحرارتها واخلاصها موسيقية ، وانك ما تعمقت قط الا أصبت الموسيقى فى كل شىء . ثم لا تنس ما بالقصة من حسن الائتلاف والتوازن والتناسب وهذا ايضا من جنس الموسيقى وكأنما اركانها الثلاثة : الجحيم ، والمطهر ، والجنة — فى تواجهها الأركان الثلاثة لقصر مشيد وكأنها كنيسة قدسية عامة باذخة على وجهها آلة الروع والجلال والهيبة ، هذا هو العالم الذى خلقه دانتى وملأه بالأرواح بين منعم ومعذب — هذا هو عالم الارواح الذى خلقه دانتى ؟ وهى أشد أشعار الدنيا اخلاصا ، فالاخلاص هنا ايضا مقياس الفضل ، ولقد خرجت من لباب لبه فهى لا تزال تبلغ لباب ألبابنا .

أفرغت في الزجاج من كل قلب
فهي محبـــــوبة الى كل نفس

وكان أهل فيرونا اذا بصروا به في احدى الطرقات قالوا : ها هو ذا الرجل الذي كان في جهنم ! نعم ، وخالق الخلق لقد كان في جهنم — في جحيم الحزن والكربة والبلاء . والقصص التي تخرج من القلوب مقدسة لا يكون مصدرها الا الشقاء والبث واللوعة ، أوليس الفكر والعمل الحر أيا كان ، والفضيلة العليا — أفليست كل هذه بنات الألم ؟ فكأنما نتجت من الزوبعة السوداء — أليست مجهودا صادقا كمجهود الأسير اذ يحاول خلاصه ؟ وما زال الألم مصـــــفاة النفوس وراووق للطباع .

وقـــد هذبتك الحادثات وربما
صـــفا الذهب الابريز قبلك بالسبك

بل ، ليخيل إلى ان شعر دانتي قد سبك في تنور روحه وبوتقة قلبه . الم يتركه «مهزولا» عدة سنين ؟ وان الدقة لتحتوى قصته جميعها لم تغادر منهـا فقرة ولا جملة ، فتراها لذلك أصدق ما تكون وأجلى وأنصع . وتراها متجاوبة الأقسام ينزل كل جزء من أجزائها في موقعه كأنه حجر المرمر انعم نحته وأجيد صقله . وهل هي الا روح دانتي تتضمن روح القرون الوسطى قد برزت للعيون من أبدع قوالب الشعر وأعجب ؟ وتالله ما هو بالعمل السهل وانما أمر عظيم وخطب جلل ، ولـكنه أمر نفذ وعمل أكمل .

ولعل الحدة هي أهم مميزات دانتي، فما هو بالرجل الواسع الصدر السمح النفس ولـكنه رجل ضـيق الطعن متحزب ، وبعض هذا راجع الى طبيعة العصر

وبعضه الى طبيعة الرجل . فترى ان ملكات دانتي وقواه الذهنية قد تجمعت وتكشفت حتى اصبحت حدة نارية وشعورا عميقا ، فهو ينفذ فى جسم كل شيء حتى يرسب فى قراراته . ولست والله أعرف فى الوجود شيئا له مثل هذه الحدة . انظروا الى تصويره الأشياء تروا ان له أقوى قوة بصرية ، فاذا نظر الى الشيء عرف حقيقته فأداها وحده . وتذكرون صفته لقاعة «دايت» بالجحيم اذ قال : « ذروة حمراء ! حديدة محماة جمرية التوقد مخروطية تتوهج فى ظلمة كثيفة طخياء » ما أنصع هذا الوصف وما أبينه وما اوضحه لأول وهلة ثم الى الأبد : وهذا عنوان الرجل . فان فى دانتي لأخصر ايجاز واقتضاب فى دقة واحكام ، وانه ليقذف بالكلمة يصيب بها كبد الحقيقة وكأنها طعنة الفارس الكمى — ثم وراء هذه سكوت أفصح والله من القول .

والشعر لمح تكفى اشـــــارته
وليس بالهذر طولت خطبـــــه

ما أرشق تشبيهاته وماأدقها وما أحكمها حتى ليخيل الى انه يحز فى الشيء بقلم من نار فيقول عن المارد المنتفخ حينما ارعوى لزجر فرجيل : « انه كالشراع انحطم عموده بغتة فهوى » ويذكر أحد المعذبين فيقول « بوجه مشوى » ثم انظروا ما ذكره من (الثلج النارى) المتساقط على المعذبين (ثلج نارى بلا ريح بطىء مصمم دائب لا ينى ولا ينتهى) ولا احسب هذا التصوير الا قطعة من صميم عقل الرجل وفيه يتجلى لنا ذلك الطبع الطليانى الحاد السريع النارى الصامت الشديد القوى وحركاته الوشيكة المقتضبة وثوراته الساكتة العظيمة .

لأن التصوير وان لم يكن من القوى الظاهرية السطحية

ولكنه خارج كسائر القوى من جوهر النفس وعنوان على الرجل جميعه ، اوجد رجلا يحسن الوصف توجد رجلا فاضلا ذا قيمة . فانه ما كان ليتبين حقيقة الشيء لو لم يكن في فؤاده حب يلقيه على ذلك الشيء فيكون سببا الى التعمق فيه وانعام النظر — لو لم يكن ذا جد واخلاص . والرجل العديم الفضل لايستطيع أن يصف لك شيئا ، فانه بضعفه واؤمه لايمكنه أن يتعدى الظواهر ، ولا يقف الا عند الاكاذيب والأباطيل . او لايمكننا القول بأن آية الذهن هو قدرته على استبانة حقائق الأشياء ؟ — استبانتها بالامتزاج بها الناشيء عن محبتها والانجذاب نحوها . وكذلك الطبيعة لا تكشف أسرارها الا للولوع بها الذى كله اخلاص لها وصبابة اليها . وقديما كان الحب اول هاد الى خبايا الحقائق، الحب الصادق الصاحى الراكز على أساس العقل والحكمة لا الكاذب الثمل الطائر بأجنحة الخديعة والطيش . لأن الحب الصادق يستدعى رقة الشعور وسداده ، والشعور الرقيق المسدد هو مقلة النفس المستجلية للغوامض المستبطنة للدخائل ، ولن ترى الرجل البليد الاحساس الكليل الا محجوبا عن اسرار الأمور لا يلابس منها سوى القشور ، وهذا هو الواقع حتى فى المسائل العملية ، فالرجل الذكى الأريب هو ما ابصر من الأمر المراد اتيانه النقطة الجوهرية فأمسك بها وصفح عن كل ما عداها .

وليس الوضوح والاختصار والصدق والجلاء الناصع الذى كأنه وهج الحريق فى الليل البهيم هو كل ما يمتاز به وصف دانتى وتصويره ، بل تراه أيضا شريفا جليلا كيفما قلبته ومن أى ناحية أتيته . ثمرة روح شريفة جليلة . انظروا الى ما ورد بالقصة من حديث الغادة

« فرانسسكا » وعاشقها ــ ذلك الحديث المذيب الفؤاد المفتت الاكباد تجده كأنه منسوج من ألوان قزح على رقعة من السواد الأبدى ، او كأنه صوت ناى جم النواح مبحوح الأنين يناجى حبات القلوب باديا فيه رقة الشكوى وذلة الولهى ورنة الثكلى ، وأشجى ما فيه ان الحبيبين يلقيان عذاب الجحيم معا ، فحبذا ذاك الاجتماع سلوى فى الشقاء وعزاء فى الضراء . لقد كان الشاعر صديق والد « فرانسسكا » هذه وربما جلست تلك الفتاة على ركبة دانتى صبية بريئة من كل عيب حسناء سمحاء ، ولكنها اذا اذنبت فى حياتها أبى دانتى الا عدل الجزاء فجعلها جحيمه حيث تعلمون ، ولكنه شفع العقوبة بما ترون من نعمة الوصل ومنة الاجتماع بحبيبها ، يا لها رحمة فى قسوة وعفو فى شدة وتلك شيمة الطبيعة وما قصر عن ادراكها دانتى . وما اقبل راى القائلين بأن كتاب دانتى لم يكن الا هجاء فاحشا أراد ان يسىء به الى من اعياه مؤاخذتهم والانتقام منهم ، واحسب لو أن رجلا حمل فى قلبه حنان الأم الرءوم ورأفتها فذاك هو دانتى ، ولكن من لم يعرف القسوة لم يعرف الرحمة أيضا ، والذى تخاله منه رحمة هو فى الحقيقة جبن أو تصنع للرحمة قصد الافتخار . وما أعرف فى العالم رجلا أرحم من دانتى ، ولا أكثر حبا ، وان بين جنبيه لحشا خفاقا ووجدا واشفاقا وفؤادا ملتاعا ، وولها ونزاعا كحنين النايات والعيدان لينا لينا ، أو كمهجة الطفل ، ويشوب كل ذلك مرارة الحنق ووعورة البأس والعناد ! سخط على عمى الحظ وعثرة الجد ، وجور القضاء ولؤم الزمن ، وصبابة وحنين الى حبيبته « بياتريس » ولقائهما فى الجنة ، ونظره فى عينيها النجلاوين تشرقان بشعاع النور المقدس ــ وقربه منها

- من الغادة التي طهرتها حياض الفردوس وصـــفاء الأبدية ، كل هذا شبيه عندي بأغاني الملائكة ، ولعله أصفى ما نطق به امرؤ فى هذه الحياة الدنيا من آيات الحب الطاهر .

وأرى هذا الرجل الحاد حادا فى كل شيء ، فلقد نفذ بحدته الى كل جوهر ولب ، وما عمق نظره فى التصوير وعمق نظره فى البرهان والدليل الا ما يعتورجميع ملكاته من الحدة ، وهو فوق كل ذلك كبير من حيث الصلاح والتقى وذاك أساسه وعنصره . فاحتقاره للدنيئةعظيم، وأسفه على أولى البؤس والبلاء عظيم كعظمة حبه ووده. وهل الأسف والاحتقار الا حب قلب تحول عن جهتـه وأحيل عن طبيعته ؟ ويقول فى كتابه عن الجناة المجرمين حين يمر بهم فى الجحيم : «لسنا متكلمين عنهم وحسبنا نظرة اليهم ، ثم نضرب صفحا » يالله احتقار فى ترفع ونفرة فى سكوت وانفة فى صمت واعراض !.. ثم قوله يذكر فئة من المعذبين : « لقد انقطع أملهم حتى من الموت » ليخيل الى ان دانتى يعرض بنفسه فى هـذه الجملة . فلقد اتى عليه حين من الدهر كان قد يئس من الراحة ، حتى راحة الموت . ولعله جاءه بعد ذلك يوم برق فيه لفؤاده المكلوم شعاع أمل انه سيلقى بعد كل ذلك الجهد والمصاب والكمد راحـة القبـر ، وان القضاء نفسه لايمكنه أن يحرمه « هذه النعمة » .. مثل هذه الكلمات كانت فى ذلك الرجل واراه فى الحدة والشدة والجد والعمق مقطوع القرين معدوم النظير الا فى أنبياء بنى اسرائيل .. فاذا اردت مثل كلامه فانظر فى التوراة العبرانية .

ولا اوافق قوما يفضلون الجحيم فى قصة دانتى على

قسميها الآخرين ومرجع هـذا التفضيـل هو فى ظنى « بيرونية »(١) فى الذوق والمشرب . ولعـل القسم الثانى « المطهر » أبرع من الجحيم واسمى . أجل ، ما اشرف ذلك الجيل ـ جيل التطهير ـ فهو رمز لاشرف افكار هذا العصر ـ رمز لبراءة الانسان بالتوبة ، واذا كانت الذنوب من وخامة العاقبة كما تعلمون ، والجحيم من العذاب والالم كما تعهدون ، أليس جديرا أن يكون فى التوبة منجاة للمذنب وبراءة ؟ والتوبة أجل أعمـال النصرانية . ثم ما ابدع ما وصفها دانتى وأبرع اذ قال انه بعد خروجه من الجحيم ابصر على مدى العين بريق امواه تترقرق ولمع امواج تهتز وتخفق فى بريق الصباح ولمع الضحى ، فهذه صورة تدل على تحسن الحال ، وهذا ولا شك فجر الأمل والرجاء قد لاح ، والأمل حى لايموت ، واشد ما يكون فى الحزن كالشهاب اسطع ما يكون فى فحمة الديجور :

كالـكوب الدرى أخلص ضـوءه ـ
حلك الدجى حتى تألق وانجلى

وهناك جبل يقوم فى سفحه ويصعد فى أوعاره المذنبون التائبون ، وقمة الجبل فى عليين دونها باب الجنة وما تنى انفاس هؤلاء التائبين المستغفرين تتصاعد الى عرش الله ويقولون لدانتى حين يرونه : استغفر لنا ربك : ولا يأتلون فى ذلك الجبل صعوداً وارتقاء ومشقة وعناء وقد أدنى الـكلال خطاهم وانضى الـكد ابدانهم واسنوا وشـاخوا فى ذلك الصعود ولمـا بلغوا القمـة ولـكنهم مواظبون وجادون حتى يبلغوها وعندها باب الفردوس، وبرحمة من ربهم وغفران سيدخلونها خالدين . وكلما

(١) نسبة الى بيرون ـ يراد طريقة بيرون وهى كراهة العالم .

بلغ القمة واحد عم الفرح الجميع وترنح الجبل طربا ووجف سرورا وهتفت الملائكة بنشيد مقدس ! فهذا فى نظرى تصوير شريف لمعنى شريف .

ولكن أركان القصة الثلاثة متعاونة متآزرة ، ولا غنى لواحدة عن الأخريين وأرى « الفردوس » أحد أركانها موسيقيا صامتا وغناء ساكتا وهى المنكرة لسيئة الجحيم ، والجحيم لولاها ضرب من الباطل ومن الثلاثة يتألف عالم الآخرة كما كانت تمثله نصرانية القرون الوسطى ، وهو شيء جليل حر الجوهر طول الدهر ، ولعله لم يتمثل فى نفس انسان كما تمثل فى نفس دانتى اذ سطعت حقيقته فى ضميره ونقشت صورته على لوح خاطره كالوحى فى الحجر ، وما دانتى الا نبى أرسله الله ليبين هذه الحقيقة للناس وينقشها على جبهة الدهر. وما أغرب والله سهولة انتقاله وسرعة تخلصه فى مبدأ القصة من ذكر الحقائق العادية الى العالم الخفى حتى لنجدنا بعد سبعة ابيات أو ثمانية وسط عالم الأرواح ونسير فيه كأنما نسير بين أشياء ملموسة لاريب فيها ! وكذلك كانت فى نظر دانتى ، وما كانت الحياة الدنيا عنده الا سبيلا الى حياة أخرى خير وأبقى ، ولم تكن الدنيا فى نظر دانتى بأقل غرابة من الآخرة ولا الآخرة بأقل حقا من الدنيا . واذا كانت الآخرة عنده هى عالم أرواح فالدنيا كذلك فى نظره عالم أرواح . أوليس فى كل امرىء روح ؟ نعم لقد كان ذلك بينا له جليا ، ولقد كان يعتقده وينظره . فهو من أجل ذلك شاعره ، والاخلاص كما قلت أكبر صفات الشاعر .

وجحيم دانتى وجنته ومظهرهما انما هما فى الحقيقة رمز وتمثيل لعقيدته فى الكون ، ولعل ناقدا يقوم

فيقول لنا ما قصة دانتى الا العوبة شعرية وضرب من اللهو والعبث . كلا والله ، انما هي اشرف وعاء ضمن روح النصرانية وهى تمثل بأجسم رموز التمثيــل ما أحسه دانتى من ان الخير والشر هما قطبا هذا الوجود اللذان عليهما مدار كل شيء ، وان الخلاف بينهما ليس هو ان الخير افضل من الشر ـ مذهب الماديين الذين يرجعون فى كل أمر الى الحســاب والوزن والمكسب والخسارة ـ بل ان الخير هو الصــالح فقط والفرض والواجب ، وان الشر هو الخبيث المحرم اتيانه تحريما كليا لا مقارنة بينهما ولا قياس ولا تفضيل . فأحدهما للآخر كالحياة للموت ـ كالجنة للنار . نعم ، ما شعر دانتى الا رمز لذلك ورمز للعــدل السرمدى والتــوبة والندم للنصرانية بأكملها كما كانت فى تلك القرون ـ رمز ولــكنها فى نظر دانتى ونظرتلك الأجيال عين الحقيقة التى لاريب فيها ولاشك ولا نزاع ، التى يعتقدها الناس من صميم افئدتهم . ولقد قلنا قبل ان الناس ما كانوا قط مؤمنين بالرموز الشعرية والأقاصيص المنظومة ، ولا احسب ان أهل عصرنا هذا يحسبون قصة دانتى مجرد قصة قصد بها الانتقام ممن أساءوا اليه ، ومجرد عبث وصنعة ، فاذا راى ذلك أهل العصور الآتية فشد ما يخطئون . وقد قلنا عن الوثنية انها البيان الحق لما كان يجيش فى صدر المتوحش من وقع مشاهد الــكون وتأثير روائعه ـ بيان كان فى وقته حقا صادقا وليس يخلو الآن من فضل وقيمة لنا . ولكن انظروا الفرق بين الوثنية والنصرانية ـ فرق كبير . . لم تكن الوثنية الا تمثيلا لظواهر الــكون وافعال الطبيعة وحياة الانسان وطبائع الاشياء وتقلباتها وتصرفات شئونهما واختلاطهما فى هذه الدنيا ، وأما النصرانية فتمثل قانون الواجب

الانساني ــ قانون الأخلاق والآداب ، فكانت احداهما للطبيعة الحسية بيانا عاجزا ساذجا لأفكار الانسان الأولية اذ كان أهم الفضائل هي الشجاعة ــ الاستعلاء على الخوف ، ولم تكن الأخرى للعالم الحسي بل للعالم الأخلاقي فان لم يكن من الفرق سوى ذلك ، فأى فضل بين وارتقاء عظيم .

وهكذا وجدت القرون العشر الصامتة التى سبقت عصر دانتى صوتها فى ذلك الشاعر الكبير ولسانها ، و« القصة المقدسة» من يراع دانتى ولكنها فى الحقيقة املاء عشرة قرون نصرانية ، وانما أتمها دانتى واكملها وتلك ما زالت الحال وكذلك الحداد بالاته وأدواته وصنعته وحذقه ــ قل والله نصيبه هو فيما يأتيك به من بدائع صنعته ، وانما معظم الفضل لجميع من سلف من واضعى الصنعة ومبتدعى أساليبها وأبوابها وكلهم قد صنع معه ما صنع وتلك هى الحال فى كل أمر فدانتى هو لسان القرون الوسطى ، ومن خلال سطوره يلذ آذاننا صوت افكار تلك العصور كما لو كان أعذب النغم واشهى الغناء ويرن فى مسامعنا موسيقيا ابديا ما دعا الله داع وما ترنم فى الأيك مسجاع . وما أفكاره تلك السامية الجميلة الرائعة الا ثمرة ما فكر جميع الصالحين من قبله ولو افضل والله أولئك وهل خلا هو من الفضل ؟ أما انه لو لم ينطق لبقى الطيب الكثير من تلكم الأفكار كامنا مكتوما ــ لا اقول ميتا : بل حيا صامتا .

وعلى كل حال اليس هذا الغناء اللغزى هو غناء روح من اكبر الارواح وتمثيل حقيقة من أكبر الحقائق ؟ والنصرانية كما يغنيها دانتىشيء خلاف الوثنية الشمالية

وخلاف النصرانية التي هدمها الاسلام بقرى الشام — وانما هي أجل فكرة اعتقدها الناس ، انبرى لها ذلك الشاعر ففناها والبسها ثوبا لا يبليه الدهر .

أبقى على الزمن الباقي من الزمن : أليس خليقا بنا ان نفرح بذلك الكتاب ونغتبط ؟ وظني به سيبقى الالاف المؤلفة من السنين لأن فرقا عظيما بين ما خرج من اعمق أعماق النفس وما صدر من خوارج أجزائها ، فالخارجي هو سحابة صيف ومسالة تولد مع الصبح وتموت مع المساء وتزول كالظلال بزوال الأهواء والأميال ولا تزال تتلون وتتشكل بتلون الصروف وتشكل الأحوال ، وأما الداخلي فانه سواء اليوم وفي غد وآخر الأبد . ولا يزال ذوو النفوس الحرة والقلوب البارده في كل زمان ومكان يجدون في دانتي هذا أخا وصديقا وخلا شفيقا لما بين روحه وأرواحهم من النسب وبين قلبه وقلوبهم من الصلة والسبب .

او لم يكن نسب هناك فملؤنا
ماء تحدر من غمام واحد

كيف لا ولما كانت نفوسهم ونفسه شعبا متفرعة من اصل واحد أصبح الألم الذي يقدح في نفسه يقدح كذلك في نفوسهم ، والأمل الذي يدب في روحه يدب أيضا في أرواحهم ، فقلبه وقلوبهم كالناي والعيدان اذا حن وهتف خفقت جوابا وأنت وأعولت . وذلكم نابليون كان يرتاح في منفاه بسانت هيلانة الى قصيد هوميروس ، ويسر جدا بما فيه من الحق والصدق وبين القارىء والمقروء كما تعلمون عدد السنين . واقوال انبياء الله الأقدمين ما تبرح تخالط نفوسنا لخروجها من نفوس قائليها ، وصدور الكلام من أعماق الروح هو سر

خلوده الوحيد ، ودانتى فى عمق الاخلاص كأحد هؤلاء الأنبياء واقواله كأقوالهم خارجة من القلب ولا عجب اذا كان الله قد قضى لكتابه أن يكون أخلد شيء أخرجته أوربا لأنه ليس أخلد من كلمة الحق شيء . وكل ما بالقارة الاوربية من كنائس ومعابد ونحاس وحديد ومبان مشيدة وثيقة فمهما بلغت من المتانة والرسوخ فهى قصيرة العمر فى جانب غناء قلبى كهذا ، وظنى انه سيبقى حبيبا الى القلوب شهيا الى النفوس وقد زالت جميع هذه الأشياء عن اوضاعها وليست هيئات محدثة وتألفت فى تراكيب جديدة وانعدمت ذواتها وان لم تنعدم مادتها . وان ما صنعت أوروبا وما أتت لكثير جداً : مدن كبيرة ودول مجيدة وعقائد وشرائع وطوائف، آراء وأعمال ولكنها لم تصنع من قبيل آية دانتى الا شيئا قليلا . وذالكم هوميروس حي للآن يخاطبكم وجها لوجه ولكن أين دولة اليونان ؟ بادت من القرون العديدة وذهبت وزالت ولم يبق منها الا كثبان انقاض ان تسلها عن سالف مجدها لم تحر غير السكوت جوابا . حلم كان ومضى . دولة أصبحت فى الثرى . كأنها رفات أميرها أجاممنون ! وكذلك قد كانت اليونان . وهى اليوم لا تكون الا ما نطقت .

وماذا نقول للقوم السائلين : « ما فوائد دانتى ! » انه سؤال غريب لا يسعنا أمامه الا الضحك والاستغراب. حسبنا القول بأن العقل الذى أمكنه ان ينغمس فى عنصر النغم والغناء ثم يغنى لنا من ثمة غناء حسنا جدير أن يكون قد أثر أكبر الأثر فى صميم الحياة وقلب الوجود. وانه ما زال طول الدهر ينبوع الغذاء لما فى النفوس من جذور كل خير ومكرمة يغذيها بطريقة لا يهتدى الى

قياسها ووزنها علماء الاقتصاد بمقاييسهم وموازينهم ! وهل تقدر فائدة الشمس بمقدار ما تسقط عنا من نفقات الشمع والبترول ؟ والخلاصة ان دانتى أجل من ان تقدر قيمته .

وعلى العموم فما كانت الرجال واعمالهم لتقاس بما نسميه تأثيرهم فى الدنيا – بما نراه نحن انه تأثيرهم – تأثير؟ فائدة ؟ نتيجة ؟ عبث كل هذا وباطل . ليصنع كل امرىء صنعه فما ثمرته الا حسب عناية غيره ، وسيثمر ثمرته وليس يهمنا أخرجت اعماله ترفل فى حلة الملك والدولة وترن من ضجيج الحروب وصدى الوقائع بما يملأ صدور الجرائد والتواريخ التى هى جرائد مصفاة ، أم خرجت عارية من كل هذه – خفية صامتة – نعم ماذا يهم ذلك ؟ ليست هذه الظواهر هى الثمرة الحقيقية . وما قيمة الملك أو الخليفة الا ما أحسن ! واذا كانت اعمال الملك او الخليفة لم تعد على الناس بالخير والمنفعة فانها كالهباء ، وما ذلك الملك الا اكذوبة وباطل وعرض هالك وسقط متاع مهما احدثت أعماله فى الجو من الضجة والجلبة ومهما فلل من مضارب السيوف وادار من اقداح الحتوف ومهما قبض من الآجال والأموال . وملك من اعنة الرجال والأحوال . هذا الملك فى الحقيقة لم يكن . الا فلتكبروا معى دولة السكوت وعالم الصمت ! حياهما الله من عالم ودولة ! لايريان بالحس ولا يدركان باللمس . وهما مع ذلك أنفع من الصراخ وأجدى : وخير من الضجة وابقى .

وكما ان الله ارسل دانتى ليصور لنا فى أشجن الغناء والنغم ديانة القرون الوسطى أو حياتها الباطنة. فكذلك ارسل شاكسبير ليصور حياتها الظاهرة الخارجية كما

كانت اذ ذاك وما بها من مظاهر الفروسية والنجدة ، والمروءة وشتى الأهواء والمشارب والمطامع والمطامح ، والأساليب الدنيوية للتفكير والعمل والرأى . وكما أنا نبصر فى هوميروس يونان القديمة ، فكذلك سيكون شاكسبير ، ودانتى ، بعد آلاف السنين المعرض الواضح لاوروبا الحديثة تتجلى فيه دينية ودنيوية . نعم ، لئن يك دانتى أدى الينا العقيدة أو الروح فقد أعطانا شاكسبير العمل أو البدن . وكأن الله أبى الا ان نعطى البدن أيضا فأعطاناه على لسان شاكسبير ، وكذلك لما بلغت حياة القرون الوسطى ـ تلك الحياة الشريفة العالية ـ حد الكمال وآذنت بالاضمحلال السريع أو البطىء كما نراها الآن فى كل مكان أرسل شاكسبير بعينه البصيرة وصوته المطرب الرنان لينظر تلك الحياة وليتغنى بها غناء يبقى ما ترنم النسيم فى الشجر . وغرد البلبل فى القمر . رجلان كفآن ـ دانتى عميق حاد فائر كأنه ما بجوف الأرض من النار ، وشاكسبير واسع هادىء بعيد مرمى البصر قصى مدى النظر ، كأنه الشمس نور الأرض الظاهرى أحدهما ثمرة ايطاليا . والثانى بحمد الله ثمرة بلادنا .

وعجيب والله كيف ساقت الصدفة الينا ذلك الرجل وظنى ان شاكسبير هذا قد كان من العظمة والسكينة ، والكمال والاستغناء بالنفس بحيث انه لو لم يخرج من قريته بسبب ما اتى من سرقة الغزلان لكان له فى عيشة القرى وسكنى الريف مقنع عن كل ماعداهما ، وكان قد عاش ومات ولم تفتح اغلاق خزائنه ، ولم تكشف أسرار دفائنه ، فحرم العالم اكبر شعرائه قاطبة. نعم لولا تشرده عن وطنه لذلك الحادث لاكتفى بالغابات والسموات والريف والعيش القروى . ولكن أن كان

شاكسبير هذا قد جاءنا عفوا ، الم يجيء ذلك العصر ــ عصر اليصابات ــ أيضا عفوا كأنما من تلقاء نفســه ؟ وهكذا صروف الزمن وأحوال الدهر تقبل وتدبر وتموت وتحيا وتذبل وتنضر كالشجرة التى جعلهـا الوثنيون الشماليون رمزا للحياة الدنيا ــ ولـكنها تذبل وتنضر وتلقى أوراقها وتورق بقوانين ازلية ونواميس أبدية . لا تظهر عليها ورقة الا بميقات : لا يظهر عليها بطل الا بميقات . عجيب والله ما بين جميع الأشياء والـكائنات من الأسباب والروابط ، فما من ورقة ذابلة تعفن على ظهر الطريق الا وهى جزء متــداخل فى نظام الـكائنات اجمع مستحيل فصله عن سائر الأجزاء . وليست كلمة او فعلة لرجل ما الا ومنشؤها العالم اجمع ولابد أن تعود بالتاثير آجلا أو عاجلا ظاهرا أو باطنـا فى العالم اجمع . اجل . هى شجرة « اجد رازيل » التى أصلها فى مملـكة الموت وذرا فروعها فى الجنان !

وعهد اليصابات هذا وشاكسبيره من بعض الوجوه ، ثمرة العصور السالفة ــ وينسب الى كاثوليكية القرون الوسطى . وانما نشأت هذه الحياة الظاهرية العملية التى تغنى بها شاكسبير من العقيدة المسيحية التى سجع بها دانتى . لأن الدين كان اذ ذاك كما هو الآن وكما يكون فى كل آن روح العمــل ــ كان الحقيقـة الأولى الجوهرية فى حياة البشر . ومن العجب ان ظهور شاكسبير لم يكن الا بعد أن نسخت اللوائح البرلمـــانية تلك الـكاثوليكية التى شاكسبير من ثمراتها ــ بقدر ما فى استطاعة تلك اللوائح أن تنسخ دينا وثيق العرى ــ ومع ذلك فقد ظهر شاكسبير برغم البرلمانات ولوائحها .

لقد ارسلته الطبيعة حين شاءت ولم تبال باللوائح

والبرلمانات . فان للملوك والأميرات مذهباً وللطبيعة كذلك مذهبا . واللوائح البرلمانية حقيرة برغم ماتحدث من الجلجلة والدوى . اذ اى لائحة او مناظرة كانت قادرة على اخراج شاكسبير هذا ؟ كلا ولا الولائم بالقصور ولا افتتاح صحائف الاشتراك ولا بيع الأسهم ولا غير ذلك من الطنين الحق او الباطل ! انما جاد ذلك العصر اليصاباتى بمجده وشرفه من غير ما طلائع ولا رواد . ولا احتفال لاستقباله ولا استعداد. وجاء معه شاكسبير منحة الطبيعة وجائزة الدهر. اداه الينا الحظ فى سكوت. فتناولناه فى سكوت . كأنما هو شىء صغير الشأن قليل الخطر . وانه فى الواقع النعمة التى لا تقدر، والهبة التى لا يحد مقدارها ولا يحصر .

ان صفوة الادباء فى جميع الاقطار الاوروبية واعاظم الفحول من النقاد والكتاب والشعراء قد اوشكوا ان يجمعوا على ان شاكسبير سيد شعراء العالم على الاطلاق . والحق اقول انى لا اعرف قط ما يقارب تلك البصيرة النافذة والذهن القوى اذا تأملنا جميع صفاته فى اى انسان آخر. تبارك والله تعالى عن الشبه ذلك العمق الساكن والنفس الجذلة الصافية تتراءى فى جوفها صور جميع الاشياء مبينة واضحة كأنها البحر العميق الصفى : وقد قيل ان فى تركيب روايات شاكسبير فضلا عن سائر الفضائل والمزايا آية على فهم مماثل لما جاء فى كتب بالون « النظام الجديد » « نوفام اورجنام » وهذا حق ، ولا غرابة فيه ، وربما كان ابين اذا نظرنا الى الحوادث التاريخية او الجغرافية العارية الجافة التى احدث منها شاكسبير رواياته البارعة الرائعة واجتهد احدنا ان يصنع من تلك المواد اليابسة الميتة ما صنع

ذلك الشاعر الأكبر! حجارة وأخشاب وحديد متراكم بعضها فوق بعض فى أفسد أختلاط وتشويش ، شاد منها ذلك الرجل قصرا موثق الأركان ، مونق البنيان ، تتلى فى أصغر أجزائه آية الاحكام والصنعة ، حيثما ألقيت البصر لم تلق الا اتقانا واحسانا ، فكأنما ظهر فى الدنيا وحده بقانون أبدى فى فطرته وبناموس الطبيعة السرمدى ، وما هو الا أن ننظر اليه حتى ننسى الأنقاض المبعثرة والأخلاط المشوشة التى صاغ منها وصور، وان كمال تلك الصنعة التى كأنها صنعة الطبيعة نفسها لتخفى فضل الصانع وتغيبه ، ولنا أن نصف شاكسبير فى ذلك بأنه أكمل من كل انسان وفوق كل أمرىء بطبقات ، فانه ليدرك كأنما بالغريزة والفطرة مقتضيات الحال والمواد التى يصوغ منها شعره ومقدار قوته وعلاقة ما بينها وبين تلك المواد والأحوال ، وما نظرته فى ذلك بالسريعة القصيرة ولا غناء فى تلك ، وانما نظرة طويلة جمة الشعاع غزيرة الضياء ينير اشراقها الموضوع كله — وعين ذات ابصار دائب دائم ، ساج ساكن أو بالاختصار عقل كبير ، وعسى أصح قياس لمقدار عقل الرجل هو أن تجعله يصف لك فى قصة أمرا جليلا كان أبصره فتنظر اى تمثيل وصورة يقدم لك ، واى حادثة هى فى نظره أعظم واجل فيبرزها ، واى أمر أدنى وأقل فيخفيه ، وما هو أحسن ابتداء واستهلال وأعجب تخلص وانتقال ، وماذا أبرع تقسيم وتبويب ، وابدع تنسيق وترتيب وكيف يكون حسن الغاية ، وجودة النهاية ؟ فاذا حملت الرجل على ابداء كل ذلك جهدت قوى نظره أشد الجهد ، وكددت أسباب عقله منتهى الكد ، اذ لابد له ان يفهم الشىء الذى يحاوله ، ويبصر الامر الذى يزاوله ، وعلى قدر عمق النظر يكون افضل

الجواب ، اتراه يضع الكلام فى مواضعه ؟ ويجعل اللفظ الى لفقه وقريبه ، والمعنى الى شكله ونسيبه ، وهل أرسل روح النظام فى تلك الأنقاض المبعثرة والأخلاط المشوشة فرد الفوضى نظاما ، والخلاف وئاما ، والف اعناق الشوارد ، وجمع شمل البدائد ! وهل امكنه ان يقول للشىء كن فيكون ! هل أمكنه ان يقول ليكن ثمة ضياء يحول به عالم السديم نظاما ! اما انه ليستطيع ذلك لو كان الضياء فى عقله والشعاع فى نفسه .

ومن اسباب عظمة شاكسبير ايضا براعة تصويره للأشخاص والأشياء لا سيما الأشخاص . نعم لشدة ما تتجلى عظمته فى ذلك وتستبين . ولا أحسب ان انسانا يماثله فى تلك القوة المخترعة الهادئة . فاذا نظر الى شىء لم ينظر منه الى ذلك الوجه أو ذاك بل الى صميم لبه . فكان ذلك المنظور يتحلل امامه فى ذوب من الضياء فتنكشف له دخائل تركيبه وبواطن بنائه ، نحن نسمى ذلك ابداعا واختراعا وخلقا — خلقا شعريا وما هو لو تأملت الا النظر الدقيق المستوعب للشىء المحيط بظاهره وباطنه ، ومتى وجد ذلك النظر الثاقب المحيط استدعى بطبيعته اللفظ اللائق فجاء من تلقاء نفسه مسرعا ، ثم اما ترون فى شاكسبير ايضا فضائل الحكمة والعظة والعبرة والشجاعة والمروءة والصراحة والحلم والعفو والسداد والصدق وتلك القوة الكبيرة والهمة العظيمة المذللة العقبات الهازمة المشقات للخروج من كل قحمة عزاء ، وورطة نكراء . عظمة ويمين الله فى سعة السموات والأرضين . وعقل يمثل لك الحقائق كما هى لا كما يحرفها الذهن المنحرف عن الجادة ويحورها الفكر المصدود عن القصد ، فكأنما والله

عقل شاكسبير المرآة المستوية اذا كانت اذهان غيره من الكتاب والشعراء المرايا المقعرة الحدباء . اعنى ان شاكسبير رجل يعدل فى النظر ويسوى فى الرأى بين جميع الأشياء والبشر — رجل كريم عادل ، براعة والله وقوة وجلال وعظمة من شاكسبير استيعاب بصره لجميع اصناف الرجال من هامليت الى عطيل الى فولستاف الى روميو الى كوريا لاناس ، وتأديته اياهم فى اكمل خلقهم وصفاتهم ، والتسوية بينهم فى حبه ومعذرته ، وسعته اياهم جميعا بلطفه ورحمته — حبذا هو اخو البشر وشقيق الانسان ، وما كان ذهن بيكون ليقاس بذهن ذلك الشاعر ، فان الأول على كماله وعظمته من طينة ادنى من طينة الثانى — طينة ارضية مادية حقيرة بالقياس الى ذهن الشاعر الأكبر ، وانى لا أجد لشاكسبير فى التاريخ الحديث مثيلا قط وليس منذ ايامه حتى الآن من يذكرنيه الا رجلا واحدا هو « جوته » فانه ايضا نظار الى حقائق الأمور وجواهر الأشياء ويمكنك أن تقول فيه ما قاله هو فى شاكسبير اذ قال : «أشخاص شاكسبير كالساعات الشفافة الوجوه — بينما تريك الساعة فى وجوهها اذا هى ؟ ايضا تريك اللوالب والآلات فى ضمائرها المكشوفة وأحشائها » .

العين بصيرة ، هذه هى الكشافة لبواطن الأمور والكامن فى ألبابها من النظام والائتلاف — الكشافة لما اودعته الطبيعة اجواف الأشياء من الأغراض — من المعانى الموسيقية تحت تلك الظواهر الجافة الخشنة ، نعم لقد أرادت الطبيعة بكل شىء مهما قبح ظاهره غرضا هو للعين البصيرة واضح بين ، افهل هذه الأشياء خبيثة دنيئة ؟ انك قد تضحك من تلك الأشياء ، وقد

تبكى ، وقد تمد بينك وبينها الصلات والأسباب كيفما كانت ، او على الأقل يمكنك أن تصد عنها وتنصرف ، وتعرض وتنحرف ، حتى يحين أن تقتلها وتمحوها ، والعقل الكبير هو اول مواهب الشاعر ، فاذا أوتى ذلك فقد صار شاعرا ــ شاعرا بالقول فان لم يؤاته ذلك فشاعر بالفعل . وكونه يكتب أو لا يكتب ــ ثم يكتب شعرا أو نثرا فهذا أمر ثانوى يتوقف على الصدف ــ ربما على أدنى الصدف ، ولكن القوة التى تمكنه من أن يبصر ألباب الأشياء والمودع ضمائرها من النظام (لأن لكل كائن نظاما فى جوفه وائتلافا موسيقيا فى ضميره والا فما كان يتماسك ويكون) ماهى بنتيجة عادات ولا صدف ولكنها منحة الطبيعة وأول مزايا الرجل العظيم كيفما كان . ولذلك أول ما نقول للشاعر بل لكل انسان هو ــ أنظر ! فاذا عجزت عن ذلك فلا فائدة هنالك فى استمرارك على نظم القريض وتفصيل القوافى ، ولا حاجة هناك الى ذلك الطنين والدوى وتسمية نفسك شاعرا ، واولى لك أن تقطع من ذلك الأمل وتنفض يدك من هذه الأمنية ، فاذا شئت فان لك فى غير الشعر مجالا ومندوحة ، فى التجارة مثلا أو الصناعة أو الزراعة ، وحسبك ذلك . وانت فاضل ما أجدت صنعتك وأحسنت عملك أيا كان بشرط أن يكون حلالا طيبا كريما ، ولا عار فى العمل المتقن ما لم يكن خبيثا ، والاتقان نتيجة العقل ، فالعقل هو أجل النعم كما ان فقده أشد المحن .

لكل داء دواء يستطب به
الا الحماقة اعيت من يداويها

والحقيقة أن قيمة المرء بمقدار بصيرته ، ولو سئلت

عن اعرف ملكات شاكسبير فقلت ارباء عقله على كل عقل لكنت قد ادركت الغاية وبلغت النهاية . وما هى فى الحقيقة تلك الملكات التى تذكرها كأنها أشياء شتى كأن للمرء ذهنا وخيالا وادراكا مثلما له يدان ورجلان وقدمان وهذه غلطة مبينة ثم نسمع ايضا ان للمرء « طبيعة ذهنية » و « طبيعة اخلاقية » كأن هاتين شعبتان كل فى ناحية ، اما انه لا باعث على استعمال تلك الالفاظ المختلفة آلا ضرورة النطق ، وأرانا اذ كنا لابد ناطقين ومتخاطبين فلا مناص من استعمال تلك الكلمات المتفرقة ولكن لا ينبغى أن تتجمد الكلمات حتى تصير أشياء ، فان ذلك هو السبب الى خطئنا فى هذا الأمر وضلالنا وانما يجب علينا أن نظل نذكر ان هذه الاقسام ليست فى الحقيقة الا اسماء ، وأن طبيعة المرء الروحية ـ القوة الحية الكامنة فيه ـ هى شىء واحد لا ينقسم ولا يتشعب ، وان ما نسميه خيالا وادراكا وذهنا ومفكرة وبصيرة وغير ذلك انما هى صور مختلفة لتلك القوة المبصرة ، وكلها شديد اتصال بعضها ببعض ، دليل بعضها على بعض حتى أننا لو عرفنا احدها لأمكننا أن نعرف الباقى . وما اخلاق المرء الا ناحية من تلك القوة الحية التى بها يعمل وبها يكون، وكل افعال المرء لو تفقهون دليل عليه حتى ليمكنك أن تعرف عن هذا الرجل كيف يكون بلاؤه فى الحرب من لهجة حديثه وطريقة غنائه ، فان جبنه أو اقدامه ليبدو لك فى خلال لفظه . وما كلمة الرجل او رايه بأقل نميما عن شجاعته او خوره من ضربته أو طعنته ، وهو بعينه واحد يظهر للملأ نفسا واحدة فى صور شتى

قد يعيش الرجل من غير يدين قائما على قدميه

يسعى بهما فى الارض ويضرب ، ولكن البصيرة مستحيلة الوجود بلا خلاق . والرجل الذى لا خلاق له المجرد من كل اثر للخير والبر والمكرمة هو معدوم البصيرة بالمرة ، لايرى شيئا حق الرؤية ، ولا يعرف شيئا حق المعرفة ، لأن المعرفة الصادقة التى ماتستوجب المحبة لذلك الشيء والانعطاف نحوه ، أعنى الاتصال به الصلة الكريمة الصادقة . واذا لم يكن من العدل بحيث لايزال ينتصف لكل شيء من نفسه ويأخذ الحق منها لغيرها ويقمعها ويقذعها ويذلها ويقهرها ، ويكون من الشجاعة والمروءة والتقى بحيث يميل الى الحق على ما فيه من عذاب ومضض . فكيف يجد الى العلم بالحقائق سبيلا ؟ وانما الطبيعة وحقائقها للخبيث اللئيم الخسيس كتاب مختوم ، وما يعرف مثل هـذا من الطبيعة الا قشورا وأباطيل وخبائث مما يستخدمه فى أغراض ساعته ، وما مثله الا كمثل الثعلب. أوما يعرف الثعلب شيئا من الطبيعة ؟ نعم يعرف أين توجد الأوز! وكذلك الثعلب الآدمى وما اكثره فى كل زمن وبقعة ، أتراه يعرف الا هذا أو مثل هذا ؟ كلا بل ان اشتمام الثعلب ريح الدجاج واهتداءه اليها فضيلة ثعلبية ، ولو انه أضاع أوقاته حزينا آسفا مطرقا يفكر فى نحسه وشقائه وظلم القضاء له وجور الدهر عليه واشتغال الحظ عنه بغيره من ناعمات الثعالب ذوات اليسر والرغد ، ولو لم يكن عنده جرأة واقدام وعزم وحزم وغير ذلك من المحامد والمناقب الثعلبية لما أصاب دهره من الدجاج ولا ريشة .

فاذا قلت اذن ان شاكسبير أكبر الأذهان فقد قلت كل ما يقال عنه . على ان فى ذلك الذهن الكبير مزية لعل الناس لم يدركوها بعد هو: ما أسميه ذهنا غير

متعمد . وفيه من الفضل اكثر مما يشعر به صاحبه وقد قال نوفاليس : ما روايات شاكسبير الا ثمرة الطبيعة ولها جلال الطبيعة وعمقها . وارى ذلك صوابا وحقا . فما صناعته بصناعة ، انما هى وحى يتدفق به طبعه عفوا ويهطل به خاطره سحا دراكا .

ويدر درك للآلى يبغونه
عفوا بلا مسح ولا ابساس

شىء يحصل بلا كد ولا نصب ولا جهد ولا تعب يذوب كدمعة المحزون غير معتصر، ويفيض لمنحة الجواد غير معتسر ، ويجىء كوداد المحب غير معتنف ولا مقتسر، ويسقط من تلقاء نفسه كالطل فى السحر وغناء الحمام فى الشجر او كشذا المسك يفوح وينتشر ، وسنا البدر يلوح ويشتهر ، لا تكلف ولا تعمل ولا تصنع ولا تمحل وانما هو نبات ينبت من جوف الطبيعة فيخترق روح ذلك الرجل ، او صوت الطبيعة يخرج الينا من فم ذلك الرجل ، او ان شاكسبير ناى تتناوله الطبيعة فتترنم فيه باشجى نغماتها وتخرج منه اشهى اصواتها . ولعل الأمم التى ستجىء بعد آلاف السنين ستجد فى شاكسبير هذا معانى جديدة وبيانا لألغاز حياتهم ، وانها لنعمة الطبيعة على الرجل العظيم الصادق أن يجعل نفسه جزءا منها ، فمؤلفات هذا الرجل مهما تعمد أن يجيدها ويتقنها تخرج من مجاهل اعماق نفسه عفوا لا اثر فيها للصنعة والتكلف — كالدوحة نابتة من الثرى ، وكالجبال والأمواه اذ تلبس اشكالا خاصة منطبقة على قوانين الطبيعة ، موافقة لسنة الحق أيا كان ، ومع ما أخرج ذلك الرجل من بدائع الآيات ارايتموه يتسخط ويتشكى ويتلهف ويتشهى ؟ أعهدتموه يتألم ويتحسر ، ويتوجع

ويتضجر ، أم كان خلوا من الألم والبرح والـــكمد والترح ؟ كلا ولـكنه ستار للشجو كتوم للمصيبـة ، وكم خفى فى تلك السريرة من الآلام والمحن فلم يظهر الا ثمارها من بارع الـكلم ، وروائع الحكم ، كأنها الجذور وكأنها الأغذية النباتية والقوى الـكونية الخفية الفعل المستورة الأثر ! عظيم والله الكلام ولـكن الصمت أعظم .

وعلى العموم فسكينة هذا الشاعر الجذلة الفرحة هى من جلائل الصـــفات . ولا أنعى على دانتى كآبته وشقوته فانها حرب بلا ظفر ولـكنها حرب صادقة وهى أهم المسائل وأخطر الأمور ، وارى شاكسبير يعد أعظم من دانتى من حيث انه جاهد فظفر . ولا يخالجكم الشك فى أنه قد كان له حظه من الهموم والأحزان وقسطه من القروح والأشجان ، وأغانيه تشف عما كابد من غصص الزمن ، وتجرع من مرارة المحن ، وغامس من حـومة الخطب ، وكافح من غرة الـكرب ، يكدح فى بحر الشقاء ويضرب ، ويطفو به ذلك العبـاب ويرسب ، حتى بلغ شاطىء الأمن ، ونجاه الله من الحين . وقد أفال الرأى من زعم ان عيش شاكسبير كان خلوا من الأسى صفوا من القذى لم يرد منه الا عذبا زلالا وفراتا سلسالا . وان شاكسبير لم يك الا بلبلا بروضة الصفاء أفنى عمره سجعا وتثويبا وبلغ أجله شدوا وتطريبا سـعيد الفال مغبوط الحال ناعم البال هادىء البلبال شأن البـلابل والقمارى اللواتى هن :

نواعم لا يعرفن بؤس معيشـــة
ولا دائرات الدهـــر كيف تدور

كلا وأبيكم ما كان أمرؤ قط هكذا ، وانى لرجل أن ينتقل من سرقة الغزلان الى كتابة مبكيـات كمبكيـات

شـــاكســـبير من غير أن يكون قد ذاق الحزن ولبس الشجي ، بل كيف يتأتي لرجل أن يصور امثال هامليت وكريالانس وماكبيث وغير هذه من القلوب الكبيرة المتألمة الا وقد عرف قلبه الـكبير الألم ؟ ثم انظروا كيف جمع بين ذلك وبين الضحك الغزير الطافح ؟ وقد تقول ولا حرج أن المبالغة عنده مقصورة على فن الفـكاهة رهن بباب الضحك ، وكثير فى رواياته اللفظ الموجع والقول المقذع والـكلم النافذ المحرق ولـكنة عند حد ، وماكان قط ليغلو فى كراهة البشر ولـكن ضحكه ينحط عليك كالسيل المنهمر ، واذا نصب من أشخاصـــه واحـــدا للفـكاهة هال على رأســـه ما لايحصى من فنـــون المزاح والمجون والقاب السخرية ، وما زال ينقله من الأشكال المضحكة فيما يستقصى العجب ويستنفد الاستغراب ، فكأنه يضحك بملء ضلوعه وقلبه . ثم هو ضحك صالح لا يقصد به السخرية من المساكين والبؤساء والضعفاء، ولن يكون الضحك من هؤلاء ضـــحكا وانما هو ســـفالة ولؤم ، فان الضحك الحر الـكريم من شيء ما يستلزم حبك لهذا الشيء ، وليس الضحك الـكريم بمعمعة النار تحت القدر ــ تقهقه النار والقدر تفور وتلتهب : وضحك شاكسبير ممزوج بالرحمة حتى نحو الأغبياء والأدعياء ، وهذا الضحك فى نظرى كبساط الشمس على ســـاحة البحر المحيط .

ولا مجال هنا للاسترسال فى وصف كل من روايات شاكسبير على حدة وان كان لايزال فىذلك متسع للقول ومنفسح للـكلام ، فلو ان كل قصة من قصصه اتيح لها شارح مثل « جوته » لـكان خيرا ، وسيكون ذلك يوما ما ، وقد سمى الفيلسوف الـكبير الألمـــــــانى

« سكليجل » رواية : هنرى الخامس ، وما شاكلها : تاريخا جليلا وطنيا . وتذكرون ماقاله القائد «مارلبرا» من انه لم يعرف من تاريخ بريطانيا الا ما علمه من شاكسبير. وقل فيكتبنا التاريخية لو تنظرون ما يوازى تلكم الروايات قيمة وفضلا . وما أبدع وصفه لحرب « اجنكورت » ونعته جيش الانجليز المكدود المنهوك وساعة التصاف اذتوشك الحرب أنتبتدىء تلك الساعة الجليلة التي يكمن في اثنائها النحس والسعد ثم تلك الشجاعة آلخالدة الذكر « معشر الرماة الذين صيغت اكفهم في بريطانيا » الا تجدون فى ذلك ريح الوطنية ؟ اما في ذلك مكذبة للرامين شاكسبير بفتور الوطنية وقلة النعرة .. أما تحسون قلب الشاعر الكبير ينبض فى كل حرف من مؤلفاته العديدة نبض فؤاد هادىء قوى برىء من كل اثر للجلبة والغلواء ، كأنما صوت نبضه رنين الحديد والصلب ؟ وظنى ان فى صدر شاكسبير هذا جراة ليث وفى يمينه بطشة قسورة ولو أشهدته صروف الدهر ساعة الوغى .

هذا هو فلاح قرية « ستراتفورد » الذى ارتفع الى درجة مدير تمثيل ، فكفى بذلك ذل السؤال والذى رمقه اللورد سواذمبتون بعين رحمته والذى كان السير توماس حفظه الله يريد ارساله الى السجن ! انا لم نعده الها كاودين اذ هو عائش وسطنا ولكنه رغما من ضعف ايمان الأزمان الحديثة بالأبطال فأىاجلال واكبار لم يصبه شاكسبير هذا من أبناء اللسان الانجليزى ؟ اى رجل بل اى مليون رجل من رجالنا لا نجعلهم فداء شاكسبير الذى هو اكبر مفاخرنا واعظم مآثرنا ــ مفخرة نزهى بها علىالأجانب، وحلية يزدان بها صدر بريطانيا.

انظروا ماذا يكون الجواب اذا خيرنا بين ان نترك شاكسبير أو بلاد الهند ـ ان نكون لم نمتلك قط شاكسبير أو لم نمتلك قط امبراطورية الهنـد ـ انا اعلم ان رجال السياسة والحكومة يفضلون الهند ولـكنا نحن لنا الحق ايضا فى ان نختار ما نراه افضل فنقول : سواء حكمنا الهند او لم نحكمها فلا غنى لنا عن شاكسبير ! ستذهب الهند يوما ما ولـكن شاكسبير لا يذهب .

بل ان لشاكسبير فضلا عن مزية المجد والفخـار وتهذيب النفوس والاخلاق ، فائدة مادية عملية ، وهى انه الجامعـة الـكبرى والعروة الوثقى لشـتى طوائف البريطانيين فى انحاء المعمورة ، وسيجىء يوم تظـل جزيرتنا هذه لا تعى من أبناء بريطانيا الا الجزء الأخس وسائرهم مبعثر فى نواحي الـكرة مبدد فى جوانبها ، واذا كان ذلك فما الذى يقرب من هذى النفوس المتدابرة ويؤلف بين هاتيك القلوب المتنافرة فيخضر بينهم الثرى ويتحلى ويشرق الجو بينهم ويتلألأ ويصبحون بفضـله أمة واحدة ؟ ما ذاك الذى يكون قطبـا تدور حوله مصالحهم واوطارهم وكعبة تشرئب نحوها أعنـاقهم وابصـارهم ؟ وبماذا يقوم عمود صلاحهم فى مستقره ونصابه ويستحكم رواق عزهم بأوتاده وأسبابه ؟ بماذا يكون ذلك ؟ أبالحكومة ولائحتها، أم بالوزارة واقتراحاتها أم بالسياسة واصطلاحاتها ؟ كلا، ثم كلا ! بل بشاكسبير هذا .. فهو الملك الاكبر الحاكم على جميـع طوائف الانجليز فى سائر الانحاء والأرجاء .

البطل فى صورة قسيس

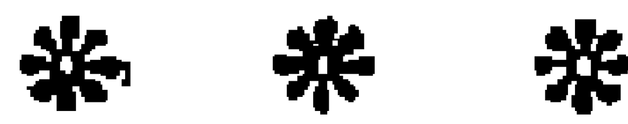
لوثر ـ البروتستانية ـ نوكس ـ البيوريتانية

سيكون كلامنا اليوم عن البطل فى صورة قسيس . والقسيس فى مذهبى نوع من النبى ، اذ لابد من ان يكون منطويا على نور الوحي . والقسيس دليل الناس فى مذاهب الدين وقائدهم فى مناهج العبادة . والوصل بينهم وبين السر الخفى . فهو وزيرهم الروحى ، اذ النبى أميرهم الروحى والقساوسة وزراؤه . وهو (القسيس) العارج بهم الى السماء عن طريق الارض ، الصاعد بهم الى الجنان على درج الصالحات ومراقى الطيبات ومعارج الخيرات والحسنات ، وهو أيضا فى اعتقادنا صوت من العوالم المستورة يترجم للناس اسرارها بعبارة أقرب الى الأذهان وأشبه بالدنيويات من عبارة الأنبياء والرسل : يترجم أسرارالسموات ـ أو ما سماه جوته (السر الجلى) الذى لا يكاد يراه انسان فكلنا ـ الا من اصطفاه الله ـ ازاءه كما قيل :

يا شاهدا يرنو بعينى غائب
ومشاهدا للأمر غير مشاهد

هو نبى عار من روعة جلال النبى وهول مهابته ، يشرق له فى نواحى المعيشة اليومية سراج أقل وهجا

من الشهاب النبوى وأسكن الآلاء ، هـذا ما يجب أن يكون صفة القسيس الكامل . وكلنا يعلم ان الكمال نادر ، وانه ينبغى الكثير من التسامح والتجاوز عند الانتقال من الشروط النظرية الى الحقائق الواقعية . فأما أن يكون قسيس مجرد من كل هذه الشروط غير محاول أن يكون كل ما وصفت ولا متيمم وجه الفضل وأمد الكمال فذلك ما نحن منه براء ولا شأن لنا معه.



كان لوثر ونوكس قسيسين حرفة ، وقد أديا الوظيفة فى أمانة وصدق ، واولى بنا مع ذلك أن نعدهما حسب صورتيهما التاريخية أعنى مصلحين . وربما وجد فى أيام السلم من القسوس من يساوون لوثر ونوكس فى حسن القيام بشئون الوظيفة وصدق النهوض بأعبائها ــ يستنزلون هدى الله على عبيده ويحدون بركب الفناء فى سبيل الحياة الهادئة المطمئنة ولكن اذا جاء عصر أوعرت فيه تلك السبل وأوعثت وقامت فيها القحم والعقبات ، والموارط والهلكات ، ودجت الخطوب واظلمت الفتن ، وازمت الكروب وتشنعت المحن ، فليس القسيس الذى يسير بنا فى هذه الطريق سيرة النوتى والبحر ذى الصخور والحجارة .

تجافى بها النوتى حتى كأنما
يسير من الاشفاق فى جبل وعر

ليس الذى يساور بنا تلك القحم ويوائب ، ويزاحم بنا هذه العوائق ويغالب الا أكبر من غيره ــ ولا سيما فى نظرنا نحن ــ وأخطر. فهوالقسيس المجاهد المقاتل، لم يكن طريقه بالذلول الركوب ، ولا جرت سفينته على يم ساكت مطمئن تحت ريح رخاء سهوة الى مرسى

الهدوء والسكينة ، ولكنه نزل بأناسه سوح (ساحات) القتال في زمن فتوق ثائرة وخطوب طائرة ، وحروب دائرة ، وصروف جائرة وأمور بائرة ، ونفوس حائرة ، فسنعد هذين الرجلين أكبر قساوستنا من حيث انهما اكبر مصلحينا . أوليس كل مصلح صادق قسيسا قبل كل شيء بطبيعته ؟ وكيف وانه بالله يستنجد ويستغيث من ظلم الظالمين وجور الجائرين ويعلم ان بطش الله فوق كل بطش وان :

يد الله كانت فوق أيديكم التى
أرادت بنا ما في الظنون الكواذب

أليس هوالمؤمن بالأسرار المقدسة ـ كاهنا يهتك ببصره الشبهات عن حقائقها ـ اعني قسيسا . واذا لم يكن قسيسا قبل كل شيء فلن تراه من الاصلاح والمصلحين في شيء .

وكما رأينا أعاظم الرجال في مراكزهم المختلفة يبنون الأديان ـ الأساليب الشريفة للحياة الدنيوية ـ العقائد الحيوية الجديرة بأن يتغنى بها أمثال دانتى ، والأفعال الخليقة بأن يشدو بها أمثال شاكسبير ـ نرى أيضا عكس ذلك ، أعنى هدم هاتيك الأديان . وهو أيضا من الضرورات ، وحرى أن يكون من أعمال الأبطال ومفاخر العظماء . وعجيب أن يكون ذلك ضروريا ولكنه في الحقيقة ضروري . حتى ترى نور الشاعر ـ ذلك النور اللين الغض يخلى مكانه لبارقات المصلح السريعة الوميض الطائرة الشعاع . ولابد للكون من المصلح وليس يخلو التاريخ منه قط ولولا المصلحان القديس (وميناكيس) ، والرجل الشديد البأس ، الصعب المراس (ثيباد اريماتس) ما ترنم دانتى ، ولولا ما سبق شاكسبير من

اعمال الأمم ومساعى العالم من (أودين) الى معاصره (والترورالى) ما نطق شاكسبير . بل ان الشاعر الكامل لدليل على أن عصره قد بلغ حد الكمال وانه قد أوشك أن ينتهى ويجىء عصر جديد ودولة جديدة وحال جديدة. فلابد اذن من أن يوجد المصلحون فيقوموا بتلك الحركة.

ولاشك انه قد كان خيرا لنا واجمل لو امكننا ان نفلت من تلك الفتن والثورات ، ونتحامى هـــذه القلاقل والاضطرابات ، ونسير ابدا السير اللين الرفيق على انغام الشعراء . يروضنا شجي غنائهم . وطرب حدائهم. كما كان يفعل (اورفيس) :

حيث استفز الراسيات بلحنه
اورفيس استدنى القطا الحذرات
ودعا الوحوش النافرات فأقبلت
خضع الرقاب نواكس الهامات

وكان خيرا لنا اذ لم يؤتنا غناء الشعراء لو انا سرنا فى طريق السكينة والأمن يتولى قيادنا ويأخذ زمامنا قساوسة ذوو هدوء وسلم ، يصلحون من احوالنا يوما فيوما . لقد كان حسبنا والله ذلك ولكن أبت سنة الطبيعة الا امورا أخرى . اذ ما برحت تقوم العقبات وتعترض العائقات فى طريق الحياة الدينية ، بل يصبح الأمر الصالح الذى كان يعد من اسباب الرقى عقبة وعائقا وقيدا لا مناص من خلعه واطراحه ، وفى ذلك ما فيه من الجهد الجهيد والمشقة ، وعجيب والله كيف ترى الخطة الدينية والنظرية الروحانية التى كانت بالأمس تشمل العالم طرا وتسع الأمم جميعا ويرضى بها تمام الرضا ذهن ثاقب دقيق كذهن دانتى تصبح اليوم حديث خرافة للقرن الحاضر ، وموضع تكذيب

وانكار، وسخر واصغار، شبيهة عندهم بنظرية (اودين)، كان دانتى يرى تمثيل الحياة الدنيا وأفعال الله بالعباد بتلك النيران التى صورها فى قصـــــته وتلك الأودية والجبال . ولـكن لوثر لم ير ذلك ولا صوبه ، فكيف كان ذلك ؟ ولم لم تبق على مدى الايام كاثوليكية دانتى حتى تذهب ويعقبها بروتستانتية لوثر ؟ اللهم لا شيء يبقى !

انا لا احفل بمسألة ارتقاء البشر وتقدم المدنيـــة كما يتكلم فيها علماء هذا العصر ، فان كلامهم فى ذلك الصدد شديد الغلو كثير الخلط والخبط مضطرب مشوش . ولـكنى اقول على الرغم من ذلك ان ارتقاء النوع حقيقة لاشك فيها وبرهانها باد فى طبيعة الأشياء ، وذلك ان كل انسان فضلا عن انه متعلم فهو كذلك مخترع يتعلم بالعقل الذى وهبه الله ما صنع السلف وبنفس هـــذا العقل يكتشف أمورا جديدة ويبــدع ويبتكر ، وليس انسان قط يخلو من ملـكة الابداع والاختراع ، ولارجل قط يعتقد ما كان يعتقده جده حذوك القذة بالقذة بل يفسح بالاكتشاف مجال نظره فى الـكون ، ويبعد مدى رأيه فى الخلائق ، والـكون تعلمون عديم النهاية ، وما كان لراى قط مهما انفسح أن يستوفيه ويستقصيه ، ويشتمل عليه ويحتويه ، أقول كل امرىء يزيد رأيه فى الـكون على راى جده ، اذ يخطىء بعض ما كان يراه ذلكالجد ويراه غير منطبقعلىحقيقة حديثه الاكتشاف، هذا تاريخ كل فرد وهو يظهر فى مجرى التاريخ العام مضاعفا أعظم تضعيف حتي يبدو فى هيئـــة الانقـــلابات الـكبيرة والثورات الخطيرة . ولقد كان دانتى يحسب ان فى نصف الدنيا الآخر جبلا فى المحيط يطهر الله فيه ارواح المذنبين قبل ادخالها الجنة وهو ما وصـــفه فى

قصته وسماه جبل التطهير ، هكذا كان دانتي يعتقد . فلما ذهب كريستفور كولمباس الى ذاك النصف الآخر من الدنيا لم يجد فى بحاره ذاك الجبل الذى كان دانتي يعتقد وجوده هنالك !! أفترى الناس بعد ذلك يصدقون قول دانتي ؟ وهذا حال سائر المعتقدات فى هذا العالم وحال ما ينشأ عنها من النظامات الدينية والدنيوية .

فاذا أضفنا الى ذلك الأمر المحزن وهو انه اذا مرضت القلوب ووهنت العقائد ونخر الشك فى عظام اليقين فسدت عقيب ذلك أعمال المرء ، ونجمت هنا وهنالك الأغلاط والمظالم والمصائب ومدت الفتنة أسبابها، وأخذت الثورة أهبتها ، وشمرت جلبابها ، وما زال من البديهى انه لا يصدق عمل المرء حتى يصدق اعتقاده ، فاذا ضعف اعتقاد الانسان فلم يكن له من عقيدته ما هو باعث على الأعمال بل أصبح يجرى فى جميع أمره على مذهب العرف السائد وسنة العادة المتبعة ، مخضعا رايه لراى الدنيا ، جاعلا ارادته رديفا لارادة العالم وفكره جنيبا لفكر الملا ، فما هو والله اذ ذاك الا عبد واسير، وبالخطأ فيما يسند اليه خليق وجدير، وهو احد سواق الفتنة، وحداة الثورة ، يضرب عجزها ويأخذ بناصيتها الى اليوم الموعود ، والأجل المحدود ، وما من عمل يأتيه من غير صدق ولا اخلاص ناظرا الى ظاهره الكاذب فقط ، الا وهو اثم جديد يلد لبعض الناس جديد مصاب ومستطرف بلية ، ثم تتراكم الآثام حتى تتفجر عن الثورة انفجار البركان. وهكذا لما أصبح الناس لا يؤمنون بكاثوليكية دانتي من حيث معانيها ، ولا يقدسونها ، لما افسد الشك والكذب والعمل المنكر الخبيث من مبانيها ، اتيح لشملها من لوثر ممزق ، ولنظامها مبدد

ومفرق ، وقضى ربك على العيشة الاقطاعية تلك العيشة المونقة البهجة التى ابدع صفتها شاكسبير ان يكون ختامها الثورة الفرنسية ، وانما هو كما قلنا انفجار من الآثام المتراكمة كانفجار البركان ثم لا تستقر الأمور الا بعد مدد طويلة من الاضطراب والقلق .

وانه لمن البلية أن نظرنا من ذلك الأمر على جهة واحدة فلا نبصر فى آراء البشر ونظاماتهم الا انها مشتبهة ملتبسة وقتية رهينة بالفناء والموت .. والحقيقة غير ذلك، اذ نجد ان الفناء هنا انما هو فناء الثوب لا الجوهر، والموت موت الجسم لا الروح ، وكل اتلاف بسلاح الثورة انما هو خلق جديد على نظام ابدع ، ونطاق اوسع ، فكانت الوثنية الأودينية شجاعة وبسالة ، وجاءت النصرانية خشوعا وضراعة ، وما الخشوع الا ضرب من الشجاعة أشرف واكرم ، وما من راى جال فى صدر الانسان جولة جد واخلاص عن عقيدة صدق وايمان الا وكان فى وقته نظرة صادقة من الانسان فى صميم الحق ، فيها عنصر صدق لايزال على تجدد الاحوال جديدا ، فهو ذخر لنا باق على كر الجديدين وتعاقب الخافقين . ثم اليس من الجور والسخف أن نرى أن جميع من خلق الله من الامم فى جميع الازمان والأمكنة مخطىء ضال الا نحن ، وانه ليس فى خلق الله غابرا وحاضرا من بات على هدى من ربه الا نحن ، وان جميع الامم والشعوب ضلوا وخابوا لكى نصيب ونفلح نحن ــ الفئة الضئيلة القليلة ، وان جميع تلك الأمم انما ساروا منذ بدء الخليقة حتى الآن مسير الجنود الروسية لم يك زحفهم نحو الخندق الا ليلقوا بأنفسهم فيه فيسدوه بأجسامهم الميتة فيكون لنا ثمة من جثثهم جسر

نعبر عليه الى المدينة المحاصرة فنأخذها ! وهذا وربكم غاية الغرور ومنتهى الباطل .

وما أشد ما يتمسك الناس بهذا الباطل فيحسبون انهم سائرون على جثث جميع من سلف من القرون الى أمد النصر والظفر ، ولكن ماذا عسى أن يقال اذا هم وقعوا كذلك فى الخندق وصاروا أجسادا ميتة ؟ وكذلك ارى فى فطرة الانسان انه ما برح يحسب فكره امام الأفكار ورأيه خاتمة الآراء ، ويمضى على هذه العقيدة ، ولو أنصف لأبصر ان جميع من ذهب من عباد الله الصالحين ومن حضر انما هم جنود جيش واحد أدرجوا فى سلك الكتيبة تحت قيادة الله ليقاتلوا عدوا واحدا. اعنى به عالم الظلمات والباطل ، ففيم التناكر والتجاهل والاشتغال عن جهاد العدو المشترك بقتالنا بعضنا بعضا لمجرد اختلاف فى اللباس والزى ؟ الا كل الأزياء حسن ما زرت عراه على ذى مروءة ونجدة ، ومرحبا بالسلاح كله على اختلاف نوعه وشكله من العمامة العربية والیمانى المرهف الى معول (ثورا) يضرب به الجان والمردة ، وما زمجرة لوثر فى حومة الحرب ، والحان دانتى من اليراع والقصب ، الا عون لنا لا علينا ، وكلنا نحب ذياك القائد وذاك اللواء !

(وبعد) فلنلق نظرة فى جهاد لوثر هذا لنعلم اى ضرب من الجهاد هو وكيف كان فيه بلاؤه ، ولوثر لا تنسوه كان من أبطالنا الروحيين — نبيا لأمته وزمنه .

ولعل كلمة هنا عن الوثنية على سبيل المقدمة لاتكون الا فى مستقرها وموضعها ، لقد كان من أهم خواص محمد (عليه السلام) ومما امتاز به الانبياء عامة شدة الانكار للوثنية ، وهو اكبر مسائل الرسل ، وعبادة

الأوثان الميتة كاله هو ما لايسكتون عنه أبدا ولايطيقونه ، بل لايزالون يشددون النكير عليه ويسمونه بألدغ مياسم القذع والقذف ، وهو عنـــدهم أس الذنوب وراس الـكبائر ؛ وهذا جدير بالتأمل ، وكلمة (ايدول) أصلها (أيدولون) ومعناها الشيء المنظور أعنى العـلامة أى الرمز ، فليس معناها اذن الها بل رمز للاله . وجدير بنا أن نشك هل كان قط انســان مهما بلغ انحطـاطه وعماه فى راى ذلك الصنم أكثر من انه رمز ؟ أنا لا أظن ان مثل ذلك الانسان كان يحسب ان الشيء الذى صنعه بيديه هو الاله بل كل ما يحسب هو انه يمثل الاله وان الاله كائن فيه بشكل ما . واذا كان الأمر كذلك حق لنا أن نسأل اليست كل عبادة أيا كانت هى عبــادة بالرموز أو بالأشياء المنظورة ، وسواء تمثل الاله للعين الخارجية فى صــورة متطورة أو للعين الداخلية اعنى الذهن أو للخيال فانما هو فرق سطحى لا جوهرى ، اذ لا تزال تبقى هذه الحقيقة وهى ان هناك شيئا ينظر ــ بالعين او بالذهن ــ دليلا على الاله ، وليس يخلو أروع الناسكين وأولع المتصوفين من الممثلات الذهنية للمسائل المقدسة وبها يعبد الله ولولاها ما وجـــد الى العبادة ســـبيلا : وكذلك كل العقائد والملل والنحل والتصورات المطوية على الوجدانات الدينية على هـــذا الحد أشياء منظورة ، ولا تسير العبادة قط الا بالرموز ــ بالأوثان . وعلى ذلك نقول ان كل دين وثنية ، وانما بعضها أشد وثنية والبعض أقل .

أين اذن شرها ؟ أما انه لابد من أنتكون منطوية على شر كبير والا فما كانت ملاقية من انكار الأنبياء والرسل أشده وأبلغه اجل لماذا نرى الوثنيــة بفيضــة كل ذلك

البغض الى الأنبياء ممقوتة لديهم ؟ ولا أحسب ان أكبر ما أسخط نبيا على الوثنية وملأ صدره غيظا وحنقا ليس هو بالضبط ما كان يخطر بباله فى ذلك الصدد ويصرح به للغير ، فان أحط وثنى من عباد الكواكب أوالأصنام كان كما رأينا خيرا من الحصان الذى لم يعبد شيئا ! بل لقد كان فى عمله الحقير هذا نوع من الفضل الخالد ، شبيه بما يحمد فى الشعراء ، اعنى ايناس الجمال الالهى والمعنى الكبير فى النجوم وسائر الكائنات الطبيعية على الاطلاق ، فلماذا يا ترى ينقم عليه النبى كل هذه النقمة ؟ ان احقر وثنى عاكف على صنمه ليس اذا امتلأ صدره ايمانا بهذا الصنم الا جديرا بالرحمة لا الابغاض وان كان بعد أهلا للاحتقار والمقت والاجتناب أن شئت ليمتلىء باعتقادها قلبه وليستنير بها وعاء ذهنه الضيق المظلم أو بالاختصار ليؤمن بصنمه الايمان كله يكن فى ذلك خير له ، أو بعبارة أخرى ما هو حاضر فى ذاك الوقت من الخير وممكن ، ثم دعه وشأنه آمنا فى سربه ماضيا على رسله .

ولكن الوثنية تصاب بعد ذلك بآفتها الكبرى ، وهى ان الايمان بها يكون قد تطرق اليه الفساد أزمان النبوة ، ويكون الكثير من الناس قد ادركوا بعض ما ادركه النبى من ان هذا الوثن انما هو قطعة من الخشب. وينكر النبى هذه الوثنية ، والوثنية المنكرة هى الخالية من الاخلاص والصدق لما اكلت الشكوك قلبها ونخبت الشبهات لبها ، فبينا يتشبث بها الوثنى اذ يخيل اليه انه يتشبث بطيف الخيال واشباح الظلال ، وهذا لعمرى من شر البلية واسوأ المحنة ، ولقد قال كولريج: « انكم لا تعتقدون وانما تعتقدون انكم تعتقدون» وذلك هو الفصل الأخير من رواية الأديان والعقائد وآية دنو

الموت واقتراب الهلاك ، وهو شبيه بما نسميه اليوم اتباع التقاليد وتقديس العادات . وليس فى طاقة الانسان آن يأتي جناية أفظع ، وموبقة أشنع ، ولا اثما أفجر — وجرما انكر — وما هى الا رقدة العقل وشلل النفس ، وضياع الاخلاص والصدق ، فلا عجب اذن ان ينكر الحر ذلك ويمقته ويبرأ الى الله منه .

ولا اجد لوثر فى أمر الأصنام وتكسيرها الا كأى نبى من الأنبياء ، وما كان بغض محمد (عليه السلام) لآلهة قريش المصنوعة من الخشب والشمع بأكثر من كراهة لوثر لمسألة غفران ذنوب الموتى وأدواتها من الجلد والحبر كما كان يجريها بطارقة الكاثوليكية ، وأنه لشأن البطل أيا كان وفى كل زمان ومكان أن يرجع الى الحقيقة ويعتمد على الأشياء لا على ظواهر الأشياء ، ويقدر حبه لحقائق الأشياء واجلاله اياها اجلالا ناطقا يصدح به صوت الشعر ويسجع ، أو اجلالا مفعما يجيش به الجنان ويعجز عنه اللسان ، يكون مقته وكرهه لظواهر الأشياء مهما صقل التمويه من اطرافها وهذب التزويق من حواشيها ومهما أيدتها قريش أو عززتها قساوسة الكاثوليكية ، والبروتستانتية عمل جليل جدير بفاعله أن يسمى نبيا ، وهى فى نظرى نبوة القرن السادس عشر وأول ضربة فى مفاصل عقيدة أصابها الدهر بداء الكذب والوثنية ، وهى تمهيد جديد لمستقبل صالح سيكون حقا ويكون مقدسا !

يظن الذى لا يدقق النظر ان من شأن البروتستانتية محوها لما نسميه عبادة الأبطال وجعلها اساس الخير الدينى والدنيوى ترك الثقة بزعماء الدين وعدم الايمان بهم ، وطالما نسمع ان البروتستانتية أوقدت عصرا

جديدا شديد الخلاف لجميع ما سبقه من العصور « عصر الرأي الشخصي » كما يسمونه ، وأما اذ كانت البروتستانتية ثورانا ضد البابا فقد أصبح كل فرد بابا لنفسه: وعلم فيما علم انمن أول واجباته عدم الثقة بأي بابا أو امام ديني ! وعلى ذلك نسمع القائلين يقولون : أولم تصبح الرابطة الدينية وكل انقياد لزعامة دينية بعد ذلك من المستحيلات ؟ أنا لا انكر ان البروتستانتية لم تك الا ثورة ضد أئمة الدين من بابا وبطريق وما اليهما ، كما لا انكر ان البيوريتانية الانجليزية التي كانت ثورة ضد الملوك والأمراء انما هي الفصل الثاني من الرواية التي أول فصولها البروتستانتية وان الفصل الثالث من هذه الرواية هو الثورة الفرنسية الهائلة التي كان من شأنها فيما يرى ويظن انها نسخت جميع الزعامات الدنيوية والدينية ـ الأرضية والسماوية ـ أو جعلت أمر نسخها قضاء لابد من تنفيذه. والبروتستانتية هي الجذر الذي عنه تفرع تاريخ أوربا الحديث وتشعب لأن الروحانيات ما برحت تتقمص في العمليات والروحاني مبدأ العملي ، وقد أصبحنا الآن وملء آذاننا صيحات « يا للمساواة » « يا للاخاء » « يا للحرية والاستقلال » واصبحنا ولدينا بدل الملوك أوعية أوراق الانتخابات وأصوات الانتخاب وكأنما قد ذهب من الدنيا بتاتا طاعة الانسان للانسان في الدنيويات والدينيات ، ولو أن الحقيقة كذلك لتناهى يأسي من الدنيا وأريقت صبابة رجائي ، ولكن ارسخ عقائدي أن الأمر ليس كذلك ، ولولا الحكام أخيار الحكام ـ الدنيويون والدينيون لأصبح أمر الناس فوضى ، وشر الأمور الفوضى ، ولكني أرى البروتستانتية رغما مما أحدثت من الديمقراطية الفوضوية منشأ ملوكية حرة صادقة ومنشأ نظام وصلاح

واحكام ، وأراها ثورة ضـــد اشرار الملوك وكاذبيهم ، وأراها الخطوة الأولى الى اقامة أحرار الملوك بيننـــا وصلاحهم . وهذا يحتاج الى قليل من الشرح .

ولنذكر اولا أن أمر « الراى الشخصى » فى العبادة لم يك بالأمر الجديد فى العالم ولـكنه كان فى تلك المدة جديدا ، نعم ليس فى البروتســتانتية شيء جـديد فى جنسه وانما هى رجعة الى الحق والجوهر بعد الاقامة على الباطل والظاهر الـكاذب بشــأن كل رقى وتعليم صالح ، ولا احسب الا ان حرية الراى الشخصى مابرحت فى الناس من قديم الأزل لم يخل منها جيل من الأجيال ، وما أظن ان دانتى كان قد عمد الى عينيه فقلبهما ولا الى حركات ذهنه فغلها وقيدها ، ولقد كان فى كاثوليكيته تلك حرا طليقا وان أصبح قوم فى اغلالها من بعـــده مكبلين وفى أصفادها موثقين ، حرية الرأى ؟ ماذا اسمع كلا والله ما كان قط فى قدرة السلاسل والأغلال ولا أى قوة بشرية ترغم انسانا على الايمان بهذا الأمر أو الكفر بذاك ، وانما رأيه فى ذلك سراجه الدائم الاشتعال الذى لا يخبو الا مع أفول كوكب حياته ، وبه يستنير ويهتدى بفضل الله وحده : ان أشقى الضالين الذى يأمر باعتقاد الأعمى والطاعة المهينة لابد من أن يكون قد أقنع نفسه أولا بأنه لا حق لها فى طلب الاقنـــاع ، نعم و « رأيه الشخصى » هو الذى اشار عليه بذلك كأصوب مايؤتى ، فمثل هذا الرجل حر الرأى فى ضـــلاله ولـكنه حر الرأى ، وهو فوق ذلك مخلص ، وما دام فى قلب المرء اخلاص فالراى الشخصى جاره فى ذلك القلب وحليفه ، والرجل المخلص يعتقد بملء رأيه وبجميع ما هو مطوى عليه من النور والهدى ، بينما ترى الرجـل الـكاذب

الذي يحاول جهده أن « يعتقد انه يعتقد » يسلك طريقا آخر ، فالأول تقول البروتستانتية « خيرا صنعت ! » وتقول للآخر : « ويل لك ! » فما هو كما ترون بالقول الجديد ولا الخطة العذراء ، وأنما كما قلت عودة الى جميع ما قيل من اقوال القدماء « كن حرا ، كن صادقا ، كن مخلصا » لقد كان محمد (عليه السلام) يؤمن بملء قلبه ، وكذلك كان أودين وكذلك جميع المسلمين والنصارى وصادقي الوثنيين ، لقد رأى كل فريق منهم مذهبه الذي تبعه (برأيه الشخصي) .

واني لا أقول ولا حرج ان الاستمرار على أعمال الرأي الشخصي لا ينتهي قط بالاستبداد الأناني والتفرق والتقاطع بل ينتهي بعكس ذلك بطبيعة الحال ، وليست الفوضى من نتائج البحث الحر والفحص الصادق ولكنها نتيجة الخطأ والكذب وضعف الايمان ، وما ثورة المرء ضد الباطل الا ميل منه الى ناحية الحق وجنوح الى اللحاق بزمرة اهل الصلاح والتقى ، فأما أهل المظاهر الكاذبة فمحال ان تكون بينهم صلة أو رابطة ، وكيف وفي جوف كل منهم فؤاد ميت لا عاطفة فيه على حقيقة شيء .. واذا اقفر القلب من العاطفة على الأشياء أفترجو أن يكون منه على اخوانه الآدميين عاطفة ؟ كلا انه لا يأتلف بالناس ــ انه رجل فوضوي ، والوحدة ايدكم الله والجامعة لا تكون الا بين اخوان الصدق واولي الاخلاص .

اما من حيث قولهم ان كل انسان يعبد الله « برأيه الشخصي » فان معظم الناس ليس لهم آراء شخصية ، وانما الرأي هبة الله يهبها لأعاظم الرجال ، ثم لابأس على غير العظماء أن يعتقدوا رأي العظيم ويستشعروه

حتى لكأنهم مبتكرونه وقانصو شريدته ، ومخترعونه ونابشو دفينته ، وحسب المرء من الابتكار والاختراع ، والاكتشاف والابتداع ، ان يصح ايقانه ويصدق ايمانه، فاذا كان ذلك ، فما ضره ان لم يكن من الراى بمنزلة كاشف خبيئته وفاض لطيمته ، ومن كان كذلك فهو الحر الصادق المخلص بل ان له فوق ذلك من فضيلة الاكتشاف والابتكار بمقدار ما هو فاهم للرأى الذى يعتقده ويستنبطه ، فان فهمك لراى عظيم من العظماء ضرب من الشركة مع ذلك العظيم فى احداثه ، وكذلك لكل أمرىء أن يكون متى شاء مخلصا صادقا اعنى مبتكرا بمعنى ما ، بل لقد أوجد الله أمما وشعوبا كل افرادها مؤمن صادق ، تلك أمم الحق وشعوب الايمان، وقرون الصدق والصلاح ، وأعصر البر والفلاح ، أعصر مباركة وافرة الثمرات كثيرة الخيرات ، جمة المبرات ، اذ كل فرد يقوم على أس الحقيقة لا الباطل ، فكل شجرة عمل يانعة الثمر ، وكل لفحة صنع غزيرة الدر، وحاصل الجميع جم وافر ، بما كان كل فرد يضرب الى ناحية واحدة ، ويؤم غرضا بذاته وامدا بعينه ، هذه اعصر الربح لا الخسران وازمن المزيد لا النقصان .

ولد لوثر ببلدة ايزليبن بمقاطعة ساكسونيا من ولايات جرمانيا لعشر خلون من شهر نوفمبر ١٤٨٣ ، وقد لبست تلك البلدة بمولده حلة فخار تبقى ما لبس النهار حلة الشمس ، وتاج مجد يدوم ما كلل البدر هامة الليل . وكانت امه وأبوه وهو صانع فقير فى بعض معادن البقعة المسماة « موهيرا » قد ذهبا الى سوق ايزليبن الشتوى فاخذ السيدة المخاض فى حومة السوق وغماره فعادت بدار حقيرة وولدت غلاما سمى مارتين

لوثر ـ عجيب والله ذلك لو تدبرتمونه ، لقد ذهبت هذه المرأة « فرولوثر » وبعلها الى ذاك السوق لتقضى حاجة من البيع والشراء ـ علة لتبيع ثمة ما كانت نسجت من ثياب الصوف ولتشتري ذخيرة الشتاء لدارها الحقيرة، ولعل في ذاك اليوم لم يك في طول الأرض وعرضها اثنان هما أصغر شأنا وأخمل ذكرا وأقل خطرا من ذلك العامل الفقير وزوجه .

ومع ذلك فماذا ملوك الأرض وسلاطين العالم وباباته وبطارقته في جانب ذينك الاثنين ! لقد ولد اليوم بطل جليل، وشب الله شهاب وقاد، سوف يمتد على مئات القرون المقبلة شعاعه ، في ذلك اليوم ولد بطل أطال سكان الأرض ارتقابه ، وخوله التاريخ احتفاءه وترحابه ، عجيب والله وغريب وخطير على الغرابة وكبير ! وفيه ذكرى لميلاد أقدم عصرا ، وأسمى منزلة وأرفع قدرا وقع منذ ألف وثمانمائة عام ، وهو حادث الصمت ازاءه أولى من الكلام ، وما عساه يقال في مثل ذلك المقام ؟ ويزعم الناس بعد لوثر ومولده ان الأرض قد صفرت من المعجزات ، وانفضت من الآيات. كلا وأسماء الله انما العالم غريق في الاعجاز والمعجزة من نبات ذياكم الثرى .

وأرى انه كان ملائما جدا لوظيفة لوثر في هذا العالم وحكمة من الله بالغة أن ولد ذلك الرجل فقيرا وربى فقيرا كأفقر عباده ، وكان أيام تلمذته يشحذ القوت متسولا بالغناء من دار الى دار ، وكان البؤس رفيقه والكرب شقيقه ، والشقاء أبدا مجاهره وجها لوجه ، والدنيا تكاشفه الكره والعداوة ، لا تخادعه قط بزخارف الباطل والكذب وبوارق الأمل الخلب ،

وهكذا شب لوثر بين حقائق الأشياء المرة المضيضة لا ظواهرها الحلوة المصقولة ، غلاما خشن الهيئة ضعيف المنة ، فى جوفه روح كبيرة نهمة كلها ذكاء وشعور ، شب فى ملتطم امواج البلاء ، ومصطدم أو أذى الشقاء ، ولكن ذلك خير مدارس له ، تعلم فيه سنة الحق والف صحبة الحقائق ، وهذا واجبه فى الحياة ان يعرف الحقيقة ثم يرجع اليها العالم الضال بما قد طال فى الباطل لجاجه ، واشتد بالزور والكذب لهاجه ، غلام نشأ فى مهد العواصف وربى فى حجر القر والزمهرير ، وغذته مرضعات الهم والنكد وغازلته بنات البأساء والسكمد ، فخرج من أحشاء وطنه خروج « ثورا » (١) من ضمير اسكاندينافيا ، وكيف وانه ما انفك يضرب فى شياطين الافك والزور ، وأبالسة المنكر والفجور ، كما كان يفعل « ثورا » بالجان والمردة حتى هزم كتائب الكذب والمحال وكشف جنود البدع والضلال .

ولعل الأمر الذى كان عليه متحول مجرى حياته هو موت صديقه « الكسيس » بالصاعقة ، لقد كان لوثر قد اظهر فى زمن طفولته وصباه أشد الميل للدرس والمذاكرة رغما من كارثات الفقر ، ورجا ابويه ان يكون له فى الرقى قسمة فأركباه طريق الدراسة القضائية لأنها الطريق اذ ذاك الى النهضة والصعود ، فرضى لوثر بذلك رضا ككره ، وأساغه مساغ الشجى وأغضى منه على القذى .

فلما كان فى التاسعة عشرة وقد شخص هو وصديق له « الكسيس » ليزورا أبويه فى بلدة « مانسفيلد »

(١) اله الرعد عند الامم الشمالية الوثنية وقد مر ذكره .

ثارت- زوبعة ورمت بالصاعقة فأصابت صديقه فاذا هو تحت قدميه ميت فناجاه مناجى العبرة من أعماق نفسه « تبا لهذه الدنيا وقبحا لهذى الدار، ويا بؤس للحياة ويا رحمتا للانسان ! ما هذه الحياة ؟ اتزول فى لفتة الجيد ولمح البصر وتذهب كالقرطاس طوته ألسنة النيران فتضيع فى مجاهل الأبد ؟ ماذا الدنيا وماذا الدول والممالك والسلاطين والقياصرة ؟ كلهم فى التراب ! بينما هم رافلون ، على الأرائك متكئون ، تفغر الأرض فاها فاذا هم فى بطنها ثاوون ، وبالعفر والرغام مكحولون ؟ والمدر والحجارة موسدون . أجل ، كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام» ، عزم من ساعته على الانقطاع لله وعبادته طول عمره ، وأصبح قسيس كنيسة القديس ثم أن لوثر أوجاستين ببلدة «ارفورت» برغم ابيه والكثيرين من معارفه .

ولعل هذا أول شعاع برق فى تاريخ الرجل ولكنه شعاع وسط ظلمات ، وقد حدث نفسه انه كان فى تلك المدة قسيسا صالحا ، يجد ويجتهد ليؤدي وظيفته ، ويدرك السعادة ولكن عبثا حاول فما خفف مصابه ولا قلت شقوته ، ولكن تضاعف عليه البلاء حتى جاوز كل حد . وما أشقاه لا من كد فى عمله ولا نصب ولا من مهانة العمل وذله اتاه البلاء ، وانما لسقوط نفسه اذ ذاك فى أسحق مهاوى الشك والخوف ـ الشك فى انه على الهدى ، والخوف من عذاب الله فى الآخرة ، وقام بخاطره انه قد دنا أجله ، وشر من ذلك انه قد دنا عذابه الأبدى ، أليس فى ذلك دليل على خشوع الرجل وضراعته واخلاصه ؟ لعله جعل يقول فى نفسه : « من انت ايها المسكين حتى تدخل الجنة ؟ أنت الذى

ما عرفت الا الشقاء والهوان . كلا ، ذلك مقـام دونه الشمس» ، ولم يكد يفهم كيف ان فى الصوم والتهجد وتكاليف الدين والـكنيسة منجاة للمرء من النار فمن ثم هوت نفسه فى اعتم ظلمـات البؤس ، وجعل كأنما يرنح به على شفا جرف هار .

وكان عثوره على نسخة قديمة من الانجيل فى مكتبة ارفورت حسنة أكبر من حسنات الزمن ، ولم يك قط قبلها أبصر الأنجيل ، فلقنه درسا خلاف درس الصيام والتهجد ، وأعانه على ذلك اخ فى الله قسيس ، فعلم لوثر أن المنقذ للانسان من وهدة البلاء ليس هو نشيد الصلوات وترتيل الآيات، وانما هو الله ومرحمته ، وذلك أقرب الى العقل وأوقع فى الجنان ، فاعتصم من رحمة الله بأوثق عروة ، وانشب من مغفرة الله فى ارسى طود وهضبة ، ولا بدع ان جعل يقدس الأنجيل الذى اسدى اليه تلك المنة فأجله كما يجل مثله كلام الخالق ، وعزم على الا يحيد عنه أصبعا ، وقد كان منه ذلك حتى لقى ربه .

فكان ذلك خلاصه من اسر الشكوك والريب ، ومنجاته من مرتطم الخوف والجزع ، وانتقاله من الضلال الى الهدى ، فازدادت نفسه من يوم الى آخر غبطة وصفاء ، وراحة ورخاء ، وكانت النتيجة الطبيعية انه اظهر للملأ ما كان مكتتما قبل فى زوايا صدره من المواهب الالهية والصفات العلية ، فأعظمه الرؤساء وبوأوه من الدرج ما هو أهله ووكلوا به أمر البعث ، فكلما آب من رحلة كلفوه اخرى ، ثقة منهم فيه بالحزم والصـــدق ، ثم اختاره أمير المقاطعة « فريدريك الملقب بالعاقل » وكان عاقلا عادلا استاذا فى جامعة « وتنبرج » فأحسن اداء

ذلك العمل كما احسن البلاء في جميـــع ما نيط به من الأمور ، وجعل من يوم الى آخر يعلو في أنظار الناس ، ويتغلغل في نفوسهم .

وكان في السابعة والعشرين من عمره ان رأى مدينة روما لأول مرة وكان أتاها برسالة من ديره ، ولا اخال الا ان لوثر عجب لما أبصر من حـــال البـــابا « يوليوس الثاني » وسائر أحوال روما اذ ذاك ، وكان ظنه أنه قد اتى المدينة المقدسة عرش ولي الله في الأرض وامام الناس وهاديهم سواء السبيل فاذا هو بين فســـق وفجور ، وغفلة وغرور ، وويل وثبور ، وبين اثم وزور ، وبلاء وشر ، وباطل ومكر ، وما أحسب الا ان هـــذه الحالة السيئة قد بعثت خاطره في أودية الفكر وشعاب الظن ، ولـــكنها كانت هواجس لم يرفعها قلبه الى لسانه ، ولا اسلمها وجدانه الى بيانه ، لقد علم انه لا يبصر امامه هدى ولا حقا ، ولكن ماله ولذلك ! وأنى لرجل ضعيف مثله أن يصلح عالما ويقلب دنيا ، حقا ان لمثل هذا العمل لانسانا غيره أعظم قدرا ، واكبر خطرا . وحسب لوثر ان يوفقه الله الى هداه . ويسدد الى خطة الحق خطاه . وبحسبه ان يقوم بواجبه في خفية وغموض ، فأما العالم فعالم الله يفعل به ما يشاء ولله في خلقه شئون .

وكذلك ترك لوثر هذه البابوية الضالة وشأنها وعاد الى بلاده ، نعم تركها وشأنها ولم يتعرض لها الا بعـــد ان تعرضت له ، لم ينقض عليها ويسطو بها حتى هاجته واستثارته ، ومن أكبر فضل الله انها هاجته واستثارته واستدعته بذلك الى شن الغارة عليها والايقاع بها ، اذ ماذا كانت الحال تكون والى أي شيء كانت تصير الأمور لو لم يثر لوثر ثورة الأسد المخدر في وجه ذلك المذهب

الباطل فيرد عرامه ويفل غربه ويكف منه عن العالم شرا مستطيرا كان يؤذن بالويل العظيم والخطب الجسيم ، والتلف العميم ؟ ماذا كان يكون الأمر لو قد استمرت تلك البابوية تضرب في سنن غوايتها ، وتمعن في طريق عمايتها ، من غير أن تعترض لوثر في سبيله وتصادفه في منهاجه فتضطره الى الحملة عليها ؟ انما الواضح لى انه لو لم يكن ذلك ما كان لوثر ليفوه ببنت شفة عن مفاسد روما وموبقاتها ، وانما يجعل الأمر في ذلك الله شيمة الرجل المتخشع المتواضع الذى لا يرى من شأنه أن يستطيل بالتسفيه على ذوى الأمر من غير أن يكون ثمة موجب أو علة ، بل يرى كما قلت ان حسبه من التطفل بالنصيحة على الغير أن ينصح لنفسه ويبغى بها جادة الحق ومنهج السداد .

ولكن البابوية لم يكفها ما أنت في سائر الجهات والأمصار من التضليل والتغرير حتى هجمت على لوثر في قريته الحقيرة فسامته خطة الخسف والضيم فأبى ، وآية الرجل الشريف انه اذا سيم الخسف قال : لا ، يملء فيه . وبيان ذلك ان البابا « ليو » العاشر احتاج المال ، وكان مبذرا متلافا فابتغاه من وجه حرام وطريق ممقوت ، اذ جعل يبيع الناس عفو الله ، وعفو الله لا يحتاج الى شفاعة بابا ولا بطريق ، وما هو بالسلعة تباع في السوق بالذهب والورق ، وانما هى بضاعة لا ثمن لها الا الاخلاص الصريح ، والتوبة النصوح ، ودمع المذنب يقرع وجنتيه ، وسنه يضرس سبابتيه ، فان كان لابد من شفيع فالسيد المسيح ومحكم التنزيل ، وآيات التوراة والانجيل . ولكن البابا رأى الجهل فاشيا في الناس ، فأرسل فيهم رهبانه وقساوسته بتلك

الأوراق المدلسة المرذولة ، وكان يسميها أوراق الغفران ، ومع كل راهب صندوق فيقول للناس : « من كان له في الجحيم صاحب أو قريب فأحب أن يغفر الله له وينقله الى الجنة فلينبذ في هذا الصندوق قرشا ، فانه لا يكاد يصل حتى يطير الروح المعذب من مثواه في النار الى انضر مقامات الجنة » .

ونزل أحد هؤلاء الرهبان واسمه « تتزل » على بضع فراسخ من بلدة « تنبرج » حيث كان لوثر فأصغى اليه كثير من العامة لسذاجتهم ، وبلغ من شره ان بعض القوم نبذ طاعة لوثر في كثير من أوامره اتكالا منهم على ما اشتروه من عفو الله بالدرهم المنقود ، فقدح ذلك في أحشاء لوثر ، ورأى انه قد آن له أن يثور في وجه البابوية الكاذبة ولم يخش الراهب «تتزل» بل قال : «ان يشأ ربي وربكم فلأصدعن مروته ولأنحتن اثلته» .

ثم كتب رسالة أبطل فيها عمل البابا وطعن في خطته ، وارسل صورة منها الى بطريق مدينة « ماجد برج » شيخ النصرانية بألمانيا ، وعلق صورة ممضاة باسمه بباب كنيسة (وتنبرج) ، فهب هذا النبأ مهب الريح في كل وجهة ، وطار في أنحاء العالم الأوربي مطير البرق .

وأدبر الراهب «تتزل» فنزل بلدة فرانكفورت الواقعة على ضفة نهر « أودار » فكتب ردودا على أقوال لوثر ونشرها فتناول تلاميذ لوثر نسخة منها فأحرقوها ببلدة «وتنبرج » وسمع البابا بذلك فقال متهكما : «لا اخال ان لوثر هذا من نوابغ العالم » واستمر لوثر يكتب الردود والمطاعن وينشرها زعماء البابوية وانصارها ، وتقوم بينه وبينهم سوق المناظرة ويحمى به وبهم وطيس الجدال فيدمغ بالحق باطلهم ويدفع باليقين شبهاتهم ،

وما زال ذلك دابه ودابهم حتى نفد صبر البابا وذهب عنه ما ابقاه التجلد من رمق الاحتمال والمطاولة ، فنشر لائحة كفر فيها لوثر ورماه بالخروج والزندقة ، وأمر بكتاباته ان تحرق ، وبه ان يرسل مكبلا فى الأغلال الى روما لعله ليحرق ايضا فيلقى من الجزاء ما لقى القسيس « هاس » من قبله ، ونعم المناظرة النار ما اخصر وما اسرع وما أقرب الى الغاية وحسم النزاع ، يا للظلم ويا للفجور : يستدعى البابا القسيس « هاس » ويعطيه عهد الله وميثاقه الا يمسه بسوء ولا ينساله بأذى . ويحضر « هاس » رجلا لا مشاغبا شديد الخصومة ولا مشاكسا الد الجدال . وانما رجلا سهل الشكيمة ، لين المعطف ، سلس العنان ، فيودعونه سجنا أضـيق من بياض الميم ، ثلاثة اذرع فى مثلهـا ، ثم يضرمونه عليه نارا ، فيقطعون بصوارم اللهب صوتا ما رفع الا فى طاعة الله .. لبئس والله ما يصنعون ، وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون .

انا احد الذين يفسحون ساحة العذر للوثر فى قيامه الآن ضد البابا ، فان ذلك البابا المترف الـكافر والوثنى الأنيق الثوب السـائغ الطعمـة لما أوقـد ناره لحريق مكتوبات لوثر أجج بها حنقا وسعر بها غيظا وجردا فى اشجع فؤاد كان اذ ذاك فى العالم ـ اشجع فؤاد واضرعه لله واشده تواضعا . أجل ، لقـد اسـتعر ذلك الفؤاد وتأجج ولات حين اطفاء .. وكأن بلوثر يقول فى نفسـه حينذاك : « اتحرق يا هذا الرجل كتاباتى هذه وما اريد بها الا الحق والهدى ولم يعمد بها الى غير الله وتسمى نفسك بعد ذلك امام الناس وخليفة المسيح فى الأرض؟ اتجعل الجواب على هذه الأوراق احراقها وما فيها الا

عظة لك وحكمة وتريد ان تحرق كاتبها ؟ أانت خليفة الله في أرضه ؟ كلا : انت خليفة الشيطان ومثواك مثواه ودارك مغنى لابليس وجنوده وعش لخفافيش العمى والجهالة وجحر لهوام السفه والضلالة ، واني لأشهد على لائحتك تلك التى اصدرتها نقمة على بالكذب والجور وليس لها لدى الا النار . ولتفعل بعد ذلك ما تشاء » ثم ان لوثر جمع من شيعته وانصاره مجمعا ورفعوا نارا فأحرقوا فيها لائحة البابا واكثروا عليها الهتاف والصياح بمرأى من مدينة «وتنبرج» بل بمرأى من العالم أجمع .

ويحك أيها البابا : لبئسما صنعت اذ استثرت من صدور الناس تلك الصيحة . فانها صيحة استيقاظ الأمم وانتباه العالم . لقد طالما أوغرت صدر ألمانيا حتى ضاق ذلك الصدر بما كظم . وحتى طفح ذاك الاناء ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، ولقد طال بالناس حكم الضلال وتراخت مدة الباطل وشاخت فيهم دولة الزور والبهتان وقد آن للحق ان يميل عروشها فيهدمها .

وهل كان لوثر الا من قبيل الانبياء حاطمى الأصنام ومرجعى الناس الى الحقيقة بعد طول الاقامة على الضلال ، وتلك وظيفة العظماء عامة ، او لم يقل محمد (عليه السلام) للناس انما اصنامكم هذه خشب لا تضر ولا تنفع ، وهل كانت مقالة لوثر للبابا اذ يقول له : (ما هذه الاوراق التى تسميها اوراق العفو الا اكذوبة واضلولة ، وما انت والعفو عن الناس انما ذلك بيد الله) الا كمقالة محمد ؟ لله انت يا لوثر أى كاشف غمة ، ومنقذ امة ، واى مرجم شياطين ، وسيف على رقاب الظالمين انت ! وبأبى أنت اذ تقول ولا تبالى

نيران البابا ولا جيوش السلطان : « انما العفو بيد الله والأمر لله وحده ، وانما البابوية وما يدعونه من تلك الرعاية الروحانية افك وزور . وكيف وما أراها الا اثوابا مرقوشة ، وأوراقا منقوشة ، وما كانت تلك المواد الجامدة الميتة لتكون زعامة دينية ، ورعاية روحانية ، انما هي حقيقة رائعة ، ومادين الله وفردوسه وجحيمه بأباطيل كتلك ولا أكاذيب ، فبهذا وحده أومن وبه أعتصم وعليه أقوم وفيه اضرب أوتادى ، وارسى أطوادى ، وانى اذ أفعل ذلك لأقوى منكم جميعا ، وعصمة الله أمنع للمؤمن من جميع ما تشيدونه من القلاع والمعاقل ، وبأس الله من بأسكم أشد ، وكيده من كيدكم أقوى ، وأنا وأنتم بنصر الله كما قيل :

كادوا وكدت فأزهقت ما دبروا
احدى هناتك أيما ازهاق

انا في وحدتي بهدى الله قوى ، وانتم في جموعكم بالضلال والكذب ضعاف ، انا من طاعة الله مدجج في أكمل سلاح واحصن جنة ، وأنتم من معصية الله في اسمال رثاث واطمار رعابيل ، منكشفو العورات حاسروا المقاتل ، وأنا من تقوى الله على صخرة أصلها تحت الثرى وفرعها في السماء ، وأنتم في باطلكم كالمتكيء على الهواء والمعتمد على الماء .

ثم جاء بعد ذلك حفلة «ورمز» وظهور لوثر هنالك ، ولعل هذا كان اجل مشهد في تاريخ أوربا ، والمنبع الذى منه فاض تاريخ المدنية الحديثة ، والذى كان من أمر هذه الحفلة ان امبراطور المانيا شارل الخامس لما أعيته الحيل في لوثر ولم تنفعه فيه المناقشات والمجادلات ، وكان قد عقد الحفلة للنظر في شئون

الولايات ، استدعى لوثر ليعرف ما عنده ولينتهي معه عند حال ، وكان المجلس حافلا بجميـــــع الوجوه والأشراف وامراء الدولة والولاة وزعماء الدين والملك ، والى هـذا الجمع الحاشد استدعى لوثر من قريتـه ليسأل : الا يزال مصرا على رأيه ؟ فيجيب : نعم ، أو لا ، خصمان متواجهان وقرنان متبارزان ، أحـدهما قوة العالم وزهرة الدنيا وجيـوش الأرض ، وثانيهما رجل فرد نجل الصانع المسكين (هانز لوثر) قائما فى نصرة الحق ، وقد نصح اليه الاخوان لا يذهب وذكروه بنبأ القسيس (هاس) ليكون فيه عبرة ومزدجر، فأغلق دون كلامهم اذنيه ومضى على عزيمته فى الذهاب وصمم وقال : (تالله لأذهبن ولو أن بمدينة « ورمز » من الشياطين بقدر ما بها من الحصى) ، وجعل النـــاس يصيحون به من نوافذ الدور وشرفاتها وهو سائر الغداة الى الحفلة أن أقم على مبدئك وتشبث برأيك ومذهبك، واياك والانخذال والهزيمة . وجعلوا يتمثلون له آية من الانجيل فى ذلك المعنى ، ذلك ما طلبه اليه أهل وطنه، وهل هو فى الحقيقة الا طلب العالم أجمع ـ طلب العالم الذى جهدته اغلال الباطل وشفته ظلمات الضـــلال واخذ بكظمه شيطان الجهل حتى بلغت الروح التراقى ـ طلب العالم يصيح بلوثر : أغثنا ، أدركنا يا بطـل الابطال فان مدار أمرنا عليك ، وأرواحنا فى يديك .

ولم يخذلهم لوثر ولا خيب فيه آمالهم ، وقام فى المجلس خطيبا فتكلم ساعتين كلاما ســـــداه الحكمة ولحمته الاخلاص والصدق ، أبان فيه أنه يذعن للحق وليس لغيره يذعن ، وان كتاباته بعضها من املاء ضميره وبعضها مستمد من كتاب الله ، فأما ما كان من بنات

خاطره فذاك مليء بالعيب والخطأ بما انه كلام بشر ، واما ما كان مأخوذا من قول الله فأساسه الحق وليس يبرأ منه أبد الدهر ، ثم سألهم أن يناضلوه بالحجة والدليل فاذا دحضوا حجته زال لهم عنها وصار الى ما يحبون .. الى ان قال : « انا لا اخالف ما يأمرني به العقل والنهى ويوحي الي به صوت الحق من زوايا الضمير والنفس ، ذلك ما في وسعي وطاقتي وليس لي عنه محيد ولا دونه مذهب ، وعلى الله اتوكل وهو حسبي ونعم الوكيل » ..

الا ترون ايها الاخوان ان هذه كانت اخطر ساعة في التاريخ الحديث ، وان عليها قامت دعائم الدستور الانجليزي وبرلماناته ، والحرية الأمريكية واستقلالها ، والثورة الفرنسية ونتائجها في انحاء الارض ؟ نعم في هذه الساعة غرست جذور تلك الحوادث الكبرى والمسائل العظمى ، ولو سلك لوثر في تلك الساعة خطة اخرى لكان لها عواقب اخرى ؟ وكأنما العالم الاوربي كان ساعتئذ ماثلا أمام لوثر يسأله هذا السؤال : أترى لا ازال في محنة وبلاء يهوى بي النحس الى مساقط الجهل والشقاء ام يرزقني الله من ذلك الداء الشفاء ، ولظلمة الباطل من نور اليقين الجلاء ، فأغتبط بمناعم الراحة والصفاء بعد مخابث العيشة الكدراء ؟

ومما يمدح به لوثر انه اثار في وجه الدين ثورته واحدث ذلك الانقلاب العظيم من غير أن يهيج زوابع الفتنة او يسعر نيران الهيجاء : بل حقن الدماء في الابدان ، والسيوف في الاجفان ، ولم يحول اليراع حساما ، والقراطيس اعلاما ولا استبدل من صرير القلم في الطروس ، صليل السيف في الرءوس ، ولا من

التناصل بالأقوال ، التناضل بالنبال ، ولا جعل الكلوم (١) موضع الكلام ، والجلاد بدل الجدال والخصام ، وقلما نجد رجلا احدث امرا جللا وهاج حركة هائلة الا غالته مما أحدث غائلات ، والتهمته مما اثار محن جائحات ، وهذه من مستلزمات الفتن والفتوق ، ومستدعيات كل خروج عن الأوضاع المألوفة ومروق ، وانما وفق لوثر الى ذلك بفضل ما أوتيه من الحزم والبصيرة ، فالحزم راس بوارع الخصال ، وكرائم الخلال ، وداعية الصلاح ، وسائقة الفلاح .

ومن أكرم ما امتاز به لوثر فضيلة التسامح ، وبها كان يميز الأمر الأساسي الجوهري من غيره ، فجاءه ذات يوم عن بعض قسوس المذهب الجديد انه يعظ الناس في قلنسوته (وكانت هذه سنة المذهب الكاثوليكي ومخالفة لمبادىء الملة الجديدة) فلم يعبأ لوثر بتلك الشكوى ، بل قال : « وأى ضرر في القلنسوة ؟ دعوه يلبس قلنسوة أو ثلاثا اذا شاء » .

وقد ذكر (ريشتار) لوثر فقال : لقد كانت كل كلمة من كلماته كموقعة حربية . وما اخطأ في قوله ، ولعل اهم صفات لوثر هو انه كان يستطيع أن يحارب فيقهر ، ويقاتل فينتصر ، وانه كان قطعة من الشجاعة ، وفلذة من المروءة : ولا نعلم قط في التاريخ الحديث والغابر انسانا أشجع قلبا من لوثر ، ولما قال في مدينة «ورمز» كلمته المأثورة وهى : « ولو أن في ورمز من الشياطين عدد ما بها من الحصى لما حفلتها » لم تك لمجرد الافتخار والتيه ، كما يكون في مثل تلك المواطن ، ولكنه كان عن عقيدة صحيحة بأن هنالك شياطين

(١) الكلوم جمع كلم وهو الجرح .

يعترضون عباد الله فى مسالكهم بالشر والأذى ، ومن يذهب الى الغرفة التى كان يكتب فيها لوثر ترجمته للانجيل يرى على أحد حيطانها بقعة سوداء ـ اثر موقعة كانت له مع شيطان من الجن ، وأصل ذلك ان لوثر كان جالسا فى تلك الغرفة يكتب ترجمة الانجيل وكان قد نهكه الكد ، واعياه الجهد ، وبلغ منه المرض والصوم ، وكان من أثر ذلك ان تراءى له شبح مبهم الشكل مخوف الهيئة فحسبه ابليس اتاه ليقعده عن عمله ، فثار لوثر ثورة جبار ، وأخذ الدواة فرمى بها الخيال فاذا هو قد املس . وأثر الدواة فى الحائط باق الى الآن آية ودليلا على امور شتى ، وان فى قدرة اى تلميذ بمدارس الطب أن يكشف لنا القناع عن هذه الحادثة ويحل لنا مشكلها ، ولكن اعتقاد لوثر ان الشبح القائم أمامه هو ابليس ثم نهضته فى وجه ابليس وقذفه اياه بالدواة دليل على منتهى الشجاعة واقصى غايات البأس والنجدة ، ومن كان لا يهاب شياطين الجحيم وأبالسة جهنم فهو أحرى الا يهاب ملوك الأرض وجبابرتها ، وقد كتب مرة العبارة الآتية: (الشيطان يعلم ان عملى هذا ليس بنتيجة رهبة ولا مخافة فلقد طالما رأيت الشياطين ونابذتها ، والدوق جورج لا يعادل شيطانا واحدا ، وأين هو من سطوة الشياطين ؟ فليعلم هذا الدوق انى لو شئت أن ادخل بلدة « ليبزيج » لدخلتها قسرا وعنوة وجست خلالها ولو أن سماءها تمطر امثاله من الدوقات تسعة أيام ولاء) ، لك الله يا لوثر، اى طوفان وسيل من الدوقات تريد أن تقتحم !..

وشد ما يخطىء الذين يحسبون ان شجاعة هذا

الرجل كانت ضربا من البطش والفتك ، وصنفا من العناء والعصيان والخشونة والعجرفية ، وما ابعدها عن ذلك ، وانا لا انكر ان هناك ضربا من قلة الخوف مصدره قلة العطف او قلة التفكير ، وربما كان منشؤه وجود البغضاء والحنق الأعمى ، كشجاعة النمر وهل ترون لشجاعة النمر قيمة ؟ اما لوثر فكان غير ذلك بتة ، ولم ار تهمة أكذب من نسبة الفتك والقسوة اليه . وكيف وما كان قلبه قط مجالا لغير الحب والرحمة شأن كل فؤاد ذي مروءة وبر ، والنمر ان صادف قرنا أشد منه بطشا فر هاربا ، فما هذه بشجاعة ، وانما فتك وقسوة ، ولست اعلم شيئا أرق والطف مما كان يصدر عن فؤاد لوثر من أنفاس المودة والعطف ، تلك التى كانت أرق من أنفاس العاشق فى الهجر ، وانفاس النسيم فى السحر ، لله ما كان ارق هاتيك الأنفاس ، وأعنى بها كلمات الرجل ، وما كان اصفاها واخلصها من شوائب الرياء والكلفة واشبهها بالعذب الزلال تتفجر به الصخرة الملساء ، وهل كانت كآبته واطراقه ويأسه مدة صباه الا بعض آثار التفكير والاتعاظ والعبرة مما يكون عادة فى القلوب الرقيقة والنفوس الحديدة الشعور الذكية الوجدان ؟ وهى حالة يصاب بها ذوو الرقة من الشعراء وقد اصيب بها الشاعر المسكين وليم كوبر ، بل لقد بلغ من رقة لوثر وتواضعه انه كان يحسبه الناظر غير المدقق رجلا ضعيفا هيابة وعندى أن اكرم الشجاعة واسماها ، بل اشدها واقواها ، هى المنبعثة من فؤاد كله لين ورأفة .

وكم لنا فى كتاب لوثر المسمى (حديث المائدة) ذلك الذى جمعه اصحابه بعد وفاته من اقواله وكلماته من

فى الآيات البينات الدالة على عظمة الرجل وفضله .
فمن ذلك ما أبداه عند وفاة حفيدة له من جلد فى رقة، وصبر فى حرقة ، وقوله انه استودع الصبية عند الله ولكنه يملك مع ذلك وجدا عليها قد أوقد لوعته ، وهاج غلته ، وكمدا والتياعا ، وحنينا ونزاعا ، ثم جعل وهو مشدوه (مدهوش) حائر ينظر فى أعقاب روحها الصاعدة الى الله قد غابت فى اثناء تلك العوالم المجهولة وراء حجب الموت ، ـ ينظر دهشا حائرا ، وحسبكم ذلك دليلا على صدق الرجل واخلاصه وعلمه . انه رغما من اختلاف الملل وافتراق النحل فانا معشر الآدميين لا نعلم شيئا ولن نعلم ، وكل ما يدرك ازاء حادث الموت الذى اخترم حفيدته هو انها ستصبح عند الله وان الله اراف بها وارحم ، وان خير الامور أن يسلم الأمر لله ، فالاسلام دينه ومذهبه .

ومن آيات عظمته انه أطل من نافذته مرة فى جوف الليل فقال فى نفسه : « عجبا لهذه القبة الزرقاء وهذا الفلك الدوار وهذا السحاب الركام ، يالله ما أروع وما أجل ، على أى دعامة تقوم هذه السماء ؟ لادعامة الا قوة الله سبحانه . رفع السموات بغير عمد ، وامطر من السماء ماء فأخرج به نباتا ، وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها يعلم مستقرها ومستودعها» ، ولما كان عائدا ذات يوم الى داره أعجبه رواء مغارس القمح ، فقال : ما أبهج منظرها صفراء تميل فوق خضراء كأنها حقاق الذهب على قضبان الزبرجد، بركة تفطرت عنها احشاء الأرض ، ونعمة سلتها يد الله من اغماد الثرى .

ومن آياته أيضا ، ابصر ذات مساء عصفورا قد خيم

فى وكره على شجرة باحدى البساتين ، فقال : عجبا لهذا العصفور ما راعه هول ما فوقه من هذى السموات ان يطمئن فى عشه آمن السرب ، ساكن القلب ، مفوضا امره للخالق الذى مهد له فى جنابه ووطأ له فى كنفه ، هذا وما زالت شذور المزاح تفصل نظام حكمه ، وما برحت نكت الفكاهة تزين ديباجة كلمة ، وكذلك من كان قلبه أمين النواحى رقيق الحواشى ، غزير مادة الحنان والحب ، وقديما كان الضحك الصريح عنوان الكرم والخير ، وامارة المروءة والبر ، ثم أما ترون فى حبه الشديد للموسيقى جملة تفاصيل هذه الأميال الكريمة ، ومجمع تفاريق هذه النزعات العالية ، وكم من معنى لطيف ، يعيا به البيان ، ووجدان شريف ، يعجز عن تأديته اللسان ، اداه الينا لسان مزماره ، وباحث به مناطق أوتاره ، وكان يقول ان الشياطين لتفر من نغماته وتفقد عند وجود الحانه ونبراته .

فلله انت أيها البطل من جامع الضدين ومؤلف النقيضين ، بأس تسطو به على الجن وأبالستها ، ورقة جذبت لبك نحو الأنغام ومطرباتها ، والألحان ومرقصاتها ، انهما والله قطبان لروحك العظيمة ، وبين هذين القطبين مجال لكل كريمة من الخصال ، ومضطرب لكل شريفة من الخلال .

وأرى فى وجه لوثر عنوانا على خلقه ، فهو وجه خشن الملامح تعرف فى نتوء عظامه ووعورة أركانه معانى البأس والقوة ، والنشاط والهمة ، وفى العينين حزن فى صبر ، ووجد فى سكينة ، وكآبة لا تكيف ، ورقة لا توصف وتلك أصل كل عاطفة رقيقة ، ومنها يستفيد ذلك الوجه ما يرى فيه من سيماء الشرف والنبل ،

وقد قلنا ان الضحك كان مغروسا في طينة الرجل ، ولكن تلك الطينة كانت فوق ذلك مسقية بالدموع نهلا، وكأن فيها ينابيع الدمع وبحاره ، وخلجه وأنهاره، وكان اساس حياته الحزن والجهد والاخلاص والجد ، ولقد قال في اخريات عمره بعد مظافره وانتصاراته انه قد مل البقاء وسئم تكاليف الحياة ، وان له عند الله امنية ، هي ان يريحه من متاعب الوجود ويقبضه اليه. ومن عابه بكلمته هذه وعدها عليه فقد اخطأ ! وما احسب الا ان لوثر كان رجلا كبيرا — كبير القلب ، كبير العقل، كبير النفس — رجل من خيرة رجالنا وصفوتهم ، ولا اراه الا كالجبل الأشم أصم الصخور صلد الصفا وفي نقره وثغبانه الماء الزلال ، العذب السلسال ، وعلى جوانبه الرياض تبتسم نضارة ، وترف بهجة وغضارة، الى زهر وريحان ، وفاكهة الوان ، وقصارى القول انه بطل ونبي ، ونتيج الطبيعة وسليل الحقيقة ، والجدير ان يحمد الله عليه هذه الأجيال ، ومن سوف يدرج على هذه الأرض من غابر الناس ويدب .

ثم ان مذهب لوثر تفرق شعبا ، فأكرم شعبه واطيب فروعه ذلك الذي نبت في انجلترا ، اعني الملة البيوريتانية، فأما في المانيا ذاتها فان البروتستانتية اخذت تضمحل حتى تحولت عن منزلة الأديان الى مواطن الجدل والمخاصمة ، وزالت عن القلب الى اللسان ، وعن العقيدة الى الحجة والبرهان ، بل ما زال بها الاضمحلال حتى صارت فولتيرية ، وانتهت الى تلك المباحثات الجدلية التي كانت أيام الثورة الفرنسية ، اما في بلادنا (بريطانيا) فقد اخذت البروتستانتية صورة اخرى هي البيوريتانية ثم غولي بالبيوريتانية حتى صارت الملة المسماة

(البريزباتيريانية) وهى الكنيسة القومية لأهالى اسكوتلاندة ، وهى ملة صريحة ، وعقيدة محضة صادقة ، مغرسها القلب وثمارها جمة فى أنحاء العالم البريطانى. وحقيق بنا أن نذكر كلمة عن مؤسس هذه الملة الامام (نوكس) ذلك الشجاع النبيل ، وقبل ذلك نذكر كلمة عن البيوريتانية ومعناها البروتستانتية فى انجلترا ، ومنها نشأت البريزباتيريانية — مذهب القسيس نوكس.

فى عام ١٦٢٥ رحل القسيس الانجليزى وليم تيندال الى بلدة لوثر (وتنبرج) منجذبا اليها بشهرة ذلك البطل الكبير وخطورة مذهبه. وكان القسيس تيندال شديد التدين والتقى ناقما على الكاثوليكية فرحب بمذهب لوثر أى ترحيب وكان قبل رحلته الى ألمانيا بطويل قال لأحد القسوس الجدليين : (ان يطل الله مدتى لأتركن راعى الغنم وهو أعلم بكتاب الله منك) ، ولماذا ذهب بلدة لوثر وجدها محط الرحال وملتقى الرجال قد ازدحمت بالقاصدين من كل صوب وحدب وجلهم من الطلبة ، فقد أخلصوا لله وتفانوا فى حبه فلم يكن لحالهم تلك مثيل الا حالة الصليبيين ولا لبلدة لوثر شبيها الا مدينة بيت المقدس ، وكانوا اذا دنوا من البلدة هتفوا بحمد الله ، وصاحوا غبطة وسرورا ، وهنالك ترجم تيندال الانجيل وارسل ستة آلاف نسخة منه الى انجلترا ولم يك هذا الكتاب مقصورا على ترجمة الانجيل، بل كان بما ضمن من أقوال لوثر كأنه قطعة من الحركة اللوثرية ، فقابلته الكنيسة الانجليزية بأشد المقت والانكار، وأمرت بعدد كبير من نسخه أن تحرق فأحرقت فى مدافن كنيسة سانت بول بعين الوزير ولزى ، ولكن ذلك لم يمنع ارباب المذهب الجديد من تهريب العدد الوفير من تلك

النسخ ومن الرســـائل المهيجة التى كان يكتبها لوثر وانصاره الى الأقطار الانجليزية ونشرها بين طبقـــات الفقراء من العمال والصناع والباعة ، وكان المتولى لذلك جمعية اسمها (الاخوان النصـارى) مؤلفـة من بعض تجار لندن وأهلها مركزها لندن ولـكن رسلها تنتشر فى سائر البقاع البريطانية ، فوجدت هذه النسخ سبيلها الى الجامعتـــين « كامبردج واكسفورد » حيث كانت النهضة العلمية قد فتحت عيون القرائح الى المسـائل الدينية وبعثت الطلبة على الاشتغال بالمناظرات الفقهية والالهية . وكانت كامبردج قد رميت بالزندقة وسرت منها العدوى الى اختها اكسفورد ، وكان من أمر ذلك الهياج الذى اعقب انتشارالنسخ المذكورة ما الجأ الوزير ولزى الى مؤاخذة الهائجين فزج بقسوس اكسفورد فى السجن واحرقت كتبهم ، ولـكن ولزى لم يتجاوز فى عقابهم ذلك الحد رغما مما ملـكهم من الذعر والفرق ، وانما صرفته شئون السياسة عن مسائل الدين .

وكان لانتشار الانجيل بين سكان بريطانيا من التغير الأخلاقى ما لم يسبق له مثيـل فى تاريخ البشر ، اذ أصبحت انجلترا امةكتاب ـ وهذا الـكتاب هو الانجيل، نعم أصبح الانجيل كتاب كل انجليزى ، يتلى فى الكنائس وفى المساكن ، وحيثما وقعت كلماته قرعت آذانا ، لم تخلقها كثرة الاعادة ، ولا بلدها طول التكرار ، فحركت من النفوس ماحركت وعزت من كل جنان اريحيته ، وهاجت من كل قلب غيرته فى الله وصبوته . وحب الامة للانجيل راجع الى علة خلاف السبب الدينى ، وذلك انه كاد يكون أول كتاب أدبى نظر فيه الشعب الانجليزى وتنزه فى رياضه وجنانه ، وجنى أزهاره وثمراته ، ولم

يك قبل ترجمة الانجيل لدى الانجليز من أسفار الأدب الا ما كان كتبه « ويكليف » وكاد ينسى ، والا ما نظمه الشاعر (تشوسار) وكان لايعرفه الا الاقلون ، نعم لم يوجد قبل ترجمة الانجيل فى اللسان الانجليزى تاريخ قط ولا رواية ولا قصة ولا شعر الا منظومات تشوسار، فلا غرو ان أصبح الشعب الانجليزى يرهف الآذان لاستماع عبارات الانجيل فيجد أبهج مستمتع فيما بذلك الكتاب المقدس من الروايات والقصص وأغانى الحرب واناشيد الدعاء والتراجم والسير ومواعظ الرسل ومزاجر الأنبياء ، وحكايات الأسفار البرية والاخطار البحرية وجولات القسوس فى بلاد الوثنية ، وفى المناظرات الفلسفية وتصورات الكهنة ، فقد كان اذ ذاك نهضتان ـ علمية احدثها ظهور دفائن العلوم القديمة اليونانية ـ ودينية احدثها كشف خبايا الآيات العبرانية ، والثانية ابعد اشواطا وامد انفاسا ، واعمق جذورا واطول اغراسا من حيث انها نهضة شملت الخاص والعام فى حين انحصار الاولى فى دوائر العلية المتأدبين ، وذلك انه لما لم يك فى طاقة الترجمة أن تنقل الى الانجليزية براعات اللسان اليونانى تركت عرائس ذلك اللسان مخبوءة فى خدورها ، فلم يستطيع استجلاءها الا الواقفون على اسرار اليونانية وهم قليل ، ولكن الآيات العبرانية كانت اسمح ما يكون قيادا فى عنان الترجمة حتى أصبحت فى ثوب الانجليزية مثلها فى حلتها العبرانية حسنا وبهاء ، وبهجة ورواء ، بل أصبحت اشرف ما لدينا من تحف اليراع الانجليزى واكرم نفائسه ، واسلوبها ميزان الاساليب فى الانشاء ونظامها معيار النظم فى الكتابة ، بل ان اثره ابقى فى نفسهم ككتاب أدبى ، واذا تذكرنا ما هو مبثوث فى عرض كلامنا العادى من كلمات كبار

مؤلفينا ـ أعنى تلك الشذور التى تسربت الى أحاديثنا من دواوين شاكسبير وملتون وصحائف ديكنز وثكرى ، ادركنا كيف كان اللسان الانجليزى فى تلك الأوقات يأخذ من ترجمة الانجيل زخارفه وحليه .

وأعظم من اثر الانجيل فى الأدب ولغة المحاورة اثره فى أخلاق القوم ، لقد كان الانجيل يفعل بالألباب اذ ذاك ما تفعله الآن الجرائد الدينية والمقالات والرسـائل والمحاضرات والخطب والمواعظ ، وكان من أثره انه بدل آراء الجمهور فيما يتعلق بمسائل الحيـاة وأحوال الانسان ، وبعث فى جسم كل طبقة من طبقـات الأمة روحا جديدة أخـلاقيـة وأخرى دينية ، ونفض الدين صبغته فى الـكتابة ، فما من رسالة تصدر الا وبها عرق زاخر بالورع والتقى ، وهكذا خلفت الـكتابات الدينية فى ذاك الوقت ما كان يشغل العصر السابق من مترجمات الآداب الطليانية واللاتينية ، وقد قال جروشاس وذكر انجلترا « وأصبحت السيادة فيها للدين » ، وقصـارى القول ان البلاد امست وهى كنيسة كبيرة ، ومسـألة الموت وما وراء الموت تلك المعضلة التى اعتاصت على ذوى الألباب وأولى النهى فى عصر شاكسبير فما عرفوا لها حلا عادت الآن نصب عين الفلاح والتاجر يطالب نفسه بحلها ، ولم تك البيوريتانية فى أول أمرها تقشفا وتعصبا ولم تتعد الى ملاهى أربابها وملاذهم فتلغيها ، وتبطلها ، وانما كان البيوريتانى فى أول الأمر كما قيل :

فلله منى جانب لا أضيـعه
وللهو منى والخـلاعة جانب

فمن ادلة ذلك ان احدى السيدات لما صورت زوجها القائد هاتشنسون ، وكان بيوريتانيا ، وجهت جل عنايتها

الى ابراز جماله كما كان أيام صباه ، ولو كان أمر التقشف والورع أمكن فى نفوسهم اذ ذاك من أمر الزخرف والزينة لكان لها مندوحة عن فعلها ذاك ، ولكن السيدة مالت الى ابداء ثغره الوضاح ، كاللآلىء النسق والأقاح ، وجبين كأنه المصباح، أو فلق الأصباح، ولمة ، حالكة مدلهمة ، فهى كما قيل :

وجاء بهـا ثور ترف كأنها
سلاسـل برق لينها وانسكابها

هذا وقد كان السيد المذكور مع حسن تدينه وصحة تقواه مولعا بالصيد والقنص مغرما بالمسابقة والرقص، كلفا بالفنون الجميلة ، لا تزال تستخفه قصيدة ، وتستفزه صورة ، وتستبيه نغمة ، وتطبيه دمية ، وكان ربما نزل بستانه فسقى وعل ، وغرس واستأصل ، وأصلح وشذب ، ونقح وهذب .

وكان البيوريتانى بعد عزوفا عن الفحشاء والمنكر ، قد صرف صبواته عن الحرام الى الحلال ، وعدل بصباباته عن مراتع الوخامة والوبال، الى مقامات الشرف والكمال فكان أبا رحيما ، وخلا حميما ، وزوجا شفيقا، واخا رفيقا ، ولم يك قط فى فتنة النساء ما يحرك شهوته ، بل كان غضيض الجفن عن كل ما يريب شامس العطف عن المشربات تجده الفتنة بأصعب مرام وأوعر ملتمس ، عفيف النفس ، عفيف الطرف طيب معقد الازار ، يقف من النساء عند محاسن الحديث والسمر، ويقنع منهن بشهوة السمع دون البصر .

وكان البيوريتانى حسن القصد فى اموره قليل السرف، يباكر شئونه والبركة فى البكور ، لا ونية عنده ولا فتور، مشمرا من ذيله ، منكمشا فى عمله ، وكان أحسن ما وفق

اليه من المحامد فضيلة المساواة ، وذلك ان اخاءهم فى الله أنساهم ما كان قبل راسخا فى نفوسهم من تفاوت الدرجات وتفاضل المقامات ، حتى كان أحقر فلاح يعتقد ان الله قد شرفه وقدسه ، وحتى صار أكبر الوجوه والاعيان يوقر مساكين الابرار ، وصعاليك الأنقيـاء الأخيار ، ولكن افراطهم ذلك فى حب الفضيلة والتقى وان عاد بالقوة على أخلاقهم فانه ضيق دائرة رحمتهم وفهمهم ، وقد ظهر اثر ذلك فى الشاعر الكبير البيوريتانى ملتون — فى احتشامه وانقباضه واحتقاره لآراء الغوغاء « كما كان يسميهم » وعزوفه عما يحيط به من أساليب الحياة الغليظة الخشنة ، بل لقد كان على فرط حبه شاكسبير لايظهر ارتياحا الى مجون ذلك الشاعر الأكبر ومزاحه ، واذ كانت هذه حال ملتون وهو بعد سيد شعراء عصره وعصارة قومه ، فكيف كانت الحال مع من هم أقل ادبا وعلما ، واجمد قريحة وأكثف فهما ، نعم لقد آل ذلك التشدد فى التدين والافراط فى التورع بهؤلاء القوم الى اجمد أساليب الحياة وامرها واكرهها وابعدها من الألفة وحسن العشرة ، واصبح البيوريتانى وليست الرابطة بينه وبين الغير هى رابطة الانسانية ، ولكن نسب التورع والتدين بين طائفة المتدينين المتورعين أصفياء الله وأوليائه ، وكل من خرج عن دائرة هؤلاء الأبرار المصطفين فليس منهم ولا هم منه ، وانما هم منه أبرياء ، وان نفور البوريتانيين من المخالفين لمذهبهم هو السبب فيما نرى من الخلاف الشديد بين رقة قلوبهم وبين غلظة ما قد يأتون من وحشى الفعال ، وهذا كروموبل نراه بينما قد أدمى حشاه موت ابنه حتى حرمه الغبطة والسرور بانتصاره الباهر فى واقعة « بطحاء مارستون » فعاد من المعترك فائزا كخائب

وظافرا كمنهزم – نراه مع ذلك يهش ويبش لدن يوقع امضاءه على الأمر الصادر باعدام الملك « شارل الأول » وما ذلك الا لاعتقاده أن ذلك الأمير المنكود الحظ من المعشر الضالين وليس هو لغلظ فى كبده او فظاظة فى طبعه ، وكان من تفانيهم فى الله أن ماتت فيهم فضيلة التسامح والتساهل حتى فى أصغر الأشياء ، وهكذا تحولت حقائر الأمور فى حرارة التدين ووهج الغيرة ، جسائم وعظائم ، وأصبح أحدهم يؤلمه من رؤية فطيرة العيد أو كعكته ما يؤلمه من رؤية الخبائث والمفاسق ، وباتت الحياة وهى عبء من الأعباء وسخرة خالية من اللذة وكلفة قفر من البهجة ، وقام بدل مباهج العهد اليصابانى ومفارحه ، ومآنسه وممارحه ، مرارة البيوريتانية وجدها ، وعبوسها واربدادها .

ولقد كان البيوريتانى مصابا فوق كل ذلك بمخافة عذاب النار وهول القيامة ،ويقضى الكثير من وقته نهب هاتيك الوساوس ، وتلك الهواجس ، وكان فى شدة حرصهم على الورع والتقى ما يخيل اليهم ان حياة الناس العادية نوع من الاثم والخطيئة . ولقد قال أحد كبار البيوريتانية اوليفار كروموبل : « لشد ما غويت وضللت أيام الشباب ، وما أدراك ما هذا الضلال وما تلك الغواية ، هى انه كان يباشر الطيب الحلال من ملاهى الشباب ولذاته . ويعوز ركانة حلم الكهل ورزانة عقل الشيخ ولابأس على الشاب فى الا يكون كذلك» . ثم انظر الى جون بانيان صاحب الكتاب الجليل «سيرة الحاج» كيف حدث عن نفسه فقال : « لما كنت صبيا فى التاسعة من عمرى كانت تحضرنى خواطر الموت وهواجس النار والحشر والجنة ، وما أشبه ذلك ، فكانت مبعث رعب

لي ومثار قلق وكرب ، تعتريني أثناء لعبي مع الصبية عظة من الله وزجره ولكني كنت أهملها وآبي الا اقامة على ذنوبي ومآثمي » أفتدري ما هي تلك الذنوب التي آبي الا الاقامة عليها ؟ هي نوع من لعب الأطفـــــال وصنف من الرقص ! فأما عيبه الحقيقي وهو الاكثار من الحلف فقد كان أقلع عنه عملا بنصيحة عجوز رات منه ذلك فأنكرته . وكان له ولوع شـــــديد بسماع الأجراس تقرع وكان يحسب ذلك مأثما فـكان لايزال يذهب الى موضع تلك الأجـراس من الـكنيسة فيقف تحتها وهي تقرع حتى يخيل اليه أن الله سيرميه بأحدها فيفر هاربا ، وانصرف حينا عن الرقص والألعاب ، ثم عاد اليها وفي ذلك يقول : « لقد صرفتني عظة رجل من القسوس عن الألعاب ، ثم ما لبثت أن استهوتني بلذاتها ، فاني ذات يوم الالاعب قطتي وقد لطمتها لطمة وهممت ان الطمها الثانية ، واذا بصوت من السماء قد نفذ الى صميم قلبي وكأنما يقول : أيهما تفضل وتختار ، ترك الذنوب ونعيم الجنة ؟ أم الاقامة عليها ، وعذاب النار؟ فأصابتني لذلك دهشة وأطلقت القطة ، ورفعت طرفي الى السماء ، وكأنما رأيت بعيني ذهني السـيد المسيح ينظر الى كالغاضب علي ، وكأنه يتهددني بعقوبة صارمة ان انا لم اقلع عن تلك الذنوب والآثام » ..

وكذلك كانت البيوريتانية مزيجا من النقص والفضل وخليطا من السخف والنبل ، ولنا ان نذم من تلك الملة عيوبها ما شئنا ، ولـكنه لا يسعنا مع ذلك الا الاعتراف بأنه لايزال فيها ولن يزال جوهر من الحق . وهي بعد غرس غرسته الطبيعة وما ان نزال نتفقده فهو ينمو ثم ينمو ، وطالما قلت ان الحياة معترك فما فاز فيها وظفر

فهو حق وما خاب وانهزم فهو باطل فالقوة مقيـــاس الفضل ، خذ مثلا عظمة أمريكا الحالية وانظر ماذا كان أصلها ومنشؤها ، الله يعلم أن منشأها لم يك الا فئة ضـعيفة بيوريتانيـة من أهالى هولاندة أضر بهم جور السلطان وشفهم ظلم الحكومة فخرجـوا من ديارهم ، وهاجروا منذ قرنين الى أمريكا فى تلك السفينة الصغيرة المسماة زهرة الربيـع ! ولو كان لنـا خيـال اليونان وشاعريتهم لقلنا فى ذلك الحادث المذكور القصيد المحبر ولـكن حسبنا ان الطبيعة كتبت فى هذا الحادث المذكور قصيدتها الغراء بحروف الحقائق الناصعة على صـفحة العالم . ولقد كان بأمريكا قبـل تلك الفئة البيوريتانية جمـاعة من النزلاء مبعثرون هنا وهناك ، ولـكنهم لم يكونوا الا كجسم ميت فلما نزلت تلك الفئة فيهم كانت كأنها الروح دبت فى الجثة الهامدة فأحيتها ، نعم لقـد ضاقت بهؤلاء القوم بلادهم فعزموا على انتجاع أمريكا ، وما أدراك ماذا كانت أمريكا اذ ذاك ؟ غابات خضر ، وآجام سود مسدودة عذراء لم تفترعها قدم ولا فتحت اغلاقها يدان ، مستبهمة المعالم طامسـة الأعلام ، وامم همج وحشية ، ولكن هذا كله اخف وطأة من الحكومات الظالمة والملوك الغاشمة ، وقد علموا انه مهما يـكن من صعوبة جانب الطبيعة هناك ، فان فى الرياضة ما يذلل انفها ، ويلين عطفها ، ويستغزر درها ، ويسـتـدر خيرها ، وانهم سيجدون من الأرض وطاء ، ومن السماء غطاء ، ثم تطمئن بهم النوى ويستقرون فى حيث تنـام عنهم الحادثات ، وتلهو صروف الدهر ، فيقضون أعمارهم بالعبادة والتقى ، ويتزودون من دنياهم لآخرتهم ، ولما صحت منهم النيات على ذلك ، وصدقت العزائم اخذوا عددهم وشحنوا امتعتهم ، واستأجروا مركبا ـ السفينة

السماة زهرة الربيع ــ واستقبلوا بها عباب اليم .

ولما نزلوا السفينة ، أقاموا بها شعائر الوداع والتشييع على صورة دينية ، ولا غرو ، فقد كان عملهم هذا دينيا ــ وان تشأ فقل ضربا من الصلاة والعبادة ، فصحبهم قسيسهم الى جوف السفينة ، وشيعهم كذلك اخوانهم الباقون بعدهم ، وابتهلوا جميعا الى رازق النسر فى السماء ، والحوت فى بطن الماء ، أن ينظر اليهم بعين عنايته ويسقيهم من صوب نعمته ، ويظلهم بجناح رعايته ، ويكون لهم فى بلاد الغربة ، وديار الوحشة حرزا منيعا ، وروضا مريعا ، وكنا دفيئا ، ووثارا وطيئا ، نعم ، لقد كان لهذه الفئة البيوريتانية شأن كبير ، وقد جعل الله على أيديهم نفاذ أمر من أجل أموره ، وان كان قدرهم اذ ذاك لم يك الا صغيرا ، فأول النار شرر ، واول الغيث قطر ، وكل شيء حق فمهما ضؤل وضعف فسيريكه الدهر يوما ما ، ضخما جسيما .

مثل الهلال بدا فلم يبرح به
صوغ الليالى فيه حتى اقمرا

والبيوريتانية وان سخر منها الناس سلفا ، فلا يستطيعون أن يسخروا منها الآن . وكيف وقد اخذت عددها ، ولبست سلاحها ، وحملت الحذق واللباقة فى أصابعها العشر ، والبطش والقوة فى قوائمها الأربع ، واصبح فى وسعها نزف البحار ، ونسف الجبال وتسخير البخار ، وتسيير الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ، فهى الآن من اشد قوى العالم .

ولست أرى فى تاريخ اسكوتلاندة عصرا جديرا بالذكر الا ذلك الذى حدثت فيه بيوريتانية « نوكس » . وما ظنك ببلاد قفر ، لا تغيها الشاحنات من أهلها ،

والمشاغبات والفتن والمذابح ـ ناس فى أدنى حضيض الغلظة والسقوط أحسن بقليـــــل من أهالى ايرلندة الحاليين ـ طوائف من جياع الأمراء والسادة ، أبى عليهم جهلهم وحماقتهم ان يعرفوا كيف يتقاسمون فيما بينهم تلك الغنائم التى سلبوها جمــــاعة فقرائهم وعمالهم ، ولـكنهم كالجمهوريات الـكولومبية الحالية لايستطيعون ان يحدثوا تغيـــيرا حتى يحدثوا معه ثورة عامة ، ولا يجدون الى تبـديل وزارة سبيلا الا شنق أفراد تلك الوزارة ، أشجاعة هـــــذه ؟ نعم ، ولـكنها شجاعة متوحشين لا تمتاز عن شجاعة آبائنا الأولين الوثنيين من سكان الشمال، أولئك الذين لا نجد فى مآثرهم الوحشية ومساعيهم الدموية شيئا يذكر . أجل لقـد استمرت اسكوتلاندة جسما بلا روح ، حتى نفخ الله فيها من نهضة « نوكس » روحا ، فأصبح كل فرد بها برا صالحا تقيا ، وان تشأ فقل بطلا ، ورسولا نبيا .

ومما يقال فى مدح هذا الرجل انه لم يطلب تلك المرتبة بحيلة ، ولا بلغها بوسيلة ، وانما أتته من تلقــاء نفسها وذلك بعد ان أوفى عقد الأربعين وكان من أمره انه عاش طول تلك المدة غامض الشأن ، فقضى أيام صــباه فى المدارس ، ثم تخرج منها قسيسا واعتنق المذهب الجديد ـ مذهب لوثر ، وقد قنع من التداخل فى شئون الغير بالاقبال على نفسه يصلح من شأنها ويحملها على المنهج القويم، وكان يكتسب بالقاء الدروس فى الأسرات الكريمة، يشرح مبادىء مذهبه اذا سئل ، ثابتا على الحق يصدع به متى دعت الحال ، غير حاسب انه يستطيع أكثر من ذلك ، وعلى هذه الصورة قضى أربعين من عمره ، فلما كان ذات يوم وقد اشـتد الحصار على جماعة الخوارج

المصلحين وكان « نوكس » بينهم وقد أخذ رئيسهم يخطبهم يربط نافر جاشهم ويقتل مرد عزائمهم ، ويستنهض عاثر هممهم ، قال فيما قال : أنه لاباس ان يكون من القوم من يعمل عمله من عظة الناس ونشر المذهب ، وانه جدير بكل من وهبه الله قلبا حافظا ولسانا ناطقا أن يكد فى نشر الحق لسانه ، ويبح فى الارشاد الى الصواب ، وان « جون نوكس » هو ذلكم الرجل ، ثم التفت الى القوم فقال : « أوليس هو كما وصفت ، اذن فما قعوده عن الارشاد والنصيحة ؟ » فوافقه الجمع على مقالته وقالوا انه عمل غير صالح ، فاضطر « نوكس » الى الوقوف ، ولكنه ارتج عليه فلبث برهة صامتا حائرا ، ثم أجهش بالبكاء .. وخرج من المجلس يعدو ، ودموعه على وجنتيه أشد عدوا .

ومن ذلك الوقت فصاعدا ، ثار ثورته وأشعل المذهب البيوريتانى فى قلوب الناس اشعالا ، حتى عادت الأمة الأسكوتلاندية أمة قسوس ، وعادت البلاد وكأنها كنيسة ، وبدأ الناس يحيون ، واعتقادى ان كل ماجاء بعد ذلك من آداب اسكوتلاندة وأفكارها وصناعاتها أثر من آثار تلك النهضة ، بل ان من آثارها أيضا ونتائجها أولئك الرجال الذين هم فخر الأمة الأسكوتلاندية ! جيمس وات ، ودافيد (داود) هيوم ، ووالترسكوت ، وروبرت بارنز ، وانى لأجد نوكس ومذهبه ينفثان قوتهما وسرهما فى قلب كل واحد من أولئك الأبطال وهاتيك العوارض ، وأرى انها ما كانت تكون قط لولا البيوريتانية ، نعم .. لقد فاضت تلك الثورة الدينية الأسكوتلاندية بالخير العميم على جميع أنحاء الدول البريطانية ، وذلك انها شبت جمرة فى كنيسة ادنبرج (عاصمة اسكوتلاندة) فاذا

هى قد صارت حريقا اسرع فى كل جانب من جوانب بريطانيا ، وبعد أن دارت رحى الجهاد خمسين عاما زف الله الى البلاد عروس الحرية متعة هنية ، وهبة سنية ، والفضل فى ذلك للذين جاهدوا لنا وكافحوا . ولم ينعموا بثمرة كدهم ، ونعمنا بها دونهم ، وما تلك بالقسمة العدل ، أن يصطلوا نار الجحيم ، ونستصبح نحن بنورها ، ونأكل جنى النحل ، وهم يكابدون لدع أبرها ، وتلك حال هى كما قلت : أشبه بحال الجيش الزاحف على قلعة محصورة ، تبادر مقدمته الخندق المحفور ، فتسدها بجثتها لكى يفوز الباقون على تلك الأجسام كأنها قنطرة فيفتحوا القلعة ويملكوها .. فسبحان قاسم الحظوظ .. لهؤلاء النصر والظفر ، وللاولئك الموت الاحمر ، وكم من رجل كنوكس ، وكروموبل ، كافحوا وجاهدوا وقاسوا ، وكابدوا ، ولاقوا الشدة والبرحاء ، والكرب ، والبلاء ، بل اللوم والتفنيد ، والهجوم والتنديد ، قبل أن يسوق الله للبلاد الحرية ، ترفل فى الأوراق الرسمية ، والمواد البرلمانية .

وانه لمن أفحش الجور ، أن تتناول الذرية عرض نوكس بالقدح والذم ، فيكون وهم كما قيل :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر
وحسن فعل كما يجزى سنمار

وعيب وعار الا تزال الأجيال تستثير صدى ذلك البطل من لحده ، ثم تنصبه للمحاكمة كأنه بعض الجناة المجرمين .. ولا جرم له الا اليد البيضاء ، والهمة القعساء ، والصدق الصميم ، والحسب الجسيم ، والا انه كان يحمل تحت ضلوعه اشجع فؤاد فى الأقطار البريطانية ، وانه كان ولا مشاحة ، انبل أبناء جلدته

وانجدهم ، ولو كان متقاعس الهم متقاعد العزم ؟ للزم زاوية بيته كما فعل غيره ، فلم تنتشل اسكوتلاندة من قبضة البلاء ، وراح هو يعرض بريء الساحة أملس الجانب . ولكنه آثر المروءة مع لوم الناس على الدنيئة مع قلة اللوم . فأصبح وحده ذا الفضل العظيم على بلاده ، والنعم الجليلة على العالم أجمع ، فوا عجبا أن يحمل ذلك البطل على أن يستغفر لنفسه من ذنب المروءة واثم المجد ، وأن يسأل اسكوتلاندة العفو لأنه كان أنفع لها من الآلاف المؤلفة ممن لم يذنبوا ذنبه فهم في مأمن من مثل ما يصاب به من اللوم ، وفي غير حاجة الى مثل ما يقدمه من الأعذار ! وهل في العدل أن يحل ذلك برجل باع اللذة في سوق الحق بالألم ، والراحة بالنصب ، والرفاهة بالشظف والقشف ، ونزل المعترك بلا درع ، ولا جنة ، واهدف للسهام صدره ، واحتمل في الله النفي والأسر ، يسام العذاب ألوانا ، ويعرض للرعود القواصف وللرياح العواصف ، الى غير ذلك من ضروب المحن ، وصنوف البلاء ، ولكن ليقل الناس فيه ما يقولون ، فليس والله يعنيه قولهم وهو يعلم من نفسه ما لا يعلمون ، وان كان يعنينا نحن أن ندفع الظلم عن رجل لا تزال نرتع في غرس يديه وأن نقشع ضباب التهمة عن شمس حقيقته .

وارى ان أول شروطنا في البطولة ، اعنى الأخلاص ، ينطبق تماما على نوكس . وليس أحد ينكر انه مهما تكن عيوبه وعوراته فلقد كان من أشد الناس اخلاصا ، وكيف وانما كان بالحق لا غيره يتشبث وذلك بفطرة فيه وغريزة ، ثم يرى كل ما عدا الحق شبحا باطلا فيدعه ، ولما نفي أسيرا مع أصحابه الى سجون نهر اللوار بفرنسا بعد سقوط حصنهم اثر حصار طويل جاءهم أحد

السجانين يوما بصورة مريم وسألهم ان يركعوا لها ، فقال نوكس : « اتزعم هذه ام المسيح ؟ كلا ما هذه الا قطعة خشب عليها الوان وصبغ ! واولى بها ان تطفو على مياه هذا النهر، ثم تناولها فالقى بها فى اليم » . ولم يكن مثل هذا المرح بالشيء الرخيص اذ ذاك . ولكن نوكس لا يبالى فى سبيل الحق ماذا يبذل .

وكان يسلي صحبه فى النكراء ، ويعزيهم فى المحنة السوداء ، ويقول لهم : سيظهر الله الحق مهما لج به الخفاء والحق ابلج ، والباطل لجلج ، وأخو الباطل على الايام مقهور ، وصاحب الحق على كر العصور منصور، والحق سنة الديان ، والباطل مسلك الشيطان ، ولابد من يوم يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق . فمثل هذا البطل ممن لا حياة له الا فى عنصر الحقيقة ، فهو يتشبث بأعطافها كما يتشبث الغريق فى اطراف الصخرة الركود ، وما احسب الا ان الله قد طبع فؤاد هذا البطل على غرار افئدة الأنبياء ، فهو نبى القلب وان لم يكن نبى اللسان . وما أصدق ما كتب « مورتون » على قبره حيث كتب : « تحت هذه الصفائح رجل كان لا يهاب وجه انسان » وهو أشبه المحدثين بالأنبياء الأولين من رسل بنى اسرائيل ، له ما لهم من شدة التمسك بطريقته والتفاني فى الله وتضحية كل شيء فى تلك السبيل ، وشدة الانحاء باللائمة على كل من شذ عن الصراط السوى والخطة المثلى ، فيا له من نبى عتيق فى ثياب قسيس محدث ، وما ينبغى لنا الا أن نعده كذلك ، ولا نأسف انه كان كذلك . .

وقد انكر الناس سيرته مع الملكة مارى وغلظة خطابه لها وخشونة نصحه ، هكذا يزعم الناس ، ولكن من

قرأ تاريخ هذه الحوادث وجد الأمر على خلاف مايزعمون ولم ير لنصائح الرجل ومقالاته من الغلظـــة ما ينسب اليها ، بل أني لأراها من اللين على قدر ما كانت تسمح به الحال اذ ذاك ! ولم يمثل نوكس أمام الملكة ليعطيها ملق الحاشية وانما الأمر غير ذلك كان مثوله هنالك ، ومن قرأ محاوراته معها فلم ير فيها الا قحة ســوقى لأميرة أخطأ وجه الحقيقة واشوى مقتل الصواب ، لأنه كان من المستحيل اذ ذاك أن يجمع جامع بين التادب في حضرة الأميرة وبين مصلحة الأمة الأسكوتلاندية وشرفها، ومن كان همه حينئذ أن يحمى البلاد من أيدى الأجانب من أمراء فرنسا ويربأ بها عن أن تكون مدبا لمكايد أمثال « دى جيز » ومسرحا لمطامعهم ، ويعترف بدين الله عن مساقط الذلة ومواطىء الاقدام، ومواطن الكذب والضلال فغير ملىء أن يتـذرع بحلاوة الملق وعذوبة الاطراء الى الحظوة لدى الأميرة والحال عندها ، وما أصدق قول «مورتون» حيث يقول : « لأن تبكى النساء خير من أن تخضل اللحى بدموع الرجال » ، وماذا كان نوكس يفعل وقد راى الأوطان ، قد خانها الأعوان ، ونام عنهـــــا الأنصـــار ، وتواكل من اشرافها ، وتخاذل من عيونها وأعلامها ، من كان يرجى للكريهة ويدخر للجلى ، أكان يقعد عنها فيمن تقاعد ويخنس فيمن تقاعس ويتركها نهبا لأيدى الحوادث وغرضا لسهام الخطوب ؟ كلا ما هذه شيمة الرجال، ولا تلك سجية الأبطال ، وهذا أمر دونه خرط القتاد ، وضرب الأجياد ، وقالت له الأميرة مارى حين جاء ينصحها : « من هذا الذى قد بلغ من جراته انه تكلف نصيحة وجوه هذه المملكة وأميرتها ؟ » فأجاب : «سيدتى ! رجل من رعايا هذه المملكة وأبنائها» جواب أصاب والله المفصل وقرطس الغرض !

نحن نلوم نوكس على عدم تسـامحه ، ولا انكر ان التسامح محمود بشرط الا يتجاوز الصغائر الى الكبائر والقشور الى الجواهر ، وانما التسامح الصـادق هو العدل وامتلاك النفس عند الغضب ، والا يكون المرء لئيم القدرة ، فأما التسامح مطلقا بلا حد فهـذا من المنكر الذى من حق النبلاء أن يترفعوا عنه ، وما ارسل الله المرشدين والهداة ليتسامحوا ، ولكن ليجاهدوا ويكافحوا ويهزموا ويقهروا ، نحن لا نتسامح فى جرائم الـكذب والسرقة والظلم اذ أصابتنا ، وانما نخاطبها بقولنا : « انت أكذوبة ، وانت سرقة ، وانت ظلامة لا يتسامح فيك ولا يتجاوز عنك ! » وانما نحن فى هذا العالم لنخمد الأكاذيب ونقطع دابرها بطريقة صالحة ! ولست مشددا النكير على طريقة استئصال الباطل وان شابها العيب ، فحسبها أن بلغنا الغرض من ازالة الشر ومحو الباطل ، ومن هذه الوجهة ، أعنى من وجهة الضلال ولو بواسطة معيبة — بالواسطة التى لم يمكن غيرها — كان نوكس عديم التسامح .

وما كان رجل اضطهد ونفى الى بلاد الغربة أسـيرا سجينا ليكون فى معظم أوقاته الا مرالطباع وعر الناحية! ولست بقائل قط ان نوكس كان فى طبعه عذوبة وفى جانبه لين ودماثة ولا انه كان سيىء الخلق شرس الشيمة ، ولم يخل قلبه من عواطف الرحمة والبر والرأفة ، هذا ولقد كان فى جرائه على الملـكة باللوم وفى رجاحة وزنه عند أشراف اسـكوتلاندة — اولئك الذين كان لهم من الـكبرياء والتيه الميزان الراجح — واستطاعته أن يقبض على زمام النفوذ فى تلك البلاد الوحشية العاتية زمنـا طويلا — لقد كان فى كل ذلك دليل على ان الرجل لم يك حرج الصدر ضيق العطن ، وانما كان رجلا حمـالا

للصبء ، نهاضا بالفادح من الأمر مضطلعا بالباهظ من الخطب ، ولا يكون ذلك الا لمن أوتى بسطة فى الحلم ، وفضلا فى الذكاء والعقل ، وقد ينعون عليه تهديمه للكنائس كما لو كان ثوريا مخربا، وانما أمره عكس ذلك لو انعمنا النظر ! وما هدم الزور والفساد وغسل القلوب من كل دنس ورجس ؟ نعم ، ولا كان ديدنه الثورة بل النظام التام ، وانما كان من سوء حظه أن الجيء الى الثورة فى سبيل امضاء عزمه ، وما كان مثل هذا الرجل ليكون الا عدوا للثورة والفوضى ، ولكن ماذا يصنع اذ لم يجد بدا من ركوب الفتنة لبلوغ غرضه ؟ يركبها الرجل المضطر ، يركب الصعب وهو عالم بركوبه هذا وانه كان على الحق ، والحق هو النظام .

ومن العجيب غير المنتظر ان نوكس هذا كان فيه مزح وفكاهة ، وكان بصيرا بمواضع الضحك فى كل شيء ، وصفحة تاريخه مخللة من سطور الفكاهة بما يلين من قسوة جدها ويحلى من مرارة وقارها . فلما تشاجر اثنان من القسوس بباب كنيسة «جلاسجو» على الاولوية فى الدخول من ذا يتقدم صاحبه ، واشتد الخصام بينهما وعلا الضجيج وتخاطبا بعصويهما كان لنوكس فى هذا المنظر مضحك ، أى مضحك ! ضحك فيه مع التهكم والازدراء ، والمرارة شيء من الرحمة والرثاء والعطف — لا قهقهة وانما ابتسامة تملأ العينين اشراقا ، ورجل رقيق الفؤاد ، كثير الوداد ، محب لبنى آدم ، أخ للقوى وأخ للضعيف ، صاحب للوضيع ، صاحب للشريف ، وكان يتناول الكأس فى حان الخمار بمدينة ادنبرج — دليل والله على رقة طبعه ولطف شمائله ، وانه لم يك كما يزعم الناس بالشرس النكد الجعد الاخلاق الجهم

الطامة المكفهر الجبين المتعصب الصخاب ، كلا ، انه كان من أثبت الناس أمرا وارسخهم حالا .. حازم بصير جلد صبور ، طويل الاغضاء عن الأمر الذى لا يفسد عليه أمره ، فان عرضت مفسدات الشرف والدين قام لها على قدم ، فهو كما قيل :

صفوح اذا ما الذنب لم يعد حده
الى الوتر تباع قفا الوتر ارقم

وكما قيل :

له سورة مكتنة فى سكينة
كما اكتن فى الغمد الجراز المهند

لقد جاهد هذا البطل فى الله حق جهاده ، وركب من عيشته متن صعبة عوصاء ينافح الأمراء ، ويكافح الزعماء ، بعزم لا تفل من حده الخطوب النوازل ، وجنان ثابت على الهزاهز والزلازل .

ترى ساكن الأصال باسط وجهه
يريك الهوينا والأمور تطير

كابد والله من حياته هول حروب ضرس ، ووقائع حمس ، ولكنه خرج منها كالصارم العضب يجول فى صفحتيه رونق الظفر ، وفرند الفوز والنصر ، وأن كان بمضربيه فلول وثلم ، وما زال الأمل حليفه حتى دخل معه قبره ، فلما جاءته سكرة الموت واعتقل لسانه ، سألوه : « هل عندك أمل ؟ » فرفع اصبعه يشير نحو السماء ، ثم فاض ، له المجد والشرف وسقى عهده الغمام .

كلمة فى الختام عن مذهب نوكس ــ كان مذهبه سيادة الكنيسة على الحكومة ورئاسة القسس على الملوك ،

او بعبارة اخرى حاول أن يجعل على اسكوتلاندة حكومة دينية . وهذه فى نظر الناس جريمته ، وحقا لقد حاول أن يسير الناس جميعا على كتاب الله ملوكا وسوقة ، وأن يعلموا أن هذا قانونهم الذى ليس فوقه قانون ، وشد ما ساءه اغتصاب جياع الأعيان أمتعة الكنيسة ، وقد جعل يقول : ان هذه ليست ملكا مدنيا وانما ملك دينى ، وحقها أن توقف على منفعة الكنيسة ـ على التعليم ، والمدارس ، والعبادة . فأجابه الوصى « موران » مستهزئا : « هذه أحلام تقية » .

ذلك مذهب « نوكس » الذى سعى فى تحقيقه ، وانه وان يك اخفق فى بلوغ ذلك ولكنه لم يخفق فى احياء الدين وبعث الأمة من طول رقادها مبعثا كان أصل رقيها ونهضتها ، ومجدها وعظمتها ، وكيف ينعى الناس عليه مذهبه ـ كيف ينكرون منه محاولته أن يجعل الحكومة لله وتلك ما لانزال نحاول ونرجو ، وما جاءت الرسل والقسوس الا لذلك ، وقد أرادها «هلدبراند» وحاولها « كرومويل » وبلغها « محمد » . . . أو لم تزل أمنية كل غيور مخلص ، وكل ولى تقى ، وكل رسول نبى ! ولا يسعنا الا شكر ذاك القسيس البطل الذى حاول جهده تحقيق هذه الأمنية : وافنى فى طلبها ايامه بين الكدح والجد ، والمعارضة والرد ، والنصب والسهر، والحبس والأسر .

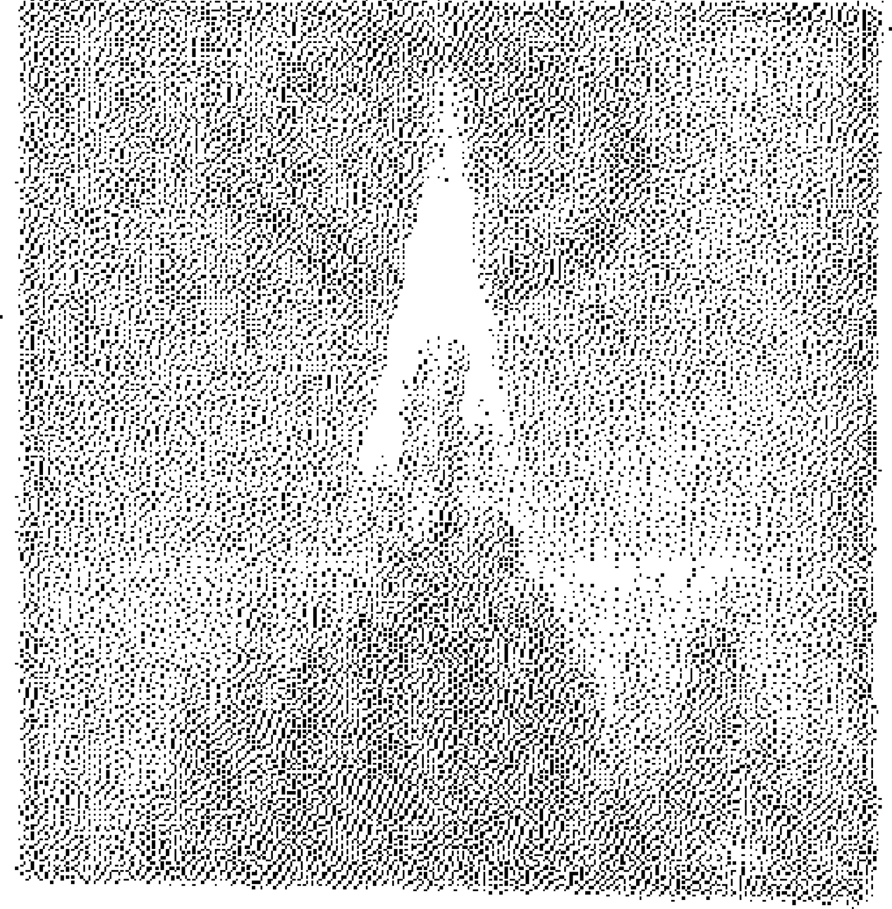
●

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشـــم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



هــذا الكتــاب

كتاب « الأبطال وعبادة البطولة » لتوماس كارلايل ٠٠ من الكتب الفريدة في بابها في التاريخ ٠ انه سبع محاضرات عن البطولة القاها في جامعة لندن توماس كارلايل كبير المفكرين والناشرين الانجليز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفسر فيها معنى البطولة ونفذ الى لبابها ، واجاب على سؤال عسير هو : من هو البطل ولماذا يبلغ تقدير الناس اياه درجة التقديس ؟٠٠

وقد اختار كارلايل سبعا من عظماء التاريخ جعلهم رموزا على البطولة ٠ كلا في ميدانه ٠٠ ومن بين صور البطولة التي اختصها بمحاضرة : صور البطل في صورة نبي تحدث فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو لم يسبقه اليه كاتب أو مفكر غربي ٠ وللمرة الاولى في تاريخ الفكر الغربي يرى الناس محمدا بن عبد الله كما ينبغي ان يروه ٠٠

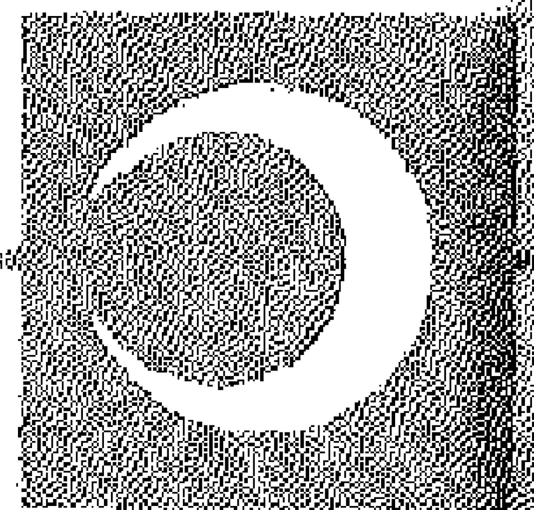
ومن نصف قرن قام الاديب الكبير محمد السباعي بنقل هذا الكتاب الى اللغة العربية نقلا فريدا يمتاز بدقة الفهم وفخامة اللفظ والاسلوب ٠ ومن بين كتب محمد السباعي الكثيرة يعتبر هذا الكتاب اجملها وادلها على شخصيته واسلوبه ٠

انها ليست ترجمة حرفية ، انما هي عمل ادبي لاديب عربي كبير على اساس عمل ادبي لمفكر غربي كبير ٠

لهذا اختار الهلال ان يقدم هذا الكتاب ضمن سلسلته التي تعتبر ذخرا من ذخائر المكتبة العربية ٠٠

ولم نر ان نختصر في الكتاب لكلمة واحدة ، ولهذا فاننا ننشره في جزءين في شهرين متواليين حتى يقتنيه كاملا كل حريص على عيون الادب العالمي ٠٠

١٥ قرشا



كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

هذا هو الحب

• ستندال • صوفى عبد الله

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٢٧ — ربيع الاول ١٣٩٨ — مارس ١٩٧٨

No. 327 — Mars 1978

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادي البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢٫٥ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب •

كتاب الهلال



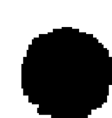
سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

هذا هو الحب

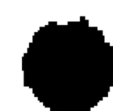
تأليف

ستندال



ترجمة

صوفي عبد الله



دار الهلال

مقدمة

عبثا يزعم بعض المؤلفين انهم فى مقام الاعتذار الى القراء والتماس اعفائهم ، لأن الاقدام على النشر فى حد ذاته تكذيب قاطع لهذا التواضع المزعوم . وأعتقد ان الأولى بالمؤلف أن يلجأ الى مناشدة القراء العدل والصبر والنزاهة غير المنحازة . وهذا ما يلجأ اليه فعلا مؤلف هذا الكتاب ، ولا سيما النزاهة غير المنحازة . ففى نيته أن يعرض فى هذه الصفحات الأمور على ما هى عليه فى الواقع ، بدون تحيز بدافع وطنية مزعومة ، غير مبد تقديره واحترامه الا لما هو حقيقى وصادق أيا كان موطنه ، غير متذرع بتلك الروح المحلية التى غالى بعض الكتاب فيها أخيرا ، وحولوها الى فضيلة . فماذا يكون من أمر التاريخ والأخلاق ، بل والعلم ، والآداب ان جعلها الألمانى المانية ، والروسى روسية ، والايطالى ايطالية ، والانجليزى انجليزية ، وهلم جرا ، بحيث يتغير كل معيار متى عبرنا نهر الراين ، أو اجتزنا جبال الألب ، أو عبرنا المانش ، وماذا يكون من أمر الحقيقة والعدالة الجغرافيتين ؟ ان هذا التحيز الأعمى لكل ما يتعلق بالوطن ، هو الباعث وراء كل التصرفات الدموية والعدوانية بين الشعوب ، وتلك همجية آن للبشر المتحضرين أن يطرحوها جانبا ويرتفعوا فوقها الى كلمة سواء ، هى الحق الموضوعى أو العدل الموضوعى ، الذى يتغذى به العقل ، ويقوم عليه العلم والأدب الصحيحان .

المؤلف

الفصل الأول :

أنــواع الحــب ...

سأحاول في هذه الصفحات أن اتعرض بالتوضيح لتلك العاطفة التي تتسم جميع أطوارها بالجمال . والواقع انى أجد الحب على أربعة أنواع مختلفة :

١ ـ الحب العاطفي ، ومثله ذلك الحب الذى تجده عند الراهبة البرتغالية ، أو حب الويز لابيلار ...

٢ ـ حب الرغبة أو الاستحسان ، وهو ذلك الحب الذى يسود الأوساط المترفة ، وكانت باريس مرتعا له حوالى عام ١٧٦٠ ، ونجده متمثلا فى مذكرات وروايات تلك الحقبة ، (عصر لويس الرابع عشر ، والخامس عشر) . وهذه الكتابات أشبه بلوحة يجب أن يكون كل شيء فيها ـ حتى الظلال الداكنة ـ فى لون الورد ، بحيث لا يدخل فى مكوناتها شيء غير سار لأى ذريعة من الذرائع ، وإلا عد ذلك من فساد الذوق ، والجلافة ، والخروج على العرف العام . وكل شاب أو رجل رفيع المولد ، كريم الأصل والنشأة يعرف مقدما جميع الحيل والأفانين التى ينبغى أن يواجهها فى مراحل هذا الحب المختلفة . فهو حب خال من كل عاطفة صادقة ، وبالتالى خال من كل ما هو غير متوقع سلفا . ولكنه كثيرا ما ينطوى على أعمال اللطافة والرقة بصورة تتفوق على الحب الحقيقى لأنه يحتاج

دائما الى أعمال الحيلة ، والذكاء ، وسرعة البديهة ، ان نسبته الى الحب العاطفي الحقيقي،كنسبة الحرفة المتقنة الى الفن الأصيل الخلاق . ففي حين يجرف الحب الحقيقي في طريقه جميع الأغراض والمصالح الشخصية ، نجد حب الرغبة أو الاستملاح أو اللباقة يتحرى هذه المصالح الشخصية ويعززها . فلو اننا جردنا حب الرغبة أو الاستملاح من عناصر الزهو والغرور وحب المظاهر لما كاد أن يبقى منه شيء ، فهو حب هزيل حقا ، اذا ساجرد من الغرور والاثرة كان اشبه بالمريض المتداعي الذى لايكاد يقوى على جر ساقيه.

٣ ـ الحب الجسدى .. ولعل أبرز مثل له أن يعثر المرء أثناء ممارسة هواية الصيد في الأحراش أو الغابة بفلاحة صبية ناضرة ريانة الحسن تفر منه في الغابة فتسخن دماؤه ويلاحقها لينال منها بين الأشجار وطره. والناس جميعا يعرفون الحب القائم على هذا النوع من الملذات . ولعل هذا اللون الرخيص التعس من الحب هو الذى يبدأ به الشبان منذ السادسة عشرة .

٤ ـ الحب القائم على الزهو والغرور . ومعظم الرجال ولاسيما في فرنسا يشتهون أمرأة ما ويتهافتون على الحصول عليها لا لشيء الا لأنها من سمات «الموضة» في مجتمعها ، على نحو ما يتهافتون على الحصول على حصان طارت شهرته ، لا حبا في الفروسية ، بل حبا في التظاهر والتفاخر والتباري في علامات الأبهة والوجاهة . وما يرضي غرور الواحد من هؤلاء ويكبت أو يحنق غرور نظرائه هو ما يولد لديه الحرارة والحماسة والنشوة للظفر بتالك المرأة المرموقة . وكثيرا ما يخلو هذا الحب من أتفه عناصر اللذة الجسدية

نفسها . أليس حب الغرور والتفاخر يدفع الرجل الذى لا يهوى الفروسية ولا يمتطى صهوة جواد الى الحصول على حصان طارت شهرته لا لشىء الا لأن النـــاس يتهافتون على اقتنائه؟ وهذا هو السر فى تطلع البورجوازى الى دوقة ما ، لا لجمالها المثير ، بل لأنها الدوقة ! أو تهافت الأثرياء من التجار على راقصة أو ممثلة معينة مشهورة ، كتهافتهم على اقتنــــاء التحف ولوحات المشاهير ، لا عن ولع بالفن ، بل حبـا فى المنافسة ، ويروى أهل بلاط لوى ملك هولندة حكاية تلك المرأة الحسناء من بنات مدينة لاهاى التى كانت ترى الحسن كله والفتنة كلها فى كل من يقال لها انه دوق أو أمير ، ولو كان فى الحقيقة دميما مسنا ، أو أحد خدم القصر! وقد تتعلق بدوق حقيقى وتلتصق به ، ولـكن متى وفد على البلاط أمير وبلغ ذلك مسامعها نبذت الدوق وشرعت تنشد الحظوة لدى الأمير ، حتى قبل أن تقع عليه عيناها !

وأقصى ما يصاحب التوفيق هذا النوع من الحب ، حينما تتوثق اللذة الحسية فيه بحكم العادة والألفة ، فتعمل الذكريات عندئذ على تزويده بما يشـبه الحب بعض الشىء . وعنـدئذ تتـأذى النفس وتجرح عزتها ويستولى عليها الأسى عنـد وقوع الفرقة أو الهجر ، وتمسك بتلابيب المرء تلك المشـــاعر التى تحفل بها الروايات ، فيحسب انه عاشق حقا ، لأن الغرور يتطلع بصاحبه دائما الى الاعتقاد بأنه فى حالة حب حقيقى . فمن المقطوع به انه أيا كان نوع الحب ، فمتى اهتزت له الروح ، وتحركت له النفس ، صارت لذاته متوقدة، وصارت ذكرياته ذات سلطان . وعندئذ يخال المرء ان

ما فاته وما خسره أسمى وارقى من كل ما يتوقعه .

واللذة الجسدية تستمد مصـــــدرها من الطبيعة البشرية ذاتها، ولذا يعرفها الناس جميعا ، ولكن مرتبتها هابطة فى نظر النفوس الرقيقة المشبوبة العاطفة. وهؤلاء العاطفيون كثيرا ما يكونون عاثرى الحظ فى المجتمعات التى يسودها حب التظاهر ، لأن أصـحاب العواطف الباردة اقدر منهم على المناورات وحيل التظرف وأفانين الغزل المصطنع . ولـكن هؤلاء العـاطفيين اقـدر على الشعور بلذات نفسية لا يتذوقهـا المزوقون من أهـل التظرف واللباقة ، أو أهل التفاخر وسـباق الزهو ، أو طلاب اللذة الحسية العابرة .

ويغلب على النساء العفيفات الرقيقات الا تكون لديهن اى فكرة عن اللذات الجسدية ، فقلما يتعرضن لها ، بيد أن اجنحة الحب العاطفى تحلق بهن فى آفاق عالية تـكاد تنسيهن لذات الجسد .

وهناك رجال يستعبدهم التكبر الشيطانى ، ومن ثم يتسمون بالقسوة الشديدة ، ومن أشهرهم فى التاريخ نيرون . وهم لايستطيعون الوصول الى اللذة الجسدية الا اذا صاحبتها أعنف مظاهر ارضاء الـكبرياء ، أى الا اذا مارسوا القسوة على الطرف الآخر فى هذه اللذة .

ولا يفوتنا ان نقول ان تداخل هـذه الأنواع الأربعة من الحب ، بحيث يكون فى اى نوع منها طرف من نوع آخر ، يمكن ان يخرج لنا من هـذه الأنواع الرئيسية ثمانية انواع أو اكثر . ولـكن تلك القائمة من التنويعات لا تغير شيئا من الأحكام الأساسية الخاصة بكل نوع من الأنواع الأربعة .

الفصل الثاني :

ميلاد الحب...

اليك ما يجرى فى النفس عند ميلاد الحب :

١ ـ الاعجاب .

٢ ـ يقول المرء لنفسه : ما ألذ واشهى أن يقبلها المرء ، وأن يتلقى قبلاتها !

٣ ـ الأمل . وهنا يدرس المرء المحاسن ومواطن الفتنة . وحتى أشد النساء تحفظا تحمر عيونهن فى لحظة الأمل هذه ، لأن العاطفة فيها تقوى ، واللذة تتقد ، بحيث تفضحهما امارات كثيرة ظاهرة .

٤ ـ ميلاد الحب . فالحب معناه التلذذ بالنظر ، واللمس ، وسائر الحواس ، وبالقرب الى أقصى حد ممكن من الشخص الذى نحبه ويحبنا .

٥ ـ التبلر المبدئى . وفيه يطيب للمرء أن يخلع ألوف المحاسن والمفاتن على المرأة التى تأكد من حبه لها ، ويلذ له أن يدخل فى تفصيلات هنائه المرتقب بها ويجد فى ذلك متعة لا حد لها . وكأنما هو يبالغ فى مزايا ملكية خاصة به هبطت عليه فجأة من السماء ، ولا معرفة له بها من قبل ، ولكنه صار واثقا الآن من ملكيته لها . ولو دخلت رأس عاشق تهيم خواطره

أربعا وعشرين ساعة لوجدت شيئا شبيها بما يحدث في مناجم الملح بسالزبورج ، حيث يلقون فى الأعمـــاق المهجورة من تلك المناجم غصن شجرة جرده الشـتاء من أوراقه جميعا . وبعد شهرين أو ثلاثة يستخرجون هذا الغصن وقد اكتسى تماما ببلورات متألقة كالمـاس يخطف لألاؤها الأبصار ، بحيث يعجز المرء عن التعرف على ذلك الغصن الأجرد الذى القى فى أعمـــاق المنجم قبل شهرين أو ثلاثة . وما أسميه أنا « التبلر » هو كسوة المحبوبة او المحبوب بأنواع من المحاسن التى لم تكن ترى فيه أو فيها من قبل، والتفنن فى ذلك، بحيث يغدو هذا الشخص المحبوب غير ماكان تماما قبل ذلك الحين . فما أن يسمع العاشق عائدا من السفر يتحدث عن غابات البرتقال فى جنوة المطلة على شاطىء البحر فى ايام الصيف الحارقة ، حتى يقول فى سريرته : « ما أشهى الاستمتاع بهذا الجو الساحر فى صحبتها ، وقد غلب عبير اعطافها على رائحة أزهار البرتقال ، وامتزج العطران فى انفى ! » . واذا سمع ان احد أصدقائه وقع من صهوة جواده وهو فى رحلة صيد فكسرت ذراعه ، كان أول ما يتبادر لذهن العاشق : « الا ما أحلى هذه الاصـــابة كى أتلقى الرعاية والتمريض من فاتنتى ، وأحظى بعطفها ، وأرى الحنو فى نظراتها ولمساتها ! » فذلك كله يجعـل الذراع المهيضـة والألم نعمة وبركة تحمد عليها السماء ، وتتمناها هذا المتيم ، فى مرحلة تبلر الحب . فانه فى هذه المرحلة لا يأتى ذكر مزية أو لمحة جمال وهناء الا وتخيلها فى محبوبته ، مهما كان الثمن ، ومهما كانت المناسبة .

وقد تكفى الشهوة العارضـة الشخص البـدائى أو

المتوحش ، فهو يطارد بكل قواه الفرائس ليتغذي بلحمها والا هلك جوعا أو هزالا . وأى فريسة صـالحة لهذا الفرض . أما عند ذروة التحضر ، فالمرأة على الخصوص ما أن يمس قلبها الحب ويوقظ حواسها حتى تصبح لها غاية واحدة هى الحظوة بالرجل الذى تحبه وتبلر حبها له ، بحيث لا تجد لذة حسية أو جسدية الا فى قرب هذا الرجل المعين ، وتضـيق بلمسات غيره من الرجال . (وان لم تتوفر هذه السمة لدى الرجل فى أغلب الأحيان ، فلأنه لا يملك ما لدى المرأة من حيـاء واحتشام فطريين ، يضحى بهما عندما يمس امرأة) .

٦ ـ ميـلاد الشـك . فبعد برهة من الهيام وتبلر الحب ، يطلب العاشق ما يؤكد له ان عاطفته متبادلة ، ويريد امتلاك المحبوب تمام التملك ، وهنا يجد لدى محبوبته توقفا أو تردد أو صدا ، او فتورا ، قد يكون عن دلال ، او لخشية الرقباء ، أو تحسبا من عواقب الاندفاع مع العاطفة ، او رغبة فى التأكد قبل الاقدام . وهنا يتولد الشك لدى العاشق ، ويسـتبد به القلق والهم . والعادة فى فرنسا ان سلوك المرأة فى هـذه المرحلة تشوبه السخرية ، وكأنها تقول لعاشـقها : « انك تخال نفسـك فى مركز القوة أكثر مما ينبغى لك ! » .. حتى يظن العاشق ان العصـفور أفلت من الشرك ، وطار من يده الى الأبد ، مع ان هذا المسلك قد لا يكون مرده الى شىء سـوى الخوف من انتهاك الحياء ، أو مجرد الرغبة الطبيعية فى الفندرة والدلال ، وزيادة عواطف العاشق اتقادا . وعنـدئذ قد يقنـط العاشق من تحقيق سعادته والظفر بلذات الوصال ، فيتهالك على مصـادر اللذات السـهلة ، من الشراب

والنساء ، على ما كان يعهد بعض ذلك قبل أن يحب ، فاذا به يجد تلك اللذات فاترة الطعم ، ليس فيها ماكان يعهده منها قبل أن يصيبه سهم كيوبيد .

٧ ــ التبلر الثانى . وفى هذه المرحلة يشعر العاشق ان هذا الحب قدره الذى لا مفر له منه ، وتلين المحبوبة وتقبل بعد توقف أو صد ، وقد تأكدت هى أيضا من عواطفها وعواطفه ، فيزداد هوسه وافتتانه بها ، حتى لايرى حسنا فى الدنيا الا فيها ، ولا يبقى فى نفسه الا التفكير فى الحظوة بها .

الفصل الثالث :

الفرق بين ميلاد الحب لدى المرأة ولدى الرجل

الخدمات والتودد هي التي تحمل المرأة على الارتباط ، ولما كانت أكثر من تسعة أعشار أحلام يقظتهن المعتادة متصلة بالحب ، فبديهي ان هذه الأحلام والخواطر تتجمع بعد الوصال حول موضوع واحد ، ويكون هدفها كله تبرير تلك الخطوة الحاسمة الخارقة للعادة والمناقضة لكل عادات الحياء والاحتشام . وليس لهذا الجهد كله وجود لدى الرجل . ثم ينصرف خيال المرأة بعد ذلك التبرير الى اجترار هذه اللحظة السعيدة اللذيذة على مهل .

ومن شأن الحب ان يثير الشك في أثبت الأمور واوكدها ، فاذا بالمرأة التي كانت قبل الوصال شديدة اليقين من سمو عاشقها فوق المستوى الشائع المبتذل ، وقد تحولت بعد أن تم الوصال ، ولم يعد لديها ماتأباه عليه ، الى الارتعاد خوفا من أن يكون كل مراد عاشقها من الوصول اليها أن يضيف امرأة أخرى الى قائمة عشيقاته .

وعندئذ يأتي دور التبلر الثاني ، وهو أقوى كثيرا من التبلر الأول ، لأنه مصحوب هذه المرة بالمخاوف . ولكن ينبغي التنبه هنا الى ان هذا التبلر الثاني

لا وجود له عند المرأة السهلة المنال ، التى تعودت التقلب بين أحضان الرجال ، لأنها بحكم تعودها هذا أبعد ما تكون عن هذه الأفكار العاطفية الجامحة .

ان المرأة الصعبة المنال تعتقد انها صارت بعد الوصال عبدة أو أمة بعد أن كانت ملكة . وهذه الحالة الفكرية والروحية تساعد عليها تلك النشوة العصبية التى تولدها اللذات العشقية النادرة الغامرة . ولذا ترى المرأة بعد الوصال مع عاشقها اذا ما خلت الى نولها الى لوحة تطريزها ، لا تجد فى هذا العمل الفث الماسخ ما يشغل شيئا عدا يديها ، ولذا تنطلق خواطرها متفكرة فى حبيبها ، فى حين يكون هذا العاشق مشغولا بعمله ، أو بالركض على جواده بين رجال كتيبته ، ولابد له من الانصراف الى ذلك بكل حواسه وأفكاره ، والا تعرض للافتضاح وجوزى على شروده وأخطائه .

ولذا اعتقد ان التبلر الثانى أشد وأقوى كثيرا لدى النساء منه لدى الرجال ، لأن مخاوف النساء بعد الوصال أكثر ، لارتباط الوصال بالمخاطر التى تحيق بكرامتها ومكانتها وشرفها ، ولأن التلهى عن هذه المخاوف والخواطر أصعب على المرأة . فأسلوب حياة المرأة قعيدة البيت لا يتيح لها الاتزان والتعقل فى احاسيسها ، ولكن الاتزان والتعقل ميسران لى جدا أنا الرجل الذى أقضى ست ساعات كل يوم فى مكتبى منهمكا فى أمور جامدة هامدة عقلانية . وحتى غير العاشقات من النساء يجنحن — بحكم فراغهن — الى الخيال ، وتجرفهن حماسة عواطفهن ، ولذا فمن السهل عليهن الا يرين عيوب من يحببن ، أو — ان رأينها — ان تختفى عن نواظرهن تلك العيوب سريعا . وهن

يفضلن العواطف والانفعالات على اعمال العقل ، والسبب فى هذا واضح وبسيط للغاية ، لأنهن لايقمن بأى عمل جدى ، ولا ينهضن بأى مسئولية ، فلا حاجة بهن الى اعمال العقل ، ولذا لا يتعودونه ، ولا يجدن له نفعا لديهن ، ولا حاجة بهن اليه ..

بل الأنكى من هذا انهن يرين العقل شيئا ثقيلا ، بل ضارا . فلا يظهر العقل على المسرح الا لكى يوبخهن على ما أصبنه من ملذات ، أو لكى يحرم عليهن أن يستمتعن غدا بمثل ما نعمن به بالأمس .

* * *

والنساء يتفاوتن فى قدرتهن على التبلر ، فالفتاة بنت الثامنة عشرة لا تملك من القدرة على التبلر ما تملكه المرأة بنت الثامنة والعشرين ، لأن الصغيرة لا تستطيع أن تتخيل الا رغبات ولذات محدودة جدا ، بحكم قلة خبرتها بأمور الحياة ، ومن ثم يكون حبها أقل عاطفة واتقادا .

وقد بسطت هذا الرأى الليلة لامرأة ذكية أعرفها ، فكان رأيها على عكس هذا ، لأن الفتاة الحديثة السن لم يتجمد خيالها بتأثير الصدمات وخيبة الأمل فى الخبرات والتجارب السابقة ، ولأن حرارة الصبا الباكر لديها على أشدها ، ولذا يكون فى وسعها أن تنسج حول أى رجل يروقها هالة كبيرة ، وتتخيل له صورة بارعة الحسن آسرة الخلال . وكلما التقت بعاشقها أو محبوبها نعمت لا بمزاياه الواقعية ، بل بتلك الصورة الخلابة التى ابتكرها خيالها له ! حتى اذا تقدم بها العمر ، ونزعت الخبرة القناع الخادع عن وجوه جميع الرجال ، وسيطر عليها الأسى والاحباط ، وقلل

ذلك من قدرتها على التبلر ، لأن سوء الظن بالرجال قص أجنحة خيالها . فاذا صادفها بعد ذلك رجل ما ، حتى وان كان آية فى المحاسن وأعجوبة فى مزاياه ، لم تستطع أن تخلق له عندها تلك الصورة الأولى التى كان خيالها البكر قد توهمها لحبيبها الأول توهما لا أساس له . ولذا لن يكون حبها بعد ذلك بمثل حرارة حبها الأول وقوة اندفاعه . ولما كان المرء لا ينعم فى الحب الا بما يتوهمه ، لذا لن تكون الصورة التى تتكون عند بنت الثامنة والعشرين فى مثل روعة الصورة التى تكونت سابقا عندها وهى ابنة ثمانى عشرة سنة ، أو ست عشرة ، ولذا يبدو الحب الثانى أقل مستوى من الحب الأول ، الذى يظل فريدا فى حلاوته .

وعندئذ قلت لها :

ـ كلا ياسيدتى ! ان الحذر الذى لم يكن موجودا فى سن الثامنة عشرة أو السادسة عشرة هو الذى يضفى بلا شك لونا مختلفا على الحب الثانى . فالحب فى بواكير الشباب أشبه بالنهر الكبير الدافق الذى يجرف فى تياره كل شىء ، ويشعر المرء انه لا قبل له بمقاومته . اما النفس الرقيقة فتكون قد وعت ذاتها فى سن الثامنة والعشرين ، وأدركت انه لا سبيل لها الى سعادة فى هذه الدنيا الا عن طريق الحب . وهكذا ينشب فى فؤاد هذه المسكينة صراع محتدم رهيب بين الحب والحذر . ويتقدم التبلر فى طريق التكون ببطء شديد ، اذ تصحبه فى كل لحظة تصورات مخاطر فظيعة ، ولهذا السبب يكون التبلر عندئذ أقوى وأروع ألف مرة من تبلر الحب لدى بنت السادسة عشرة ، ففى تلك السن الصغير ليس للخوف مكان ، بل كل شىء

يتسم بالمرح والهناء . أما حب بنت الثامنة عشرة فأقل بهجة ومرحا ، ولكنه أعنف وأعتى . ولقد صدق ابيقور حينما قال : ان التمييز ضرورى لامتلاك ناصية اللذة والاستمتاع بها .

والحقيقة ان هذا الحوار جعلنى أزداد اعتقادا بأن الرجل لا يمكنه أن يعرف شيئا مما يخالج قلب المرأة الرقيقة العذبة الروح بعد الوصال لمن تحب . أما المرأة اللعوب ، فحالها مختلف جدا ، والرجال يدركون ما يخامرها بسهولة ، لأن لديهم نظير ما لديها من الحواس والغرور باللذة الحسية المتاحة .

والفرق بين تولد الحب لدى الرجال ولدى النساء ناجم عن طبيعة الأمل الذى ليس واحداً فى الجنسين. فالأمل لدى الرجل يدفعه للهجوم والاقتحام ، ولدى المرأة يدعوها للمدافعة . والأمل لدى الرجل يجعله فى موقف الطالب ، ولدى المرأة يجعلها فى موقف الرافض أو المانع أو المحجم . فالجراة صفة الرجل ، والتهيب شيمة المرأة .

الرجل يسأل نفسه : أيمكن أن تحبنى ؟ أيمكن أن أروقها ؟

اما المرأة فتقول لنفسها : أليس قوله انه يحبنى ضربا من اللعب والهزل ؟ آهو جاد ؟ أيمكن التعويل على وعوده وعهوده ؟ أكفء هو للمسئولية عن دوام مشاعره وعمقها ؟

وهذا هو السبب فى ان الكثيرات من النساء ينظرن الى الشاب ابن الثالثة والعشرين نظرتهن الى طفل . أما اذا خاض عشر معارك ، أو اشترك فى عشر معسكرات ،

وتقدمت به السن قليلا ، فانهن ينظرن اليه نظرتهن الى بطل شاب !

ان الأمل لدى الرجل يتوقف ببساطة على تصرفات محبوبته ، وليس أيسر من تأويل هذه التصرفات . أما لدى المرأة فالأمل يجب ان يقوم على اعتبارات أو تبصر خلقى أو معنوى من العسير جدا ايفاءه حقه . ومعظم الرجال يطالبون بدليل على الحب تقدمه المرأة بحيث يبدد جميع الشكوك والريب . أما النساء المصونات فلا يسعدهن كثيرا أن يقدم الرجال لهن هذا الدليل المادى . فتصاريف الحياة تقضى بأن يكون الفعل الكفيل بهناء الرجل وأمنه واطمئنانه وزهوه هو بعينه مصدر الخطر والقلق والمهانة لدى المرأة .

ولئن كان الرجال يتعرضون فى الحب للعذاب الخفى، فالنساء يتعرضن اذا افتضح حبهن للسخرية العلنية، ولذا فهن أكثر تهيبا ، لأن الرأى العام أهم لديهن بكثير ، والرأى العام يطالبهن بالتبصر الحذر وبالمحافظة على اعتبارهن قبل كل شىء . وليس لديهن ما لدى الرجال من وسائل لاخضاع الرأى العام بتعريض حياتهن لمخاطر الحروب .

وجدير بالذكر هنا أن نستعيد كلمة « بومرشيه» :

ـ تدعو الطبيعة المرأة أن تكون جميلة ان استطاعت، وحكيمة ان شاءت ، ولكن عليها أن تكون متبصرة ، حذرة ومحترمة حتما .

ففى فرنسا لا اعجاب بدون احترام وتبصر، وبالتالى لا حب . ومن ثم وجب على المرأة أن تكون أشد حذرا من الرجل بكثير . فميلاد الحب لديها مصحوب بحركات

فكرية ونفسية رقيقة ، وخجولة ، أبطأ بكثير وأقل جرأة وحسما مما يكون من ذلك كله لدى الرجل ، ولذا فهن أعظم استعدادا للوفاء والثبات على العهـــد ، وأقل استعدادا للتنازل بسهولة أمام مطالب الحب الطارىء ، كى يبدأ التبلر ويمضى قدما .

ان المرأة عندما يقع بصرها على حبيبها اما أن تفكر بسرعة أو تستسلم لسعادة الحب، وهى سعادة يقطعها عليها أقل هجوم من جانب حبيبها ، لأنها بذلك تضطر الى ترك أحلام اللذة الى امتشـــاق أســلحتها للدفاع الطبيعى عن عفتها .

أما دور المحب أو العاشق فأسهل من ذلك بكثير ، فهو ينظر فى عينى محبوبته ، وتكفيه ابتسامة واحدة منها كى يحلق فى سماء الحب ، ولذا فهو دائم السعى وراء هذه الابتسامة ، والعاشق يذل كرامته أن يطول حصاره لقلعة محبوبته وهى لا تستسلم ، فى حين تجد المرأة فى اطالة هذا الحصار مدعاة لزهوها .

فالمرأة يمكن أن تحب ، وتظـل عاما بأكمله لا تقول لحبيبها الا عشر كلمات ، وتسجل فى فؤادها عدد المرات التى وقع فيها نظرها عليه ، وعدد المرات القليلة التى صحبته فيها الى المسرح ، أو دعيت فيها الى مآدب كان مدعوا لها أيضا ، وعدد المرات التى حياها فيها بايماءة أو انحناءة حين صادفها وهى تتنزه .

وقد يحدث ذات مساء ، فى حفلة ساهرة أن يقبل يدها ، فاذا بنا نلاحظ انها منذ تلك اللحظة لم تسمح لأحد بتقبيل يدها ــ ولو بدا ذلك غريبـــا وتعرضت بسببه للتساؤل أو الانتقـــاد ــ حتى لا يطمس أحـــد موضع شفتيه !

اما اذا حدث مثل هذا المسلك من رجل ، فانه يتهم في حبه بالتخنث .

* * *

وســـــأكتفي في التدليل على التبلر بسرد الحكاية التالية :

سمعت فتاة من حولها يقولون ان قريبا لها يدعى ادوار سيعود عما قريب من الخدمة العسكرية ، وانه شاب على أعلى مستويات الامتياز والرقي ، وأكدوا لها انه يحبها على السماع ، بيد انه قد يفضل رؤيتها قبل ان يتقدم رسميا لطلب يدها من والديها . وحدث على اثر ذلك أن لمحت في الـكنيسة شابا غريبا عن البلدة ، وسمعت بعض الناس ينادونه باسم « ادوار » ، فلم تعد تفكر الا في هذا الشاب، وأحبته حبا عظيما بمجموع قلبهـا الغض . وبعـد ثمانية أيام وصـل « ادوار » الحقيقي ، فاذا به ليس الشاب الذي رأته في الكنيسة، فاصفر وجهها ، وشعرت انها ستكون أشقى الفتيات ان أجبرها أهلها على الزواج منه .

وهذا ما يسميه بعض النـــاس جهالة الحب ، أو جنونه .

وقد يغمر شاب كريم السجايا فتاة مسكينة بالخدمات والعطف ، وواضح انه لايمكن أن يكون هناك من هو افضل منه من جميع الوجوه ، وان كل شيء مهيأ لولادة الحب ، ولـكنه يلبس قبعة قديمة الطراز ، أو قد تراه وهو يركب الحصان بأسلوب غير رشيق ، فتوقن الفتاة انها لايمكن أن تستجيب لمبادراته أو بوادر هواه .

وقد يتودد رجل الى أكرم سيدات المجتمع ، وتسمع عنه انه مصاب بتشوهات جســدية خفية مضحكة ،

فيفدو فى نظرها ثقيلا لا يطاق ، مع انه لم يكن لديها أى تفكير فى الاستسلام له ، وهذه العيوب الجسمية الخفية لايمكن أن تضير ظرفه وحضور بديهته ، ولكن السبب وراء هذا النفور ان التبلر لم يعد ممكنا .

فلابد كى يتسنى للمرء أن ينصرف الى تأليه شخص ما ، أن يبدو له هذا الشخص كامل الصفات من جميع الوجوه الفعلية . ولن يبدو له هكذا الا بعد بضع أيام من التبلر الثانى ، حيث يكفى عندئذ أن تخطر ببـــال العاشق فكرة كمال من الــكمالات كى يراها ماثلة فيمن يحب .

وهكذا يكون « الجمـــال » ضروريا لميــلاد الحب ، وينبغى ألا تعد الدمامة أو القماءة حائلا دون هذا الميلاد ذلك ان العاشق ينتهى به الأمر الى أن يرى محبوبته جميلة كما هى ، من غير أن يحلم أو يفكر فى الجمال الحقيقى المتفق على سماته ومقاييسه .

ان سمات الجمال الحقيقى ومقاييسه تكفى ــ حين تلوح له ــ أن تمنيه بوحدة واحدة مثلا من وحدات المتعة والهناء ، أما سمات حبيبته ومقاييسها الفعلية فتمنيه وتثير فيه ألف وحدة من هذه الوحدات .

أجل ان الجمال الى حد ما ضرورى قبل ميـــــلاد الحب ، لأنه بمثابة اللافتة التى تشير الى وجود المتجر أو الخان ، وتغرى المرء بحب محبوبه على ضوء الثناء الذى يسمع الناس يضفونه على هذا الشخص ، فيتولد لديه الاعجاب ، وينمو الأمل .

أما فى حين الرغبة أو الميل والاستحسان ، وربما ايضا فى الدقائق الخمس الأولى من حب العاطفة أو

العشق بمعنى الكلمة ، نجد المرأة تزداد تعلقا بالرجل بسبب نظرة للنساء الأخريات اليه ، أكثر مما تتعلق به بسبب نظرتها اليه شخصيا . ومن ثم ما يلقاه الأمراء والضباط من نجاح لدى النساء والفتيات .

وهاهوالسير والترسكوت يقول فى قصته «ايفانهو» :

« لم يكن فى وسع من لاحظوا فى هذا البطل الشاب جراة مستهبنة ، ممزوجة بالمبالغة فى التعالى وعدم المبالاة بمشاعر الآخرين ، لم يكن فى وسعهم أن ينكروا ما فى طلعته من ملاحة مرجعها الى وضاحة ملامحه ، واستوائها الطبيعى، وعنايته بها، مع صراحة واستقامة فى الحديث والسلوك . وكثيرا ما يخال الناظرون هذه السمات آية على صراحة الرجولة ، مع انها فى الحقيقة راجعة الى عدم الاكتراث المتولد عن المجانة والاستهانة، والاعتماد على علو النسب ، أو ضخامة الثروة ، أو غير ذلك من المزايا العرضية التى لا صلة لها بالمزايا الشخصية » .

ولقد كانت النساء الجميلات فى بلاط لويس الرابع عشر فى شيخوخته متدلهات فى حب هذا الملك الخليع .

ومن الخطورة بمكان أن نسهل الأمل ونفتح له الأبواب قبل التأكد من وجود الاعجاب ، والا تولد الفتور بدلا من الحماسة والاقبال ، واستحال الحب ، أو لم يمكن الشفاء منه الا بالاعتصام بالكرامة وعزة النفس .

ولا تظنن ان التعاطف ممكن بغير الاعجاب ، فلا أحد يتعاطف مع الأبله أو الخائب ، ولا مع من يبذل ابتسامته لكل رائح وغاد . ومن ثم تلزم للمرء فى المجتمع قشرة من الدهاء والحصافة ، تدل على المكانة وسمو

السجايا . والشخص الذى يبذل اعجابه بسهولة لايسر أحدا بهذا الاعجاب ، ولا يزهو أحد بحبه .

* * *

ومتى بدأ التبلر ، شرع العاشق فى الاستمتاع بكل ناحية جمال جديدة يكتشفها فيمن يعشق .

ولكن ما هو الجمال ؟ انه قابلية جديدة لمنحك اللذة .

ولذات كل فرد مختلفة جدا ، وكثيرا ما تكون متضادة . وهذا يفسر خير تفسير لماذا يبدو ما هو جميل فى نظر فرد ما قبيحا فى نظر فرد آخر .

فلكى نكتشف طبيعة الجمال يجدر بنا أن نبحث عن طبيعة لذات كل فرد على حدة ، ففلان مثلا تلزم له امرأة مستعدة لتحمل بضع حركات طائشة ، وتمنيه بابتسامتها العذبة بألوان من البهجة ، وتلوح لخياله بفنون من اللذات البدنية ، وتتيح له أن يعرض ظرفه ومجونه وهو ضامن انه سيكون موضع الترحاب والاعجاب . ذلك ان هذا الشخص يفهم الحب على انه الحب الجسدى ، فى حين يرى آخر ان الحب هو العاطفة المتأججة ، لا الجسد الشهوان . ومن ثم لايتفق هذان الشخصان على معنى واحد للجمال .

وهكذا تتفاوت معانى الجمال بتفاوت اللذات لدى الأفراد المختلفين . والتبلر الذى يتشكل داخل رأس كل رجل على حدة لابد أن يصطبغ بلون لذات هذا الرجل خاصة .

وتبلر معشوقة رجل ما ، أو جمالها ، ليس شيئا آخر سوى مجموعة كافة الاشباعات لكافة الرغبات التى استطاع تكوينها تباعا فى صددها .

الفصل الرابع :

النظـــرة الأولـــــــى

النفس الخيالية تتسم بالرقة والحذر أو الارتياب ، مهما كانت هذه النفس بسيطة ســـــاذجة ، فالنفس الساذجة يمكن أن تكون حذرة مرتابة من غير أن تدرى، لأنها لقيت فى الحياة ألوانا كثيرة من خيبـــة الآمال !

فكل ما هو معروف بصفة رسمية ومنظور ومتوقع من صيغة تقديم الرجل الى المرأة يستثير خيالها ويدعوها للريبة والحذر ، ومن ثم يبعد ويصعب امكان التبلر. بيد ان الحب ينتصر ويقهر هذه العقبة فى حالة الهوى الرومانسى من النظرة الأولى .

وليس هناك ما هو أبسط من هذا ، فالدهشة التى تدعو المرأة الى التفكير فى شىء خارق للعادة هى نصف حركة المخ الضرورية للتبلر .

وسأذكر هنا على سبيل المثال بداية غرام سيرافين (من كتاب جيل بلاس . الجزء الثانى) . وفى هذه الفقرة يروى دون فيرناندو قصـــة هروبه عندما كان جنود محاكم التفتيش يطاردونه :

« بعد أن اجتزت عدة مسالك وازقة فى حالة اظلام مطبق ، والمطر ينهمر كالسيول الدافقة ، وصلت الى قرب بيت وجدت بابه مفتوحا ، فدخلت ، وبهرنى ما

فيه من ابهة وفخامة فى البداية . ثم لمحت فى احد جوانبه بابا لم يكن تام الاغلاق ، فواربته ورأيت صفا من الحجرات ، كانت الأخيرة من بينها هى المضاءة دون سواها . فماذا كنت حريا أن أصنع ؟ رحت أسائل نفسى ، ولم أستطع مقاومة ما استولى على من الفضول ، فتقدمت ، واجتزت الحجرات ، حتى وصلت الى الحجرة التى فيها الضوء ، وهو عبارة عن شمعة مشتعلة فوق نضد من الرخام ، فى فانوس من الفضة المذهبة ... ووقع نظرى على فراش كانت ستائره مفتوحة الى نصفها بسبب حرارة الجو .. وهناك رأيت شيئا استأثر بانتباهى كله . وكان هذا الشىء امرأة شابة ، غارقة فى النوم تماما برغم أصوات الرعد القاصف ... فاقتربت منها ... وأحسست انى اخذت بجمالها ... وفيما أنا منصرف الى الانتشاء بلذة تأملها ، اذا بها تفيق .

« ولك أن تتخيل ما شئت مدى دهشتها اذ رأت فى مخدعها ، فى جوف الليل ، رجلا ليس لها به سابق معرفة . فارتجفت حين رأتنى ، وأطلقت صرخة ... واجتهدت فى طمأنتها ، وجثوت باحدى ركبتى على الأرض ، وقلت لها :

ـ سيدتى ، لا تخشى شيئا !

« فنادت خادمتها ، فأقبلت فتاة منهن صغيرة ، وعندئذ واتتها الجرأة وسألتنى بأنفة من عساى اكون .. الخ .. الخ .. »

وهذه بطبيعة الحال نظرة أولى ليس من السهل نسيانها . وما أبعد الشبه بينها وبين ذلك المتبع فى

عاداتنا الخرقاء من مراسم التقديم الرسمى ، شبه العاطفى ، للشاب المرشح للزواج الى الفتاة ! ان هذا العهر الشرعى ليصدم الحياء والاحتشام !

واروى هنا ما جاء على قلم « شامفور » :

« لقد شهدت بعد ظهر اليوم ، ١٧ من فبراير عام ١٧٩٠ ، حفلة عائلية كما يسمونها ، وهى حفلة تضم مجموعة من الرجال المشهود لهم بالشرف والأمانة ، راحوا يصفقون متمنين الهناء للآنسة دى مارى ، وهى شابة حسناء ، خفيفة الروح ، عفيفة ، فاضلة بزمعون تزويجها من السيد ر . وهو شيخ عليل منفر عديم الأمانة أبله ، ولكنه غنى ، وهى اليوم تراه لثالث مرة لتوقع على العقد .

« ولئن كانت هناك سمة تدفع جيلا بالعار ، فهى مثل هذه الطقوس ، لسخافة مظاهر البهجة والحبور فيها ، مع أن هذا المجتمع نفسه يصب بكل القسوة المتزمتة احتقاره على أقل بادرة للخروج على سنة الحذر والحرص من جانب أى شابة عاشقة » .

والذى يعيب هذه المراسم والحفلات ، أنها بطبيعتها أمور يسودها التكلف ، كل ما يجرى فيها متوقع ومنتظر ومرتب سلفا ، ويجب أن يتصرف المرء فيها بطريقة ملائمة ، وهذا فى حد ذاته كاف كى يشل أو يجمد الخيال ، بحيث لايوقظه الا ما هو على العكس تماما من أهداف هذه المراسم والطقوس . ومن هنا ندرك السر السحرى لأى بادرة فكاهة أو مزاح . فالفتاة المسكينة الحديثة السن ، المكبلة بالحياء والاحتشام الى حد الارهاق ، لا تستطيع أثناء مراسم التقديم الرسمية لخطيبها أن تفكر فى أى شىء سوى ذلك الدور

الذى تؤديه ، والأنظار كلها مسلطة عليها . وهذا من شأنه قطعا أن يخنق كل خيال ممكن .

وانه لمما يناقض الحياء قطعا أن يضم الفتاة فراش واحد مع رجل لم تره الا مرتين ، بعد أن يتلو القسيس ثلاث كلمات باللغة اللاتينية ، واذا بها مطالبه بالاستسلام لهذا الغريب ، والتنازل عن كل أمل فى شاب آخر ظلت تعبده سنتين مثلا . وأحسبنى أتكلم لغة غير مفهومة فى مجتمعنا المكبل بالمراسم والطقوس . فالبابوية هى المصدر الخصب جدا للرذائل والشرور، وألوان التعاسة التى تعقب حفلات زواجنا حاليا (القرن التاسع عشر) . لأن هذه الطقوس والمراسم تجعل حرية الفتيات قبل الزواج مستحيلة ، كما تجعل الطلاق بعده مستحيلا ، عندما يدركن ويتحققن من أنهن كن ضحية التغرير ، وانهن سلبن بغير حق حرية الاختيار، عندما تولى عنهن ذووهن هذا الاختيار ، فلم يحسنوه . أما فى ألمانيا ، فالحال غير الحال تماما. فها هى أميرة ألمانية ، هى الدوقة دى ساجان، وقد تزوجت بكل يسر واعتبار للمرة الرابعة ، ودعت الى حفل زواجها أزواجها الثلاثة السابقين ، الذين تربطهم بها أحسن أواصر الصداقة !

ولست انكر أن هذا تطرف فى اباحة الطلاق وتسهيله، ولكن أى بأس فى طلاق واحد يعاقب به الزوج الطاغية ، ويكون عبرة لغيره وهم بالألوف . وأعجب ما فى الأمر ان روما هى أكثر بلاد أوربا فى نسبة الطلاق !

ان الحب للوهلة الأولى يصطفى سحنة تستثير فى المرأة شيئا من الاحترام ، مع الانجذاب والارتياح .. ولا بأس أيضا بشىء من العطف ...

والنفوس البالغة الرقة شديدة الحساسية للفضول وحب الاستطلاع والملاحقة ، ونلاحظ هذا على الخصوص لدى من انطفأت لديهم الجذوة المقدسة ، وهى مصدر العواطف الملتهبة . وهـــذه علامة من أخطر العلامات والاعراض ، لأن هؤلاء الباردو القلوب ، الملتهبو الحواس يطاردون السذج ويوقعونهم فى حبائلهم بكثرة الملاحقة .

ويلاحظ أيضا سهولة الوله الذى يتولد من النظرة الأولى لدى المراهقين والمراهقـات ، عنـدما يغادرون مقاعد الدراســـة ويدخلون المجتمع لأول مرة ، لأن حساسيتهم تكون على أشدها عندئذ ، وقابليتهم لتوقد العواطف المفاجىء لا حد لها ، واذا بهم فى خضم من الحبائل التى ينصبها من بردت حساسيتهم ، واتسعت خبرتهم . فغير غريب أن نرى هؤلاء السذج يترامون بطيش على الأشياء ، بدلا من انتظارها حتى تقبل نحوهم .

فقبل أن يصل اليهم الاحساس ــ الذى هو نتيجة لطبائع الأشياء ــ نجدهم يضفون على هذه الأشياء التى تقع عليها أنظارهم لأول وهلة تلك الفتنة الخيالية التى يجدون مددها ومعينها الخصب فى ذوات أنفسهم . حتى اذا ما اقتربوا من هذه الأشياء لم يتسن لهم أن يروها كما هى فى الواقع ، بل على نحو ما زوقوها وزينوها ، ويخالون ان استمتاعهم عندئذ صار من الأشياء ، مع انه صادر من أوهامهم الخاصة . ولكن الاحتكاك لايلبث ان يطلعهم على الحقيقة العارية من كل قناع ، فيحدث لهم احباط أو خيبة أمل ، واذا بالمحبوب لا يستجيب للمشاعر البريئة ولا يحسها ، فيتبدد الوهم ، ويتحطم التوله فى معظم الأحوال ، ويحل محله الغل والحقد الظالم ، نتيجة المبالغة الخيالية فى محاسن المحبوب الأول .

الفصل الخامس :

الحب الصاعق

يعبرون عن الحب الذى يصيب المرء دفعة واحدة ويستولى عليه فلا يملك من زمام نفسه بعد ذلك شيئا — يعبرون عنه بضربة الصاعقة ، أو الاصابة بصاعقة . وفى رأيى ان هذا التعبير سخيف ، وان كنت أعترف تماما بأن ما يشير اليه هذا التعبير أمر له وجود حقيقى، وان لم يكن شائع الحدوث .

وقد رأيت بعينى «ولهلمين» النبيلة الجميلة اللطيفة ، التى أيأست منها جميع الرجال المشهورين بالوسامة والوجاهة فى برلين ، لفرط ما كانت تزدرى عاطفة الحب ولا تعترف بها ، بل وتسخر كل السخرية من « هذه الحماقات والسخافات » وهى التى تتلألأ بمحاسن الشباب ، والذكاء ، والجمال ، وشتى ما يفتتن به الناس وما تزهو به النساء ، مع ثراء بغير حدود أتاح لها أن تنمى هذه المزايا حتى لكأن الطبيعة والحضارة والمدنية قد تآمرت جميعا لكى تجعل منها انموذجا نادرا للهناء الكامل الذى تتمتع به امرأة هى لذلك كله أهل.

وكانت سنها ثلاث وعشرون سنة ، ولها مدة طويلة فى البلاط ، استحقت خلالها كل تقدير واعجاب وثناء من أعلى المستويات . وهى مع هذا كله ذات فضيلة وعفة

ليس عليهما مأخذ ، مع تواضع واحتشام ، حتى لقد ينس اوسم الرجال من الحظوة بقلبها ، فاكتفوا بصداقتها.

وذات ليلة ذهبت الى حفل ساهر راقص فى قصر الأمير فردينان ، وهناك رقصت عشر دقائق لا أكثر مع ضابط شاب برتبة نقيب . وقد كتبت بعد ذلك عن هذا الحادث الى صديقة لها تقول :

« منذ تلك أللحظة صار هذا الشاب السيد المهيمن على قلبى وعلى . وقد تم هذا الى درجة ملأتنى بالفزع، ان كانت سعادتى برؤية هرمان قد تركت لى متسعا من الوقت للتفكير فى سائر الوجود . فقد كان تفكيرى كله منصبا على تسقط ما قد يدلنى على انه أولانى شيئا من الاهتمام !

« وعزائى الوحيد فى يومنا هذا عن أخطائى ونقائصى هو اعتقادى ان قوة عليا قد سحرتنى وسلبتنى عقلى . ولن أستطيع عن طريق الكلام أن أرسم صورة تقارب الحقيقة. والواقع لما يحدث لى من انقلاب فى كيانى كله لمجرد وقوع بصرى عليه ، ويحمر وجهى لمجرد تفكيرى فى سرعة وعنف انجذابى نحوه . فلو ان عبارته الأولى لى عندما كلمنى كانت سؤاله اياى : أتعبدينني ؟ لما كنت مستطيعة الا ان اجيبه بقولى : اجل . أعبدك !

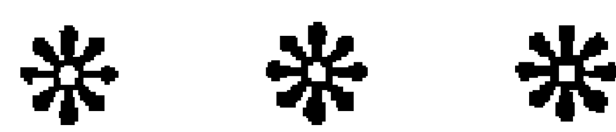
« نعم ! لم أكن أدرى من قبل ان عواقب وآثار عاطفة أو شعور ما يمكن أن تكون مفاجئة وغير متوقعة الى هذا الحد .. حتى لقد ظننت فى لحظة من اللحظات انى مسمومة !

« ومن سوء حظى انك وجميع الناس أيتها الصديقة العزيزة تعرفون اننى أحببت هرمان . والواقع انه بعد

ربع ساعة لا أكثر كان قد صار عزيزا على جدا ، بحيث انه لم يكن من الممكن أن يغدو أعز عندى مما هو عندئذ لأن اعزازى له كان لايدع زيادة لمستزيد . ولم أكن غافلة عن نقائصه ، بل كنت أدركها جميعا ، ولكنى غفرتها له ، شريطة أن يحبنى !

« وبعد أن رأقصت هرمان بقليل ، انصرف الملك من الحفل ، وكان هرمان من فصيلة الياوران التى صحبت جلالته ، فاضطر للانصراف . وباختفائه عن ناظرى ، اختفت كل الطبيعة بالنسبة لى . ويعجزنى أيتها الصديقة أن أصور لك فرط السأم الذى استولى على منذ تواريه . ولست أعرف احساسا يضارع ضيقى بالحفل والناس عندئذ ، اللهم الا رغبتى الشديدة فى أن أختلى بنفسى .

« وأخيرا استطعت الانصراف . وما أن أغلقت باب جناحى الخاص بالمفتاح ، حتى ساورتنى الرغبة فى مقاومة عاطفتى . واعتقدت برهة انى نجحت فى هذا . وآه ياعزيزتى ! لكم دفعت غاليا ثمن تلك الليلة ، والأيام التى تلتها ، كى أستطيب اعتقادى بقوة عفتى وصمودى ! » .



والسطور السابقة صورة حادثة واقعية كانت «خبر الساعة » فى حينها ، فبعد شهر أو شهرين تحولت «ولهلمين» المسكينة انموذجا للتعاسة البادية . وقد كان هذا الغرام الصاعق مصدر سلسلة طويلة من الأرزاء التى انتهت بوفاتها فى سن صغيرة جدا ، وبصورة مأسوية للغاية ، لأنها ماتت بفعل السم . ولا أحد يدرى أهى التى تناولته باختيارها ، أم كان معشوقها هو الذى دسه لها . فكل ما استطعنا أن نراه فى هذا النقيب

الشاب انه كان يجيد الرقص ، نير المرح ، بالغ الثقة بنفسه ، وفى سحنته طيبة واضحة ، وعرفنا انه كان كثير الاختلاط ببنات الهوى ، ثم انه لايكاد يعد من أبناء الطبقة النبيلة ، فضلا عن انه شديد الفقر ، ولا يتردد على البلاط ، بل هو موظف فى الحرس الملكى. ولذا نقول ان الحذر وسوء الظن واجبان ، مع شيء من الصلابة والشجاعة فى مواجهة أرزاء الحياة ومقاديرها. فالروح قد تسأم — وهى لا تدرى أو فى غفلة منها — المضى فى الحياة بدون حب . وقد يدفع المرأة الحذرة الحصيفة ما تراه من حال النساء الأخريات واستمتاعهن بالحب ، فتنساق عن سأم للاقتداء بهن ، وقد أضجرها التمسك بالكبرياء ، ويأخذ خيالها فى رسم نموذج للرجل المثالى الذى تتمناه ، حتى اذا ساقت اليها المقادير من يشبه هذا المثال المرتقب ، عرفه القلب على الفور بما يثيره فيه من خفقان ، فاذا بالسيدة الرصينة المتكبرة العزيزة المنال وقد أسلمت قيادها بلا معركة لسيد مصيرها الذى حلمت به منذ أمد طويل .

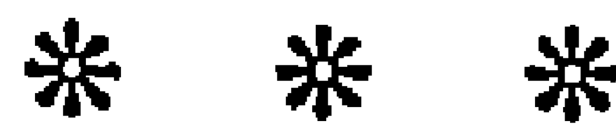
والنساء اللواتى من هذا الطراز ، واللواتى ينكبن بمثل هذا الحب الصاعق ، لا يمكن أن يسمح لهن كبرياؤهن بحب غير الحب العاطفى المندفع ، وما كانت حياتهن لتفسد هذا الفساد الوبيل لو انهن تنازلن عن كبريائهن وكن غزلات لعوبات بعض الشيء .

ولما كانت « الصاعقة » صادرة — كما قلنا — عن ملل خفى مما وسبته فى النفس دروس الدين ، وما تسميه الفضيلة والعفة ، وعن السأم الذى يسببه الاتزان والكبرياء والسلوك الكامل ، لذا أظن انه كثيرا ما تقع « المصعوقات » فى غرام من ليسوا جديرين بحبهن

المخلص الجارف ...

ومن حسن الحظ ان هـــــذه « الصواعق » نادرة الانقضاض . وسبب هده الندرة ان المراه التى لديها أية خبره سابقة بالعواطف الغرامية لا يمكن ان تصاب بهذه الصاعقه . واكثر الجميع حصانة من لهم خبرات عاثرة الحظ ، لأن الخيبة والاحبــــاط يورثان الحذر والتحرز وسوء الظن بالجنس الآخر ، ويجعلان المرأة غير مستعده ولا قادرة على هذا الانقلاب التام فى كينونتها .

والملاحظ انه ما من شيء يسهل اصابة هذه الصواعق للغريرات أو المتكبرات العفيفات . مثــل ألوان المديح والثناء التى تكال سلفا لشاب أو رجل ، قبل أن تقع عليه عين السيدة أو الفتاة ، على ألسنة النساء الأخريات، فينسجن بذلك له هالة باهرة تزيغ البصر ، وتمهـــــد لانقضاض الصاعقة . أليست الأذن تعشق قبل العين أحيانا ؟ ..



وهناك « صواعق » كاذبة . فمن النساء من يكاد يقتلهن الملل ، ولكنهن فى الوقت نفسه غير شديدات الحساسية ، ولا رقيقات القلب الى هذا الحد . ولذا يخيل الى الواحدة منهن أحيانا انها غارقة فى الحب الى أذنيها ، حبا أبديا صعقها فى طرفة عين ... ولــكن هذا الوهم الآسر لايدوم الا ليلة واحدة ، حتى اذا طلع الصباح ، لم يبق من هذا الحلم اللذيذ الا ما يتبقى من سائر الأحلام .. بل انها ــ ان كانت قد تورطت بلسانها أو فضحتها حركاتها أو عيناها ــ لا تدرى أين تخفى وجهها ، ولا كيف تتحاشى ذلك « الشيء التعس » الذى كانت بالأمس تحسبـــه معبودها الى آخر العمر !

وللحب الجسدى صواعقه أيضا . وقد رأينا بالأمس القريب أجمل نساء برلين واسهلهن منالا على الاطلاق ، وقد احمر وجهها فجأة وهى فى عربتها التى كنا فيها معها ، لان الملازم فندروف الوسيم مر من امام نافذتها، وغرقت فى بحر من أحلام اليقظة ، وظهر القلق على محياها الجميل . وفى المساء اعترفت لى وأنا معها فى المسرح انها أحست لرؤياه بنشوة جارفة ، ورغبة لا تقاوم ، ولم تعد تفكر الا فى فندورف ، الذى لم تكن قد تحدثت اليه قط من قبل ، ولا تدرى كيف تصل حبالها بحباله. بل انها قالت لى انها فكرت فى أن ترسل فتستدعيه الى مخدعها . وكانت على محياها البارع الجميل وهى تحدثنى جميع امارات العاطفة الحقيقية الجارفة .

واستمر هذا حالها فى اليوم التالى ، الى أن وجدت حيلة وتعرفت به . وبعد ثلاثة أيام كانت قد سئمته . وبعد شهر صارت تتعجب ماذا راقها فيه ؟ وصار مرآه بغيضا اليها ...

ولكن كان من الممكن بطبيعة الحال ألا ينتهى الأمر هذه النهاية ، لو ان ذلك الملازم الوسيم لم يتكشف عن التفاهة التى تكشف، عنها لهذه العاشقة له عن بعد.

الفصل السادس :

رحلة فى إقليم مجهول

سأدخل الآن بشجاعة الى مجال جديد ، هو فحص الوقائع التى أرانى مقتنعا بأنها لم تقع قط تحت ملاحظة من يعيشون فى باريس . أجل ان باريس مدينة ليس لها نظير فى رقيها ، بيد ان المرء لايرى فيهـا أشجار البرتقال التى تملأ رحاب الأرض ، كتلك التى يراها المرء فى سورينو المطلة على خليج نابولى بايطاليا الدافئة، فى موقع أجمل من موقع نابولى نفسها . وفى سورينو شاهد « ليزو فيسكونتى » الوقائع التالية :

عندما يكون المرء على موعد لرؤية المرأة التى يحبها عند حلول المساء ، يغدو انتظاره لهذا الهناء الغامر أمرا لا يطاق ، فى كل لحظة من لحظاته .

كالمحموم هو ، لا يكاد يتشاغل بشىء حتى يتركه ، ويتكرر هذا عشرين مرة ، بغير كبير جدوى . وتراه ينظر الى ساعته فى كل آونة ، حتى انه يغبط نفسه ان اكتشف انه قضى عشر دقائق متوالية من غير أن ينظر اليها !

وأخيرا تدق الساعة المأمولة ، ويجد نفسه واقفـا عند بابها ، متأهبا للطرق . ولـكن نفسه تسول له انه اروح لها الا يجدها فى البيت ، لتجمع كرب الانتظار فى

موجة عاتبة واحدة قبيل اللحظة الحاسمة .

ومثل هذا الشعور المتناقض هو الذى يجعل السذج من النـــاس ، والخليين من الحب ، يقولون ان الحب يقترن بالخرف والتناقض المنطقى .

وجلية الأمر ان الخيال فى هذه اللحظة يواجه عملية انسحاب عنيفة من مجال الأحلام والأمانى اللذيذة التى تسعد العاشق فى كل خطوة من خطواتها ، كمن يواجه الواقع القاسى الصلد .

وتدرك النفس القلقة الواجفـــــة تمام الادراك ان « المعركة » التى توشك أن تنشب متى وقع بصرك عليها من شأنها أن تجعل أقل أهمال ، وأقل شرود ذهن أو تخاذل جريمة عقوبتها الهزيمة النكراء التى تسمم لأمد طويل ما يعقب ذلك من أحلام اليقظة التى يعيش عليها الخيال العاشـــق ، وتصيب عزة النفس أو الـــكبرياء بطعنة نجلاء . وتظل تقول بعدها لنفسك : « لقد ارتج على . لقد خانتنى شجاعتى ! » .

ولـــكن ينبغى أن تعلم ان المرء لا تواتيه الشجاعة مع من يحبها ، الا اذا قل حبه لها عن تلك الذروة التى تطيش كل صواب ، وتشل كل بديهة .

وهكذا لا يبقى الا القليل من التركيز وحضور البديهة مما يمكن انتزاعه من مجال أحلام اليقظة التى تصـاحب مرحلة تبلر الحب لـــكى يخاطب العاشـــق المراة التى يحبها فى لقائهما الأول ، فتند عنه ــ ولاسيما فىالعبارات الأولى التى يفتتح بها الحديث ــ أقوال لها معنى ، أو ليس معناها ذا بال ، أو مناقض لحقيقة احساساته . أو ــ على العكس ــ فيه مبالغة مسرفة فى الاعراب عن

عواطفه ، بحيث يحس فى نفس اللحظة انه يقول كلاما سخيفا ليس من شأنه أن يكبر فى عين من يحبها . وفى الوقت نفسه لايمكنه أن يلوذ بالصمت ، لأن الصمت فى هذه الأحوال أثقل وأشد آحراجا ، فهو على الجملة شخص صارت نفسه شعاعا ، فلم يعد يملك لها زماما. وبذلك يجد العاشق نفسه يخوض فى ألف موضوع ، وموضوع ليست بينها رابطة معقولة ، ويبدى فيها آراء ليست فى الحقيقة آراءه ، وليست ما يريد أن يقول ، الا انه يقولها ملئا لفراغ أقسى وأهول من كل سخف فى القول.

ولذا فكرت بعد لقائى الأول معها أن أمتنع عن تكرار الزيارة ، حتى تكون خواطرى وأحلام يقظتى صلة أوثق تربطنى بها وتقربها منى .. لأن هذا اللقاء الأول باعد ما بينى وبينها . بل انى حين خلوت الى نفسى وراجعت ما كان منى فى مواجهتها ، خطر لى انى لا أحبها حقا .

وأنا أفهم ما هو معنى الجبن ، وماذا يدفع صاحبه اليه من ألوان الطيش . فالاغرار عديمو التجربة يهولهم جبنهم ، ويحاولون انتزاع أنفسهم من أهوال فزعهم ، فاذا بهم يلقون بأنفسهم الى النار القاء . والحق ان عدد الحماقات التى تفوهت بها منذ عامين كلما قابلت حبيبتى تجنبا للصمت عدد كاف كى يستولى على اليأس كلما فكرت فيه .

وهذا ما ينبغى أن نميز فى نظر النساء الفرق بين حب العاطفة أو التدله والهيام ، وبين حب التغزل أو الرغبة والاستحسان ، لأنه بعينه الفرق بين النفس الرقيقة حقا والنفس العادية .

ففى هذه اللحظات أو الأوقات الحاسمة تفوز النفس العادية وتخسر النفس الرقيقة الحساسة ، بسبب رقتها

وحساسيتها . ذلك ان النفس العادية تكتسب عندئذ الحرارة أو الهمة التى تفتقر اليها عادة . أما النفس المسكينة المفرطة الرقة والحساسية فتطيش لفرط رغبتها فى اخفاء براكينها وكبح جماحها ، فتشغل بذلك عن الحبيبة نفسها ، وتكون أبعد ما يمكن عن الاتزان أو هدوء الطبع الضرورى لحسن السمت ، وحضور البديهة، والتألق ، أو على الأقل الظهور بأفضل صورة لائقة للموقف . وهكذا تخسر كل شيء ، فى حين تتقدم النفس العادية خطوة ، أو خطوات .

فحينما يتعلق الأمر بمصالح الحب العاطفى الحاسمة، لا تستطيع النفس الرقيقة ذات الكبرياء أن تكون فصيحة طلقة ثابتة الجنان بين يدى من تحب . وخوف الفشل يزيد من اضطرابها ووجلها فتزداد ارتباكا على ارتباك ، وطيشا فوق طيشها ، ومن ثم تزيد غوصا فى أعماق الخجل والفشل والخزى .

أما النفس العادية أو السوقية فعلى العكس من ذلك تماما ، تحسن حسابات فرص النجاح بدقة بالغة ، ولا يكبلها الفزع من الفشل أو الهزيمة ، لأن الهدف ليس فريدا فى قيمته لديها ، حتى انه أغلى من الحياة نفسها كما هو الحال مع النفس الرقيقة المتيمة . ولذا تتصرف بأعصاب هادئة ، وتهزأ بالعواطف الجارفة . وهكذا تزهو النفس السوقية بأنها سوقية ، وبعناصر سوقيتها . فى حين تعجز النفس الرقيقة النبيلة الحساسة عن قول أبسط العبارات واحراز نجاح تراه النفس السوقية مضمونا يسيرا بلا عناء .

فهوان الحبيبة على السوقى أو العادى من الرجال هو سر نجاحه السهل . انها فريسته ، والعوبته ، ورياضة

صيده ! ولهوانها لا يؤلمه فشله فى الحصول عليها بالذات ألما عميقا ، وسرعان ما ينصرف الى سواها ، فالأمر كله تسلية وتلهية . أما الفشل لدى العاشق الحقيقى ، أو مجرد التفكير فيه فشيء مروع . وهذا ما يجعله ينهزم ويخسر موقفه أو معركته قبل أن يخوضها .

ان الرجل العادى ، او السوقى النفس ، طالب صيد مستعد سلفا أن ينتزع ما يريده عنوة ، أما الرجل الحساس الرقيق فلا يفكر فى استخدام العنف أو السطو ، بل كل ما يتمناه أن يتلقى من حبيبته ما تجود به علبه طواعية ، وهى أقرب الى التصدق على من تحب !

واذا كانت الحبيبة رقيقة النفس حقا ، فستدرك ان هذا العاشق مرتبك ، وليس على سجيته لأنه يحبها حبا ملك عليه آفاق نفسه ، وهذا وحده ينبغى أن يغنيه عن كل تصريح باللسان ، لأن لسان الحال أبلغ فى هذا من لسان المقال ... وعندئذ يندم العاشق على انه حاول عبثا أن يقسر نفسه قسرا على التحدث اليها عن الحب .

والواقع ان تفكير العاشق فى انه ينبغى أن يعبر بالكلمات عن مشاعره تفصيلا ، فى كل لحظة من لحظات حياته ، انما هو أثر من آثار الاكثار من مطالعة القصص والروايات ، ولو رجع المرء الى نفسه وحدها ، لما وجد به حاجة الى شيء من هذا . وبدلا من الحديث عن مشاعره التى خامرته منذ ربع ساعة ، وبدلا من محاولة رسم لوحة عامة مشوقة لليلته الماضية المؤرقة ، يكفيه أن يتحدث ببساطة عما يشعر به فى لحظته الراهنة .

ولكن لا ! ان العاشق بدلا من ذلك يجهد نفسه ، ويكلفها ما لا تطيق كى يظفر بنجاح أقل ! ولما كانت الذاكرة أقل حيوية من اللحظة الحاضرة عموما ، فهي

فى هذا الموقف بالذات ترتبك تماما ، ولا تمده الا بما هو باهت ، فاذا بالعاشق يتخبط ويقول ما لايناسب الموقف أو المقام .

واذا انفسح الوقت أمام العاشق المتيم كى تهدأ نفسه ، وساعدته الحبيبة بابتسامتها وحسن تفهمها على شيء من ذلك ، وجد نفسه بعد ساعة أقدر على التحدث والتصرف المناسبين ، ولكنه فى الوقت نفسه يرى ان « الأصول » تقضى عليه بالانصراف ، بعد أن طالت الجلسة بما فيه الكفاية ، أو فوجىء بزائر جديد أو زائرة ، فلا يبقى للقول أو للبقاء مكان .

وهذا كله قد يبدو نوعا من التطرف أو المبالغة المسرفة . ولكنى رأيت بعينى ما هو أكثر من هذا . ذلك ان أحد أصحابى كان عاشقا لامرأة الى حد العبادة، وشعرت هذه المرأة انه أساء اليها اساءة لم أتوصل الى معرفة كنهها ، فقررت حرمانه من رؤيتها أكثر من مرتين فى كل شهر . وكانت هذه الزيارات القليلة جداً ، بل النادرة ، سبب اصابته بنوبات من الكرب تقارب الجنون ، حتى ان صديقى هذا ــ واسمه سلفياتى ــ وجد عناء شديدا فى اخفاء مظاهرها، حتى لايفتضح أمره .

ومنذ بداية كل زيارة ، كان تفكيره فى انها ستنتهى ، يستولى على مشاعره ويشل صوابه ويقضى على كل لذة له باللقاء الذى طال تشوقه اليه . وكثيراً ما دفعه هذا الى أن يتكلم أكثر مما ينبغى أن يصغى لكلامها ، وكثيرا ما كان يقول نقيض ما يفكر فيه . ويشرع فى موضوعات ثم يضطر للكف عن الاسترسال فيها الى ختامها ، لأنه تبين سخافتها ونبوها عن المقام بعد قليل، حين القى باله ذات لحظة لما يتفوه به . . ويحاول تنظيم

أفكاره فتروغ منه ، ويبدو فى مظهر الفاتر غير المعتنى أو المحتفي باللقاء . وهكذا يتوارى الحب وراء ستار الدخان الذى يتصاعد من براكينه !

أما وهو بعيد عنها فخياله تهدهده أبدع وأشهى ألوان الحوار ، ويجد فيها ألوانا من النشوة والسعادة ليست لها حدود . وبذلك كان يجد على مدى أسبوعين فى نفسه الجرأة كل الجرأة على التحدث اليها بكل طلاقة وظرف ورشاقة . ولكن عشية اللقاء المشتهى تبدأ الحمى تساوره ، وتتضاعف وطأتها كلما اقتربت الساعة الموعودة .

وفى لحظة الدخول الى صالونها جمع أمره على التزام الصمت ، حتى لايتكرر منه ما سلف فى الزيارات السابقة من تخليط فى الكلام ، واضطراب فى التفكير لايكاد يصدقه عقل . وقرر أن يكتفى بانعام النظر اليها عسى أن يتمكن بذلك من تذكر سيماها وهيئتها وحسن محياها ورشاقة خطوتها . ولكنه ما أن صار فى حضرتها حتى استولى عليه شيء أشبه بما يستولى على المخمور من نشوة الشراب ! وغامت عيناه ، وزاغ بصره ، واختلطت عليه

المرئيات ، كأنما يحدق فى قرص الشمس فى وضح النهار ، فلا يستطيع أن يثبت فيها بصره . واذا به مدفوع ــ كالمخبول ــ الى الاتيان بأعمال غريبة ، فكأن له روحين : احداهما يأتى الأفعال ، والأخرى تستنكر هذه الأفعال !

وكانت الروح التى تستنكر ما يصنع ترده الى رشده برهة ، وتنعش ذهنه ، حتى ليكاد يهم بالانصراف فرارا من هذا التخبط ، متناسيا ان خروجه معناه حرمانه من رؤياها خمسة عشر يوما اخرى ! وهكذا تبددت تلك الدقائق القليلة التى أتيحت له بعد طول الصبر والتلهف .

وأخيرا لم يجد مندوحة من الانصراف ، وهو يقول لها بفتور : وداعا . وفكرة واحدة تلح عليه : انه من الأفضل له ألف مرة أن يكف عن رؤياها وزيارتها نهائيا ، فهذا خير من هذه المواقف الهزيلة التى يسيىء فيها الى نفسه فى عينيها .

وهذا شيء من قبيل ما حدث للدوق دى بوليكاسترو الذى كان يقطع كل ستة شهور مائة ميل لـكى يرى لمدة ربع ساعة معشوقته المعبودة التى يضيق الخناق عليها زوج غيور .. فكان ينظر اليها عن بعد ، وهى فى نافذتها . وانه اتصرف يدل على تخاذل الارادة أمام سطوة الحب . فلم يكن لـكل هذا العناء من ثمرة الا ابقاء جذوة الحب اليائس متقدة لا تخمد ، أو بعبارة أخرى تجديد « تبلر » هذا الحب .

وجملة القول ان الحياة بالنسبة لصديقى سلفياتى المسكين انقسمت الى فترات متقطعـة ، يفصـل فيما بينها تلك الزيارة القصيرة كل خمسة عشر يوما لمدام.. بحيث يسعده الحظ فترضى عنه وتبتسم له مرة ، فيؤرخ سعادته بهذا اليوم ، ويسجله فى ذاكرته ، فيقول مثلا : انه عرف السعادة فى ٢١ مايو ، أما فى ٢ يونيه (وهى الزيارة التالية) فظل طول الليل يطوف الطرقات ، ولايريد العودة الى بيته، حتىلايطلقالرصاصعلى رأسه!

وفى تلك الليلة بالذات عرفت ان الروائيين أسـاءوا تصوير لحظة الانتحار ، لأن سلفياتى صور لى رغبته فى الانتحار بأنه «يشعر بظمأ قاتل لا ترويه هذه الكأس!» كأس المنون ! ولم أحاول اثناءه عن عزمه ، بل ودعته فى صمت ، ولم يفرج كربته الا انفجاره بالنحيب !

الفصل السابع :

الحيـــاء

المرأة من نساء مدغشقر قد تترك ما تستره من أعضاء جسمها أشد الستر فى فرنسا معرضا للأنظار بلا تحرج، ولكنها تموت خزيا اذا ما تعرى ذراعها ! ومن ثم يتضح ان ثلاثة أرباع الحياء مسألة مستفادة بالتعليم أو التربية . ولعل الحياء هو القانون الاجتماعى الوحيد الذى لا يثمر الا السعادة .

وقد لاحظ من يراقبون حياة الطيور ان هذه المخلوقات تتوارى أو تستتر كى تشرب . وتفسير هذا انها تضطر عند الشرب الى غمس رأسها فى الماء ، وبذلك تضحى بغير واق أو عاجزة عن الدفاع عن نفسها فى هذه الآونة . واذا راجعنا رحلات كوك وأمثاله عرفنا ان اناث بعض الحيوانات البرية أو الضارية تتمنع فى نفس الوقت الذى تمنح فيه نفسها للذكور ..

ولست أعرف أساسا طبيعيا سوى هذا الظاهرة الحياء أو الاحتشام ، فالمصدر الصحيح لاستقاء المعلومات عن جنسنا البشرى هو الرجوع الى علم التشريح المقارن

والحب معجزة الحضارة. فنحن لا نجد لدى الشعوب البدائية أو المفرطة فى همجيتها الا ذلك النوع من الحب الجسدي الخالص .

واذ يقدم الحياء الى الحب كل ما يستطيعه الخيال من عون ، انما ينفخ فيه الحياة .

ان الحياء يعلم للفتيات الصغيرات من سن مبكرة جدا على يد أمهاتهن ، وبكل همة وتدقيق . وكأنهن بذلك يفرن ويحافظن على أجسادهن فى شخص بناتهن . وانما يدل ذلك — ان دل على شيء — على ان النساء يوجهن اهتمامهن وعنايتهن مقدما الى ما فيه سعادة عاشقيهن .

وليس أدعى لعذاب امرأة متحضرة ذات رقة وحياء من أن تكون قد سمحت لنفسها — فى حضور رجل — بتصرف تعتقد انه يبعث الحمرة الى خديها . وأعتقد ان اية امرأة من هذا النوع تفضل — ان كانت على شيء من الأنفة أو الكبرياء — أن تموت ألف مرة ، على أن يبدر منها شيء من هذا .

واذا ما بدرت من الرجل جرأة وان كانت هينة فى معاملته المرأة التى تحبه — كأن يظهر لها حبه بأسلوب جديد — كان ذلك سببا فى سرورها العظيم . أما اذا بدا عليه انه يلومها ، أو غير مسرور من تصرف لها ، اضطربت نفسها اضطرابا عظيما . ولذا فان للمرأة ذات المستوى الأرقى من المستوى العادى أو السوقى مصلحة ظاهرة فى أن يكون سلوكها شديد التحفظ . وهكذا لا تتكافأ الكفتان : فهى تجازف فى سبيل سرور وقتى أو لذة عارضة هى لذة التحرر فى ابداء عواطفها بالتعرض فيما بعد هذه اللحظة للذم القارص والشعور بالخجل والخزى . وأدهى ما فى هذا الشعور انه يسقط لاشعوريا على المحبوب ، فيقل اقبالها عليه واعزازها له .

أجل ان امسية تقضيها فى المرح والبهجة معه وهى

غافلة أو غير ملقية بالها الى ما يكون من عواقبها ، خليقة أن تؤدى عنها هذه العاشقة ثمنا فادحا . ومن المؤكد ان مراى هذا الحبيب سيغدو بعد ذلك بغيضا اليها عدة ايام ، لأنه صار مقترنا فى سريرتها بالأخطاء التى ارتكبتها معه .

فهل فى وسعنا بعد هذا أن نعجب من قوة هذه العادة العاتية التى من شأنها أن تجزى على أهون الانتهاكات لها بتلك العقوبة الصارمة ، التى هى الخزى الموجع الضارى ؟

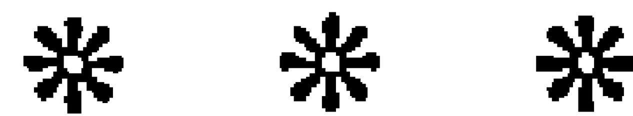
وقد تسأل عن جدوى الحياء ، فأقول انه أبو الحب. ولا سبيل لنا الى انكار هذه الأبوة وليس هناك ما هو أبسط من ميكانزم الحياء ، أى كيفية وأسلوب نشاطه، فالنفس تشغل بسببه بمشاعر الخزى والخجل بدلا من الانصراف الى الرغبة والشهوة ، وينجم عن ذلك أن تحرم النفس على ذاتها تلك الرغبات أو الشهوات التى يحظرها الحياء . وبديهى ان الرغبات والشهوات هى السبيل الى الاقدام على الأفعال .

فبديهى ان كل امرأة رقيقة ذات انفة وكبرياء (وهاتان الصفتان مترابطتان ترابط العلة بمعلولها أو السبب بنتيجته ، فيصعب جدا أن توجد احداهما بدون الأخرى) ينبغى أن تعود نفسها عادات الفتورالتى يسميها من يحبطهم أو يسيىء اليهم هذا الفتور تظاهرا بالاحتشام المفتعل ... فالمرأة الانجليزية الحسنة التربية على سبيل المثال ـ تعد اهانة جسيمة لشخصها وخدشا لحيائها أن يتفوه المرء أمامها باسم ملابس داخلية معينة . بل ان المرأة الانجليزية المهذبة تتحاشى كل التحاشى أن يراها الناس تغادر الصالون فى بيتها الريفى

عند ختام السهرة مع زوجها . وأدهى من هــذا انها تعتقد ان اظهارها الهيام أو التدله الا فى خلوة تامة مع زوجها مهانة لها وانتهاكا لحيائها . وقد صورت قصــة « كورين » هذه العادات السلوكية الانجليزية المسئمة تصويرا رائعا ، أثنت عليه كثيرا مدام دى ستايل .

ولعل هذا هو السبب فى ان الانجليز يرون من أصول الرقى والتهذيب اظهار الملل والضيق بسعادتهم البيتية. وهذا بالطبع افراط فى الــكبرياء .

ولــكنى اذ أنتقل مباشرة من بلايموث (الميناء الانجليزى) الى قادش أو اشبيلية فى اسبانيا ، أجــد حرارة الجو وحرارة العواطف بالتالى تدفعان النــــاس هناك الى الاسراف فى نسيان ضروريات الاحتشام ، وأرى الرجال والنساء يتبادلون بكثرة وعلى رءوس الأشهاد المداعبات الحسية المفرطة فى رقتها وخصوصيتها . ولــكن هــذا الافراط فى اغفال الحياء لا يحرك عواطفى الا بشىء من النفور . فليس هناك ما هو أشــد ايلاما من مثل تلك المشاهد الفاضحة .



وينبغى أن نتوقع عنــد احصــاء أو استقصاء قوة العادات التى تلقن للنساء بحجة الحياء ، أو بذريعــة منه ، أن نجد هذه القوة تتجاوز كل ما فى الحسبان . مع ان المرأة العامية أو السوقية تعتقد وهى تنبذ الحياء والاحتشام انها تجعل من نفسها بذلك السلوك المتحرر ندا للمرأة الراقية . ومرجع هذا اللبس الى ان سلطان الحياء من القوة بحيث يجعــل من الأســهل على المرأة الرقيقة أن تفضح مشاعرها تجاه حبيبها بالأفعال ، لا بالأقوال !

وقد روت لى بالأمس مساء امرأة هى اجمل وأغنى وأسهل نساء بولونيا نادرة عن شاب فرنسى عظيم المكانة مقيم هنا ــ وهو مثل سيىء لشباب أمته ــ احتال حتى اختبأ تحت فراشها . ويبدو انه أراد ألا يضيع هباء عددا لا يحصى من مغازلاته ومطارحاته الغرامية لها ، كان يطاردها بها منذ شهر . ولكن هذا الرجل العظيم لم يكن على شيء كثير من حضور البديهة ، فقد تريث الى أن صرفت هذه السيدة وصيفتها ودخلت فراشها ، ولكنه لم يطق صبرا الى أن يخلد أهل البيت للنوم ، وخرج من مكمنه متسرعا ، فجذبت حبل الجرس ، وهرع اليها خدمها فطردوه شر طردة وهم ينهالون عليه صفعا وركلا .

وعندئذ سألت هذه السيدة ا

ــ وهل كان الموقف يختلف لو انه تذرع بالصبر ساعة أو ساعتين ؟

فأجابتنى بكل صراحة :

ــ أوه ! ماكان أتعسنى عندئذ ، لأنه ماكان بمقدورى أن أهدده بالطرد ، أو استدعاء الخدم ، لأنه كان خليقا أن يهددنى قائلا : « ومن الذى يشك الآن فى اننى جئت الى مخدعك برضاك ، وطبقا لاتفاق وتواطؤ معك » فلا احير جوابا ، وأفضل الاستسلام على الفضيحة أو المجازفة بسمعتى !

وما أن خرجت من لدن هذه المرأة الحسناء حتى توجهت الى بيت أجدر النساء فى نظرى بالحب . وهى رائعة الجمال ، ولكن رقتها المفرطة تفوق جمالها الرائع فى قوة التأثير ، ان كان فى الامكان تصور شيء يمكن أن يفوق كل هذا الحسن ! ووجدتها وحدها ، فقصصت

عليها ما سمعته من فم السيدة السابقة . ودار بيننا نقاش حوله ، فأدهشنى أن تقول لى :

ـ اسمع ! لو كان هذا الرجل الذى سمح لنفسه بالاقدام على هذا العمل الجرىء محببا الى قلب هـذه المرأة من قبل ، ثق انهاكانت خليقة أن تصفح عنه وتحبه أكثر من ذى قبل !

وأعترف انى ظللت مذهولا من هذا الضوء الذى ألقى ـ على غير انتظار ـ على أعماق القلب البشرى . ولذت بالصمت برهة طويلة ، ثم قلت لها متسائلا :

ـ ولـكن ، هل يقدم الرجل الذى يحب حقا وصدقا على استخدام مثل هذا العنف والاقتحام ضد المرأة التى يحبها ؟

وظل تساؤلى بغير جواب حاسم .

* * *

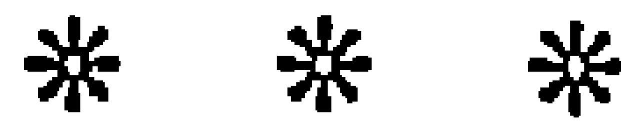
وفى لحظة من لحظات الصراحة الفلسفيـة قالت لى امرأة أعرفها :

ـ لو فرطت يوما ما فى حريتى ، فلابد أن الرجـل الذى أوثره بقلبى سيقدر بمزيد من القيمة والاعزاز ما أخصه به من المشاعر ، لما آنسه من شدة شحى وبخلى بهذه المشاعر .

وعندئذ أدركت انها لأجل هذا الحبيب ـ الذى لعلها لن تعثر عليه أو تلتقى به ـ تظهر كل هـــذا البرود تجاه الرجل الذى تتحدث اليه فى هذه اللحظة ... وهو انا!

وفى اعتقادى ان مثل هذا الحب يتسنى كثيرا فى أحلام اليقظة التى تعيش فيها النساء العفيفات الفاضـلات ، ومعهن فى هذا كل الحق .

ويبدو لى ان الاحجام عن الحب حينما يوهب المرء من السماء نفسا خلقت للحب ، معنـــاه حرمان الذات وحرمان الطرف الآخر من سعادة عظمى . وما أشــبه ذلك بشجره برتقال شهى تمتنع عن الأزهار ، اعتقادا منها ان هذا الازهار الذى خلقت له انما هو خطيئة ! ولا يغيبن عن بالك ان النفس التى خلقت للحب حقــا لايمكن أن تتذوق السعادة الا فى الحب ، لأنها تجد لذات الحياة عدا الحب فارغة فراغا لا يطاق . وكثيرا ما تخال انها تحب الفنون الجميلة ، ومناظر الطبيعة الرائعة ، بيد ان هذا كله لا ينفك يغريها بالحب ، ويحضها عليه ويجسمه لها ، فتوقن ان كل ما فى الـكون من الجمال انما يحدثها عن هذا الشىء الذى حرمته على نفسها !



والنقيصة الوحيدة التى أعيب عليها الحياء انه قد يقود الى تعود الـكذب . وتحاشى الكذب أو الخلو منه هو المزية الوحيدة التى ترجح بها كفة النساء السهلات المنال على النساء العفيفات ، ذلك انهن غير متصنعات ، ومنساقات مع مشاعر اللحظة . فالمرأة السهلة المنـــال تقول لك :

ــ ياعزيزى ، ما دمت تروقنى ، فأنا أصدقك القول انك تعجبنى بلا مواربة !

امرأة سهلة ، ولـكنها ــ على الأقل ــ صادقة !

الفصل الثامن :

كبرياء الأنثى

ظفر « نيلو ديلا بيترا » بيد السيدة « بيا » ، الوريثة الوحيدة لآل تولومى ، أثرى وانبل الأسر فى سيينا . وكان جمالها مثار اعجاب جميع أهالى توسكانيا ، مما أوقد فى قلب زوجها غيرة ملتهبة ، زاد من اتقادها ما ترامى اليه من علاقات لها مريبة ، الأمر الذى أفضى به الى اتخاذ خطة رهيبة مروعة . ومن العسير أن نقطع اليوم برأى فى مدى براءة زوجته . ولكن دانتى يصورها لنا آية فى البراءة .

وذهب بها زوجها الى مستنقعات سيينا ، وهى بقعة مشهورة بوخامة هوائها ووباله على الصحة . ولم يفض قط الى زوجته المسكينة بالسبب الذى حدا به الى نفيها فى مثل هذا الموضع الخطر . ولم يسمح له كبرياؤه بالتفوه لأحد بالشكوى منها أو باتهامها . وعاش معها وحيدين ، فى برج مهجور ، ذهبت بنفسى وشاهدت ، اطلاله الباقية الى اليوم على شاطىء البحر . ولم يحطم قط صمته المتعالى الطافح بالازدراء ، ولم يرد قط على أسئلة زوجته الشابة ، ولم يصغ قط الى توسلاتها . ولبث مقيما معها بكل فتور انتظارا للهواء المسموم الموبوء أن يفعل فيها فعله .

ولم يطل به الانتظـــار ، فسرعان ما فعلت أبخرة المستنقعات فعلها فأذبلت ملامحها التي يقال انها كانت أجمل ملامح فى زمانها على تلك الأرض . وماتت بعد أشهر معدودات . ويقول بعض الرواة ان « نيلو » استخدم الخنجر للتعجيل بنهايتها . وهى على كل حال قد ماتت وسط المستنقعات بصورة مروعة ، وظلت وفاتها الغامضة لغزا خافيا حتى على معاصريها . وعاش بعدها « نيلو ديلابيترا » ، ولكنه قضى بقية أيامه فى صمت لم يهتك حجابه قط .

وما من شيء أنبل ولا أرق من الأسلوب الذى وجهت به الشابة «بيا» القول الى دانتى . فقد تمنت أن تتذكرها الصديقات اللواتى غادرتهن وهى فى ميعة الصبا على الأرض ، وحين ذكرت له اسمها وحددت له من هو زوجها ، لم تشأ أن تسمح لنفسها بأتفه شكاة من قسوته التى لم يسمع بمثلها . وكل ما قالته عنه انه يعرف جيدا قصة موتها .

وهذا التمسك بالكبرياء ، والانتقام لها ليس معروفا الا فى أقاليم الميدى .

وقد اتفق لى أن أكون ـ بغير ارادة منى ـ شاهدا فى بيدمونت على واقعة قريبة الشبه بالحادث سالف الذكر ، ولكنى كنت حينئذ أجهل التفصيلات . فقد بعثونى مع خمسة وعشرين فارسا الى غابة على امتداد «لاسيسيا» كى أمنع التهريب . فلما وصلت فى المساء الى ذلك الموضع الموحش المقفر لمحت بين الأشجار أطلال حصن قديم ، فتوجهت اليه ، وكم كانت دهشتى عندما وجدته مأهولا .

ووجدت فيه أحد نبلاء الاقليم . وهو رجل عابس الوجه ،

يبلغ طوله ستة أقدام ، وتبلغ سنه الأربعين ، فمنحني حجرتين على مضض وهو مقطب الجبين . ورحت أعزف فيهما الموسيقى مع رقيب السرية . وبعد عدة أيام اكتشفنا ان ذلك الرجل يحتفظ هناك بامرأة ، رحنا نطلق عليها اسم « كامى » على سبيل الدعابة والمزاح، فقد كنا بعيدين عن تخمين الحقيقة المروعة . وقد ماتت هذه المرأة بعد ستة أسابيع . وقويت عندى الرغبة فى رؤيتها وهى فى تابوتها ، فرشوت راهبا كان يحرس جثتها فى الكنيسة . وقرابة منتصف الليل أدخلنى الكنيسة خلسة بحجة رشها بالماء المقدس ، فوجدت لها شكلا من أبدع الأشكال . حتى وهى فى قبضة الموت . وكان لها أنف أقنى لن أنسى قط ما فيه من شمم ونبل ورقة .

وقد غادرت ذلك المكان الفظيع الكئيب بعد خمس سنين ، لأن فصيلة من فرقتى صحبت الأمبراطور عند ذهابه كى يتوج ملكا على ايطاليا . وفى تلك الرحلة عرفت القصة بحذافيرها . وعلمت ان ذلك الزوج الغيور، وهو الكونت ... كان قد وجد ذات صباح ساعة انجليزية معلقة على فراش امرأته ، وهى ساعة يعرف انها مملوكة لشاب يقطن مدينة صغيرة مجاورة .

وفى ذلك اليوم نفسه اقتادها الى ذلك الحصن المهدم، وسط غابة «لاسيسياء» وعلى غرار «نيلو دىلابيترا » لم ينبس عن هذا الموضوع ببنت شفة ، ولم يخاطب لسانه لسانها قط . وعندماكانت تتوجه اليه بالرجاء والضراعة كان يشير لها فى برود صامت الى الساعة التى كان يحتفظ بها دائما فى جيبه . وقضى على هذه الوتيرة زهاء ثلاث سنوات معها بمفردهما . وأخيرا قضت نحبها

قبل الأوان وهي في ميعة الصبا . وحاول هذا الزوج أن يطعن بالسكين صاحب الساعة ، ولكنه أخطأه ، وانتقل الى «جنوا» ، ومن هناك أبحر على ظهرسفينة ، ولم يسمع أحد بعد ذلك أى نبأ عنه ، ووزعت ممتلكاته على ذوى قرابته الأدنين .

* * *

والمرء الذى يتلقى الاهانات ويتحملها بسماحة مزدرى من لدن النساء ذوات الكبرياء ، وذلك أمر مرجعه الى ما تعوده الناس فى الحياة العسكرية من سرعة الحركة ، مما يحدو بهذه النفوس المتكبرة الى اعتقاد الجبن فيمن لايبادرون فى سلوكهم معهن الى الاقتحام . ومن عادة المتغطرسات أن يستسلمن بسرور للرجال الذين يخاشنون سواهم من الرجال ولا يتحملون منهم شبهة اهانة . مما يحمل بعض الرجال على التحرش بمن حولهم استجلابا لاعجاب حبيباتهم أو تجنبا للخصام والملاحاة معهن .

وسأروى الآن قصة «مس كورنبل» ، الممثلة المشهورة فى لندن ، التى رأت ذات يوم الكولونيل الثرى الذى يحميها وينفق عليها يدخل عليها فجأة ، وكانت حينئذ مع عاشق لها شاب تستلطفه كثيرا ، فقالت للكولونيل وهى فى أشد حالات الاضطراب :

ـ هذا هو مستر فلان الذى حضر لمشاهدة المهر الذى أرغب فى بيعه .

فقال الشاب الوسيم الجرىء على الفور :

ـ بل أنا هنا لغرض مختلف عن ذلك تمام الاختلاف .

فكان ذلك دافعا على شدة التعلق به ، وسرعان ما أصبحت عشيقته المدلهة !

وهكذا تعجب النساء بالجرأة العادية ، أما العظمة الخارقة فلا يدركنها ، لأن العظيم كالنسر ، كلما ارتفع فى الجو قل حجمه فى نظر الواقفين على سطح الأرض ، وصعبت رؤيته ، وعوقب على عظمته بوحدة روحية وعاطفية قاسية .

ومن كبرياء الأنوثة يولد ما تسميه النساء « قلة اللياقة » ، وهذا شىء شبيه بما يسميه الملوك « العيب فى الذات الملكية » ، وهى جريمة أخطر ما فيها ان المرء ينزلق اليها من غير قصد ، ومن غير أن يدرى . فالعاشق الرقيق ، بل الشديد الرقة ، يمكن أن يتهم بانتهاك اللياقة اذا ما ترك العنان لعواطفه واستمتع بسعادة الحب على سجيته وكان وفق ما تمليه عليه طبيعته تماما مع من يحبها ، من غير أن يكون لبقا سريع البديهة خفيف الروح .

ويرجع الوقوع فى هذا المزلق الى ما تعوده الرجل من الصراحة التامة مع أصدقائه الرجال ، فيحسب ان الصراحة التامة مع الحسان مطاوبة أيضا ، فيصدقهن القول ، وقد يصارحهن بما فيهن من هنات ، بدلا من تملقهن بالثناء ، ويعاملهن بالعدل بدلا من معاملتهن بالتودد والملق !

فلا يغيبن عن بال الرجل الذى يريد أن يكون مقبولا لدى النساء انه يتعامل مع كائنات من نوع خاص ، استقر فى نفوسهن انهن اما ناقصات المواهب ، أو ان هذا ظن الناس بهن ، ومن ثم سلوكهن التعويضى عن هذا الشعور العميق بالدونية ، وشدة حساسيتهن للنقد ولو بالحق ، وطلبهن سماع ما يرضى غرورهن ، الذى هو الوجه الظاهر لشعورهن الباطن بالدونية .

ولكن أفلا ينبغى أن بعد كبرياء المرأة عنصرا من عناصر قوة العاطفة التى تلهمها للرجل الذى يحبها ؟ وأذكر فى هذا السياق حادثة معروفة ، فقد كانت للملكة زوجة فرانسوا الأول وصيفة على علاقة حب بشاب فى البلاط ، وكانوا يمازحونها بأنه لايحبها . وبعد فترة وجيزة أصيب هذا الشاب بمرض عضال ، ولما نقه منه صار أخرسا عاجزا عن النطق . وحضر الى البلاط على هذه الصورة . والتقت به الوصيفة فى احتفال البلاط . وفجأة نظرت اليه وقالت بكل قوتها :

ـ تكلم !

وتكلم الفتى ، وبرىء من علته تماما . ونظرت هى الى الجميع من حولها ، وكأنها تقول لهم مزهوة :

ـ أرأيتم كم يحبنى ، وما مبلغ سلطان حبى عليه ؟

الفصل التاسع :

شجاعة النساء

جاء فى رواية ايفانهو ، للسير والترسكوت هذه العبارة :

« أقول لك أيها الفارس المعبدى المزهو ببسالته ، انك لن تبلغ فى أضرى المعارك التى خضتها مبلغ الشجاعة التى تظهرها المرأة عندما يدعوها الى ذلك داعى الحب أو داعى الواجب ! » .

وأذكر اننى صادفت العبارة التالية فى كتاب من كتب التاريخ :

« طاش صواب جميع الرجال ، فكانت هذه اللحظة هى التى ظهر فيها تفوق النساء الحاسم عليهم ! »

فلدى النساء احتياطى من الشجاعة ليس له نظير لدى عشاقهن ، فهن شديدات الحساسية لما يخدش الكرامة وعزة النفس فيما يتعلق به ، ويجدن لذة كبرى فى امتحان شجاعتهن بنار المخاطر لانتزاع تاج العزيمة والهمة والاقدام من ذلك الرجل الذى يجرح عزة نفوسهن بما يزهو به من القوة وما يفرضه عليهن من الحماية . فاذا بهن يرتفعن الى مستويات تعلو على المخاوف التى تخور لها قلوب الرجال . وهذا يثبت بالدليل القاطع ان الخوف ليس فى الأشياء ، بل فى ذوات نفوسنا ! وانى، اجزم ان الرجال اذا كان لديهم مدد من الغيرة على دواعى

القلب أو دواعي الواجب يبـــدون من فنون الشجاعة والتضحية ما لايقل عن شجاعة النساء في تلك الأحايين.

وليس معنى هذا انى أرمى الى التقليل من شجاعة النساء. فقدشهدت في مناسبات كثيرة آيات لها ترفعهن فوق مستوى أشجع الرجال . ولكن لابد في هذه الحالة من أن يكن عاشقات ، وأن يكون الحبيب فى خطر. فالمرأة العاشـقة لا يكون لها احساس الا بمن تحب ، وهكذا تغدو أفدح الأخطار الشخصية المباشرة في نظرهن أشبه بوردة يقطفنها في حضرته ، أو حماية له .

ولست أنكر انني وجدت أيضا لدى النســـاء غير العاشقات اقداما بالغ الهدوء ، يثير أعظم الدهشة لأنه يدل على موت أعصـــابهن . ولـكنى أرجح انهن لسن شجاعات الى هـذا الحد الا لأنهن لم يجربن ما جربه الرجال من آلام الجراح في الحروب .

* * *

أما الشجاعة الأدبية أو المعنوية ، وهى أسمى بكثير من الشجاعة الأخرى ، أى المادية ، فحسب المرأة دليلا على تمتعها بها تلك الصلابة التى تبديها في مقاومة داعى الاستسلام للحب ، فتلك الشجاعة في نظرى أدعى ما يكون الى الاعجاب . وكل آية أخرى من آيات الشجاعة الممكنة لا تكاد تكون لها قيمة تذكر بالقياس الى شيء كهذا يناقض أشد المناقضة دواعي الطبيعـة ، وليس كالألم الذى سببه ألم في الدنيا . ولعلهن يجدن مددا لهذه الشجاعة القصوى فيما تعودنه من التضحية التى يفرضها الحياء عليهن منذ نعومة أظفارهن .

وأكبر سوء طالع للنساء ان دلائل هذه الشجاعة تظل دائما مجهولة من الناس ، ولا يمكن غالبا البوح بها أو

التعرف عليها ، لأنها عمل سلبى محض فى الظاهر .

وأسوأ ما فى هذه الشجاعة الأدبية انها كثيرا ما تكون على حساب سعادتهن .

ولعل أعظم ما يساند المرأة غالبا فى هذه الشجاعة ما يجدنه من ارضاء كبريائهن بما يبدينه من دفاع مجيد عن عفتهن ، وما يعتقدنه من ان الدافع الأساسى للعاشق الى الظفر بوصالهن انما هو ارضاء غروره . وهى فكرة تعسة . فالمحب الحقيقى ليس لديه فسحة من الوقت أو هدوء البال للتفكير فى غروره الشخصى .

وسأروى هنا شيئا خبرته بنفسى هذا اليوم . فقد مررت فى هذا الصباح (٣ من أغسطس) فى نحو الساعة التاسعة ، على صهوة جوادى أمام الحديقة الانجليزية الطراز التى يملكها المركيز زمبيرى على سفوح التلال التى تجلل قممها الأشجار العالية ، ومنها تقع العين على اجمل مناظر سهل «لمباردبا» الأخضر الناضر ، أجمل أقاليم الدنيا . وعند خميلة فيها أشجار الفار الجميلة المطلة على الطريق الذى اجتازه رأيت الكونت «دلفانتى» شارد الذهن ، كمن يحلم وهو يقظان .

وكنا قد قضينا السهرة معا لدى الكونتس «جيجى» حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . وبلغ من شروده انه لم يكد يرد على تحيتى . ومضيت فى طريقى ، وعبرت نهر رينو . ثم عدت من نفس الطريق بعد ثلاث ساعات على الأقل ، فوجدته لم يزل هناك ، مستندا الى جذع شجرة ، فى نفس الوضع الذى تركته فيه آنفا .

وما ان لمحنى حتى أقبل نحوى والدموع فى عينيه ، راجيا منى الا أخبر أحدا بما رأيته من شروده وجموده

تلك الساعات ، فتأثرت واقترحت عليه أن أتوقف عن مواصلة طريقى وأعود معه لقضاء بقية اليوم فى الريف. وبعد ساعتين من التبسط ، أفضى لى بكل شيء . فهو يعتقد انها لا تحبه. وليس هذا رأيى. فلا أحد يستطيع أن يقرأ شيئا على محيا الكونتس «جيجى» المرمرى التى قضينا عندها سهرة الأمس ، وكل ما هناك ان حمرة خفيفة مفاجئة لاتستطيع مغالبتها تظهر فجأة لتشى بتلك المشاعر التى تقاومها الكبرياء الأنثوية الطاغية أشد المقاومة . وعندئذ يحمر أيضا عنقها المرمرى وما يبدو للناظرين من كتفيها البديعتين ... وقد رأيت بعينى هذه الحمرة تكسوها من رأسها الى قدمها أمس على اثر عبارة معينة تفوه بها «دلفانتى» لم ترقها ، ذلك ان هذه المرأة المتعالية وجدته أقل جدارة بما مما تظن ! وذلك دليل على انها تفكر فيه كحبيب !

الفصل العاشر :

فى ارتفاع التكليف

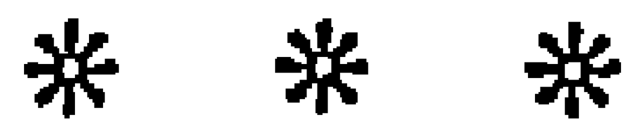
أعظم سعادة يمكن أن يمنحها المحب لعاشق ، هو أول ضغطة يد من كف المرأة التى يحبها . أما سعادة الرجل اللعوب أو المغازل فأشد التصاقا بالواقع ، وأقرب الى روح الدعابة والمزاح . ذلك ان الحب العاطفى كله جد ورهبة ، وارتفاع التكليف فيه ليس هو السعادة الكاملة، بل هو الخطوة الأخيرة للوصول الى السعادة .

ولكن كيف نصور السعادة ، ان لم تترك فى النفس ذكريات ؟

وأضرب على هذا مثلا ماحدث «لمورتيمر» عندما عاد من رحلة له طويلة فى أرجاء القارة الأوربية ، وكان يعبد «جينى» . وكان قد كتب اليها رسائل كثيرة ، ولكنها لم ترد على أية رسالة منها . وما أن وطئت قدماه لندن حتى امتطى صهوة جواده وذهب للقائها فى منزلها الريفى . ووجدها عند وصوله الى هناك تتنزه فى الحديقة، فجرى اليها واجف القلب ، ومدت اليه يدها واستقبلته مضطربة اضطرابا واضحا ، فأدرك أنها تحبه . وذرع معها أرجاء الحديقة المترامية ، واشتبك ذيل ثوبها الطويل فى نبات شائك . وسعد «مورتيمر» جدا . وظل سعيدا مدة من الزمن، ولكن «جينى» خانت حبه ، الأمر الذى

كاد يطيش صوابه . وقلت لمورتيمر انها لم تحبه قط ، فراح يقيم لى الدليل على انها أحبته من طريقة استقبالها اياه عند عودته من أوروبا ، بيد انه عجز تماما عن ذكر أى شىء من التفصيلات الدالة على صحة اعتقاده بحبها. وكل ما هناك انه كان يرتجف كلما وقعت عينه على نبات من فصيلة ذلك الشجر الشائك. فقد كان هذا فى الواقع هو الذكرى الوحيدة الواضحة التى احتفظ بها لأسعد لحظات حياته .

وقد أفضى لى الليلة رجل رزين يتسم بالصراحة ، وهو فارس سابق بقصة غرامياته ، وأوصانى الا أبوح بها ، ولكن من حقى أن أستخلص منها عبرتها . ومؤدى هذه العبرة ان لحظة رفع التكليف أشبه بتلك الأيام البديعة من شهر مايو ، حيث تتفتح أجمل الأزهار. ولكنها أيضا يمكن أن تكون لحظة قاضية على آمال المحب أن قوبل بالاعراض والصد .



وليس فى الامكان المبالغة فى اطراء السلوك الطبيعى ، أى السلوك على السجية ... فهذا السلوك هو الوحيد المسموح به فى علاقة جدية كالحب على طريقة فيرتر ، وهو حب لا يدرى المرء فيه الى أين هو ذاهب . وهذا السلوك الطبيعى هو فى الوقت نفسه أفضل خطة مدبرة أو تكتيك ، لأن العاشق فى هذه الحالة فعلا يتفوه — وهو لايدرى — بأقوال بديعة ساحرة ، وكأنه يتكلم لغة لايعرفها !

وتعسا للرجل المتكلف ، مهما ضؤلت درجة تكلفه ! فمثله — حتى حين يحب ، ولو كان أذكى الناس وأسرعهم بديهة — خليق أن يفقد ثلاثة أرباع مزاياه . ومتى انزلق

للحظة واحدة الى التكلف ، أحس الجفاف والجدب فى اللحظة التالية .

ان فن الحب بأكمله ينحصر ، فيما يبدو لى ، فى أن يقول المحب ما تمليه عليه نشوة اللحظة ، اى بعبارة أخرى ، فى الاصغاء لصوت روحه ، وينبغى ألا يذهب الظن الى ان هذا أمر سهل ، فالمرء الذى يحب حقا لا يجد القوة على الكلام حينما تقول له حبيبته كلمة تطير به على أجنحة السعادة .

وهكذا يفقد الأفعال التى كان من الممكن أن تولدها كلماته . وهذا الضرب من الخجل أو التهيب وهو خجل حاسم منحكم ، هو أكبر دليل على ان المرء عاشق حقيقى وليس هازلا صاحب مجون أو طالب مغازلة . وانه لخير للمرء أن يصمت من أن يقول كلاما فى غير موضعه الصحيح وان كان شديد الرقة . فما كان ملائما منذ عشر ثوان ، قد لا يكون ملائما الآن على الاطلاق .

وما من مرة خالفت فيها هذه القاعدة وقلت شيئا كان قد خطر ببالى منذ ثلاث دقائق ، ووجدته حينئذ جميلا ، الا وغضبت منى صاحبتى . وكنت أقول لنفسى بعدها انها على صواب . فالنساء الرقيقات الذكيات لايخشين شيئا فى الدنيا قدر ما يخشين زيف عواطف عاشقيهن . ولذا فأهون زيف أو انحراف عن الصدق التام فى أى تفصيل من التفصيلات يحرمهن على الفور من كل سعادة ، ويلقى فى نفوسهن الشك والحذر .

وحينما يتسبب الاستياء أو الغيرة فى القاء بعض الفتور ، ففى الوسع بصفة عامة الخوض فى بعض الموضوعات الملائمة لتولد هذه النشوة ، أو هذا السكر المواتى للحب . واذا حدث بعد العبارة أو العبارتين

الافتتاحيتين أن العاشق وفق الى قول ما توحى به اليه روحه بدقة وأمانة ، أحدث ذلك سرورا عميقا لدى المحبوبة .

وأفدح خطأ يتردى فيه معظم الرجال انهم يريدون بجدع الأنف التوصل بأى شكل الى قول عبارة معينة وجدوها فى خلوتهم مع أنفسهم جميلة دالة على الذكاء والفطنة ومحركة للعواطف ، بدلا من تخليص روحهم من شكليات العالم أو المجتمع ورسمياته ، الى أن يبلغوا درجة التخلص من التكلف ، ورفع الكلفة ، والصدور عن السجية والطبع بحيث يعبرون ببساطة عما يحسونه فى أعماقهم فى اللحظة الراهنة فعلا . ومن أوتوا تلك الشجاعة يجدون الجزاء الحسن فورا بالقربى الحقيقية من المحبوبة ، وزوال نفورها أو استيائها أو تحفظها .

وهذا الجزاء الأوفى الناجز والتلقائى للسرور الذى يدخله العاشق على نفس محبوبته هو الذى يرتفع بهذه العاطفة فوق سائر العواطف آمادا بعيدة .

واذا ما سادت التلقائية الطبيعية أو العقوبة بتمامها امتزجت سعادة العاشقين وصارت شيئا واحدا ، فكأنهما يصدران عن نفس واحدة فى أفكارهما وأفعالهما ، وهذه أعظم سعادة يمكن أن تتاح للبشر ، بسبب التعاطف وما اليه من قوانين تنظم طبيعتنا البشرية .

ولابد هنا من محاولة تحديد معنى هذه العفوية الطبيعية ، لأنها الشرط الضرورى للسعادة فى الحب .

ويطلق اسم العفوية الطبيعية على ما لا يحيد عن النهج المعتاد فى التصرف . وغنى عن القول انه لاينبغى الامتناع بالكلية عن الكذب على المحبوب فحسب ، بل يجب

أيضا الأمتناع عن تزويق الحقيقة المجردة وتشويه نقاء وصفاء هذه الحقيقة. ذلك ان المرء حين يشرع في التزويق والتجميل ينشغل باله وينصرف اهتمامه الى هـــذا التجميل ، وينقلب صانعا ، وذلك مباين لحال البساطة والعفوية ، ولا يتفق مع ما يلتمع في عينيه من احساس غلاب .

وعلى الفور تلحظ الحبيبة الفطنة هـــذا التباين ، ويبدو ذلك في فتورها الذي تحسه ، وقد تتجه بعد ذلك الى الفندرة والتكلف بدلا من الانسياق مع سجيتها. أو ليس ذلك مما يصعب حب المرأة الفطنه ، ويسهل حب المرأة ذات الذكاء الهابط أو المحدود ؟ فأمام مثل تلك المرأة يستطيع المرء أن يزيف ويزوق ويزخرف من غير أن يفتضح أمره ، وبغير تعقيب أو عقاب من قبلها. والناس يستسهلون الزيف والخداع، جريا على ماتعودوه في سائر أمور الحياة التي لا يجري فيها النـاس مع مقتضيات الطبع العفوي . وهكذا لا يعود الحب المزعوم حبا على الحقيقة ، بل يتردى الى درك الصفقات العادية في عالم التجارة . وكل الفرق ان الصفقات الأخرى يربح المرء منها مالا ، وهذه الصفقة يجني منهـا لذة ، أو ارضاء غرور ، أو مزيجا من هذين الأمرين معا .

ولـكن من العسير الا يحس المرء شيئا من الازدراء للمرأة التي يستطيع من غير أن تكشف خبيئته ، ويمكنه أن يمثل عليها مهزلته المرجلة بغير تعقيب منها أو عقاب. وهذا شيء مختلف تماما عن الحب الذي يتملك القلب ويملي عليه تصرفاته من غير أن يملك من أمر نفسه شيئا.

ونعود الى معنى ما هو طبيعي عفوي ، فنجد الطبيعي شيئا يختلف عن المعتاد أو العادي . فلو أخذنا اللفظين

بمعنى واحد ، لوجدنا ان المرء كلما زادت حساسيته صعب عليه أن يكون تحت سلطان العادة ، لأن العادة أقل سلطانا عليه من الطبع ، بحيث يجد نفسه فى حالة صراع عند كل موقف ! يفعل بمقتضى العادة ، أم بما تمليه عليه حساسيته الخاصة .

ومن ثم نجد جميع صفحات الكائن الفاتر أو البارد القلب متشابهة ، أو هى هى بعينها ، أمس واليوم وغدا . أما الشخص الحساس حقا فمتى تحرك قلبه لم يجد فى سريرته أثرا للعادة يهتدى به فى أفعاله وتصرفاته، وكيف يتسنى له أن يمضى فى طريق لاترشده اليه عواطفه المتقدة ؟

انه ليحس الوزن الهائل لكل كلمة يتفوه بها أمام محبوبته ، ويخيل اليه ان مصيره قد يتوقف على لفظ واحد مما يقوله . فكيف يتسنى له اذن ألا يتحرى احسان المقال ؟ أو على الأقل كيف يتسنى له ألا يحس أنه أحسن القول ؟ وبالتالى لن يكون بالبساطة أو السذاجة أو التلقائية التى نتحدث عنها ؟

الواقع انه لابد مما ليس منه بد ، فليحس ما يقوله، وليتحر اتقان القول وانتقاءه ولكن من غير حذلقة أو تكلف يفسد التلقائية . وبذلك يكون طبيعيا وتلقائيا « على قدر الامكان » . وذلك حسبه . وستكون حرارته ونبرة الصدق فى صوته هى الدليل على هذا الصدق غير المتكلف .

واحسب اننا بهذا وصلنا الى آخر درجة من درجات السلوك الطبيعى أو التلقائى الذى يمكن أن يدعيه لنفسه قلب العاشق الرقيق .

فالعاشق الصادق الأمين اذن لا يسعه الا أن يألوا

على نفسه الا يخالف الحقيقة ، وأن يكون الترجمان الأمين لمشاعره ، وأن يتمسك بهذا العهد مثلما يتمسك الغريق فى اللجة بالطوق العائم أو طوق النجاة .

والسلوك الطبيعى فى الحركات أصعب على العاشق المتيم من السلوك الطبيعى فى الأقوال والحديث ، مع ان العادات الحركية أشد تأصلا فى العضلات من عادات التعبير . فأنا مثلا كلما مددت ذراعى كى أتأبط ذراع حبيبتى ليونورا ، كنت أشعر اننى على وشك التعثر او السقوط وأنا أمشى بها ، فلا يسعنى الا التفكير طول الوقت فى خطواتى .

فكل ما يستطيعه المرء فى مثل هـذه الأحوال الا يكون متكلفا طواعية وباختياره. ويكفى فى هذا أن يكون مقتنعا بأن أسوأ الأخطاء التى يرتكبها هى التكلف فى الحركة وتعمد الرشاقة والخفة ، لأن الحبيبة عندئذ لن تفهمك ، ولن يتسمع قلبها قلبك ، وبذلك تجنى عليك حركاتك العصبية اللا ارادية ، وتخسر التجاوب بين صراحتك وصراحتها ، وبالتالى تخسر كل فرصة لك فى استهوائها او اغوائها . فالمراة الرصينة العفيفة لن تهب نفسها لمن تحب الا حينما تعجز عن المقاومة . وأقل شك لديها فى صدق واخلاص العاشق يجعلها تجفل وتتراجع ، وذلك يضيع على العاشق انتصاره الحاسم ، أو يؤجله كثيرا على الأقل .

الفصل الحادى عشر :

الإفضــــاء

ليس فى الحياة ما يستجلب العقاب على مقترف الخطا مثل الاقدام على افضاء العاشــق الجاد بمكنون عاطفته الى صديق حميم . ذلك ان هذا الصديق يعلم ــ ان كان ما أفضيت به اليه حقا ــ انك تنعم بملذات تفوق ملذاته ألوف المرات ، وتزرى بها أيما ازراء .

والأمر أسوأ من هذا بمراحل فيما يتعلق بمثل هــذا الافضاء بين امرأتين ، ذلك أن أقصى ما تطمح اليه حياة المرأة أن تلهم رجلا العشق أو الحب العاطفى الجارف . ثم ان هذه المفضية بما فى قلبها تثير غيرة صاحبتها لأنها فى عين عاشقها أجمل الجميلات .

ومن جهة أخرى نجد العاشق الذى أكل الحب عقله وأفقده اتزانه أحوج خلق الله الى من يستمين بعقــله المتزن كى يسترشد به ويعوضه عن تفكيره الذى أخل به الهوى الجارف ، وليحل له ألغاز الشكوك التى تستبد بروحه فى كل آن . فمن شأن هذه العاطفة الرهيبــة العاصفة أن يعتقد العاشق ان كل ما يتصوره خياله فهو واقع ملموس !

وقد تبحث المرأة العاشقة أو المعشوقة عن موضــع لسرها لدى صديقة فاذا بها صديقة خبيثة الطوية غادرة أو ضجرة بحياتها الخاوية ضيقة بها .

وقد يحدث أن أميرةعالية المقام، فىالخامسة والثلاثين من عمرها ، ضجرة سأمانة بحياتها ، ولكنهامع هذا تضج بالحيوية والرغبة فى النشاط والحركة ، فلا تجد امامها الا مجال حبك المكائد والمؤامرات وما الى ذلك . ولما كانت ساخطة لفتور عواطف حبيبها ، وهى فىالوقت نفسه لا امل لديها فى مولد حب جديد ملتهب ، ولا تدرى ماذا تصنع بطاقتها الحيوية التى تأكل اعصابها أكلا ، ولا تعرف لنفسها تسلية وملهاة سوى الافراط فى المزاج القاتم الذى يدفع للايذاء وفعل الشر ، ولذا فهى لا تستطيع ان تعثر لنفسها على مشغلة - أى على لذة وغاية للحياة - الا فى احباط حب حقيقى واتعاس أصحابه ، لا لشىء ألا لأنه حب وقح تجاسر على الاتجاه الى امرأة سواها من دونها شخصيا ، فى حين ان حبيبها يغط فىالنوم حين يرقد الىجانبها فىالفراش!

وهذه هى الحالة الوحيدة التى فيها تلهم الكراهية والحقد والسعادة لامرأة ، لأنها حالة تمدها بما يشغل فكرها وترضى غرورها أو تنقم له .

ومنذ اللحظات الأولى من الاقدام على هذه الخطة الخسيسة تمد شهوة النجاح تلك الخطة بهالة منالفتنة والسحر . ويصبح الشعور بالغيرة من الصديقة المعشوقة قناعا يبرر البغض لعاشقها . والا فكيف نعال الشعور بالكراهية لرجل لم تقع أنظارها عليه قط ؟ وهذه الكراهية هى الستار المشروع لتبرير هذه الدسائس ، لأنه عذر أهون على النفس من الاقرار بالدافع الحقيقى وهو الغيرة من الصديقة المحظوظة . فالغيرة معناها الاعتراف أولا وقبل كل شىء بتفوق هذه الصديقة عليها فى الجمال أو الرشاقة أو غير ذلك من

المحاسن . وفى الوقت نفسه تستخدم الأميرة الحاقدة اتباعها ومتملقيها لاضفاء السخرية والزراية على تلك الصديقة ، كى تقنع نفسها بأنها غير جديرة بذلك الحظ الأعمى !

وفى الوقت نفسه تحاول هذه المتآمرة الظهور بمظهر المشفقة على تلك الصديقة ، وانها لا تعمل الا على حمايتها من سوء المصير على يد ذلك الحبيب الذى ليس أهلا لها . وتزعم أيضا لنفسها ان هذه الصديقة عزيزة عليها جدا ، وهى لا تطيق أن تخسر صداقتها ، وما من شك ان انغماسها فى الحب سيجعل قلبها كله مشغولا بحبيبها ، فلا يبقى لها ركن مهما كان صغيرا فى هذا القلب . ثم ان الحب لايمكن أن يعيش بغير افضاء للصديقة ، وهى لا تطيق أن تسمع من صديقتها وصف سعادتها التى حرمت هى من مثلها !

والصداقات المخلصة الوحيدة بين النساء العاشقات هى التى أساسها اتفاقية ضمنية بين من يتكاشف أسرار عشقهن : « ساعدينى فى حبى اليوم ، أساعدك فى حبك غداً » . وهكذا تكون النساء يدا واحدة ، لأن الجميع فى هذه الحالة محظوظات ، وليست فيهن محرومة يأكل الحسد قلبها !

وبالطبع هناك حالات استثنائية خاصة ، هى الصداقة الحميمة بين ندرة من النساء بسبب نشأتهن منذ الطفولة معا ، وتعودهن طول حياتهن الافضاء بأسرارهن فيما بينهن ، بحيث تكون بينهن اخوة خالية من الغيرة . علما بأن الغيرة فيما بين الأخوات العاديات مألوفة كما هو مشاهد . ولكن هذه الحالات كما قلنا استثناء خارق للعادة ، ولا يقاس عليها .

وافضاءات العشق العاطفي الحقيقي الجاد الجارف لا تجد قبولا وترحيبا الا فيما بين الطلبة الذين يحبون الحب من حيث هو عاطفة فى حد ذاته ، قبل أن يحبوا الفتيات انفسهن ، وفيما بين الفتيات الحديثات السن اللواتى يأكلهن الفضول وحب الاستطلاع والتشوق الى ممارسة الحنان . ولعلهن مدفوعات أيضا بالفريزة . ففي اعتقادي شخصيا انه الى جوار التربية التى تبدأ لدى الفتاة فى الشهر الثامن أو العاشر من عمرهن توجد الفريزة أيضا . على شكل بذرة تنمو رويدا رويدا . وهذه الغريزة توحى للفتيات الصغيرات السن ان الحب هو موضوع حياتهن الأكبر ، وان الانشغال به ليس سابقا لأوانه فى اى وقت من الأوقات .

وكم شاهدنا من فتيات صغيرات فى الثالثة من عمرهن يتجهن الى حب التزين والفندرة فى أعين الفتيان .

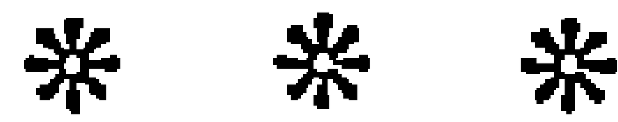
* * *

والملاحظ ان حب العشق الجارف يبرد بالافضاء ، أما حب الاستحسان والاستلطاف أو الرغبة فيتقد به .

وفضلا عما يحف بالافضاء من المخاطر ، ينبغى أن ندرك أيضا بالصعاب .. فالعشق الجارف صعب تصويره والتعبير عنه بالكلام ، لأن لغة المقال أغلظ من أن تصف تنويعاته الناعمة ، بل المفرطة النعومة . وهذه النعومة نفسها بشتبه امرها على الصديق الذى يرقب احوال صديقه ، لما فيها من الارتباك والتداخل والتناقض . بل ان العاشق نفسه يجد صعوبة فى استجلاء ما يشعر به ، بل يعصف به من مشاعر متقلبة متناقضة المظاهر . فالعاشق ابعد الناس عن الموضوعية والعدل ، فعاطفته تجنح به الى الشك والى الظلم لحبيبته ، والى عدم تأويل

ظروفها تأويلا صحيحا. وكلما تقلبت مشاعره وهواجسه اندفع يفضي بها الى صديقه الحميم افضاء مرتبكا متناقضا أيضا .

ولعل أحكم خطة يختطها العاشق أن يجعل نفسه موضع افضائه . وليجلس فى هدأة الليل ليسجل — ولو باسم مستعار — كل تفصيلات الحوار الذى دار فى ذلك اليوم أو ذلك المساء بينه وبين حبيبته . وليسجل على الورق ما أثار شكوكه واستغلق عليه وسبب له الاضطراب. ثم ليقرأ بعد ثمانية أيام ، مع ما كتبه فى الليالى التالية ، وسيجد ان الأمور تبدو له فى ضوء جديد ، وعندئذ يتمكن من أن ينصح لنفسه ويشير عليها بأحكم المشورة .



والمألوف فى مجتمعات الرجال ، حينما يتعدد الأصدقاء ، ألا تجرى فيما بينهم مكاشفات أو افضاءات تتعلق بالعشق الصادق الجارف — بل يخوضون باستمتاع فى افضاءات تتعلق بغرامياتهم الجسدية الخالصة ، ويتفاخر كل منهم بمغامراته فى هذا السبيل. أما المحب الصادق فلا يمكن أن يتخذ من حبه ألعوبة أو ملهاة أو موضوع زهو ، لأنه عبد لحبه ، وليس سيدا يتلهى بألعوبة ، وحبيبته ملكته أو معبودته ، وليست ملهاته .

العاشق الحقيقي مسكين . وأسير لا يملك زمام نفسه .

أما اللاهون بالغراميات فأهل قصف ومجون ، يملكون زمام أنفسهم ، والنساء فى حياتهم دمى وألاعيب .

الفصل الثاني عشر :

الغــــــيرة

ان المرء اذا أحب صار كل موضوع يتراءى لناظريه ، أو تستعيده ذاكرته ، يستثير فيه التفكير فى حبيبه ، ويغدو مناسبة لاضافة لون جــديد من الــكمال الى محاسنه ، ويتخذه ذريعة كى يزيد من حبه له ، وكأنه فى حاله هذا كالديدبان الساهر ، بيد انه لا يسهر ليرقب الأعداء ، بل ليتصيد زينة جديدة للحبيب ، أو ليذكى شعلة الحب فى صدره ، أو ليجعل نفسه أرق وأحب فى نظر هذا المحبوب .

وهكذا ينشط الخيال، وكل خطوة من خطوات هذا الخيال تزيد من مفاعم الحب ولذائذه . فلا غرابة أن يكون هذا الأسلوب فى الحياة شديد الهيمنة على النفس والفكر ، فلا يدع للمرء العاشق سبيلا الى الانشغال بأى شيء آخر .

ومنذ اللحظة التى تولد فيهــا الغيرة ، يظــل تربص العاشق كما هو ، ولــكن لغرض آخر ، فان كل زهرة يضيفها الى تاج محبوبته ــ التى يظن انها تحب سواه ــ لا تثير فيه متعة سماوية ، بل تكون بمثابة خنجر يغوص فى فؤاده ، وكأن صوتا يصيح به :

ــ هذا الحسن الفائق ، وهذه اللذة وهذه الفتنة انما هى نصيب منافسك !

وتلك لعمرى من حماقات الحب وأوهامه ، لان ما قد تراه من محاسنها وفتنتها ، قد لايكون له وجود فى نظر هذا المنافس له ! ومن شأن العاشق أن يبالغ خياله فى سعادة المنافس له ، ويتصور فى ذلك الباب أفانين تزيد ناره استعارا وعذابه اشتعالا .

ولعل خير دواء الغيرة فى هذه الحالة أن ترقب عن كثب ذلك المنافس ، وكثيرا ما يتضح لك انه يغالب النعاس فى الصالون الذى توجد به معبودتك التى يكفى أن ترى قبعة فى الشارع شبيهة بقبعتها عن بعد ، كى يأخذ قلبك فى الخفقان .

فان أردت أن توقظه وتجعله فى حالة صحو ، فعليك باظهار غيرتك منه ، وعندئذ يبدأ فى ادراك قيمة هذه المرأة التى تفضله عليك ، ويكون مدينا لك بالشروع فى حبها !..

وليست هناك خطة فى معاملة الخصم أو المنافس لك فى الحب أفضل من المزاح معه بلا اكتراث ، أوتخويفه ، وليس بين هذين النقيضين حد أوسط .

ان الغيرة أسوأ أنواع الشرور والأمراض . وقد نكون التلهى عنها بتعريض الحياة للمخاطر ، ذلك ان خواطرنا فى مواجهة الأخطار لا تكون سجينة نطاق ضيق ، هو التفكير فى سعادة المنافس المحظوظ ، ولا مسممة بتخيل ما لاسند له من الواقع . وقد يتصور المرء عندئذ وهو يقتل الفريسة لا يطاردها فى الصيد العنيف ، أنه يطارد ذلك المنافس ، ويظفر به ويسدد اليه الطعنة النجلاء ، أو الرصاصة القاضية !

وطبقا للقاعدة العسكرية التى تنهانا عن تزويد العدو بأسلحة أو قوات تحارب معه ، يجب عليك أن تخفى

حبك عن منافسك وأن تقول له متظاهرا بالـكبرياء أو الفرور :

ـ لست أدرى ياسيدى ماذا يدفع الناس الى ادعاء ان فلانة تحبنى ، أو على علاقة بى ، بل الأدهى من هذا أن يزعموا انى أحبها . وأنا مستعد ـ ان كانت لك رغبة فيها ـ أن أنزل لك عنها عن طيب خاطر ، لو لم يكن هذا التصرف يبدو سخيفا ومضحكا فى عيون الناس . ولـكن لك بعد ستة أشهر مثلا أن تأخذها كما تشاء . أما اليوم فالـكرامة ـ التى لا أدرى لماذا يزجون بها فى هذه الأمور ـ ترغمنى على أن أقول لك ، للأسـف الشديد ، اننى ما لم تتذرع بالصبر وتنتظر حلول دورك الطبيعى ، مضطر أن أبارزك !

وقد لايكون منافسك رجلا ملتهب العواطف متقد الانفعالات، ولعله ان يكون رجلا شديد الحرص والحذر، وعندئذ متى تأكد من عزمك وقرارك بادر بالتخلى لك عن المرأة المشار اليها ، بمجرد أن يجد لنفسـه ذريعة تصون كرامته . ولذا يجب أن تسوق اليه اعلانك ـ أو انذارك ـ الآنف بلهجة تفيض مرحا ، وأن تحوط هذا الاعلان بالسرية التامة ، بحيث لايسمعكما ثالث ، ولا تبوح به بعد ذلك لأحد .

وآلم ما فى مشاعر الغيرة الحادة الوجيعة ان الفرور أو الاعتزاز بالنفس لايمكن أن يساعد على احتمالها . أما بالطريقة التى حدثتك عنها فأمام الغرور الشخصى فسحة كبيرة يتنفس فيها . ففى وسعك فى هذه الحالة أن تعد نفسك شجاعا ، بعد أن كنت ترى نفسك ضئيلا أو موضع موازنة بينك وبين هذا المنافس فى ميـدان الحب .

أما ان كان العاشق الغيور ليس من الطراز الذى يحب أن يحمل الأمور على المحمل المأسوى البالغ الجد، فخير ما يصنعه أن يرحل ليقيم فى مكان يبعد عن محل اقامة محبوبته بمقدار اربعين أو خمسين ميلا ، وهناك يحوز راقصة أو فتاة من هذا النوع السهل ، لها من المفاتن الجسدية ما لعله حفز غرائزك أو استوقفها . ولكن احرص على أن يشيع عنك هذا الخبر ، كى يصل الى منافسك ، وعندئذ يعتقد انك سلوت هواك الحقيقى، ان كان محدود الذكاء عامى النفس .

* * *

وكثيرا ما تكون الخطة المثلى أن تنتظر من غير عبوس أن تبلى جده هذا المنافس لدى حبيبتك ، بما يقترفه من حماقات . فالمرأة الذكية لا تحب غالبا لأمد طويل رجلا عامى النفس ، اللهم الا اذا كان حبها هذا فى باكورة صباها ، ويتعلق قلبى مستحكم .

أما اذا حدثت الغيرة بعد المخالطة مع المحبوبة ، فخير ما تصنعه أن تتظاهر بعدم المبالاة ، لأن كثيرا من النساء يزددن تعلقا بالرجل الذى يفار منه الحبيب أن أساء اليهن أو أهانهن هذا الحبيب بسبب الغيرة . وبذلك ينقلب الهزل جدا .

وقد دخلت فى هذه التفصيلات الكثيرة لأن المرء فى أوقات الغيرة يطيش صوابه غالبا ، وعندئذ قد تنفعه النصائح التى كتبها القدماء . وأهم ما فيها جميعا اصطناع الهدوء ، والاقتداء بالفلاسفة فى الصبر وتهوين الأمور .

ولما كان لا سلطان لأحد عليك الا بانتزاع شىء منك ، أو اطماعك فى أمور تجعل عواطفك لها قيمة ، فانك متى

أوحيت الى نفسك عدم المبالاة ، تحطمت أسلحة خصومك أو سقطت من أيديهم .

وان لم يكن لديك أيها المتوجع من الغيرة عمل تشغل به نفسك ، وأردت التلهى بما يسرى عنك أو يعزيك ، طالع « عطيل » ، فتلك المظالفة تجعلك تشك فى أشد المظاهر اقناعا . وستقع عندئذ عيناك على عبارات من قبيل هذه الأبيات :

« تفاهات فى مثل خفة الهواء

« تبدو للغيور تأكيدات حاسمة قوية

« وكأنها أدلة مستمدة من الكتاب المقدس »

(عطيل ــ الفصل الثالث)

وقد جربت ان منظر البحر الجميل المترامى يبعث فى النفس العزاء والسلوان :

« أن الصباح الذى أشرق هادئا رائقا صافيا ساطعا كان له أثر جميل سار على منظر الجبل المترامى الذى كان يلوح من القلعة اذا مانظر المرء صوب البر ، والمحيط الهائل كان يجيش بألوف الأمواج الفضية ، مترامـيـا على مدى البصر من الناحية الأخرى ، فى جلال مهيب ، حتى آخر حـدود الأفق . وان القلب البشرى مهما اضطربت أحواله ليتعاطف مع هـذه المشاهـد الهادئة الجليلة الممتدة ، وتلهمه مهابتها المطمئنة أعمال الشرف والكرامة والفضيلة » .

(من كتاب عروس لامرمور)

وقد وجدت فى مذكرات سالفياتى بتاريخ ٢٠ يوليو عام ١٨١٨ الفقرة التالية :

« قضيت بالأمس ثلاث ساعات مع المرأة التى أحبها ،

ومع خصم أرادت أن توحى الى انه موضع حظوة ومعاملة حسنة . ولا شك فى انه كانت هناك لحظات مرارة وأنا أرى عينيها الجميلتين مركزتين عليه . ولما خرجت من عندها شعرت باحاسيس عنيفه من أشأم ما يمكن ، لأنها تكاد تقضى على كل أمل. ولكن ما أكثر ماجرى ببالى من الأفكار اليقظة الجديدة ! وماكان أشد نشاط تفكيرى واستدلالاتى ! وبرغم ما حظى به منافسى من سعادة ظاهرة ؛ تشبثت بحبى ورأيته يرتفع فوق كل هذه العوارض الظاهرية ، ورأيت سعادته الوقتية تتضاءل أمام حبى . وقلت فى نفسى :

ــ ان خديه ليكفهران جبنا أمام أتفه تضحياتى التى يمليها حبى على . بل اننى لشدة حبى مستعد أن ألعب لعبة الحظ أو القرعة ، فألتقط ــ مثلا ــ من قبعتى احدى ورقتين مطويتين متماثلتين ، فى احداهما « انها تحبنى » وفى الأخرى « سأنتحر فورا » ! فهل تراه يجسر على مثل هذا الرهان فى سبيل حبها ؟ ان قوة ثقتى بحبى لها تمنعنى من مقاطعتها ، وتحملنى على التذرع بالصبر ، ودوام زيارتها ، والاشتراك بكل لطف ودماثة فى الأحاديث التى تجرى فى صالونها ..

« ولو كان أحد حدثنى بشىء من هــذا منـذ عامين لسخرت منه سخرا شديدا » .

* * *

وقد طالعت فى رحلات لويس وكلارك عند منابع المسورى فى عام ١٨٠٦ ، فى صفحة ٢١٥ العبارات التالية :

« عشائر الريكارا فقراء ، ولكنهم طيبون وكرماء . وقد عشنا فترة طويلة فى ثلاث من قراهم . ونساؤهم أجمل من نساء سائر العشائر التى التقينا بها . وهن

أيضـ شديدات الميل الى عدم تعذيب عشاقهن. ووجدنا هناك دليلا جديدا على تلك الحقيقة القديمة القائلة انه يكفى أن يطوف المرء بالعالم كى يرى أن كل شىء متغير. فلدى هذه العشائر اساءة عظمى أن تمنح المراه وصالها لعاشقها بدون رضا وموافقة زوجها أو اخيها . الا ان الازواج والأخوة هناك يسرهم جدا أن يجدوا فرصة اسداء هـــذه المجاملات الهينة (!) جدا الى جيرانهم واصدقائهم .

« وكان بين أفراد حاشيتنا زنجى ، أثار فضولا عظيما لدى هؤلاء الناس الذين لم يسبق لهم أن رأوا بشرا بهذا اللون الفاحم . وسرعان ما أمسى أثيرا لدى الجنس اللطيف. وبدلا من اتقاد غيرة الأزواج، رايناهم مسرورين سعداء لحضوره الى بيوتهم للاجتـــمـــاع بالزوجات . واطرف ما فى الموضوع ان هذه الأكواخ المبنية من البوص يرى من بخارجها كل ما يدور فى داخلها ! » .

* * *

اما عن المرأة المشكوك فى وفائها فانها تفارقك لأنها شديدة الثقة بحبك لها . ذلك انك قتلت الخوف ، ولم يعد هناك محل لتولد شكوك الحب الصغيرة . وعليك فى هذه الحالة أن تثير قلقها من جهة حبك لها ، واياك على الخصوص من حماقة الشجار . فانك لطول المدة التى عشتها بقربها لابد قد اكتشفت من هى المرأة التى تغار منها أكثر من غيرها ، وتخاف من سطوة جمالها ، من بين نساء المدينة أو المجتمع . واذهب الى تلك المرأة بالذات ، وتودد اليها ، وطارحها الهوى ، وتغزل فى محاسنها . ولكن اياك أن تجعل هذا السلوك علنيا ، بل تعمد اخفاءه عنها ، واعتمد على أعين السوء وألسنة السوء أن تتولى نقل اخبارك الى صاحبتك . ولا تظن

أن هذا عسير عليك ، فان بعدك عن صاحبتك عدة أشهر يسهل عليك التودد الى غيرها ، وأفض الكثير من وقتك مع الخلان فى القصف واحتساء الشمبانيا .

وعليك ـ كى تحسن الحكم على حب صاحبتك ـ ان تتذكر الأمور الآتية :

١ ـ انه كلما دخل فى اساس الحب عنصر اللذة البدنية ، كان هذا الحب أشد تعرضا للنزعزع وعدم الثبات ، والخيانة . وينطبق هذا بصفة خاصة على العلاقات الغرامية التى أسرع الى تبلرها اندفاع حرارة الشباب الباكر ، فى سن السادسة عشرة .

٢ ـ ان الحب الذى يكون بين متحابين ، لا يظل دائما هو هو بعينه . فأنا أعرف ان ألفبيرى ـ مثلا ـ كان يحب سيدة انجليزية كبيرة المقام ، وهى تبادله الحب. ولكنها فى الوقت نفسه كانت تمارس الجنس مع خادمها! فالحب العاطفى له مراحله أو أوجهه المختلفة ، التى يكون فيها حب أحد الطرفين أشد من حب الطرف الآخر له، ثم قد تنقلب هذه الأوضاع فى مرحلة تالية ، وهكذا دواليك . وكثيرا ما يحدث أن يكون حب أحد الطرفين حب عاطفة جارفة ، فى حين يكون حب الطرف الآخر للطرف الأول ليس حب عاطفة ، بل حب إستحسان أو حب رغبة . والأغلب ان المرأة هى الأشد انغماسا فى حبها من الرجل واندفاعا فيه . وأيا كان نوع الحب الذى يشعر به أحد العاشقين ، فانه متى أحس الغيرة طالب الطرف الآخر بكل مقتضيات الحب العاطفى الجارف ، وصور له الغرور أو الكبرياء أن ما يحسه هو هذا الحب فعلا ، وصارت حاجاته عندئذ هى بعينها حاجات القلب الرقيق الحساس .

وينبغى أن نذكر هنا أن من حبه حب رغبة أو استحسان أو استلطاف ما من شيء يضايقه مثل حب الطرف الآخر له فى مقابل ذلك حبا عاطفيا جارفا ، لأنه يطلب اللهو ، ولا يطيق من الطرف الآخر أن يكون جادا فى حبه أعظم الجد ، بحيث يطالبه بالوفاء الأبدى .

وكثيرا ما يحدث أن يتودد رجل ذكى الفؤاد الى امرأة حسناء ، فيجعلها تفكر فى الحب وتهتم بهذه العاطفة وتتعطش اليها ، ويرق لها قلبها ويتفتح فى لهفة ، وتحسن استقبال ذلك الرجل وتأنس الى حديثه ، فيحسب أنها تحبه ، وتداعبه الآمال ، وهى فى الحقيقة لا تحبه ، بل تستحسن حديثه . واذا بها ذات يوم تلتقى بالرجل الذى يجعلها تحس ما أحس الرجل الأول وصفه لها من المشاعر !

ولست أعرف ما هى آثار غيرة الرجل على قلب المرأة التى يحبها . ولكنى أحسب أن العاشق المضجر الذى لا تستظرفه حبيبته لابد أن يلهم هذه الحبيبة بغيرته عليها التقزز والنفور ، الى حد البغض الشديد له ، ولا سيما اذا كان من يغار منه أظرف وأوسم منه .

وجدير بالذكر أن الغيرة يمكن أن تروق النساء ذوات الكبرياء ، من حيث أن الغيرة وسيلة جديدة لاثبات نفوذهن على الرجل ...

وكذلك يمكن أن تكون الغيرة أسلوبا جديدا للبرهنة على الحب ، الا أنها أيضا يمكن أن تصدم حياء المرأة المفرطة الرقة والحساسية .

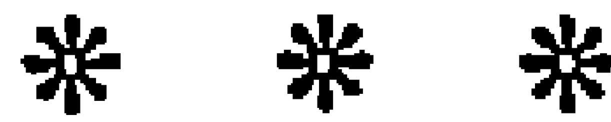
ولئن راقت الغيرة المرأة ، فلأنها دليل على شجاعة الغيور واقدامه وحرارة دمائه ، ويحسن بالمرأة فى هذه

الحالة ألا تقول « نعم » للرجل الذى يحبها ويغار عليها، كي تستبقى لديه صورتها مقدسة لا تنال . ذلك ان هذه الصورة تنزل من السماء الى الأرض ، متى قالت المرأة المعبودة نعم ، وتحولت الى لحم ودم كسائرالاناث.

وعلى المرأة الحصيفة أيضا الا تقر بالخيانة للحبيب الغيور ، مهما كانت القرائن ضدها ، حتى لا تفوت عليه مغالطة نفسه فى عفتها ، لأنها ان اعترفت بالخيانة المادية قتلت مكانتها فى نفسه ، وربما قتلته أيضا. فالعاشق كثيرا ما يعيش على الوهم !

وهناك قصة مشهورة تحكي عن المدموازيل دى سومرى، التى ضبطها عاشقها متلبسة بذات الفعل ، فاذا بها تنكر بكل اصرار . ولما ثار عاشقها وكذبها بناء على ما رأته عيناه ، صاحت به بكل ثبات :

ــ آه ! هأنذى أرى انك لم تعد تحبنى حقا ، لأنك تصدق ما تراه بعينيك أكثر مما تصدق ما أقوله لك .



أما عن الغيرة لدى النساء ، فهن متخوفات قليلات الثقة ، وفى الوقت نفسه يخاطرن أكثر مما نخاطر نحن بكثير ، وتضحياتهن فى سبيل الحب أكثر من تضحياتنا بكثير أيضا ، ووسائل التلهية والتسلية لديهن أقل مما لدينا ــ نحن الرجال ــ كما ان وسائلهن أقل منا للتحقق من أفعال وتصرفات عشاقهن .

وتشعر المرأة انها تحط من قدرها بغيرتها ، فتبدو وكأنها تجرى وراء الرجل ، وتظن انها صارت أضحوكة عاشقها ، وانه يسخر على الخصوص من أرق مشاعرها، فترى لزاما عليها أن تثأر لنفسها بالجنوح الى القسوة ،

بيد انها لا تستطيع ان تقتل غريمتها بطريقة مشروعة تضاهى المبارزة بين الرجال المتنافسين فى الحب .

فلابد اذن أن تكون الغيرة لدى النساء داء أو بلاء أفدح من الغيرة التى تصيب الرجال . فهى أقصى مايمكن أن يتحمله القلب البشرى من براكين الغضب العاجز ، ونيران احتقار الذات من غير أن يتحطم .

واحتقار الذات علىالخصوص من أهم أسباب الاقدام على الانتحار ، فالمنتحرة عادة تريد من وراء قتل نفسها تعويض ما أهدر من كرامتها أو شرفها .

ولست أعرف دواء لمثل هذا الداء العضال القاسى الا موت من تسبب فيه ، أو من يعانى منه . ويستطيع من يشاء أن يطلع على نموذج للغيرة الفرنسية فى قصة مدام دى لابوميراى ، فى كتاب « جاك القدرى » .

ويقول «لاروشفوكو» : « ان الانسان ليشعر بالخزى من الاعتراف بأنه غيور » .

والنساء المسكينات لا يجسرن حتى على الاعتراف بأنهن جربن هذا العذاب القاسى ، لأن هذا الاعتراف يجعلهن هزاة ويعرضهن للسخرية . وطبيعى ان مثل هذا البلاء لا يندمل جرحه تمام الاندمال أبدا .

ولو كان فى الامكان أن يتعرض العقل البارد لنيران الخيال بشىء ولو ضئيل من مظاهر النجاح ، لقلت للنساء التعسات المسكينات اللواتى تعذبهن الحيرة :

ـ هناك بون شاسع بين الخيانة لدى الرجال ولديكن . فالخيانة لديكن تعد فعلا مباشرا من بعض جوانبها ، ورمزا أو علامة من جانبها الآخر . ونتيجة لتربية الرجال العسكرية فى الكلية الحربية فهى ليست رمزا أو علامة

على شيء لدى الرجل . أما بفضل الحياء أو الاحتشام فى تربيتكن فالاحتشام أوضح علامة ممكنة وحاسمة على وفاء المرأة للرجل .. والعادات السيئة وحدها هى التى تجعل الخيانة ضرورية للرجل . وبسبب القدوة التى يقدمها التلاميذ الكبار للتلاميذ الصغار فى المدارس الثانوية وفى الكلية الحربية ، يرتبط فى أذهانهم مقدار رجولتهم بعدد نجاحاتهم فى الممارسة الجنسية ، فى حين تعمل تربيتكن فى الاتجاه المضاد تماما .

أما عن قيمة أى فعل من حيث هو رمز أو علامة ، فأضرب مثلا لذلك حركات الغضب ، كأن أقلب مائدة على قدم جار لى ، أو أن أصفعه على وجهه .

والفرق بين الخيانة عند الرجال وعند النساء فرق واقعى وحقيقى جدا . وآية ذلك ان المرأة التى تحب حبا جارفا يمكن أن تغفر الخيانة ، ولكن ذلك مستحيل على الرجل الذى يحب حبا عاطفيا حقيقيا .

وانه لمن علامات الفرق الكبير بين الحب العاطفى وحب الاستحسان أو الرغبة ، ان الخيانة تقتل الأول ، وتضاعف الآخر .

والنساء ذوات الكبرياء يخفين غيرتهن صونا لكبريائهن ، ويقضين أمسيات طويلة كئيبة موحشة صامتة مع الرجل الذى يحببنه ويخشين فقده ويشعرن انه يفضل عليهن سواهن . وهذا بلا شك من أشد ألوان العذاب . ويحتاج علاج هذا الشعور الأليم الى فطنة خاصة لدى الرجل كى يبدده باقباله وحرارة تودده .

الفصل الثالث عشر :

عـــــزة النفـــس

الاعتداد بالنفس ضرب من ضروب الـكبرياء ، يورث العناد ، بحيث لا أرضى ان يتفوق خصمى أو منافسى على ، واصر على أن أجعل هذا الخصم نفسه يشهد بتفوقى عليه ، بما اتركه فى نفسـه من الأثر . وهذا هو السبب فى ان هذا النوع من الشعور يدفع المرء فى كثير من الأحيان الى تجاوز المدى المعقول .

وهذا الاعتداد بالنفس داء يصاب به الرجال دون النساء ، وهو كثير الانتشار فى الدول الملكية ، ونادرا ما يشاهد فى الأقطار التى تسودها عادة تقدير الأفعال طبقا لدرجة نفعها ، كما هو الحال فى جمهورية كالولايات المتحدة مثلا .

ان كل رجل — ولا سيما الرجل الفرنسى — يكره جدا أن تظن به الغفلة ، وان كانت خفـة حالة الملـكية القديمة فى فرنسا قد حالت دون انتشار هذا النوع من التصرفات الا فى علاقات حب الاستلطاف أو الرغبة . والمشاهد ان هذا الشعور لا يستشرى الا فى الملـكيات التى يسودها المزاج القاتم بسبب حرارة الجو ، كما هو الحال فى البرتغال وبيدمونت .

وأهل الريف فى فرنسا يهزأون مما جرى عليه عرف

المجتمع الباريسي من احترام واعتبار للرجل الغزل الذى يطارد النساء بمطارحاته وغواياته ، ولذا تجد أهل الريف رابضين بالمرصاد طول عمرهم لمراقبة تصرفات الرجل الذى يقدم على أى تجاوز ، كأنهم ديدبانات تحرس القلعة من المهاجمين أو المتسللين .

وهذا هو السبب فى شدة حساسية أهل الريف من ناحية ما يمس الاعتداد بالنفس حتى انهم يصلون فى هذا الى تطرف يوجب السخرية . وهذا العامل يأتى بعد عامل الحسد فى جعل الاقامة بالمدن الصغيرة أمرا لا يطاق . وهذا ما يجب الرد به على كل من يغالى فى امتداح جمال المناظر فى احدى هذه المدن . فالمشاعر الكريمة والنبيلة مشلولة هناك بسبب أحط ثمرات المدنية ، الا وهو سوء الظن والتطفل على تصرفات الناس. وأدهى ما فى أحوال هؤلاء البورجوازيين انه لا حديث لهم الا عن فساد المدن الكبرى !

ومن المفارقات ان هذا السلوك البوليسى ، الذى يجعل كل شخص هناك يراقب الشخص الآخر ، بدافع الحسد ، ولا سيما فيما يتعلق بالحب ، ان الحب فى الأقاليم أقل مما يجب ، فى حين ان الانحلال الخلقى المتستر أكثر مما يجب . أما ايطاليا فأسعد حالا فى أقاليمها من فرنسا ، من هذه الناحية .

وهذا العناد لدى من تأخذه العزة بالكبرياء لا يمكن أن يكون له وجود فى حالة الحب العاطفى . ومن دأب المرأة أن تصاب بهذا الداء اذا ما استبدت بها الغيرة.

وهدف الغيرة افناء الموضوع الذى يخشاه الشخص الغيور . أما الرجل المعتد بنفسه فلا يريد قتل خصمه بمقدار ما يريد له أن يعيش ليكون شاهدا على انتصاره.

وهو فى الوقت نفسه لايريد أن يترك خصمه الميدان خالصا له ، لأن هذا الخصم ربماعزى نفسه فى سريرته بأنه لو استمر فى المنافسة لـكتب لهالانتصار ، بل يريد أن ينتهى الأمر بهزيمة الخصم هزيمة حاسمة .

وليست المرأة فى هذه الحالة هى الهدف الأساسى ، بل الهدف الأساسى هو الانتصار على الخصم فى حد ذاته .

وهذا ما يشاهد بوضوح فى حالة غراميات فتيـات الأوبرا أو الممثلات أو الراقصات عموما ، فمتى اختفت المنافسة من الميدان ، اختفى الحب الذى كانت الفتاة تظن انه ملك عليها زمامها بحيث توشك أن تلقى نفسها بسببه من النافذة .

فهذا النوع من الحب الذى يذكيه العناد والاعتداد بالنفس أو الكيمياء يمكن أن ينقضى أمره فى لحظة واحدة ... على عكس الحب العاطفى الحقيقى . اذ يكفى لذلك أن يعلن المنافس بخطوة لايمكن الرجوع فيها من جانبه انه انسحب من الميدان وكف عن المنافسة .. ومع هذا أتردد فى التسليم بتلك القاعدة . وتحضرنى حكاية فى هذا الشأن أسردها فيما يلى ، وأترك للقارىء الحكم عليها :

دونا ديانا شـابة فى الثالثة والعشرين من عمرها ، ابنة عائلة من أغنى عائلات اشبيلية البورجوازية وأكثرها كبرياء . ولاشك فى انها جميلة جمالا ملحوظا ، ويصفونها بالذكاء المفرط ، وبكبرياء أشد افراطا . وكانت تحب حبا عاطفيا جارفا — فى الظاهر على الأقل — ضابطا شابا لا ترضاه أسرتها . ثم رحل هذا الضابط الى أمريكا ، وتبادل العاشقان الرسائل بلا انقطاع .

وذات يوم كثر فيه الضيوف والزوار لدى والدة دونا ديانا ، أعلن شاب أحمق وفاة ذلك الضابط الوسيم ، فاتجهت جميع الأنظار الى دونا ديانا ، فلم تزد على أن قالت بهدوء :

ـ خسارة ! انه لم يزل فى مقتبل العمر !..

وكنا قد قرأنا فى تلك الجلسة مسرحية لكاتب قديم تنتهى نهاية مأسوية ، الا ان البطلة تتلقى بهدوء ظاهرى موت حبيبها . ورأيت بعينى الأم وقد اكفهر وجهها برغم كراهيتها للشاب ، وبرغم كبريائها . أما الأب فخرج كى يخفى علائم السرور التى ظهرت على وجهه . وكان الشخص الوحيد الذى واصل المحادثة بكل هدوء كأن شيئا لم يحدث هو دونا ديانا برغم كل الأنظار المركزة عليها ! ولم يظهر على تصرفاتها أى تغير .

وبعد سنتين من ذلك التاريخ تودد اليها شاب جميل جدا ولاحقها بالمغازلة ، ولنفس الأسباب ، وبدعوى عدم تكافؤ المقامات ، رفض أبواها ذلك الزواج بكل عنف ، اما هى فأعلنت انه سيتم ! وهكذا نشأ بين الفتاة وأبيها عناد الكبرياء .

وما كان من أبيها الا أن حرم على ذلك الشاب دخول بيته ، ومنع دونا ديانا من الذهاب الى الريف للنزهة ، بل ومنعها من الذهاب الى الكنيسة . وحرمت الفتاة باختصار من كل الوسائل الممكنة للالتقاء بحبيبها . ولكن هذا الشاب كان يتخفى ويتنكر كى يصل اليها ويلتقى بها سرا على فترات متباعدة .

وزادت دونا ديانا فى عنادها ، وتمادت فى اصرارها ، فرفضت أبدع وأثمن عروض الزواج من ذوى المقامات

العالية والثراء العريض والوسامة الظاهرة ، وكان من بينهم صاحب لقب نبيل رفيع القدر ومنصب مرموق فى بلاط فرديناند السابع .

وأخذت المدينـة كلها تلغط ببطولة هـذين الحبيبين الوفيين ،وتضرب بوفائهما المثل . وأخيرا اقترب موعد بلوغها سن الرشد ، فأفهمت أباها انها سوف تستغل عندئذ حقها فى التصرف فى أمر زواجها بنفسها .

واسقط فى يد الأسرة وخافت الفضيحة ، واضطرت للدخول فى مفاوضات الزواج . وما كاد نصف هـذه الترتيبات يتم فى جلسة اجتماع رسمى للأسرتين ، بعد ست سنوات من الوفاء النادر، حتىأعلن الشاب رفضه الزواج منها !

وبعد ربع ساعة كان قد اختفى ، أما هى فتعترت عنه تمام العزاء . فهلكانت تحبه علىسبيل العناد فحسب؟ أم انها فى الواقع متألمة ولـكن كبرياءها لا تسمح لهـا باظهار حزنها وتفجعها أمام أنظـار المجتمع الشـاخصة اليها ؟

* * *

وقد يقال ان الحب العاطفيكثيرا ما يعجز عنالوصول الى السعادة الا اذا تولد عنه عناد مصـــدره الاعتداد بالنفس ، وعندئذ يحصل فى الظاهر على كل ما يصبو اليه ، أو يخشى عند الفشل التصريح بالشكوى خوفا من السخرية أو الشماتة . واذا تولدت الغيرة فى هـذه الحالة ، أو تولد الشك ، ادى ذلك الى أوخم العواقب واقسى المشاعر .

ويذكرالناس الى اليوم ماحدث فى عام ١٨١٩ باحدى

المدن الـكبرى ، اذ أصيب رجل رقيق الحاشية دمث الأخلاق بذلك البلاء ، فأقدم على قتل حبيبته التى لم تكن تحبه الا نكاية فى أختها ، فصحبها ذات مساء فى نزهة بقارب صنعه بنفسه ، ولما وصـلا بالقارب الى عرض البحر حرك لولبا ، فانشق جوف القارب ، واختفى بهما فى أعماق اليم الى الأبد .

وقد رأيت رجلا فى الستين من عمره يندفع فى التدله بفتاة من أطيش ممثـلات المسرح الانجليزى ، هى « مس كورنل » ، ويغار عليها غيرة شديدة ، وينفق عليهـا بسفاهة لمجرد ارضاء غروره والتفوق على منافسه عليها .

ومثل هذا العناد أو حب النكاية بالمنافسين قبل كل شىء كثير الحدوث فى حب الميل أو الرغبة أو الاستلطاف . وهـذا هو المحك الذى يميز بين الحب العاطفى وحب الميل .

ومن القواعد المألوفة فى كتائب الجيش التى يوصون بها الضباط الجدد : اذا حلت الـكتيبة فى بلد وجاء نصيبك فى الاقامة بدار عائلة بها فتاتان ، وأردت أن تحبك احداهما بالذات ، فعليك بالتودد الى أختها !

ومن المعروف عن معظم النساء الأسبانيات الشابات، انك اذا أردت أن تحبك الواحدة منهن ، فعليك أن تعلن بسذاجة انك لا تشعر فى قلبك بأى ميل الى هذه السيدة التى تتردد على دارها ، فانها عندئذ تعد هذا تحديا تقابله بعناد واصرار على أن تحبها ! وقد أكد لى هـذا الجنرال لاسال الذى اختلط بالمجتمع الأسبانى كثيرا .

* * *

ويقال ان أزواجا كثيرين يضـمنون اسـتمرار حب

زوجاتهم لهم سنوات طويلة ، باثارة غيرتهن وعنادهن ، باتخاذ عشيقة صغيرة بعد الزواج بشهرين مثلا ، فان ذلك يجعل الزوجة مشغولة البال طول الوقت باسترداد هذا الزوج واستبقائه واسترضائه .

ويذكر الناس فى عهد لويس الخامس عشر أن سيدة عظيمة هى مدام دى شوازيل كانت تعبد زوجها لا لشىء الا لأنه كان يبدى اهتماما كبيرا بأختها الدوقة دى جرامون!

والعشيقة المهجورة يكفى أن تبدى للرجل تفضيلها لآخر عليه حتى تسلبه نعمة الراحة والنوم ، وتوقد فى قلبه جذوة حبها من جديد ، اعتداد بنفسه وخوفا من الهزيمة والشماتة .

والمشاهد أن شجاعة الايطالى تبدو فى اندفاع غضبه ، وشجاعة الألمانى أشبه بلهجة سكر ، وشجاعة الأسبانى تثير كبرياءه .

والاعتداد بالنفس هو السبب فى التنافس بين رجال الكتيبة الواحدة ، او بين الكتائب المختلفة فى الجيش الواحد . وهذا الشعور نفسه هو السر فى كثير جدا من الوان الشجاعة والتجلد فى أصعب المواقف واشدها خطورة .

ويكفى أن يفتح المرء اى سجل للرحلات التى قام بها المرتادون الأوائل بين متوحشى امريكا الشمالية ، كى نعرف ان المصير العادى لأسرى الحرب الذين يقعون فى أيدى هؤلاء المتوحشين ليس الشىء احياء فحسب ، بل يربطون قبل ذلك الى سارية بالقرب من محرقة مشتعلة، كى يستمر تعذيبهم ساعات طويلة بكل ما يتصوره العقل من فنون الوحشية ، وسط مظاهر القسوة الجهنمية

التى يتسابق فى ابدائها النساء والأطفال وهم فى أقصى حالات السرور . ولكن الكثيرين من هؤلاء الأسرى يبدون - بدافع الأنفة والاعتدادبالنفس - تجلدا عظيما، ويكبر عليهم أن يظهروا الضعف أو الخور أمام هذه الفظاعات التى لايتصورها عقل . فكأنما نشب صراع جبار بين الأسير الذى يعذبونه ، وبين جميع جلاديه ، أى الفريقين أصلب عودا ، وأقوى احتمالا ، واعتدادا بنفسه ...

وبسبب الأنفة والاعتداد بالنفس أيضا يرفض مقاتلون كثيرون استخدام التخدير قبل اجراء الجراحات الميدانية لهم ، ولا يمكن أن تصدر عنهم صرخة ، بل تأوه ، لأن ذلك يخدش شرفهم ، ويقلل من رجولتهم فى أنظار الناس .

الفصل الرابع عشر :

الشجار بسبب الحب

هناك نوعان من الشجار فى العلاقات الغرامية .

١ ـ شجار المحب .

٢ ـ شجار الفاتر أو النافر غير المحب .

والنوع الأول ناتج عن احتدام عاطفة الميل أو الرغبة فى الامتلاك والاستئثار .

أما النوع الآخر فناتج عن رغبة مضادة لهذا تماما ، هى الرغبة فى الابتعاد أو التخلص .

ولإذا كان أحد الطرفين المتحابين متفوقا تفوقا مسرفا فى المزايا التى لها كل التقدير لدى كليهما ، فعلى الطرف الأقل مزية أن يقتل حبه ، لأن خوف الازدراء خليق أن يتدخل ان عاجلا أو آجلا لوقف التبلر الذى ينضج علاقة الحب .

وما من شىء أبغض الى الأغمار والهمل من الناس مثل التفوق الفكرى ، فذلك هو مصدر الحقد فى عالمنا الحاضر . ولئن لم نشهد بين الطرفين معارك حامية ، فلأنهما لا يعيشان معا ، وليس بينهما كثير احتكاك . أما فى حالة العلاقة الغرامية فالطرفان يعيشان معا ، أو فى حالة قرب شديد ، ولا سبيل أمام الأرقى فكريا أن يستر تفوقه بالمجاملات الاجتماعية المألوفة . وطبيعى فى

هذه الحالة أن ينشب بين الطرفين شجار متصل ، مثاره الشعور بالنقص والثأر له ، فهو شجار ليس مبعثه الحب ، وان كان بسبب الحب ...

أما شجار المحب ، الذى مبعثه فرط الحب ، فهو ذلك الشجار الناتج عن الشك الخفيف ، والقلق. وذلك ما عبرت عنه امرأة من أشد النساء فطنة بقولها :

« هناك دائما ظل من الشك يسعى المحب لتهدئته ، مما يترتب عليه ذلك الظمأ الملازم للحب العاطفى الجارف ... ولما كان الخوف فى هذه الحالة لا يفارق المحب أبدا ، لذا كانت ملذات الحب لا يمكن أن تتعرض للسأم » .

والمشاهد أن هذا « الشك الخفيف » وهذا الخوف المخامر يبدوان لدى ذوى الطباع الرديئة أو التربية السيئة فى صورة شجار . فاذا كان الطرف الآخر ليس مفرط الحساسية ، ولا مدللا مرفها ، كان خليقا أن يجد فى هذا الشجار العنيف مزيدا من الحيوية ، وبالتالى مزيدا من الارضاء . وهو خليق أن يرى فى ثورات غضب المحب العنيف ما يثير شفقته عليه ، لما يشعر به من جيشان ، لأنه فى الواقع ضحية فوران عاطفته وجموحها.

ولذا كان اللورد « مورتيمر » لا يتحسر على شىء تحسره على الشمعدانات التى كانت تقذفه بها عشيقته فى ثورات غيرتها وشكها . ولئن اغتفرت الكبرياء هذه الثورات ، وغدرتها ، فهى اذن خليقة أن تشن حربا ضروسا على الملل ، والملل كما هو معروف عدو السعادة والسعداء اللدود .

ولنطالع معا هذه الفقرات من كتاب سان سيمون :

«بعد نزوات كثيرة وقتية استقر قلب الدوقة دى بيرى،

وأغرمت تماما بالشاب « ريون » ، الابن الأصغر لبيت آيدى ، وهو ابن أخت مدام دى بيرى. ولم يكن ذا قامة فارعة أو شكل وسيم أو قريحة متقدة . بل كان فتى بدينا ، قصيرا ، متكور الخدين (أشدق) شاحبا ، تكثر فى صدغيه النتوءات التى تشبه الدمامل. وهو ذو أسنان جميلة ، ولم يكن يخطر بباله أن يلهم امرأة عاطفة لم تلبث أن صارت هوى جامحا ،استمر بلا توقف ، وان لم يمنع النزوات الجانبية. وهو فقير فوق هذا كله ، ومن أقارب وأبناء الاقليم الذى أتت منه ماشطة الدوقة دى بيرى. وقد أستقدمته قريبته الماشطة ، وهو يومئذ ملازم فى كتيبة للفرسان، عسى أن يشق لنفسه مستقبلا. وما أن وصل حتى افتتنت به الدوقة وصار سيد اللكسمبور .

« وكان هذا الشاب حفيد أخت المسيو دى لوزان الذى كان يضحك فى سره من هذه العلاقة ، ويرى كأنه ولد من جديد فى هذا الشاب الذى جدد عهد مغامراته وصار يوجهه ويصدر اليه التعليمات . وكان ريون دمثا مهذبا بطبعه شديد الاحترام لخال أمه ، ولذا كان يصغى جيدا لهذه النصائح ، بيد انه لم يلبث أن شعر بقوة سحره وسلطانه على هذه الأميرة النزقة ، فحرص على أن يكون محبوبا من الجميع ، لطيفا معهم ، أما الدوقة نفسها فحرص على أن يعاملها بدلال شديد ، على نحو ما كان خال أمه يعامل فى شبابه الأميرة أخت الملك أسوأ معاملة . وسرعان ما أغرقته فى أفخر الدانتلات ، والملابس ، والحلى . وكان يحلو له أن يثير غيرة الأميرة، ويطيل الغياب عنها ، وأن يبدو غيورا عليها أحيانا الى

حد الغضب والنقمــة ، بل انه كثيرا ما كان يبكيها . وهكذا استطاع شيئا فشيئا أن يجعلها لا تقدم على أى شيء الا بعد استئذانه ، حتى أبسط الأشياء وأتفهها ، وأحيانا ما كانت تتم تأهبها الطويل المعقد للذهاب الى الأوبرا ، واذا به يرغمها على البقاء فى قصر اللكسمبور. وفى أحيان أخرى كان يرغمها على الذهاب الى الأوبرا ، أو على اسداء المعروف الى سيدات تمقتهن ، أو تحس الغيرة منهن . بل انها لم تعد حرة فى تسريحة شعرها ، فكثيرا ما كان يرغمها على تغييرها ، أو تبديل ثيابها . ويمارس ذلك كله بصورة علنية فى بعض الأحيان. وكثيرا أيضا ما أرغمها على ايذاء أشخاص يروقونها ويتصنع الغيرة منهم .

« وبلغ من تمكن هــذه السيطرة انها تعودت فى كل مساء أن تأخــذ منه التعليمات فيما يتعلق بتسريحة شعرها وبرنامج الغد . ولــكنه كان فى الغد يغير رأيه فى كل شيء . وتبكى الأميرة كثيرا . وصارت تحرص على مداومة الاتصال به بواســطة خدم مؤتمنين ، لأن مسكنه كان عند مشارف القصر . ويغدو الرســـل ويروحون مرارا بينها وبينه طول الوقت الذى تستغرقه عملية زينتها وارتداء ملابسها ، كى تعرف بالتحديد أى الشرائط تضع فى شعرها ، وأى الملابس ترتدى ، وأى أنواع الحلى تتزين بها . والغالب أن يجعلهـا تلبس ما لاتريد اطلاقا أن تلبسه . فاذا ما تجاسرت على مخالفته فى أقل شيء من هذه الأشياء عاملها كما لو كانت خادمة ، فتسح الدموع من عينيها عدة أيام .

« ومن عجب أن يصل الأمر بالأميرة الفخيمة العالية

المقام الى هذا الحد من الاذلال . فهى محبة للظهور فى الحفلات بأبهى زينة ، ولاظهار غطرستها وكبريائها أمام الكافة فى اسراف لايعرف الاعتدال ، واذا بها تتناول طعامها سرا معه ومع أشخاص لا مكانة لهم ، وهى التى لم يجرؤ على الجلوس معها الى المائدة الا الأمراء الذين يجرى فى عروقهم الدم الملكى . والأدهى من هذا أن الجزويتى ريجليه الذى عرفته طفلة ، وتولى تثقيفها . كان يحضرهذه الوجبات السرية منغير أن يشعر بالخزى من ذلك ، ومن غير أن تشعر الأميرة بالحرج . وكانت مدام دى موشى أمينة سر كل هذه التصرفات السرية الغريبة . كانت تتولى مع ريون اختيار المدعوين للطعام، وتحديد الأيام . وكان ذلك كله يجرى علنا فى قصر اللكسمبور ، حيث كان الجميع يتجهون لقضاء حوائجهم الى ريون ، الذى كان يحرص على أرضاء الجميع ، وعلى الظفر باحترام كامل لا يسمح ببعضه للأميرة ربة القصر، بل كان يتعمد أمام الكافة أن يرد عليها باجابات جافة تجعل الحاضرين يخفضون أبصارهم الى الأرض، وتجعل وجه الأميرة يحمر بشدة » .

ولكن ريون بهذه المعاملة كان دواء السأم الذى يخيم على حياة الدوقة المتكبرة المدللة . ومثل هؤلاء النساء يحببن أن يعاملهن عشاقهن بازدراء ، ولا يحببنهم الا قساة جبارين .

الفصل الخامس عشر :

عـــلاج الحـب

الواقع ان علاج الحب يكاد يكون مستحيلا . اذ يجب لتحقق ذلك لا الخطر الذى يسترعى انتباه المرء الى العناية بالمحافظة على ذاته فحسب ، بل يجب أيضا أن يتوفر ما هو أصعب من ذلك ، وهو استمرار الخطر الذى يحتاج تجنبه الى مهارة واعمال فكر ، كى ينفسح الوقت لتولد عادة التفكير فى المحافظـــة على الذات والاهتمام بها ، من قبيل الوقوع بين أيدى الأعداء أو قبائل المتوحشين (كما حدث لمسيو كوشليه حينما غرق وانتشله المغــاربة) . أما المخاطر التى يمكن للمرء أن يروض نفسه على تعودها ، كالزوابع أو البرد القارص، فسرعان ما يستنيم لها الشخص ، ثم يتجه تفكيره الى من يحب ، وقد كسته الذكرى مزيدا من الفتنة .

بل ان مخاطر القتال أحيانا ما تذكر المقاتلَ بحبيبته وتزيده تعلقا بها . وفى شعر عنترة الفارس العربى الأسود شواهد كثيرة من هذا القبيل .

وقد قلنــا آنفــا ، فى أكثر من موضع ، وكررناه بلا انقطاع ، أن حب الرجل الشديد التعلق بمن يحب ينبض بمزيد من القوة ، حتى ليرتجف بدنه لكل ما تصوره له المخيلة ، وكأنما كل شىء فى الطبيعة يحدثه عن حبيبته

بلسان فصيح . ومثل هذا الاستمتاع الخيالى شـديد السطوة ، بحيث يخبو الى جانبه كل خاطر آخر .

فعلى الصديق الذى ينشد شفاء هذا المريض بالحب ان يكون منحازا الى المرأة التى يحبها هـذا المريض . والمشاهد ان جميع الأصـدقاء الذين ينقصهم الفطنة يفعلون نقيض هذا ، ويظهرون بمظهر العذال أو الخصوم ... فطبيعى ألا يعيرهم المحب الولهان أذنا مصغية .

فينبغى ألا يغيب عن بال الصديق المداوى للعاشق انه لو خير هذا العاشق بين ابتلاع أسـخف المعتقـدات وتصديق أشد الأوهام بهتانا وبطلانا وبين التخلى عن كل ما يربطه بالحياة ، لما تردد فى ابتلاع تلك الأباطيل ، ما دامت تمجد محبوبته ، وهو مستعد أن ينفى عنها جميع الرذائل المنسوبة اليها وجميـع الخيانات الفظيعة التى رميت بها ، ولو كلفه ذلك حياته . فمن شـأن الحب العاطفى الجارف أن يغفر كل شىء ، وينسى كل اساءة بمضى فترة وجيزة من الزمن .

أما ذوو الطباع الرزينة العاقلة فيحتاجون الى انقضاء عدة شهورعلى اشتعال الحب فى قلوبهم كى تبردعاطفتهم، ويروا عيوب الحبيبة أو رذائلها . وهؤلاء يجدى معهم العلاج والنصح والتبصير .

فيجدر بالصديق الحصيف الذى يريد شفاء صديقة مما به من الحب العاثر أن يتجنب ذمها ، بل يحسن به ــ على العكس ــ أن يحدثه باستمرار، وبصورة مباشرة وملحة ، عن حبيبته ، وعن محاسنها ومفاتنها . وفى الوقت نفسه يدس فى ثنايا هذا الاطراء بعض الوقائع الصغيرة عن رذائلها ، ويترك هذه البذور تنمو على مهل.

أما الرحلات التى يقوم بها العاشق بمفرده فتأتي بنتيجة عكسية ، فما أكثر المذكرات التى كتبها عشاق التمسوا فى الأسفار خالين بأنفسهم سلوان الحب ، فجاءت هذه المذكرات حافلة طول الوقت بالدموع والذكريات المثيرة للأحزان ، والمؤججة للمشاعر. وليس من شيء يذكرالعاشق بحبيبته مثل المفارقات. فالاختلاط فى باريس بالحسان البارعات الجمال، الفاتنات الساحرات الحديث فى صالوناتها المتألقة من شأنه أن يذكر العاشق دائما بحبيبته التى فارقها فى الريف ، فيتصل بكاؤه عليها وحنينه اليها . وهذا هو « سلفياتى » يقول :

ـ أن أبهى حسان باريس المشهورات بالجمال والسحر واللطف كن يزدن من تعلقى بحبيبتى المسكينة التى تركتها وحيدة حزينة فى بيتها المنزوى فى رومانيا . وهكذا كنت أرقب باستمرار الساعة الكبيرة فى الصالون الباريسى الفخم ، وأتخيلها وهى خارجة للسير على قدميها فى ذلك الوقت ، تحت المطر المنهمر ، لزيارة احدى صديقاتها . وهكذا كان كل ما ألتمس فى قربة نسيانها يذكرنى بها ، على سبيل المفارقة ، وأنا منغمس فى هذا المجتمع الثرى الباهر الخلاب ، بل ان هذه البيئة المناقضة لبيئتها كانت أقوى تذكرة لى من ارتياد المواطن التى كنت ألقاها فيها .

وهكذا يتضح انه لكى تكون الغيبة عن الحبيبة مجدية ، ينبغى أن يكون الصديق المعالج هناك أيضا باستمرار، كى يشاركه خواطره عن حبه ، ويكررها عليه باستمرار ، حتى يجعلها مملة له بقدر الامكان بفرط طولها وكثرة اعاداتها ، بحيث تغدو هذه الأحاديث فى النهاية مطروقة مبتذلة لا طرافة فيها ولا جدة .

ولئن كان من العسير نسيان امراة وجد الرجل بقربها السعادة ، فما ذلك الا لان الخيال لا يمل تصـــويرها وتجميلها أمام عينى المحب .

ولا أتحدث هنا عن الـكبرياء ، فهى علاج عنيف قاس وناجع ، ولـكنه ليس فى مقدور ذوى القلوب الرقيقة والنفوس المرهفة .

والمشاهد الأولى من روميو وجولييت لشكسبير تقدم لوحة رائعة ، فما أبعد حال الرجل الذى يقول لنفسه فى أسى وهم :

ــ لقد اقسمت ألا تحب !

عن حال ذلك الآخر الذى يهتف وهو فى قمة السعادة :

ــ والآن ، لتضع الأحزان ما شـاءت ، ولتأت كما تشاء !

* * *

وانظر الى قول « لامرمور » :

ــ ستخبو عاطفتها كما يخبو المصباح الذى لا تجد شعلته وقودا تتغذى به ؟

ان الصـديق المعالج للعاشق ينبغى أن يحذر اثارة الأسباب أو التعليلات السيئة ، من قبيـل الـكلام عن « الجحود » ، ففى ذلك اثارة لعملية التبلر ، واتاحة فرصة لانتصارها . ذلك انه لا وجود فى علاقة الحب لما يسمى «الجحود» ، لأن اللذة الفعلية ثمن كاف وأكثر من كاف لأعظم التضحيات وأبرزها . ولست أجد اساءة فى هذه العلاقة سوى الافتقار الى الصراحة . أما ماعدا هذا فلا يعد تقصيرا ولا ذنبا ، وكل تهمة به فهى تهمة جائرة لا أساس لها .

وكلما هاجم الصديق المعالج للعاشق ذلك الحب مواجهة ، رد عليه العاشق بقوله :

— ان حبى ، مهما بلغ من غضب حبيبتى واعراضها، يرتفع بى عن مستوى التاجر وأسلوب التجارة أو المقايضة . وما أشبه الحب بمن يحصل على ورقة من أوراق النصيب الذى ليس فيه الا جائزة واحدة ضخمة ، تتجاوز ألوف المرات كل ما يخطر ببالك فى عالمك البليد الحس الذى يجرى على سنن العقل والمصلحة المحسوبة .. واننى لأجد فى بشاشة حبيبتى ليونورا عندما تستقبلنى ما يعدل مملكة من ممالك دنياك : مملكة كل ما فيها سماوى كريم سمح !.. بل ان أرقى فضائل ومزايا دنياكم لا تعدل فى لقاءاتنا الا ما هو عادى مبتذل. فدعنى على الأقل أحلم بقضاء حياتى قرب هذا الكائن العلوى ، وان كنت أرى ان ألسنة السوء وشت بى عندها، ولم يبق لى أمل فى السعادة بقربها ، ولكنى على الأقل سأضحى فى سبيلها بكل رغبة فى الثأر أو الانتقام !

* * *

وليس من الممكن ايقاف الحب عن بلوغ مداه الا فى بواكيره الأولى . ففى تلك المرحلة التى لم يأخذ فيها الحب مداه توجد وسائل كثيرة للسلو ، مثل الارتحال المفاجىء أو السريع ، وملهيات المجتمع الراقى ، ومثل ما حدث فى حالة الكونتس كالمبرج من الالتجاء الى حيل كثيرة صغيرة يستطيع الصديق المعالج أن يستخدمها .

فمن الممكن أن يقال للعاشق ، بطريقة عفوية ، وكأنما يحدث ذلك بالصدفة ، ان الحبيبة لا تبذل له بعض ما تبديه من آيات الرقة والتهذيب والتقدير لمنافسه .

ويكفى فى هذا الشأن أن تقال له أهون الأشياء وأقلها مظهرا ، ذلك ان جميع التصرفات لا تبدو فى عين العاشق الا بمثابة « رموز » .

ومثال ذلك أن يقول له :

ـ انها لا تمنحك ذراعها عند الصعود الى مقصورتها فى الأوبرا ...

وثق ان ذلك سيكون له عنده وقع شديد جدا ، ويشعر من جرائه بالمهانة . وليس أقتل للتبلر والعاطفة الوليدة فى القلب الرقيق الحساس من هذا الشعور ، لأنه يدمر التبلر ويسرى فى كيانه مسرى السم ؟

بل ومن الممكن رمى أو اتهام المرأة التى تعبث بقلب الصديق العاشق ، أو تسىء معاملته ، بأن بها عيبا جسديا خفيا لا يمكن التحقق منه ، وصل الى علمك من احدى صديقاتها أو قريباتها ... وليكن عيبا يثير السخرية ، لا الشفقة . والمهم أن يكون ذلك العيب من المستحيل تماما التحقق منه ، لأنه لو أمكنه التحقق منه ، وبفرض انه وجده حقيقيا ، فان خياله عندئذ كفيل أن يستوعبه ويمتصه ، وسرعان ما يختفى كل أثر لذلك العيب فى نظره . فليس يستطيع مقاومة المخيلة الا المخيلة نفسها . وكان هنرى الثامن يعرف هذا تمام المعرفة عندما أشاع مثل هذا التشنيع حول الدوقة دى مونتسبان الشهيرة .

فعلى من يريدون صيانة أى فتاة من الوقوع فى الحب أن يحسنوا حراسة مخيلتها حتى لايثيرها مثير .. وكلما ارتقت عقليتها وتربيتها وثقافتها لم سهل تعرضها لخطر الحب . ومن الخطورة بمكان أن ترتبط ذكريات

الفتاة حديثة السن بصورة متكررة بشخص بعينه .
واذا ما ضاعف من أهمية هذه الذكريات شعور بعرفان الجميل ، أو الاعجاب ، أو حب الاستطلاع ، فقد أشرفت الفتاة عندئذ على حافة هاوية الحب !

وكلما شمل حياة الفتاة اليومية الملل ، عظم تلهفها أو قابلية خيالها للاشتعال بالحب ، لأنها فريسة سهلة لما يسليها أو يثير فضولها أو اعجابها . وعند بداية العاطفة لا علاج الا الملهيات السريعة الناشطة ... أو السفر السريع طلبا للتسلية ورؤية المشاهد الجديدة ، التى سرعان ما تشغل المخيلة ، وينطمس أثر العاطفة الوليدة .

الفصل السادس عشر :

تباين الطبائع

جميع أنواع الحب ، وجميع التخيلات ، تتخذ لدى الأفراد لون طبع من ستة طباع ، هي كما يلي :

١ ـ الطبع أوالمزاج الدموى، أوالفرنسى ، وانموذجه المسيو دى فرانكى (على نحو ما يتبدى ذلك فى مذكرات مدام دبيناى) .

٢ ـ الطبع أو المزاج الصفراوى ، أو الأسبانى ، وانموذجه بجويلم (على نحو ما يتبدى فى مذكرات سان سيمون) .

٣ ـ الطبع أو المزاج السوداوى ، أو الألمانى ، وانموذجه دون كارلوس (كما وصفه الشاعر شيلر) .

٤ ـ الطبع أو المزاج البلغمى ، أو الهولندى .

٥ ـ الطبع أو المزاج العصبى ، وانموذجه فولتير .

٦ ـ الطبع أو المزاج الرياضى ، وانموذجه ميلون دى كروتون .

ولئن كان تأثير الطبع أو المزاج يتبدى فى الطموح ، والبخل ، والصداقة الخ .. الخ .. فكيف يا ترى يكون تأثيره فى الحب ، الذى له علاقة ضرورية بالبدن ؟

ولنفرض ان جميع أنواع الحب يمكن أن ترجع الى اربعة ضروب كما لاحظنا من قبل ، الا وهى :

الحب العاطفى ، وانموذجه جولى ديتانج .
حب الميل أو الاستلطاف ، أو الفندرة .
الحب الجسدى .
حب الغرور (فأى دوقة بالغا ما بلغ عمرها لا يمكن أن تتجاوز الثلاثين فى نظر أى بورجوازى !)

وكل نوع من هذه الأنواع الأربعة يمكن أن ينتمى الى مزاج من الطباع الستة التى ذكرناها آنفا ، مما يخرج لنا أربعة وعشرين لونا من ألوان الحب وسلوكه الظاهرى وأخيلته . ان كلا من تيبريوس قيصر وهنرى الثامن كان يحب النساء حب استلطاف ، أو حبا جسديا ، ولكن مزاج كل منهما كان مختلفا عن مزاج الآخر ، وخياله كان مختلفا بالتالى أيضا .

ومن جهة أخرى نجد الاطارات الاجتماعية التى يجرى فى نطاقها الحب على ستة أنواع أيضا ، نجملها فيما يلى:

١ ــ الاستبداد الآسيوى ، على نحو ما هو معروف فى حكومة آل عثمان بالآستانة أو القسطنطينية .

٢ ــ الملكية المطلقة ، على طراز لويس الرابع عشر .

٣ ــ الأرستقراطية المقنعة بميثاق ، أو حكومة أمة تجرى لصالح الأثرياء ، مثل انجلترا (القرن التاسع عشر) مع اتباع الجميع لقواعد الأخلاق كما وردت فى التوراة .

٤ ــ الجمهورية الفيدرالية ، أو الحكومة التى تجرى لصالح الجميع ، كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية .

٥ ــ الملكية الدستورية .

٦ ــ دولة ثورية مثل اسبانيا والبرتغال وفرنسا

(القرن التاسع عشر) ، ومن شأن حالة الثورة فى المجتمع أن تضفى على الجميع عاطفة جارفة ، وتلقائية فى السلوك ، والعرف الأخلاقى ، وتحطم المواضعات والتقاليد السخيفة . فقد ظهر الوزير رولاند بحذاء من طراز غير تقليدى ، ليست له « توكة » حتى لقد صاح ديموريه به :

ــ اه ياسيدى ! لقد ضاع كل شيء !

وفى الاجتماع الذى عقد برئاسة الملك ، وضع رئيس الجمعية الوطنية ساقا على ساق ! وكل ذلك من شأنه أن يملى للشباب فى الاندفاع ، ويجعلهم يحتقرون غراميات الرغبة أو الاستلطاف ، وغراميات الغرور .

ومثل هذه الحالة يمكن أن تستمر مدة كافية لانشاء عادات ينتهجها جيل بأسره . وقد بدأ ذلك فى فرنسا عام ١٧٨٨ ، وتوقف عام ١٨٠٢ ، ولكنه استؤنف فى عام ١٨١٥ ، ولم يزل ساريا الى وقت كتابة هذه السطور (عام ١٨٢٥) ولا يدرى أحد متى ينتهى .

* * *

ثم هناك ايضا ، فضلا عن فروق المزاج وفروق المجتمع ، فروق السن ، والفروق الفردية فى نهاية المطاف ... وسأضرب مثلا لهذه المفارقات حين تجتمع فى الحب الواحد :

لقد وجدت فى درسدن ، لدى الكونت فولشتاين حب الغرور ، والمزاج السوداوى ، والعادات الملكية ، وسن الثلاثين ... والخصائص الفردية المتميزة .

وكما ان الانسان لايمكن ، من ناحية الفسيولوجيا ــ أن يعرف شيئا تقريبا عن نفسه الا عن طريق التشريح

المقارن ، كذلك الأمر فيما يتصل بالعواطف والغرور وما الى ذلك من مسببات الأوهام ، فنحن لا نستطيع أن نتبينها فى أنفسنا مباشرة ، بل عن طريق مواطن الضعف التى لاحظناها لدى الآخرين .

ولهذا الغرض سأحاول أن أرسم بضعة ملامح عامة للحب لدى الأمم المتباينة . وأستميحكم عذرا اذا أشرت فى كثير من المواضع الى ايطاليا ، وأنا أتكلم عن غيرها من البلاد ، فهذا البلد ـ فى حالة أوروبا الراهنة ـ هو المكان الوحيد الذى ينمو فيه النبات الذى أتحدث عنه ، بكل حرية وطلاقة . ففرنسا يسودها الغرور ، وألمانيا تسودها فلسفة مزعومة تكاد تميتنا من الضحك ، أما بريطانيا فتسودها الكبرياء الخجول أو المتهيبة تعذب أهلها وتكاد تزهق أنفاسهم .

* * *

ومعظم ما أرويه مستمد من مذكرات متناثرة كتبها أثناء رحلاته « ليزوفسكونتى » ، وقد شهد أحداثها شهود العيان ، وهى تتراوح ما بين عام ١٨٠٧ وعام ١٨١٩ . وقد غيرت بعض التواريخ عمدا ، تسترا على الأشخاص الحقيقيين من أبطال هذه الأحداث. وأوجزت بعض المواضع ، حتى أتجنب خدش الحياء العام بما فى هذه المذكرات الشخصية أحيانا من صراحة مسرفة ..

الفصل السابع عشر :

الحب في فرنسا

سأحاول وأنا أكتب عن وطنى فرنسا أن أتخلص من مشاعرى الوطنية المتحيزة ، كيلا أكون الا فيلسوفا موضوعيا أمينا .

ان الرجال الفرنسيين الودودين الظرفاء لايشعرون غالبا الا بالغرور الباطل والمظاهر الجوفاء والرغبات أو الشهوات الجسدية، وهؤلاء الرجال الفرنسيون هم الذين شكلوا النساء الفرنسيات ، لذا نشأن أقل توثبا وهمة وبأسا يخشى وقوة تأثير من الأسبانيات أو الايطاليات . وبالتالى فهى أقل حظوة منهن بالحب الحقيقى .

فليس للمرأة من القوة الا بمقدار الشقاء أو الايذاء الذى يمكن أن تعاقب به عاشقها ! وعندما لايكون شعور الرجل العاشق لا يتعدى الغرور بالأباطيل ، تكن أى امرأة صالحة لأغراضه كأى امرأة أخرى . وبالتالى لا تكون أيهن ضرورية له ولا غنى عنها ، وتكن لذة الرجل منحصرة فى الفوز والانتصار ، لا فى الاحتفاظ بالمرأة والارتباط الدائم بها قلبيا . وعندما تكون كل مشاعر الرجل هى الرغبة أو الشهوة الجسدية ، يتجه الى البحث عن الفتيات أى بنات الهوى . وهذا هو السبب فى ان بنات الهوى الفرنسيات فاتنات ، بعكس زميلاتهن الأسبانيات .

ففى فرنسا تستطيع بنات الهوى أن يمنحن رجالا كثيرين من السعادة واللذة ما يضاهى ما يحصلون عليه من وصال السيدات المصونات، والسعادة فى هذه الحالة خالية من الحب ومن التعلق . ولئن كان الفرنسى يحترم شيئا أكثر من عشيقته ، فهو غروره !

والشاب الفرنسى الباريسى يتخذ من عشيقته مايشبه الجارية أو الأمة فى عصر الرقيـــق ، مهمتها أن تمده بالاستمتاع الذى يرضى غروره ، فان قاومت مطالب هذه الرغبة المسيطرة تركها على الفور الى سواها ، وأزهاه وأشبع غروره أن يروى لأصحابه بأى عنجهية استغنى عن خدماتها .

وها هو فرنسى يعرف وطنه جيدا ، وهو «مايلهان» يقول :

ـ العواطف العظيمة نادرة فى فرنسا ندرة الرجال العظماء !

وتعجز اللغة عن بيان مدى استحالة موقف العاشق المهجور على الفرنسى ، وكيف انهلايمكن أن يشعر باليأس والأسى القاتل على فراق محبوبته ، تحت سمع المدينة وبصرها . ولكن هذه الظاهرة شائعة جداً بين رجال البندقية أو بولونيا (بايطاليا) .

فان أردت العثور على الحب الحقيقى فى باريس ، فعليك أن تهبط الى تلك الطبقات التى لم تعرف التربية العالية أو التعليم أو الغرور بالأباطيل ، والتى لم تزل لديها الطاقة والهمة بفضل اضطرارها للصراع فى سبيل الاحتياجات الحقيقية .

ان الشاب الباريسى من الطبقات المرفهة يخزى أن يراه الناس عاجزا عن اشباع رغبته فى امرأة ، أومحروما

منها شقيا بصدها ، ويرى ذلك عارا يحط من قدره .
والغرور لايسمح للواحد منهم أن يبدو مكفوفا عن شيء من مظاهر الجاه والصدارة والنجاح . وليس هذا فى شئون الحب فحسب ، بل ان للواحد منهم اذا أذيع نبأ غريب غير متوقع ، يرى من علامات الوجاهة أن يزعم انه كان يعرف ذلك السر من قبل . ويشيع ذلك بين السادة المقيمين فى الريف أيضا . وقد شهدت أخيرا شابا قال بهدوء — وصفاقة — عندما أذيع مصرع الدوق دى بيرى المفاجىء :

— كنت أعرف ذلك !

ولم يكن الحال هكذا فى العصر الوسيط ، حيث كان الحب محفوفا بالخطر ، وهذا هو السبب — فيما أعتقد — فى ان رجال القرن السادس عشر كانوا أرقى بكثير من رجال القرن التاسع عشر ، وأكثر اصالة وتلقائية وشجاعة وصدق مشاعر . أما الآن وقد استقرت الأوضاع، وساد الأمن والأمان، واستكان الرجال للدعة ، فالنفوس خائرة .

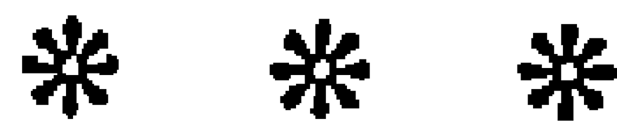
وهذا أيضا — فيما أعتقد — هو السر فى ان البلاد التى لم تزل حالة الأمن فيها غير مستقرة ، مثل اسبانيا وايطاليا ، حافلة بالرجال ذوى الشخصية والهمة والعواطف الصادقة . يضاف الى هذا ان شدة الحرارة فى صيف تلك البلاد تنشط الصفراء ثلاثة أشهر فى السنة ، وتدفع الرجال للحركة بحماسة ، وتبرز هممهم فى الحب ، وفى الحرب ، وفى مجالات كثيرة .. و ..

ولو نظر الى جزيرة كورسيكا مثلا ، لوجدنا تعداد سكانها أقل من نصف عدد سكان أى محافظة فى فرنسا ، ومع هذا أنجبت فى السنوات الأخيرة عددا من مشاهير

الرجال كبار الهمة ، آخرهم نابليون . فالمرء فى هذه الجزيرة معرض للخطر فى كل لحظة ، ولا يأمن عند خروجه من بيته أن تصرعه رصاصة فى ثأر . فالكورسيكى لايمكن أن يصفح عن اساءة ، بل يردها باستماتة . وما أبعد هذا عن جو الصالونات والمجاملات والطراوة الباريسية !

والمشاهد ان الكثيرين من شبابنا ذوى الهمة فى ميادين القتال يخشون الحب الحقيقى ، حتى ان ابن العشرين منهم يفر بجبن من رؤية فتاة يراها باهرة الجمال ، حتى لايسيطر عليه حبها سيطرة لا يملك لها دفعا . وهكذا تظل قلوبهم باردة ، ولايدركون ان أعاصير العواطف تثير موج البحر كالجبال ، ولكنها فى الوقت نفسه تملأ أشرعة السفن وتحملها الى بعيد . أما الاكتفاء باللهو على الشاطىء ، فلا يوصل الى شىء !

ان الحب زهرة رقيقة لذيذة ، ولكن لابد من الاقدام على قطفها من فوق حافة هاوية رهيبة ! ومن يخافون الهوة لايحصلون على هذه الزهرة . وكذلك من يخشون السخرية والاستهزاء عندما يظهر عليهم قلق الحب الجارف ، يقعدون عن تذوق هذه السعادة التى لا نظير لها .



واستأذن القارىء فى مزيد من الذم للأسلوب الفرنسى فى الحب . وأتوقع أن يكون لهذا صدى عنيف لدى قرائى ، الذين سيكيلون لى الصاع صاعين ، أو مائة صاع على الأرجح ، دفاعا عن السمعة القومية والشرف الوطنى !

ولفرنسا اهمية خاصة فى هذا الكتاب ، لأن باريس

تحتل مكانة صالون أوروبا ، وهى القدوة فى الذوق والأزياء ، بفضل تفوق اللسان الفرنسى ، وازدهار الأدب الباريسى .. حتى ان معظم رسائل الطبقة الراقية فى فيينا ولندن مكتوبة بالفرنسية ، أو حافلة بالتضمينات والاقتباسات والاشارات الى مؤلفين فرنسيين . بل ان الكتاب فى انجلترا يستخدمون فى مقالاتهم التى تنشرها الصحف ألفاظا فرنسية ، معظمها لا يستخدم فى فرنسا ، ولا وجود لها الا فى كتب النحو الفرنسى المكتوبة بالانجليزية لتعليم الانجليز . والشاهد على هذا مجلة ادنبره التى تصدر فى اسكتلندة ، كما ان مذكرات الكونتس دى لشتناو عشيقة ملك بروسيا الأسبق شاهدة على ذلك أيضا !

بل ان الناس فى صالونات أوروبا الراقية يقلدون ما يجرى فى صالونات باريس ، من المظاهر ، والتظاهر . وأسلوب معاملة المحبوبة ، أو تجاهل المنافسين ، أو مخاطبة الأنداد ، وما الى ذلك من الشكليات التى يعيشها أهل الطبقة العليا فى باريس .

ويمكن ايجاز سمات المجتمع الفرنسى الراقى فيما يلى :

١ـ السخرية من جميع المسائل الكبرى العامة ، وعدم الاهتمام بها ، كما لو كانت دون المقام ! فليس لديهم متسع من الوقت لهذه الأمور . ولكن الأمر مختلف لدى من يقيمون فى الريف . ومع هذا يجد الفرنسى الأنيق انه لا يليق به أن يظهر العجب من شىء ، أو الاعجاب والانبهار بشىء ، لأن ذلك يوحى بأنه فى مستوى أقل من موضوع اعجابه ، أو فى مستوى أقل من جاره ، ان آثر هذا الجار السخرية مما أثار اعجابه.

أما فى ألمانيا ، وأيطاليا ، وأسبانيا ، فالاعجاب ظاهرة طبيعية تفيض طيبة وحسن نية ، وتثمر السعادة والسرور. فالرجل فى تلك البلاد يعتز بشعوره بالاعجاب ، ويزهو به ويفتخر ، ويحتقر من يهزأ به . ولا يتعرض عندهم للسخرية والزراية الا من يضل طريقه الى السعادة ، لا من يخرج على النمط المرسوم المتكلف فى السلوك ... ولهذا لا يمتنع الناس فى تلك البلاد عن اقامة المهرجانات الفخمة والتلذذ بالاعجاب بها تلذذا فطريا تلقائيا. وهذا هوالسائد فى بلاط مدريد، ونابولى.

٢ ـ يعد الفرنسى المتانق نفسه أتعس البشر وأحقهم بالزراية والهزء ان اضطر لقضاء وقته وحيدا . وماذا يكون الحب الحقيقى بدون الوحدة ؟

٣ ـ الانسان العاطفى لا يفكر الا فى نفسه ومشاعره ، أما الانسان الباحث عن المظاهر فلا يفكر الا فى الآخرين ونظرتهم اليه ، ولذا فهو متكلف دائما ، لأن رأى جارك فيك هو العنصر الأساسى لسعادتك .

وانى لأتصور الفرنسى الأنيق حين يهم بالقاء نفسه من الشرفة منتحرا ، يتحرى أن يكون وضعه رشيقا فى نظر الناس عندما يستقر جسده على أرض الشارع !

الفصل الثامن عشر :

أرنستين
أو مولد الحب

ويلحق بالحب فى فرنسا ما قالته لي سيدة ذكية فطنة ذات تجربة من ان الحب لايولد فجأة كما يشاع.. بل تكون ولادة الحب على سبعة مراحل متميزة ، وروت تأييدا لذلك الرأى قصة أوردها فيما يلى :

كانت فتاة صغيرة السن تقطن قصرا منعزلا فى الريف، حيث يثير أتفه الحوادث الجديدة اهتماما كبيرا ، كأن تلمح فجأة شابا فى الغابة القريبة يمارس الصيد أو القنص . وبشىء من هذا القبيل بدأت قصة هذه الفتاة المسماة ارنستين التى كانت تعيش خلية البال تماما فى هذه العزلة الكاملة ، مع عمها المسن الكونت س ، فى بقعة من أجمل بقاع مقاطعة الدفينيه ، قرب نهر دراك . وتوسمت ارنستين فى ذلك الشاب الصياد الذى ساقته إليها الصدفةنيل المحتد ، وداعبت خاطرها صورته عدة مرات . فماذا يمكن أن يشغل بالها فى تلك العزلة المسئمة التى يجري فيها كل شىء على يد الخدم المسنين بكل رتابة يوما بعد يوم بلا تغيير ؟

وذات مساء من أمسيات الربيع كانت ارنستين تطل من نافذتها ، عندما رأت مرة أخرى ذلك الصياد الشاب الذى كانت قد لمحته قبل ذلك ببضعة أيام ، عند حافة

الغابة فيما وراء البحيرة التى يطل عليها القصر العتيق المحصن الذى يرجع تاريخه الى العصور الوسطى . وكانت فى يده باقة من الزهر . وتوقف الشاب كأنما لينظر اليها ، ثم رأته يقبل تلك الباقة ويضعها بكل احترام ورقة فى فجوة باحدى أشجار البلوط الكبيرة العتيقة على شط البحيرة .

وما أكثر الخواطر التى ولدتها هذه الحركة الصغيرة ، كأنها حصاة ألقيت فى بركة ساكنة منذ سنين ! وهكذا بدأت فى حياة إرنستين حقبة جديدة . أتراها تجسر على الذهاب لترى هذه الباقة ؟ وأخذت ترتجف خوفا من مجرد التفكير فى هذه الخطوة. « وماذا لو أن الشاب برز فجأة من الغابة عندما تقترب من البلوطة ؟ وماذا عساه يقول عنى ؟ » مع ان هذه الشجرة بعينها كانت الغاية التى تنتهى اليها نزهتها اليومية الانفرادية . وكثيرا ما جلست فوق جذورها الهائلة التى تبرز فوق سطح العشب الذى يحف بها ، وكأنها أرائك طبيعية تحت هذا الظل الوارف .

ولم تكد ارنستين يغمض لها جفن تلك الليلة . وما بزغ الفجر حتى نهضت الى النافذة تفتش بنظرها عن البلوطة العتيقة فيما وراء البحيرة، وظلت ترمقها مبهورة الأنفاس .

ومرت عشرة أيام . وكانت ارنستين تحصى الأيام . ولم تلمح فى خلالها الشاب الا مرة واحدة ، حيث دنا من البلوطة ووضع باقة أخرى. ولاحظ عمها الكونت الشيخ انها تقضى الآن ساعات طويلة تطل من وصاوص النافذة المغلقة. فهكذا كانت تشعر بالأمان من أن الصياد الشاب يمكن أن يراها ، وهكذا كانت تشغل وقتها كله بالتفكير

فيه بلا رقيب . ثم أخذ يزعجها خاطر فظيع : ماذا لو اعتقد الشــاب ان تصرفاته لم تجد لديها استجابة ، وقرر عدم العودة ؟

ومرت أربعة أيام أخرى . وما كان أبطأها من أيام ! وفى اليوم الخامس لم تستطع الفتاة وهى مارة بقرب البلوطة العتيقة مع مربيتها أن تتمالك نفسها من اغراء القاء نظرة على الفجوة الصغيرة التى كانت قد رأته يضع الباقة فيها . وخطر الأرنستين انها لن تجد هنــاك الا بقايا أزهار ذابلة ، وكم كان ذهولها عندما أبصرت هناك باقة من أندر الأزهار وأجملها وأنضرها . وليس بينها ورقة واحدة ذابلة . وقد لمحت هذا كله بطرف عينها . وجالت ببصرها فيما حولها مدققة فى كل موضــع على امتداد دائرة قطرها مائة خطوة ، وهى تتواثب هنــا وهناك كالغزال الشارد ، من غير أن تبتعــد كثيرا عن مربيتها وكأنها تحتمى بوجودها معها ، فلم تبصر أحدا. ولما تأكدت من خلو المــكان افلتت راجعة الى البلوطة العتيقة ، وتجاسرت على تفحص الباقة اليانعة . يا الهى ها هى قصاصة ورق صــغيرة لا تكاد تبصرها العين مشبوكة فى عقدة الباقة ! وندت عن ارنستين صــيحة صغيرة ، لفتت نظر مربيتها ، فسألتها ما بها ، فزعمت لها أن قبرة طارت بقربها .

وما كان يخطر ببال ارنستين قبل أسبوعين انها يمكن أن تــكذب ..

واقتربت من الباقة ، ومالت برأسها لتقرأ الورقة من غير أن تمسها بيدها ، وقد صــــــــارت وجنتاها كالجمرتين ، فاذا بها سطر واحد :

ـ لقد مر على الآن شهر وانا أحمل الى هنا كل يوم

باقة جـــــديدة . فهل يسعد باقة اليوم أن تسترعى اهتمامك ؟

وازداد وجهها احمرارا، واتجهت نحومربيتها تدعوها للعودة الى القصر . ومشت الى جوارها ساهمة شاردة النظرات ، وآلت على نفسها الا تعود أبدا الى هـــذا الموضع . ومع هـــذا لم يزايلها القلق ، بل زاد بها استبدادا . وراحت تتعجب من أمر نفسها ، وتتساءل الا تعود أبدا الى القاء نظرة على شجرتها الحبيبة ؟ ولكن صوت الواجب الذى تلقنته فى الدير الذى لم تبــارحه الا منذ أربعة أعوام لتعيش فى هذه العزلة ناهض هـذه الرغبة الملحة بالعودة الى ذلك المكان كعادتها فى نزهاتها.

ولم يستطع شيء فى اليوم التالى أن ينتزعهــا من شرودها وأحلام يقظتها القاتمة . ولاحظ عمها الـكونت حالتها تلك ، فأمر بشد الجياد الى المركبة العتيقة ليذهبا معا فى جولة بأنحاء المنطقـــة . وبعـــد نزهة طويلة أمر الـكونت وهما فى طريق العودة بوقوف العربة فيما وراء البحيرة عند مشارف الغابة ، لأنه يريد افتقاد البلوطة العتيقة التى كان يزعم انها من أيام شرلمان . ويبدو أن عمرها الطويل كان يشعره بالشباب ، وهو على حدود الثمانين وها هى ارنستين اذن تجد نفسها مرة أخرى ــ برغم عهودها ــ بالقرب من تلك الشجرة ، فتضرجت وجنتاها بالحمرة الشديدة ، ومن غير أن تدرى وجدت نفسها تلقى عليها نظرة ، فرأت الباقة اليانعة ، فشحب وجهها ، لأن الباقة كانت بها أزهار سوداء ، وقد أرفقت بها ورقة مكتوب فيها : « ما أتعسنى وأشقانى ! لابد أن أبتعد الى الأبد، فمن أحبها لا تتنازل بتقبل احتراماتى ».

واستطاعت ارنستين ان تقرأ هذه الـكلمات قبل أن

تمنع نفسها من ذلك ، وشعرت بخور شديد وترنحت ، فاستندت على الشجرة ، وسرعان ما فاضت مدامعها . وفى المساء قالت لنفسها :

ـ سيرحل الى الأبد ، ولن أراه بعدها أبدا ..!

وفى اليوم التالى ، قرب الظهر ، تحت وقدة الشمس فى شهر أغسطس ، وفيما هى تتنزه مع عمها تحت ظلال الأشجار الممتدة على شاطىء البحيرة الصغيرة ، لمحت على شاطئها الآخر ذلك الشاب يقترب من البلوطة العظيمة ، ويتناول باقته فيلقى بها فى البحيرة ثم يختفى . وخطر لأرنستين أن حركته كان فيها سخط وقهر ، ولم يلبث هذا الخاطر أن استولى على ذهنها فى صورة اليقين الجازم ، وآمنت أنه راحل الى غير رجعة .

وأثارت ارنستين القلق فى القصر سائر ذلك اليوم لشدة شحوبها ، وعصبية حركاتها وملامحها ، وهى التى كانت مفرطة الحيوية فياضة المرح فى كلامها ، ومصدر بهجة الجميع عادة . فتأكد لدى عمها الشيخ انها مريضة . وفى المساء لم تعارض اطلاقا عندما اقترح عليها عمها التنزه حتى الموج الذى تتوسطه البلوطة العتيقة على الشاطىء الآخر للبحيرة ، والقت ببصرها وهى عابرة على الفجوة التى فى جذع البلوطة ، على ارتفاع ثلاثة أقدام عن سطح الأرض ، واثقة انها لن تجد شيئا ، فقد رأته بعينى رأسها يلقى بباقته الى البحيرة فى حنق ، ولكنها لدهشتها الشديدة رأت باقة جديدة هناك ، ومعها ورقة مكتوب فيها :

ـ اناشدك رحمة بشقائى الفظيع أن تتنازلى بأخذ الوردة البيضاء .

وبينا هي تقرأ هذه الكلمات امتدت يدها بلا وعى الى الوردة البيضاء الوحيدة بالباقة فأخذتها . وفي هذه اللحظة ناداها عمها الذى كان واقفا على مبعدة يتأمل ما حوله ، فخفت اليه وهى فياضة النفس بالسعادة والبشر ، وقد احتفظت بالوردة البيضاء فى منديلها الأبيض الصغير الشفاف ، بحيث استطاعت سائرالنزهة أن ترى لون الوردة من خلال نسيجه الهفهاف . وكانت حريصة وهى ممسكة بالمنديل الا تذبل أوراق الوردة .

وما أن وصلت الى القصر حتى صعدت وثبا الى حجرتها عند ركن القصر ، فى البرج المستدير ، حيث انفسح لها المجال لتتأمل وردتها ، من خلال الدموع التى كانت تنساب من عينيها الجميلتين .

وما معنى هذه الدموع ؟ سؤال كانت ارنستين تجهل جوابه ؛ وهى تضع تلك الوردة فى اناء من الكريستال عند رأس سريرها بعناية فائقة ، لأنها فى غرارة صباها لم تكن تعرف أنها دموع السعادة بشعورها انها محبوبة كل هذا الحب .

وهذا التصرف من جانبها آية المرحلة الثالثة من مراحل ميلاد الحب ، وهى مرحلة الأمل العريض . ولكن أصحيح أن ارنستين كانت على وشك الشعور بالحب ؟ أليس فى ذلك ما يصدم التفكير السديد ؟ أنها لم تر ذلك الشاب الا ثلاث مرات عن بعد لا يقل عن ٥٠٠ خطوة ، ومع هذا فها هى تذرف الدمع سخينا مدرارا شفقة عليه ! وهى التى أن لقيته بدون بندقيته وبغير زى الصيد لما عرفته غالبا . فهى تجهل اسمه ، ومن هو ، وما هو وضعه الاجتماعى ، ومع هذا تقضى سحابة نهارها فى اذكاء عواطفها نحوه ، وهى تتركز كلها

فى تنويعات من عبارة واحدة أو عبارتين :

ـ ما أحلى أن أكون موضع حبه ! ما أسعدنى أن أكون محبوبة منه ! أحقا هو يحبنى ؟

ومع انها سليلة الأمجاد ، وساكنة القصر العريق ، لم يخطر ببالها أن تقول متشككة :

ـ لعله ليس سوى ابن أحد فلاحى هذه الناحية ..

وبديهى ان ارنستين لم تكن تتبين كنه عواطفها ، ولو ناقشتها وحللتها لكانت خليقة فى الغالب أن تقاوم سلطانها على فؤادها . ولسذاجة تربيتها لم تدرك أن ما يخالجها يتعدى الرحمة والشفقة والمودة البريئة .. وهى لم تأخذ الوردة البيضاء الا تحاشيا لفقدان هذا الصديق المهذب ، وردا على تحيته المهذبة بمثلها .

وظلت أربعة أيام فريسة أعنف المشاعر ، تجترها فى وحدتها ، وهى تشعر بخوف غامض ، ولذا رفضت فى تلك الأيام مبارحة القصر . وفى اليوم الخامس أصر عمها على أن تصحبه للنزهة فى الغابة الصغيرة ، وقد اشتد قلقه على صحتها . وهكذا وجدت نفسها على مقربة من البلوطة العتيقة ، وهناك لمحت هذه الكلمات على الورقة المرفقة بالباقة الجديدة .

ـ اذا تنازلت بأخذ زهرة الكاميليا ، ذهبت الى كنيسة قريتكم يوم الأحد .

وفى الكنيسة أبصرت أرنستين رجلا فى ملابس غاية فى البساطة ، فى نحو الخامسة والثلاثين من العمر ، ولاحظت انه لا يتحلى ولو بصليب . وكان فى يده كتاب صلوات يطالعه ، ولكنه كان يمسك به بحيث لا تتحول عيناه عنها لحظة واحدة . وهكذا ظلت ارنستين طول

مدة القداس عاجزة عن التركيز فى الصلاة ، وسقط منها كتاب الصلوات وهى تغادر الأريكة الخشبية ، وكادت تقع على الأرض وهى تنحنى لاسترداده ، فاحمر وجهها كثيرا ، لأنها قالت فى نفسها :

ــ لعله رأى مبلغ خيبتى فى حركاتى ، ولم يجدنى جديرة باهتمامه .

وهى فعلا لم تره حين استردت كتابها وانتصبت واقفة ، لأنه اختفى تماما . وعبثا تلكأت بعد أن ركبت العربة كى توزع بعض النقود الصغيرة على غلمان القرية الفقراء ، فلم تلمح بين الواقفين لتجاذب الحديث عند الباب ذلك الرجل الذى لم تجسر على ملء ناظريها منه فى الكنيسة . وزعمت ارنستين ــ التى كانت حتى الآن مثال الصدق ــ انها نسيت منديلها وأرسلت للكنيسة أحد خدمها كى يبحث عنه ، كى يطول وقت انتظارها ، لعل وعسى ، ولكن الوقت مضى بغير طائل ، فأحست بالخيبة والانكسار :

ــ آه لابد أنه وجدنى عن قرب غير جميلة ، وحركاتى بعيدة عن الرشاقة !

وظلت هذه الأفكار تعذبها أثناء الزيارتين اللتين قام بهما عمها فى صحبتها قبل العودة الى القصر . وماكادت تصل الى هناك حوالى الساعة الرابعة حتى أسرعت تعدو فى المشى الظليل نحو شاطىء البحيرة ، واقتربت من البلوطة بخطا ثابتة وهى مكتئبة النفس ، كأنما تدنو من الموت دنو الشجاع . وكانت واثقة انها لن تجد فى الفجوة شيئا ، وهى فعلا لم تر هناك الا زهرة ذابلة تخلفت من باقة الأمس . فقالت فى نفسها :

ــ لو انه كان راضيا عنى لما فاته أن يشكرنى بباقة زهر .

وعادت حزينة يائسة الى القصر ، فصعدت الى حجرتها ، وهناك أطلقت لدموعها العنان برهة ، ثم مسحت دموعها واقتربت من مرآتها تستشيرها ، وهى تسترجع كلمات صديقة لها فى الدير كانت تؤكد لها ان نظراتها آمرة متعالية منفرة ، ولكنها لم تجد امامها الآن الا نظرة حزينة تطل من عينيها الزرقاوين الداكنتين .

ورن جرس العشاء ، وبصعوبة جففت مآقيها وهبطت الى الصالون حيث وجدت المسيو فيلار ، عالم النبات المسن الذى كان يحضر كل سنة لتمضية ثمانية أيام مع عمها الكونت س ، الأمر الذى كان يسوء مربيتها كثيرا ، لأنه يفقدها مقعدها على المائدة تلك المدة . ومر كل شيء على المائدة بسلام الى أن حان وقت الشمبانيا ، وحمل الساقى الدلو الى ارنستين ، وكان الثلج قد ذاب منذ وقت طويل ، فنادت أحد الخدم وقالت له :

ــ غير هذا الماء ، وضع ثلجا جديدا فى الدلو بسرعة !

فضحك عمها المسن وقال :

ــ ان لك لهجة آمرة متعالية تضفى على محياك بهاء وتلائمك تماما !

وما أن سمعت كلمة آمرة متعالية حتى انهمرت دموعها بحيث تعذر عليها اخفاؤها ، فبارحت القاعة وقد بدأ نحيبها يرتفع ، الأمر الذى أدهش الشيخين جدا .

وبعد يومين كانت مارة بقرب البلوطة العتيقة ، فدنت منها ونظرت فى الفجوة ، وكم كانت سعادتها عندما ابصرت هناك باقتى زهر صغيرتين ، فامسكتهما بمنديلها ،

وأسرعت تجرى الى القصر ، غير مبالية أن يكون ذلك الغريب المجهول مختفيا وراء احدى أشجار الغابة ليرقب حركاتها ، وهى الفكرة التى لم تبرح ذهنها من قبل ، وكانت تملى عليها الحذر الشديد ... وأدركها التعب من الجرى فوقفت فى منتصـــــف الطريق برهة ريثما استردت أنفاسها ثم استأنفت الجرى لا تلوى على شىء ، وما أن وصلت الى حجرتها حتى قبلت الباقتين الصغيرتين وهى محمرة الوجه من الانفعال والفرح ... ولما هدأت ثورتها طالعت المـكتوب فى الورقة الأولى .

ـ لقد امتنعت عن رؤيتك بعد الصلاة ، لأنى خشيت أن يلمح الناس فى نظراتى اتقاد حبى ! فان كان قلبك خاليا ، فتنازلى بأخذ هذه الباقة .

أما الورقة الثانية فكانت مكتوبة بقلم الرصاص :

ـ لقد أتيت أمس ، وقيل لى من بعض من شاهدوك انك عبرت البحيرة الى هنا ، ولكنك لم تأخذى باقتى ، انت اذن مشغولة القلب . وهذا خير ، فمن الحماقة أن يتعلق من فى سنى بمن فى سنك . وداعا الى الأبد ، فلن أفرض نفسى عليك ، ولن أشغلك بعد ذلك بعاطفة تبدو لك جديرة بالسخرية !

ووجدت نفسها تجثو وتصلى شكرا لله ، لأن هـــذا المجهول اعترف لهـــا بحبه بعـــد أن رآها عن قرب ! وشفعت ذلك بالابتهال الى العلى القدير أن يدلها على مواطن النقص لديها كى تصلح من أمر نفسها ولا يجد فيها ما يعاب !

ثم نهضت بعـــد ذلك من ركوعها كى تقرأ الورقتين عشرين مرة . وكانت ثانيتهما على الخصوص مصـــدر

سعادة لاتوصف . وسرعان ما أدركت حقيقة مستقرة في فؤادها منذ أمد طويل : انها ما كانت لترتبط أوتتعلق أبدا برجل يقل سنه عن الأربعين أو زهائها . وتذكرت انه بدا لها في الكنيسة ، وقد دب اليه شيء من الصلع ، في نحو الرابعة والثلاثين أو الخامسة والثلاثين . بيد انها ليست متأكدة من ذلك ، لأنها لم تجسر على ملء عينيها منه ، لشدة اضطرابها !

ولم يغمض لأرنستين جفن تلك الليلة ، فما كان قد خطر لها قط انها يمكن أن تشعر بكل هذا القدر من السعادة . ونهضت من فراشها كي تكتب في كراسة مذكراتها : « يجب ألا أبدو أبدا آمرة أو متعالية . هذا عهد أقطعه على نفسي في ٣٠ سبتمبر عام ١٨٠٠ » . وقضت بقية الليل وهي تدير في نفسها تلك الفكرة التي اكتشفتها ، انه من المستحيل عليها أن تحب رجلا أقل من الأربعين . ثم راحت في خيالها تضيف الى مزية السن في صاحبها المجهول مزية أخرى تراءت لها من مظهره : انه فقير . ولكم أبهجها هذا الاكتشاف !

ونهضت مرة اخرى وأشعلت شمعتها وفتشت عن تقدير للثروة التي تخصها وكان أحد أبناء عمومتها قد سجل ذلك في احدى كراساتها ، وعثرت على الكراسة فوجدت انها تستحق عند الزواج ايرادا يبلغ سبعة عشر الفا في السنة، ومبلغ خمسين ألفا نقدا. وشردت خواطرها في تأمل هذه الأمور ، حتى دقت ساعة القصر الرابعة صباحا ، فانتفضت متيقظة ، وتمنت أن يطلع النهار بسرعة كي تستطيع رؤية بلوطتها العزيزة .. ونهضت بعد قليل ففتحت مصراع نافذتها ، ورأت على البعد فعلا تلك الشجرة العملاقة بخضرتها القاتمة ، على ضوء

القمر ، لأن أنوار الفجر لم تكن قد بزغت بعد .

وحينما آن لها أن ترتدى ملابسها ، قالت لنفسها :

ــ لا يليق بمن يحبها رجل فى الأربعين أن ترتدى زيا لا يليق الا بطفلة !

وظلت زهاء ساعة تبحث فى خزاناتها عن ثوب وقبعة وحزام ،بدا منظرها فيها غير مألوف ، حتى انها عندما برزت الى قاعة الطعام أثارت ضحك عمها ومربيتها والضيف المسن عالم النبات . وقال عمها :

ــ اقتربى ياعزيزتى ارنستين ! أراك تبدين كما لو كنت تريدين التنكر فى زى امرأة فى الأربعين !

فاحمر وجهها ، وفاضت نفسها بالسعادة. وحرصت أن تكون حركاتها على المائدة جديرة ببنت الأربعين فعلا ... فهى تكلم الخدم بلهجة تفيض أمومة ووقارا ، الأمر الذى أضحك عمها الشيخ مرة أخرى . وراح مع صديقه يداعبانها بسبب هذه « التقليعة » الجديدة .

وبصعوبة تخلصت بعد الطعام من صحبتهما وصعدت الى حجرتها لتطل من نافذتها على البلوطة . ولم يلبث أن حل محل السعادة الغامرة خاطر أقلق بالها : ترى ماذا ينبغى أن أصنع الآن كى أكسب تقديره ؟ انه لابد أن يكون رجلا صارما دقيق الموازين ، ولاشك انني خليقة أن أسقط من نظره ان بدرت منى بادرة غير موفقة ، أو خطوة غير لائقة .

وفيما هى تفكر على هذا النحو ، لاحظت ان حزامها تتدلى منه حلية من الجوهر الثمين كان عمها الشيخ قد قدمها اليها هدية فى يوم عيدها منذ أسبوعين . وقالت لها مربيتها انها غالية ، يصل ثمنها الى ألف

فرنك ، وهى من صنع جوهرى مشهور فى باريس اسمه « لورنسو » ، فاكفهر وجهها وأسرعت تنتزعها ، وهى تقول : « ماذا عساه يقول لو رآها تتدلى من حزامى ، وهو الرجل الفقير ؟ أى فساد ذوق من جانبى ؟ »

وبعـد أن وارت الحلية فى خزانتهـا ، عادت تسأل نفسها مرة آخرى ماذا ينبغى عليها أن تصنع الآن كى تفوز بتقدير هذا الرجل الفقير الصارم الذكى ؟ وكانت احلام اليقظة هذه ، التى صورت لها ذلك المجهول فى الصورة التى تتمناها ، هى المرحلة الخامسـة من مراحل الحب الحقيقى .

وكان أول ما هداها اليه تفكيرها أن تنقطع عن التوجه الى موضع البلوطة العتيقة ، خوفا من أن تبدر منهـا حركة تنم على طفولتها ، وتسقط اعتبارها فى نظر هذا الرجل الذى أصبح شغلها الشاغل فى الليل والنهار . ولكنها ألفت نفسها فى نحو الساعة الواحدة تتنزه مع مربيتها فى طريقهما المعتاد ، وغافلت المربية واقتربت من البلوطة وهى تطفر كالغزال ، وتكاد تطير فى الهواء ولا تمس ما تحت قدميها من العشب . وكادت تطـير فرحا حين وجدت باقة صـغيرة ناضرة ، ومعها ورقة كبيرة ، لا قصاصة صغيرة كسابقاتها ، وأسرعت عيناها تنظران فى ختام الرسالة عسى أن تجد توقيعا يعرفها بشخص ذلك المجهول ،فاذا به « فيليب استيزان » ، فسقطت الورقة والباقة معا من يدها ، واستولت عليها رجفة هائلة . فقد كان المسيو استيزان معروفا فى قصر الـكونت س بأنه عشيق مدام دايسان ، وهى باريسية عظيمة الثراء ، عظيمة الأناقة ، كانت تأتى فى كل عام لتثير استنكار واستفظاع الأقليم الريفى بتمضيتها أربعة

أشهر فى قصرها الريفى بمفردها مع رجل ليس زوجها. وهى فضلا عن هذا أرملة جميلة ، وفى وسعها أن تتزوج المسيو استيزان هذا . وجميع هذه الأمور المؤسفة حقيقية ، وما اكثر ما كان يرويها ويعيبها الأشخاص الوقورون الذين كانوا يحضرون أحيانا لزيارة عم ارنستين الشيخ . فلا غرابة أن تنقلب سعادة ارنستين النقية الطاهرة التى استولت على قلبها البكر الى شقاء أليم ممض لا رجاء فيه فى لحظة واحدة ، وهتفت باكية مختنقة تعسة :

ـ يا للرجل القاسى ! لقد أراد أن يلهو بى ، وكأننى احدى فرائس صيده وقنصه ! ولعله أراد بهذا الخداع أن يجد فى النهاية قصة طريفة يسلى بها مدام دايسان! وأنا البلهاء كنت أحلم بالزواج منه ! يا لسذاجة الطفولة! ويا للمهانة والهوان !

وخرت ارنستين مغشيا عليها الى جوار الشجرة العتيقة ، التى ظلت كعبة آمالها ثلاثة أشهر سويا . وهناك عثرت عليها مربيتها ، وفى صحبتها عالم النبات المسن بعد نصف ساعة ، فاذا بها ملقاة ولا حراك لها .

وزاد الطين بلة انها عندما أفاقت ألفت عند قدميها رسالة استيزان ، مفتوحة من ناحية التوقيع ، بحيث يستطيع اى انسان أن يتبينه ، فنهضت قائمة بسرعة البرق، ووضعت قدمها على الرسالة لتخفيها عن الأنظار.

وحاولت أن تفسر جهدها ما انتابها ، ثم أفلحت فى التقاط الرسالة واخفائها من غير أن يلحظ أحد ذلك . وظلت فترة طويلة عاجزة عن قراءة سطورها ، لأن مربيتها أجلستها لتستريح ، ولازمتها لتطمئن عليها . ونادى عالم النبات أحد العمال العاملين فى حقل قريب وأرسله

لاستدعاء العربة من القصر . ولـكى تتحاشى الخوض فى أسباب اغمائها تصنعت ارنستين العجز عن الكلام لشدة خورها ، ولصداع شديد اتخذته ذريعة لاستمرارها فى وضع منديلها على عينيها .

ووصلت العربة ، وما أن استقرت فيها حتى راحت تستعجل وصـــولها الى القصر العتيق ، كى تخلو الى نفسها . وأسوأ ما كانت تعانى منه شعورها بالاحتقار لذاتها ، وكانت الرسالة المطوية فى يدها داخل المنديل تكاد تحرق أناملها. وهبط الليل أثناء الطريق الى القصر، فتسنى لها فى العتمة أن تفتح عينيها من غير أن يلحظ أحد مغزى نظراتها ، وتطلعت من نافذة العربة فرأت النجوم اللامعة فى تلك الليلة الصافية الجميلة ، فأدخل منظرها شيئا من العزاء على نفسها المحزونة . وكان أول قرار اتخذته بينها وبين نفسها ألا تقرأ هذه الرسالة التى لم تطالع منها الا التوقيـع ، بل ستحرقها متى وصلت الى القصر . واستطاعت بهذا القرار أن تدفع عن نفسها الشعور بالهوان والاحتقار ، لأن الجانب الآخر من نفسها كان يعلنها باسم الحب انها خليقة أن تجد فى الرسالة الطويلة تفسيرا معقولا مرضيـا لعلاقة المسيو استيزان بمدام دايسان .

—

وما أن دخلت ارنستين الصالون حتى ألقت بالرسالة الى نيران المدفأة فعلا . وفى صباح اليوم التالى ، شرعت منذ الساعة الثامنة فى العزف بجد على البيانو ، وكانت قد أهملته طوال الشهرين الأخيرين . ثم تحولت بعـد ذلك الى قراءة مستأنية فى كتاب كبير عن تاريخ فرنسا ، وطلبت من عالم النبات الشيخ أن يعطيها درسا خاصا فى التاريخ الطبيعى . وانبرى هذا العالم الطيب القلب

البسيط النفس لتدريسها بكل حماسة على امتداد خمسة عشر يوما ، وهو مبهور لشدة الاهتمام المفاجىء الذى لمسه لدى تلميذته !

أما هى فكان كل شىء فى احساسها لا معنى له ، فلا اكتراث حقيقى فى أعماقها بشىء من الأشياء ، وجميع الخواطر تفضى بها الى يأس مطبق . وكان عمها الشيخ مذعورا الهزال الذى دب اليها بسرعة . وعندما أصيبت بزكام عادى خيل للشيخ المسكين الذى تركزت كل اهتماماته فى الحياة فى هذه الصبية انها أصيبت بذات الصدر !

بل اعتقدت ارنستين ذلك أيضا ، ولأول مرة مزق حجاب يأسها المطبق بشىء من الأمل ، ولكنه كان أملا أسود ، فى انها ستقضى نحبها بسرعة ، وتتخلص من شقائها المضنى . وانقضى شهر كامل وما من احساس لديها الا بألم عميق ، زاد من شدته عليها انه لا انتفاع لها ولا جدوى لديها من الحياة ، وان احتقارها لذاتها لايريد أن يتضاءل ، وليس لها من عزاء عما يكربها الا فى الاعتقاد بأنه ما من أحد فى العالم يستطيع أن يخمن ما دار بسريرتها وانتاب قلبها من لواعج الحب الخائب ، وان الرجل القاسى الذى طالما شغل قلبها وفكرها لايمكن أن يخمن عشر معشار ما أحست به نحوه . وهكذا لم تفتقر فى محنتها وكربها الى الشجاعة وهى تلقى الى نيران المدفأة رسالتين عرفت فى مظروفيهما خط يد ذلك الرجل .

وكانت قد آلت على نفسها ألا تنظر أبدا الى المرج الذى تتوسطه البلوطة العتيقة فيما وراء البحيرة الصغيرة ، فكانت وهى فى الصالون لا تنظر أبدا من

الشرفة التى تكشف لها عن هذا المنظر . وذات يوم ، بعد ستة أسابيع من حادث اغمائها ، خطر لعالم النبات الذى يعلمها التاريخ الطبيعى أن يلقنها درسا عن النباتات المائية ، فركب معها زورقا وأبحرا الى الجزء الضيق من البحيرة حيث تلتقى بالوادى . وفى طريقهما مارين بالزورف أمام البلوطة القت من طرف عينها بنظرة تكاد تكون لا ارادية ، عرفت منها انه لا أحد بقرب تلك الشجرة ، ولاحظت ان جزءا من لحائها الداكن قد تغير لونه الى اللون الرمادى الفاتح . وبعد ساعتين عاد بهما الزورق من الطريق نفسه ، وارتجفت حين تبينت ان ما ظنته تغيرا فى لحاء الشجرة انما هو لون سترة فيليب استيزان ، الذى كان جالسا على جذور البلوطة البارزة عن سطح الأرض ، وقد جمد فى مكانه حتى كأنه ميت ! ووجدت قلبها يقفز فى صدرها لهذا الخاطر ، وجزعت لاضطرابها ولكنها قالت فى نفسها لئن كان قد مات ، فما عليها بأس من التفكير فيه والاهتمام بأمره . وكان ذلك كافيا لمدة بضع دقائق كى تجد ذريعة للاستسلام لسلطان الحب الذى تجددت قوته بمجرد وقوع بصرها على شخص المحبوب عن بعد .

وأفزعها أن تجد شعورها على هذا النحو . وفى اليوم التالى ، حضر فى المساء قسيس الناحية وطلب الى الكونت أن يقرضه مجموعة الشهر من صحيفة «المونيتير» ، وذهب الخادم المسن لاحضار مجموعة الشهر كله من هذه الصحيفة ، وعندئذ قال الكونت للقس :

ـ عجبا لك ! هذه أول مرة تطلب فيها منى اقتراض هذه الصحيفة !

ـ ذلك ياسيدى الكونت ان مدام دايسان كانت

تقرضني اياها طول مدة اقامتها هنا ، ولكنها رحلت عنا منذ خمسة عشر يوما !

وكان لهذه الكلمة العابرة وقع الزلازل فى قلب ارنستين ، حتى كاد يغشى عليها ، ووضعت يدها على قلبها وقالت :

ــ هكذا اذن مبلغ نجاحى فى نسيانه !

وفى هذه الأمسية عرفت ارنستين الابتسام لأول مرة منذ حادث اغمائها ، وقالت لنفسها :

ــ لقد بقي هاهنا فى الريف على مسافة مائة وخمسين فرسخا من باريس ، وترك مدام دايسان تسافر وحدها الى هناك !

وعادت الى ذهنها صـــــورته وهو جالس فى جمود التماثيل فوق جذور البلوطة . وكان كل عزائها منذ شهر انها أصيبت بداء الصدر الذى سيقضي عليها سريعا . أما الآن فقد شعرت ان من الأحوط ارتداء ملابس ثقيلة دفعا لغائلة البرد الذى أخذ يخيم على الناحية مع بوادر الثلوج الأولى . لقد عاد اليها حب الحياة ، ونشطت لديها غريزة المحافظة عليها .

واقترب عيد القديس ايبير ، حيث يقام فى القصر العشاء الكبير الوحيد على امتداد السنة ، ويدعى له أعيان الجيرة ... وانزل بيانو ارنستين لهذا الغرض الى الصالون . وعندما فتحته وجدت على أصابعه قصاصة فيها هذا السطر :

ــ لا تطلقي صرخة عندما تلمحينني !

وكانت الكلمات من الايجاز بحيث قرأتها قبل أن تتبين الخط .. ولولا انها سمعت من القس ماسمعت ،

لكانت خليقة أن تصعد الى حجرتها وتعتصم بها ، فلا تفارقها الا بعد انتهاء الحفلة . أما الآن ، فالوضع مختلف .

وبعد يومين أقيمت تلك المأدبة السنوية الكبرى فى عيد القديس ايبير . وكانت ارنستين على رأس المائدة فى مواجهة عمها الكبير ، وهى تلك الليلة آية فى الأناقة . وعن يمينها ويسارها قسوس الناحية وأعيانها من صفار النبلاء الذين راحوا يتحدثون عن مغامراتهم فى الحرب ، وفى الصيد ، بل وفى الحب ! ولكن أهم ماخاضوا فيه وأطنبوا فى الحديث عنه هو شجرة أنسابهم العريقة . وكان ذلك كله ثقيلا على قلب وارثة القصر التى كان وجهها الشاحب يضفى على ملامحها الجميلة سمة الازدراء والتعالى . ولذا شعر أولئك الثقلاء بالتهيب وهم يوجهون اليها الكلام . أما هى فكانت أبعد ما يمكن عن النزول بنفسها الى مستواهم !

وانقضت بداية العشاء من غير أن تلاحظ شيئا غير عادى ، وبدأت تتنفس الصعداء عندما التقت عيناها بعينى فلاح متقدم فى السن ، فى ثياب التابع الخاص لأحد عمد القرى التى تحف بشواطىء نهردراك ، فشعرت بتلك الحركة فى صدرها التى حدثت لها عند سماع كلمة القس منذ عدة ليال ، مع انها لم تتأكد من شىء ، فهذا الفلاح لا يشبه فى شىء فيليب ، ولكنها حين تجاسرت على النظر اليه كرة أخرى ، أيقنت انه فيليب ، وقد تخفى وتنكر بحيث غدا شديد القبح .

وقد آن الأوان كى نتحدث قليلا عن فيليب استبان ، لأن تصرفاته تصرفات عاشق ، وقد نجد فى حكايته فرصة لاثبات نظرية مراحل الحب السبعة ...

الفصل التاسع عشر :

فيليب

قبل تلك الليلة بخمسة أشهر حدث أن زار أحد القسوس قصر لافرى حيث تقيم مدام دايسان مع فيليب . وأثناء الحديث قال القسيس عبارة بارعة جدا ادهش فيليب صدورها عن مثل ذلك الرجل ، فسأله من الذى قال له هذه العبارة الجميلة ، فقال القس :

ــ انها ابنة أخ الكونت س ، وهى فتاة سترث ثروة كبيرة جدا ، ولكن تربيتها سيئة ! فلا تمضى سنة من غير أن تتلقى من باريس صندوقا كبيرا بهكتب ، وأخشى أن تنتهى بسبب هذه القراءة الدنيوية الكثيرة نهاية سيئة ، والا تجد زوجا يقترن بها . فمنذا الذى يمكن أن يثقل كاهله بامرأة من هذا الطراز ؟..

ووجه اليه فيليب عندئذ عدة أسئلة ، ولم يستطع القس أن يكتمه انها رائعة الجمال ، وشفع ذلك بقوله ان ذلك سيكون من عوامل بوارها أو ضياعها ! ووصف له بصدق مدى السأم الذى يخيم على الحياة فى قصر الكونت ، حتى لقد صاحت مدام دايسان :

ــ كفى يا أبانا ! فسوف يؤدى كلامك هذا الى كراهيتى جبالكم الجميلة هذه !

ولكن فيليب كف عن الاصغاء لبقية الحديث الذى

اتصل بعد هذا بين ربة القصر وذلك القس ، لانشغاله بالتفكير فى ارنستين هذه ، وفيما يمكن أن يدور فى قلب فتاة مثلها شابة منعزلة فى قصر عتيق بلغ من سـآمته وخامته ان القس الريفى نفسه يراه مملا مضـجرا لايطاق العيش فيه !

وقال فيليب فى نفسه :

ـ لابد أن أسرى عن هذه الفتاة وأسليها ، ولأغازلنها باسلوب رومانسى طريف ، عسى أن أدخل على حيـاة هذه المسكينة شيئا من التجديد .

وفى اليوم التالى ذهب ليصطاد على مقربة من قصر الكونت س ، ولاحظ موضـع الغـابة الصغيرة ، التى لايفصلها عن أبراجه سوى البحيرة الصغيرة ، فخطر له أن يهدى باقة أزهار صغيرة الى ارنستين ...

وقد عرفنا من السياق فى الفصل السابق ما كان من أمر هذه الباقات والقصاصات . وكان عندما يذهب الى الصيد فى تلك البقعة يضعها بنفسه فى فجوة البلوطة العتيقة ، أما فى الأيام الأخرى ، التى لا يصطاد فيهـا هناك ، فكان يكلف بهذه المهمة خادمه الخاص .

وكان الدافع فى ذلك الحين لفيليب الى هذه التصرفات مجرد الرغبة فى القيام بعمل خيرى . ولم يفكر اطلاقا فى رؤية ارنستين ، فقد كان من الصعب جدا أن يقحم نفسه على عمها بزيارته ، ثم ان هذه الزيارة خليقة ان تكون مسئمة مضجرة لفيليب الى أقصى حد .

وعندما رأى ارنستين للمرة الأولى فى الـكنيسة كان أول ما خطر له انه أكبر سنا من أن يروق فتاة صغيرة السن فى الثامنة عشرة أو العشرين من عمرها . وقد

اثر فيه جمال ملامحها ، واثر فيه اكثر من ذلك ما تتسم به من بساطة نبيلة تفيض من محياها وهيئتها بعامة ، وقال فى نفسه :

ـ أن فيها لبراءة وسذاجة !

وبعد لحظة استولى عليه الاحساس بأنها فتانة ساحرة . ولما رأى كتاب الصلوات يقع من يدها وهى تهم بمغادرة الأريكة الخشبية المخصصة لآل الكونت س فى مقدمة الصفوف ، ثم انحنت فى ارتباك واضح لالتقاطه ، خطر له حبها ، لأن الأمل فى الفوز بها داعب خياله . ولبث فى الكنيسة بعد خروجها ، غارقا فى تأملات غير سعيدة بالنسبة لرجل بدأ يساوره الحب ، فهو فى الخامسة والثلاثين ، وشعر رأسه بدأ يخف ، الأمر الذى يضيف الى عمره أربع سنوات أو خمسا ، وقال فى نفسه بحنكة العاشق المجرب :

ـ ان كان عمرى لم يخسر الجولة الأولى لديها ، فينبغى أن أجعلها تشنك فى ظفرها بقلبى كى تنسى تماما مسألة العمر !..

واقترب من نافذة قوطية صغيرة تطل على ساحة الكنيسة ، فرأى ارنستين تستقل العربة ، ورأى لها قامة فاتنة وقدما صغيرة بديعة ، وشاهدها توزع الصدقات على الفقراء ، وخيل اليه ان عينيها تبحثان عن شخص ما بين الناس ، ثم وراء جموعهم ، فقال لنفسه :

ـ ولماذا ترسل نظرتها الى بعيد ، مع انها توزع النقود على المحدقين بالعربة ؟ أترانى قد اثرت اهتمامها الى هذا الحد ؟

وأبصر ارنستين تكلف أحد خدمها بمهمة ، فانتشى في هذه اللحظة بجمالها ، ولاسيما عندما احمر وجهها ، لأن عينيه من وراء النافذة كانتا قريبتين منها لاقتراب العربة عند تحركها من موضعه ، ثم توقفت العربة انتظارا لعودة الخادم الذى رآه يدخل الكنيسة ويبحث عن شيء ما على الأريكة الخاصة بآل الكونت . وتأكد له في هذه الأثناء ان نظرات ارنستين تتجاوز قامة الناس من حول العربة ، بحثا عن أحد ، ولكن هذا الشخص يمكن الا يكون فيليب استيزان ، الذى لعله في نظر هذه الصبية الساذجة شيخ في الخمسين ــ حسب تقديرها ــ أو السنين ــ من يدرى ؟ وهل يعقل ان فتاة في مثل ثرائها الطائل وشبابها الناضر وجمالها الزاهر ليس لها من شبان الجيرة من يخطب ودها ، ويداعب قلبها ، أو يطلب يدها ؟ ولكنه راجع نفسه في ذلك لأنه لم يلمح أحدا من هذا القبيل أثناء القداس .

وما أن غادرت عربة الكونت ساحة الكنيسة حتى امتطى استيزان صهوة جواده ، ودار دورة كبيرة في ممرات الغابة كي يتحاشى الالتقاء بالعربة في بعض الطريق ، ولما قدر انها وصلت الى القصر ، اتجه نحو المرج الذى تتوسط البلوطة بسرعة ، وسره كثيرا انه وصل الى هناك قبل ان تذهب ارنستين الى الشجرة ، وأسرع برفع الباقة التى كان قد وضعها خادمه كالعادة هناك ، وأخذها الى الغابة ، حيث ربط جواده في ظلماتها ، ونزل يتمشى على قدميه ، الى أن اهتدى الى أجمة تطل على البحيرة ، فتوارى بين أشجارها عن جميع العيون ، ولكن عينيه لم تفارقا البلوطة العتيقة وشاطىء البحيرة .

وكم كانت سعادته عندما أبصر بعد قليل ارنستين

قادمة بمفردها وهى تكاد تلهث من سرعة سيرها الذى يشبه الجرى ، فكانت هــذه اللحظة هى الحاسمة ! فانطبعت صورتها فى فؤاده . ومنذ هذه اللحظة صار لأرنستين ما يميزها فى عينيه من سائر النساء جميعا ، ولم يعد ينقصه كى يحبها حبا جنونيا الا الأمل. ورآها تقترب من البلوطة فى لهفة ، ورأى امارات الألم الشديد على وجهها عندما لم تجد الباقة . وكانت هذه اللحظة غاية فى اللذة لديه ، وغاية فى الحدة . وأخذ يقــارن بين صورتها عندئذ وهى تبتعد ثقيلة الخطا أسـيفة المحيا ، وبين صورتها فى الـكنيسـة وقد فاض وجهها باليقظة والتوثب والحياء فى آن واحد ، فتجلى جمالها وشبابها على أحسـن حال ، ولمعت بالأمل عيناها .

ولما اختفت عن ناظريه آخرج فيليب من مكمنه وقد غدا رجلاآخر غير الذى كانه قبل قدومها . وتنازعته فكرتان ،وهو يعود على صهوة جواده ركضا الى قصر مدام دايسنان : أتراها حقا حزنت أم خدعتنى عيناى عندما لم تجد باقة الزهر فى موضعها من فجوة البلوطة؟ وهل هذا الحزن لخيبة أملها فى الحب أم لجرح أصاب كبرياءها ؟. . وتغلب الاحتمال الأخير عليه ، لأنه اليق بتفكير رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره يأخذ الأمور مأخذ الجد ، وأسلمه ذلك الى الوجوم .

ووجد اناسا كثيرين عند مدام دايسان ، ومازحته عشيقته أثناء السهرة ســاخرة من حـــده ووجومه . ولاحظت انه كلما مر أمام مرآة من المرايا الكثيرة المبثوثة فى الصالون ، لم يتمالك نفسه من النظر الى سحنته بامعان ، وقالت له مداعبة :

ــ وأنا ابغض أشد البغض هذه العادة الفاشية فى

الشبان ، وكنت خاليا من هذه الخصلة ، فحاول أن تقلع عنها ، والا عاقبتك بنزع جميع المرايا من مواضعها!

وارتبك فيليب ، ولم يدر كيف يداري شرود ذهنه. والواقع انه كان يستنطق المرايا عن رايها في سحنته ، وهل يبدو حقا متقدما في السن .

وفي اليوم التالي اتخذ موضعه في ذلك المكمن الذي أشرنا اليه ، والذي يبدو للمختبيء فيه منظر البحيرة بوضوح تام ، وحرص على أن يحمل معه منظارا . ولم يبرح مكانه هذا الا بعد أن خيم الليل . وفي اليوم الذي بعده أتى معه الى ذلك المكمن بكتاب ، ولكنه لم يعرف شيئا مما قراه في صفحاته . وأخيرا ، قرب الساعة الثالثة ، كاد قلبه يثب من صدره عندما أبصر ارنستين تقترب ببطء من الممشى المفضي الى البحيرة ، وتأخذ طريقها بعد ذلك الى المرج وعلى رأسها قبعة كبيرة من القش الايطالي .

ودنت أخيرا من البلوطة العتيقة ، وهي واجمة ، وابصرها تأخذ بيدها الباقتين الصغيرتين اللتين كان قد اتى بهما في ذلك الصباح ، ووضعتهما في منديلها ، ثم اختفت عن الأنظار بسرعة البرق . فأتم هذا السلوك البسيط البريء الساذج أسر فؤاده ، وان كانت سرعتها لم تمكنه من تبين أسارير محياها ، وهل فارقها الوجوم ولمعت عيناها أم لا .

وتساءل ماذا عساها ستفعل بالباقتين . هل ستريهما لمربيتها ؟ انها ان أقدمت على هذا كانت مجرد طفلة . وليكونن أشد طفولة منها ان واصل الاهتمام الى هذا الحد بصبية مثلها . وقال في نفسه :

ــ من حسن الحظ انها لا تعرف اسمي ، وأنا وحدي

الذى أعرف جنونى وطيشى !

وغادر فيليب مخبأه وهو مطرق ، لايدرى ماذا كان من أمر ارنستين ، ولكن رجح لديه أن تكون قد تصرفت كما توهم ، وأخذ يؤنب نفسه على اهتمامه بمثل هذه الطفلة . واكتسى وجهه بالصرامة والجد وهو يهبط عن صهوة جواده فى فناء قصر مدام دايسان ، فمن يراه يدرك انه لم يعد ذلك العاشق الذى كانه فى الصباح .

وفى اليوم التالى قال لنفسه انها لبلاهة أن يقطع مثله ثلاثة فراسخ كى يرقب تصرفات تلك الطفلة . ثم لم يلبث أن تساءل :

ـ ولـكنها بلاهة فى نظر من ؟ لا أحد سواى يعرف الحقيقة . ولا ينبغى أن ينكص الرجل العاقل عن تجربة حظه !

وهكذا جلس فكتب رسالة طويلة جدا ، كشف فى نهايتها عن اسمه . وكانت رسـالة جيـدة التحرير والتحبير . وهى الرسالة التى كان مصيرها الالقاء بدون قراءة فى نيران المدفأة ، كما يذكر القارىء ، لمجرد صدورها عن رجل له هذا الاسم . وكان فيليب مختبئا فى مكمنه المعتاد عندما أحدث اسمه هذا التأثير المروع فى نفس ارنستين ، ورآها تصـاب بالاغماء ، فاسـتولت عليه دهشـة بالغة !

وفى الغد ، اضطر الى الاعتراف لنفسه بأنه عاشق ! فتصرفاته كلها كانت دليلا على هذا . وصار يذهب كل يوم الى الغابة الصغيرة ، التى كانت مسرحا لأحاسيسه الحادة . ولما كانت مدام دايسان وشيكة العودة الى باريس ، تفتق ذهنه عن حيلة بارعة ، اذ زعم انه تلقى خطابا من أسرته تخبره بمرض عم له مسن ، فلابد له

اذن من الذهاب للاقامة عنده بعض الوقت فى برغنديا.
وركب عربة البريد فى يوم رحيل مدام دايسان ، متجها الى برغنديا ، ولكنه غادرها بعد عدة فراسخ ، وعاد من طريق آخر ، واستقر فى نزل على مسافة فرسخين من قصر الكونت س . وهكذا لم ينقض سوى يوم واحد لم يذهب فيه الى الغابة الصغيرة ... وصار يذهب كل يوم الى شاطىء البحيرة ، وواظب على ذلك ثلاثة وثلاثين يوما على التوالى ، من غير أن يظفر برؤية ارنستين . فهى قد انقطعت أيضا عن الذهاب الى الكنيسة ، وصارت تقيم الصلاة فى القصر . فعمد الى الاقتراب من القصر متنكرا وظفر برؤيتها مرتين ، وفى كل مرة كان يجد لمرآها رجفة ، ولمحياها النبيل البسيط هيبة وجلالا ، وجعل يقول لنفسه :

ـ لعمرى لن أشبع من قرب امرأة كهذه !

وكان أكبر ما أثر فى فيليب شدة شحوب وجه أرنستين وما يبدو عليها من الضنى . وأخيرا استقر رأيه على أن يستجلى موقفها منه ، وانه لابد لهذا أن يدخل قصرها. ولما آنس فى نفسه التهيب من تلك الفكرة ، زجر نفسه ، فما يليق الخجل والتهيب برجل فى الخامسة والثلاثين من عمره .

وكان مشروع فيليب خليقا أن يصاب بالحبوط التام، لولا تلك الكلمة العارضة التى بدت على مسمع من ارنستين ، من أن مدام دايسان رحلت وحدها منذ زمن، فتفتح قلبها لحبه وتغلب على ما فى نفسها من الغضب عليه .

ورضى صديق له من عمد القرى كان يصاحبه فى الصيد أن يأخذه الى مأدبة القصر فى زى تابع له. وهناك كما يعلم القارىء وقع بصر ارنستين عليه . فلما عرفته

احمر وجهها احمرارا شديدا . لامت نفسها عليه ، لأنها خشيت أن يظن بها الخفة ، وعندئذ ينفض يده منها ، ويعود الى عشيقته فى باريس ، لأنه وجدها غير جديرة بحب رجل مثله .

وزودتها هذه الفكرة القاسية بالشجاعة اللازمة كي تغادر المائدة وتصعد الى حجرتها . ولم تمض عليها هناك دقيقتان حتى سمعت باب حجرة الانتظار فى جناحها يفتح ، فسبق الى ظنها انها مربيتها ، فنهضت وهى تفكر فى ذريعة تصرفها بها . وبينما هى تتقدم نحو باب حجرتها ، اذا بهذا الباب يفتح ، ودخل منه فيليب فجثا عند قدميها :

ـ أناشدك الله أن تغفرى لى جرأتى ؛ فأنا أتخبط فى ظلمات اليأس منذ شهرين . أتقبلينني زوجا ؟

وكانت لحظة رائعة لأرنستين ، التى قالت فى نفسها :

ـ انه يطلب الزواج منى ، فلا ينبغى اذن أن أخشى مدام دايسان .

وبحثت فى ذهنها عن جواب صارم ، ولكنها لم تجده . فقد انقضى عليها شهران وهى فى جحيم العذاب ، وها هى السعادة تغمرها فجأة ، وترفعها الى الذرى . ومن حسن الحظ ان باب حجرة الانتظار فتح فى تلك اللحظة ، فلما سمعت ارنستين الصوت قالت له :

ـ لقد لوثت سمعتى وشرفى !

فهمس لها فى هدوء :

ـ لا تبوحى بشىء . اثبتى !

وأسرع بمهارة شديدة فاختفى خلف فراش ارنستين وراء ستائره الثقيلة لصق الحائط .

وكان هذا الوقت فرصة كافية كي تسترد ارنستين هدوءها ، وتضبط انفعالاتها وتتعود السعادة التى

دهمتها على حين غرة . واستطاعت أن تجيبه جوابا لائقا رائعا عندما برز من كلمته ، فصرفته من حجرتها بأنفة شديدة ، جعلته يخال كل ما كان موقنا منه مجرد وهم ، لأنها قالت له ان جميع أشغاله ، ومشاغله ، وعواطفه ، موجودة فى باريس لا فى هذه البقعة من الريف ! وانه يحسن به أن يعجل بالذهاب الى هناك ! فأسرع يقول لها ان كل ما يشغله انما هو الظفر بقلبها ، وانه لن يبرح هذه الناحية ما دامت موجودة فيها .

وفى اليوم التالى ذهبت الى مكان البلوطة العتيقة ، فى صحبة مربيتها ومعلمها الشيخ عالم النبات ، وهناك وجدت باقة وقصاصة . وبعد ثمانية أيام من المحاولات المتكررة ، كاد يقنعها بالرد على رسائله ، واذا بها تعلم بعودة مدام دايسان من باريس ، فاستولى عليها قلق شديد ، فقد ذكرت لها بعض سيدات الناحية من أعيان الفلاحين انها جاءت لتسترد عشيقها الذى قيل انه عزم على الترهب ، وانه لهذا السبب اعتزل الناس فى هذه البقعة. وان ذلك القرار منه أطار صواب مدام دايسان.

وعرفت أرنستين بعد بضع أيام أن مدام دايسان لم تتمكن قط من مقابلة فيليب ، فعادت غاضبة الى باريس . وكان فيليب شبه مجنون فى هذه المدة التى لزمت فيها ارنستين الصمت الى أن تأكدت من الحقيقة، وزاد ولعه بها ، وقد حسب انها لا تحبه . وحاول كثيرا أن يتعقب خطواتها ، ولكنها عاملته بجفاف رده على اعقابه ، حتى لقد حاول الرحيل يائسا ومتنازلا عن حبه الفاشل ، ولكنه عاد من منتصف الطريق أدراجه .

وبانجلاء الموقف نمت حلقات ميلاد حب جارف فى قلب ارنستين ، وفى قلب فيليب .

الفصل العشرون :

نماذج من الحب لدى الطبقة الثرية فى فرنسا

كتب الى صديقى جونسيلان الرسالة التالية ، أنشرها كما هى :

مدام « فيليسى فيلين » فرنسية شابة فى الخامسة والعشرين من عمرها ، لها أراض شاسعة بديعة وقصر حصين بديع فى برغنديا . أما هى فقبيحة ، ولكنها ممشوقة القد ومزاجها عصبى لمفاوى . وهى أبعد ما تكون عن البلاهة ، ولكنها ليست ذات روح متوقد ، ولم تصادف فى حياتها فكرة واحدة قوية أخاذة تستولى على نفسها . ولما كانت قد تربت على يد أم ذكية ، وفى مجتمع راق جدا ، فهى شديدة البراعة والدهاء ، ولديها « منوال » تنسج عليه فى تفكيرها وأقوالها ، مرددة على الدوام عبارات الآخرين ، وباتقان شديد يوحى بأنها صاحبة هذه الآراء ! بل انها وهى تلقيها تتصنع دهشة الابداع والارتجال . ولذا تبدو فى نظر من لم يروها الا مرات قليلة ، أو فى محيط محدودى الذهن المحدقين بها ، فى صورة المرأة المتوقدة الذهن !

ولها فى الموسيقى نفس مواهبها فى الحديث ، فكانت وهى فى السابعة عشرة تتقن العزف على البيانو ، بحيث كان فى مقدورها لو شاءت ان تعطى دروسا فى البيانو

مقابل ثمانية فرنكات فى الساعة . ولكن ثروتها الطائلة لم تحوجها الى شيء من هذا بالطبع . وكانت اذا ذهبت الى احدى أوبرات روسيني ، استطاعت فى الغداة أن تتذكر نصف ألحانها على الأقل ، وتعزفها على البيانو . واذا وضعت أمامها مقطوعة جديدة لم ترها من قبل ، عزفتها على الفور باتقان محمود مهما كانت صعوبتها . ولكنها مع هذا « لا تفهم » المعزوفات الصعبة العميقة وان استطاعت أداءها . وهذا أيضا هو عين مستواها فى القراءة . لا تفهم الأفكار العميقة ، ولكنها تتقن أداءها والقاءها !..

وقد استأجرت معلما فى الهارمونى ذائع الشهرة فى المانيا ، ولكنها لم تستطع أن تفهم منه كلمة! أما الرسم، ونقل اللوحات ، وتصور الأزهار بالألوان ، فقد برعت فى هذا كله وتفوقت على أساتذتها فيه ، بشرط ان تكون اللوحات الأصلية أمام عينيها ! ولكن اذا كان فى هذه اللوحات منظور بعيد المدى ، أو معقد ، لم تفهمه ، وان أحسنت نقله !

وعدم البراعة فى فهم الأمور الصعبة أو العميقة سمة من سمات المرأة الفرنسية ، فمتى وجدت شيئا غير سهل المأخذ استولى عليها السأم .

وفى سن الثامنة عشرة تزوجت مدام فيلين زواج مصلحة وتقاليد ، من شاب طبيب فى الثلاثين من عمره ، مزاجه خليط من اللمفاوى والدموى ، مفرط الطموح والعصبية ، طيب القلب ، دمث ، وفيه فدامة تشبه الغباء . ولم أر فى حياتى رجلا يضاهيه فى التجرد التام من اللماحية والألمعية ! ولكنه مع هذا نجح نجاحا كبيرا فى دراساته بمدرسة البوليتكنيك ، حيث عرفته ،

وتحدث الناس عن مزاياه فى المجتمــع الذى تربت فيه فيليسى ، مع انه لايحسن شيئا سوى ادارة مناجمه ومصاهره بتفوق وامتياز .
وقد احتفى بزوجته الشابة ما وسعه الاحتفاء ، ولكنها كانت كائنا ثلجيا لا يجدى معها شىء ! ولم يدم لديها الا ثمانية أيام ذلك النوع من العرفان الحنون الذى يلهمه الأزواج عادة لأقل الفتيات اكتراثا بهذه الأمور .

واكتشفت من عشرتها له انه فى الخلوات شــــديد الفدامة وثقل الظل ، وانه فى المجتمعات يبــدو بفدامته سخيفا مضحكا ، ولــكن أسعدها انها تزوجت من رجل طائل الثراء ، وان الأوساط العملية تتحدث عن قدراته ومزاياه ، فكانت تعد ذلك تهنئة خاصة لها ! ومع هذا كانت تعامله باعراض . ولما كان نسبه أقل رقيا من نسبها الرفيع، توهم انها تعامله بترفع الدوقات ، فأسرع بالابتعاد عن جوارها . ولما كان رجلا كثير الأشغال جدا ، وليس صعب المراس ، لم يكن شىء أحب اليه أو أروح لخاطره من الجلوس قليلا الى امرأته فيما بين مراجعة تقارير الحسابات ورؤساء العمال وتجربة الآلات الجديدة، وعندئذ يحلو له بعض الشىء أن يغازلها قليلا . ولــكن ذلك قلب تباعدها عنه الى نفور ، لأنه كان يقــدم على مغازلتها أمام آخرين من الزوار ، ومنهم أنا شخصيا ، فيبدو فى تصرفه ذلك قليل الــكياسة فاســد الذوق مبتذلا عامى السلوك .

واعتقد انى كنت خليقا أن أصفعه او انه فعل ذلك أمامى مع امرأة أخرى . وكنت الاحظ على فيليسى جفافا شديدا فى الروح، وافتقارا تاما الى الحساسية الحقيقية . وكثيرا ما كان صبرى ينفد لشدة غرورها . ولذا كنت

أراها تعانى بسبب غرورها هذا من تصرفات زوجهـا السمجة .

ومضت الحياة على هذا الحال بتلك الأسرة زمنا ـ فهى لم تنجب اطفالا فط ـ وطوال تلك الفتره كان الزوج يعيش فى صحبة طيبة عندما يكون فى باريس (فهو لم يكن يمضى اكثر من سته أسابيع من الصيف فىمصانع الحديد التى يملـكها ببرغنديا) ولذا اقتدى بتلك البيئه وتحسن نوعا ما . مع بقائه فدما سمجا فى صميمه ، ولـكنه لم يعد مضحكا ، ونجح نجاحا هائلا فى أعماله ، بدليل الممتلـكاتالواسعة التى اشتراها بعد زواجه ، والشهادات التى حصل عليها فى معرض المصنـــوعات الوطنية الفرنسية .

والآن زوجته صدته ، اعتقد انه عاشق لها حقا ، وكان اعتقاده هذا بحسن نية ، وكانت هى تسوسه وتشعل عواطفه بحنكة ، فتقول له أعذب العبارات وأرقها علنا، ثم تجد الذرائع والتعلات لصده فى الخلوة ، وبذلك زادت من رغبته فيها .. وحينما تتنازل أخيرا وتسمح له ان .... كان يدفع كل فواتير المنجدين ، والخياطين والصياغ الباهظة ، ويجدها مع هذا معتدلة جدا فى نفقاتها !

وحتى سن العشرين أو الحادية والعشرين (أى فى السنتين أو الثلاث الاولى من الزواج) لم تكن فيليسى تنشد اللذة الا فى المباهج التالية :

* أن تكون صاحبة أجمل الأثواب بين سائر نساء المجتمع الشابات .

* ان تتلقى أعظم وأغزر التهانى والثناء على عزفها المنفرد على البيانو .

* أن تبدو أذكى وأصفى قريحة من سائر نساء المجتمع .

ولكن فى سن الحادية والعشرين بدأ لديها ما يسمى « غرور العواطف » .

وكانت قد تربت على يد أم ملحدة ، وفى بيئة من الفلاسفة الملحدين . فلم تذهب الى الكنيسة الا مرة واحدة فحسب ، كى يعقد قرانها ، وكان ذلك على مضض منها . وراحت منذ زواجها تطالع كل ألوان الكتب ، ووقعت فى يدها كتب روسو ومدام دى ستايل . وانها لكتب خطرة .

وكان « اميل » أول ما قرأت ، وبعد الفراغ منه اعتقدت ان لها كل الحق فى احتقار عقلية من تعرفهن من الشابات ، مع انها لم تفقه كلمة واحدة من ميتافيزيقا قس سافوا . ولكن عبارات روسو متقنة الصياغة ، مرهفة المعانى والمرامى ، ومن الصعب حفظها . فاكتفت بالتظاهر ببعض التدين ، كى تحدث تأثيرا بالاختلاف والمباينة فى بيئة لا تدين فيها على الاطلاق .

وقرأت « كورين » ، وأعادت قراءتها مرارا ، ففى هذه الرواية عبارات ذات رنين يسهل حفظها . وقد حفظت منها عددا لابأس به . وكانت تتخير للأمسيات فى صالونها شبانا غير مثقفين ، وليست فيهم فطنة ، فتعيد على مسامعهم ما حفظته فى درس الصباح ! وكان فريق منهم يؤخذ ويظنونها امرأة متوقدة الأحاسيس ، فوجهوا الى مخاطبة مشاعرها الرقيقة كل عنايتهم ! ولكنها كانت حريصة ألا تنتهج هذه الخطة الا مع البلهاء من الشبان الذين يرتادون صالونها ، خشية أن يسخر الفطنون الأذكياء منها . أما الزوج فكان مشغولا

خارج البيت فى معظم الأحيان ، ثم هو رجل طيب ، فلم يلاحظ شيئا ، ولم يشغل باله بتلك الفندرة الفكرية .

وقرأت فيليسى « الويز الجديدة » . ، فاكتشفت فى روحها كنوزا من الحساسية ، وأفضت بذلك الى أمها الى خال مسن كان لها بمثابة الأب ، فسخرا منهـا سخريتهما من طفلة . ولـكنها لم تستطع أن تقتلع من ذهنها ان الحياة لا تستقيم بغير عشيق ، وعشيق من طراز « سان برى » Saint - Preux بطل هذه الرواية .

وكان فى بيئتها سويدى شاب ، وهو رجـل غريب الأطوار . تخرج فى الجامعة وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، فانخرط فى سلك الجندية واتى بأعمال باهرة فى معارك عام ١٨١٢ ، وحصل على مرتبة رفيعة فى قوات بلاده المسلحة ، ثم رحل الى أمريكا حيث عاش ستة أشهر بين عشائر الهنود الحمر . وهو ليس غبيا ولا متوقد القريحة ، الا آن له شخصية قوية وخلقا متينا، وفيه جوانب كثيرة تدل على الفضيلة وسمو النفس . بيد انه أشد من عرفت من الرجال لمفاوية فى طبعه ، بالاضافة الى شكل وسيم وقامة جميلة وبسـاطة فى السلوك الذى يتسم بالمهابة والوقار الشديد فى الوقت نفسه . ومن ثم كان موضع الحفاوة والتقرير العظيم فى كل مكان يحل فيه .

فقالت فيليسى فى نفسها :

ـــ هاهو الرجل الذى ينبغى أن أتظاهر بأنه عشيقى، ولما كان أبرد الرجال عاطفة ، فتعلقه بى خليق أن يتيح لى أعظم نصيب من الاطراء !

وكان هذا السويدى ــ واسمه فايلبرج ــ صـديق

حميم للأسرة ، وقبل هذا التاريخ بخمس سنوات كان قد اشترك مع الزوج فى احدى الرحلات . ولما كان رجلا شديد الصرامة فى طباعه وخلقه ، ولم يكن عاشـــقا لفيليسى على الاطلاق ، لذا كان يراها على حقيقتـــها الواقعية ، أى يراها قبيحة جدا . ولم تكن لديه فكرة سابقة عما يراد به فى تلك الرحلة . وأما الزوج فـكان شديد الضيق بتلك الأجواء الغريبة عليه ويتلهف على فرصة للتخلص من سفر لم يقدم عليه الا ارضـــاء لزوجته ، كى يتفرغ لأعماله الـكثيرة ، لذا تركها عند أول مرحلة وعاد أدراجه للمرور على المناجم والمصانع فى المناطق المجاورة ، قائلا لفايلبرج :

– سأترك زوجتى فى رعايتك ياجوستاف !

وفايلبرج لايتكلم الفرنسية الا بصعوبة شديدة ، ولم يطالع قط روسو ولا مدام دى ستايل ، فكـانت هذه فرصة بديعة لفيليسى كى تمارس فيه ثقافتها المنتحلة وبديهتها المستوحاة .

وتصنعت المرأة الشابة المرض كى تثير شفقة الشاب الطيب القلب الذى كانت تنجح معه دائما حين تخلو اليه فى جلساتها . ولـكى ترقق قلبه حدثته عن الحب الذى تحسه دائما نحو زوجها ، وعن أساها وشجونها لأن هذا الزوج لا يستجيب لحبها ولا يبادلها اياه !

ولم يكن هذا « اللون » يروق فايلبرج ، الذى كان يصغى له بدافع التهذيب فحسب . بيد انها خالت انها أحرزت معه تقدما ملحوظا ، فشرعت تحدثه عن التعاطف الذى نشأ فيما بينهما ، فتناول جوستاف قبعته وخرج يتنزه سائرا على قدميه .

ولما عاد اظهرت غضبها منه ، وقالت له أنه أهانها اذ اعتبر كلمة المجاملة والترحيب التى صارحته بها وكأنها اعلان حب .

وفى الليل ، عندما خرجا للنزهة فى العربة ، وضعت راسها على كتف جوستاف ، الذى تحامل على نفسه ليتحمل هذا العبء ، من باب التهذيب فحسب .

واستمرت أسفارهما وجولاتهما على هذا النحو شهرين ، انفقت فيها أموالا طائلة ، وكانت تمثل فيه دور العاشقة وكان هو فريسة للملل لا حد له !

ولما عادا من الرحلة ، غيرت فيليسى من عاداتها جميعا ، ولو كان فى مستطاعها أن ترسل « اخطارات » لبعثت بها الى جميع أصدقائها ومعارفها تعلمهم انها متيمة بحب المسيو فايلبرج السويدى ، وانه قدصار عشيقها !

لقد كفت عن غشيان المراقص واقامتها ، وكفت عن الظهور فى المجتمعات ، وأهملت كل أصدقائها القدامى. اى انها بايجاز ضحت بكل ما تميل اليه كى توحى للجميع الاعتقاد بأنها غارقة فى حب المسيو فايلبرج الذى عاش مع الهنود الحمر المتوحشين ، وحصل على رتبة الكولونيل فى الجيش السويدى وهو فى الثامنة عشرة من عمره ، وان هذا الرجل مجنون بها أيضا .

وبدا بالايعاز بذلك الى والدتها منذ يوم وصولها ، فهذه الأم — فى نظرها — قد زوجتها من رجل لم تكن تحبه ، فينبغى عليها الآن أن يؤيد بكل قواها ووسائلها حبها للرجل الذى وقع عليه اختيارها ، والذى تحبه حب العبادة . ويجب عليها أن تجد الذريعة لاقناع

الزوج بدعوة هـذا العشيق الى الاقامة المستقرة فى البيت ، فما لم تجده باستمرار لديها فى بيتها . فهى خليقة أن تذهب للاجتماع به كل يوم فى مسكنه الخاص!

وصدقت الأم هذا كله ، وبذلت كل جهدها مع زوج ابنتها لتقنعه بأن فايلبرج لا ينبغى أن يكون له بيت سوى بيته هو وابنتها . وهكذا شرع شارل (الزوج) يلح على جوستاف الحاحا متواصلا ، وراحت الأم تترضـــاه وتتقرب اليه ، بحيث أحرج الشاب السويدى المسكين ، فهو لايدرى ما يبيت له ولا ما يراد منه ، ويخشى أن يفرط فى الاساءة بالرفض الى اناس يظهرون له كل هذا الود والترحاب ، وراودته نفسه على الكف عن التأبى عليهم .

والنساء فى استطاعتهن البكاء متى شئن ، كما تعلم . .

ففى ذات يوم ، وأنا فى زيارة فيليسى ، شرعت تبكى بدمع مدرار ، وضغطت على يدى بشدة وهى تقول :

ـ آه أيها الصديق العزيز ! لقد أحسنت صداقتك المخلصة استبصار ما يدور بقلبى ! فقد كنت فيما مضى على خير علاقة مع جوستاف قبل رحلتنا ، ولكنك بعد هذه الرحلة تغيرت كثيرا . حتى لكأنك تكن له البغض والحقد (ولم يكن هـذا صحيحا إطلاقا ، فأنا أدرى بالحقيقة) آه ياصديقى ! أما أنا فلم أكن سعيدة فيما قبل الرحلة ، أما منذ بدأت الرحلة ... وآه لو تدرى كل أنواع التصرفات الهمجية التى بدرت من جوستاف أثناءها ! آه لو عرفت جوستاف على حقيقته ! وأى رقة وأى عذوبة طائشة جارفة يتسم بها هواه لى ! فهل كان فى مقدورى أن أقاوم مثل هـــذا الحب الوحشى الضارى! آه لوعرفت روحه النارية ، وعواطفه الملتهبة،

التى تختفى تحت مظهره البارد برودة الثلج ! وأنا أدرى الناس بما ينقصنى ، وبأن سعادتى الغامرة هذه ليست صافية كل الصفاء ، لأنى أعرف واجبى نحو شارل زوجي ! ولكن اعذرنى ياصديقى ، وأنا حائرة بين عدم مبالاة أحدهما وفتوره وازدرائه ، وبين اهتمام الآخر وعنايته وحبه المشتعل كالنار . ثم تذكر تلك الألفة والمخالطة المستمرة الاجبارية التى تفرضها حياة السفر والارتحال بمفردنا معا.. معانىذلك من مخاطر ومزالق. فهل كان بوسعى أن أقاوم كل هذا الحب ؟ ثم هل كان بوسعى أن أقاوم هجماته العنيفة التى لم يتورع عن شنها على جسدى المحروم ؟

وهكذا صار فايلبرج الذى لا يقل نقاء وبراءة عن سيدنا يوسف ، متهما باغتصاب زوجة صديقة عنوة . وكان لابد للناس من تصديق ذلك ، لأنها هى التى تروى تلك الوقائع ! وقد تفاخرت بذلك لصديقين أعرفهما ، ولابد انها تفاخرت به لغيرهما ممن لا أعرفهم شخصيا.

ولم يفت فيلبسى بعد الافضاء باعترافها هذا لى ان تمد لى يدها وتقول لى انها تعتمد على شهامتى فى عدم افشاء سرها لأحد ، وفى أن تعود صلاتى بفايلبرج كما كانت من قبل ، وأن أتصنع عدم علمى بأى شىء ، لأن اخلاق هذا المتوحش السويدى تخيفها ، حتى انها كلما فارقها تخشى أن يدفعه تأنيب الضمير الى الاقلاع عائدا لبلاده ، وقد أصبحت لا صبر لها على بعده يوما واحدا بعد ذلك الاغتصاب الوحشى الذى أيقظ حواسها التى كانت نائمة !..

وطبيعى ان جميع أصدقاء الأسرة استنكروا اقدام فايلبرج على اغواء الزوجة الشابة ، وهى ربة البيتالتى

رحبت به وأكرمت وفادته ، وامرأة الزوج الذى ادى له خدمات كثيرة جليلة ووثق به . وعجبوا كيف حدث هذا من الرجل الذى كانت استقامته حتى الآن مضرب الأمثال .

ووجـدت من واجبى أن أخبر فايلبرج بكل شيء ، وبالدور الذى أجبر على الظهور به ، فعانقنى شـاكرا وأقسم لى الا تطأ قدماه ذلك البيت بعد الآن وروى لى كل تفاصيل الرحلة التى أضجرته وتحمل فيها صحبة هذه السيدة على سبيل التهذيب والتأدب فحسب .

ولما حرمت فيليسى من حضوره لديها للعشاء كل ليلة كسابق العهد ، تصنعت الحزن واليأس ، وزعمت ان زوجها ولاشك هو الذى طرده . وكانت قد ذكرت لى ولصدبقين آخرين على الأقل التفصيـلات المزعومة لاغتصابه اليها على العشب الندى فى ظل شجرة سامقة فى احدى الغابات المنعزلة ، مستغلا ضعفها وانفراده بها فى هذه البقعة الرومانتيكية الموحشة !

وأوصت صانع سكاكين ماهر أن يعد لها خنجرا حاد النصل ، جعلته يحضره اليها وهى على مائدة العشاء ، وقد رأيتها تؤدى ثمنه أربعين فرنكا ، وتغلق عليه درج مكتبها الصغير . كما أحضر غلمان لا يقلون عن العشرة ، يعملون فى صيدليات شتى ، قوأوير صغيرة من شراب الأفيون ، بحيث تشكل هذه القوأوير مجتمعة كمية كبيرة من ذلك السائل الخطير ، وقد أخفتها أيضا فى دولاب زينتها .

وفى اليوم التالى أوعزت الى أمها أنها ما لم تحضر اليها جوستاف فسوف تتجرع كل هذا الأفيون لتفقد الحس بالألم ، ثم تطعن نفسها بالخنجر . وخشيت الأم

آن تنفذ وعيدها فتحدث فضيحة لها دوى ، فذهبت الى فايلبرج ، وقالت له ان ابنتها وصلت الى مرحلة الجنون بسبب انقطاعه عنها ، وانها تزعم للنـاس انه أيضا يحبها ، وتهدد بالانتحار ما لم يعد اليها ، ورجته أن يعود ، ويعاملها بالتحقير الشديد والمهانة كى تمقته ، ثم لا عليه بعد ذلك أن ينقطع عنها نهائيا .

وكان فايلبرج فتى شهما ، فأشفق على الأم العجوز، ووافق على القيام بهذه التمثيلية أو المهزلة ، كى يتجنب دوى الفضيحة التى تخشاها الأم .

وعاد فعلا. ولم تفاتحه المرأة الشابة فى شىء ، واكتفت بشىء من العتب الودى اللطيف لأنه تخلف عن الحضور هذه الأيام الخمسة . وقد تعلمت منذ حاولت أول مرة اعلانه بحبها فتناول قبعته وخرج للنزهة ، أقول انها وعت هذا الدرس ، فلم تكن تفاتحه أبدا وهما وحدهما معا فى موضوع الحب . ولـكنها تستغل حبه للموسيقى وبراعتها فى العزف ، فتعزف الـكثير وهما وحدهما ، فيظل مستمتعا فترة طويلة . أما حين يوجـد معهمـا آخرون فانها تتحدث عن الحب بطريقة ملتوية تدق عن فهمه السطحى للغة الفرنسيـة ، ويظن الحاضرون أن بينهما من الحب أفانين وأفانين ، وانه عشيقها المتدله فى حبها ، والمتيمة بهواه !

وكان جميع الأصدقاء المقربين على علم بسر هـذه الـكوميديا ، أما المعارف فيجهلونها ، ولذا تجدد لديهم الاستنكار الشديد لسلوك فايلبرج ، فانسحب ثانية ، ولم يرض بالعودة .

واعتصمت فيليسى بالفراش ، وقالت لأمها انهـا ستمتنع هذه المرة عن الطعام حتى الموت ! وامتنعت عن

تناول أى شىء فيما عدا الشــاى . وكانت تهبط فى مواعيد الطعام الى المائدة ، ولـكنها ترفض أن تتناول لقمة واحدة !

واستمرت الأمورعلىهذا الحال ستة أيام ، فمرضت، واستدعى الأطباء لاسعافها ، فصارحتهم انها تجرعت السم ، ولا تريد أى علاج ، وانه لم تعد هناك جدوى من الحياة ، فعلام العلاج ؟

وكان فى حجرتها مع الأطباء أمها وصديقان ، فقالت أمامهم انها تفارق الحياة بسبب حبها للمسيو فايلبرج الذىغير الواشون والعذال قلبه عليها فهجرها . ورجتهم ان يكتموا هذه الحقيقة المؤلمة عن زوجها ، الذى يجهل كل شىء لحسن الحظ !

ولـكنها فى النهاية رضيت أن تتناول دواء ، فسقاها الأطباء مقيئا ، واذا بتلك التى لم تعش الا على الشاى فحسب منذ ستة أيام تقىء من جوفهـا ما بين ثلاثة وأربعة أرطال من الشيكولاتة ! ولم يكد مرضها المميت ، والسم الذى تعاطته ، الا عسر هضم شديد . وكنت قد تنبأت بشىء من هذا القبيل !

ولم تدر فيليسى ماذا تصنع كى تؤثر على عواطف أمها وتدفعها الى مساع جديدة يمكن أن تعيد فايلبرج الى بيتها ، فهددتها بالافضاء بكل شىء الى زوجها شارل، الذى كان حريا أن يصدق كلام زوجته بحذافيره ، وأن يفارقها على الفور بلا مقدمات ... مع ما يترتب على ذلك كله من فضيحة ذات دوى مروع .

وهكذا عادت الأم الى مساعيها لدى فايلبرج الطيب ، الذى قبل مرة أخرى أن يعود . وكنت أراه فى تلك

الحقبة كثيرا ، ونشترك معا فى أعمال كثيرة ، وكان قد مال الى حتى صرت الفرنسى الوحيد تقريبا الذى يحب صحبته ، وهكذا كنا نقضى معا شطرا من كل يوم ، فيعلمنى اللغة السويدية ، وأعلمه الهندسة الوصفية وحساب التفاضل والتكامل لأنه كان قد أغرم فجأة بالرياضيات . وبعد الفراغ من ذلك أتناول فيولينتى وأعزف عليها ألحانا تروقه .

وعرفت فيليسى ذلك فصارت تتودد الى وتجتذبنى الى صالونها ، لعلمها ان ذلك سيجتذب اليه أيضا فايلبرج . وذات صباح ، ثلاثتنا نتناول الغداء معا عندها ، خيل اليها أن الفرصة مواتية لاظهار الحب لجوستاف أمامى ، فتصنعت من السلوك ما لايكون الا فى خلوة لا ثالث فيها ، وعندئذ رمقنى جوستاف بنظرة جانبية ، ولم يزد على التقام طعامه بفتور شديد . فاقترحت عليه بعد الغداء أن يساعدها على تثبيت شىء من زينتها وملابسها ، فأجابها بخشونة بالغة :

ـ لديك وصيفة ، فناديها لتقوم بهذه المهمة !

فهمست فيليسى عندئذ فى أذنى قائلة :

ـ أرأيت الى رقة شعوره ؟ لقد كنت واثقة انه لن يرضى أن يثبت دبوسا فى شعرى أمامك !

ولكنها فى الواقع لم تكن مسرورة لرقته المزعومة وتحفظه . واذكر ان ذلك كان فى يوم أحد الفصح ، وكنا نتناول الشاى بعد الانتهاء من الغداء ، فقالت لخادمها :

ـ قل لوصيفتى انى لم أعد بحاجة اليها وان فى وسعها الذهاب لحضور الصلاة فى الكنيسة .

وما أن خرج الخادم حتى اقتربت جدا من نيران المدفأة وقالت وهى تمد يدها الى فايلبرج : « أشعر ببرودة شديدة . انظر هل انا مصابة بارتفاع فى الحرارة ؟ »

ولـكن فايلبرج لم يتناول يدها ، بل قال :
ـ لا دراية لى بهذه الأمور ، ولـكن ها هو جونسلان (وأشار نحوى) الذى أعلم انه يقوم بتطبيب فلاحيه عندما يكون فى الريف ، ففى وسعه أن يتحقق من ذلك .
فجسست نبضها وقلت لها ان حرارتها طبيعيـــة ونبضها طبيعى جدا . فقالت :
ـ عجيب جدا . أشعر بوشك الاغماء . وأكاد أختنق. فك عنى ملابسى بسرعة يامسيو جوســـتاف . وأنت ياجونسلان أرجوك أن تذهب الى حجرة زوجى وتحضر..
ـ ماذا أحضر ؟
ـ زجاجة الجاوى ، كى أحرق شيئا منها ليساعدنى فى التنفس .
فبادر فايلبرج بقوله :
ـ أنا أعرف مكانها. سأذهب أنا، وليساعدك جونسلان.
وانفلت خارجا ، ولم يعد الا بعد نحو عشر دقائق .
وراقنى أن أفك عنها محزماتها ، وأزرار بلوزتها .
وكانت فيليسى اذا غضضنا النظر عن وجهها ذات جسم رائع ، وقد بديع التكوين ، وبشرة ناضرة غضة ناصعة البيـاض . وكشف عن نحرها وصـدرها ، وكانت مستسلمة مستعدة فى اغمائها المزعوم أن تتركنى أجردها من ملابسها كلها ، ولكنى اكتفيت بذلك ، ورحت أدلك لها عنقها وصدرها فى رفق ، وقلت لها : « أفيقى . ان قلبك يدق بانتظام . فلا تخافى . وليس بك شىء »
ولكنها استمرت فى تصنع غيبوبة خفيفة . وواصلت اسعافاتى بالطبع ، الى أن عاد فايلبرج الذى فهمت انه تأخر عمدا . ولما قلت له ان نبضها منتظم ، وتنفسها أيضا ، هز كتفيه وقال : « من العجيب اذن أن تصاب بهذه الغشية ! »

ولما نفد صبرها ، تصنعت الافاقة رويدا رويدا ، ولملمت ثيابها ، ورجتنا أن نتركها وحدها ، فانصرفنا. وأحست فيليسى بالهوان الشديد مما أظهره فايلبرج نحوها من عدم مبالاة أمامى وأنا الذى كانت تقول له دائما ان فايلبرج عاشق متيم الى درجة الجنون ، وان هواه مندفع مندلع ، حتى انها مرضت فعلا. أما فايلبرج فلم يشأ بعد هذه المهزلة المضحكة أن يعود اليها ، ولكن بما انها لازمت الفراش فترة من الزمن ، وكان يشاهد قبلها فى منزلها باستمرار، لذا قرر الظهور هناك تحاشيا للقيل والقال عن أسباب غيابه . ثم راحت زياراته تقل تدريجا ، بحيث انقطع تماما فى مدى ثمانية أشهر. وفى أثناء هذه الأشهر الثمانية لم تكف عن الايحاء للجميع بأنه عشيقها ، حتى بعد أن صارت زياراته لها نادرة .

وفيليسى شديدة الولع بالموسيقى ، ولما لم تكن لها مقصورة خاصة دائمة فىالمسرح الموسيقىالمعروف باسم « برف » ، لذا لم تكن تسنح لها الفرصة بالذهاب الى هناك الا نادرا جدا . وفى ذات يوم تكرم بعض الأصدقاء باقراضنا مقصورتهم الدائمة هناك لليلة واحدة ، فرتبت فيليسى الأمور بحيث نصحبها الى هناكأنا وفايلبرج ، على ان يلحق بنا زوجها فيما بعد . وكانت حريصة على حضور فايلبرج كى يظهر أمام الجميع معها فى صدر مقصورتها ، ولكن جوستاف لم يلبث أن قال ان المسرح شديد الحرارة ، وهو السويدى الذى لايطيق شدة الحر، وأصر على مغادرة المسرح ، وتركنى وحدى معها ... وكانت قد وصلتنى اشاعات فى هذه الفترة الأخيرة التى قلل فيها فايلبرج من زياراته ان فيليسى بدأت توحى للناس أنه خان عهدها ، واننى شخصيا صرت عاشقها الجديد ...

وذهبت اليها فى حجرتها ، وأبلغتها ما وصل الى سمعى وما لاحظته ، وأضفت الى ذلك اننى لا أريد أن يظننى الناس عشيقها من غير أن تكون لى مزايا هذا الوضع فعلا ، وأجلستها على ركبتى على حين غرة ، وكنت واثقا انها لا تريد حقا أن تتحول الاشاعة الى حقيقة ، فهى باردة العواطف فى واقع تكوينها وانما هى الرغبة بالتظاهر فحسب ، ولذا قاومت تظاهرى بمحاولة اغتصابها على هذه الصورة ، واستولى عليها فزع شديد خشية دخول أحد — ونحن فى وضح النهار — الى حجرتها فجأة من بين خدمها .. وراحت تناشدنى أن أتركها ، مؤكدة لى انها لم تحب أحدا سوى فايلبرج ، ولن تحب سواه أبدا . وأخيرا تخلصت منى ، ورنت الجرس ، فأقبل خادم كلفته باصلاح نيران المدفأة ، وتعديل وضع الستائر ، ثم احضار الشـــاى ، فتركتها وانصرفت . ومنذ ذلك الحين يسود بيننا شبه خصام .

وعلمت انها تحدث كل من يريد الاصغاء لها بأنى وغد من طراز « اياجو » ، وانى منذ أمد طويل أكن لها هوى مجنونا ، واننى الذى دسست بينها وبين فايلبرج وأوغرت صدره عليها ، وأبرزت خطابات ودية كنت قد أرسلتها اليها فى رحلتى معها الى روما منذ ست سنوات ، مدعية انها تحوى اعترافات بالحب .

وهذا هو ياصديقى نمط من النساء يوجد فى الطبقة الثرية بفرنسا ، نمط بارد التكوين هامد الأعصاب .. ولكنه متمسك باشباع غروره « شفويا » [illegible]حاطة نفسه بعاشقين مزعومين ، لا تريد منهم الا اثارة [illegible]ت ، دون ممارسة لمضمونها ، لأن قلبها لايعرف نبض الحب .

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشـــم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul• Cury.
B. 25. de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL



هـذا الكتاب

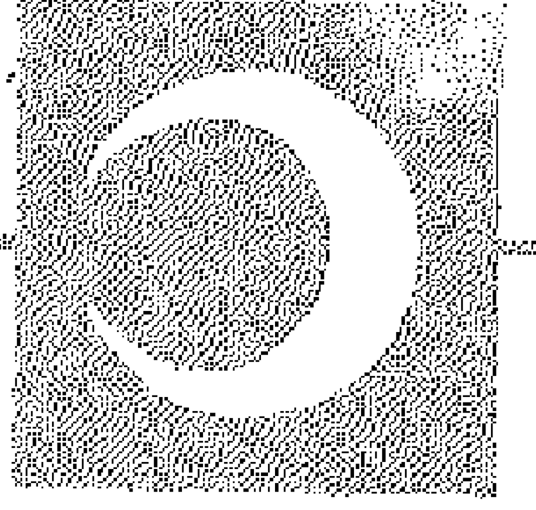
ستندال أمير من أمراء النثر الفنى الفرنسى ، وله روائع فى القصة والرواية ، أشهرها « الأحمر والأسود » ، تعد من معالم الفن الروائى فى العالم ...

وهو فى هـــذا الكتاب يدرس الحب ، ويحلل نشأته ، وأطواره ، وأنواعه ، وما يتفرع عنه من مشـــاعر ، ويؤيد تحليلاته بمشاهدات واستشهادات كثيرة ممتعة · ثم يطوف بعدد من بلدان أوربا ، يقـارن بين أنواع الحب فيها ، ويسرد من الأقاصيص والأمثلة الطريفة ما يعد زادا جميلا لمن يريد متعة الفن ، وزادا أجمل لمن يريد معرفة طبـــائع البشر ، واختلاف أمزجتهم باختلاف بيئاتهم الجغرافية والاجتماعية ·

وفى هذا الكتـــاب نخبة طيبة منتقاة من هـــذه التحليلات والمشاهدات يحتاج اليها القارىء العصرى ليعرف الأصول الأولى لتلك الحركة النفسية الجياشة ، التى هى أهم ما يمر بحياة الانسان · ولئن تغيرت معالم الحب فى العصر الحديث ، كما تغيرت معالم كل شىء ، الا أن الحب الحقيقى الذى يحلم به كل انسان فى عصرنا ، ويبحث عنه ، وكثيرا ما يعتقد أنه غير موجود ـ هذا الحب كان محور حياة الناس منذ نصف قرن · وهو كالجواهر الحقيقية التى أقام لهـــا ســـتندال معرضا شائقا فى كتابه هذا ·

وقد ترجمته وانتخبت ماساته لك كاتبة أديبة ، لهـــا خبرة طويلة بمشكلات القلوب ، ومجالات الفن الأدبى ، ومعروفة بأسلوبها الدقيق الواضح المشرق ·

١٥ قرشـا



سلسلة
ثقافية
شهرية

كتاب الهلال

نساء في حياة برنارد شو

• ه . بيرسون • رفعت نسيم

٢٢٨

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبرى أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٢٨ – ربيع الثانى ١٣٩٨ – ابريل ١٩٧٨

No. 328 — April 1978

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادي البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا · فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢ر٥ جك – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية · فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب ·

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

نساء في حياة برنارد شو

•

تأليف : هـ . بيرسون
ترجمة : رفعت نسيم
مراجعة: أحمد زكي عبد الحليم

•

دار الهلال

القسم الأول :

تاريخ حياة

لعل من المناسب قبل أن نتطرق الى حديث الحب في حياة الكاتب الساخر « برنارد شو » ، أن نلتقي معه في رحلة قصيرة عبر تاريخ حياته ، وأهم مواقفه ، ثم ننتقل بعد ذلك الى حياته العاطفية .

ولد برنارد شو في دبلن في ٢٦ يوليو ١٨٥٦ (١) .

واذا كان شو قد حقق شهرة عريضة الا أن طريقه عبر الحياة لم يكن مفروشا بالورود والرياحين ، فقد عانى الكثير منذ نعومة أظفاره . وبات على الطوى ليالي وأيام ولكنه أبدا لم ييأس . بل أكثر من ذلك استطاع أن يلتمس طريقه الصحيح في قلب الظلام ، وأن يفرض نفسه على الأدب الانجليزي ، ويقف عملاقا في موضع المقارنة مع الخالد العظيم « شكسبير » .

فلقد ولد شو في بيئة متواضعة . وان كانت أسرته من سلالة فرسان العصور الوسطى . وكان هذا الأصل في بؤرة تفكير أهله رغم الظروف التي كانوا يعيشون فيها .

(١) جاء في كتاب « ساحرون ومنطفون » للكاتب الفرنسي الشهير « أندريه موروا » ان تاريخ ميلاد برنارد شو هو ٢٨ يونيو ١٨٥٦ « تقديم الدكتور حسين مؤنس » .

ويحكي شو ان والده منعه من اللعب مع أحد الأطفال لأن والده تاجر مسامير وأوان نحاسية ، هذا فى نفس الوقت الذى فرضت الظروف فيه على والده أن يشتغل بتجارة الدقيق !..

وقد تقلب والد شو — ويدعى جورج كار شو — فى عديد من المهن والوظائف ، ولكن الأمر كان ينتهى به دائما الى الفشل .. وكان هو من جانبه يحاول أن يفسر هذا الفشل بسوء الحظ .

أما والدته ، وهى تدعى « ليوسندا اليصابات » ، وكانوا يدللونها باسم بيسى ، فقد عاشت فى كنف قريبة عجوز من الأثرياء . وقد أتاح لها ذلك أن تتربى تربية النبلاء ، وأن تعيش على أمل بالثراء فى المستقبل بعد أن يؤول اليها الميراث . ولكنها تمردت على هذه الحياة وهى فى سن العشرين ، واستجابت لنداء جورج كار شو بالزواج منه ، وكان هو فى الأربعين من عمره فى ذلك الوقت . وكانت تأمل من وراء هذه التضحية أن تسعد بحياتها الزوجية ، ولكنها لم تلبث أن اكتشفت أنها ارتبطت برجل يدمن الشراب ، فأحست لذلك بخيبة أمل فظيعة . ويقول برنارد شو عن والده : كان والدى سكيرا عنيدا . واذا دعى مرة للعشاء لم يكن من المؤكد ان يصل صاحى الذهن واعيا ، ولكن المؤكد هو انه لن يخرج بعد العشاء الا مخمورا بصورة مخجلة .. وربما كان هناك شيء من الطرافة فى سكير مرح ، أما السكير المنقبض فشيء لا يحتمل . وقد كان أبى — من ناحية المبدأ — مقاطعا للخمر ، وما كان يجوز له أن يشربها ، ولهذا فقد كان اذا وقع تحت اغرائها وعب منها ، ينتابه ضيق وشعور بالخجل وتأنيب الضمير

بصورة كانت تجعل حياتنا غير محتملة .

وعلى النقيض من ذلك . فقد كانت والدة برنارد شو امرأة ذكية ، مرهفة الحس ، تميل الى الموسيقى ، وتحاول الغناء ، وقد ارتبطت بالموسيقى الايرلندى « جورج فنداليرلى » . وقد انتهى الأمر بأن هجرت منزل الزوجية ، وأقامت مع هذا الرجل . وعندما فكر فى الهجرة الى لندن، لم تلبث أن تبعته الى هناك أيضا.

المهم ؛ ان شو قد ورث عن أمه حب الموسيقى ، واستطاع أن يلتقط من دروس الأستاذ ما أفاده بعد ذلك ، حتى ان أول عمل له فى الصحافة كان : النقد الموسيقى .

وفى وسط هذا الجو ، كان مولد برنارد شو . أنجبت أمه من قبل بنتين ، ثم كان هو الثالث . وفى ذلك يقول برنارد على طريقته المعهودة من السخرية والادعاء :

« ان ميلاد عبقرى يحتاج الى هذه التجربة التى سبقته بولادة بنتين ! .. »

ولم يطل العمر بأحد من هذه الذرية غير برنارد (١).

وهذا العبقرى الذى يتحدث عن نفسه بهذة اللهجة المتعالية ، كان تلميذا فاشلا . ولم يقدر له أن يتم دراسته ، فقد وقف له ـ الجبر ـ فى الطريق ، ولم يستطع هضم اللاتينية ، ومن هنا كان آخر فصله ، فترك المدرسة والتحق بمكتب سمسار عقارات ! (٢) . وكان مرتبه ١٨ جنيها فى السنة ، ثم ترقى وأصبح صرافا فى المحل ، وزاد راتبه بعض الشىء ، ولكن نفسه

(١) برنارد شو : للكاتب الكبير عباس محمود العقاد .
(٢) ساحرون ومنطقيون : ترجمة الدكتور حسين مؤنس .

ضاقت بهذا الحظ الضئيل ، فترك العمل ، ورافق امه والموسيقى « فنداليرلى » الى لندن .

على ان المفكر المعروف « سلامة موسى » فى كتابه عن برنارد شو ، ينفى سفر برنارد مع والدته الى لندن ، ويقول انها اصطحبت ابنتها معها ، بينما تركت برنارد مع والده . وكان لهذا الموقف منها أبعد الأثر فى نفسية الطفل ... وكان برنارد شو يكرهها . ولذلك لايكاد يذكرها بكلمة طيبة فى جميع ما كتب ، بل انها عندما ماتت، كان يضحك فى جنازتها حتى لامه بعض أصدقائه!..
على أننا لانوافق على هذا الرأى ، فان الرسائل التى تركها شو والتى كان يتبادلها مع مسز باتريك كامبل ، تضم وصفا لجنازة أمه . ويقول فى مقدمة رسالته المؤرخة بتاريخ ٢٢ فبراير عام ١٩١٣ :

« ياله من يوم ، دعينى أكتب الك عنه ، فأنت وحدك التى تستطيعين أن تقدرى حب المرء لأمه ، كما تقدرين حبها لأطفالها ... »

أما القول بأن برنارد شو قد ضحك أثناء الجنازة ، فهذا يرجع الى نظرة السخرية التى واجه بها المراسيم المعتادة فى مثل هذه الظروف ، وهو يقول ما يعنى ان أمه كانت مثله تهزأ بما يحدث . ففى نفس الرسالة نجد هذه العبارة :

« وفى تلك اللحظة تخيلتها تميل نحوى ، وتنفجر ضاحكة فقد وجدنا كومين ، أحدهما تراب ، والآخر رماد العظام . ووجدت أمى تهمس فى أذنى : أى الكومين أكون .. انني أتعجب ! »

ومن هنا فاننا نرجح تلك الرواية التى تقول بأن برنارد شو قد ذهب مع أمه فى رحلتها الى لندن ، أو على الأقل انه لم يكن يضمر لها أية مشاعر من البغضاء أو الكراهية، فقد كان يرى فيها فنانة مرهفة الحس، شاعرية النبض، وكان لها أن تضيق بالحياة مع رجل يعاقر الخمر، ولا يصنع فى حياته شيئا الا أن يندب سوء الحظ ، ويهرب من مواجهة الحقائق ، حتى انه دس رأسه تحت الفراش عندما علم ان تجارته قد أفلست ، وكأنه بذلك قد تجنب هذا الموقف تماما !

على أية حال ، لقد ذهب برنارد شو الى لندن وهو فى سن العشرين ، وكان عليه أن يشق طريق حياته ، وأن يسعى بوقته لكسب قوته ، بعد أن ترك تلك الوظيفة الصغيرة المتواضعة فى محل سمسار العقارات . فما هو العمل الذى يمكن أن يقبل عليه هذا الشاب وهو فى هذه السن ، وبعد أن تغيرت ظروف حياته ، فأصبح يعيش فى قلب العاصمة البريطانية ؟..

ان فشل شو فى الدراسة لم يكن يعنى على الاطلاق انه بعيد عن المعرفة ، فقد كان منذ نعومة أظفاره يقبل على القراءة بنهم شديد . ثم انه وهو فى دبلن — وكان مازال دون الثامنة عشرة — حاول الكتابة فى بعض الصحف هناك . ولذلك فقد كان من الطبيعى انه يتجه الى هذا الميدان بعد أن ذهب الى لندن ..

وكانت البداية صعبة وقاسية ومريرة .. فنحن نجد أن شو لم يستطع أن يكسب من الأدب خلال تسع سنوات عجاف ، تمتد بين سنتى ١٨٧٦ ، ١٨٨٥ الا ستة جنيهات فقط ، وكان بعضها نظير كتابة اعلانات

لاحدى شركات الدواء . أى ان هذا المبلغ الضئيل لم يكن صرفا خالصا من ميدان الأدب .. وكل ماكسبه من الأدب هو خمسة عشر شلنا عن مقال ، وخمسة شلنات عن قصيدة !

ولكن هذا الفشل الذريع خلال تلك السنوات السوداء ، لم يفت فى عضد برنارد شو . كان يقرأ من الصباح الى المساء فى نهم بالغ . وعندما كان يتعب من القراءة والكتابة ، كان يمضى الى متاحف الفن . وكان فى أعماقه صوت قوى لايغيب ، يؤكد له انه سوف يشق طريقه الى دنيا الأدب ، وان مهمته هى البحث عن الأسلوب الجديد الذى يستطيع به أن يفرض نفسه ، وأن يمضى قدما رغم كل المتاعب والمعوقات. وخلال هذه الفترة ، كتب برنارد شو خمس روايات ، وطاف بها على الناشرين لعله يجد فى نشرها نافذة يطل منها على الحياة الأدبية فى انجلترا ، ولكنهم جميعا رفضوا نشر أى رواية من هذه الروايات !..

واذا كان « برنارد شو » نفسه لم ييأس ولم بفقد امله فى الغد والمستقبل، فان من حوله كان لابد أن بضيقوا به وهو يمثل عبئا على كاهلهم ، فهو لايكسب شيئا يذكر ، وسنه تزحف نحو الثلاثين، دون أن يحقق شيئا.

ولكن « برنارد شو » بعناده الايرلندى ، كان على يقين من ان المستقبل له ، وان هذا الظلام لابد أن ينفرج عن نور ساطع يغمر حياته ، ويضىء أيامه ، ويتوج مستقبله . وكان يبحث عن الفرصة ما وجد الى ذلك سبيلا . وقد تهيأ له هذا عندما انضم الى الجمعية الفابية ليصبح عضوا فيها ، فقد لفتت أسئلته الذكية

انظار كبار الأدباء والمفكرين اليه . وكان ان حصل فى نهاية الأمر على وظيفة ناقد موسيقى ثم ناقد مسرحى ، بفضل صديقه « وليام ارثر » .

وعندما جاءت الفرصة المنتظرة، أعطاها «برناردشو» كل بضاعته . كانت لديه ذخيرة ضخمة نتيجة قراءاته المتعددة من ناحية ، ونتيجة دراسته الموسيقية من ناحية أخرى . وأهم من ذلك انه كان قد حدد أهدافه ، فاتجه فى مقالاته النقدية للدفاع عن الفن التقدمى .

على ان الشىء الذى لفت اليه الأنظار هو أسلوبه الفكه اللاذع. وقد عبر شخصيا عن موقفه خلال هذه الفترة ، فقال :

« لكى يسمع الناس ما أقول ، اضطررت الى أن أتكلم على نحو يجعل الناس يتصورون اننى مجنون .. مجنون يسمح له النـــاس بالحقوق والحريات التى يتمتع بها مضحك البلاط ! »

والى جانب ذلك الدور الذى قام به برنارد شو فى مجال النقد ، فانه أعطى الحياة الأدبية ثمرات يانعة ، فقد واصل تأليف المسرحيات متأثرا فى ذلك الى حد كبير بأبسن . وكانت أول مسرحية مثلت له هى « بيوت العزاب » ، وكان ذلك فى عام ١٨٩٢ ، ولكنها لم تحقق نجاحا كبيرا (١) .

وخلال عامين ، استطاع برنارد شو أن يثبت قدميه كـكاتب مسرحى كبير ، وذلك بعد أن قدم مسرحيته

---

(١) اشتهرت هذه المسرحية فى اللغة العربية باسم « بيوت الأرامل » ولكن الناقد الكبير المرحوم دريني خشبة ترجمها باسم « بيوت العزاب » قائلا ان الترجمة الأولى خطأ ، وأنه لا صلة لها بالأرامل مطلقا ! ..

« السلاح والرجل » فى عام ١٨٩٤ ، وانتقلت شهرته من المجال المحلى الى الميدان العالمى ، فأصبحت مسرحياته تمثل على جميع مسارح العالم . وفى عام ١٩٢٥ حصل « برنارد شو » على جائزة نوبل للآداب .

ويقول «اندريه موروا» ان «برنارد شو » قد استطاع بخياله البعيد وجدة آرائه وبراعة عبارته أن يخلق من المحيط الانجليزى شخصية غريبة تختلف عن كل ما ألفه الانجليز .. شخصية كان برنارد شو نفسه يسميها ج.ب.ش. وهذه الشخصية هى التى كانت تلقى فى الأحاديث الصحفية باجابات عنيفة مضحكة ، وهى التى كانت تقارن برنارد شو بشكسبير ، وتقول ان شو أعظم منه . وليس معنى ذلك ان ج.ب.ش. كان لايعجب بشكسبير ، بل معناه انه كان يرى ان موقف التأليه الذى تقفه انجلترا من شكسبير موقف مهين وغير سليم ، حتى انه كتب مقالا فى « الستر داى ريفيو » يقول فيه : « ليسقط شكسبير ! .. »

وقد اشتهر برنارد شو فى حياته بأنه نباتي لا يذوق اللحوم على الاطلاق . وهو أيضا يكره معاقرة الخمر ، ولايدخن . فهو باختصار قد تجنب كل العادات التى يمكن أن تؤثر فى حياته . ولعل ذلك الموقف كان رد فعل طبيعى لصورة أبيه الذى تمزقت حياته على صخرة الكأس . ومن ناحية أخرى ، فان برنارد شو لم يكن يحفل بالمال كثيرا ، وهذا ما جعله يثابر خلال فترة البداية دون أن يشعر الا بأقل الاحتياجات . ورغم ذلك فان شو كان حريصا على المال فيما بعد . وتفسير ذلك انه كان يخاف أن يتعرض مرة أخرى لتلك الأزمات الطاحنة التى عاشها فى مطالع حياته . ولذلك كان يحرص

على المال ، ليس من أجل المال ولكن خوفا من الأيام . ويدلل على ذلك ماحدث بعد أن منحته لجنة نوبل جائزتها للأدب فى عام ١٩٢٥ . فقد رفض الجائزة ، وبعث برسالة الى أمين سر اللجنة يقول فيها :

« ان هــذا المــال كالعوامة التى ألقيت الى السابح بعد وصوله الى بر النجاة ... » !..

ثم أوصى بأن ينفق مبلغ الجائزة فى توثيق الصـلات الأدبية والثقافية بين السويد والجزر البريطانية .

وعن تلك السنوات القاسية السابقة ، يكتب برنارد شو بلهجته الساخرة قائلا :

« لا أستطيع القول بأننى ذقت الفقر حقا . فقبل أن أستطيع كسب شىء بقلمى ، كنت أملك مكتبة عظيمة فى المتحف البريطانى ، وكان لدى أجمل معرض للوحات الفنية قرب ميدان ترافلجار . وماذا كنت أستطيع أن أعمل بالمال ؟ أدخن السيجار؟ اننى لا أدخن .. أشرب الشمبانيا ؟ اننى لا أشرب .. أشترى ثلاثين بذلة من آخر طراز ؟ اذن لأسرع بدعوتى للعشاء فى قصـورهم أولئك الناس الذين أتحاشى رؤيتهم قدر ما أستطيع .. أشترى خيلا ؟ ان الخيل خطرة .. سـيارات ؟ انها تضايقنى .. ان لدى الآن من المال ما أستطيع أن أشترى به هـذه الأشياء كلها ، ولـكنى لا أشترى الا ما كنت أشتريه أيام كنت فقيرا .. »

وقد قال تشسترتون :

« ان ايرلندا بلد قديسين ، وشو التزم فى حياته طريقا هو أقرب الى الزهد والتقشف ، فقد عاش عزبا لايقرب

النساء (١) ، نباتيا لايأكل اللحم ، ولم يشرب الخمر ، ولا عرف التدخين ، حتى القهوة والشاى حرمهما على نفسه ، لأنه كان يعتقد ان كل استثارة للذهن جريمة اعتداء على الذات الانسانية .. »

وقدكان زواج شو انتصارا للمبادىء التى عاش حياته لها . فقد التقى بالفتاة الايرلندية الآنسة « شارلوت بين تاونسند » وكانت وارثة ثرية ، ضاقت بالفراغ وتفاهة الحياة، فشغلت نفسها بالدعوة الى الاشتراكية. والتقت بشو على هذا الطريق ، وأحبت فيه أشياء كثيرة .. من ذلك شهرته ، وسمعته ، وقلبه الكبير ، واهتماماته الانسانية . وكان أن لازمته . وخوفا على سمعتها من الأقاويل تزوج منها فى أول يونيو عام ١٨٩٨ ، وكان فى ذلك الوقت فى الثالثة والأربعين من عمره تقريبا . وقد ظلت تشاركه رحلة الحياة الى أن توفيت فى أغسطس عام ١٩٤٣ . أما شو فقد واصل رحلة الحياة بعدها وحيدا الى أن توفى فى ٢ نوفمبر عام ١٩٥٠ .

ويبقى بعد ذلك أن نقف على فلسفة برنارد شو الأخلاقية ، باعتبار ان الجانب الأخلاقى هو المحور الرئيسى فى الحديث عن الغراميات والحياة العاطفية . ويقول الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ان هذه الفلسفة تقوم على أسس ثلاثة هى : ان الغريزة الانسانية تضل وتخطىء .. وإن اصلاح خطئها وضلالها من الممكنات ومن الواجبات.. وان هذا الاصلاح يتم بالمعرفة والايثار .

---

(١) كان هذا قبل ان يتزوج شو ، فقد تزوج بعد أن جاوز الاربعين من عمره ، والراجح فى علاقاته العاطفية رغم تعددها أنه كان لا ينغمس فى الجنس ، وأن هذا كان يجعل مكانته ثابتة فى قلوب النساء .

وبعد . . فهذه لمحات سريعة عن حياة برنارد شو ، وأفكاره العريضة ، ومسرحياته منذ كان يعيش فى دبلن الى أن أصبح علما من أعلام الأدب والفن فى انجلترا ، بل وفى العالم كله . وهى عجالة ليس مقصودا بها الدراسة بقدر مانهدف من ورائها الى تقديم تلك الشخصية التاريخية ، والتى هى محور المسرحية التى كتبها « جيروم كيتلى » من خلال الرسائل المتبادلة بين شو وبين نجمة المسرح مسز باتريك كامبل .

على أن مسز كامبل لم تكن الحب الوحيد فى حياته . فقد عرف شو الحب أكثر من مرة . وقصص الحب هذه هى ما سوف نستعرضه فى الصفحات التالية . . .



● ليوسندا اليصابات ●



● الين تيرى ●

نساء في حياة برنارد شو

هناك حقيقة هامة جديرة بأن تأتى فى المقدمة قبل الخوض فى الحديث عن هذه الغراميات . هذه الحقيقة تقول :

« اذا كانت المرأة لم تحتل المكان الأول فى حياة شو، فانه قد أفسح لها المكانة الأولى فى فنه . وقد جذبه الى عالم النساء ذلك الخيال الخصب أكثر من اندفاعه وراء النزوات العاطفية . وهو منذ كان صبيا ، كان يحلم بالنساء الجميلات ، ولكنه لم يحاول يوما أن يحقق حلما من أحلامه هذه ، لأنه كان يزدرى العلاقة الجنسية وينفر منها . وكان اعتقاده الشخصى الذى يؤمن به ان الحب الخيالى أهم من الحب الواقعى ، فالخيال أقوى من الحقيقة . ولا يمكن أن يجد الرجل من خلال الاحتكاك ما يقوم مقام الأحلام الجميلة التى توحى بها النساء من بعيد .. »

ويقول « جون ايرفين » :

« أن استعداد شو لممارسة الحب كان من النوع

(★) تاليف : هـ بيرسون .

البطیء» . وقد ظل حتى بلغ الثلاثين من عمره شاردا ، مغلق القلب ، خجولا ، مستغرقا فى مشـاكل العقـل والقلب . ومنذ بدأ رحلته الى لندن وهو فى العشرين من عمره ، وهو مشغول بأمر نفسه ، فقد كانت أمه تقضى معظم وقتها فى تدريس الموسيقى ، كما كانت أخته «لوسى» تحترف الغناء فى أوبرا «كارل روزا » المتجولة.

وقد سجل «شو» ــ فى مذكراته اليومية فى الفترة مابين عام ١٨٨٥ ، وعام ١٨٩٧ ــ مغامراته والأحداث التى واجهته فى معارك الحب . وكانت البطلة الأولى فى حياته ممرضة فى احدى المستشفيات، وتدعى «اليس لوكيت» . وقد تعرف عليها عنـدما جاءت لتتلقى دروسـا فى فن الموسـيقى على يدى أمه . وقد كتب اليها عديدا من الرسائل الغرامية ، وفى احدى هذه الرسائل ، قال لها :

« اذاكنت أنت قد استطعت أن تجعلينى أشعر،
فهل تنكرين اننى أفلحت فى أن أجعلك تفكرين؟ »

والحقيقة أن «شو» كان صادقا فى تحليله، فقد دفعها الى التفكير فى هذه العلاقة . ولما كانت «اليس» تخشى على نفسها من ثورة حبه فقد آثرت فى النهاية أن تبتعد عنه لتكون زوجة لطبيب !..

ولسنا نريد أن نتتبع كل خيط عاطفى من حياة «شو» ، وانما يكفى أن نستعرض هنا أشهر النساء اللاتى ارتبط بهن «شو» عاطفيا... وهؤلاء النساء هن : الممثلة «الين تيرى» ، و « ماى موريس» ، و « آنى بيزانت » .. و « مسز هيوبرت بلاند » ، و « الينور » صـغرى بنات كارل ماركس .

● الــين تـــيرى ●

اعتلت خشبة المسرح الانجليزى خلال الربع الأخير من القرن الماضى ، ممثلة عظيمه تدعى « الين تيرى » . وقد استطاعت أن تقف على القمة بجدارة ، فقد كان جمال وجهها لايدانيه الا فصاحة لسانها ، وذلك الى جانب ذكاء نادر وثقافة واسـعة . ونحن نستطيع ان ندرك مكانة «الين» اذا عرفنا أن مجرد معرفتها ـ فضلا عن صداقتها ـ كانت شرفا لا يناله الا الملوك والقادة وعظماء ذلك العصر .

وقد كان برنارد شـو أحـد المعجبين بفنها . وكان يفضل أن يراها فى مسرحيات « أبسن » ، حيث تتجلى كل مواهبها وتتفجر كل طاقاتها الفنيـة . وقد كانت بينهما رسائل غرامية ، ظلت سرا الى أن طبعت فى عام ١٩٣٦ ، فكانت موضع الدهشة والاعجاب من النـاس جميعا ، فيما عدا ابن « الين تيرى » .

والغريب ان العلاقة بينهما بدات بداية سيئة . فقد حدث أن بعثت « الين تيرى » برسالة الى « ييتس » رئيس تحرير المجلة ، تستطلعه رأيه فى مغنية شابة ، فأعطى رئيس التحرير الرسالة الى «شو» الناقد الموسيقى ليرد عليها ، فأرسل اليها اجابة جافة . ثم حضر بعد ذلك حفلا حركت مشاعره بالقائها الرائع ، وبعد ذلك غنت صديقتها ، فلم يؤثر فيه هذا الغناء . وكان أن كتب اليها :

« حركت الدموع فى عينى ، وأرجو أن تدركى اننى لم أتأثر بحزن المعتوه الوهمى ، فالحزن لايؤثر فى ، حتى

ولو كان حزنا عميقا ، ولـكنك أديت تمثيلا رائعا .. رائعا . وميزتى الوحيدة كناقد موسيقى هى اننى أتأثر بالتمثيل الجيد ، بينما غناء صديقتك لم يترك فى نفسى تأثيرا من أى نوع كان .. »

وبعد هذه الرسالة ، بدأت رسالاته تنطوى على شيء من اللطف والرقة ، أما رســالاتها فكانت تسامحا من جانبها . ذلك انه اذا كانت هواية الرجل العبقرى هى اللهو بالمغازلة ، فان هواية المرأة النابغة هى اللهو بالأمومة .. وهكذا قام كل منهما بتمثيل دوره خير قيام ، ولم يلتقيا الا بعد عدة أعوام ، حيث أخبرها فيما بعد انها حدثته ذات مرة دون أن تعلم من هو ..

وقد وافقت هذه المغازلة الـكتابية مزاج «شو» كل الموافقة ، فقد وجد فيها رياضة لخياله وراحة لأعصابه . كذلك فانها هيأت له الاحتفاظ بصداقة متينة دون أن يتعرض للاحتكاك الشخصى وما يمكن أن يتمخض عنه من عيوب .. كان يحب « الين تيرى » على المسرح وعلى الورق ، ولم يكن يرغب فى أن يبدل حلما بحقيقة هو على غير ثقة بها . وقد وجد «الين تيرى» على البعد ساحرة ، ثم انه كان فى حاجة اليها من أجل مسرحياته ومسرحيات « ابسن » .

ورغم تحذير «شو» لها من أن مسرحية «رجل الأقدار» ليست احـدى مسرحيـاته العظيمة ، وانها ليست الا عرضا لمعلوماته عن حيل المسرح ، وعينة من عينات تاجر متجول .. رغم ذلك ، فقد وجدتها «الين» مستساغة رائعة . وتوسلت الى «سير هنرى ايرفنج» أعظم ممثلى ذلك العهد ، والذى كان يمثل على مسرح اللايسوم الذى

اشتهر بأنه أعظم مسرح للفن المسرحى فى انجلترا .. توسلت اليه « الين » أن يخرجها . وكان « أيرفنج » حذرا ماكرا ، فلم يشأ أن يخرجها فى وقت سريع ، وفى نفس الوقت لم يشأ أن يعادى «شو» برفض المسرحية ، لأنه كان يفضل المسرحيات القديمة ومسرحيات شكسبير بالذات ، ولأنه كان قد تعود أن يتقـــــاضى مبالغا عن مسرحيات تقدم له دون أى عزم على اخراجها .

وأدرك «شو» مناورات « ايرفنج » الذى كان يخشى نقده اللاذع فأسرع الأخير يطلب الى «شو» أن يحضر الى اللايسوم ليباحثه فى أمر مسرحية « رجل الأقدار » . وتمت المقابلة دون احتكاك . فظنت « الين » أن «شو» قد ضعف أمام « ايرفنج » ، فتقدمت نحو الباب تريد الدخول ، ولكنها عندما سمعت صوت «شو» فى الداخل تراجعت . ثم أرسلت اليه خطابا قالت فيه :

«شعرت فجأة اننى لن أستطيع أن أملك عواطفى فى هذه اللحظات. وربما لو كنت قد رأيتك ، كنت طوقتك بذراعى ، وأخذتك بين أحضانى.»

ثم أتيحت لها بعد ذلك فرصة لكى ترى «شو» من وراء ستار مسرح اللايسوم ، وقد كتبت اليه تقول : «أخيرا رأيتك. انك لصبى وساذج! وانك لنحيف!..»

وفى ربيع عام ١٨٩٩ ، عندما أصبحت « الين تيرى » جدة لأول مرة ، ادعت انه ليس هناك من يكتب لها دورا يليق بها بعد الآن ، مادامت قد أصبحت جدة. فأخبرها «شو» انه سيخصص لها دورا فى مسرحيته التالية .

وقد نفذ وعده بوضع مسرحية « الـكابتن براسبوند » التى قال لها عنها انه لايستطيع أن يكتب لها مسرحية خيرا منها ، وان الدور يوافقها كل الموافقة ، ولـكنها عندما قرأتها لم تعجب بها ، وكتبت اليه بهذا المعنى ، وقالت له أن دور « ليدى سيسلى » يصلح لمسزكامبل، فغضب «شو» وكتب لها يلومها لأنه كان معجبا بهذا الدور .

وهكذا ظلت العلاقة الغرامية بين « شو » وبين « الين تيرى » عن طريق المراسلة . وهو يقول :

« ان الرسائل المتبادلة بيني وبين « الين تيرى »كانت علاقة غرامية ترضى حبى وتكفينى . وكان فى وسعى أن ألتقى بها فى اية لحظة أشاء ، لكنى لم أشأ أن أفسد هذه العلاقة البديعة بتعقيدات الممارسة الجنسية .. لقد سئمت هى خمسة أزواج ، ولـكنها لم تسأمنى . »

وقد تبين فعلا انها بقيت على حبه حتى آخر لحظة فى حياتها ، فقد كان آخر ما كتبته هو كلمة تحية له وثناء عليه .

● مـاى موريس ●

وهى ابنة « وليم موريس » ، الذى كان «شو» أحد أصدقائه المقربين . وكان يتردد على منزله حيث يجتمع رجال الفكر فى ذلك العهد . ولم تكن مسز « موريس »

تشترك في مجهودات زوجها الاشتراكية . وكذلك كانت ابنتها الكبرى تترفع عن حضور هـذه الاجتماعات . ولكن « ماي موريس » الابنة الصغرى كانت حليفة لوالدها في نزعته الاشتراكية . وكانت تشرف على مائدة العشاء التي كانت تعقب اجتماعات أيام الآحاد ، ثم تتصدرها . وكانت جميلة وأنيقة ، مما كان له تأثير مبهم على « شو » .

وكان غرامه بها يختلف عن غرامياته السابقة واللاحقة . وقد حدث بعد ان جاوزا سن الشباب ، أن طلبت اليه أن يكتب فصلا عن أبيها لتضيفه الى ماجمعته من مؤلفات أبيها ، فاستجاب لها . ووضع بين الأوراق وثيقة خاصة بها .. هي قصة غرامه . ودهشت « ماي » من هذه القصة ، وعرضت الأمر على أصدقائها ، وانتهت الى نشرها حتى تضمن عدم تحريف القصة مستقبلا ، فتكون فضيحة هي بريئة منها وتقول رواية « شو » : حدث هذا مساء يوم الأحد ، بعد أن فرغت من المحاضرة .. وتناول العشاء على مائدة « موريس » في بيته المعروف في « هامر سميث » . ووقفت على عتبة الباب مودعا .. في تلك اللحظة أقبلت « ماي » من قاعة الطعام الى البهو ، ونظرت اليها مبتهجا بجمال ثوبها وروعة منظرها اللطيف الأنسي . ونظرت هي الى بامعان شديد ، وعن عمد أومأت بعينها ايماءة الرضا . وأدركت على الفور أن خطبتنا قد تمت في السماء على طريقة أهل التصوف . وان اتمام الزواج لابد أن يتأخر ريثما تنتهي كل العقبات المادية ويكون في مقدوري انتشال نفسي من مهاوي الفاقة والفشل . أما وضعي كعبقري فلم يكن يخالجني فيه أدنى شك ، وفي الوقت نفسه لم أكن أشك في انها تعرف أيضا قدر نفسها ، وبالتالي تعرف القدر الحقيقي لكل انسان .

ولم يخطر ببالى اطلاقا انه من الضرورى أن أقول لها شيئا بلسانى . أما والدها « وليم موريس » ، فلم يكن من اللائق أو من الممكن اجتماعيا أن أذهب اليه وأصارحه بأننى استغللت ضيافته لى فى بيته بصفتى رفيقا اشتراكيا لايقاع ابنته الصغرى فى حبائل الزواج من شخصى المفلس . وفضلا عن ذلك ، فانه لم يخطر ببالى ان اخلاصى لهذه الخطبة الصوفية السماوية الصامتة ، يمكن أن يتعارض مع علاقاتى بالنساء الأخريات !..

« ويلاحظ ان دخل « شو » فى هذه الفترة كان قد وصل الى أربعمائة جنيه فى السنة ، ولكنه لم يكن ليقاس الى جانب الثراء الذى كان يعيش فيه بيت « وليم موريس » .. »

ويستطرد « شو » قائلا : واذا كنت لم أقدم على الزواج من الابنة الحسناء ، فقد كان فى وسعى على الأقل أن أملأ عينى وأبهج قلبى بكل محاسنها ، وأنا خالى البال من التكاليف والقيود ، ولكنى لم ألبث أن لقيت جزائى ، اذ علمت فجأة — لدهشتى التى بلغت حد الذهول ، ودهشة والدها أيضا فيما أرجح — ان الابنة الحسناء قد تزوجت من أحد الرفاق ، وكان هذا المحظوظ يدعى «هنرى سبارلنج» ، وهو شاب اشتراكى ألحقه والدها بمطبعة «كلمساوت». والواقع ان ما حدث كان طبيعيا للغاية ، ومن الخطأ كان خطئى أنا وحدى ، لأننى اعتبرت خطبتنا الصوفية السماوية الصامتة أمرا مفروغا منه . ومع ذلك فقد اعتبرت حينئذ — وما زلت أعتبر رغم أنف المنطق السليم والبداهة السوية — ان زواج « ماى موريس » أفظع خيانة للعهد فى تاريخ

الرومانسية كله .. ولاسيما ان « سبارلنج » كان أقل جدارة بها مني ، فهو لايفضلني من الناحية المالية ،كما أن احتمال لمعانه فى المستقبل كان أقل بكثير مما ينتظر بالنسبة لى ... ولو انه كان مؤمنا راسخ الايمان بالاشتراكية ، يدافع بحماسة عن « القضية » وخلقه لا غبار عليه. وهكذا لم يكن امامى الا قبول الأمرالواقع. وبدا لى أن خيالى الذى لايقف عند حد قد خدعنى فى مسألة الخطبة المسجلة فى السماء . على انه لم يلبث أن تبين لى عكس ذلك . فقد أدى الانغماس فى الدعاية السياسية والانهماك فى النشاطات الفنية ، وما يستتبع ذلك من اضطراب التغذية وأحوال المعيشة وأوقاتها عموما ، أدى ذلك الى ارهاق شديد لجسمى وأعصابى ، مما أحوجنى الى راحة عاجلة وتغيير الجو . ودعانى العروسان الشابان للاقامة معهما فترة من الوقت . وقبلت الدعوة، ووجدت نفسيمستمتعا بالراحة وحسن الرعاية فى بيتهما الذى يحمل طابع «موريس» السحرى، لأن «ماى» كانت قد ورثت عن والدها حاسته الجمالية وموهبته الأدبية . وسار كل شيء على مايرام زمنا فى هذه العائلة التى صارت ثلاثية بوجودى .

ويصف «شو» هذه الفترة بأنها كانت فترة سعادة لكل الأطراف . وعندما عوفى من الارهاق ، كان عليه أن يرحل ، حتى لا يظل عالة متطفلا على الزوجين . ثم اذا بزواجهما الشرعى يتقوض وينهار ، شأن كل بناء يقوم على أساس من الأوهام . وصار على اما أن أحول خطبتى السماوية الى زواج حقيقى ، أو أن أختفى من الميدان تماما .

وكان « سبارلنج » يعتقد ويعلن أن صديقه وضيفه « شو » قد خان عهده ، وانه غرر بزوجته ، فلما تم له الاستيلاء على لبها تماما ، اختفى فجاة .

« فلم تكن لديه بالطبع فكرة عن الخطبة المسجلة فى السماء » . والحق ان هذه الخطبة كانت كل مايربطنى « بماى » . فلما صار الاحتفاظ ببراءة هذه الخطبة وطهارتها غير ممكن تعقد الموقف تماما . فالزوج قبل كل شيء صديق وفى . وكان سلوكه معى لا غبار عليه فى جميع الأوقات . واذن فانزوائى ببيتـــه ثم سلبـــه زوجته عمل يتنافى مع احساسى بالشرف ، ولا يغتفره المجتمع اطلاقا .

ويستطرد «شو» فى حديثه ، مؤكدا انه لم يكن ليلجأ الى مثل هذا الأسلوب . ومظهرا غضبه لفكرة الزواج بالطرق العادية ، فما بالك بزواج أساسه المساومة وفيه شبهة المنفعة المادية ، فان « موريس » كان ثريا ، وما أبعد هذا كله عن الخطبة الصـــــــوفية السماوية التى ربطتنى « بماى » ابتداء !..

وانتهى الأمر الى زواج «سبارلنج» من امرأة أخرى، بعد أن فر من «ماى» وقد سعد فى زواجه الثانى كثيرا ، ولكنه مع ذلك ظل يحقد على «شو» الى آخر العمر .

« أما الحسناء «ماى» فقد أخرجته من حياتها ، بل انتزعته من جذوره انتزاعا ، ندما على سوء اختيارها وتكفيرا ، واستردت اسم عائلتها .. ولكنها فى الوقت نفسه ألغت وجودى أنا أيضا من حياتها ، ولعلها خيرا صنعت » !

● الـمـا مـورى ●

كان « شو » يهيم حبـا وغراما بكل امرأة تعمل فى ميدان الفن ، وبخاصة الممثلة التى تقوم بدور البطولة فى احدى مسرحياته ولكنه فى نفس الوقت كان حريصا على تجنب العلاقات الجنسية قدر الامكان !.. ويؤكد ذلك ماجاء فى الخطاب الذى أرسله الى « الما مورى » زوجة « الفريد فورمان » التى قامت بدور البطولة لأول مرة مثلت فيها مسرحية « السلاح والرجل » .

يقول « شو » فى رسالته :

« لن أقبـل الآن الدعوة التى وجهتها الى لزيارتك والتحدث معك بشأن الدور الذى تقومين به ، فحينما تستطيع امرأة أن تهبنى المتعة التىأوجدها لدى تمثيلك الليلة ، فاننى لا أستطيع أن أمنع نفسى من الاندفاع فى غرامها .. ثم اننى لن أستطيـع احتمال رؤية زوجك « فورمان » مستمتعا بسعادته العائلية » .

وكانت العبارة الأخيرة من دعابات «شو» المأثورة ، وكان يستعملها دون حذر مع كل امرأة يغازلها ، وكان يغازل جميـع النساء تقريبـا ، حيث كان يجد فى ذلك حماية لنفسه واشباعا لغريزته الخيالية . الا ان هذه المعاملة كانت تترك أثرا سيئا لدى بعض النساء اللاتى كن يختلفن عنه ولا يرضـيهن القليـل . ولذلك كانت انتصاراته الغرامية كثيرة ، وفى نفس الوقت كانت له ضحايا عديدات .

• آنى بيزانت •

وهى واحدة من ضحاياه . وقد كانت «آنى» أقدر خطيبة اجتماعية فى زمانها . وقد شعرت نحوه بالبغض الشديد عندما التقت به لأول مرة ، لما رأت فيه من مرح وهزل ، حيث كانت على النقيض منه جادة لا تعرف الفكاهة ولا تفهمها . وكانت هذه المرة تبدى حماسة شديدة للمذهب الذى تعتنقه ، ثم لا تلبث أن تسأمه وتمضى الى غيره بنفس الحماسة الشديدة . وهكذا بشرت بالالحاد تحت تأثير «برادلو» . ثم بشرت بالتطور تحت تأثير « أفلنج » ثم بشرت بالاشتراكية تحت لواء « شو » وأخيرا انتهت إلى التبشير بالصوفية تحت راية « مدام بلافاتسكى » .

وقد حدث فى ربيع عام ١٨٨٥ أن كان على برنارد شو أن يلقى خطبة عن الاشتراكية ، فحذره الجميع من خصم عنيد وخطيبة خطيرة هى « آنى بيزانت » ، ولكن وقعت مفاجأة مذهلة ، اذ انقلبت الخصومة فجأة الى تأييد عنيف ، حتى انها طلبت الى « شو » أن يزكيها لعضوية الجمعية الفابية .

ودعته بعد ذلك لقضاء السهرة فى بيتها ، حيث اشتركت معه فى العزف على البيانو . وبدأت فى نشر قصصه الطويلة مسلسلة فى مجلتها « ركننا » — أوركورنر — ثم عينته ناقدا فنيا فيها ، وعندما دب الخلاف بينها وبين مموليها الرأسماليين بسبب ميولها الاشتراكية ، ظلت تدفع مرتبه من مالها الخاص وهو لايدرى ، الى أن اكتشف الحقيقة ، فأصر على رفع

اسمه من كشف المرتبات ، وواصل الكتابة فى محلتها دون مقابل .

وكانا يظهران على المنابر باستمرار سويا ، وكانت تصحبه عند الانصراف من الندوات الى البيت . والحقيقة ان « آنى » كانت شخصية عظيمة على المنبر ، ولكنها لم تكن شيئا يذكر فى حياتها الخاصة . وقد صمم « شو » على أن تكون علاقتهما جدية . ولما كان زوجها على قيد الحياة ولم يطلقها ، فلم يكن أمامهما من سبيل الى زواج شرعى . ولذلك حررت عقدا للزواج العرفى ضمنته الشروط التى يتبعها كل واحد منهما فى معاملته للآخر . وعندما قدمت له العقد لكى يوقعه صاح :

« يا الهى !.. هذا أسوأ من القسم الذى يقسمه الرجل لامرأته فى أى كنيسة على وجه الأرض . كنت أفضل أن أكون زوجا لك على توقيع هذا العقد !.. »

ولم تقبل « آنى » شيئا أقل من عقدها ، وعندما وجدت من «شو» اصرارا على الرفض ، طلبت منه خطاباتها . ولما أعطاها اياها ، ناولته صندوقا كانت تحتفظ فيه برسائله ، وهى تغالب البكاء . وقال لها « شو » :

« ماذا تفعلين ؟ ألا يمكنك الاحتفاظ بها ؟ اننى لا أريدها !.. »

فأخذت الخطابات منه ، وألقت بها فى النار ، وكانت هذه هى نهاية علاقتهما .

كان الفراق شاقا وقاسيا ، لدرجة ان «آنى» فكرت

فى الانتحار ولكنها لم تلبث أن تغلبت على عواطفها ، واستأنفت عملها بعد أن توسط لها «شو» لدى «ستيد» لكى تعمل فى مجلة «بول مول» (١) ولكنها كانت فى حاجة الى دين تبشر به ، فوجدت أن الدعوة الى الصوفية عزاء لها ..

وقد حاول «شو» فيما بعد أن يجدد العلاقة بينهما ، ولكنه عندما التقى بها ، أحس انه فقد تأثيره عليها . وهكذا قطعت بقية الطريق وحدها الى آخر أيام حياتها.

● مسز هيوبرت بلاند ●

وبعد تلك المغامرة ، كانت مغامرته الجديدة مع مسز « هيوبرت بلاند » ، التى كانت زوجة لزعيم بارز من زعماء الجمعية الفابية . وكانت شاعرة تكتب القصص الخيالية تحت اسم مستعار ، هو « أيدث نسبيت » وكان زوجها ضابطا متقاعدا عنيدا ، وقد مكنته شخصيته وعناده وصلابة رأيه من حفظ التوازن داخل مجلس ادارة الجمعية الفابية . وقد استطاع «شو» أن يحتفظ بمودة «بلاند» لأنه كان يعامله نفسيا لا منطقيا ، وعلى أساس هذا الفهم كان يشاركه رياضة الملاكمة وينازله أحيانا . ثم ألحقه

(١) اشتغل « شو » ناقدا للكتب لمجلة « بول مول » ، وللفن لمجلة « العالم » وللموسيقى لمجلة « ستار » تحت الاسم المستعار « كورنو دى باستو » ، وللمسرح لمجلة « ستردای ریفیو » .

بالعمل فى احدى الصحف ناقداً رياضياً ، وبعد ذلك أصبح كاتبا استطاع أن يحقق لنفسه شهرة صحفية.

وكانت زوجة «بلاند» رقيقة التكوين ، ولذلك كانت تعانى من قوة زوجها وحيويته البدنية الخارقة ، اذ كان يرهقها بمطالبه الجسدية الملحة والمتلاحقة . كما انه ألقى على عاتقها مهمة « زوجتين اضافيتين » كان عليها أن تساعدهما فى الوضع ومتاعب الأمومة (غيرالشرعية) لأن فحولته الهرقلية لم تكن تكفيها زوجة واحدة يلتزم بالاخلاص لها. وبالتالى فانه لم يكن من العدل أن يطالب زوجته الشرعية بالوفاء له وحده !.. ولم يكن لديها أى تحرج من الوقوع فى غرام «برنارد شو» الذى وصفته بأنه « عادى الوسامة ، ولـكنه من أشد الرجال الذين التقيت بهم فتنة وجاذبية » ، ولم تتردد فى التعبير عن مشاعرها نحوه تعبيرا صريحا وواضحا فى قصائدها ، رغم انها لم تكن فى نفس الوقت غافلة عن عيوبه . وقد حاولت أن تجسم عيوبه لتتخلص من تأثيره عليها ، ولكن محاولتها ذهبت أدراج الرياح فى النهـاية ، وامتـلأت أشعارها بالحديث عن«وجهه الأبيض الذى يثير الجنون». وقد حاول هو من جانبه أن يسوس عواطفها برفق ، وقال تعليقا على ذلك :

« انه من الطبيعى أن يقيم الانسان علاقات ودية مع زوجات أصدقائه . ولكنه اذا كان عاقلا ، يجب أن يخرج الجنس من دائرة هذه العلاقات تماما » .

والحقيقة ان « بلاند » كان يفهم «شو» . ولم يسىء به الظن كما فعل «سبارلنج» . وقد ظل على صداقته له ، حتى انه عنـدما حضرته الوفاة بعـد ذلك بسنين

طويلة ، وساوره الشك فى كفاية ماخصصه لتعليم ابنه فى جامعة كامبريدج ، قال لابنته :

« اذا لم يكف هذا المبلغ ، فالجئى الى «شو» لكى يتكفل بالباقى » .

أما العلاقة بين « شو » ومسز «بلاند» ، فقد انتهت فى صورة صداقة متينة ومخلصة .

● الينوركارل ماركس ●

وهى صغرى بنات « كارل ماركس » وكانت جميلة بدرجة تسترعى الأنظار وذات ذكاء خارق . وقد تم التعارف بينهما باعتبارهما رفيقين اشتراكيين . وقامت بينهما صداقة وطيدة ، ولكن قبل أن تتطور العلاقة من جانبها الى شيء أعمق ، ظهر فى الأفق رجل آخر ، هو الدكتور « ادوارد آفلنج » الذى استطاع أن يختطف قلبها ويسلب لبها ، حتى انها أعلمت أصدقاءها انها قررت الحياة معه. وكان «آفلنج» حاصلاعلىالدكتوراه فى العلوم ، وكان متزوجا ولكنه هجر زوجته ، فعاشت « الينور » معه وهى تظن انه أعزب ، فلما ماتت زوجته عرضت عليه أن يتزوجها ، ولكنه أعرض عنها . وهددته بالانتحار ولكنه لم يكترث . وكان أن انتحرت فعلا !..

● جينى باترسون ●

كانت « جينى » تتردد على والدته لتتلقى دروسا فى الغناء والموسيقى . وعندما رأته لأول مرة ، لم تتردد فى دعوته الى الشاى ، وهناك « اغتصبته » !.. وكان أن فقد عذريته بعد طول تماسك !

ويصف « برنارد شو » هذه الحادثة ، فيقول :

« لقد سمحت لهذه الأرملة المدربة ، الملتهبة الحواس والمشاعر ، أن تهتك عفافى . وكان ذلك رغبة منى فى معرفة هذا الشىء الذى كان يراودنى فضول شديد بصدده ، ولم أكن قد مررت بمثل هذه التجربة من قبل! ولما كنت لا أعتبر نفسى ذكرا جذابا ، فقد أدهشنى فى هذه اللحظة أشتهاؤها لى الى حد هجومها على لتنالنى .. دهشت ، ولكنى أستطعت أن أحافظ على المظاهر بنجاح تام ، حتى لايفتضح جهلى . وبعد هذه التجربة ، لم يعد يدهشنى ـ كلما تركت وحدى فى حجرة مع امرأة جياشة العواطف ـ أن أجدها تلقى بذراعيها حول عنقى ، وتصارحنى بأنها تحبنى حب العبادة !

ولما كنت أعتقد أن الخبرة الجنسية « عامل ضرورى لاكمال النمو البشرى » فقد فضلت الحصول عليها من امرأة لديها الكثير فى هذا المضمار ، لتفضى به الى ، وتلقنه دفعة واحدة لشاب جاهل مثلى ، ولذا تركتها تغوينى وتطيح بعفتى من باب العلم بالشىء !.. »

والحقيقة ان « جينى باترسون » لم تكن امرأة نهمة لا تعرف الشبع الجنسى فحسب . ولكنها أيضا كانت بركانا من الغيرة الجنونية . وقد أفاد «شو» كثيرا من

هذه الغيرة فى تصوير تلك المواقف تصويرا واقعيا ، ونحن فى الفصل الأول من مسرحيته « زير النساء » نجده يتخذ من « مسز باترسون » نموذجا يصور به شخصية « جوليا » . كما أنه يستوحى تلك المشاجرة الرهيبة التى نشبت بين « مسز باترسون » والممثلة الحسناء « فلورنس فار » ، فيقول :

« اننى خلال تلك المشاجرات لم أكن أفقد اعصابى، بل كنت أحتفظ بضبط النفس ساعات وساعات ؛ ولكن التوتر العصبى الذى تحملته كان مرهقا جدا ولا يمكن أن ينسى . ولم أر « مسز باترسون » بعد ذلك مطلقا ، ولا رددت على أى خطاب من خطاباتها وبرقياتها التى انهمرت على كالسيل على مدى الشهور التالية . ولم تغفر لى ذلك . أما أنا فلم أحمل لها أية ضغينة ، بدليل اننى تركت لها فى وصيتى مائةجنيه . وهذه الهبة تركتها لها ، أو كنت اريد أن تنالها منى ، لرقتها على ولطفها خلال اتصالاتنا الحميمة . ولكن شكرى لرقتها شيء ، وشيء آخر أن أقضى حياتى تطاردنى غيرة امرأة لاتتحكم فى مشاعرها ، وتثير شجارا سوقيا كلما حدثت امرأة أو داعبتها بكلمة مجاملة . والحق انها كانت عارمة الغيرة فى كل شيء لا فىأمورالجنس فحسب. وأنا انسان يجيد ضبط مشاعره ازاء الاساءات العادية ، ولكنالويل كل الويل لمن يتجاوز فى اساءاته حد الاحتمال ، مثل « جينى باترسون » .

● فلورنس فــار ●

كانت سبب القطيعة بين «شو» و «جيني باترسون» ، وهي ممثلة ادت دورين رئيســيين في مسرحيتــين من مسرحيات «برنارد شو» المبكرة. وكانت لها معه علاقات جنسية حميمة . كما انها كانت ذات شخصية فريدة من نوعها . ويصفها « شو » بقوله :

« هي امرأة شــابة من العاملات ، ذات طابع عملي واستقلالي في الفكر والسلوك . وقد أتاح لها ذلك كله حرية استثنائية في صلاتها الاجتماعية في المحيط الفني بلندن . ولمــا كانت ذكية ، بارعة ، لبقة ، مرحــة ، دمثة ، فاتنة الحسن الى أقصى حد . فانه لم يكن غريبا أن يقع كل أصدقائها الرجال في هواها . وتواتر ذلك بكثرة حتى ضاق صدرها ونفد صبرها ازاء التمهيدات الأولية المترددة التي يلجأ اليها غير المدربين من عبــاد حسنها . ولذلك فانها عندما كانت تجد أحدهم وقد بدا أن تحدثه نفســه بتقبيلها ، ولكنه متردد لايدري هل يقبل أو يحجم ، وترى انه غير قبيح أو منفر الى الحد الذي يجعل تعطفها عليه أمرا ثقيلا على نفسها أكثر مما يجب، فانها عندئذ كانت تحسم الأمر لــكي تنتهي من هــذا الازعاج ، فتجر المتيم المتلعثم من معصمه ، وتضمه الى صدرها برفق وتقول له : « قم بنا لكي ننتهي من هذه المسألة ! » حتى اذا فاز المتيم المتلعثم بالقبلة ، وأحيانا بما هو أكثر، قالت له : « الآن وقد هدأ بالك.. لنجلس ونتحدث بصفاء ذهن في أمور أعم من هذا !.. »

ولا عجب في أن يجد «شو» في هذه «المرأة اللطيفة ،

الودود ، السمحة ، ذات الحاجبين نصف الدائرين » صورة مستحبة تختلف كل الاختـــــلاف عن « جينى باترسون». فالأولى تنظر الى العلاقات تلك النظرة التى يتمناها كل رجل « يستملح » المراة التى لا يكن لها حبا حقيقيا ، فتعطيه ألمتعة ، دون أن يعانى من الغيرة أو القلق أو الهم .

وقد عاشت « فلورنس فار » حياة مليئة بمثل هذه الاتصالات. ويقول «شو» انها كانت أطيب قلبا من أن تضن على أى رجل تستلطفه بأى شىء ، سـواء طلبه صراحة أو تلميحا !

وفى نهاية الأمر ، رحلت « فاورنس » الى الشرق ، حيث ماتت هناك .

● شارلوت بين تاونسند ●

فى منتصف صيف عام ١٨٩٦ ، اجتمع بعض أعضاء الجمعية الفابية فى مقاطعة « القديس اندرو » فى مدينة «ساكس» . وكان «سيدنى ويب» وزوجته قد استأجرا منزلا فى تلك المقاطعة ، واستضافوا بعض أصدقائهما ومن بينهم «شو» وفتاة تدعى «شارلوت بين تاونسند»

وكانت هذه الفتاة ايرلندية ، ثرية ، ولكن ثروتها لم تمنعها من أن تكون ذات ضمير اجتماعى ، فانضمت الى الحركة الاشتراكية . وتبرعت بمبلغ ألف جنيه لبنـاء

مدرسة لندن الاقتصادية. ثم كان ذلك اللقاء بينها وبين «شو» حيث كانت بداية الحب المتبادل بينهما . وقد كتب «شو» الى « الين تيرى » يقول لها :

« انضمت الينا مليونيرة ايرلندية ذات عقل راجح ، وشخصية مستقلة ، وقد تنازلت عن مركزها الاجتماعى. انها صيد طيب لأى رجل ، ولكن الله أراد أن يهديها بانضمامها الى عائلة الفابيان ، وقد أصبحت احدى

أعضائها . سأوقظ عواطفى ، وأتعلق بحبها . اننى مولع بالتعلق بالحب ، ولكن ثقى بأننى سأحبها هى ولن أحب ملايينها . ولتتزوج من غيرى ان استطاعت أن تحتمل أحدا بعدى !.. »

قضى «شو» معظم وقته فى تتمة مسرحية « لن تستطيع أن تعرف». و « يصلح الثقوب فى دراجات السيدات». وكان يمضى أمسياته فى قراءة مسرحياته على المجموعة. كما كان يجد متسعا من الوقت لتبادل الحديث مع الآنسة « تاونسند » ، وهما يركبان دراجتيهما ويقطعان بهما مسافات طويلة .

وفى شهر أكتوبر ، بعد أن عاد « شو » الى لندن ، كان قد شغف حبا بالآنسة الايرلندية ذات العينين الخضراوين . وبعد ثلاثة أسابيع من اقامته فى العاصمة، كتب الى « الين تيرى » :

« هل أتزوج من مليونيرتى الايرلندية ؟ انها تؤمن بالحرية . ولا تأمن عقبى الزواج ، ولكن أستطيع ان أقنعها به . وبعدئذ سأحصل على عدة مئات فى الشهر دون مقابل . فهل يمكنك أن تغفرى لى ذلك ، علما بأننى شغوف بها وهى شغوفة بى ؟ لن تستطيعى !.. »

وفى اليوم التالى كتب لها :

« انها حقيقة لا تحبنى .. فهى امرأة ماهرة تعرف قيمة حريتها . وقد عانت كثيرا من عائلتها ومن التقاليد الاجتماعية قبل وفاة والدتها وزواج شقيقتها ، وهذا ما يدفعها الآن الى الاعتزاز بحريتها . كما انها تتمتع بقوة ثروتها . وهى ترى فى الزواج جنونا . كانت قد أحبت منذ سنوات ، واخفقت فى حبها ، فحزنت . ان عواطفها حادة ، ولما أتيح لها قراءة كتابى فى تعاليم « أبسن » ، ظننت انها وجدت فيه رسالة الخلاص والحرية ، ومصدرا للفرح والاحترام الذاتى. وبعد ذلك قابلت المؤلف الذى هو كما تعرفين يستطيع أن يجعل محتملا ككاتب خطابات . وهو أيضا زميل لابأس به على الدراجة ، وعلى الأخص فى منزل ريفى لا تجد غيره . لقد أغرمت بى ، ولم تتدلل أو تتظاهر بغير مشاعرها ، وقد تعلقت بها لأنها كانت معينى هناك . لقد جعلت قلبى رحيما ، فأحببت جميع الناس ، وكانت هى أقرب الناس وأفضلهم .. هذا هو وضعى ، فماذا يقول قلبك عديم الحب فى ذلك ؟ »

وقد أجابت « الين تيرى » على هذه الرسالة بقولها :

« لست ذكية ، ولم أكن ذكية فى يوم من الأيام . وأحيانا حينما أنظر اليك ، أتمنى ألا أصبح ذكية. لأنك تكون شريرا . ولن يكون فيك شىء صالح ، اذا تزوجت عن غير حب . أما المرأة فانها قد لا تحب قبل الزواج ، ثم تتعلق بزوجها ، اذا لم تكن قد أحبت غيره قبل أن تتزوج » .

ومع ذلك فانه لم يقرر شيئا . لم يكن يخشى المرأة ،

ولكنه كان يخشى الزواج . مع انه كان فى الاربعين من عمره ، عزبا . وكانت المشكلة المادية هى أهم الموانع ، فقد كان يتقاضى ستةجنيهات أسبوعيا من « السترداى ريفيو »، بينماكانايرادها ضعفهذاالمبلغ اثنىعشرةمرة ، وقد ظل محتفظا بصداقتها ، وتوثقت عرى الصـــداقة بينهما ، وسقطت الكلفة فكانت تقول له : « يالك من شخص شاذ » .. أو « انك فظ غليظ القلب » حسبما تكون المناسبة . وفى نهاية العام ، كتب الى « الين تيرى » يصفها :

«مسب.تاونسند امرأة هادئة، ذاتعينينخضراوين. سيدة محترمة تأثرت بآرائى الى حد بعيد وعميق. وهى حرة لا ترتبك . واذا تحدثت اليها ، فلن تجديها امرأة عادية . »

وفى بداية عام ١٨٩٨ . أصبحت « مس تاونسند » سكرتيرة له ، فكان يملى عليها مقالاته ، وكانت تمرضه اذا شعر بتعب . وكان يقضى أغلب أوقات فراغه فى بيتها ، ثم يخرجان النزهة على الاقدام معا .

وفى مارس من تلك السنة ، تركت انجلترا فى رحلة حول العالم مع « سيدنى ويب » وزوجته ، ولكنها لم تذهب الى أبعد من روما ، فقد وصلت الى «مسزويب» برقية من «جراهام والاس» تحمل خبر مرض « شو » وسوء حالته، وعدم وجود من يعنى بهفىمنزله البغيض. وقد نصحت « مسز ويب » صديقتها بالعودة الىلندن، ولم تكن «مس تاونسند» فى حاجة الى تلك النصيحة ، فقد ركبت أول قطار وعادت الى لندن .

وعندما ذهبت « مس تاونسند » الى منزل «شو» ،

فزعت من منظر البيت . فقد وجدته فى حالة سيئة للغاية . ووجدت أن أفضل حل هو أن تستأجر منزلا قريبا من بينه ، وتنقله اليه حتى تستطيع أن تعتنى به بنفسبها . ولكنه رفض هذا العرض ، حتى لايسىء الى سمعة صديقته والى مركزها الاجتماعى . وكان رأيه هو أن يتزوجها أو يبقى فى منزله، وانتهى الأمر بالاتفاق على الزواج .

وفى أول يونيه عام ١٨٩٨ ، عقد زواجهما فى مكتب التسجيل ، وقد حدث ان تمزقت سترة « شو » وهو يتكىء على عكازه فى طريقه الى مكتب العقود الزوجية. ولم يحضر عقد الزواج الا الصديقان « جراهام والاس» و « هنري سولت » . وقد كتب « شو » عن هذا الموقف فقال :

« لم يخطر ببال المسجل اننى العريس ، وظن اننى المتسول الذى يتبع موكب الزواج عادة ، وكان «والاس» مديد القامة ، فظنه بطل الحادث . وكان على وشك أن يعقد له على خطيبتى ، ولكن «والاس» رأى ان الموقف يزداد حرجا ، فتنحى فىآخر لحظة ، وترك لىالجائزة » .

وعاش « شو وشارلوت » حياة زوجية دامت أكثر منخمس وثلاثين سنة دون أن تتم بينهما علاقة زوجية طوال هذه السنين . وفى هذا يقول « جون أرفين » :

« انه لايوجد احتمال على ان زواج «شارلوت» قد تم على الصورة التى كانت تشتهيها عشيقات «شو» . فقد كانت المسكينة تستشعر الفزع كلما فكرت فى العلاقات الزوجية الحسية ، ومع ذلك فقد كانت تنتابها نوبات من الغيرة الشديدة كلما سمعت جديدا عن مغامراته مع « باتريك كامبل » أو غيرها من المعجبات ..

• مسز باتريك كامبل •

كانت قصة غرام «شو» بها حدثا خطيرا . فقد كان جادا فى حبه بهدف خلق شخصية « اليزا دوليتل » بطلة مسرحيته الكبرى « بيجماليون » . وقد حرص «شو» على أن يمطر « مسز كامبل » بسيل من الرسائل التى تفيض عذوبة ورقة واغراء ، حتى يستخلص من أعماقها جوهر الشخصية المنشودة فى مسرحيته .

وقد بدأت هـذه العلاقة ، عندما كان « شو » فى السادسة والخمسين من عمره ، بينما كانت «مسز كامبل» قد بلغت السابعة والأربعين . وكانت قد استطاعت أن تحتل مكانة مرموقة ورفيعة فى عالم المسرح ، حتى انها توجت ملكة للمسرح الانجليزى . وكان مشهودا لها بالجمال والذكاء . ومن نوادر ذكائها ان أحدهم اقترح على «شو» ــ والمعروف عنه انه كان نباتيا ــ أن يتناول قليلا من اللحم حتى « يسرى الدم القانى فى عروقه» ، فما كان من « مسز كامبل » الا أن اعترضت على ذلك بقولها :

« لا تفعلوا ذلك بحق السماء ، فان لديه من اللحم الفاسد ما يكفيه .. واذا حدث أن حصل على مزيد منه ، فان أى امرأة فى انجلترا لا تأمن على حياتها منه ! »

وخلال الفترة التى تبادلا فيها الرسائل ، كان «شو» سعيدا فى زواجه ، أما هى فكانت قد تزوجت للمرة الثانية بعد فترة من الترمل . وعندما تحدثت عن عائلتها ، وصفتهم بأنهم جميعا خياليون ، فقد فرت احدى عماتها



● مسز باتريك كامبل ●

من المدرسة لتتزوج ، وتسلقت عمة ثانية المدفأة لكي تهرب مع فنان كان شديد الغيرة عليها حتى انه خنق عصفورها لأنها كانت تطعمه من فمها . أما هى نفسها فقد هربت وهى فى سن الثامنة عشرة مع شاب صغير يدعى « باتريك كامبل » وأنجبت منه طفلين ، فى وقت لم يكن لديهما فيه الا الحب ووظيفة صغيرة تدر عليهما مبلغ ٥٠٠ جنيه فى السنة . وقد سافر زوجها الى استراليا ، ثم الى جنوب افريقيا ، حيث قتل فى حرب البوير .

وعندما اعتلت « ستيلا » خشبة المسرح ، استطاعت أن تحقق نجاحا رائعا وساحقا خلال فترة قصيرة للغاية، وقد بلغت قمة نجاحها فى مسرحية « زوجة تانكرى الثانية » . وقد اعتبرها الناقد «جيمس أجيت» واحدة من أعظم ست ممثلات . وقال عنها ناقد الدراما « الان دنت » : « لقد التقيت بها عندما كانت فى أواخر الستينات ، وما زالت عليها آثار ملحوظة من الجمال الرومانتيكى . أما صوتها العميق ، فكان كأنه ينبعث من بئر ذهبية » .

وكان النقاد يصطفون على هيئة كورس ، يتملقونها ويطرون جمالها الايطالى الأسمر . ولم يشذ عن هذا الاجماع الا ناقد واحد هو « برنارد شو » ، الذى كتب عنها فى عام ١٨٩٦ ، يقول :

« لو ان « مسز باتريك كامبل » اعتمدت فقط فى التمثيل على مواهبها الجسدية التى لا تقاوم ، ونظرتها الماكرة ذات التأثير السطحى على الجماهير ، لكان ذلك كفيلا بأن يجعلها تبدو ساذجة وسخيفة ، كما بدا لى

وهي تؤدي دورها . كما ان فشلها سيكون واضحا للجماهير كما كان واضحا لي تماما !.. »

ولكنه أردف تعليقه بكلمة مجاملة حين قال :

« ... غير انها ممثلة بارعة براعة المرأة التى تسلك الخيط فى سم الابرة بأصابع قدمها » .

وبعد ستة عشر عاما من هذا النقد العنيف ، كان اللقاء بين «شو» و «ستيلا » . وفى ذلك الوقت ، كان «شو» قد أصبح كاتبا مسرحيا مشهورا. وكانت المناسبة التى جمعت بينهما هى قراءته لمسرحيته الجديدة «بيجماليون» عليها . وقد كتب الى صديقه « جرانفيل باركر » يصف هذا اللقاء ، فقال له :

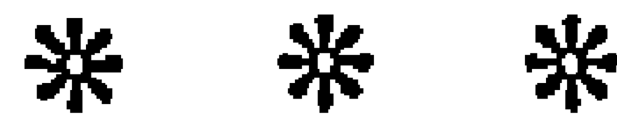
« لقد تركتنى وأنا غارق حتى أذنى فى حبها .. حبا قويا وعنيفا لم يدع لى فرصة التفكير حتى فى أعمالى.. حبا يطرق أبواب قلبى وأنا على مشارف السادسة والخمسين » .

وبدأت الرسائل بينهما .. كانت رسائله فياضة ، وكاماته تعبر عن ذكاء شديد وموهبة أدبية مصقولة . أما رسائلها فكانت قصيرة وضعيفة من حيث الصياغة. ولكنها كانت تعرف كيف تستعرض عضلاتها بين الكلمات. وكانخطابها الأول الى «شو» رقيقا ومهذبا ، وقد كتبته تعليقا على دورها فى مسرحية «بيجماليون»، وقالت فيه :

عزيزى « شو » ..

أولا .. أشكرك لأنك أطلعتنى على مسرحيتك وفكرت فى اننى أصلح لدور تلك الفتاة القذرة .. اننى أتساءل

حقا : هل أستطيع ان أكون مصدرا لسعادتك ؟..
المخلصة : ب . س . كامبل



ولم ينقض أسبوع واحد على هذه الصداقة ، حتى أدرك كل واحد منهما أن مزاجهما الحاد سوف يؤدى الى صدام بينهما . وبالفعل نشب بينهما خلاف حول الممثل الذى سوف يقوم بدور « الأستاذ هيجنز» ولكن المسائل المادية كانت الخيط الذى ساعد على دوام المراسلة بينهما . وقد حاول فى رسائله الادعاء كذبا بأنه لا يفهم شيئا فى الأمور المادية ، ولكن مع تبادل المراسلة، أدركت « ستيلا » بذكائها حقيقة « شو » ، ومن ثم استطاعت أن تخفف من حدة الصدام بينهما .

ثم حدث فى صيف عام ١٩١٢ ، أن أعلنت « ستيلا » انها لن تقوم بدور «اليزا» بطلة مسرحية «بيجماليون» ، ثم سافرت الى « اكس ليبان » لقضاء أجازتها . وفى نفس الوقت ، سافر « شو » الى المانيا لقضاء اجازته هناك مع زوجته «شارلوت» ، والتى كان يطلق عليها دائما اسم «ذات العيون الخضراء» .. وربما كانت هذه التسمية بسبب انها لم تكن تحمل أى عاطفة نحو أى ممثلة تكون لها صلة ما بزوجها . ثم سافر بعد ذلك الى فرنسا لقضاء فترة أخرى من الوقت هناك .. وعندما عاد ، انكب على العمل حتى انتهى من كتابة مسرحية « قيصر وكليوباترا » وهى المسرحية التى قامت فيها « مسز كامبل » بدور البطولة مرة واحدة .

وكانت «ستيلا» تطلق عليه فى تلك الأيام اسم «جوى»

ـ كنية عن المهرج ـ كما أنها أصبحت أكثر صراحة معه ، فكانت تخبره بكل ما فى أعماقها من أفكار وخلجات.

وفى فبراير عام ١٩١٣ ، ماتت أمه عن ثلاثة وثمانين عاما. وقد كتب الى «ستيلا» عن أمه . فقال فى رسالته:

« لقد عشنا سويا حتى بلغت الثانية والأربعين من عمرى . ولم يحدث بيننا أى احتكاك . وعندما وافتها المنية ، بدأت أفكر جديا فى علاقتنا ، فتبين لى اننى لا أعرف الكثير عنها » .

وجدير بالذكر أن « شو » وافق على اقامة شعائر الصلاة على أمه فى الكنيسة ، رغم انه هو وأمه لم يتوجها يوما من الأيام الى الكنيسة . وكان غرض «شو» من وراء ذلك هو أن يعرف مدى تأثير اقامة هذه الطقوس عليه. وقد سجل مشاعره فى رسالة بعث بها الى «ستيلا» ، وهى موجودة فى سياق مسرحية «حبيبى الكذاب». أما «ستيلا» فقد ردت على رسالته بخطاب « غير متوقع » حيث كتبت له تقول :

« ذهبت الى حديقة الحيوان ، ودللت « شيتا » وقبلتها ، وأطلقت زئيرا فى وجه الأسد ، وربت بيدى على البطريق ..

انه يوم هادىء .. يوم لاترى فيه ممثلتك المحبوبة. وقد فكرت طويلا بعد أن واجهت نفسى .. فماذا كانت النتيجة ؟ وجدت اننى أحب الاحساس .. الاحساس بالحب ، بالشباب ، بالدين، بالأطفال وحماسة رعايتهم، وفى آلاف الأشيـاء . اوه عزيزى .. أوه عزيزى .. عزيزى .. عزيزى .. كل الطرق تؤدى الى تلك الفجوة

فى الثرى ، أو الى ذلك الباب المؤدى الى الموقد .

أنا من تبقى لك ..

« ستيلا »

وقد أجاب شو على رسالتها برسالة أخرى فى نفس اليوم ، وقد قال فيها :

« أيها القلب المتحجر القاسى ، خاطفة قطعة الخبز من الطفل الجائع .. ما نوع قلبك؟ وكيف يتسنى لصدرك أن يضم مثله ؟ ألا تعلمين ماذا يعنى قلبك بالنسبة لى؟ اننى أريده ، ولا يطاوعنى قلبى نبذه . أريد أمى العذراء أن تعتلى عرش السماء . أريد أمى الفلاحة الايطالية . أريد رفيقتى البائسة . أريد سيدتى السمراء . أريد ملاكى ، أريد شيطانى . أريد « فريا » ومعها تفاحاتها . أريد مشعلا بمصابيحه السبعة : الجمال ، والشرف ، والمرح ، والموسيقى ، والحب والحياة ، والخلود . أريد ملهمتى ، وحماقتى ، وسعادتى ، وقدسيتى ، وجنونى ، وانانيتى ، وعقلى وطهارتى ، وربى ، ونورى عبر البحار ، وسفينتى عبر الصحراء ، وحديقتى المليئة بالورود الجميلة وملايين الأفراح المجهولة ، وأجر يومى ، وحلم ليلى ، وحبيبتى ونجمى ..

حسن . سأنفى بعيدا ، وسأنس وسأكدح ، وسأطحن المقالات والخطب خارج اطلال معابدى . وأدوس الأوراق المتساقطة من أشجارى . سأقوم بواجبى ، وأخفف وقع الأمر بضحكة مكتومة .

الجمعة ، السبت ، الأحد ، الاثنين .. لا وقت ،

لا فرصة ، لا احتمال . أركان الخلود الأربعة ياقاسية ، قاسية ، قاسية ، قاسية .. أليس لك قلب ؟

ج . ب . ش

وفى ربيع عام ١٩١٣ ، وصلت العلاقة الغرامية الى ذروتها . ولم يعرف تماما طبيعة تلك العلاقة ، فقد أصر «شو» على ان علاقته مع « مسز كامبل » كانت بريئة للغاية .. أما « مسز كامبل » فقد كتبت فى يومياتها :

« رغم كل ما كتبه أو قاله مؤكدا انه ليس فى الوجود سوى غرامه ، الا أن عمله ، ومحاضراته السياسية التى لاتنتهى ، وكذلك اجتماعاته ، وبيته أيضا ، كانت تأتى دائما فى المقدمة وقبل أى شىء آخر . وكان « شو » يحرص على ألا يتأخر عن زوجته «شارلوت» عشر دقائق ، مهما كانت ارتباطاته .. »

وعقب الحرب العالمية الأولى ، بدأت « ستيلا » فى كتابة مذكراتها . وقد عرض عليها أحد الناشرين مبلغ ألفى دولار مقابل أن تضم مذكراتها الرسائل الغرامية التى تلقتها من بعض الشخصيات البارزة ولكن حقوق النشر منعتها من استغلال جميع الخطابات ، عدا خطابات «جيمس بارى شو » . وقد أرسلت الى « شو » خطابا تستأذنه فى نشر رسائله وكان ذلك بداية لسلسلة من المشاجرات بينهما . حيث كتب اليها متسائلا :

« ماذا كتبت ؟ حياتك أم حياتى .. أم كليهما ؟ .. »

وفى عام ١٩٢٢ ، صدر كتابها « حياتى وبعض الرسائل »

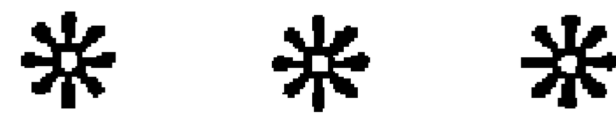
وقد ضمنته مختارات من خطابات « شو » . وأضافت اليها « خطابات لم أرسلها له » . وبعد ذلك عاشت « مسز كامبل » مدة ثمانية عشر عاما ، تعتبر فترة كئيبة فى حياتها . ولم تحقق أى نجاح يذكر الا قيامها ببطولة مسرحية « الأم المتسلطة » فى عام ١٩٢٩ . وبعد ذلك رحلت الى هوليود ، حيث قامت بأدوار صغيرة فى أفلام لم تحقق أى نجاح . وقد كتب « الكسندر وولكوت » عنها قائلا :

« انها تشبه الباخرة التى تغرق الى الأعماق ، بينما حرق لهيبها كل من يحاول انقاذها !.. »

وقد توفيت « مسز باتريك كامبل » فى عام ١٩٤٠ ، وقبل ذلك بعام واحد،كان «شو» قد أعاد بعض الرسائل الى « حبيبتى ستيلا » وهى الرسائل التى تناولت الأحداث الأدبية والفنية والشخصية على مدى نصف قرن ، والتى التقطها الكاتب والممثل المسرحى « جيروم كيلى » وصاغ منها هذه المسرحية بعنوان « حبيبى الكذاب » .

وهذه المسرحية تعتبر فريدة فى نوعها فى الأدب العالمى ... فهى مكونة من فصلين. والبطولة فيها لممثل وممثلة دون أن يشاركهما أحد خشبة المسرح . والممثل يقوم بدور « برنارد شو » ، والممثلة تقوم بدور السيدة «باتريك كامبل» . وهما يرويان قصة حبهما من خلال تقليب الرسائل . ومن خلال قصة الحب ، يقف القارىء على كثير من الحقائق المتعلقة بحياة «برنارد شو» وكذلك حياة «باتريك كامبل» . وقصة مسرحيات «برنارد شو» وكيف كان يقرؤها ...

والبطل والبطلة فى هـذه المسرحيـة ، يقدمان عرضا لمشاهد تتناول معظم الشخصيات التى ابتدعها « برنارد شو» فى مسرحياته ، وبخاصة فى مسرحيته «بيجماليون» ، وهى المسرحية التى أهداها الى صـديقته « ستيلا » ورسم لها فيها دور « اليزا » .



ومسرحيته « بيجماليون » تدور أحداثها حول فتاة سوقية كانت تقف عند باب المسرح الكبير ، لتبيع أزهار البنفسج . وأثناء تجوالها سقطت السلة من يديها بعد أن اصطدمت برجل أنيق، وكان هذا الرجل هو الأستاذ « هنرى هيجنز » خبير اللغات والمتخصص فى دراسة اللهجات . وقد واجهت « اليزا » هذا الموقف بصيحات الاحتجاج والشكوى ، فبدت ألفاظها سوقية ، حتى انها خدشت سمع الأستاذ « هيجنز » . وصاح هو الآخر طالبا اسكات هذه المخلوقة التى تهين اللغة الانجليزية. وكان يقف معه صديق ، فدار بينهما حوار أنتهى الى ابداء استعداده بأن يستطيع أن يخلق من هذه التافهة الحقيرة دوقة تنحنى لها لندن كلها ، وذلك خلال ستة أشهر فقط .

وهكذا التقى النقيضان .. « اليزا » الفقيرة الجاهلة بائعة الأزهار ، بنت ألسـكير العاطل . و « هيجنز » الأستاذ العظيم ..

ولم تكن « اليزا » تحلم بأن تصبح دوقة . وانما كان حلمها الكبير هو أن تقوم ببيع الأزهار فى أحد المحلات ، بدلا من التسكع بسلتها فى الطرقات . وكان هذا الحلم

عزيز المنال بالنسبة لها ، فهذا العمل يتطلب فتاة مهذبة، تجيد فن الحديث ، وتستطيع أن ترضى الزبائن بالكلمة الحلوه والابتسامة المشرقة .. على ان الحوار الذى دار بين الأستاذ « هيجنز » وصديقه ظل يتردد صداه فى أذنيها .

وكان أن ذهبت اليه فى اليوم التالى . وتصادف أن كان معه فى ذلك الوقت صديق من خبراء اللهجات جاء من بلاد بعيدة ، ودخلت ألفتاة عليهما لتساوم الأستاذ ان يعلمها فن الحديث . وفوجىء الزائر بهذه الفتاة ، وأكد للأستاذ « هيجنز » انه لن يستطيع أن يفعل شيئا بالنسبة لفتاة على مثل هذه الدرجة من السوقية . ولكن « هيجنز » تحدى زميله ، وتراهن معه على انه يستطيع أن يجعل منها أميرة خلال ستة أشهر فقط .

ومنذ ذلك اليوم ، أقامت « اليزا » فى بيت الأستاذ ، لتكون تحت اشرافه ورعايته دائما . وعهد الى الخدم بمهمة تدريبها على أصول المشى وآداب المائدة وقواعد السلوك الاجتماعى . بينما تولى هو مهمة تدريبها على النطق ، وحسن التعبير ، وفن الالقاء .

وقد وجد الأستاذ «هيجنز» صعوبة بالغة فى البداية، ولكنه تذرع بالصبر، حتى استطاع أن يجتاز بها عقبات التمرد ومحاولة معاودة سيرتها الأولى بدلا من تلك التكاليف الشاقة والعسيرة ، وهى التى تعودت أن تتصرف من قبل بلا أدنى تفكير وبكل تلقائية . وبعد فترة ، كان عليه أن يجرى تجربة على حصيلة هذه الدراسة ، فاشترى لها فستانا أنيقا ، وأخذها معه الى سباق الخيل حيث يتردد أبناء الطبقة الراقية . وكانت

التجربة ناجحة ، فقد لفتت « أليزا » الأنظار ، وتهافت عليها الشبان. ولكنهم ماكادوا يتبادلون معها الأحاديث ، حتى خرجت عن النطاق المحدود وتصرفت بتلقـــائية كشفت عن حقيقتها !

ولكن الأستاذ لم ييأس . عاود تدريبها وفتح أمامها المجالات المختلفة الثقافة لتكون لديها القدرة على مجاراة المجتمعات فى الموضوعات المختلفة ، لتكون بحق سيـدة من سيدات الطبقة الراقية ، وبينما كان الأستاذ مشغولا بهذه المهمة ، كان قلبها قد تفتح على حب الأستاذ ، بعد أن وجدت فيه مثلا أعلى تطمح اليه . وبطبيعة الحال لم يكن الأستاذ يدرى شيئا عن هـذه العاطفة الوليدة . وكان كل ما يشغله هو ان يعاود التجربة ، وأن يحقق فيها النجاح الكامل . وكانت التجربه الجديده فى حفل تقيمه احدى السفارات الكبرى حيث يحتشد أبنـاء الطبقة الراقية ورجال وسيدات السلك الديبلوماسى . وفى تلك الليلة ارتدت « اليزا » ثوبا آخر رائعا ، وتحلت بأغلى المجوهرات . وما كادت تدخل من الباب ، حتى تطلعت اليها العيون ترمقها فى اعجاب ، وسـعى اليها الرجال جميعا يخطبون ودها ويتملقونها بالـــكلمات الرقيقة . وكانت المفاجأة عندما بعثت الملكة فى طلبها ، لتطلب منها أن تفتتح حفل الرقص مع ابنها الأمير . فانحنت تحية للملكة ، وتأبطت ذراع الامير ، وأخـذت ترقص معه فى براعة ورشاقة كأنها أمضت عمرها كله ترقص .

وكانت زوجة السفير فى حيرة من أمر هذه الفتاة . وعندما سألت عنها الأستاذ «هيجنز» أنبأها بأنها زائرة

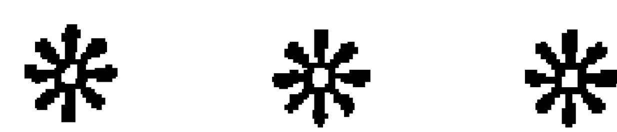
وفدت حديثا الى لندن ، ولم تقنعها هـــــذه الاجابة الغامضة ، فلجأت الى مستشارها طالبة منه أن يتحرى عن هذه الفتاة ، وكان هــــذا المستشار أحد تلاميذ « هيجنز » فى اللغات ، فعاد الى السفيرة ليؤكد لها ان هذه الفتاة ليست انجليزية ، ولكنها فى الحقيقة أميرة مجرية . وبسرعة البرق انتشر هذا الخبر بين صفوف المدعوين ، وهكذا انتصر « هينجز » فى تجربته انتصارا ساحقا نال عليه الرهان . وبدا سعيدا جدا بعد أن أثبت عبقريته ، ولم يحاول أن يبدى اهتماما بهذه الفتاة ، وكأنها ليست آدمية وانما مجرد تجربة .

وعندما انصرف الأستاذ « هيجنز » الى فراشــه ، وتركها وحدها ، بدأت تفـكر بمصيرها ومســتقبلها . ووجدت انها قد وقعت فى مأزق عتيد . انها لا تستطيع بعد أن تفتحت عيناها على الدنيا الواسعة أن تعود الى الشارع لتبيع الأزهار كما كانت تفعل من قبل ، وهى أيضا لا تجد لها مكانا فى الحياة الجديدة التى عرفتها . وأخذ منها الألم وعذبتها الأشجان وبخاصة بعد أنأهمل الأستاذ «هيجنز» وجودها تماما ، فجلست تبكىحيرتها وعذابها . ثم فوجئت بالأستاذ يترك غرفته ليبحث عن « الشبشب » ، فوجدها جالسة . فطلب منهـا أن تبحث له عنه ، ثم تذهب الى فراشها . ولم تكن لديها قـدرة على احتمال المزيد ، فتنـاولت « الشبشب » وقذفته به فى قوة وعنف تعبيرا عن ضيقها ، وأصابت الدهشة الأستاذ « هيجنز » ، وعندما حاول أن يقف منها على أسباب ضيقها ، اكتشف الحيرة التى أصبحت فيها ، فطلب منها تأجيل بحث هذا الموضوع حتى الغد .

ولم تنتظر « اليزا » حتى الغد ، فما كاد يأوى الى فراشه حتى تسللت هاربة من البيت ، لاتلوى على شىء. واكتشف الأستاذ « هينجز » ذلك فى الصباح ، فأحس لفراقها بوحشة ، وشعر ان حياته أصبحت خاوية بعد أن كانت مليئة بوجودها ، وأدرك انه فقد تلك الحلية الرائعة التى صاغها بيديه . ولم يكن أمامه من أحد يبثه حقيقة ما تنطوى عليه ضلوعه سوى أمه ، فذهب اليها فى قصرها ، ونفض أمره بين يديها . فسألته عما اذا كان يحبها ، فأجاب بأنه لايدرى ، ولكن الذى يدركه حقا هو أنه لا يستطيع أن يستغنى عنها .

وكانت المفاجأة .. فان « اليزا » عندما تركت بيته ، لم يكن أمامها الا أنّ تذهب الى بيت أمه التى تعرفت اليها فى الحفل ، وكانت تقف بعيداً عن ناظريه تستمع الى الحوار الدائر بينه وبين أمه ..

وظهرت « اليزا » ، لتعود مع الأستاذ « هينجز » الى بيته ، وتكون حلية أيامه وحياته .



هذا هو موجز سريع لأحداث مسرحية «بيجماليون» وهى المسرحية التى كتبها « برنارد شو » خصيصاً لتقوم مسز « باتريك كامبل » بدور البطولة فيها . بعد قصة الحب التى بدأت بينهما ..

أما ماذا حدث بالنسبة لهذه المسرحية ، والتطورات الأخرى فى حياة « شو » ، وفى حياة « مسز كامبل » ،

والأحداث الأدبية والفنية والسياسية العالمية التى دارت خـلال فترة الحب .. هـذا كله هو ما تعرضه تلك المسرحية الفريدة من نوعها ، والتى كتبها المؤلف والممثل المسرحى « جيرم كيتلى » من خلال رسـائل الحب بين « شو » و « مسز باتريك كامبل » .



● آن بيزانت ●



● اليس لوكيت ●

القسم الثانى

مسرحية

حبيبي الكذاب

تأليف: جيروم كيتلى

الفصل الأول

« يرفع الستار عن أبطال المسرحية .. ممثل وممثلة. الممثل يقوم بدور « برنارد شو » . والممثلة تقوم بدور السيدة « باتريك كامبل » . تبدأ الأحداث بظهور الممثل والممثلة على خشبة المسرح . يواصلان السير الى أن يقفا على جانبي صندوق من الورق » ...

الممثل : من هذا الصندوق تبدأ أحداث مسرحيتنا.

الممثلة : عشية اعلان الحرب العالمية الثانية ، كتبت «مسز باتريك كامبل» ــ قبل وفاتها فى باريس ــ رسالة الى «برنارد شو» تقول فيها : ترى ماهو مصيررسائلى؟ اننى أتساءل حقا عنمصيرها.. فى تلك الليلة المشئومة. قمت بترتيبها فى صندوق قديم بال ، أخفيته تحت الفراش !..

الممثل : حقا ، ماهومصيره ؟ لقد عثرت عليه السيدة الانجليزية التى قامت بدفنها . واستطاعت أن تدبر أمر تهريبه الى لندن قبلدخول الألمان باريس بخمسة أيام.. وهكذا أنقذت مئات الرسائل التى تبادلها « جورج برنارد شو » و « مسز باتريك كامبل » خلال نصف قرن .

«يفضالصندوق ، ويلتقط مجموعة منالرسائل أثناء حديثه. ثم يقف فىمقدمة خشبة المسرح»

بينما تسير الممثلة بخطوات بطيئة لتقف قريبا من المنضدة » .

• • •

خطابات غرام .. خطابات عمل .. خطابات كلها أمل وسعادة ويأس وبؤس .. بل هى قصة حياة !.. لقد ترددت هذه الكلمات فى الرسائل ، وقامت عليها أحداث مسرحيتنا .. ففى عام ١٨٩٩ ـ أى بعد زواج «شو»

بعام واحد ـ كتب أول رسالة الى «مسز كامبل» يدعوها فيها لزيارة كوخه وقضاء اجازة نهاية الأسبوع فى صحبته وصحبة زوجته .. كتب « شو » يقول :

« من الآن فصاعدا يتقمص الممثل شخصية « شو » بل ويتحدث بلكنته الايرلندية . وفى نفس الوقت الذى يردد فيه « شو » ما كتبه فى خطابه الأول ، تبدو لنا الممثلة وقد تقمصت شخصية « مسز كامبل » ، وهى تمسك برسالة تطالع سطورها » .

بلن كاتراهيندهد ـ ١٢ ابريل ١٨٩٩ .

حبيبتى « مسز باتريك كامبل » ..

« يتطلع اليها أثناء القراءة ، بينما هى توليه ظهرها » ..

سوف نمكث فى هذا الكوخ حتى يوم ١٤ مايو . ولذلك فاننى أرجو أن تسارعى بالحضور . أن « مسز شو » يسعدها رؤيتك . ان النباتى عندما يمرض ، فان الجميع يؤكدون له انه لا محالة هالك . وانت تعلمين اننى نباتى ، وحياتى خالية تماما من اللحوم ، وقد حدث

عندما كسرت عظام قدمى أن أندرونى بأن وجبتى الهزيلة لن تمكن الكسر من الالتئام ، ولكن المفاجأة التى وقعت كانت مدعاة للسخرية منهم ، فقد فحصت عظامى بأشعة اكس ، وتبين انها سليمة ، بل وجميلة وناصعة البياض . ولذلك فقد كتبت فى وصيتى أن يصنعوا من عظامى — بعد وفاتى — صندوقا جميلا يكون هدية لك ، لكى تضعى فيه قفازك !..

« تنفجر « مسز كامبل » بالضحك ، وتضع الخطاب الذى فى يدها على المنضدة ، ثم تجلس لتنصت » .

لقد رأيت صورتك الأخيرة . كم هى رائعة ، لقد تمنيت أن ألتقط لك صورة وأنت فى الفراش ، وأطلق عليها اسم « اغراء الحية » . حقا .. هناك جميلات كثيرات ، ولكن لن أجد ذلك الخيط الرفيع الذى التقطه من عقولهن لكى يلهب قلم الكاتب . أنت وحدك .. ووحدك فقط .. التى تستطيعين أن تمنحينى هذه الهبة الحقيقية . كلى أمل أن تأتى سريعا ..

المخلص : « جورج برنارد شو »

« يقرأ « شو » من خطاب فى يده أثناء حديث « مسز كامبل » ، لكى تبدو روح المشاركة المتبادلة فى الرسائل » ..

كامبل : ٢٣ ميدان كينسينجتون   ٢١ ابريل ١٨٩٩

عزيزى « مستر شو » ..

اننى أعرض عن رؤية صورى ، بعد أن دنت أيام

الشيخوخة .. فلتساعدنى السماء ولتساعد جميع النساء.. وأخشى ألا أتمكن من تلبية دعوتك . لقد اخطأت عندما انجبت عددا كبيرا من الأولاد والبنات .. وسوف يزيد عددهم اليوم أو غدا ، وهذا سوف يمنعنى من قبول القيام بجولة فنية فى ربوع أمريكا لمدة عشرين اسبوعا ، كل دقيقة منها تساوى كثيرا من الدولارات .

لقد طلب منى أن أظهر فى مسرحية «روستاند» .. أليس من الأفضل أن تقوم بترجمتها الى الانجليزية ؟ أخبرنى اذا عزمت على ترجمتها ..

ولتباركك السماء على تلك « القفشات » التى تثير فينا الضحك . أما تلك التلميحات الجارحة التى تتسم بالخسة وسوء الأدب ، فلتغفرها لك أيضا .. السماء !

المخلصة : « بياتريس ستيلا كامبل »

شو : عزيزتى « مسز باتريك كامبل » ..

لا .. لا تدفعى بى الى موقف المتحرش مع «روستاند» لأننى أعلم يقينا اننى سأهب قصته عطرا زكيا من عقلى ، وأكسوها بشعلة من عبقريتى . دعينى من هذا الأمر ، وامنحى الفرصة للآخرين ، ابحثى عن الصاعدين على الدرب ، أما أنا فقد استنفدت طاقتى ، ولم تعد سنى المتقدمة تسمح بمثل هذه الألاعيب . لقد بلغت الخامسة والأربعين فى يوليو الماضى .

المخلص : « جورج برنارد شو »

كامبل : « تتجه بحديثها الى الجمهور » .

فى الشهر الخامس من بداية هذا القرن ، قتل زوجى

فى جنوب افريقيا ، بعد زواج دام ستة عشر عاما . وبدأت الوحدة تحيط بى . وعزائى الوحيد هو أن أعود الى عملى لأبدأ الموسم الجديد بمسرحية جديدة .

شو : ٧ نوفمبر عام ١٩٠١

عزيزتى « مسز باتريك كامبل »

استطعت أخيرا الحصول على مقعد فى العرض القادم لمسرحيتك . حقا انها لتحفة رائعة ، وقد زاد من روعتها موسيقى «هاندل» . لقد وهبتها اللمسة الفنية الرائعة ، ومع ذلك فان جوقة « هاليلويا » فى مسيس الحاجة الى الاجادة ولا أجد لذلك شيئا أفضل من حمام ساخن لمدة عشر دقائق !.. أوه .. حقا ، هناك مأخذ آخر هو مصرع بطل مسرحيتك .. فليس طبيعيا أن يموت دون تقديم أدنى مساعدة ، وبخاصة عندما يسقط بطل مثل « عطيل » صريعا . ومع ذلك ، فان هذه الهنات ليست بذات موضوع ، فان التأثير العام بالغ الروعة بالنسبة لمعجب متحمس لفنك .

المخلص : « برنارد شو »

كامبل : « تتجه بحديثها الى الجمهور » ..

وبعد ذلك ظهرت فى عدد كبير من المسرحيات . وكان النجاح الساحق حليفى فى أدوار «بيلاس وميليساندى» و « هيدا جابلر » و « بيلا دونا » التى قمت بها فى انجلترا وأمريكا .. حدث هذا قبل أن أسمع شيئا عن « شو » . وفى ذلك الوقت كبر أولادى ، وتزوج ابنى « بيو » عام ١٩٠٩ ، وتزوجت ابنتى « ستيلا » عام ١٩١١ .

شو : « يتجه بحديثه الى الجمهور » ..

أما أنا ، فقد تتابع صدور مسرحياتى ، واحدة بعد الأخرى . وقد حققت مسرحية « فانى » نجاحا منقطع النظير ، فقد عرضت ستمائة مرة ، وحققت لى دخلا كبيرا لم يحدث لى من قبل. وبعد ذلك شرعت ـ بمنتهى الحماسة ـ فى كتابه مسرحية خصيصا « لمسز كامبل». وهذه المسرحية هى مسرحية « بيجماليون » .. وقد انتهيت منها فى أوائل عام ١٩١٠ .

« يتوجه بالحديث الى مسز كامبل » .

عزيزتى « مسز كامبل » ..

لقد سمعت أنك قد وصلت توا من أمريكا . وسأكون الى جوارك بعد ظهر الغد . فهل .. هل تسمحين بدعوتى لتناول الشاى معك ؟..

كامبل : « تتجه بالحديث الى الجمهور » ..

قبل أن يسمح الوقت بالرد على رسالته ، وجدت جرس الباب يدق ، ثم رأيت « شو » يحتل مكانه فى غرفة الصالون، وأنا مشدودة اليه أستمع الىمسرحيته الجديدة . كان ينطق بالكلمات التى ترددها « اليزا » ـ بطلة « بيجماليون » ـ فتخرج الألفاظ من فمها منكرة ، ممطوطة السواكن ، مبتورة النهايات . وعندما انتهى من القراءة أخبرنى انه كتبها من أجلى ، ثم تركنى وحدى . لقد وددت أن أشكره من أعماقى ، ولكنى لم أستطع أن أعبر عن رغبتى . ولكنى كتبت :

« تتجه بالحديث الى شو » ..

عزيزى « مستر شو » ..

أولا .. أشكرك لأنك أطلعتنى على مسرحيتك ، وفكرت فى اننى أصلح لدور هذه الفتاة القذرة .. حقا اننى أتساءل : هل أستطيع أن أكون مصدر سعادتك ؟ على أية حال دعنى أصرح لك بأننى سررت بلقائك ، وان اتسمت الزيارة بعنصر المفاجأة .

شو : «ستيلا» ! أخشى أن تكونى قد أسأت تفسير حقيقة الموقف . ولسوف أحملك على سماعى حتى النهاية .. عندما تفوهت بهذه الكلمات النابية تأكد لدى ان الأمر قد انتهى ، وانك لم تعودى فتاتى .. بائعة الزهور .

كامبل : أنا لم أتفوه بشىء !.. ألا تذكر اننى عندما انتهيت من قراءة المشهد الأول ..

« تنهض وتسير متجهة نحو شو » ..

تركت مقعدى ، وقلت :

أيها الوحش !.. كتبت هذه المسرحية خصيصا من أجلى .. وكل سطر فيها أعددته لكى أردده !.. اننى اسمع صداه وكأنك تسخر من صوتى !..

هذا هو كل ما تفوهت به ، على اننى لو كنت حقا أثيرة لدى قلبك لأقدمت على الخطوة التالية . وشرحت لى خطوط العمل . متى تعرض المسرحية ؟ وأين ؟ ومع

من أقوم بدورى ؟ .. ربما يأتى اليوم الذى أقبل فيه القيام بهذا الدور .. أوه .. لا عليك .

« تسير نحو مقدمة المسرح ، وتتجه بحديثها الى جمهور المشاهدين » .

... وذات يوم من أيام شهر يونيو ، وكان الوقت بعد الظهر ، وصل « شو » لتناول الشاى ، وفى عينيه علامات البشر . وكان يحمل فى جيبه عقدا لى . وبعد رحيله ، أحسست بمشاعر غريبة .. ان صداقتنا قد ازدادت توثقا ، وبسرعة فائقة . وقد تأكدت من ذلك عندما وصلتنى رسالته التالية ، التى ضبطته وهو يدفع بها من تحت الباب ..

« تسير نحو النافذة ، مولية ظهرها للجمهور أثناء هذا الحديث » .

شو : « يسير نحوها » ..

كنت تعلمين ان ذلك سوف يحدث . لقد توجهت الى بيتك وأنا فى كامل هدوئى . ولم أكن أدرى اننى سوف أقع صريع هواك خلال الثلاثين ثانية الأولى من لقائنا . وكم استغرق هذا الحب ؟ ثلاثون ساعة ! .. لماذا ؟ لقد حملتنى أحلامى السعيدة ، وعبرت بى أجواء الفضاء طوال بعد الظهر ، وتخيلت ان عيد ميلادى القادم هو العشرون .

كامبل : ولكنك لم تعد فى العشرين ، فالمسرح عمل .. بل انه عمل ضخم وكبير . اذا .. وأنا أقول لك اذا ..

استطعت العثور على خيرة الممثلين الذين يصلحون لتمثيل مسرحيتك ، فاننى على استعداد للقيام بدور بائعة الزهور .. هذا ما يتطلبه العمل . اما أن تسير عبر الفضاء ، فان السحاب له جناحان تستطيع أن تختار احدهما حتى اختار لنفسى الجناح الآخر .

شو : « يسير على خشبة المسرح ، والى يمين المنضدة ، حتى يصبح بعيدا عنها » ..

حسن .. هيا اذن الى العمل !.. سأعلن على الملا انك قمت بالقبض على لصالح المسرح !.. اليس كذلك ؟ ان هذا أسوأ ما أقدمت عليه ، فقد حملتنى الى عالمى حيث تختفى روحى الهائمة بين جنباته ، بل أنها تحيا وتتنفس بعبيره . وقبل أن يصلك خطابى هذا ، سيدرك الجميع خططك ، بعد أن أكون قد وشيتها بما تستحق من سحر رومانتيكى . لقد كان من الافضل لك أن تلعبى وأوراقك مكشوفة على المائدة . خذى اذن حذرك .

كامبل : « تقترب منه » ..

اننى ألعب دائما وأوراقى مكشوفة على المائدة . والآن جاء دورك . هل لعبتك من سمات حسن الجوار ؟

شو : « يسير عبر المسرح الى أن يلتقيا فى منتصف المسافة » ..

مخادع .. محترم دائما . ماخطبك ؟ هل تشعرين بالخوف كلما فكرت فى ان قلبك قد يتورط فى حب هذا الممثل الاشتراكى الضال تماما كما تورط قلبه فى حبك . أو أنك خائفة لأن قلبك تورط فعلا فى هذا الحب ؟ ..

كامبل : « بياتريس ويب » كانت على حق .. انت

خيالى ! اذ كيف يحب المرء طيفا ؟ هل يمكنك الحضور يوم الجمعة ، واننى أعدك بأننا سنكون منفردين !..

«تذهب الى النافذة ، وتتطلع بنظرات هائمة».

شو : « يتجه بحديثه الى الجمهور » ..

اذا رغبت «ستيلا» فى اقتناصك ، فليس أمامك من سبيل الا أن تسعى اليها وأنت راغب فى لقياها ، لأنها فتنة لا تقاوم . ان جميع أبناء لندن يدركون تماما ما تكشفه أضواء المسرح من سحرها . أما أنا فلى رؤياى الخاصة التى أدرك بها كنه جمالها ، وان كنت أدرك تماما انه لم يبق لى شىء .. فقد سلبتنى كل شىء .

« يتحدث الى كامبل » ..

عزيزتى « ستيلا » ...

شكرا لدعوتك اياى يوم الجمعة .. وللأحلام الجميلة التى سأتقلب فى أحضانها يوم السبت . اننى الآن سعيد مرة أخرى . سوف أعود الى الواقع ، ويطن فى أذنى قرع الطبول ، وأجزع لدويها الرهيب . دعينى أعترف فى شجاعة انك سيدة رائعة .. وان جمالك أطار لبى طوال اليوم .

« جورج برنارد شو »

كامبل : هل لديك مانع يا مستر شو من الاستمرار فى العمل ؟ لقد تقدمت بطلب رسمى الى المسئولين عن المسرح ، وأعلنت على الملأ اننى سأقوم بدور « اليزا » فى مسرحية « شو » القادمة ..

« تسير نحو المنضدة ، وتجلس على المقعد ، وتختم حديثها » .

... وربما اطلعت على ذلك فى الأوراق التى تقدمت بها . ولكن ، هل لى أن أسألك عمن سيقوم بدور « هنرى هيجنز » لأ .. أننى لم أعرف بعد . ولكن لا تكترث لهذا الآمر كثيرا ، فسوف نجد أحدهم دون شك.

شو: بيانزيسيزيما .. عندما رأيت ذلك فى الأوراق، أصابنى الفزع وشطر الصداع رأسى . رفقا بى .. فاننى لا أدرى كيف يعالج طبيب الأسنان صفوف اللؤلؤ .. لابد انه يحبك ، ومع ذلك فانه لايستطيع أن يجنبك الألم مهما كان نبوغه . أما من ناحيتى ، فاننى على استعداد لأن أطعن قلبى بمدية وألقى بنفسى تحت قدميك حتى لا أراك تتألمين . ومع هذا فاننى اريد أن أنزع نصف أسنانك .. دون مخدر ! ولكن سأواصل عملى الأدبى . واليك ما يقوله كاتب المقال..

« تحاول أن تتكلم ولكنه يمنعها » .

صمتا ..

عزيزتى « ستيلا » .. هل تعلمين ان النجم الصغير يقوم بدور كبير فى حركة المجموعة الشمسية .. وهكذا فاننى أرى أنه مهما اجتمعت عبقريتى الى جانب آرائك، فانهما لن يمنعا الفشل المحتوم عن مسرحيتى . هل تعرفين السبب .. هذا الكون قام على .. رجل وامرأة .. والمسرح كون صغير .. يقوم أيضا على بطل وبطلة . ان نصف جمهورك من النساء ، وهؤلاء لابد

أن تقدمي لهن بطــلا يحقق أحلام خيالهن .. ولكن بحق السماء ، كيف تضمنين النجاح اذا قدمت بطلا يتقاضى منك مرتبا هزيلا ، ويؤدى دوره منزويا فى أحد أركان المسرح .

هل تودين أن تكونى مطرقة بلا سندان ؟ أو«ساندو» يعبث بأثقال من ورق ؟

هل تقدمين « بيجماليون » وقد مثل دور «هيجنز» رجل يتقاضى راتبا قدره عشرون جنيها ؟.. يمكنك أن تجدى هذا الـ « هيجنز » الذى يمثل الدور فى مقــابل عشرين جنيها . وقد يحالفك نجاح ما .. ولكن الدخل سيكون أقل من مائتى جنيه . وبعد أسابيع قليلة سوف يصاب مشروعنا بالهزال . وهنا تبدأين فى الانفاق على الاعلانات بسخاء ، فيقل الدخل ، وهذا يدفعك الى التبرم بمسرحية « بيجماليون » والابتعاد عنى . .وقد يدفعك العناد الى الاســـــتمرار حتى آخر فلس فى حقيبتك .. وقد تفكرين فى القيام بجولة فنية فى أمريكا تكلفك كثيراً من الجهد والعرق، حتى تستردى ما فقدت من أموال .. أو تنزعين الى هجرة المسرح حتى آخر العمر ، تماما كما فعلت « مسز كندال » . ولو تذكرنا « مسز تانكيرى » وهى تتطلع الى المرآة .. ترى ، ما الذى يمكن أن يدور فى خلدها الآن ؟

والآن .. على أن أبحث لك عن ممثل يكون جديرا بالوقوف أمامك على خشــبة المسرح . انك ســعيدة بالتمثيل مع « ديدان » . وهذه الديدان لا تكون مصدر أية متاعب . وفى بعض المسرحيــات يحدث أن يقــدم كشف بأســماء الممثلين ، ولــكن مسرحيتى تحتــاج الى ممثل يستوعب المضمون .. ممثل يبذل الجهد .

اذن من يكون هذا الممثل الفذ ؟

خلق « جون درو » ليكون ندا لـ « اداريهان » ، و « ارفنج » ليكون ندا لـ « الين تيرى » . أما «ستيلا» فانها يجب أن تجد ممثلا يقوم بدور « هيجنز » . يجب ألا أهدم فنك أو أهدم نفسى ، فان حبى لك لا يدانيه الا حبى للمال .

كامبل : أوه !.. انت مهرج يا « مستر شو » !.. أظن أننى سأناديك « جوى » .. « جوى المهرج » . اننى أيضا أعلم ان قيام استعراضنا على بطلين خير من استعراض يقوم على نجم واحد . والاستعراض الكبير الذى يحتاج الى نجوم كثيرة لا يصلح الا للمسرحيات التى تدور حول الملوك والأميرات .

شو : اذا كنت تعلمين كل هـذا .. فلماذا انت « صعبة » ؟..

كامبل : اننى لست صعبة كما تتصور .. واذا كنت لا تهتم بقدر سعادتى فى العمل ، فاننى سأجد الكثيرين الذين يهتمون بى . هناك « جيمس بارى » قد أعد لى مسرحية . وقد عرض على « فروهيمان » مبلغا كبيرا نظير تمثيل المسرحية فى أمريكا .

شو : طبعـا .. طبعـا .. اننى أدرك ذلك تماما . ولـكن بحق السماء حكمى عقلك يا « ستيلا » !

كامبل : يساورنى شـعور الآن بأننى غير نافذة البصيرة ، وأنت تساومنى بهذه الطريقة .. واذا كنت تتخيل ان دور « هيجنز » أكثر أهمية من دور « اليزا » فعليك اذن بالبحث عن بطل كبير . أما أنا ، فسأتخلى

عن دورى .

شو : « ستيلا » !.. تدبرى الأمر مليا !.. أنت نجمة راسخة القدم ، وممثلة قديرة محنكة .. لذلك فأنت فى حاجة الى ممثل جدير بالوقوف أمامك .

كامبل : محنكة!..كيف واتتك الجرأة على استعمال مثل هذه الكلمة .. محنكة ! هذه الكلمة تحملنى على التفكير فى اننى فرس فى سباق الدربى ، فاز فىالسباق مرة ، ولم يعد يصلح بعد ذلك فأطلقوه فى المراعى .. محنكة ! اننى أتخيل نفسى امرأة تقدمت بى السن .. واستبدلت شعرى بباروكة ، وأصبحت عيناى زجاجتين، وصارت ساقاى خشبيتين . ولكن ، لا.. اننى ما زلت محتفظة بشبابى .. عيناى الجميلتان ، وشعرى الفاتن ، وساقاى الرائعتان ! .. اننى سأعيش عمرى كله وأنا فى الثلاثين . حقا ان ابنتى فى الثامنة والعشرين الآن ، ولكن ما وجه الغرابة فى ذلك ؟ .. يحدث هذا فى الهند !!

شو : هل انتهيت من حديثك ؟

كامبل : لا .. لم أنته بعد . لقد أخبرونى اليوم انك تود أن أقوم بدور « اليزا » حتى تسخر منى ، ويتندر الجميع قائلين : نكتة .. نكتة طريفة أن أقوم بدور فتاة ! حسن .. الشاطر من يضحك أخيرا ..

اننى أتخيل مدى نجاح مسرحيتك لو اننى تخليت عن تمثيــل الدور . وأعتقد أنك ترغب فى معرفة المسرح الذى سأؤدى دورى عليه ، والامكانيات المـادية التى تعتمد عليها. وطبعا سوف تقدم لك كل هذه التفاصيل، أما الباقى فانه متروك لفطنتك .

« تسير ببطء حول المائدة ، ثم تبتعد قليلا» .

شو : لست فى حاجة لأن تعرض على كل التفاصيل .. اننى فنان ، ولا أفهم شيئا فى المسائل المالية . وكل ما يعنينى هو بطلتى « اليزا » التى لا أرضى عنها بديلا. لقد كتبت المسرحية من أجل بطلتى « أليزا » . ولزاما على أن أجد « هيجنز » الذى يكون جديرا بك . اننى أحكم عقلى .

« يتجه ناحية المقعد ثم يجلس » .

سأجلس هنا .. وأملأ الدنيا صراخا !.. اننى أستطيع أن أصرخ طوال عشرين عاما . لى مطلب واحد أسعى اليه ، وهذا المطلب هو أن أعمل بالأسلوب الذى يرضينى .

كامبل : أوه .. ياحبيبى .. ياله من حديث !

اننى أناديك حبيبى ، لأن « عزيزى مستر شو » لا تعنى شيئا البتة. بينما حبيبى تعنى أكثر من عزيزى. وأكثر من عزيزى تعنى .. وجود رجل .. وعقل .. وحديث .. تماما كما أراك .. رجلا وعقلا وحديثا . اننى أتوق الى الالمام بجوانب مسرحيتى ، وأن يكون الافتتاح يوم أول سبتمبر .

شو : يناسبنى أول سبتمبر . فقط اذا عثرنا على بغيتنا « هيجنز » . ولن أحيد مطلقا عن موقفى . لقد بدأ أصدقاؤنا فى الثرثرة . عربات محملة بالقذى تلقى بحملها فوق رأسى . كنت أقضى ليلة الاثنين أنا وزوجتى مع « جيمس بارى » ، وفى الساعة الحادية عشرة نهضنا

للرحيل ، واذا به يقول فى لهجته الاسكتلندية البطيئة : هل ستلتقى « بمسز كامبل » الليلة ؟ لقد أحسست اننى مسئول عن تلك التلميحات التى تلحق باسمك . وكم تمنيت من أعماقى ان أحبك دون أن اخبر أحدا . اننى سأبلغ السادسة والخمسين فى السادس والعشرين من هذا الشهر . ومع ذلك فاننى أشعر بأن العمر لم يتقدم بى بعد .

« يقف »

على أن أذهب لأقرأ الخطاب على زوجتى «شارلوت»

« يتجه نحو المنضدة » .

غرامياتى . تسليتها الأثيرة . أما أنا فأحب رؤية الجمهور . اغفرى لى لأننى أجدف بك ، ولكن عقلى دائما شرير ، ويدفعنى أحيانا الى العقوق . «ستيلا» .. الافتتاح أول سبتمبر .. أليس كذلك ؟

كامبل : أول سبتمبر .. طبعا .

شو : « يتجه بالحديث الى الجمهور » .

.. ولكن لم يحدث الافتتاح فى ذلك التاريخ ، فقد أصيبت « ستيلا » اصابة بالغة فى حادث سيارة . وكان ذلك بعد قيامى بأجازتى السنوية بعدة أسابيع ..

« تسحب كامبل مسند الأقدام من تحت المنضدة ، وتضع عليه قدمها » .

.. وتحطمت آمالنا . ولم يقدر للمسرحية أن ترى النور ، اذ توقفت «ستيلا» عن التمثيل طيلة عام كامل. وقع لها هذا الحادث وهى تقود سيارتها الى « البرت هول » ، وكانت كلبتها « جيورجينا » تتوسد ركبتيها.

كامبل : كانت لطمة قاسية . لقد ارتفع رأسى ست بوصات ، وأحسست بنزيف يغمر وجهى . ولم أعد الا شبحا .. بقايا انسان .. يسرى الألم فى كل كيانى. أما الرضوض فقد أصابت جسمى كله . والآن أخشى ألا أستطيع القيام بدورى فى « بيلادونا » . انتهى الأمر بالنسبة لى . لا ولن أمثل دور « اليزا » فى الوقت الحاضر . وقد توسلت الى « ماى ستراشى » أن تكتب اليك راجية أن تعيرنى بطلتك ، وأن تقضى معنا بقية أيام علاجى فى فرنسا . اننى سأقضى الوقت معها أقرأ ما نكتمه عن العالم وأخفيه عن عيون البشرية .. أكتب لى رسالة تبعث فى أوصالى الشفاء ، ولن يكفينى منك خطابا .. ترسله كل يوم .

« خلال أيام المرض لا يتطلع الممثل ناحية الممثلة ، بل يتباعدان قليلا ليوحى الموقف بأن البطلة على سفر » .

شو : فندق دى روس ، بادكيسينجن .

٩ أغسطس ١٩١٢ .

ستيلا .. حبيبتى ستيلا ..

ان رياح الشمال تحمل فى ثناياها ألحانا شجية لتكون رفيقا لآلاف الرسائل التى حررتها لك خلال اجازتى..

ولـكن عندما أرخى الليل أستاره ، توقفت عربتى ، وتوقفت معها معدتى !.. (فأنت تعلمين اننى نباتى) . لذا وقفت .. وقفت محمولا على ساقى المشدودتين ، وانا أنتظر على هذا التل زهاء عشر ساعات ، لكى أرفع من معنويات سائقى حتى يواصل اصلاح العربة . واخيرا وجـدت قرية .. عثرت فيهـا على غرفة بها سريرين يصلحان « لشارلوت » وشـقيقتها . وقد نجحتا فى الاستغراق فى النوم . أما أنا والسائق فقد لبثنا متيقظين حتى مطلع الفجر . ولم تخر عزيمتنا بسبب طول السهر ، وواصلنـا اليوم دون كلل أو وهن . أما اليوم الثـانى . وكان ذلك بالأمس ــ صـــدقينى .. اننى أقول لك صدقينى ، وكونى عادلة فلا تحكمى على كلامى بأنه خيالات كاذبة ــ فقد وهنت ركبتاى وتصلبت سمانة ساقى من طول الوقوف . والآن ، لن أبثـك غرامى لـمدة عشر دقائق !.. تسألينني لم ؟.. طبعا لـكى أخبرك بأننى سأبعث لك ببروفة أولية من مسرحية «بيجماليون» .. ومع هذا فاننى أحذرك سلفا من أن يصيبك الدوار اذا اطلعت عليها .. وأخشى أن تهرعى لترتمى تحت قدمى .. واذا بوهج حذائى الرمادى قد انعكس على شعرك الفاحم ، فبدا مصبوغا ..

اخبرينى اذا عزمت على الرحيل من فرنسا قبـل نهـاية الشهر . ان « شارلوت » ستمكث هنـا طويلا تستنشق النسمة الرقيقـة ، بينما تتمرغ أختهـا فى الوحل خمس مرات . على فـكرة .. ان أى واحـدة منهما لا تشكو من أى مرض ، ولكن الحقيقة ان «شارلوت» تقوم بعمل رجيم قاس لكى تصبح رشـيقة .. وقد اتفقت الشقيقتان على انهما مصابتان بالربو وفى حاجة

الى العلاج . اما انا فقد عالجته بتناول المياه المعدنية.. جرعة واحدة كانت كافية لشفائى بقية حياتى ..

هل تقضين اجازتك مع « ليدى ستراشى » ؟ .. اذا كانت هى حقا فى صحبتك .. فماذا تظنين بى وانت تجهزين على ضحيتك أمامها ؟ الحقيقة التى لا مراء فيها هى أننى عنـــدما توجهت الى منزلك فى ميـــدان كينسينجتون لم يخطر ببالى قط انه كان من واجبى أن أرتدى سترة حديدية .. حتى لا تنفذ منهـــا سهامك ! عجبا .. لم تمر ثلاثون ثانية على لقـــائنا . أوه .. «ستيلا» .. لو تدبرت الأمر مليا ، لما حدث ما حدث ! هل هذا كرم منك ؟ هل هى شفقة منك ؟ وأنا فى هذه السن .. أبله .. أحمق ! على أن أهزم هذا الضعف. وخير لى أن أتجر بقصتى .. بتأليف مسرحيات عنها !

كامبل : أكتب ما شئت من مسرحيات ، ولكن رجائى أن تبتعد عن قصة حيـــاتنا !.. عندما كانت ابنتى « ستيلا » صغيرة تعودت أن أسمع منها أغنية ، كانت تظن انها مسلية . وكانت تبدأ هكذا ..

انه مجنون .. مجنون .. مجنون
انه يترك بندقيته وهو نظيف
انه ينظف حذاءه بمربى الفراولة
انه يأكل قبعته عندما يستطيع
انه مجنون ..
وهذه الأغنية تصلح أن تكون تعبيرا عنك ..

« فجأة ، تحـــرك رأســـها حركة سريعة . ويصدر عنها أنين الألم » .

ما زالت عيناى داكنتين . واشـــعر بألم بسيط فى كتفى .

شو : لقد ذكرت صفيرتك « ستيلا » ، وهذا يذكرنى بذلك اليوم الذى صـــدرت عنى فيه تلك الحمـــاقة الايرلندية التى أثارت شكوكك فى مسلكى .. كنا جالسين فى « السـافوى » نتابع عرض المسرحيـة « الأسـلحة والرجل » . واذا بالنظارة يهللون احتفاء بى . وشعرت بدافع يغرينى بأن أقوم ، وأباركم ..

« يقوم الممثل بالتعبير عن حركة شو » .

حقا .. أحيانا أشعر بنفس الشعور الذى يحسه البابا .. ولـكننى لم أفعل .. وظنت صفيرتى المسكينة اننى مجنون !

كامبل : يبدو لى انك تقضى وقتا مرحا . أود من أعماقى أن أكون فى رفقتك . ولـكنهم لا يدعوننى أنهض الا لمدة ساعة .. ولا أتحدث عن العربات . اننى هنا فى « آكس » أعيش فى عالم رائع .. عندما يمتد بصرى عبر الفضاء العريض ، تصـادفه الغيـد الحسـان وقد ارتدت كل واحدة منهن أفخر الثياب . وزينت جيدها بالعقود واللآلى ، وطلت أظافرها بطـلاء أحمر قانى ، وشفاهها يسيل لها اللعاب . وهنا يقف شعرى من هول هذا العالم الذى يحيط بى ، اذ لم يسبق لى أن استشفيت فى مثل هذا المكان ! .. اننى فى دهشة بالغة ! .. « أضحك تضحك لك الدنيا ، ونم وحيدا عندما تبدأ فى الشخير » ربما يأتى اليوم الـذى أكتب لك فيه خطـابا غراميا .. وذلك اذا شعرت انك تسلك سـلوكا كريما فى حفـل الافتتاح .

شو : خطاب غرام !.. كلمات بسيطة تعبق بالطهر! هل لك أن تخبريني متى أرسلت لى خطابا.. غير غرامى؟ !

دعينى أكتب لك .. وصلى من أجلنا .. فاننى أشعر بالخطر الداهم يزحف عندما يدخل الحب فى العمل . آه ، كم أتمنى أن تكونى فى صحبتى حتى لا أتورط كما حدث بالأمس . سأخبرك بما حدث باختصار .. فى قرية صغيرة على بعد عشرين ميلا من الحدود الفرنسية، توقفت عربتى وحتى لا تصرعنى عربة وأنا غائب عن الوعى لجأت الى صالون حلاقة ، دون أن يخطر ببالى اننى قصدت الصالون فى اليوم السابق.. فماذا كانت المفاجأة ؟ لقد اجتث الحلاق شعرى حتى أصبحت أصلع . ولم أدرك حقيقة الموقف الا عندما شعرت بالحلاق وهو يقترب من حاجبى ، ظنا منه أنه شارب آخر ، لأن أطرافه مرتفعة تماما على طريقة « مفيستو فيليس » (١) لقد أصبح منظرى مثل ذيل « أزعر » . ولذلك فلن أبثك غرامى لمدة عشر دقائق . اذا كانت الشمس مشرقة فى سافوى، اسألى السائق أن يعطيك قليلا من زيت التشحيم ، وادعكى به وجهك اذا كان القشر قد أصاب بشرتك . أنا شخصيا أستخدم كريما مغذيا للجلد . ولكن زيت التشحيم أرخص وله تأثير فعال ! ..

كامبل : أنت لا تستحق أن تكون أديبا . وأنت فى الحقيقة لست لبيبا ، وانما هو المزاج الساخر الذى يتدفق به عقلك الخبيث . وأنا لا أستطيع أن احتفظ بهذه الوفرة .. مثلك تماما . كذلك فان لكنتك الايرلندية أثيرة لدى قلبى ، ولو لم تكن هذه السمة من خصائص

(١) مفيستو فيليس : أحد الشياطين الرئيسية السبعة فى أساطير القرون الوسطى .

الأفعـــوان ، لغشى بصر آدم عن رؤية التفاحة ، وفاته التهامها . أرجوك .. افعل شيئا والا هلـكت .. انا مريضة ! !

شـــو : هراء ! اننى لا أشجع المرض .. زوجتى مريضة ، وأمى مريضة . وأنا أستعد لحفلتى افتتاح مسرحيتين على التوالى . ولو اخبرونى أن الأرض زلزلت زلزالها وابتعلت من عليها ، لملأت الدنيا .. ضحكا ! .. ومع هذا ، فأنا فى مسيس الحاجة الى الرثاء والشفقة . لقد تسلمت خطابا يبدأ قائلا : مسكين «حبيبى المريض» . لا ، انهضى .. تعالى لتواسينى .

كامبل : حسن ياحبيبى .. اننى لست فى السماء ، وليست لدى ستون ذقنا . وما بقى من فؤادى ما زال قويا منيعا . لقد زارنى «جيمس بارى» ذلك العبقرى العظيم الذى يعيش قريبا منك وصاحب المسرحيات ذات الفصل الواحد التى تلقى نجاحا كبيرا .. جاء لرؤيتى بالأمس ، فلم ألمح على وجهه أدنى علامات الفزع . فهل تأتى لزيارتى بسرعة . اننى افتقـدك كثيرا ، وأفتقـد « اليزا » أيضا .

شو : ان قربى من ربتى « اليزا » هو عزائى الوحيد عن بعدك ، ذلك ان مائة وعشرين ميلا تفصل بيننا ليست بالأمر الهين . اننى أعجب كثيرا كيف انه لم يسبق لى الحضور الى « أورليانز » وتحدونى الرغبة فى أن أكتب يوما ما مسرحية « جان دارك » وتبدأ أحداثها بعد التخلص من الرماد بعد استشهادها ، وأصحبها فى رحلتها الى السماء. وسوف يدورأحد مشاهدالمسرحية حول شكسبير ، وفولتير ، وهما يركضان عبر الشارع .

متحاولين تجنب لقائها . هل ترغبين فى القيام بدور « جان دارك » ؟.. سوف تقبلين وأنت ممتطية صهوة الحصان يكسوك درعك ، ثم تبادرين بمنازلة جحافل المهاجمين .

كامبل : ان خطاباتك لا تنطوى الا على مهرجان من الكلمات . كيف أرد على رسائلك بأسلحتى الضعيفة ؟ سوف يكون الأمر رهيبا عندما تكتشف أننى لا أعدو ان أكون امرأة عادية .. غبية .. بل أكثر من ذلك .. بقايا امرأة . أما أنت فتحيا الآن وحولك « أعظم نساء العالم » القديسة جون !.. اذا عدت يوم الاثنين أو الثلاثاء القادم ، فستجدنى فى انتظارك فى الساعة الرابعة ، لكى تشيع من حولى جوا مرحا ، وتؤكد لى اننى بدأت أسترد صحتى !..

شو : آسف .. اننى لا أستطيع أن أحقق لك هذه الرغبة يوم الاثنين أو الثلاثاء . صحيح اننى سأعود الى انجلترا . ولكن كان على أن أتوجه الى « ليفربول » ، لأحضرعرضاآخرلتلاوة نص مسرحية «قيصروكليوباترا». وقد أصبت بخيبة أمل ، فقد كانت التلاوة مأساة .. ذلك اننى لم أسمع تلك العبارات الجافة والتلميحات الخاصة . وفى رأيى ان المسرحية قد وصلت الى ذروتها فى نهاية الفصل الرابع ، فقد غرق المسرح فى الظلام لنكتشف بعد ذلك مصرع « فتاة تيتا » وهنا صاحت «كليوباترا» قائلة : الدنيا ظلام .. وأنا وحيدة ! وكانت طبيعية فى صيحتها لدرجة أن عامل الاضاءة بالمسرح رق قلبه اشفاقا عليها .. فأغرق المسرح بالضوء !

كامبل : أوه.. حبيبى!.. ان الوقت متأخر. ولست

أستطيع الا أن أحبك . ولكن ، عندما كنت صبيا ، كان من الضرورى أن تجد أحدا «يهزك» ولو مرة واحدة .

شو : أوه .. أيتها السيدة العظيمة .. الجميلة كالمرمر الأبيض .. ان أحداث طفولتى لم تكن ذات شأن يذكر . لم أجد تدليلا حتى أفسد ، بل لم أفسد حتى يقومنى أحد . لم يمنعنى أحد من اكتشاف ما يحتويه هذا الكون من أعاجيب . لقد قبلنى الجميع على علاتى ، أنا الوحش الصغير ، دون أن يكلف أحدهم نفسه — أو نفسها — أن يكتشف امكانياتى . ولم أحاول بدورى اكتشاف من أكون . ولم أعلم اننى كانسان أختلف عنهم (الا فيما هو سيىء) . وما اكتشفته من قوى كامنة فى أعماقى جاء من الخارج . وكان اكتشافى مثار دهشتى لدرجة عدم التصديق . لقد اكتشفت ان الآخرين لايملكون مثل مواهبى . اما عن خجلى أو جبنى ، فانه لا يخطر على بال بشر .

كامبل : لقد حاولت الكتابة بالأمس ثلاث مرات . ولكن يبدو ان حرارتى قد فارقتنى الى القمر! .. كن صبورا معى ، فقد مكثت اثنى عشر عاما أرملة ، وجدة لمدة أربعة أيام ، وكنت على شفا الموت منذ أسابيع قليلة مضت . ماذا تقول عن « الخجل » و « الجبن » .. اننى أرى فيك حساسية «كيتس» ، وخوف الحمل .. أما عن خطاباتك . فما هى الا شراك .. شراك يشبه لكنتك الايرلندية .

شو : أوه .. انت على حق . اغلقى اذنيك جيدا ضد تملق هذا الممثل والكاذب الايرلندى ! .. انه يسعى لكى يملأ قلمه من دماء قلبك ، ثم يبيع عواطفك على خشبة المسرح وهو سوف يفعل ، فانه لا يعدو أن يكون آلة

كتابة ، وآلة خديث ، وهو يعمل زهاء أربعين عاما حتى أصبح لديه خبرة الشيطان !.. كان من واجبى أن أحذرك منذ فترة . وقد ظننت أن شعيراتى البيضاء والأعوام الخمسة والستين سوف تجعل من غزواتى الغرامية مدعاة للسخرية.. ولكن لقدفات أوان التحذير.

كامبل : هناك شعار يقول : سر خطوة بخطوة .. وهذا مايحدث بالنسبة لى . لا تظن حقا انك جئت لرؤيتى لأنك مهتم بى ، فأنت انما تبحث عن عزيزتك « اليزا » . وكم أنا سعيدة بسمة رجل الأعمال التى تتقمصها . وان كنت تكسوها بغلاف جذاب . لم أقل لك « قبلنى » ، لأن الحياة قصيرة لا تسمح بالقبلة التى يتوق اليها قلبى .. اذا كانت لديك الشجاعة الكافية ، انظر فى عينى مدة دقيقتين دون أن تتحدث معى ، ثم أخبرنى كم ساعة تأخرتها عن ميعاد تناول طعام العشاء !

شو : اذا نظرت الى عينيك لمدة دقيقتين دون أن أتحدث معك ..

« صمت لمدة دقيقتين .. يخيم جو الصمت على الحاضرين كما لو كانوا شخصا واحدا .. ويصيح المارد : مستحيل »

خير لى أن أرى السماء تمطر من أن يحدث ذلك . وأعتقد ان صحتك قد تحسنت . اننى أسمع رنينا ، وأرى وهجا . ان «ستيلا» الشجاعة تنهض من رقادها «ستيلا» . من هى «ستيلا» ؟.. امرأة .. «حسن ! » هل يمكن أن تحب صيادا ماهرا ؟ أنا هو ذلك الصياد! هل ترغب فى أن أزين صدرها بوسام ؟ أوه .. صدرها !

انني أتذكره الآن .. هذا الصدر المنهك .. عندما صافحت يدها يدى ، وأخذت تهزها حتى لامست صدرها . انها حيلة قديمة عفى عليها الزمان ، ولكنها أثارتنى لعدة ساعات ! كان من الممكن أن تثيرنى ، لأننى كنت غرا وغبيا . علام اهتمامها اذن بى ؟ وماذا كان يعنيها من أطراف أناملى ! نعم لقد صافحتنى من أطراف أناملى ! فلو انها شعرت بما شعرت به لانطلقت فى أجواز الفضاء ، وأخلت لى مكانا أجلس فيه عن يمينها . أوه ! يجب أن تهجرى الفراش ، وتستعيدى صحتك ، والا فاننى سأندس فى فراشك لكى نهلك سويا .. تلفنا فضيحة نكراء مدوية ..

كامبل : هناك فقرات فى خطابك لايمكننى الرد عليها الا بالصمت الرهيب ! هل ناديتك يوما ب « المهرج » ؟ أظن ان ذلك كان يوم قلت لى : « أنا الله » . هذا هو اسوأ أسبوع يمر بى ، فقد أخبرونى انه تقرر ارجاء عملية جراحية لى . ولذلك لن أتمكن من ارسال خطابات لك لعدة أيام قليلة . أما أصدقائى فاننى فى انتظار سواعدهم لتقف الى جانبى فى محنتى .. وأنا سعيدة بلقائنا .. تصبح على خير !..

شو : هل أخبرك بحساب الدخل الذى يشغل بالى منذ اصابتك بالمرض ؟ انصتى اذن ! ..

زوجتى تطلب دائما نقودا .. فهل لديها شىء منها ؟ كان الدخل ١١٦ جنيها فى الأسبوع طول عرض «بيلادونا» وكان على أن أدفع نصفه وفاء للديون . ومعنى هذا انه يتبقى لدى ٥٨ جنيها رصدتها لحسابها .. ولكن هذا القدر جعل البنوك تسمح لها بسحب مايزيد على رصيدها

ودون أكتراث . على ان هناك حدودا للاستدانة لايمكن تجاوزها. وهذا الحد قد يواجهنا يوما ، أو ربما واجهنا ونحن لا ندرى . وهنا لابد من البحث عن أصدقاء ، ولن تثنينا الكبرياء عن الطلب . واذا كانت فى حاجة الى مال ، يجب .. يجب .. يجب .. يجب أن تأخذه . فاذا لم يسارعوا الى تلبية طلبها ، وأصرت على الحصول على المال ، فانها تبحث عن مراب .. ولن تتوانى عن البحث عنه .

شىء من الكياسة . انها مشكلة كل امرأة لاتدرك قيمة المال ، فتنفقه بلا حساب ، وخاصة اذا لم تكن تكدح فى سبيل الحصول عليه . وشكرا للسماء على اننى أفتقد فى نفسى الكياسة وحسن الذوق ، فهذا ما تردده عنى دائما . انه انتقام جميل ولا شك أن تحاول أن تخلق منى ينبوعا من الذهب يتدفق بين يديها ، ولكن للأسف ليس لدى ما يكفى من الذهب ، لأننى عضو فى مؤسسة « شارلوت » وشركاهما.. وهذه المؤسسة لا تدر ذهبا. كم يكفيها من النقود ؟ لا.. يجب أن أكون نافذ البصيرة .. ماهو أقل مبلغ يمكن أن يكفيها للمعيشة ؟ هناك الايجار .. هدايا عيد الميلاد .. الايصالات والمرضات .. الأطباء .. لقد ساعد المرض على أن تكف يدها عن الاسراف ، وتتوقف — الى حين — عن شراء الملابس ، وركوب سيارات الأجرة .

هل يكفيك ٢٥٠ جنيها ؟ يا الهى .. ان أقدم لستيلا هذا المبلغ الحقير . دعينى أبصق على نفسى !

انها لا تستطيع أن تحتفظ بأى مبلغ ، لأنها ترى أن الاحتفاظ بالمال ضعف مرذول . يجدر بى أن أمنحها

مبلغا ، فلم يبق على عيد الميلاد الا أسبوعان ! ماذا أقدم لها ؟ انني حمار صغير .. لم يتردد هـذا السؤال مرة وأخرى على ذهني ؟

انني أعلم جيـــدا انك تودين ان اقدم لها ألفا من الجنيهات ! حسن .. يمكنك أن تضعى دفتر الشيكات فى جيبك ، ثم اذهبى اليها واسأليها كم تحتاج من نقود. لن يصيبك أدنى أذى اذا لم تطلب منك شيئا ، وهذا يعنى انها فى غنى عن مالك .. اما اذا كانت فى حاجة الى النقود ، ولم تأخذها .. فهناك أكثر من تفسير .. أبسطها الاخلاص ! ..

ها !..كان جدى يردد دائما على مسامعى انه لايوجد على وجه البسيطة ، أميرا كان أو خفيرا ، من يرفض خمسة جنيهات عندما تمر قريبا من أنفاسـه !.. ألا أستطيع الحصول على ورقة من ذات الألف جنيه ، لكى تستنشق أنفاسك عبيرها ؟ ألا ترغبين فى أخذها ، ثم تحرقينها أمامى ، انها دعابة جميلة .. سأحصل على رقم الورقة النقدية ، واستحلف النار أن تكون رحيمة بها ، ثم آتى بورقة أخرى ، وأكرر الدعابة معك ..

« ستيلا » .. لو استطاع رجال البنوك .. لا ، لا تغضبى .. فقط أقول اذا .. اذا .. اذا ..

نعم ، لقـد أطلت الحديث اليك ، وسـأكف عنـه

ياحبيبتى . اذا احتجت أى مبلغ مهما قل .. تذكرى الخشخشة .. الخشخشة .. خشخشة النقود وهى تمر امامك !

كامبل : وصلنى خطابك ، ولكنى لن أطلب منك شيئا مطلقا ! هل لك أن تعيرنى شيئا من البكتريا ؟ ان الأطباء

لم يعثروا عليها فى دمى . ولذلك فانهم يطلبون شيئا منها لاعداده وامدادى به .. لقد أشاروا على أن أبحث عن بكتريا حصان ، فلم اجد شيئا افضل من فصيلتك. أوه .. اننى أتوق الى رؤيتك . أن تكون الى جوارى . وألقى بالأطباء الثلاثة من النافذة . واذا لم تسرع لرؤيتى، فانك لن تجدنى ! واطلب من «شارلوت» أن ترحمنى ، ولا تظن اننى مجنونة أو مغامرة ، وتسمح لك برؤيتى وأنا على فراش المرض .. فهذا يساعدنى على الشفاء العاجل !

شو : لا .. خير لك ألا تسأليها شيئا ، لأننى نادرا ما أذكر اسمك . لقد سمعت بالأمس مصادفة محادثتنا التليفونية . وكان أثرها رهيبا للغاية . اننى أشعر بالجرح والأسى عندما أرى أحدا يتألم . ويخيل الى اننى أود أن أقتل نفسى أو أن يقتلنى أحد آخر .. وأخشى القول بأنه خير لنا أن نتألم جميعا ، ولكن الأمر المؤسف هو أن يكون الضعيف أكثرنا ألما . وكثيرا ما رفعت يدى الى السماء وأنا أتساءل : لماذا لا يستطيع الانسان أن يسعد حبيبه الا اذا قدم امرأة أخرى قربانا لها !..

كامبل : لا تكن غبيا ياحبيبى ! فى الليلة الماضية كانت الأحلام تداعبنى ، ورأيتها تبتسم لى وهى تصافحنى بحرارة . ثم قالت : لقد ظننتك احدى طيور الجنة ، ولكننى لم أر فيك أكثر من أوزة حمقاء .. وانتهى الحلم ، ورايت نفسى انفض الفراش واغادر سريرى ، والقى بنفسى فى سيارة اجرة لتحملنى الى .. أنت تعلم

وجهتها .. ولكنى قلت لنفسى .. «ستيلا» ، تجنبى الخطر .

« تدفع بالمسند بعيدا عن قدمها ، ثم تتجه بحديثها الى الجمهور » .

وبعد ذلك بدأت أستعيد صحتى ، وتوجهت الى دار للنقاهة ، حيث يقومون بالتدليك كل صباح ، ويشدون قامتى على لوح خشبى طوال الليل . وفى شهر يناير بدأت أتحرك ، وخلال شهر فبراير سعت وفود كثيرة للسؤال عنى ، بعضهم يعيش فى لندن وعلى صلة دائمة بى ، وبعضهم الآخر لم يسبق لى معرفتهم . وكان من بينهم « جورج كورنواليس وست » الذى دأب على أن يحمل لى باقة من الزهور كل يوم . وقد لاحظ « مستر شو » زياراته المتكررة ، فبدأ يتحفظ فى سلوكه .

شو : هل هذا صحيح ؟ ان خيالى ينذرنى بأنك بدأت تمكرين بحبى . اخبرينى بربك ، هل بدأت تحتقرين علاقتنا ؟ هل أكف عن تأليف أشعارى ؟ اننى أعترف بأننى لا أجد وزنا لكلمة «ستيلا» سوى كلمة «المظلة» . سحقا لى .. اننى أحب « مسز كامبل » ، ولا أحمل ضغينة « لجورج » ، فأنا أحبه أيضا .. هل تحبينه حقا ؟ انه صغير ، أما أنا فعجوز ، ويمكنه أن ينتظر حتى امل علاقتى بك .

كامبل : قليلا من الهـــدوء ياحبيبى « جوى » . كن رفيقا بالحمقى . أنت مسكين . ينتابنى الخوف كلما أحسست ان «شارلوت» تنكل بى ، تنكل بامرأة وحيدة بلا زوج . وانت ليس فى وســعك أن تفعــل شيئا ،

ولكننى سأجد الشيء الكثير الذى يمكن أن يقدمه لى «جورج» . لذلك أرجو أن تدع الأمور تسير !. هل لك أن تقبل دعوتى لحفل العشاء الذى سيتكون من موز وتفاح . كما اننى أدعو «شارلوت» على شريطة أن تطرح من فكرها نظرتها الى .. كعاشقة متصابية .

شو : هل تعلم «شارلوت» شيئا عن «جورج» .. أنا أجهله ؟ انى أحس انها تحولت فجأة من وحش كاسر الى جنية فاتنة . عجبا ! لم يعد يعتريها الغضب الآن عند الاشارة اليك فى معرض حديثنا .. علام كل هـــذا التغيير ؟

كامبل : انها غريزة المراة ! .. وهناك أيضا التشدق بجاذبية «جورج» واهتمامه بى !.. يكفينا هذا الحديث الآن . لقد بلغنى مرض والدتك ، وتذكرت انك قلت يوما : « اننى أدين بعقلى وشخصيتى لأمى » .. أوه «جوى» . أنا أعلم انك تحبها ، وستكون خسارة كبيرة اذا فقدتها !

شو : أمى .. حقا! لقد انتزعت ضرس العقل عندما بلغت الثمانين ، وهذه هى النهـــاية . هكذا يقولون .. العالم يتغير بجنون !

ج . ب . ش

« يسير عبر المسرح متجهـــا الى خلفيته ، ثم يدور دورة الى يمين المنضدة حتى يصل الى المقدمة من ناحية اليمين ، حيث يبـــدأ حديثه تشوبه رنة الحزن » .

كامبل : لقد وصلتنى الأنباء المحزنة .. دعها ترقد فى سلام .. كانت أمى تحب «دانتى» ، فقد كانت روحا تسبح فى عالم الخيال . حاول أن تراسلنى اذا سمحت لك الظروف .

شو : « يتحدث بلهجة خافتة . وعندما يصل الى منتصف الحديث يخيل للسامعين انه يوجـه الحديث لنفســه وهو واقف أمام المرمدة المعدة لحرق جثمـان امه .. هذا الحديث ينم عن مدى حبه لأمه . ونرى « ستيلا » تصيخ السمع لحديثه » .

٢٢ فبراير ١٩١٣

ياله من يوم .. دعينى أكتب لك عنه ، فأنت وحدك التى تستطيعين أن تقدرى حب المرء لأمه ، كما تقدرين حب الأم لأطفالها .

فى الواقع لم أستطع أن أكتشف من أنت .. هل انت فتاة ايطالية أو « سوبرمان » ؟ على أية حال ، ليست هى الخصم ؟ ولماذا يكبح مشهد الجنازة روح الدعابة ، ويثير فى أعماقنا روحانية صافية ؟.. فى هذه الظروف العصيبة ، كان التوفيق حليفنا ، فلم تعترينا الرهبة من مشهد الدفن ، ولم تكن فى رفقتنا معزيات متشحات بالسواد باكيات مولولات فى حزن كاذب . لم نكن فى صحبنى الا «جرانفيل باركر» والحانوتى. وكانت مراسيم المشهد بسيطة ، ليست فيها الألوان الصارخة أو الحيوية المتدفقة أو الموسـيقى الصاخبة . وانما اقتصر الاحتفال علينا نحن الثلاثة . وقد أشرت الى الحانوتى لأنه كان سببا فى موقف سخرية .. سرت أنا و « جرانفيل باركر » ناحية المرمدة ، وجاء الحانوتى

بالنعش وهو يسير حزينا فى خطوات جنائزية ، كأنما جمد البرد أطرافه . وفى تلك اللحظة خامرنى شعور بأن أمى تود أن يسير الحانوتى بهمة ونشاط . ولكنه اقترب منى وقد أخذ الحزن منه كل مأخذ . وكنت على نقيضه .. متماسكا وروحى المعنوية عالية (وأنا أنعم بذكرى أمى) وحاولت من جانبى أن أفهمه انه لا حاجة به الى خداعنا ب « أصول الصنعة » .. ويا لدهشتى ، فلم يكن سلوكه من أصول الصنعة ، وانما كان حزينا حقا لفقدها . وقد اختير الكفن من القماش البنفسجى وليس الأسود . من واجبى أن أعيد كتابة العبارات التى يتلونها على الموتى لحظة الدفن ، فقد مرت على ظروف قاسية لم نقرأ عنها فى كتاب . ومع ذلك فهناك جوانب فى هذا المشهد يمكننا أن نصفها .. وأن تقرأ أيضا !..

أتى الكاهن ، ولم يتمتم بصلواته كعادته فى مثل هـذه المناسبات ، وانما أقام صـلاته بروح تتسم بالاخلاص والمشاعر الفياضة ، اكراما لى و «لجرانفيل » وأمى ، فنحن جميعا أبناء طائفته . وعندما وصل الى العبارة : « من الأرض والى الأرض .. ومن الرماد والى الرماد .. ومن التراب والى التراب » ..أجرى تعديلا فى الكلمات حتى تتلاءم مع الموقف . ثم فتح بابا فى الحائط ، ونقلت الجثة من خلاله ، واختفت عندما أغلق الباب وراءها. ان الناس يظنون ان هذا الباب ماهو الا باب الموقد ، ولكنهم مخطئون ، فقد تابعت ما وراء هذا المشهد حتى نهاية الاحتفال ، وشاهدت الحقيقة العارية ، فالناس فى ذعر من رؤية هذه الحقيقة ، ولكنها عجيبة حقا !.. وجدت الجثة ملتفة فى الكفن ، وقد وسدت أمام باب آخر ، وكان هذا الباب هو فعلا باب الموقد . كانت

ترقد فى غرفة مقامة من الطوب الحرارى والأسمنت . لم تكن تشع منها حرارة ، ولا ينبعث منها صوت ، ولم أر لهيبا ولا وقودا ، وانما كانت الغرفة نظيفة باردة مشمسة . ويمكنك ان تضعى يدك دون وجل أوخوف. وحين بدأ نقل الجثة الى داخل الغرفة ، أدخلت القدمان أولا. انظرى ماذا حدث ؟.. ما كادت النار تزحف لتلتهم القدمين ، حتى رأيت الكفن يتمزق وتندلع منه شعلة جميلة .. بلا دخان .. تشبه الألسنة المندلعة فى عيد العنصرة . ثم زحفت النار الى باقى الجثة .. لقد تحولت أمى الى هذه النار الجميلة ، ثم أغلق الباب ، وأخبرونا بأن نعود بعد ساعة ونصف ساعة اذا رغبنا فى رؤية ماحدث للجثة ، ولكنى تذكرت أمى وماتبقى من اصبعها النحيلة ووجهها العجيب ، فقلت لنفسى : الى اللقاء .. ثم تركناها وارتحلنا . وعندما عدنا كانت الخاتمة مضحكة للغاية ، ولابد ان أمى استمتعت بها .. لقد تطلعنا من خلال فتحة فى الأرض ، حيث كانت توجد غرفة أشبه بالمطبخ ، تتوسطها منضدة كبيرة من الأسمنت ، والى جوارها يقف اثنان من الطهاة يعملان بجد ، وفى يد كل واحد منهما ملقاط كبير ينتزع بهما مسامير النعش ومقابضه من وسط هذه الكومة الصغيرة من الرماد والعظام التى كانت هى أمى . وبعد ذلك جمعا الحصيلة فى منخل وغربلوه ، فخرجت منه كومين أحدهما تراب ، والآخر بقايا العظام . وخيل الى أن أمى تميل نحوى وتهمس فى أذنى : أى الكومين كنت فى حياتى .. لست أدرى ! وكان هذا المشهد المرح هو ختام رحلتنا . ولم يبق لدينا الا أن نحيل رماد العظام الى تراب ، ننثره فى الحدائق ليتحول الى زهور جديدة .. أيها الموت أين غلبتك ؟

وداعا ياصديقتى .. انت تدركين حقا مكانة الأم .

« يستدير ليواجهها ، ثم يضيف قائلا »
.. وأشياء أخرى .

كامبل : لقد فكرت مليا ، ووجدت اننى أعبد العاطفة عاطفة الحب ، عاطفة الشباب ، عاطفة الدين ، عاطفة الأمومة ، وأشياء أخرى .. وأحب حركات الاكروبات أيضا .. سواء كانت تؤدى على الأسلاك أو يقوم بها عقل مثل عقلك . أوه حبيبى .. أوه حبيبى .. حبيبى .. حبيبى .. حبيبى . كل الطرق تؤدى الى القبرأو عبر باب الموقد .. لقد تحطمت !..

« تقف كامبل ، وتوجه الحديث الى الجمهور »

وفجأة .. وبهدوء .. أعلن الأطباء الذين أشرفوا على علاجى ، وكانوا ثلاثة — بارون وفارسان — اننى قد شفيت تماما .

شو : « يتجه بالحديث الى الجمهور » .

وأخيرا ، أعلن عن افتتاح مسرحية « بيجماليون » فى ابريل عام ١٩١٤ .

كامبل : « تتجه بالحديث الى الجمهور » .

اننى أعرف نفسى وقوتى ، وتحدونى الرغبة فى الخروج لكى أرتب أمورى .. اننى أعلم تماما اننىأكبر سنا من دور « أليزا » .. هذه ما سمعته . ان الشائعات تتناقل سلوك « جوى » أثناء اجراء بروفات

المسرحية ، فهو يعامل الممثلين بلا شفقة حتى يحقق ما يهدف اليه فكره . على ان لدى سببا شخصيا يدعونى للرحيل عن لندن فى الوقت الحاضر .. هـذا السبب هو زائرى اليومى «جورج كورنواليس ــ وست» فقد أحسست أن هناك تجاوبا ينمو بينى وبين «كورنواليس»، ولكنى أدرك انه ليس من الحكمة أن تقوم هذه العلاقة

فى الوقت الحاضر.. من اجل الرواية .. ومن أجل علاقتى مع « شو » . لقد أشاروا على أن أقوم برحلة بحرية لبضعة أيام ، أصحب فيها وصيفتى وكلبى .. ورأيت أن يسمع «شو» ــ مصادفة ــ بخبر رحلتى . ولكن حدث أن انتزع قذى من تحت ظفرى واضطررت لتضميده ، وكان ذلك سبيلا الى رؤية « شو » .

« تستدير لتتحدث الى شو »

عزيزى « شو » ...

كنت رقيقـا بالأمس . وقد خشيت أن تتضـاعف آلامى لعدم مجيئك . على فكرة ، انبئك بأننى عزمت القيام برحلة بحرية الى « ساندوتش » وتمضية بضعة أيام هناك . سأقضى اجازتى وحدى ، وسأختفى بين أحضان الرمال حتى تبدأ الرواية . لقد خدعت بمظاهر القوة والنشاط التى دبت فى أوصالى . .لقد كانت قوة كاذبة . وماذا عن « اليزا » ؟.. لكن لابد من الرحيل وحدى .

شو : حبيبتى .. حقا ان الوحـدة جميلة ، ولـكن عندما تقتضينها وحدك فانها تبعث على الملل .. هـل شعرت بالوهن عقب ذلك الألم ؟ ليتنى أقضى الوقت

معك حتى أزيل عنك هذا الوهن ، وأضمك بين ذراعى لأخفف عنك . وأردد على مسامعك أشياء جميلة (وصادقة) حتى تنسى ألمك . الوحدة !.. عندما أكون وحيدا ، تكون صورتك هى عزائى فى وحدتى .. أما فى وحدتك على شاطىء البحر فترى أين يكون مكانى منك؟ هل أذهب معك فى هذه الرحلة ؟ ..

كامبل : يا له من خطاب أثير لدى . عندما تكون رقيقا ، أحس ان آلاف الملائكة تنطلق من تحت جناحيك. ولذلك أعانى كثيرا من فيضى بالحب . بالله ، لا تأت هنا أبدا لأننى أريد أن أقضى الأجازة وحدى ! ..

شو : « يتجه بالحديث الى الجمهور » .

كيف أقضى الوقت فى لندن . وقد اعترفت انها لا تستطيع البعاد عنى ؟ ! .. لذلك حزمت حقيبتى . ولحقت من محطة فيكتوريا بالقطار التالى . وكان الوقت بعد الغداء بقليل . ووجدت نفسى أمرق عبر الرمال حتى الفندق الذى تقيم فيه ، وكنت أغنى لنفسى طوال الطريق . وأخيرا وجدت « ستيلا » فى غرفة المكتب تخط مذكرات .. وتسللت على أطراف أصابعى حتى وقفت خلفها ..

« يتوجه بالحديث الى ستيلا » ..

ستيلا .. ستيلا .. يا اعز ستيلا فى الوجود !..

كامبل : حبيبى «جوى» !.. بحق السماء ماذا تفعل هنا ؟ ..

« تنهض » ..

ألم تقرأ خطابى ؟ من فضلك عد سريعا الى لندن ..

«تمضى لحظة يحملقان خلالها أحدهما فى الآخر».

حسن !.. اذا لم ترحل ، فسوف أرحل أنا .. يجب أن يسلك أحدها سلوكا مهذبا .

« تتجه بالحديث الى الجمهور » ..

ولكنه لم يرحل .. فقد رأيته مرة ثانية ، وكانت الساعة الحادية عشر مساء ، وقد غلبه النوم ، فدفعته على العودة الى الفندق . ووافقت على السباحة معه فى صباح اليوم التالى . ولكننى كنت أخدعه فى حقيقة الأمر ، فعندما وصل مرتديا المايوه ، وعلى استعداد للاستحمام ، كنا قد رحلنا بعد أن تركت له رسالة مع خادم الفندق .

شو : « يقرأ الرسالة » .

عندما تتسلم رسالتى هذه أكون قد رحلت . وداعا. واعلم اننى ما زلت مجهدة ، وكان الأحرى بك أن ترحل أنت ، فالرحلة تناسبك أكثر منى .

« ستيلا »

« يمزق الرسالة ويتحول اليها » ..

حسن . ارحلى ! .. لا تظنى اننى حين أفقد امرأة ، فهذا يعنى ان الدنيا قد أصابها الدمار !.. الشمس مشرقة . ويسعدنى أن أسبح فى أحضان الماء ، كذلك فانى أجد المكان مناسبا للعمل . يمكننى أن أعيش

وحدى ! ولكننى جرحت جرحا عميقـا .. عميقـا .. عميقا . آه .. ليس لدى أى عقل أو أعصاب . ان صداقتنا افتقدت الصراحة الحقة . أنت تهرعين وراء الحياة بجنون ، وعندما تستدير لتفتح لك ذراعيها ، تهربين منها . ارحلى اذن ، واعلمى ان أنفاس القـدر تحرق رئتيك ، وخير لك أن تبحثى عن هواء يناسبك . لقد جرحت كبريائى ، وهى جريمة لا تغتفر . أظن أنك لا تكترثين لجرمك . فعلا لايهمك ما أقدمت عليه ، دائما أنا الذى اهتممت أكثر منك . كذلك فـانك لم تكترثى « بجورج » أيضا ، ولو انك تظنين انك تهتمين به ، وقد تفكرين فى الزواج منه ، ولكن قبل أن يتم هذا الأمر ، سوف تلفين به أو تأتى روح قوية لتقذف به بعيدا . اننى أفضل أن أتقلب على نار الجنون ، على أن أتحمل صفعة هجرك . ولكن ماذا تعلمين من أمر هذا كله ؟ أنت ! لم تمزقين أوتار عودى لتستخدميها وثاقا للطرود .. أنا الملاك الذى يرفرف حولك ؟ ! ..

كامبل : كفى.. كفى.. أيها البائس . أنت أعمى . أنت خير من ينمق الألفاظ .. كم أنك مسكين لا يستطيع أن يفهم امرأة .. لقد فقدتنى لأنك لم تكتشفنى . قلت لك اننى سأسلك ساوكا مهذبا ، وقد فعلت . أما أنت فلا تعدو أن تكون عصا نحيلة تغلفهـا ملاءة .. لقـد ضقت ذرعا بصراخ نفسك وضجيج أنانيتك ! ..

شو : لقد وعدتنى ! .. ماذا تريدين أن أقدم لك .. المحار والشمبانيا ؟ حسن ، لقد حصلت على شىء منهما أثناء رحلتى، وانتهيت من روايتى . اليك الفصل الأول:

«ستيلا» تقول : (يقلد ستيلا فى حديثها) دعنا نستحم فى الثامنة الا ربعا ، قبل أن نتناول طعام الافطار .

«جورج برنارد شو» يجيب : كلا.. فليكن الاستحمام في الثامنة تماما .

« يقلدها » : الوقت متأخر ! الثامنة الا ربعا .. ذلك أفضل !

«شو نفسه يجيب» : أرجوك..الثامنة وقت مناسب!

« يسدل الستار على الفصل الأول ، ويرفع الستار عن الفصل الثانى » .

يصل «جوى» الى شاطىء البحر، فتظهر أمامه خادم الفندق « يقلد صوتها المرتفع » : لقد رحلوا ياسيدى.

« شو يجيب » : ماذا تقولين ؟ اليوم ؟ ها .. ها .. ها .. لقد ظننت انهم سيرحلون غدا .

« يتحدث الى الجمهور على جنب ، وهو يقلد صوت الخادم » :

ـ يعجبنى من هذا الرياضى العجوز صوته وابتسامته الساخرة . ولكنه لا يكترث لى ؟ ..

« يسدل الستار » ..

مسكينة .. انها لا تعلم انها أعجبتنى . لا جدوى من هذه الخطابات ما دام الجرح لم يلتئم .

كامبل : ولكنك لا تتذكرماحدث ؟ عندما جاء الساقى يحمل لنا أكواب الجعة ، قال : لقد سددت فاتورة

الحساب ، ولم يبق الا شلن واحد ثمن الجعة .. وظننت أنك ستدرك اننى راحلة ما دمت قد سددت حسابى ، ولكنك كنت مستغرقا فى النوم .. أنت مدين لى بشلن ! لماذا تواصل اهانتى ؟ ألأننى المرأة التى أريدها لنفسى ، ولست المرأة التى تريدها أن تكون فتكون .. عندما أراك لابد أن يصفو الجو . وهل تظن اننى أرضى أن يتألم صديقى الحميم . أوه .. حبيبى « جوى » .. لاتتألم .. أرجوك .. أرجوك .. أرجوك ..

« يرتفع صوتها وهى تنطق كلمة أرجوك الأخيرة » .

شو : ١٣ ديسمبر عام ١٩١٣ .

كامبل : أقبل العام الجديد ، ويمكنك أن تلهو مع القمر ، وتقبل النجوم . أما الأرض فقد استكانت فى حجرك .

شو : ليالى راس السنة .. يا لها من ليلة تختلف عن ليالى العام كله . هل تذكرين ليلة رأس السنة الماضية ؟ اننى أسألك : هل تذكرينها ؟ لقد قضيتها فى فراش المرض . اننى اتذكرها جيدا ، وتمزقنى الذكرى أشلاء . كنا نستمتع بتلك الليالى ، ولكن لم يتبق لنا منها الا السقم والمرض . هل تعلمين ماذا تعنى جولاتنا السقيمة ، وذلك العمل المتواصل ، والتقليب فى الأوراق .. ان هذا كله ماهو الا مرض وجنون . أما فى ليالى رأس السنة التى ولت ، فقد كان هناك الخلود ، والجمال ، والعالم بلا حدود ، والحب المطلق ، والرضا . اننى أتذكرها فى يأس مرير لأنك أيقظت المأساة الأخيرة فى أعماقى . لقد حطمت كبريائى ، فتحطمت بذلك روح المرح التى تحمل مآسى الدنيا على اجنحتها ، ثم استقرت كالريش فوق قبعتى . وأخذت تهزأ بى . ولا أظن ان دورك كان

محض وهم ، والا أصبحت وحدانيا مثل الرب . ان من واجبك أن تبقى فى عينى أم الملائكة ، وان تتشحى من حين الى آخر بثوب القداسة ، وتجلسى الى جوارى فى العلياء. اننا نستحق حقا كل ذلك لما نتميز به من عبقرية. وتذكرى دائما ان اخلاصى لك أبدى ، بل ان اخلاصى يفوق حبى. وعليك بدورك أن تخلصى لى . على الرغم من خيانتك لى فى امور أخرى . سأغفر لك ، وأباركك ، وأعبدك . هل ابنى كنيستى .. لحبيبتى « ستيلا » ؟

« يتحرك فى اتجاهها » ..

والآن ، دعينا نسمع الأجراس تدق وانت تجلسين على عرشك فى رداء أزرق ، بينما أنا أتطلع اليك ، وأتضرع لك بكل كيانى الماثل أمام سمائك .

« يعبر المسرح حتى يقترب من مقعدها ، وهو يردد عبارته الأخيرة ، ويتحرك اصبعه فوق السطر الأخير » .

كاميل : « تأخذ يده فى يدها » ..
آوه ! حبيبى «جوى» ! اننى أستطيع أن أكتب مثل رسائلك . وسوف أبعث برسائلى الى الله .

« تفترق يداهما ، ويسير هو نحو المنضدة ، بينما تلتقط هى سيناريو بيجماليون ، ثم تنهض وهى تقلب الصفحات بابهامها » .

شو : « يوجه الحديث الى الجمهور » ..

واخيرا بدأت مسرحية « بيجماليون » . وقمنا بعمل التدريبات ، وبعد طول حديث وانتظار ، على المسرح الملكى . وكان ذلك فى منتصف فبراير عام ١٩١٤ . وقامت «مسز باتريك كامبل» بدور «اليزا» ، بينما قام سير «هربرت ترى» بدور «هيجنز» . لقد أحكمت خطة المعركة . ولم يعد هناك مجال للتراجع .

كامبل : « توجه الحديث الى شو ، وهى ممسكة بالسيناريو » ..

حسن ، نحن على استعداد لبدء التمثيل . ونرجو أن نتفوق فى أدائنا . سأكون ودودة طبيعيه . ولك ان تهنأ .. اذا كنت قد استطعت أن تحقق ماكنت تنشده منى ، ولو اننى أشعر بقليل من الخوف .

شو : « يتجه بالحديث الى الجمهور » ..

فى الحقيقة كان لدينا من الأسباب مايدعو الى الخوف. لقد طلبنا الى « ستيلا » ، وكلنا يعلم انها فى التاسعة والأربعين من عمرها ، أن تؤدى دور فتاة صغيرة ، وأكثر من ذلك أن تتحدث بلهجة دارجة . والآن .. بدأ العمل المضنى .

« يحرك مقعده حتى منتصف المسرح » ..

بعد القراءة الأولى ، بدأنا القيام بتدريبات لكل مشهد على حدة . والآن ، أنت تعلمين يا «ستيلا» ان أحداث المسرحية تبدأ تحت اعمدة كنيسة سانت بول فى «كوفنت جاردن » . وكانت ليلة انهمر فيها المطر غزيرا ، فهرع عدد من الناس للاحتماء بين اعمدة الكنيسة . كانوا فى

انتظار العربات بعد انتهاء العرض الذى اقيم فى الأوبرا. وكان بين المنتظرين الأستاذ الشهير «هنرى هيجنز» العلامة فى علم الأصوات . وفى غمرة الجلبة ، يفاجئنا جميعا صوتك المزعج وانت تقتربين ...

«تبدأ هى فى تمثيل صامت لدور فتاة تبيع الزهور»

.. هربا من المطر ، وقد ارتديت ثوبا قذرا ، وتبيعين زهورا .. أنت تمثلين دور « اليزا دوليتل » .

كامبل : « فى دور اليزا » تردد العبارة التالية بلهجة محلية ممطوطة :

ـ تشترى وردة من بنت غلبانة .

شو : تثير هذه اللهجة اهتمام الأستاذ «هيجنز» ، فيخرج قلمه ..

كامبل : « فى دور اليزا » تردد هذه العبارة بنفس اللهجة ..

ـ بنفسج. .بنفسج.. مين يشترى منى البنفسج؟.

شو : تسقط منك باقة من زهور البنفسج فى الوحل ، فترتفع صيحاتك عندما تكتشفين انها قد تلفت ..

كامبل : « فى دور اليزا» تمثل فى صمت سقوط الباقة ثم التقاطها .

ـ آه .. آه .. أو .. ه .. ه .. ه ..

شو : « هيجنز يكتب بحماسة » ما هذا الصوت ؟ انه صوت عذب .

كامبل : « فى دور اليزا » تستعمل نفس اللهجة .

ـ عن أذنك . انت بتكتب ايه .. اسمع أنا بنت شريفة . آه شريفة .. ما اعرفش الغلط .. آه !..

شو : لا .. لا .. «ستيلا» ، أعيدى عبارة «ماعرفش الغلط .. آه» مرة أخرى .. اقرأيها لى كما يقولها رجل الشرطة وليس كما يقولها الطبيب .. حاولى مرة أخرى .

الاثنان معا : ما أعرفش الغلط ..

شو : هذا أحسن .

كامبل : هذه اللهجة تقتلنى .. لقد كتبتها لتعذبنى .

شو : « ستيلا » ..

كامبل : حسن جدا « تؤدى دور اليزا » ..

ـ عن اذنك بقى .. أنا ما اعرفش الغلط .. أنا بنت شريفة .. آه ، أنا شريفة .

شو : « فى دور هيجنز » : يا امرأة .. كفى عن هذا العواء الكريه فى الحال ، أو ابحثى لك عن مأوى آخر .

كامبل : « فى دور اليزا » : أنا على كيفى .. أفضل هنـــا اذا كنت عايزه والا أمشى .. آه ، مفيش فرق بينا .. كلنا ولاد حوا وآدم !

«تنتحب وهى تجلس على المقعد الذى يقدمه لها»

شو : « فى دور هيجنز » يسير حتى يقف خلفها أثناء الحديث التالى : ان امرأة تنطق مثل هذه اللهجة الكريهة ، لا يحق لها أن تكون فى أى مكان . أو حتى أن يكون من حقها أن تعيش . تذكرى أنك انسان بما وهبتك العناية

الالهية والروح من نعمة الحديث . ان لغتك هى لغة ميلتون والكتاب المقدس ، فلا تجلسي هناك تهدلين مثل الحمامة التى أصابها مغص .

كامبل : « فى دور اليزا » آه .. آه .. أو .. ه ..

شو : « فى دور هيجنز » : هل ترى هذه المخلوقة التى تتكلم الانجليزية بلهجة نكراء .. اننى أستطيع أن أجعل منها خلال ستة أشهر دوقة تختال فى حفـــــل باحدى السفارات .

كامبل : « فى دور اليزا » : ايه دا اللى انت بتقوله؟

شو : « فى دور هيجنز » : نعم ، اننى أستطيع أن أخاق منك ملكة سبأ .. أيتها النفاية القذرة والوصمة الكبرى فى جبين اللغة الانجليزية .

كامبل : « فى دور اليزا » : تتحدث بسعادة : آه .. آه .. و .. و .. و .. و

شو : هل هذا صعب يا «ستيلا» ؟ يمكننا أن نحقق ذلك خلال شهر تقريبا .

« يعود الى مقعده » ..

لقد دهشت كثيرا عندما رأيت انك تجدين صعوبة فى القيام بدور فتاة من العامة .. وها قد نجحت وأمكنك أن تؤدى دور انسان عادى .

كامبل : « تنهض واقفة وتبقى فى مكانها » ..

حسن ، لقد سبق أن جعلتنى اشعر بالضيق . وهذا هو يومنا الرابع ! .. من الأفضل لك أن تخبر «شارلوت»

بأنك سوف تجنى أكياس الذهب من سنابل هذا الحقل. آسفة اذا كنت أتعبتك ..

« تسير في اتجاه المنضدة ، ثم تتوقف لتعود قائلة» :

ولكن .. من واجبك أن تسمح « لأليزا » بأن ترتفع قليلا عما صورته لها كسيدة مجتمع ، وذلك فى المشهد الذى تتوجه فيه لحضور حفل الشاى .

شو : تماما .. لقد فضلت دورها بحيث نراها فتاة شعبية فى نصف المسرحية ، وسيدة مجتمع فى نصفها الآخر . ولكنك لم تدركى هذه الحقيقة ، اذ انك تؤدين دور سيدة مجتمع من وراء فتاة شعبية ، وهذا لايصح مطلقا .. أما ان تكونى فتاة شعبية لحما ودما وكلاما ، أو سيدة مجتمع خالصة ، ولكن ماذا وراء هـــذه الاعتراضات التى بدأت تتسلل أخيرا ؟

كامبل : تتسلل ؟ اننى أحب هذا التسلل ! يجب ان افعل شيئا . وهذا الدور الذى عهدت به الى «هربرت ترى » مصيره الفشل .. هذه حقيقة الأمر .

شو : انت لن تسـاعدك ابتسامتك .. هل تعرفين سبب اعطائه التفاحة ؟

كامبل : أن « ترى » يستغرق خمس دقائق بين كل كلمة وقضمة من هذه التفاحة . اننى أشعر ان وجهى قد أصابه الشلل من جراء محاولتى التعبير عن مشاعرى! وهذا هو سبب اعتراضى . لقد كنت أحاول ببساطة ان اخفى وجهى حتى يعود الى حالته مرة أخرى !

« تستدير متجهة نحو مقدمة المسرح » .

شو : اذن ، لقد كان هذا هو السبب الذى جعل وجهك يبدو كحقيبة ممزقة من الورق .

« يبتعد قليلا » .

كامبل : « تعود » . لا تظن انك تستطيع ان تنال منى أبدا . مطلقا .. فقد أخبرتك اننى ابدو بلهاء فى هذا المشهد ، ثم اننى لا أكترث الآن كثيرا بنفسى أو بموهبتى .

« تخلع الشال وهى واقفة فى مقدمة المسرح» .

شو : ان المشهد الذى يدور فى البيت مازال مصدر قلق بالنسبة لى . وأخبرك بأننى سأقوم بزيارتك الليلة فى بيتك الكائن بميدان كينسينجتون لأطالعه معك . انت وحدك التى تصلحين للمشهد الذى يجرى فى قاعة الموسيقى .

كامبل : « تطوى الشال » .

لقد كتبت الجزء الخاص بقاعة الموسيقى ، ولكن أظن ان المسرحية فى حاجة الى ضحكات تتخللها كثيرا .

شو : والآن .. دعينا نبدأ التمثيل عقب وصولك الى القاعة وجلوسك .

« تأخذ المقعد ، وتحمله الى منتصف المسرح »

وتذكرى انك تسيرين كسيدة مجتمع ، بينما اتخذ الآخرون أماكنهم على الجانبين .. هنا تقف مسز

« اينسفور هيل » وهنالك يقف « فريدى » وهنا مسز « هيجنز » .

« تسير وهى ممسكة بمظلة مقفلة » .

مسز « هيجنز » تقول : هل تظنين انها ستمطر ؟

كامبل .. « فى دور اليزا » : سيتحرك الانخفــــاض المتمركز غرب الجزر البريطانية ببطء تجاه الشرق. ان البارومتر لاينبىء عن وجود أى تغييرات فى الطقس .

شو . « فىدور فريدى» : أوه .. حقا ! ها .. ها !

كامبل.. «فى دور اليزا» : ما الذى يدعوك للضحك أيها الفتى الصغير ؟ أراهن ان ما قلته صحيح !

شو . « فى دور مسز هيجنز » : لدرجة مدهشة..

« يسير فى اتجاه المكان المحدد لمسز هيجنز» .

ـ ... أرجو ألا تزيد حدة البرد ، فالانفلونزا منتشرة هذه الأيام .

كامبل .. « فى دور اليزا » : عمتى ماتت من الانفلونزا .. هكذا قالوا .

شو .. « فى دور مسز هيجنز » : حقا ؟ ..

كامبل .. « فى دور اليزا » : ولـكن فى اعتقادى انهم خلصوا عليها » .

شو .. « فى دور مسز هيجنز » : خلصوا عليها ؟ ..

كامبل .. « فى دور اليزا » : أمال اشمعنى يعنى ماتت من الانفلونزا ؟ بقى اللى قدرت تتحمل الدفتريا السنة اللى فاتت .. وكان جسمها أزرق لغاية احنا ما افتكرنا انها ماتت .. لكن أبويا فضل يداويها بكاسات من الجن لحد ما فاقت وقطمت المعلقة نصين .. بقى معقول ان وليه بالقسوة دى تموت من الانفلونزا ؟ .. وراحت فين برنيطتها القش الجديدة اللى كان لازم أورثها أنا ؟.. اتخبطت طبعا ، وأنا عارفه ان اللى خبطوها هم اللى خلصوا عليها ! ..

شو.. « فى دور مسز اينزفورد هل » : هل تعتقدين حقا أن عمتك قد قتلت ؟ ..

كامبل .. « فى دور اليزا » : طبعا ! .. دى اللى كانت عايشه معاهم يقتلوها عشان دبوس البرنيطة موش عشان البرنيطة بحالها ! ..

شو .. « فى دور مسز هيجنز » : ولكن لم يكن والدك محقا فى اعطائها مشروبا روحيا بهذه الطريقة .. فربما يكون الجن هو السبب فى قتلها .

كامبل .. « فى دور اليزا » : مين هى ؟ دا الجن كان عندها زى اللبن اللى رضعته من امها .. وكان هوه بيشرب منه كتير عشان عارف فايدته ..

شو .. « فى دور هيجنز » : يا للسماء ..

كامبل .. « فى دور اليزا » : أنا ماشفتش انه كان بيأثر عليه .. وهو ماكانش دايما بيشرب .. زى ماتقولى كده كل مايهفه مزاجه.. وتقدرى تقولى انه كان بيشرب عشان يبقى مبسوط شويه ..

شو : عظيم « ستيلا » .. رائع .. عبارة « مبسوط شويه » .

« الاثنان يكرران العبـــارة فى وقع موســيقى منتظم ، ثم ترتفع النغمة ، بينما يتخذ «شو» من نفسه قائدا للفرقة الفنائية »

شو : يمكنك من وقت الى آخر أن تقولى « مبسوط شويه » وكان ينبسط أكثر لما يلقى حد يشرب معاه !

كامبل .. « فى دور اليزا » : طيب ..

طيب .. دلوقت لازم أمشى .. الى اللقاء مسزهيجنز

شو .. « فى دور هيجنز » : الى اللقاء ..

كامبل .. «فىدور اليزا» : الىاللقاء مسزاينز فوردهل .

شو .. « فى دور مسز اينز فورد هل » : الى اللقاء .

كامبل .. « فى دور اليزا » : الى اللقاء ..

شو .. « فى دور فريدى » : اذا كنت سوف تعبرين الميدان سيرا على الأقدام يامس دوليتل .. فهل يمكننى..

كامبل .. « فى دور اليزا » : أنا أمشى ؟ فشر ! .. أنا مروحه البيت فى تاكسى ..

شو : بحق السماء ، لقد نجحنا يا « ستيلا » .. يمكنك أن تكونى رائعة اذا أنت أصررت فعلا على النجاح .. وداعا !

« يعيد المقعد الى مكانه ، وينهى حديثه » .

كامبل : حبيبى «جوى» ! لم يعد باقيا الا اربعة أيام نواصل فيها التدريب ، ولكن أخشى أن تكون هذه المدة غير كافية .

شو : « ينهض عن المقعد » .

بل انها كافية .. وكل ما فى الأمر ان نهاية المسرحية فى حاجة منك الى شىء من الاجادة .. يمكنك أن «تسلقى» أى مشهد بالخبز واللبن أفضل من أى ممثلة أخرى . ولكن هذا المشهد ياحبيبتى يحتاج منك الى « غليه » بالبراندى . ويمكن أن يساعدك فى هذا الموقف أن تتخيلى ان «هيجنز» الواقف أمامك هو أنا .. ان هذا التخيل وحده كفيل بأن يثير فى نفسك ما يتطلبه الموقف من ازدراء للبطل . وتذكرى ان ترفعى صوتك ، لأننى أحيانا لا أستطيع أن اسمع كلمة واحدة مما تقولين ، اذا كنت واقفة فى مؤخرة المسرح .

كامبل : « تسير فى عصبية ظاهرة أشبه بالحيوان السجين فى قفص » .

أنت انسان مخيف .. فاننى أعلم تماما ان دورى ما هو الا مهزلة . وقد أخبرتك منذ البداية اننى فى سن متقدمة ، ولاأصلح لدور فتاة لندنية عامية .. لاأستطيع ان أقوم بهذا الدور لأنقذ عنقى أو عنقك . ولعلمك كان الجميع يسمعون صوتى عبر أى مسرح فى العالم ، ولا شأن لى بما أصاب أذنيك .

« تتحول بعيدا عنه فى غضب » .

شو : لا تنفضى يدك مر الموقف هكذا .. لقد أردت

فقط أن أخبرك بما لدى . ان العرض فى حاجة الى المشاعر، والروح ، والمام بالمشكلة الاجتماعية .. واذا لم تدركى كل هذه الأمور ، فأنا فى حل من مصارحتك بأنه لايمكنك القيام بأى الدورين .. سواء دور « شو » أو دور « اليزا » .

كامبل : « وهى ما زالت متباعدة » .

انني مازلت آمل أن تحقق كسبا ضــخما من المــال ياعزيزى«جوى» لأنك مؤمن بأنك وحدك ، وبمسرحيتك، تستطيع أن تصيبهذا المال.. ولولاك لأصابالمسرحية الفشـــــل ، وأصبح الجميع حمقى.. اذا كانت لديك توجيهات بالسبة لى، فيمكنك أن تعطيها لمديرالمسرح.

« تعيد مقعدها فى انفعال واضح . وتشرع فى السير بعيدا ، ولكنها تقف عندما يبدأ لحن : هذه الليلة ليلتنا . » ....

شو : أوامر نهائية .. هذه الليلة ليلتنا .. هل أنت على استعداد للنزال ؟ أنا لا أحب المعارك ، وان كنت أحب أن أحرز الانتصارات . واذا أردت أن تنجحى فى المعركة فامسكى بالسيف فى يدك. انأغرب ما فىالموقف يا «ستيلا» ، هو انني أعلم انك ستنجحين فى المعركة.. هذا رغم انني أعرف ان الركائز الثلاث التى يقوم عليهــا النصر هى الهجوم والذكاء والعزيمة .

كامبل : سأطيع أوامرك بكل اخلاص . وأشكرك على انك واصلت عملك الجبار حتى النهاية .

شو : اذن .. سيرى الى الأمام .

كامبل : « تتجه بالحديث الى الجمهور » ..

.. وسارت المسرحية كالحلم ، وقد تخللها كثير من الضحكات المجلجلة . ولم يسبق أن مرت ليلة بمثل هذا الجو المرح كما مرت الليلة الأولى لحفل الافتتاح .

شو : « يتجه بالحديث الى الجمهور » ...

كان الضحك والتصفيق يدويان عاليا عقب كل فصل ، وبمنتهى الحماسة . ولم تكد المسرحية تنتهى ، حتى احسسنا ان « ستيلا » أشاعت فى لندن كلها عاصفة مدوية من النجاح ، حملتنا عاليا واستقرت بنا على سطح القمر . وقد أعددت حفلا ، ابتهاجا بليلة الافتتاح .. وعندما بحثت عن «ستيلا» ، كانت تنتظرنى مفاجأة .. أوه ..

كامبل : « تسير كأنها على وشك أن تترك المسرح ، ثم تفزع عند رؤية شو » : عزيزى « جوى » .

شو : « يواجهها » : ألا تنوين حضور الاحتفال ؟ .. هل تنوين العودة الى البيت وحدك .. هذه الليلة ؟ ..

كامبل : لن أعود وحدى ! سأعود مع « جورج » .. انه فى انتظارى فى سيارته .

شو : « جورج » ؟ ..

كامبل : نعم .. « جـورج كـورنواليس ــ وست » لقد تزوجته يوم الأربعاء المـاضى ! ..

ســـــــــــتار

الفصل الثانى

« تضاء الأنوار . وفى نفس اللحظة تدخل «مسز كامبل» ، وهى تتحدث الى الجمهور أثناء سيرها »

كامبل : أصابت « بيجماليون » نجاحا عظيما خلال الموسم المسرحى فى لندن ، وكان ذلك عام ١٩١٤. وبعد شهور قليلة من الافتتاح ، قامت المانيا بغزو بلجيكا ، ووجدت أوربا كلها نفسها فى خضم المعركة . وكانت النتيجة الحتمية أن أغلقت مسارح لندن أبوابها .. وادرج اسم زوجى وابنى « بيو » فى كشوف المجندين ، ووجدا نفسيهما فى الخطوط الأمامية للمعركة.. وقررت أن أقوم بتمثيل «بيجماليون» فى أمريكا . وكان معروفا عن مستر « شو » انه رجل تقدمى ، وكان الجميع يتهمونه بالخيانة الوطنية . وقد بدأ يكتب عن رجل الدولة الحديثة .

« يدخل شو ، ويسير متجها نحو المكتب ، ويبدو أثناء كلامه كأنه يملى حديثه على شخص » .

شو : علينا ان نشغل عقولنا بمنتهى الجدية فى بحث هذه المشكلة ، فنجد الوسيلة التى يمكن أن تتيح لنا اعادة

رسم خريطة أوربا ، ونصلح من دساتيرها السياسية ، حتى لاتدور رحى الحرب فى أوربا مرة أخرى بهـذه البساطة .

كامبل : « تتجه بحديثها الى الجمهور » ..

.. وفى نيويورك ، بدأت تصلنى خطابات «شو» .. وكذلك رسائل أبنى « بيو » ، وكان ذلك قبل أن تدخل أمريكا الحرب ..

شو : عزيزتى « ستيلا » ...

هـذه الحرب يهيمن عليها الأغبيـاء الذين يتلاعبون بالألفاظ . انهم لايتقدمون ولا يحرزون أى نتيجه غير القتل.. القتل.. ولا شيء سوى القتل.. من وقت الى آخر يطلب القيصر قتـل مليـون رجل.. وكذلك كتشنر، يطلب مليون رجل لقتـل خصـومهم . وأخيرا تنكشف أمامهم الحقيقة ، وهى ان هذه الحرب البلهاء لم تدفع الحياة الى الاسـتقرار ، وانما خلقت معركة دائمة تشبه معركة «ووترلو» التى لم يحرز فيها أحـد الجانبين أى نجاح .. لماذا لا تنهض المرأة وتصرخ بصوت عال : لقد بذلنا الجهد العظيم لكى نلد هؤلاء الرجال ، واذا لم تتوقفوا فورا عن قتلهم ، فسوف نرفض أن نمد البشرية بأى مولود !.. ولكن يا للأسف.. فالمرأة حمقاء مثل الرجل تماما . وهـذا هو ما أردت قوله يا عزيزتى « سـتيلا » .. ولكن لم تسألى ماذا حـدث بقصائدى ..

« يجلس على مقعد بدون ظهر » ..

كامبل : لم أنس مطلقا قصائدك ، ولا حبك .. فأنا أعرفك تماما ، وأدرك مدى تقديرك لى .. الكثير منه والقليل . لقد أنفقت من جيبى الخاص ٧٧٥٠ دولارا خلال رحلتى التى حملت فيها مسرحيتك عبر المدينة حتى وصلت الى سان فرانسيسكو ، وأنا أقاسى من وهج الحر، والمسارح التى هجرها الجمهور ، لأنهم كانوا يرون فى اسمك صاحب الوجه ذى الحواجب الكثيفة ، فيعرضون عن مسرحيتك . ولست أدرى لماذا لم نناقش معا اسم المسرحية ، فقد كانوا يتساءلون : كيف ينطقون الاسم .. هل هو «بيجماليون» أو بيج ماليون (١) .. لقد شحب وجهى ، وابيض شعرى ، وأسهمت صحف المدينة بدورها فى اصابتنا بالجنون ، فمنذ أسابيع مضت خرجت علينا بالعنوان التالى: «غرق الأسطول البريطانى» . لقد كنت ومازلت فى قلق على ابنى «بيو» ، فقد أصابه المرض فى خنادق الدروفيل ، وأرسل الى الاسكندرية ، ولم يبق من فرقته الا ثلاثة جنود ! هذه الحرب المجنونة تسبح فى بحار من الدم !.. اننى افتقدك كثيرا ، ولا أدرى اذا كانت الظروف سوف تتيح لنا اللقاء مرة أخرى!

« ستيلا »

شو : حبيبتى « ستيلا » ..

لقد عدت الى ايرلندا مع من تم انقاذهم من الباخرة « لوزيتانيا » التى أغرقتها غواصات الأعداء .. وكانت مغامرة تفوق كل خيال . لقد وقفت فى أواخر أكتوبر على رصيف لندن ، والقيت محاضرتين . وكنت اتوقع قيام المظاهرات ، ولكن حشدا يصل الى ٣٠٠ شخص

(١) هنا تلاعب بلفظى Big و Pig ، والثانية تعنى خنزير .

تحولوا عنى فى هدوء ، وهم يرددون سؤالين عن السيد المسيح .. أما صورتك ، بكل ما فيها من شباب وجمال فقد أصبحت أمام عينى حقيقة . يجب أن أراك سريعا وقد أصبحت الآن أبدو فى سن السبعين ، وأحس أن المسرح قد بدأ يهجرنى ، ولذلك فاننى سأعود الى السياسة والدين والفلسفة ، وهذه كلها تصيبنى بالصداع ، ولكنها ترضى روحى .

كاميل : « تتجه بالحديث الى الجمهور » ..

عدت الى لندن عام ١٩١٦ . بعد أن قضيت عامين فى أمريكا . وكان فى انتظارى « جورج الكسندر » الذى حاول احياء عرض مسرحية « بيلادونا » . وقد هرب زوجى من « انتورب » ، بينما عاد ابنى الى الخطوط الأمامية مرة أخرى . وكلما تقدمت الأيام ، ازدادت أهوال الحرب ، وامتلأت الكشوف بأسماء الجرحى المتناثرين فى الشوارع . لقد انقضت شهور لم يكتب لى «شو» خلالها أى خطاب .. ثم أخيرا وصلتنى رسالة منه .

شو : ايوث سانت لورنس ، ويلوين .

١٤ مايو ١٩١٦ .

حبيبتى « ستيلا » ..

لقد أصبت بالانفلونزا .. قضيت أسبوعين بالقرب من البحر ، ومع ذلك أشعر اننى أنتحر . كان يجب أن

يصدر كتابى الجديد منذ شهر ، ولكن لايوجد أى عامل من عمال الطباعه اوالتجليد ، ولا توجد باخرة تقلنى الى لندن . اننى اقوم بطبعه فى أدنبره حيث أعيش الآن . واذا شحنت مؤلفاتى من هنا فى قطارات البضاعة ، فانها سوف تحتاج الى ثلاثة أشهر حتى تصل الى لندن . وسوف تجدين تكملة مسرحية «بيجماليون» فى صفحة ١٨١ . اننى أعرف انها لا تثيرك ، ولكن «جورج» سوف يقرؤها . أظن انك تقيمين الآن فى لندن . اننى لم أشعر يوما فى حياتى بعدم الاكتراث والكآبة مثلما أشعر الآن ، حتى أننى لا أستطيع الكتابة . وكل ما يخطه قلمى على الورق ، يدور فى فلك هذه الحرب اللعينة . لقد تقدمت بى السن ، وأشعر اننى قد انتهيت . ان القلم يعصينى وأنا أكتب المسرحيـة الجديدة ، لدرجة اننى اغالب البكاء بين لحظة وأخرى ، ودون أن يتجاوز ما أكتبه جملتين أو ثلاث جمل فى الحوار فى كل مرة أعالج فيها الكتابة ، وذلك دون أن أدرى حول أى شىء يدور هذا الحوار. لقد بدأت الكتابة فى ٤ مارس ، ومع ذلك لم أتجاوزالسطور الأولى من المنظرالأول، انه عالم فاسد. وعندما عاد حبيبك «جورج» ، وجدته متبرما بالحياة. وأظن انه لن يعيش طويلا .. وأنت أيضا .. لابد انك تشعرين بتقدم السن ، وبأن الوهن قد بدأ يدب فى أوصالك . واننى لأتساءل عن أسهل الوسائل للموت هل هو الفحم ، أو المورفين ، أو حامض البورسيد ؟ دعينى أقول لك وداعا ، فانه من المحتمل الا نلتقى مرة أخرى . وفى هـذه الحالة سيكون عنوانى : مقابر جولدرز جرين .

ج . ب . ش

كامبل : أوه .. حبيبى «شو» .. كأننى كنت أجهل كل هذا منــــذ سنوات طويلة .. مسكين .. مسكين أنت أيها الرجل ! ابنى « بيو » الحبيب يجتاز مرحلة خطيرة ، وقلبى يتمزق أشلاء . والوقت يمر على ثقيلا بطيئا !..

شو : ايوث سانت لورنس .

٧ مارس ١٩١٧ .

لقد أرسلت لى رسالة مقتضبة ، أعطتنى احساسا أن من يكتب لى جاهل أمى .. ولست أنت يا « ستيلا » ، ارجو أن تكملى رسالتك ، وسوف اجيب عنها . لقد أرسلت لى الورقتين الأخيرتين من أوراق الاتهام ، فهــل تبعثين الى بالصفحات الست الأولى ؟.. هناك ثلاثة أعماق للجهل ، كل واحد منها أكثر عمقا من الآخر .

١ ــ جهل الجهلة الذى يجعلهم لايدركون انهم جهلة ..

٢ ــ جهل «اليزا» التىلم تستطع أنتقرأ نهاية قصتها .

٣ ــ جهل أولئك الذين لم يقرأوا مؤلفاتى .

وهناك شخص واحد يحيا فى هذا العالم ويعتبر قمة الجهل .. وهذا «الشخص» هو عقلك الذى يجمع بين هذه الأصناف الثلاثه من الجهل . ولكن بفضلى ــ أنا أستاذ فن الرسائل ــ هززت مهد أوربا لترانى معك فى اجمل صورة .

كامبل : « خلال الجزء الأخير من حديث شو ، تكون

هى تطالع برقية تحمل لها نبأ مصرع ابنها فى ميـــدان القتال . وعندما ينتهى «شو» من حديثه ، تكون «كامبل» قد غرقت فى جب الأحزان .. وتنتظر لحظة .. »

ابنى الحبيب «بيو» قتل . هل قرأت ذلك فى الصحف ؟ اننى أشعر انه نائم ، وانه لابد سوف يصحو من نومه ، ويقبل على .. اذا أحس اننى هادئة وقوية !.. هل تظن ان «ماكدونا» سوف يرحب بأن أقوم بدور « اليزا » أمامه ؟ لقد كتب لى القسيس ان ابنى والقـائد كانا يقفان عند قمة درج الخندق عندما انفجرت قنبلة ، فأودت بحياتهما . أتمنى أن تقرأ الخطاب الذى أرسله لى بشفافية ورقة ، ليروى المأساة ويمتدح بسالة ابنى!

شو : « يحاول أن يبدو رقيقا .. ثم يتوقف » ..

لا فـائدة من ابداء العطف ، لأن هـــذه الأمور تثير غضبى . أريد أن أقسم لك ، بل اننى أقسم لك ، انه قتل .. لأن هؤلاء الناس حمقى بلهاء . وهل من واجب القسيس أن يقول كلاما معسولا عن القتل ؟ ليس من واجبه أن يقول هذا الكلام عن القتل ، بل ان من واجبه أن يصيح قائلا : « من الأرض يصرخ دم ابنك لبارئها !» لا .. لا تبعثى الى بالخطاب ، وليذهب هذا القسيس هو ورقته الى الجحيم . ولاشك ان القنبلة التاليـــة سوف تمزق جسده أشلاء ، وسوف يجد قسيسا آخر يكتب خطابا رقيقا الى أمه .. هل هو يحاول ترضيتها أو تعزيتها ؟.. فى الحقيقة ، انه فى حاجة الى خطاب من الملك لكى يحس بأن النعمة جاءته فى صورة قنبلة .

لاداعى لأن تستمرى علىهذه الحالة ياحبيبتى «ستيلا»! وانتظرى أسبوعا حتى أستعيد صفاء ذهنى ، وأكون قد نسيت المأساة ، وأصبح هادئا مثل الكاهن.. تماما . أوه .. اللعنة .. اللعنة .. اللعنة .. اللعنة .. اللعنة اللعنة .. اللعنة .. اللعنة .. اللعنة .. « يرتفع صوته فى المرتين الأخيرتين تعبيرا عن كراهيته للقتل » . أوه ، حبيبتى .. حبيبتى .. حبيبتى .. حبيبتى .. حبيبتى .. « ينظر اليها فى تلك اللحظة » .. يا أغلى شىء فى الوجود ..

كامبل : « تتجه بالحديث الى الجمهور » ..

لو ان ابنى عاش فترة قصيرة ، لكان من المحتمل أن تنتهى الحرب ..

شو : « يتجه بالحديث الى الجمهور » ..

عندما أعلنت الهدنة ، حدث تغيير شامل فى العالم السياسى والاجتماعى والاقتصادى . فقد ذهبت أبهة الملك « ادوارد » . ولم تستطع « ستيلا » أن تلحق عهد « جورج الخامس » ، فتركها تتخلف عنه شيئا فشيئا . كما أصبحت علاقتنا رواية كوميدية تراجيدية .. فقد نشبت بيننا المعارك فجأة حول الرسائل التى تبادلناها ، ولكن أعجب ما انتهينا اليه هو أننا احتفظنا بها .

« يعود الى المكتب »

كامبل : يناير ١٩٢١ .

عزيزى « شو » ..

لقد وصلتنى رسالة من ناشر وأطلب منك النصيحة. وهى فى صورة عقد لنشر كتابى ، ولكننى أخشى صيغته فأرجوك أن تخبرنى لحظة وصولك الى المدينة . كذلك وصلتنى رسالة من صديقه فى نيويورك تبدى لى فيها اعجابها الشديد بمسرحيتك « منزل القلوب المحطمة » . وأرجو أن تتيح لى فرصة التمثيل فيها ، اذا عزمت على عرضها هنا . ولقد دهشت عندما انبأتنى بأن لتمثيلها وقع رائع أفضل كثيرا من قراءتها .

شو : يا معبودتى الجميلة .. اننى لا أستطيع ان أعهد لك بأحد أدوار مسرحية « منزل القلوب المحطمة» . لقد بعثت الرعب فى قلبى . لو عادت « كاربنتير » فسوف أجد جميع الممثلين قد أعلنوا الاضراب . وهذا الموقف لا أستطيع مواجهته ، ولا يقبل أى شخص فى الوجود يحكم عقله أن يواجه مثل هذا الموقف .

كامبل : اذن ، فلن أستطيع أن أتغلب على هذه العقبة . اننى مسكينة لأننى لا أستطيع البكاء .

شو : فعلا . . أنت مسكينة لأنك لاتستطيعين البكاء ، بينما تستطيع أى ممثلة البكاء . . مثل التمساح !

كامبل : موضوع الكتاب مصدر قلق لى !

شو : ماذا كتبت ؟ حياتك أم حياتى .. أم كلتيهما ؟

كامبل : انت تعلم اننى لا أستطيع الكتابة ، ولا حتى الهجاء . ولا « ألفق » حكاية ولا أمثل . كما ان تزويق الكلمات ليس من الخلق الكريم . وفكرتى عن الكتابة الموسيقية لا تعدو علامة وصل .

شو : « ستيلا » .. لقد اعددت الكتاب ! واخترت له عنوانا هو « قصة حياة غانية » .. بعد أن تؤرخى لحياة مسز « تانكرى » ، يمكنك أن تنطلقى فى طريقك بسهولة ، لو انك حددت المكان ، وأمضيت باقى قصتك على مسرح العشاق .. مثلا تبدئين الأحداث بعلاقتك مع « ترى » ، وقد ضممته الى صدرك ، والتفت ذراعاك حوله فى عناق عاطفى حار ، وقد تركتا آثارهما على سترته ، فبدا المسكين مثل الحمار الوحشى .. وتنتهى القصة مع « جيرالد دى موريبه » . وكانت الكلمات التى يسرها فى اذنيك تدفعك دائما الى التعليق عليها : يا الهى . هل كتب على أن أقوم بهذا الدور على مثل هذا الوجه ؟ !

كامبل : حبيبى « شو » ..

لقد سكرت من خمر قلمك . بلغنى ان « شارلوت » حزينة ، واملى الا يكون هذا صحيحا ! .. ألم تخبرها اننى سيدة نبيلة ، أو اننى مجرد بجعة تغنى ؟ الا تشفق على لأننى أجد عزاء فى اعادة قراءة هذه الخطابات ، ويا للحسرة .. اننى أجدها كلها جميلة ، شيقة ..

وأشعر الآن بالسعادة لأننى لم أمزقها . وسوف أعد نسخا منها للنشر ، اذا وافقت على ذلك .

شو : أعيرينى سمعك .. لقد قلت انك تحبين أن تسلكى سلوكا مهذبا فاضلا . اذن فاعلمى ان « الجنتلمان » لا يقبل ، ثم يذهب فيحدث الناس عن قبلاته .

كامبل : من السهولة بمكان أن أهبط من فوق السحاب ، لكى أعرف انه توجد وجهات نظر اخرى غير وجهة نظرى .. والحقيقة أننى أكره أن أحدثك عن « جورج » وكل ما أريده هو أن تدلنى بثاقب رأيك عن مدى صدق هذه السطور التى يضمها كتابى. واظن انك تعلم انه قد هجرنى منذ عامين .

شو : اننى أكتب بعض الذكريات الشخصية عن حياتى فى الطبعة المفتوحة التى تجمع كل أعمالى . ولنفرض اننى أرغب فى أن أضم الى هذه الطبعة أعز رسائلك ، فهل تعذريننى اذا أهملت منها ما يجعلنى أبدو أمام الناس وغدا مأفونا ! ..

كامبل : حبيبى « جوى » ..

دعنى آخذ كلامك مأخذ الجد ، انت تقول : « لنفرض اننى أرغب فى أن أضم الى هذه الطبعة أعز رسائلك ». يمكنك أن تنشر من خطاباتى ما يروق لك .. فقط بعد تصحيحها من الناحية اللغوية ..

شـو : فى حوالى عام ١٨٩٥ ، كتبت مجموعة رائعة من الخطابات الغرامية الى « الين تيرى » . وقد ردت عليها بسلسلة خطابات رائعة أيضا .. و ..

كامبل : لماذا لا تحمل « الين تيرى » على ان تنشر رسائلك اليها وتضمها الى رسائلك التى بعثت بها الى ، وتصدرها جميعا فى كتاب واحد ؟

شو : اننى أدرك تمـاما سبب اصرارك العنيد على الا أرى الـكتاب .. وأنت محقة تماما .. لأننى سأمزقه بلا هوادة .

كامبل : اننى أتحرق شوقا أن ترى الكتاب كاملا ، وليذهب بعد ذلك الى الجحيم ، وان كانت لا تسعدنى رسائل « ايوث » أو « أولفى تيراس » . وقراءة الكتاب لن تستغرق اكثر من ساعتين ، ويمكننى الحضور الى لندن .. فهل أحضر ؟

شو : خذى حذرك ، فسوف اربط بين الشوارد التى أرسلتها الى ، وأصيغها فى فقرات رائعة ، وأنا أدرك تماما مواطن الصدق فيها ، ثم أخلق منها مسرحية تكون خير رد على كتابك .

كامبل : ان كلمة « مسرحية » التى تستعملها كلمة بلهاء ، فاننى ابذل قصارى جهدى فى أن أكون صادقة ، وأنت تعلم تمام العلم اننى لا أستطيع صياغة الفقرات ، أو كتابة تلك العبارات الطويلة الرائعة التى يخطهـــا

قلمك . وعندما انتهى من احدى العبارات ، فاننى أبذل جهدا كبيرا لــكى أعيد الاستقرار الى ذهنى .

شو : هنــاك عبارة يستطيع « جورج » أن يتخذها سلاحا لطلب الطلاق .

كامبل : اخبرنى بهذه العبــارة ..

شو : أنت قاسية لأنك تدفعيننى الى تلاوتها .

كامبل : أرجــــــوك يا « جوى » ألا ترتدى مسوح الرهبان . فأنت قلت : اترك النشر .. الخ .. بين يدى « مسز كامبل » لتصدر حكمها .

شو : سوف تحتاجين الى مطرقة كبيرة لكى تصدرى الأحكام فى صالحك ، ولكى تشاهدى نفسك فى الصورة التى يجب أن يراك عليها الآخرون .

كامبل : انت دائما قاس لا تعرف الرحمة فى حديثك الى .. ودائما تنهال بآلاف المطارق فوق رأسى ، ولكن لن يقدر أحد على ايذائى .. أليس ذلك رائعا ؟ اننى أتساءل : لماذا تعارض منذ الآن « الحماقة الضاحكة» التى تمثلها الدنيا ؟ سيقولون اننى كنت عشيقتك ، وان « جرانفيل باركر » ابننا ..

شو : الآن ، ستقف الآلهة الى جوارى لتحمينى من الحمقى . وسوف أكتب منذ الآن مقالات عن صلتى بالأنثى التى تحاول اصطياد الملك . حسن .. يمكنك

ان ترسلى الى اصول كتابك ، لاخبرك ـ بقسوة وكبرياء ـ بما يمكنك أن تصرحى به وما يجب أن تخفيه .

كامبل : انني فى غاية الدهشة حقا .. كيف ترحب بارسال مخطوطك الأول الى شكسبير لكى يلعنك ، والى زوجته لكى تنقذك . وربما أرسلت نسخة منه أيضا الى عامل الآلة الكاتبة ليناقشها معك !.. اننى أشعر بالاكتئاب الى حد ما ، ولولا انك تبثيني غرامك لما اكترثت كثيرا بنفورك منى الآن . أما بالنسبة « للصلة » التى تربطنا ، فهى لا تعدو فلسفة تقول فيها : « افرغ من هذا الطفل بقليل من ماء الحمام » .. وهذا ما سوف تفعله مع كتابى .

شو : « يقترب منها ويتحدث اليها بصبر كأنه يتحدث الى صبى صغير » ..

دعينى أتحدث معك كما لو كنت أتحدث مع ابنتى تماما . ولنبدأ الموضوع من بدايته .. معروف أن نشر الرسائل الخاصة أمر غير مرغوب فيه من الناحيــــة الشكلية بين الشرفاء . ويزيد من صعوبة الموقف ، ان تكون هذه الرسائل غرامية . وتتحول هـذه الصعوبة الى استحالة ، اذا كانت هذه الرسائل متبادلة بين رجل متزوج وامرأة ليست زوجته . وهذه المرأة تحب هذا الرجل فى الوقت الذى يعلم فيه الجميع انها فى عصمة زوجها .. سوف يتهمه الجميع بأنه وغد ذميم اذا بادر هو بنشر هذه الرسائل .. واذا حاولت هى من جانبها نشرها ، فسوف يصفها الجميع بأنها فاسقة .

« يتراجع غاضبا ، ويقف خلف المكتب » ..

وبعد أن كشفت لك النقاب عن الموقف برمته ، فانك ما زلت مصرة على نشر هذه الرسائل .. تماما كما لو

كنت تسألين .. لماذا لا تنشلين النـــاس ، أو تبيعين نفسك للمارة فى الطرقات ! ..

« يدير ظهره للجمهور ، وقد تجهم وجهه » .

كامبل : حاولت من جانبى أن أسحب رسائلى من مؤسسة « هتشينسون » ، ذلك اننى ما كدت أرى وجهك متجهما وسحنتك متفيرة ، حتى قررت سريعا أن أسلك معك ساوكا مهذبا . ويمكنك أن تخبر «شارلوت» انه لا داعى للقلق . وسوف أحزم حقائبى وأرحل الى أمريكا ، اذا تطلب الأمر ذلك . واننى على استعداد لتعويض الأضرار التى تلحق بك .

شو : اننى احاول أن أجنبك هذا الحرج . ولقد ألقيت بنصائحى خلف ظهرى ، بعد أن توليت الأمر بنفسى ، ولن يلومك أحد الآن . واذا قمت بنشر الرسائل ، فضعى « شارلوت » فى حسابك ، فان أخشى ما أخشاه هو أن ينفطر قلبها بالأسى عندما تجد أن زوجها قد أصبح أعظم الحمقى فى هذه المأساة التى تقومين ببطولتها .

كامبل : اننى أحترق بحمرة الخجل التى تسببها لى

وقاحتك المخزية حتى اننى لم أعد أشعر بالبرد القارس . لقد أفسدت كتابى ، وشوهت قصتى ، وأخفيت عن العالم ذلك الشيء الوحيد الذى يجعله رائعا ، وهو « عبث الأسود الطاهرة » . أتمنى أن تلقى فى جحيم دانتى لتتجمد فى بحر من الثلج ، ولن أكترث كثيرا بك هل سرقوا منك ورقة التوت حقا ؟ انك لم تكلف نفسك وضع ورقة التوت لتستتر بها رسائلك .

شو : « يتحدث اليها وهو يوليها ظهره » ..

حسن .. هل انتهيت ؟ ألم تصلك أى رسالة من « بينيرو » أو أى مؤلف آخر؟ انهم سوف يغضبون اذا أهملت رسائلهم ، هذا اذا كانوا يجيدون كتابتها . انك فى حاجة الى مزيد من الرسائل الغرامية . أن جمالك الفتان لن يتألق بصيد واحد .. بعجوز أبله فى السادسة والخمسين . الا يوجد أبله آخر يحفظ لى صورتى فى أذهان الناس ؟

كامبل : انتظر حتى تقرأ رسائل « بينيرو » و « ماترلنك » و « أدموند جوس » و « هنرى جونس » .. الخ .. الخ وسيأسف « مخلصنا » لأنك أصبحت فى المرتبة الثانية . والمحزن حقا أنك تزحف على الأرض بدلا من أن تنطلق فى عنان السماء . وتحمل هذه الرسائل الرائعة للناشرين جريا وراء المال .. يا للفساد ... أف !

شو : « ستيلا » .. انت حمقاء .. حمقاء .. حمقاء

.. حمقاء ! هل تعلمين السبب من وراء نشر هـــذه الرسائل الرائعة كما تسمينها ؟ لأننى أرفض أن أستمر فى القيام بدور الحصان المعلق فى عربتك ! ..

« يسير عبر المسرح ، ويجلس على المقعد وقد عقد ذراعيه » .

كامبل : انها سورة الغضب التى تحملك على عيدان واهية وترفعك الى مرتبة السوبرمان التى تسعى اليها ، وان كنت تظن انك تتربع فعلا على عرشها . لقد وصلتنى رسائلى ، ولكنها لا تمثل شيئا منى أو تعبر عن مشاعرى .

لقد كنت أظن ان من يهوانى « مغازلا بارعا » ، ولكن مداعباتك لى لم تكن تعدو الأكاذيب . وقد اكتشفت فى نهاية الأمر اننى ارتبطت برجل عادى . رجل يظن ان الحب حماقة ، ولا يدرى ان هذا شرف له . ان الجاروف هو وحده الذى يعلم ما تحتويه قمة المدخنة . ولم تترك لى شيئا أفعله سوى أن أصرعك بمحرك النار .. سأمسك به بكلتى يدى وألطمك لطمة قاتلة ، ولن يشفع لك عندى تلك الشعيرات القليلة الباقية .. اننى سوف أنشر ما يروق لى ، فلو لم تكن صادقا فيما كتبت ، لما أقدمت على كتابته . اننى أشكر السماء لاننى أبقيت ما أبقيت وحذفت ماحذفت ، حتى تستطيع مواجهة الناس مرة أخرى . وعليك الآن أن تبدأ فى ترديد صلواتك ، فقد تسلمت الخطاب الذى تأذن لى فيه بالنشر . وليست هناك أية فائدة من التعامل معك بأسلوب « الجنتلمان » ذلك انك نقضت العهد ،

وهذه هى دائما لعبتك المفضلة . واحسرتاه على ذلك العقل المتوهج بالأفكار دائما أبدا ، وقد أصبح يسعى الآن خالى الوفاض .. فهذا هو شأنك الان . لقد قرات فى صحف الأمس خبرا يقول انك أصبحت مكروها ، ولو انك سرت فى دربى منذ البداية لأحبك الجميع كما أحبوا « لورد بايرون ، والكونتيس تريزا » . حاول فى المرة القادمة أن تغرى ممثلة ، ولكن لا تتخذها وسيلة لمنافقة « شارلوت » ، فهذا هو أسوأ سلوك أقدمت عليه . لماذا تحاول أن تسرى عنى ، بل لماذا نبحث عن السلوى معا ؟ ان الرجل الذى ينقض العهد لا يكون .. حسن .. سوى ايرلندى ! ..

« تتجه بحديثها الى الجمهور » ..

لقد صدر الكتاب محتويا على بعض الرسائل ، وان كنت بطبيعة الحال قد استبعدت كثيرا منها . وكانت طباعته أنيقة . وقد صرح الجميع بأننى كشفت للعالم عن شخصية « شو » الحقيقية .. « شو » الرجل . وكان « شو » يلقى فى ذلك الوقت نجاحا كبيرا ، اذ كانت تعرض فى جميع البقاع مسرحياته : « سوء التوفيق » ، و « الزواج » ، و « بيت القلوب المحطمة » ، وأخيرا « القديسة جون » . وعقب افتتاح مسرحيته الأخيرة بيوم واحد ، تلقيت منه رسالة بعد قطيعة غاضبة ، دامت ما يقرب من ستة عشر شهرا .

شو : «ينظر اليها نظرة صارمة .. قبل أن يقول » :

ما زلت على قيد الحياة ! ..

« ثم ينظر اليهـا مرة أخرى ، وينهض ليسير متجها نحو المكتب » ..

توجهت الى غرفة ملابس « ليال سويث » لأقول له كلمة أخيرة قبل رفع الستار ، ولكنه بدأنى بالحديث عنك مرددا انك أعظم ممثلة فى هذا العالم ، ومقسما انك مازلت جميلة كسابق عهدك ، وانك تقومين بتدريب حشـد كبير من الممثلين ليتعاونوا معك فى حفلات عرض مسرحية « هيدا جابلر » ومسرحيات أخرى . ولابد أن الرجـل قد أصيب بالجنون . والآن غفرانك . فقد ولدت على أديم نجم وهبك رأيا ثاقبا للحكم الصادق على الرسائل ولابد اننا قد ولدنا سويا على سطح هذا النجم . أليس مضحكا أن يعلم قلة من الناس بما وقع بيننا من خلاف . ولـكن بربك يا « ستيلا » ، يجب ألا يحدث هـذا بيننا مرة أخرى حتى تضمنا القبور ، ويضاف اسمانا الى قائمة « هيلوييز وأبيلار » وباقى العشاق . لقـد اختارتك السماء للقيام بدور الحية فى مسرحية « العودة الى متوشـالح » التى كتبتها خصيصـا لـكى يرددها صوتك .. اننى عندما أخبرت « اديث ايفانز » أن دورها يتطلب منها أن تدخـل المسرح وهى صلعاء ، عجوز ، نصف عارية ، ترتدى الأسمال البالية .. باعتبـار أن هذه الصفات كلها ستخطف أبصار الشباب الذى اعتاد ان يفتن بالجمال ويسير فى ركبه .. اعتنقت « اديث » كلامى ونفذته .. أما « سيبل ثورندايك » (١) ، فانها

(١) سيبل ثورندايك ممثلة انجليزية قديرة . نالت لقب « ليـدى » تقديرا لموهبتها الفنية . وقد أعجب شو بتمثيلها دور المتهمة فى أحـد المسرحيات ، ولذلك فانه عندما فرغ من كتابه مسرحية « القديسة جون » ، دعاها الى منزله وقرأ عليها المسرحية ثلاث مرات ، فأخـذت عنه النبرات المختلفة ، ولذلك فان ممثلة أخرى لم تتقن هذا الدور مثلها .

لم تدع الشك يتطرق الى عقلى لحظة واحدة ، من أن عظمتى فى الاخراج تتطاول على عظمة الثالوث المقدس بتفوق . ولم يحدث أن صادفت « سيدونز» و«شارل» مثل ذلك الثناء العاطر الذى صادفته «اديث» و«سيبل».
ليتنى أجد عندك من الايمان ما يوازى حبة الخردل !..
حسن ، ما علينا .. كيف حالك الآن ؟ هل تكسبين مالا كثيرا ؟ هل عاد حقا حبـــك العذرى ؟ هل تذكرين « تريستان وايزولد » وتنسين كل خلافاتنا الحمقاء ؟ وهل ساعدك الكتاب على التخلص من الديون ؟ و .. و .. و .. وما هو أسلوب حياتك الآن ؟ اننى سأبلغ الثامنة والستين فى شهر يوليو ، وهذا كل ما لدى من أخبار ، الى جانب ما تطالعينه فى الصحف .

كامبل : حبيبى العزيز « جوى » ..

وصلنى خطابك ، وكان مصدراً غريبا لسرورى . لقد در على الكتاب دخلا يبلغ ٢٥٠٠ جنيه . هل لك أن ترافقنى هـذا الأسبوع فى حفـل المساء لمسرحيـة « القديسة جون » ؟ أظن ان هذا اللقاء سيكون له أثر عظيم فى عـلاقتنا ! .. لقد قرأت كل المديح الذى كلل هامتك ، وكنت سعيدة به ، لأنك تغوص فى أعمـاق النفس البشرية . وهذا أروع ما وصلت اليه . حتى انك قورنت « بشكسبير » . وأجمع كل المعلقين على ان سر هذا النجاح هو شبابك . هل بلغت الآن الثامنة والستين ؟ لا ، بل قل انك فى الثانية والعشرين ، أما أنا ففى عمر جدتك . ولن أنسى « تريستان وايزولد » .. كنت أنت فى الحـادية والعشرين ، وكنت أنا فى

السابعة عشرة .. كانت الأنغام تتردد فى الأرجاء .. اننى أحس بشعور الفتاة السمراء التى قبلها الرجل الانجليزى ، فأسرعت لتخبر أمها ان «انجليزيا التهمها». ولكنها فى اليوم التالى ، عادت الى الانجليزى لتقول له : مزيدا من الالتهام ! ..

شو : « يوجه حديثه الى الجمهور » ..

لقد واجهت « ستيلا » أياما قاسية ، واتجهت عقب

الاضراب العام الى اعطاء محاضرات فى فن الالقاء المسرحى . وذاعت شهرتها فى أرجاء العالم كقطة متوحشة . وكان من الصعب عليها أن تحصل على أدوار فى مسرحيات جديدة ، لأن السن كانت تقف لها بالمرصاد ، وكانت الشروط قاسية ، والأقسى من ذلك انها كانت تحتفظ بكبريائها .

كامبل : فبراير عام ١٩٢٩ .

عزيزى « جوى » ..

اننى أكتب لك تحت تأثير احساس كبير بأننا واجهنا المعركة الكبرى فى أيام شبابنا ، ولم يبق لنا الآن ما نصارع به ، وعندما تتقدم بنا السن ، ولا نجد سوقا لتجارتنا ، فان الحياة تدير لنا ظهرها ، وتنهش أجسادنا . ان صاحب البيت يرفض دخول التلاميذ الى منزلى . وقد طلب منى أن استأجر مكانا آخر يصلح

لتعليمهم . حسن . انها مغامرة ضخمة للغاية . وربما أنفض يدى من هذا الموضوع لو بدأ عرض المسرحية التى ارتبطت بها . ونجحت فى الدور الذى أقوم به ، وهو دور عجوز يهودية فى السبعين تتكلم بلكنة تتزاوج فيها الاسترالية والفرنسية والشلختي (١) . هل تأتى لتقرأ على مسرحيتك الجديدة كما وعدتنى ؟ ..

شو : لا أستطيع أن أقرأ مسرحية لامرأة تتضور جوعا ، وآمل أن يصادفك النجـــاح فى دور اليهودية . وأرجو أن أتمكن من الكتابة عنها . أوه .. ما الذى يمكن أن نفعله من أجلك ؟ ما رأيك فى ريع نرصده لك ؟ أن « سـيبل ثورندايك » تقول : انه يوجـد كثير من الفنانين وهى واحدة منهم ، يحبونك ويودون مساعدتك ، رغم انهم لم يشـتركوا معك فى التمثيـل .. أيتهـــا الشيطانة . لقـد استطاعت المعونة أن تسـاعد « الين تيرى » على أن تعتزل التمثيل وتموت فى سلام .

كامبل : انا لا أتضور جوعا .. فأنا آكل أكثر منك . وأنا لا أطلب مساعدة من أحد . وقد حـدث عنـدما أرسلت الى « الين تيرى » شيكا بمبلغ ٢٥ جنيها ، أن بعثت الى بخطاب شكر بدأته بقولها : « عزيزتى! »

أخبرتك ان اسم المسرحية التى اقوم فيهـا بدور اليهودية هو « الأم المتسلطة » ، ولابد أنك قرأت عنهـا فى الصحف . واذا حققت النجاح فى هـذا الدور ، فسوف أوصم بالعار . ولذلك فلن أعقد أى اتفاق آخر

---

(١) لغة اليهود الالمان .

ما لم أكن راضية تماما عن دورى . حبيبى «جوى» أرجوك .. أرجوك .. أرجوك .. انت الذى كتبت لى ذات مرة اننى « صديقتك الى الأبد » .. ان تأتى لتقرأ على مسرحيتك ، سيكون الافتتاح فى الأسبوع القادم ، ويمكنك أن تحضر حتى الساعة الرابعة والنصف يومى الثلاثاء ، أو الجمعة .. أو يوم السبت .. فاننى أتحرق شوقا لمعرفة موضوع المسرحية .

شو : توجهت بالأمس الى المسرح لمشاهدة مسرحية « الأم المتسلطة » ، ولقد أنصفك النقاد ، بعد أن بعثت الحرارة فى خشبة المسرح .. برافو « ستيلا ! » لقد خلق الدور لك دون غيرك ، وبخاصة وأنت ترتدين الأسمال البالية التى جعلت منك مسخا شريرا ، مما ساعد على نجاح الدور .. ولكن ما هذه المسرحية ياسيدة الأحزان ؟ تقضين ساعتين فى واقعية لا فن فيها ، وأنت تؤدين دور المرأة الكريهة ، وتبذلين الجهد الكبير حتى لا يفر الجمهور من المسرح . ولو أردت الحقيقة العارية ، لأدركت ان الجمهور ظل فى مقاعده ليرى « مسز باتريك كامبل » وهى تثرثر، وكله أمل فى أن تتاح لها الفرصة لكى تقدم مشهدا دراميا. ان المشهد الوحيد الذى أعجبنى هو مشهدك وأنت فى ردائك الأحمر . أوه .. لو عرف « ج . ب . سترين » « أعنى ج . ب . ش . الصغير » أين تكمن عبقريتك الفنية !.. أخبريه أن يرى مسرحيتى الجديدة ليقف على مدى نجاحك الباهر فى المقاطع التى أكتبها خصيصا لك . وشكرا لك يا «سترين » اذ منحتها الحياة بهذا الدور . أما بالنسبة لمسرحيتى « عربة التفاح » ، فاننى

أشعر بالخجل من قراءة المشهد الوحيد الذى كتبته لك فى المسرحية .

كامبـــل : « تنهض » : ماذا تقول ؟ لقــد توجهت بالأمس الى حفل « سيلفريدج » ، وقد التقيت هناك بمس « اديث ايفانز » التى فغرت فاها دهشة عندما أنبأتها انها تسرق دورى فى مسرحية « عربة التفاح ».. وكانت المسرحيــة محور حديث الجميع . لقــد كانت فضيحة كبرى ، ولذلك رايت لزاما على أن أكتب اليك فى الحال .. انها مأساة وطنية ، بل اهانة مريرة .. الخ .. الخ .. « تبتعد » ..

شو : « مقاطعا » : لاداعى للثرثرة الآن حتى لاتصل الحقيقة الى أسماع العامة ، بل والصــحافة كلها .. واحتفظى بالأمر سرا بيننا .

كامبل : كيف يــكون سرا بيننــا ، وقــد أخبرتنى « اديث ايفانز » انها تؤدى دورى فى المسرحية ؟

شـــو : ان الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تخمين من جانبها . وربما توجد ممثلات أخريات يتخيلن مثلها انهن يعرفن الحقيقة . وليس هناك من يعرفهــا ســوانا .. أنت وأنا ! ومهمتنا الا تصل اليها الصحف .

كامبل : لا ياحبيبى « جوى » .. أتمنى لو استطعت الحصول على النص لأناقش الأمر مع المحامى .. فأنا على يقين من انها تضم بعض التلميحات التى تشير الى

علاقتنا . انك تشهر بى ، ولذلك سأحاول منع عرضها .

شو : لا أشعر اننى أخطأت باستخدام هـــذه التلميحات .. فهى تساعد على نجاح المسرحية .

كامبل : أوه ! .. انت دجال !

« تعبر المسرح متجهة الى النافذة ، وتتطلع عبر الفضاء » ..

شو : حقا ، كل واحد فينا دجال! لماذا لم تستفيدى منى كما استـــفدت أنا منك ؟ ! هل تذكرين مسز «هزيون هشاباى» فى مسرحية «منزل القلوب المحطمة » ، والحية فى مسرحية «العودة الى متوشالح» التى استمعت اليها بصوتك . كذلك فانك لم تذكرى لى « اليزا ».. هل تظنين ان كل هؤلاء البطلات مجرد دعاية ؟ لقـــد توهمت انك مصاصة دماء وأنا الضحية ، ولـكنى أنا الذى مصصت دمك حتى ترهلت ، وفقدت أنت كل شىء . وسأكون منصفا مع هذه المسرحية ، كما كنت أنت منصفة مع رسائلنا . ستشاهدين هذه المسرحية ــ حبيبى الـكذاب ــ وقد حازت اعجاب الجميع كما حازت اعجابى . انها تذكرنى بالأيام السالفة التى أمضينا فيها فترات بعد الظهر سويا فى بيتك بميدان كينسنجتون والآن ، ألا تدهشك ما تميزت بها تلك اللقاءات من النقاء والطهارة ، رغم كل هـــذه الضجة التى تثور حول علاقتنا ؟ ! .. سأحضر لزيارتك فى البيت ، وســوف نقوم بقراءة المشهد سويا بصوت عال ..

« بسير ناحية « ستيلا » وهو يحمل أصل المسرحية » ..

اليك المسرحية ..

« تأخذها فى تذمر » ..

أنت تمثلين دور « أورينيثا » . المشهد تدور أحداثه فى غرفتها ..

« بحرك مقعدها حتى منتصف المسرح » ..

أنت الآن تجلسين الى المكتب لتدوين بعض الملاحظات . كلك فتنة وجاذبية وثيابك جميلة وساحرة . والمكتب موضوع لصق الحائط بينما ببدو ظهرك للجمهور .. وهنا يظهر الملك « ماجنوس » وهو ينتظر على باب الغرفة .

كاميل : « فى دور أورينثيا » : من هناك ؟ ..

« تجلس على المقعد وتقرأ » ..

شو : « فى دور ماجنوس » : جلالة الملك .

كاميل : « فى دور أوربنثيا » : قل الملك انني لاأرغب فى رؤيته .

شو : «فى دور ماجنوس» : انه ينتظر لحظة سرورك،

ولذلك جاء ليجلس الى جوارك .

« يسحب مقعدا ويضعه قريبا منها » ..

كامبل : « فى دور أورينثيا » : ابتعد عنى .. «لحظة صمت » . لا أريد أن أتحدث معك .. « لحظة صمت أخرى » . سأتخذ لنفسى منزلا بعيدا اذا كنت تظن انه يمكنك أن تقتحم الأبواب ما دمت فى قصرك ، أو اذا كنت لا تسلك سلوك النبلاء .

شو : « فى دور ماجنوس » : ياحبيبتى .. ماسبب غضبك اليوم ؟ ..

كامبل : « فى دور أورينثيا » : اسأل ضميرك ..

شو : « فى دور ماجنوس » : عندما يصيبك الجزع ، يفزع ضميرى . يمكنك أن تخبرينى اذن ؟ ..

كامبل : « فى دور أوربنثيا » : انظر هناك الى هذا الكتاب . « تريه الكتاب » .

شو : « فى دور ماجنوس » : ما هذا ؟ .

كامبل : « فى دور أورينثيا » : اقرأ الكلمات الثلاث الأولى .. اذا كانت لديك الشجاعة .

شو : « فى دور ماجنوس » : الى حبيبتى. أورينثيا

كامبل : « فى دور أورينثيا » : الاسم الذى تعمدت ان تخترعه خصيصا لى أنا المرأة الوحيدة التى لك فى الدنيا . هذا الاسم التقطته من سلة المهملات فى مكتبة لبيع الكتب القديمة فى حين انى ظننتك شاعرا . انت ملك الكذابين والمخادعين .

« ثم تعود الى دور كامبل » : هـذا صـحيح ياعزيزى « جوى » .

« ثم فى دور أورينثيـا » : الا تدرك ان مثل هـذا الزيف يجرح كبريائى ؟ « ثم تبتعد عنه » ..

شو : لا حاجة بك الى مثل هـذه التعليقات .. ياعزيزتى « ستيلا » . « فى دور ماجنوس » : يجب ألا تدعى انك قد جرحت اذا كان ذلك لم يحدث فعلا. اننى أشعر بالألم يعتصر قلبى .

كامبل : « فى دور أورينثيا » : منذ متى كان لك هذا القلب ؟ هل اشتريت قلبـا قديمـا مستعملا . « لنفسها » أحب ذلك القلب .

« تعـود الى دور أورينثيا » : انصت الى يا ماجنوس .. لم لا تكون ملكا حقيقيا ؟ ..

شو : «فى دور ماجنوس» : وكيف الوصول الى ذلك ياحبيبتى ؟ ..

كامبل : « فى دور أورينثيـا » : انت فى حاجة الى

ملكة حقيقية .. اذا كنت ترغب حقا فى أن تكون ملكا حقيقيا ! ..

شو : « فى دور ماجنوس » : ولـكن لى ملـكة .

كامبل : « فى دور أورينثيا » : أوه .. انت أعمى ، بل أسـوأ من الأعمى . وتتميز بحقارة الذوق .. فالسماء تقـدم لك وردة ، ولـكنك تأبى الا أن تتعلق بقنبيطة .

« فى دور مسز كامبل » : هل هـذا يلائم « شارلوت » .. ياعزيزى « جوى ؟ » ..

شو : انهـا استعارة موفقة يا عزيزتى .. فالرجل العاقل لن يرضى أن يعيش مع القنبيط ، اذا كان عليه أن يختار بين الورد والقنبيط . وفوق ذلك .. يجب عليك أن تعلمى ان الرجل لا يسأم زوجته ويهجرها لأنها فقدت ملامحها الجميـلة ، ولـكن لأنه وجـد فى الحب الجديد فيما أكثر مما وجده فى الحب القديم .

كامبل : لماذا تخبرنى بذلك ؟ ولماذا لم تخبر الأخريات برأيك ؟

شو : لماذا ؟ .. لأنك تزوجت مرتين ، وكل واحد من هذين الزوجين فر منك الى أحضان امرأة أكثر غبـاء وسذاجة منك ! ..

كامبل : هل اخبرك بالسبب الذى دفع بكل واحد منهما الى عدم مشاركتى حياتى ؟ ذلك اننى كنت اعظم منهما شأنا وأرفع مكانة ، فلم تقو أعصابهما على مسايرتى فى الحياة .

شو : عجبا . . لديك هذا الضمير الالهى الذى يضفى عليك بهاء وهو فى غنى عن أى دليل لتأكيد وجوده .

كامبل : هل تسخر منى يا « جوى » ؟ أنت تعلم أن « بات » لم يهجرنى ولكنه قتل بشرف فى حرب البوير .

شو : عزيزتى « ستيلا » . . اننى لا أقصد ان «بات» و «جورج» هما زوجا « أورينثيا » وانما أقصد ملايين الرجال الذين قتلتهم حرقة الأشواق ، بعد أن عجزوا عن التهامك .

كامبل : فاسق ! . . يجب ألا يكتب هذا المشهد ! . .

« تلقى بالنص أرضا ، ولكنه يلتقطه ويقدمه اليها »

شو : أرجوك . . استمرى فى القراءة ياعزيزتى « ستيلا » !

كامبل : « فى دور اورينثيا مرة أخرى » : ماجنوس . . متى تستطيع مواجهة ما حكم به القدر بينى وبينك؟

شو : « فى دور ماجنوس » : ولكنك نسيت زوجتى؟

ماذا يكون مصير الملكة « جمينا » ؟

كامبل : « فى دور أورينثيا » : أوه .. اغرقها .. اقتلها .. اطلب الى سائقك أن يلقى بها فى الجحيم ويدعها هناك . ان هذه المرأة تجعل منك أضحوكة .

شو : « فى دور ماجنوس » : لا أظن اننى أستسيغ ذلك . كما أن الشعب سوف يرى انه ليس من الشهامة أن أفعل ذلك .

كامبل : « فى دور أورينثيا » : أوه .. انك لم تدرك قصدى .. اننى أعنى أن تطلقها أو أن تدفعها الى أن تطلقك . وهذا أمر يسير جدا ، ويستطيع أى انسان أن يفعل ذلك اذا احتاج الى أى تغيير .

شو : « فى دور ماجنوس » : ولكنى لا أستطيع أن أعرف كيف أعيش بدونها ! ..

كامبل : « فى دور أورينثيا » : ولا أحد يستطيع أن يتخيل ماذا تفعل معها ..

«فى دور ستيلا» : وانت ماذا تفعل ياعزيزى «جوى؟»

«تعود الى دور أورينثيا» : يمكنك أن تزور «جمينا» كلما أردت .. عندما نتزوج .

شو : « فى دور ماجنوس » : هذا كرم أخلاق منك

ياعزيزتى « أورينثيا » ولكنى أفضل أن أتزوج الشيطان من أن أفعل فعلتى . ليست وظيفتك أن تكونى زوجة.

كامبل : « فى دور أورينثيا » : انت تظن هذا لأنك تفتقد متعة الخيال . اننى أستطيع أن أمنحك السعادة التى لم يستمتع بها أى رجل على الأرض .

شو : «فى دور ماجنوس» : اننى أتحداك أن تمنحينى مزيدا من السعادة ، أكثر من تلك التى حققتهـــا لنـــا علاقتنا البريئة .

كامبل : هذا غير معقول ! « تلقى بالنص على الأرض»

شو : اسمعى .. لم يبق الا القليل « ويواصل قراءة باقى النص » .

ويتكلم « ماجنوس » وهو يتطلع الى ســـاعته : على الآن أن أعود الى عملى ..

فترد عليه « أورينثيا » قائلة : ما هو ذلك العمـــل الهام الذى ينتزعك منى ؟

ـ لا شىء البتة ! ..

ـ اذن .. اجلس ..

ـ حسن .. ولـكننا تتنـــاول الشـــاى فى الرابعة والنصف .

فتقول محاولة أن تبقيه معها : اترك موضوع الشاى الآن ! .

ــ انت تحاولين تأخيرى عن موعد الشاى حتى أسبب الضيق لزوجتى ! ..

يحاول ان ينهض ، ولكنها تجذبه وتجلسه . يقول لها :

ــ دعينى أذهب .. من فضلك .

ولكن « أورينثيا » تمسك به قائلة : هل تخاف من زوجتك .. أيها الزوج الخنوع ؟ ..

ــ زوج خنوع !.. لماذا تقولين ذلك ؟. على الأقل.. ان زوجتى لا ترغمنى على البقاء بالقوة .

.. « يحاول ان ينهض فتجذبه مرة أخرى . »

ــ هل أنادى الحرس ؟ ..

ــ أفعل .. بربك افعل .. وستكون الفضيحة على صفحات الجرائد غداً .

ــ أنت شيطانة .. يا أورينثيا ! اننى آمرك ..

وتضحك « أورينثيا » : ها .. ها .. ها ..

ـ حسن !.. أيتها الشيطانة ، دعينى أرحل ..

يحاول أن يخدعها ليهرب ، ولـكنها تطوقه بذراعيها وتضمه الى صدرها فى نشوة عارمة . واخيرا يسقطان معا على الأرض وهما يتقلبان . ويفتح البـاب فجأة ، ويدخل « سميرونيوس » السكرتير الأول للملك . يفغر فاه من هول الموقف ، بينما ينسدل الستار على هـذا المشهد الفاضح .

« يوجه الحديث الى كامبل التى جلست وقد

كسا وجهها فزع واضح » .

ما قولك ؟ ألم أكتب صورة رائعة عنك ؟

كامبل : ان الرجل المهـذب لا يستطيع أن يقبل ، ثم يذهب فيحدث الناس عن قبلاته . ألم تقل هذا مرة . مزق هذا المشهد .

شو : ماذا أفعل ؟ ..

كامبل : مزق هذا المشهد ، وأعد كتابته بكل صدق وأمانة ، بحيث تضم اليه الأحاديث المحـذوفة التى تبادلناها .. وكانت موجهة ضد زوجتك «شارلوت» . ان الناس سوف يتهمونك بأن تقدم السن والغرور قد سلبا منك القدرة على الحكم العادل .

شو : لقد أصبحت «أورينثيا» فى غير دورك ، ولذلك أحس فى نبراتك برياح الاستعلاء التى تلفحنى .

كامبل : هل انا أفعل ذلك ؟ هل تعرف من تكون ؟ انت ذلك ألذى يطلق عليه الاغريق اسم « امفيسبانيا » .

شو : وماذا يكون هذا الـ « امفيسبانيا » ؟ ..

كامبل : مخلوق له رأسان فى طرفى جسمه ، وكل رأس منهما يسير فى اتجاه مضاد للآخر .

شو : « يوجه حديثه الى الجمهور » .

ومضت سبع سنوات .. سنوات تقدم بنا فيها العمر ، وازددنا خلالها شراسة ، وتزايدت الجفوة بيننا ..

« يعيد الكرسى الى مكانه » .

وقد طلبها كثيرون للذهاب الى هوليوود ، طوال فترة القطيعة التى سادت بيننا ، وكانت ترفض دائما .. ولكن عندما ظهرت السينما الناطقة ، فكرت فى أن تقبل العرض ، ورحلت الى هناك ومعها أمتعتها . ولكنها لم تكن على استعداد لمواجهة الحياة فى جنوب كاليفورنيا رغم ترددها على أمريكا عدة مرات مما دفعها الى الاعتقاد بأنها على صلة وثيقة بها . وكانت تنظر الى

ملوك وملكات السينما فى هوليوود ، رغم شهرتهم كنجوم ، على انهم مجرد أسماء .. حتى انها لم تستطع أن تتمالك نفسها من السخرية منهم عندما التقت بهم فى حفلات « بيفرلى هيلز » .. فقد سألت « جون كراوفورد » ماذا تفعل .. وقالت « لجون جلبرت » الذى يعتبر أحب نجوم الأفلام الصامتة : أيها الرجل الصغير .. من واجبك أن تحاول التمثل فى الأفلام الصامتة . وكان سلوكها سيئا عند الاستعداد للتمثيل. واليكم قصة فيلمها الأول .. فقد وقفت فى البلاتوه ، وطلبت المخرج الذى سألها : كيف حالك ؟.. فقالت : حسن .. هل لك أن تخبرنى بتفاصيل القصة حتى أناقشها معك .. فأجاب : فعلا .. انت تقومين بدور أرملة بحار ، فقط أنت لا تعلمين بموته ، وانما تنتظرين عودته . أولا سأسرد عليك دورك فى المنظر الأول الذى نقوم بتصويره .. انت تدخلين الغرفة ، وتغلقين الباب وراءك ، ثم تمضين الى المنضدة لتلتقطى المنظار وتتطلعى من خلاله الى البحر .. هل ترين انه يمكنك تأدية هذا الدور ؟ .. فأخبرته بانها تظن أنه يمكنها تأديته .

فأجاب : اذن ، سنبدأ التصوير فى الحال . ودارت آلات التصوير ، ودخلت « ستيلا » الغرفة ، والتقطت المنظار وسارت تجاه النافذة ، ورفعته الى عينيها ، ثم توقفت واستدارت الى المخرج لتسأله : أى عين انظر بها خلال المنظار ؟ ! ..

ولا حاجة الى أن أقول انها لم تكن محبوبة من الجميع . وأخذت الأدوار التى يعهد اليها بها تتضاءل

وتتضاءل حتى لم يعد لديها مال تنفق منه . أوه لقد حاول الناس مساعدتها ، ولكن لا فائدة ترجى. وقال « اسكندر وولكوت » عنها : انها تشبه الباخرة التى تغرق الى الأعماق ، بينما يحرق لهيبها كل من يحاول انقاذها ! ..

وبقيت فى صحبة كلبتها «مونبيم» ، ورفضت أشياء كثيرة من أجلها ، ولم تعد الى انجلترا بسبب قانون الحجر الخاص بالكلاب ، فهى لا تستطيع السفر بدونها . واقترحت عليها أخيرا أن تقوم بدور صغير فى مسرحيتى « المليونيرة » ، وهى من اخراج نقابة المسرح ، ولكنها ظنت انهم يوجهون اليها الاهانة ، ولذلك رفضت أن تذهب الى هناك .

« يضع الكرسى الى جانب المكتب » ..

وفى ابريل عام ١٩٣٥ ، بدأت تعيد التفكير فى المسرحية بعد ما سمعته عنها ..

« ويعود الى المكتبة » ..

واخشى أن يكونوا قد طلبوا اليها القيام بدور البطولة فى المسرحية ، وهذا ما كتبته فى خطابها الذى أرسلته

الى من هوليوود ..

« يعود ليجلس على مقعده » ..

كامبل : « تردد العنوان وهى تسير ببطء ناحية المقعد لتجلس عليه » ..

برج الفروب ـ طريق الفروب ـ هوليـــــوود ـ كاليفورنيا .

عزيزى « جوى » ..

غمرتنى مشاعر السعادة عندما تسلمت رسالتك . ان نقابة المسرح وفكرة التعاون معها ، أمر غير محتمل . انهم يعاملون الفنانين مثل بالات القطن . أبعث مع خطابى هذا بصورة لى التقطت منذ ستة أشهر ، وأرى اننى ما زلت محتفظة بكيانى ، فهل ترغب حقا فى أن أقوم بدور فى مسرحية « المليونيرة » .. أليس هذا رائعا ؟ اننى لا أعلم تفاصيل الدور . لا اعرف شيئا عن الحوار أو الأحداث . لقد علمتنى هوليوود وصناعة السينما ألوان المذلة والهوان العميق ، فلا داعى أن يخشانى احد . هل تعلم اننى قمت بالعمل ثلاثة أشهر خــلال الستة عشر شـــــهرا التى قضيتها فى هوليوود . أن المسئولين يرددون دائما ان شهرتى لا تناسب الأدوار الصغيرة ، وان لهجتى لا يفهمهـــا أهالى « كالامازو » و « بوث مونتانا » و « سيتل » . وكلما قرعت باب وكلائى وجدتهم يقولون لى : ان مترو جولدوين ماير ، تفكر فيك ، ولكنها لا تجـد الدور الملائم لك . اننى لو اعتزلت هذه الحياة ، فانه يمكننى أن أعيش فى فلورنسا ، ولــكننى لا أستطيع أن أكتب دوافعى . أليس غريبا اننى لا أكترث كثيرا اذ أتطفل عليك .. لأننى فى ضائقة

مالية !.. أستطيع أن أعيش لمدة ستة أشهر ، ولكن لن يصلنى أى مورد قبل مرور ستة أشهر أخرى ، فهل تمد لى يد المساعدة ؟ اننى لم أعد أهتم كثيرا ، اذ أجد نفسى لا أحارب فى ميدان المعركة حتى النهاية .. ولكن أن أترك فى خضم هذا الفضاء وحيدة فى هذا المكان ، فهذا ما لا أستطيعه فعلا . انظر الى كلبى « مونبيم » .. هل يطاوعك قلبك على أن أتركه فى الحجرة ستة أشهر ؟ هل زرت مثل هذا المكان من قبل ؟ هل يكتب على هذه المخلوقات الرقيقة أن تقاسى ضباب نوفمبر ، والظلام ، وبرد الشتاء القاسى ، دون أن تسمع الأصوات الأثيرة الى قلوبهم ؟ فكر فيما يعنيه كل هذا بالنسبة لكلبى. لقد راقبته وهو ممدد أمامى، وأحسست بهذه الأهوال تدب فى أوصالى ، ولهذا اتخذت قرارى بأن أضع مسئولية كلبى أمام الأمة ، ومستقبلى ، لأننى ربينه ، فكيف لى أن أخونه ! انتبه لنفسك يا عزيزى « جوى » وتكاسل قليلا .

حبيبتك الوفية .. « ستيلا »

شو : ١١ أغسطس ١٩٣٧ ..

لقد تقدمت بى السن ، وأشعر بالوهن وأنا أقترب من نهاية الحادية والثمانين ، ولذلك أجدنى مضطرا لتصفية ما لدى من الأوراق قبل أن تقترب منيتى .. وقد وجدت اننى قد ارتكبت اثما ، فقد احتفظت بجميع رسائلك رغم انثى عاهدت نفسى ألا أحتفظ الا بالأوراق الضرورية التى تذكرنا بعملنا . كذلك فقد

احتفظت برسائل « الين تيرى » لأن جمال خطها منعنى من حرقها.. تماما كما لو كنت أنوى حرق مجلد فرنسى عن القرن الخامس عشر .. على اننى لم أشعر بمثل هذا السبب وأنا أقلب رسائلك ..

« ينهض » ..

لقد عزمت على شراء صندوق جميل من ذلك النوع الذى يحتفظون فيه بالمجوهرات ، وذلك لكى أحتفظ فيه بجميع الرسائل . ولكننى لم ألبث أن وجدت ان أسهل وسيلة وأكثرها أمنا ، هى أن أضع الرسائل فى مجموعة من الخطابات المسجلة ، وابعث بها اليك حتى يمكنك أن تحتفظى بين يديك بجميع المراسلات التى تبادلناها . وهى لاشك ستكون لها قيمتها لديك ، اذا احتجت الى بيعها .

« يسير نحو المقعد ، ويبدو وقد تقدمت به السن » ..

وأسعدنى كثيرا أن أعلم من خطابك ــ ما كنت أود ألا تفضى به ــ انك ما زلت « ستيلا » العزيزة .. وأنا بدورى أود من أعماقى أن أظل « جوى » العزيز ، ولكن على الآن أن أرضى ، فلم يعد لى من سمات الرجل .. الا البنطلون .

« يجلس » .

كامبل : « تخفت الأضواء المسلطة على « شو »

أثناء الحديث التالي » ..

نيويورك ــ أغسطس ١٩٣٧ ..

عزيزى « جوى » ..

انني فى انتظار وصول رسائلك المسجلة . انني أشعر بقبضة قوية تعتصر قلبى ، ويدفعنى حنين طفولى الى اعادة قراءتها . ولست أدرك السبب الذى يدعوك الى أن تنشر رمادك ورماد « شارلوت » قبل أن تنشر رسائلك الى . دعهم يقرأون رسائلنا الآن ، فخلال الخمسين سنة القادمة سيحيا الانسان فى الفضاء ، ولن يتاح لأحد قراءة الكتب الا البقية الباقية من العامة الذين يعيشون فى عصر الجاز والقطارات . كنت تفرد لى دائما وأنت تكتب رسائلك، ولذلك سيجد المسافرون بالطائرة فى رسائلك خير رفيق . انها أغنية الموسم ، ولن يقبل عليها أحد اذا انتظرنا خمسين سنة أخرى حتى ننشرها على الناس . هل بلغت الحادية والثمانين؟ يا له من عمر ! تذكر عمر هذه الأغنية التى يرددها صوتك .. واحد وثمانون عاما أو يزيد . أن « جيمس بارى » (١) وآخرين يتوقفون عن الرحيل انتظارا لهذه الأغنية . وقد خصص لى « بارى » مبلغ خمسمائة جنيه سنويا ، أدفع منها مبلغ ٨٣ دولارا أجر اقامتى فى

(١) جيمس بارى : « ١٨٦٠ ــ ١٩٣٧ » الكاتب المسرحى والقصاص الاسكتلندى الشهير ، وكانت له طريقة اشتهرت باسمه فى كتابة القصة والمسرحية ، وهى طريقة تمتزج فيها العاطفة والخيال مع واقع الحياة . وذلك كله فى اطار فكاهة رقيقة حلوة

الفندق ، فى غرفة أشبه بالثلاجة . اننى أرسل اليك صورة لـكلبى ، لعل قلبك يلين ، وأرسـل لك أيضا فصلا من كتـابى ، فاذا طالعته أمكنك أن تدرك سبب فرارى من هوليوود ، واللجوء الى كابين يقع على ارتفاع سبعة آلاف قدم من سطح البحر . لقد أمضيت شهورا رائعة ، واستمتعت بجمال الطبيعة الخلاب ، وعشت مع كتابى أخط فيه الصفحات ليلا ونهاراً . ولـكن يا للأسف .. لقد أصبت بارتفاع ضغط الدم ونوبات من الاغماء . وقد شـخص الطبيب حالتى بأنها « عمـل متواصل ومجهود كبير للغاية » . وقد تعودت مديرة البيت أن تقبل كل يوم على أطراف أناملها لتسألنى ، وأنا أفتح عينى : لقد ظننت انك قد مت ، ولـكننى أجدك تبتسمين ، وأرى كلبك يهز ذيله ! .. ومرة همست فى أذنى : لقد اقتصدت من أجرى ، فاذا كنت فى ضائقة مادية ، فأرجو الا تمنعك الـكبرياء من طلب المعونة .. ولـكننى لم أطاب منها أن تتوقف عن الاسترسال فى مثل هذا الـكلام . انها مخلوقة كريمة وطيبة القلب .

اقدعدت الى نيويورك، واقمت فى هذا الفندق الصغير ومكثت فى الفراش طوال تسعة أسـابيع . وقد عثر « جون جليجور » على هناك ، فجاء لزيارتى وهو يحمل باقة من الزهور ، والدموع تترقرق فى عينيـه ، ثم صحبنى فى جولة قصيرة فى سيارته ، ومد لى ذراعه لأستند عليها ونحن نسير على مهل ، بينما كلبى يحوم حولنا . وقد طلب منى أن أرى « هامات » وأنقدها ، فأجبته الى طلبه . وما أشعر به الآن هو الراحة .. الراحة التامة . لقد عدت توا من التمثيل فى مسرحى

« كوهاست » و « كوتيكستيكت » وكان عزائى هو ما لقيته من ترحيب وحماسة لدورى الذى أقوم به كل ليلة.

لا أتوقع أن ترد على رسالتى هذه ، وكل ما أود ان تعرفه هو أسلوب حيـــــاتى خلال السنوات القليلة الماضية . انها عواطفك التى كانت عزائى فى محنتى ، والتى كانت تدفعنى بعيدا عن الهاوية التى يمكن ان اتردى فيها ؛ وتضعنى فى مكان قريب منك .. وأنا جد فخورة بذلك ..

شو : « يوجه حديثه الى الجمهور » ..

سقطت صريع المرض قبل أن اجيب عن رسائلها التى مست شغاف قلبى ، ورددت بعض صحف نيويورك نبأ موتى ، واحاطته بتنهدات الراحة من أقسام التحرير ، ولـكنهم اكتشفوا زيف الخبر .

كامبل : لاجوردى جاردا .. مايو ١٩٣٨ ..

عزيزى « جوى » ..

قرأت خبر مرضك فى صحف نيويورك ، وقد قمت برحلة الى ايطاليا ، أفادتنى كثيرا .. تركت أمريكا على ظهر باخرة حتى وصلت الى بولينا . وقد شعرت بآلام الروماتيزم فى ركبتى ، ومكثت أقاسى طوال عدة شهور وكان قد نصحنى الطبيب فى أمريكا ان أســـتند الى « عكاز » طوال ثمانية عشر شهرا ، ولكن الطبيب الايطالي

ابتسم قائلا : لن يمضى خمسة عشر يوما حتى أراك ترقصين .. وفعلا ما كدت أقضى اثنى عشر يوما بين أكياس الطين المشبع بالراديوم حتى شفيت تماما . ولكن ما يهمنى حقا هو أن تتحسن صحتك ، لأن أمرك يزعجنى كثيرا .

شو : « ينهض » : انه عصر المعجزات ..

« يسير ناحية المكتب » : عدت الى مكتبى مرة ثانية . وقد عالجنى الأطباء الذين كانوا ينقضون على كل خمسة عشر يوما لطعنى بحقنة تحت الجلد.. وفى الوقت الحالى ، فاننى ما زلت حيا . ولو اننى أرى فى الابقاء على حياتى ، بعد أن بلغت الثانية والثمانين ، تدخلا سافرا فى شئونى .

« يجلس على المقعد » ..

ولكن على أية حال .. فان الرفيق « هتلر » موجود ، ويمكنه قتلنا اذا لم يقم الأطباء بهذه المهمة ! ..

كامبل : عزيزى «جوى» .. توقف عن هذه الخيالات المضحكة عن تقدم العمر ، فلا أظن انك ستفقد العظمة التى تتوج حياتك وهى تغرب. لقد بلغنى نجاح «بيجماليون» بعد اعدادها للسينما ، ولابد انك ستصيب كسبا ماديا كبيرا ولكن ماذا ستفعل به ؟ هل تذكر الجهد الذى بذلته في بداية حياتى الفنية ؟ كان ذلك منذ ثلاثين عاما !

لقد حملت المسرحية الى ، وأخبرتنى اننى سأقوم بدور «أليزا» .. هل تذكر سيل الشتائم الذى كنت تصبه على رءوسنا أثناء التدريبات !.. لقد قتلت « ترى » تقريبا عندما استعملت هذا التشبيه التالى : « ترى .. يجب ألا تكونى شجرة معوجة ! » . وطبعا نسيت هذا الأمر تماما ، أو ربما تكون قد أرسلت هدية عيد الميلاد . غير انك ظللت تردد على الأسماع اننى لا أصلح للمسرح ، لأننى لم أستطع الاستمرار دقيقة واحدة ..

« تنهض وتسير الى مقدمة المسرح ، وتتحدث الى الجمهور » ..

... ولكنى وقفت على قدمى ، وتقدمت حتى غمرتنى الأضواء . وقلت : سأترك المسرح اذا لم يتركه

« مستر شو» !.. وتجرأت على اتهامى باذلال الناس. هل يمكنك أن تخبرنى ماذا قدمت منذ غمست قلمك فى المحبرة ؟

« تعود لتجلس على المقعد » ..

شو : لو أتاح لى الزمن أن أكتب ذكرياتك ، لجعلت منك أشهر امرأة فى أوربا وأمريكا . لم يعد عندى مال ، وعلى أن أسدد للحكومة مبالغ كبيرة فى الشهرالقادم . ولم تدفع لى السينما أى مليم ثمنا لعرض فيلم

« بيجماليون » وعندما بذلت وساطتى لكى تعودى ، كنت أشبه بمن يسعى لعودة الشيطان نفسه.. ستكونين مصدراً لتعبى وتعب الآخرين . وشكرا للكلب الذى دفعنى الى بذل الجهود فى سبيل عودتك .. واذا واتتك القدرة ، فيمكنك تأليف كتاب تحت عنوان :

« لماذا لا يقوى أى مدير على التعاقد مرة أخرى مع ممثلة عظيمة مثلى ، اذا كان فى استطاعته ان يفعل ذلك ؟ » ..

ولكنك لن تستطيعى تأليف مثل هذا الكتاب ، بل ولن تفكرى فى تأليفه ..

كامبل : غير معقول ! لقد تعاقد معى « الكسندر » ست مرات وتعاقد «فوريس روبرتس» معى تسع مرات .. وتعاقدت أربع مرات مع « جيرالد دى موربيه » ومرتين مع « هير » وأربع مرات مع « ترى » ، ولكن لن أزعج نفسى بهذه الرغبات التافهة . وكل ما يشغلنى الآن هو مصير هذه الخطابات اذا اقترب منا سعير

الحرب . لقد رتبتها فى علبة القبعات ، وأخفيتها تحت السرير .. وهكذا أصبحت ياعزيزى « جوى » تختفى تحت سريرى !.. اننى أعيش فى هذه الغرفة الصغيرة ، وعندما وقفت أتطلع من النافذة ، طالعتنى حدائق التوليرز ، وتغمرنى شمس باريس بأشعتها ، وقد

تشابكت صفوف الأشجار الـكثيفة على طول الطريق. ولذلك فاننى أستطيع الخروج وأنا مبتلة وأيضا وأنا فى كامل أناقتى . ان دوق « وندسور » وزوجته يعيشان على بعد ثلاثة منازل من غرفتى ، ويبدو على وجهيهما كل مشاعر الراحة والهدوء .

انني أشم رائحة مسرحية أخرى لك .. وفى هـذه السن ! ..

شو : ان مسرحيتى الجديدة « جنيف » تبعث على الرعب !.. لقد وصفنى الناقد المهذب بأننى قرد محترم يخفى عن الجمهور ما يحمـله من جوز الهنـد . وقد ذهبت لمشاهدة المسرحية ، ولـكننى خرجت منها وأنا أشعر بالألم ، وان كانت تناسب الممثلين . ان حفلات العرض مكتظة بجماهير المشاهدين ، كأنهم فى اجتماعات الانتخابات . على أن أكتب مسرحيات أخرى مثـل « جنيف » تلبية لرغبات الآخرين ، ولكن ذلك لم يكن فى وسعى ، فقـد زحفت الحرب وأنتهى الأمر . انت وحدك يا « ستيلا » التى خلقت « جوى » على المدى البعيد جدا .

كامبل : أنا خلقت « جوى » ؟ لقـد أثارتنى كلمـاتك المكتوبة ، ولو ان ما تقوله هو زيف ، ذلك ان «جون» مدع وخادع !.. لا عليك . ان أدع وقتك يضيع هباء بمزيد من رسائلى المضحكة . اننا سنلتقى فى السماء ، وسوف تنحنى لى . وسأكون كريمة معـك فأرد لك الانحناءة . وستقول الملائكة بعضها لبعض : « لم يعودا

يسخران أو يفسدان عالمنا الملائكى » ! ..

شو : « تبدو عليه السن الكبيرة وهو يتجه بالحديث الى الجمهور » ..

كتبت لى « ستيلا » رسالة واحدة ، ورددت على رسالتها بعد شهر .. هذا ما حدث بيننا . وكان خطابها مؤرخا بتاريخ ٢٨ يونية ١٩٣٩ . وفى ذلك التاريخ كان « هتلر » يحشد دباباته على خط ماجينو، واقتربت نيران الحرب العالمية الثانية منا . وارسلت خطابا الى «ستيلا» أخبرها فيه ان رجال السينما قد اختاروها للقيام بدور فى فيلم « الميجور باربرا » .. ترى ، هل ما زالت جادة فى العودة الى ميدان التمثيل ؟

كامبل : نعم ما زلت جادة فى العودة الى «الميدان» ، وان كنت لست فى نفس قوة رجل المدفعية . وقد قدمت نفسى الى المسرح الانجليزى للعمل فى مقابل خمسة وعشرين جنيها فى الأسبوع .. أو أقل . وارسلوا الى المسرحية لقراءتها ، وكان الدور يتطلب منى تمثيل شخصية أم يهودية لها ابن أبله ، هوايته قتل الفتيات الصغيرات ، واخفاء جثثهن فى سجادة أمه البالية . وكان على أن أردد الحوار التالى : يجب علينا ألا ندمه وحيدا .. وقد سألت المدير عن السبب الذى دفعه الى اخراج مثل هذه المسرحية ، فأجابنى : يجب أن نقدم لهم شيئا جديدا .. شيئا لم يسبق لهم رؤيته فى لندن . وقد أجاب المدير عن تساؤلى عن « هم » و « من » قائلا : « السائح الانجليز » لقد ظن المخرج انى « ستيلا

الصغيرة » ، ولم يصدق انني أبلغ الرابعة والسبعين من عمرى ، وان شئت الدقة فانني ولدت في يوم ٩ فبراير ١٨٦٥ . وأملي أن أرحل الى جنوب فرنسا ، وأعيش في ذلك الفندق الصغير بنفس الأجر .. فقط لو أعد اعدادا جميلا . هناك سوف أستمتع بأصوات العندليب ورائحة زهورالبرتقال.. لقد اعتدت البؤس والشقاء . والحقيقة المرة هي انني أفتقد الذراع التي يمكن أن أتوكأ عليها وأنا أعبر الطريق ، حاملة كلبي « مونبيم » فأتحاشي خوض خضم حركة المرور الرهيبة ..

« ستيلا »

« تبدأ الأضواء المسلطة عليها تخف قليلا » ..

شو : ٤ وايت هول كورت ..

٢١ اغسطس ١٩٣٩ ..

لقد تقاعد العملاق ، وزوجته تشكو من اللمباجو . كان « بسكال » يرغب في أن يعهد اليك بدور ، ولكنه عدل عن الفكرة لأنك لن تفترقي عن كلبك الا بعد ستة أشهر . بحق السماء ، متى يهلك هذا الحيوان البائس أو تصرعه سيارة . يجدر بك أن تشترى دبا عملاقا ، أو زرافة ، أو جاموسة ، أو كلب بحر .. أى واحد منهم يمكن أن يكون رفيقا لك في جولاتك ، وهذه الحيوانات كلها أليفة ، وان كان الجاموس يفضل الأطفال السود . يمكنك اختيار « شيتا » لأنني أنا شخصيا

ربيت قردا فى بيتى ..

« تطفأ الأضواء المسلطة على كامبل » ..

تواريت عن طريق « مالفن » هذا العام ، ولكن مسرحيتى الجديدة أحيت المهرجان . كانت تدور حول « شارل الثانى » . زوجته . اثنان من العاهرات . ممثلة اسحق نيوتن . مدير البيت وخادمه . الرسام كنيلر . جورج فوكس . وجيمس الثانى « دوق أوف يورك فى المسرحية » .

« تخفت الأضواء تدريجيا » ..

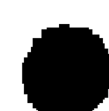
لقد توقفت عن الانتاج .. لقد أصبحت مسنا .. مسنا ..

ج . ب . ش

« ينطق كلمة « مسنا » الثانية فى الظلام » ..

ستـــــــــار

يرفع الستار وتسطع الأضواء ، ويقف البطلان ليضعا الرسائل فى الصندوق ، ثم يقومان بتغطيته وهما يتطلعان أحدهما الى الآخر ، وفى تلك الأثناء تسدل الستار ..



كتاب الهلال القادم :

اعرف نفســـك

تأليف : الدكتور ادوارد سبنسر كولز

ترجمة : الدكتور أمير بقطر

عدد خاص

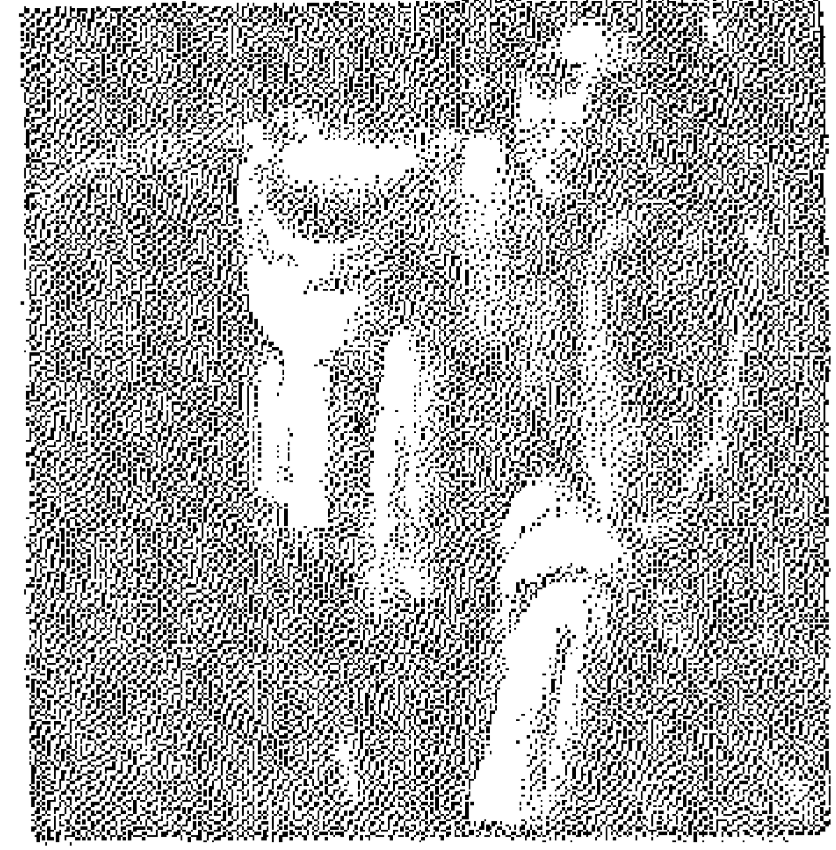
يصدر ٥ مايو سنة ١٩٧٨

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



هـذا الكتاب

كان الكاتب الايرلندى جورج برناردشو محبا رائعـا بقدر ما كان ساخرا عظيما • واذا كان شو قد استطاع ان يترك بصمته فى مجال السخرية اللاذعة فوق كل صفحات مؤلفاته ومن خلال قنوات احاديثه ومأثوراته ، فان هذا الرجل نفسه كان يجيد لعبة الحب كلاعب ماهر يتفوق فى فن العزف على اوتار القلوب •

وهذا الكتاب يروى واحدة من اكبر واغرب قصص الحب فى حيـاة برناردشو ، وهى قصة حبه للممثلة « باتريك كامبل » • وكان كلاهما صاحب باع طويلة فى دنيا الحب • ومع ذلك فان شو قد استطاع ان يخوض هذه الجولة بمنتهى النجاح • وربما كان الشىء الوحيد الذى غاب عن الطرف الاخر هو أن شو قد خاض هذا الحب من اجل نجاحه الفنى • لقد كان حريصا على أن يضع نفسه فى قالب عاطفى حار حتى يستطيع أن يكتب مسرحيته « بيجماليون » بقـدرات متفوقة فنيـا وعاطفيا • ولما كان يملك أدواته الفنية ، فقد راح يبحث عن الحب حيث وجده فى هذه الفتاة !••

ولذلك فقد كان المؤلف المسرحى « جيروم كيتلى » رائعا عندما التقط أوراق الحب المتبادلة بين قمتى التأليف والتمثيل ، لينسج منها هـذه المسرحية الذى أطلق عليها اسم « حبيبى الكذاب » • وهى المسرحية التى نلتقى معها بعد أن نتعرف على حياة برناردشو فى سطور موجزة ، وبعد أن نتوقف أيضا عند حياته العاطفية ، وهى حياة عريضة وطويلة ومليئة مثل حياة شو نفسه •

كتاب الهلال

اعرف نفسك

● د. سبنسر كولز ● د. أمير بقطر



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : **أمينة السعيد**

نائب رئيس مجلس الإدارة : **صبري أبو المجد**

رئيس التحرير : **د. حسين مؤنس**

سكرتير التحرير : **عايد عياد**

العدد ٣٢٩ - جمادى الأول ١٣٩٨ - مايو ١٩٧٨

No. 329 - Mai 1978

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربي والافريقي ١٥٠ قرشا صاغا · فى سائر انحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢ر٥ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية · فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب ·

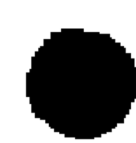
كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

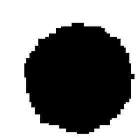
الغــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

اعرف نفسك

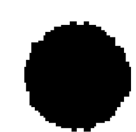


تأليف

الدكتور إدوارد سبنسر كولز



الدكتور أمير بقطر



دار الهلال

مؤلف الكتاب



دكتور ادوارد سبنسر كولز مدير مستشفى بارك افنيو بنيويورك وعضو الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم ، وأكاديمية الطب والعلوم بنيويورك ومؤسس ومدير مصحة الجسم والعقل بنيويورك .

ولد سنة ١٨٧٩ ، وتخرج فى العلوم الطبية من كلية رتشموند فى فرجينيا سنة ١٩٠٧ . ثم درس العلوم النفسية ، وطب الأمراض العقلية فى جامعة هارفارد. واشتغل مديرا لعدة مصحات للأمراض العقلية . وهو أول من عالج ادمان الخمر ، بطريقة بزل السلسلة الفقرية .. فنقلت عنه الى المانيا أولا ، ثم الى غيرها من بلدان أوربا وأمريكا . وقد ألف عدة كتب طبية منها : طب الأمراض النفسية ، سيكولوجيا التعليم الصناعى ، الدين وشفاء الأمراض النفسية ، طريقة جديدة فى شفاء الادمان المزمن ، طريقة جديدة فى علاج الأمراض العصبية وشفائها ، عيوب التربية الحاضرة ، ولا تخف ، الخ ..

والمؤلف شخصية محبوبة .. تجتمع فى بيته ندوة من ارقى رجال الطب وعلم النفس والأدب والصحافة والفن. ويزوره الكثيرون من الأطبـاء وأسـاتذة علم النفس للاطلاع على طريقته فى العلاج . وقلما يستطيع ترك عيادته أكثر من أسبوع .. يقضيه فى فلوريدا شتاء ، أو فى كليفورنيا صيفا . ومن الشخصيات المعروفة فى عيادته الكلب « نوبل» دانيمركى الأصل الذى يبلغ وزنه قنطارين ونصف قنطار ، وببغاء لا أذكر اسمه ، يخرج معه للنزهة جاثما على عصاه . ويقضى الببغاء يومه فى مكتبه طليقا بغير قفص أو قيد ..

ومن الطرائف التى أذكرها عن هـــذا الببغاء ، ان الدكتور كولز اعتاد كلما رآنى على مقربة من احـدى سكرتيراته قادما نحوه ـ أن يقول لى : « تفضـــل يا أستاذ » فأدخل عليه فى مكتبه ، والببغاء على مقربة منه ينطق ببعض العبارات من حين الى حين . وحدث مرة أننى سمعت عبارة : « تفضل يا أستاذ » كالعادة فأسرعت نحو المـكتبة ، ولكننى لم أجده فيها . فأدركت ان الببغاء كان فى هذه اللحظة يردد العبارة محاكاة وتقليدا لسيده ! ..

أمير بقطر

تعريف

بقلم الدكتور ماكس اينهورن

قرأت بمزيد الاعجاب والتقدير هذا الكتاب النفيس «التغلب على التعب والخوف» للدكتور ادوارد سبنسر كولز ، وشاقنى ما رأيت فيه من الفوائد الجمة ، لا لأولئك الذين فى حاجة الى الارشاد من المرضى وسواهم من الأصحاء الذين يفتقرون الى اصلاح حياتهم وحسب ، وانما للمشتغلين بالمهن الطبية الذين يهمهم أيضا انقاذ مرضاهم من براثن التعب والخوف

ومما زادنى اعجابا بهذا الكتاب ، مقدرة الدكتوركولز الفائقة على ايضاح الحقائق بعبارة سهلة سلسة لايتعذر فهمها على أحد . وفى خلال السنوات الطويلة التى تعاونت فيها معه فى علاج المرضى ، شهدت نجاح طريقته الفريدة ، ونتائجها الباهرة فى شفاء العلل المستعصية ، التى حار سواه من كبار الأطباء فى التغلب عليها . وكم شهدت المصابين بالوسواس والخجل والأفكار التسلطية والمخاوف بشتى أنواعها وغير ذلك من الأمراض العقلية ، يستردون ما كانوا عليه من الصحة والعافية فى أقصر وقت ، رغم ما لاقوه من العذاب الأعوام الطوال !

وتعتمد طريقة الدكتوركولز على مبادىء الطب العقلى البدنى المعروف باسم Psychosomatic Medicine والعلاج فيه يتناول الجسم والعقل فى آن واحد ، لما تبين للمشتغلين به من ان الاصابة بمرض جسمانى قد تسبب مرضا نفسيا ، كما ان الاصابة بعلة نفسية قد يترتب عليها مرض جسمانى. وقد أسهب المؤلف فى شرح هذه الطريقة فى هذا الكتاب الوحيد فى بابه ، وبين فيه ان طب الأمراض العقلية ـ أو النفسية ـ كان على الدوام ولم يزل طبا عقليا بدنيا أو كما يسمونه فى الأوساط الطبية «سيكوسوماتيك» . وقدكان دكتوركولز أول من قال بأن علاج المريض لايمكن أن يبلغ النجاح المرغوب فيه ما لم يكن الطبيب ملما بحالة المريض النفسية ، الماما بحالته البدنية ، وما لم يعالج المريض على انه وحدة كاملة من جسم وعقل .

ولسى مؤلف هذا الكتاب طبيبا فاز بأكبر نصيب من الثقافة فحسب ، وانما هو فوق ذلك عالم من كبار العلماء . وموجز الأساس الذى بنى عليه طريقته الفريدة فى العلاج ، ان الأمراض العقلية نتيجة هبوط فى الطاقة العصبية ، تترتب عليه أحاسيس بدنية عنيفة . ولذلك يلزم البدء عند العلاج بتقوية الجهاز العصبى ، وتخفيف وطأة هذه الأحاسيس ، حتى يهيأ المريض العلاج النفسى ، أى اعادة تربيته من جديد ، أو بتعبير أوضح ، اصلاح حياته النفسية . وسرعان ما يدرك المريض ان هذه الأحاسيس العنيفة التى تسرى فى جسمه لا خطر عليه منها ، فتزول مخاوفه ، وما يشكو من تعب وانهاك قوى ، وترتفع طاقته العصبية ويعود اليه الشعور بالعافية والصحة

ويتضح من هذا ان طريقة العلاج هذه أساسها العلوم الطبية والعلوم الاجتماعية وعلم الاحياء في أوسع معانيه، مع عناية خاصة بنفسية المريض والجهاز العصبي المركزي الذي يتوقف على الالمـــــام بوظائف أعضاء الجسم « الفيزولوجيا » الماما تاما . وليس في هذه الطريقة شيء من مبادىء التحليل النفساني المعروف عند اتباع فرويد الذين يحصرون همهم في المسائل الجنسية ، زعما منهم انها أهم ما تتأثر به حياة الانسان

وليس بخاف على كل طبيب وجراح، ان الغالبية العظمى من المرضى المصابين بعلل خطرة ـ عضوية (أي بدنية) كانت أو وظيفية (نفسية أو عقلية) ـ يستعصي علاجهم ويطول ، لسبب على جانب عظيم من الأهمية ، هو الخوف من حالتهم . ويعلم كل طبيب وجراح ان نجاح العلاج يتوقف كثيرا على «تربية المريض» وارشاده ووقاية نفسيته من الذعر والخوف . ولا سبيل الى الشفاء اذا قصر الطبيب او الجراح همه على شفاء المرض ، ولم يعن بشفاء المريض كوحدة كاملة من جسم وعقل ـ أو ونفس ـ وهذا هو السر في النجاح الذي لاقته طريقة دكتور كولز

وفي اعتقادي كطبيب ان هذا الكتاب كفيل بتمهيد السبيل لكل مريض وطبيب يهمه تفهم المبادىء العلمية الصحيحة التي تساعد على علاج الخوف والتعب وما يتسبب عنهما من أمراض عقلية ونفسية . فلهذا وغير ذاك من الأسباب أقدم هـذا السفر الجليل وأوصي به

للمهن الطبية ، كما أوصى به لـكل رجل وامرأة وناشيء

ماكس اينهورن

(دكتور ماكس اينهورن Max Einhorn أستاذ الدراسات الطبية العالية فى جامعة نيويورك ، ومخترع عدة أجهزة وأدوات جراحية معروفة ، وعضـــو أكاديمية الطب الأمريكية وغيرها من الهيئات الطبيـة والعالمية . وهو مؤلف مجلدات ضـخمة فى أمراض المعدة والامعـاء ، ومسائل التغذية وغير ذلك من الـكتب الطبية . وقد كتب هذه المقدمة تقديرا لفائدة هذا الـكتاب)

مقدمة

بقلم المترجم

عرفت دكتور ادوارد سبنسر كولز مؤلف هذا الكتاب عن قرب ، وتدربت فى عيادته الشهيرة ــ وهى فى بارك افينيو ، أرقى أحيــاء نيويورك الأرستقراطية ــ فى صيفى كل من سنة ١٩٤٦ و ١٩٤٧ ، وطيلة الفترة الواقعة بين يولية ١٩٥٢ وسبتمبر ١٩٥٣ ، وشــاهدت النجاح الباهر الذى يلاقيه فى علاج مرضــاه العديدين الذين استعصى على الـكثير من الأطباء علاجهم

ويرى القارىء مما جاء فى سياق أحاديثه فى الفصل الثانى انه عاصر الـكثيرين من جهابذة العلماء والأطباء الذين قلما يجود الزمان بأمثالهم ، وتلقى العلوم الطبية المختلفة على أيديهم ، وســاهم معهم فيما أدوه من الخدمات الانسانية . وقد شهدت حلقات المناقشات العامة التى كان يديرها فى منزله ، علاوة على الحفلات الساهرة ، وأدهشتنى الفئة المختارة من كبار الأطبــاء وعلماء النفس ومحررى الصحف والمشــتغلين بالفنــون الجميلة فى شتى أنواعها ، الذين كانوا يترددون على هذه الحلقات والحفلات وذلك لأن آفاقه الواسعة لم تقف عند حد المشتغلين بمهنته ، بل كانت تمتد الى غيرهم من رجال الفكر والاجتماع والفن ، مثال ذلك وليم جيمس ،

وجون ديوى ــ وهما معروفان للمشتغلين بالتربية وعلم النفس فى مصر ــ ورؤساء التحرير فى أكبر صحف نيويورك ومجلاتها العلمية ، وأساتذة الجامعات الذين يعنون بالدراسات العليا فى العلوم الطبيعية والاجتماعية ، فضلا عن أولئك المشتغلين بالفروع الطبية

ومما يسترعى الأنظار فى المؤلف وطريقته العلاجية للأمراض النفسية ، ونظرته الفلسفية العامة فى الحياة ما يأتى :

* يعتقد المؤلف ان ضعف الجهاز العصبى هو العامل الأكبر فى كافة الأمراض النفسية

* لذلك يعالج المريض بالعقاقير الطبية فى الوقت الذي يعالجه علاجا نفسيا

* يشجع المريض على التحدث عن مرضه لسائر المرضى فى العيادة لأنه لايؤمن بجعل المرض سرا مكتوما بين الطبيب والمريض . ولذلك نجد عيادته ملتقى اجتماعيا يتسامر فيه المرضى ويتبادلون الحديث عن أمراضهم وشئونهم الخاصة

* يبلغ من تمسكه وايمانه بهذا المبدأ ، انه يعقد اجتماعا مرة فى كل يوم خميس عصرا لكل مرضاه الحاليين والكثيرين من السابقين ، يفتتحه بمحاضرة قصيرة الغرض منها تنوير أذهانهم عن طبيعة الأمراض النفسية وأسبابها وأنواعها الخ . ويتبع ذاك حديث من عدد من المرضى يصف فيه كل منهم تاريخ علته وكيف نشأت والآلام التى كابدها من جرائها . وبهذه الوسيلة يتعزى المريض بسماع الأعراض التى يشترك فيها مع

أكثر زملائه . ويتخلل الاجتماع موسيقى وأناشيد أحيانا وتناول الشاى والمرطبات

*كثيرا ما يدعو عددا من مرضاه مع ازواجهم لحفلات خاصة ، يخلو فيها الجو تماما من الحديث عن المرض ويقتصر على السمر وتناول المأكولات أو المرطبات ، مع الكثير من الأصحاء من اصدقائه حتى يشعر مرضاه بأنهم لا يختلفون عن الاصحاء فى شىء

* يعتقد ان الحياة الطيبة جديرة بأن نحياها ، وانها أجل هبة من هبات الخالق للانسان . لذلك يشجع المرضى على دوام الابتسام والاكثار من سماع الموسيقى وتخصيص ساعات أسبوعية للرياضة البدنية فى الهواء الطلق والرقص . وكان يعمل بما يبشر به ، فيقضى ساعات فى الرياضة والرقص وهو فى الخامسة والسبعين من عمره ، كما يرى القارىء فى بعض فصول هذا الكتاب

وانني أهيب بالسادة الأطباء ، لاسيما الناشئين منهم ، أن يتصفحوا هذا الكتاب الذى جاء ثمرة لتجارب علمية طويلة ، كما أهيب بكل أب وزوج وولد وشيخ رجلا كان أو امرأة أن يعيد قراءته مثنى وثلاث ورباع ، لأن عباراته السهلة والحقائق العلمية الواضحة ، والحالات الكثيرة التى وصفها المؤلف كلها وسائل فعالة فى تمكين المريض والصحيح على السواء من تفهم نفسيته ، والنظر الى الحياة بعين خالية من الشكوك والمخاوف ، وتغيير فلسفته تغييرا يتفق والمبادىء الصحية السليمة

أمير بقطر

الفصل الأول :

"أنـــا خـــائفـــة.."

ـ أنا خائفة . . .

هذا ماكانت تقوله وهى جالسة أمامى مطرقة الرأس، خافتة الصوت . . ولولا اننى كنت أتوقع ما تريد أن تصرح به ، لمـا استطعت أن أسمع كلمة مما قالت
ـ أجل أدرك ذلك .. ولكن مم تخافين ؟

ـ لست أدرى يادكتور مم أخاف ، أو على الأصح لست أدرى ان هناك شيئا فى الوجود لا يخيفنى . . أخاف الوحدة ، وأخاف أن يكون معى أحد . أخاف الا يكون معى زوجى أو والدتى . . فاذا كانا معى ، أخاف الخروج معهما لقضاء حاجة ، أو زيارة أصدقاء ، أو مشاهدة رواية سينمائية . لقد بلغت بى الحالة اننى لا أشعر بشىء من الطمأنينة والراحة الا فى بيتى. ويعجب زوجى لعدم رغبتى فى الخروج معه ، ويقول اننى لا أثق فى مقدرته على العناية بى . الواقع اننى أثق فيه ، ولست أخشى شيئا عساه يحدث لى ، ولـكنى أخشى شيئا يحدث فى لا أدرك ما هو .. اذا كان هذا التعبير ذا معنى
ـ أعرف ذلك جيدا

هذا ما أجبتها به مؤكدا ، ويحق لى أن أعرف ، بعد

والى هنا لم أسمع مما تفوهت به هذه السيدة جديدا فأعراضها تكرار لألوف الحالات التى تشهد بها سجلات مرضاى ، وما دونوه فيها من تواريخ وأقوال

كانت هذه أولى زياراتها لى ، وكل ما عرفته عنها قبل أن أراها ، ماقرأته على البطاقة التى وضعتها سكرتيرتى أمامى ، بعد أن كتبت عليها البيانات الآتية :

الاسم : مسز ب . ا . جون

العنوان ؟ . . .

الوظيفة : ربة بيت

بتوصية من : تلقاء ذاتها بعد قراءة كتاب « لاتخف » !

تاريخ المريضة :

مضى عليها فى هذا المرض خمسة أعوام ، ولكنها كانت منذ طفولتها شديدة الحساسية ، خجولة ، تتألم لأتفه الأشياء . وقد تغلبت على هذه الصفات بعض الشيء فى خلال السنوات التى قضتها فى المدرسة الثانوية ، والسنتين اللتين قضتهما فى الجامعة . ولم تصب فى صغرها بأمراض ذات خطورة . كل ماهنالك انها فى الثانية عشرة من عمرها كانت تشكو من التهاب الغدة النكفية ، وكانت كثيرة التعرض للزكام . . . انقطعت عن الدراسة الجامعية ، والتحقت بعمل فى مصلحة حربية ، أصابت فيه نجاحا باهرا وأحبته كثيرا . وهناك تعرفت بأحد رجال البحرية وتزوجت منه ، وكان عمرها فى ذلك الحين ٢٤ عاما . ولما عاد زوجها من الخدمة ، استقالت من وظيفتها وتفرغت لحياتها الزوجية .

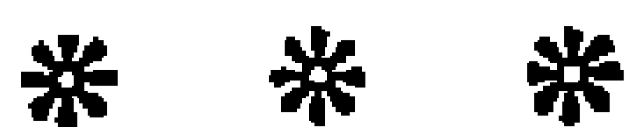
أما الأزمة العصبية الأولى التى تذكرها ، فقد أصابتها يوما ما ، وهى تقود سيارتها فى مكان اشتدت فيه الحركة والزحام ، حيث شعرت بغتة انها فقدت سيطرتها على نفسها ، وانها تدير عجلة القيادة على غير هدى . واستولى عليها الخوف ، لاسيما انها لم تستطع ايقاف السيارة ، بسبب الرهط الذى كان يعدو خلفها . واضطرت الى مواصلة السير نحو ميل ، قبل أن يتاح لها الاتجاه الى حيث يمكنها الوقوف . وقد ذاقت فى تلك الفترة القصيرة من الزمن أشد الألم ، وأحست بعد ذلك بانهاك فى قواها ، واخذت ترتعش من هامة الرأس الى اخمص القدم ساعات عدة

وفى اليوم التالى ، عاودتها هذه الأزمة فى صورة أشد ، عندما قادت السيارة الى محطة السكة الحديدية لاستقبال زوجها . ولما لم تجد سبيلا للتقدم فى السير أدارت وجهها الى محطة بنزين ، حيث استعانت بأحد عمالها ، وطلبت اليه أن يقود لها السيارة ، وفرائصها ترتعد وجلا . ومنذ ذلك الحين أصبحت تخشى القيادة . ولم تقف الحالة عند هذا الحد ، بل أحست فجأة بعد ذلك بخوفها من حركة المرور ، وبعجزها عن عبور الطريق وحدها ، وغشيان المحال المزدحمة كدور التمثيل والمطاعم وأمثالها . وأصبحت تخاف السفر ، وتخاف الوحدة ، فاذا ماصحبت زوجها أو أمها يوما ما الى مطعم مثلا ، تخيرت فيه موضعا ، يمكنها الخروج منه بسهولة وعلى عجل ، اذا ما باغتتها الأزمة العصبية

وعند حدوث هذه الأزمة ، كان قلبها يشتد خفقانا ورفرفة ، ومعدتها تتوعك ، ورأسها يدور ، وسيقانها ترتعش . وفى كثير من الأوقات كان يخيل اليها انها ليست «ذاتها حقيقة» ـ وهو قول لا يمكنها التعبير بأحسن منه . وكان نومها قلقا متقطعا ، وكانت تشعر بانقباض ووجوم

كل الوقت ، وفقدت شهية الأكل. وأصبح الطعام فى فمها غريب المذاق، بيد انها لم تكن يوما مغرمة بالمأكل، بل كانت منذ صغرها يصعب ارضاؤها. وكانت لا تستطيع رؤية اللبن أو الشيكولاتة ، لأن مجرد النظر اليهما يسبب لها الميل الى القيء . وقد أصبحت عرضة للاسهال، خصوصا عند حاول الأزمة العصبية. وتشكو ضعف البصر، ولا تتحمل الأضواء القوية ، فضلا عن شدة تأثرها بالضوضاء

وقد انتقلت أخيرا الى منزل جديد ، لأنها لم تطق من سكان الطابق الذى يعلو بيتها وقع اقدامهم . وقد ترددت على عدد كبير من الأطباء ، وتعالجت على يد محلل نفسانى مدة ثلاثة شهور، فلم يجدها أحدهم نفعا ، بل كانت تزداد حالتها من سيىء الى أسوأ. ويخيل اليها أحيانا انها فقدت كل أمل فى الشفاء ، حتى انها حاولت مرة الانتحار.. الأمر الذى جعلها تطأطىء الرأس خجلا. على الرغم من انها تظن أن زوجها لم يبلغه الخبر، فقد قالت لها أمها انها لن تبوح له بذلك، اذا كانت لاتقدم على ذلك العمل مرة أخرى



وعلى ضوء هذه المعلومات ، أخذت ادرس حالة هذه السيدة .. كان وجهها شاحبا متوترا وخداها خاويين ، وشعرها مطفأ ، وعيناها لا بريق بهما . وقد قالت ان عمرها ٣١ سنة ، ولكن منظرها كان يدل على انها تناهز الستين ، وقد لاحظت من طريقة جلوسها ، انها جلست على حافة المقعد ، ولم تتخذ منه موضعا مريحا رغم انه كان فسيحا مكسوا بالجلد، وكانت تبدو كدمية ميكانيكية ذات زنبرك، على أهبة القفز من مكانها لأخف لمسة. ومعنى هذا ان كل حركاتها وسكناتها ، وكل ماجاء فى البطاقة التى دونت فيها السكرتيرة تاريخ مرضها وشكواها ، كل هذا أعراض

عصاب لا ريب فيها ، عصاب الخوف **Fear Neurosis**

وقد وجهت اليها هذا السؤال : « ما الذى تتوقعين أن يحدث لك ؟ » فأجابت :

ــ لست أدرى سوى انه شىء بالغ حد الفظاعة . قد يكون قولى دليل الحماقة ، بيد اننى أحس أن قمة رأسى ستطير من جسدى ، وأشعر أحيانا اننى أسبح فى الفضاء حيث لا أعلم ، واننى لست ذاتى حقيقة . وعندما تنتابنى الأزمة ، تشتد دقات قلبى اشتدادا يتوجع منه صدرى . ومع ذلك لم يترك الأطباء بابا للفحص أو التحليل الا طرقوه ، والكل أجمع على أن القلب خال من العلة ، ويبدو لى أحيانا اننى على وشك الاختناق ، ولا أستطيع التنفس بسهولة ، واذا كان لابد لى من مقابلة شخص لم يسبق لى عهد به ، شعرت بحرارة فى جسمى ، تليها برودة ، فعرق يتصبب من كل عضو فى . وناهيك عما فى هذا من الاحراج لى أمام الغير ، الذين أخشى أن يلاحظـــــوا ذلك فى ، فيعتقدون اننى غريبة الأطوار

ــ أتريدين أن تقولى انك تخشين العجز عن السيطرة على نفسك ، فتأتين أمرا تفتضح به حالتك ؟

ــ هذا هو ما أردت أن أقوله : اننى أخشى أن أفعل ما يجعلنى أضحوكة أمام الناس ، فأجلب العار لزوجى ، وأعرض نفسى للقيل والقال وتحديق العيون ... تسألنى مم أخاف ؟ أظن أننى أخاف من نفسى !

ــ ألا تتساءلين أحيانا عن سبب هذا الشعور الذى ينتابك ؟

ــ أجل كثيرا ما أتساءل ، ويقلقنى أمره كل ساعة من ساعات النهار ، وكثيرا ما نصح لى زوجى أن أكف عن

التفكير فى نفسى ، ولكن لعمرى انى لى ذلك ؟ وقد قال لى جميع الأطباء الذين أستشرتهم ، ان ما أحس به من رعشة فى ساقى ، وخفقان فى قلبى ، وشعورى بأننى لست ذاتى حقيقة .. كل هذا من نسج خيالى ، ولا ظل له من الحقيقة . كلهم يقولون ان ما أشكو منه هو عقلى لابدنى

ـ لقد صدقوا .. ان مرضك عقلى. ولكن خبرينى ما الذى أداه لك هؤلاء الأطباء من أنواع العلاج ؟

ـ ان كل ما قاموا به ينحصر فى فحص القلب وضغط الدم. وقد وصف لى أحدهم عقارا مهدئا ، ووصف آخر فيتامين «ب» وعصارة الكبد. وقال بعضهم ان الشفاء بيدى ، وآخر نصح لى أن أنجب طفلا. أما المحلل النفسانى فوجه الى عدة أسئلة عن علاقتى بزوجى ، وعما علق بذاكرتى عن والدى الذى مات وأنا فى الثانية عشرة من عمرى . ومما ذكره المحلل أن ميولى الجنسية تتجه نحو النساء لا الرجال ، وان ما أشكو منه هو فى الواقع ثورة على زوجى وعلى نفسى ، لأننى فى قرارة باطنى لا أريد أن أكون زوجة

ـ وهل تؤمنين بصحة ما قال ؟

ـ كلا.. اننى أحب زوجى ، وواثقة مما أقول ، ولست اقبل من اى مخلوق أن يصفنى بهذا الوصف الفظيع الذى لا ظل له من الحقيقة . قد أكون مجنونة ، ولكنى لست..

ـ أتظنين انك مجنونة ؟

وقد اصاب هذا السؤال منها وترا حساسا ، لأن هذا ما كانت تتوقع سماعه كل الوقت . فقد سمعتها تتأوه ، وقد رفعت رأسها ، وأخذت تحدق فى عينى بنظرات ثاقبة ، ثم قالت : « أشعر أحيانا اننى لابد أن أكون

كذلك ، وهذا ما حدا بى الى المجىء الى هنا ، لتقول لى ذلك . اننى فى طريقى الى الجنون »

فقلت لها : « كلا .. »

ومن حسن الحظ ، اننى أستطعت أن أقول لها ذلك عن عقيدة أكيدة .. حقيقة ان مرضها عقلى ، ولكنه ليس جنونا بحال من الأحوال. وقد استطردت فى حديثى قائلا:

ـ انزعى هذه الفكرة من رأسك .. انك لست مجنونة، ولكنك واحدة من ملايين الناس ـ أجل ملايين ـ الذين يشكون ألوانا عديدة من الأمراض لسبب واحد : ألا وهو استنزاف الطاقة فى الخلية العصبية ، ففى هذه الحالة تبدو الأحاسبس العادية فى الجسم عنيفة مؤلمة (فى حين انها فى الواقع مجرد أحاسيس ، لا يأبه لها الشخص متى كانت طاقته العصبية سليمة) ، ولأنه لم يسبق لك عهد بهذه الأحاسيس الغريبة المزعجة من قبل ، ولا تعرفين لها سببا ، فانك تتوهمين انها خطيرة ، فى حين انها بعيدة عن الخطر كل البعد . ولاعتقادك انها خطيرة ، أصبحت تخافينها ، وهذا هو السبب الوحيد ـ الوحيد بلا استثناء ـ لجميع حالات « عصاب الخوف »

وهنا أخذت تحدق النظر فى ، وهى لا تصدق أقوالى ، ثم أخذت تتكلم ببطء وتؤدة قائلة : « هل تعنى أن المسألة بهذه البساطة ، واننى بنيت كل هذه المخاوف ، والخيالات الشاذة ، والآلام والأمراض ، على لا شىء ! »

فقلت لها : « كلا .. ان الآلام التى تشعرين بها حقيقة وليست خيالا . ان جميع الأحاسيس التى فى جسمك دقات القلب العنيفة ، رعشات الساقين ، الاسهال ، القوى المنهوكة .. ليست خيالا . انها حقيقة

كالألم الذي يحس به انسان بسبب اصبعه المجروح ، ولكنها فى الأصل أحاسيس عادية ، اشتدت عند المريض بسبب ضعف الطاقة فى الخلية العصبية ، لا اكثر ولا أقل

ـ أهذا كل السبب الذي من أجله قضيت هذه السنوات الست فى سجن وعذاب أليم ؟ هذا القلق .. وهذا الشعور بالوحدة ؟ وكل ما سببته لزوجي من متاعب ؟ والنفقات التى كبدته اياها فى سبيلى ؟ اذا كان هذا كذلك ، فلابد انني كنت مجنونة

ـ كلا ، لست مجنونة اليوم ، ولم تكوني مجنونة أمس، ولا فى أى وقت آخر. لقد كنت مريضة ، وجاهلة بما فى نفسك وبحالتك . على ان المسألة ليست بالبساطة التى تتصورين. وليس فى مقدورك ادراكها دفعة واحدة ، ولكنك ستستطيعين هذا فى الوقت المناسب ، ولن يطول ذلك . ومن طبيعة العقل انه يعيد تنظيم كيانه من تلقاء ذاته وبسرعة عجيبة ، متى أعيدت تربيته من جديد . وفى الوقت عينه يتاح للجهاز العصبى أن يسترد طاقته بالأدوية الملائمة وانني أعدك انك فى خلال ثلاثة أسابيع ، ستجدين تحسنا ظاهرا ، ولن يمر بعد ذلك شهرأوأكثر قليلا حتى تعودى الى حياتك الطبيعية معافاة

ـ أتعني انني سأسترد ما كنت عليه من الحرية والنشاط والسعادة ؟

ـ أجل أعدك بذلك .. ستعودين حرة كما كنت

قصـــــــــة الملايين

لم أكن مبالغا عندما قلت ان الذين يشكون من هذه العلل النفسية ، يغدون بالملايين .. فكل طبيب فى العالم يصادف حالات كثيرة مثل حالة السيدة «ب.ا.جون» ، والسواد الأعظم من المرضى الذين يفدون الى عيادة الطبيب (غير الأخصائى) هم من هذا النوع . هم الذين يشكون من علة قلبية مزمنة ، رغم ان كل فحص بالجهاز الكهربائى المعروف لايسجل أية علة عضوية . هم الذين يشكون من آلام مبرحة وغازات فى المعدة ، وامساك ، واسهال . وهم الذين نضطرب أمعاؤهم ، ويختل هضمهم ، وتنتابهم أزمات الميوعة ، والميل الى القىء ، والشعور بالامتلاء ، وفقدان الشهية ، مرارا وتكرارا . وهم الذين يشكون على الدوام ان الطعام فى أفواههم غريب المذاق

هؤلاء يلازمهم الخوف كالظل ، ومع ذلك لايعرفون مم يخافون .. يتألمون مما يسمونه «عصابا قلقيا» Anxiety Neurosis أو من الشعور بالنقص ، أو غير ذلك من الأسماء .. حياتهم خالية من الطمأنينة ، والثقة بالنفس ، والمقدرة على استجابة مطالب الحياة اليومية ، التى عليها يتوقف كيان الفرد ، وإذا ما أجهدوا لأى سبب كان ، انهارت أعصابهم ، والكثير منهم يقضون شطرا كبيرا من حياتهم حيارى ، فلا هم مرضى كاملا – فى فراشهم –

ولا هم أصحاء صحة كاملة ، كغيرهم من عباد الله

ومن صفاتهم رهافة الحساسية ، وسرعة الشعور بالاهانةمن الغير . ولأنهم يتوقعون الأذى من الآخرين على الدوام « تتحقق آمالهم » ويصابون بالأذى ويغلب عليهم الخجل وتركيز الذهن فى أنفسهم ، والوعى بما يخالجهم من أحاسيس . ويصعب عليهم التكيف بما يلائم الأسرة أو الجماعة التى ينتمون اليها . وعلى ممر الأيام يلجأون تدريجا الى الانزواء والعزلة وحياة النساك !

وبهذا يصبح المريض مشكلة عويصة ، نحو نفسه من جهة ونحو ذويه من جهة . وبالجملة يضحى عالة على المجتمع

وأولئك الذين يهبطون الى هذا الدرك الأسفل من الحياة العقلية — رجالا كانوا أو نساء — لا يفارقهم الانقباض لحظة واحدة . ولا يجد الحب الى قلوبهم سبيلا ، لانطوائهم أبدا على أنفسهم ، والعيش فى نطاقها الضيق . ويغلب فى الرجال منهم ضعف القوى الجنسية « العنة » ، وفى النساء البرود الجنسى والحياء أو العفة الكاذبة . يجبنون عن ملاقاة الحياة ومفاجآتها وجها لوجه ، ولا يعرفون اللذة التى يجدها السليم فى مطلع كل يوم جديد وفى تحيته بفرح وسرور وثقة فى النفس

اننا معشر الأمريكيين نستمتع بحرية سياسية واجتماعية قلما يحلم بها سوانا من شعوب الكرة الأرضية ، ولكن . . بالرغم من الحريات الأربع ، ووثيقة حقوق الانسان ، فان الملايين منا لايذوقون طعم الحرية ، لأنهم مكبلون بأغلال الخوف ، وتوقع المكروه ، والتحيز ، والوسواس

اننا أغنى شعوب الأرض ، ولوكان فى وسعنا أن نشترى الصحة العقلية بالمال ، لما ضاقت مستشفياتنا العقلية على

رحبها وازدحمت بالمرضى ، ومات أطباء الأمراض العقلية والمشتغلون بالتحليل النفسانى جوعا ، وخوت خزائن أصحاب البدع الدينية من المـال ، وبحث قراء الكف والعرافون والمنجمون وأنبياء الطوالع والأرقام عن عمل آخر، لخلو البلاد من مرضى الخوف ، وعجزهم عن السطو على فرائس العصاب ، كما تسطو الطيور الجوارح على جيف الموتى

ولما كان مرضاى من كافة الطبقات الاجتماعية ، فان فى وسعى ان أصرح بغير أن يستطيع أحد تـكذيبى ، بأن الفقير والغنى على السواء عرضة للأمراض العقلية ، يتألم منها ويشقى ، وتبدو عليه أعراضها .. فالخوف لايتحيز لأحد ، والتعب لا يعرف صديقا أو عدوا

فالمليونير الذى تهبط الطاقة فى جهازه العصبى ، فى قلق متواصل خوفا من ضياع ثروته ، وخشية من غش عملائه وتدليسهم ، وخوفا من الأزمات المالية ، وخوفا من هبوط الأسهم واستنزاف الثروة . ولا يختلف فى هذا عن قلق الموظف البسيط الذى يتقاضى راتبـا متواضعا ، ويشكو مما يشكو منه المليونير من الأمراض العقلية ، وما ينتج عنها من الأرق ، والخوف مما تؤول اليه زوجته وأولاده ، فيما اذا تقاعد عن العمل

وهذه الـكوكب السينمائية الفاتنة فى جمالها ، التى يحسدها الملايين وتعبدها الجماهير، تكون أتعس خلق الله، اذا لم تتحرر من الغيرة ... والغيرة لون من ألوان الخوف، ومهما أصابت مثل هذه الممثلة من النجاح وذيوع الصيت ، فان هذا لايدخل السرور الى قلبها ، طالما لازمتها الغيرة . ان مثلها مثل الرجل الذى يبلغ القمة فى مهنته ، ولكنه يعيش مقيدا بسلاسل الأفكار الثابتة والمسيطرة على حياته ،

والأعمال الاضطرارية أو التسلطية Compulsions والخجل ، والتركيز فى النفس ، والمخاوف بشتى أنواعها

* * *

منذ ظهور كتابى « لا تخف » تنهال على الرسائل من كثير من أنحاء أمريكا ، ومن مدن الشرق الأدنى ، ومن الصين ، وجنوبى افريقيا ، وأمريكا الجنوبية ، وبلدان اسكندناوه . وكلها من أطبـاء يريدون الاستزادة من تفاصيل العلاج الذى استعمله فى شفاء مرضى الخوف . ويتفق هؤلاء بالاجماع على ان نسبة كبيرة من المرضى الذين يفدون على عياداتهم يشكون من هذا المرض

ولا مشاحة فى ان أصحاب هذه الرسائل ذوو ضمائر حية وخلق كريم .. فهم قد أتموا دراساتهم الطبية فى كليات شهيرة، وزاولوا مهنة الطب سنين عديدة ، وبالرغم من ذلك يتضح من أقوالهم ، انهم غيرملمين بطبيعة الجهاز العصبى، والأسس التى تقوم عليها العلاقة بين الجسم والعقل

ان طريقتى فى علاج عصاب الخوف ، لا سر فيها ولا غموض ولا تتطلب تحليلا نفسانيا ، ولا تتفق ونظريات فرويد ، ولكنها تعتمد على معرفة الجهاز العصبى ، وتقر المبدأ القائل بأن أصل المخاوف المرضية جميعها ، والكثير من الأمراض البدنية ، هو فى الجسم ذاته ، ولاسبيل الى شفاء هذه الأمراض الا بالجمع بين العلاج بالعقاقير الطبية، وعلاج الجهاز التفكيرى علاجا نفسيا

الطب العقلى الجسمانى

Psychosomatic Medicine

قد يكون هذا التعبير جديدا ، فيما يتعلق بالجمهور ، ولكنه ليس جديدا فيما يتعلق بمهنة الطب .. فكافة الأمراض ـ الى درجة ما ،كثرت أو قلت ـ عقليةجسمية ، بمعنى ان المرض يؤثر فى كل من العقل والجسم ، والعلاقة بينهما من المتانة بما لايحتاج الى دليل . وهل يمكن أن نتصور «عقلا» بلا جسم يسكنه ، ويعبر عنه ، ويختبره ؟

وهل يمكن أن تكون هناك معرفة بغير وجود خيط عصبى ، يحمل رسالة من احدى الحواس عن طريق الخلايا فى الجهاز العصبى ، الى المواضع المستقبلة فى الدماغ ؟ أليست الأفكار اذا ، بدنية وعقلية معا ؟

انك لاتستطيع القيام بعمل بدنى، ما لم يكن هناك فكر فى الدماغ، تحمله الألياف العصبية « الخلايا » عن طريق الجهازالعصبى الى اليد او الساق التى تقوم بذلك العمل.

ان كل مرض جسمانى يؤثر فى العقل ، واتباعا للمبدا عينه ، كل حالة عقلية لها أثرها فى الجسم ، فاذا أراد الطبيب شفاء المريض مما يشكو منه ، فلابد له من علاج كل من الجسم والعقل ، ولابد له من علاجهما معا وفى وقت واحد . وهذه طريقتى فى علاج الأمراض العقلية

الأعراض متعددة . . . والمرض واحد . . .

ان الخجل ، والغيرة التى تبلغ حد الافراط فتنهك قوى صاحبها وتقلق راحته ، واضطراب الذهن ، والشعور بالنقص ، والتحيز ، وأمراض الخوف بأنواعها ، والتطير المستمر والتشاؤم، وشدة الانقباض، والميول الانتحارية، ولوم النفس ، والشعور بالاضطهاد ، والانتقال من حالة الوجوم والحزن الى حالة التهلل وفرط السرور بالتناوب، كل هذه من دلائل المرض العقلى على اختلاف درجاته شدة واعتدالا

كذلك الاسهال المزمن ، والصداع الملح ، وارتفاع ضغط الدم بلا سبب عضوى ، وتشنج المعدة ، والميوعة ، والاغماء ، والشعور بالاختناق ، وضيق التنفس ، والخفقان ، وآلام القلب — رغم دلالة الفحص على سلامته — وتصبب العرق بغزارة ، وشدة الخجل ، وضعف الأطراف ، وارتعاش اليدين الى حد لا يستطيع المريض فيه أن يمسك بفنجان من القهوة ، أو يضع قلما بين أنامله

وسبب هذه الأعراض بدنى وعقلى معا . وهى دليل على ان المريض مضطرب الذهن ، كما انها دليل على أن وراء هذا الانحراف النفسى، ضعف الطاقة فى الخلايا العصبية

فلا الراحة مهما طال مداها ، ولا الغذاء ، ولا الفيتامينات ولا العقاقير والأدوية يمكن أن تخلص المريض من هذه الأعراض ، بغير علاج نفسانى يدرك المريض به ماهية مرضه ويقف على باطن ذاته

كذلك لا نفع من العلاج النفسانى ، أيا بلغت مدته ، بغير دواء وليس فى مقدور طبيب أن يشفى مريضا من

وسواس بمجرد الكلام ، كما انه ليس فى مقدوره شفاءه من البول السكرى أو كسر فى الساق بالكلام وحده ، فالوسواس Obsession — وهو من أمراض العصاب — عقلى ، ولكن منشأه فى الجهاز العصبى ، أى انه بدنى أيضا

وما تكرارى لهذه النقطة الا تعمدا منى ، لأن أكثر الناس يميلون الى اغفالها ، وفى اعتقادى ان هذا التكرار مهما كثر ، لا يصح تسميته لغوا

الخوف من المجهول

اننا نخاف ما نجهل ، أى نخشى الأشياء التى نجهلها. ومن طبيعة الانسان أن يداخله الريب ، بل ويستولى عليه الخوف اذا ما صادف الغامض المجهول

اذا علمنا ذلك ، أدركنا مغزى تساؤل المريض ، حين يحدث نفسه قائلا : ضربات القلب هذه ، المفاجئة ، العنيفة ، ما معناها ؟ ما أسبابها ؟ ما الأثر الذى تتركه ؟ وهذه الدوخة المفاجئة التى تنزل بك كالصاعقة الفينة بعد الفينة ، فتشعر بأنك تترنح ، وان أسافلك أعاليك ، ماهى؟ أهى مقدمة لداء السكتة ؟ وهذا الطنين فى أذنيك ، الذى يطغى على جميع الأصوات ، ويضطرب به الذهن ، فتنسى رقم التليفون ، وتعجز عن التفكير السليم ، ماهو؟ أمعناه ان عقلك فى طريقه الى الذهاب ؟

وما هذه التقلصات المعدية المتكررة الملحة ، وهذا الأرق ، ووجع الرأس ، ماذا تحمل معها من أحداث ؟ أهى أعراض مرض خبيث خطير ؟

وليس من سبيل الى اجابة نفسك عن هذه الأسئلة لأنك لا تعرف عن هذه الأمراض شيئا ..

تسهد ليلا فتتوالى هـذه الأسـئلة وتزيدك قلقا على قلقك، وأنت لا تجد للجواب سبيلا. وبين جهلك وحيرتك، وما قد تكون قرأته في الصحف ، وما سمعته من الاذاعة اللاسلكية ، أو ما قد اتصـل بك من تاريخ الأسرة ، تشب فيك أفـكار كاللهب ...

«... قد أكون مصابا بالسرطان، والا فما هذا الذى أحس به فى جنبى ؟.. لابد ان الداء قد استفحل حتى اننى أشعر بهذا الوخز الأليم . لا أريد أن اموت ، اذ لست على استعداد للموت بعد .. فماذا يكون مصـير زوجتى ؟.. وكيف تعول الأطفـال وتقوم على تنشئتهم وحدها ؟.. فلو اننى كنت سددت الديون التى على رهنا للبيت الذى نسكنه ، لـكان الأمر أهون ... »

« ... يقول الطبيب الذى فحصنى ان القلب سليم من كل علة ... ولكن ما هذه الضربات السريعة العنيفة ؟ لابد أن يكون هناك شيء .. اننى أحس به ... لقد مات والدى بداء القلب ، فلابد اننى ورثت عنه هذا الداء .. مات فى سن الرابعة والخمسين .. سقط ذات مساء بغتة وأسلم الروح . وهذا مصيرى لا محالة .. ان أمراض القلب تجرى فى دماء الأسر ... »

« .. .ما الذى أصابنى فى عقلى ؟.. لم لا أفكر تفكيرا سليما كما كنت قبل اليوم ؟.. ولم هذا التردد الذى يقف حائلا دون اتخاذى أى قرار ؟.. ولم هذا الاضطراب وهذا الضعف ؟.. ما الذى يجعل هذه الأفـكار تعدو بسرعة البرق داخل رأسى ، وتتسابق ملاحقة بعضـها البعض؟.. لم لا أستطيع التحكم فيها ؟.. لم يخيل الى اننى سأذهب مندفعا الى حيث لا أدرى ، لأرتكب أمرا

شأننا ؟.. ألعلى كذلك الشاب الذى كان مثال الهدوء ودماثة الخلق، فاذا به بين طرفة عين وانتباهتها يقفز الى الشارع ومسدسه فى يده ، وأخذ يطلق النار على المارة كيفما اتفق ؟.. يا الهى ، أ أنا كفء لمثل هذا العمل ؟.. أجننت حقا ؟.. أو فى طريقى الى الجنون ؟.. »

هذا نموذج للطريقة التى تشخص بها مرضك بنفسك. تحاول أن تجد سببا لهذه الأحاسيس التى تقلق بالك . ونظرا لعنف هذه الأحاسيس ، فانك تعتقد أنها خطيرة ، مميتة ، بغض النظر عن أسبابها

وبهذا الضرب من التفكير ، تكتب فى مخيلتك بحروف بارزة كلمة « خطر » وصفا لحالتك .. وسرعان ما يزداد خوفك منها ويشتد

وهنا أرجو ملاحظة ان هذا التعليل الذى ذهبت اليه منطقى لا غبار عليه ، غير ان الأساس الذى بنيت عليه النتيجة خاطىء .. الخطر الذى سطرته فى ذهنك ، من صنع يديك !

من هذه النقطة يجثم عليك عصاب الخوف .. وكل ما تعمل ، أو تقرأ ، أو ترى ، أو تسمع ، يزيد النار اشتعالا . والخوف كبعض النباتات السامة التى تأخذ فى الانتشار حتى تميت كل ما عداها ... يضرب خيامه فى كل صقع وواد ، فيجعل الحياة جحيما .. فى البيت ، وفى الشارع ، وفى مكان العمل ، وفى المجتمعات . وسواء

فى اليقظة أو فى المنام ، أنت أسير الخوف ، لا تفلت من قبضته الفولاذية لحظة واحدة . لم تعد كما كنت .. لست أنت .. لقد تغيرت تغييرا كاملا . لهذا تشعر أنك شخص آخر غير حقيقى

ومما يزيدك ألما انك تسأل نفسك : هل أبدو فى عيون الناس غريبا كما أبدو فى عينى نفسى ؟ انه يخيل اليك ان جميع الناس يحدقون النظر فيك ويداخلهم الشك فى أمرك . وهذه الفكرة فى ذاتها تزيدك خوفا . فتنسحب من المجتمعات ، وتتجنب ملاقاة النـــــــاس ، حتى أعز أصدقائك واقربهم اليك ، خشية أن يلحظوا ما طرأ عليك من تغيير . ولذلك لا تستجيب الى دعوة . ولا تغشى حفلة أو وليمة ، وتقاطع الأندية التىكنت عضوا عاملا فيها . وتتفادى نواحى النشاط التىكنت تساهم فيها. وبعبارة وجيزة تصــبح ناسكا ، منطويا على نفســك ، منحصرا فى جدارها ، لا تفارقها دقيقة واحدة

حالات مرضية شهيرة

ضمن شكسبير روايته الشهيرة « هنرى الرابع » هذه الفقرة ، وكأنه فيها يتحدث بلسان الكثيرين من المرضى :

« أنا خائف ...

« منازعات عنيفة تحتد فى صدرى وتقطع نياط قلبى.

« مزعجات جياشــة صاخبــة ... مزيج من الأمل والخوف ..

« كم انا مريض مما يساورنى ويعتمل فى من أفكار »

بهــذا وصف شكسبير الأفــكار السريعة الوثابة التى تندفع فى الراس متدفقة ... وحالات التبلبل والعجز عن تركيز الذهن .. الانتقال ألفجائى من الأمل لليأس ، ومن التفاؤل البهيج الى التشاؤم المظلم ، الذى يشكو منه الـكثير من المرضى

وهكذا يبرهن لنا شكسبير على معرفتــه الدقيقة بالأسس التى قامت عليها القوانين والاتجاهات العقلية .

لذا ينبغى أن يقرأ طلبة علم النفس كتبه بعناية وروية .
مثال ذلك « اوفيليا » الكلاسيكية ـ فى رواية هاملت ـ تمثـل حالة المرض العقـلى المعروف باسم « الهوس » Mania ولن نجد فى عشرات الحالات التى تملأ سجلات كل طبيب من أطباء الأمراض العقلية، حالة أصدق تصويرا لهذا المرض ، مما صوره لنا شكسبير فى هذه الحالة . لقد مثل لنا فى « اوفيليا » المريض الذى استنزفت طاقته العصبية الى حد أصبح فيه التفكير المنطقى مستحيلا .
هى الحالة التى تندفع فيها الأفكار الى العقل فائرة ، فى سرعة وشدة منهكة للقوى . وفيها تتناوب المريض ألوان متناقضة من أقصى حالات الحزن الى أبعد حدود الفرح .
لقد شهدت فى عيادتى الكثيرات من أمثال اوفيليا . فتيات فى ريعان الصبا ، جميـلات فاتنات ، حديثات العهـد بالمجتمعات ، أو طالبات فى السنوات الأولى الجامعية ... انهارت أعصـــابهن ، واستسلمن لهذا الداء ، فأخذن يتذبذبن كبندول الساعة ، بين انبساط بلغ حد الهياج ، وانقباض مشرف بهن على الانتحار . وليست مثل هذه الحالة عسيرة الشفاء ، اذا ماعولجت مبكرة وبالطريقة التى سبق شرحها فى هذا الـكتاب ، فقد يمكن التخلص منها فى أسابيع . والسرعة هنا عامل كبير الأهمية ، اذ ينبغى أن يعود المريض الى الحياة اليومية العادية ، ومزاولة الأعمال والهوايات التى ألفها ، قبل أن يبنى سياجا من عصاب الخوف حول علته

والحالة السالفة لا تعترف بحدود الأعمار ، بل تصب فرائسها فى جميع المراحل . ومن أمثلتها التى أفسحت لها الصحف أعمدتها فى أمريكا ، حالة السكرتير السابق للبحرية « جيمس فورستال »

وسأطيل الـكلام عن حالتى الملانخوليا (١) « شـــدة الانقباض والحزن » والهوس « شدة الفرح والتهيج » فى فصل تال . وحسبى أن أشير هنا الى ان الاختبار قد دل على ان المريض الذى تبلغ به الملانخوليا الى حد يحاول فيه الانتحار ، ولا يسعف بالعــلاج ، قد تزداد طاقتــه العصبية ضعفا ، فينتقل الى حقل الهوس . والهوس أكثر خطرا من الملانخوليا وأبعد أثرا . ومن المسلم به ان المصاب بداء الهوس ، اذا أتيح له قسط وافر من الراحة والعلاج ينتقل حتما من مجال الهوس الى مجال الملانخوليا الحادة . لهذا السبب يجب الحذر من المريض الذى تبدو عليه حالة الهوس «شدة الهياج والتطرف فى الفرح والانبساط»، ثم ينحدر الى هوة عميقة من الحزن «الأسود» . وينبغى ملاحظته عن قرب ، لأنه فى حالة الحزن والهدوء هذه ، تساور المريض نزعات الانتحار

ويمثل لنا «فولتير» الحالة التى يسمونها «نورستانيا» Neurasthania كان فولتير على الدوام محتدا ، سريع الغضب ، متشائما ، غير راض عن نفســه ولا عن الغير . شديد الحساسية والتأثر مما يتوهمه من اهانة الغير له ، ممعنا أشد الامعان فى هذا التوهم . وتشبه حالة هذا الفيلسوف الفرنسى العظيم ، حالة دكتورجونسون الأديب الانجليزى الذائع الصيت ..

يقول « بوزويل » Boswell عن دكتور جونسون : « كانت الملانخوليا من طبيعته . كان سريع التأثر باهانات لاوجود لها الا فى خياله ... وكانت تنتابه أزمات من الوجوم والانقباض (الأسود) ، وكان دائم الشكوى من أمراض واضطرابات بونية ، لا أثر لها الا فى ذهنه ... »

(١) معناها الحرفى الداء الاسود ، نسبة الى شدة الحزن والانقباض

ومعنى هذا ان ذلك الرجل البدين، صاحب القواميس الشهيرة ، قد بلغت طاقته العصبية من الضعف والوهن ماجعله متوترا ، سريع الانفعال، تجرى المؤثرات فى أليافه العصبية بسرعة وشده واندفاع ، تجعله مرهف الحس، دائم الوعى بما يسرى فى جسمه وعقله من مشاعر

وقد كانت هذه الأوصاف التى عددها « بوزويل » فى ترجمة ذلك اللغوى الشهير ، عقبة كؤودا فى حيـاة «جونسون» بالرغم مما صادفه من نجاح فى موسوعاته. لقد صنف كثيرا فى الأدب ، ولـكن العلة كانت توقفه عند حد ، ولولاها لأنتج أضعاف ما أنتج ولأخرج من ذخائره ما لايعد ولا يحصى

هل أنت أحدهم ؟ ..

اذا كنت بعد قراءة ما تقدم ، قد اكتشفت فى نفسك الأعراض التى سبق وصفها ، فانك تكون واحدا من الكثيرين الذين هبطت الطاقة فى جهازهم العصبى الى درجة لايحسن السكوت عليها . أما كيف حدث ذلك ، فليس من شأننا بحثه الآن ، اذ سيأتى الـكلام عنه فيما بعد

والآن دعنا ندرس هذه الأعراض لترى الى أى حد هبطت الطاقة فى الجهاز العصبى . فما الوسيلة لمعرفة ذلك ؟.. المجهر لا يجدى نفعا فى هذه الحالة . ولا أى اختبار بيولوجى معروف ، بيد انك بدراسة أعراضك ، تستطيع الوقوف على حالتك بدقة ، بعد مضاهاة هذه الأعراض بما جاء فى الجدول الذى سيأتى فى صفحة ٣٩

فاذا كنت « عصبى المزاج » قليلا، أى سريع التأثر والانفعال ، سريع الشعور بالأذى أو الاهانة ، غير مطمئن على مستقبلك ، فتأكد ان الطاقة فى خلاياك العصبية قد

هبطت الى الرقم ٨٠ فى ذلك الجدول . ومعنى هذا الرقم انك لم ببلغ منطقه الخطر ، ولا بأس عليك اذا وقفت عند هذا الحد ، ولم يهبط رقمك الى مادون هذا

أما اذا كنت تشكو من السهاد (عدم النوم أو قلته) ، والتعب عند القيام من النوم صباحا، والتباطؤ فى مغادرة الفراش أو عدم الرغبـه فى الذهاب الى مقر عملك ، وكنت تشعر بالام وأوجاع ، وتوعك فى المعدة وامساك وغازات ، فان هذه الاعراض دليل هبوط الرقم الى ما تحت الـ ٨٠ فى الجدول

فاذا كنت خجولا (تجبن ويحمر وجهك أمام الغير) ، ويتصبب العرق منك بافراط عند ملاقاة من لا عهد لك به ، أو عند ظهورك فى المجتمعات ، واذا خانك صوتك عند مواجهة الناس فأخرست وانعقد لسانك ، واذا كنت تخشى ابداء رأى مخالف لرأى الآخرين ، واذا خيل اليك ان الناس يحدقون النظر فيك ، أو ينتقدونك، أو يسخرون منك ، اذا كانت هذه أعراضك أو بعضها ، فاعلم ان طاقتك العصبية قد هبطت الى مادون درجة الأمان

غير ان هذه الأعراض لا تميت أحدا ، ولكن السكوت عليها ، واهمال علاجها ، وعدم التخلص منها ، يفقد صاحبها لذة العيش ، ويضيع عليه فرصة النجاح فى الحياة ، ويلقى عليه وشاحا من السحب الكثيفة التى تعمى بصره وتعوقه عن التقدم خطوة واحدة الى الأمام . والرجل ــ أو المرأة ــ الذى يعيش تحت هذا الوشاح القاتم ، يبنى لنفسه عقلية مريضة

قد لا تريد أن تفعل شيئا من هذه ، ولكنك لاتستطيع

الاحجام عن ذلك ، لسبب واحد، وهو اننا كبشر نخضع لقوانين بدنية وعقلية ، لا سبيل الى الافلات منها

فما العمل اذا ؟..

ليكن معلوما قبل كل شيء ، انك لا تستطيع شفاء نفسك بنفسك.. كل ما هنالك ان فى مقدورك المساهمة فى العلاج، بتفهم القوانين والمبادىء التى سبق تفصيلها ، ولكنك لا تستطيع تغذية طاقتك العصبية الواهنة ، بمجرد قراءة الكتب ذات الأسماء الرنانة .. فلا هذا الكتاب الذى تقرأه الآن ولا سواه كفيل وحده بشفائك

وجل ما فى وسع هذا الكتاب عمله ، انه يعينك على تفهم شكواك وآلامك، وتصوير علتك البدنية والنفسية، كعرض من أعراض حالة معينة فى جهازك العصبى. وبهذا تزول عن عينيك غشاوة ذلك « المجهول » وتنقشع سحابة ذلك الغموض والابهام ، وبعض الخوف

وهاك الجدول الذى يبين قوة الطاقة العصبية عند مختلف الناس ، ويبدأ من الدرجة ١٠٠ وهى كمال الصحة وينتهى بالصفر وهو يعادل الموت

أين أنت فى هذا الجدول	الدرجه
الشعور بتمام العافية	١٠٠
مجال الأمان : لا تعب ، ولا قلق ، ولا سرعة تأثر وانفعال. واذا فرض وجودها أحيانا ، فمن السهل التخلص منها بالراحة والاسترخاء والفسحة القصيرة . أما اذا هبطت الطاقة ، فان هذه الأعراض الطارئة تزداد عددا وشدة	٨٠
مجال النورستانيا : Neurasthania وهو المجال الذى تكون فيه خائفا ، متوقعا للمكروه ، قلقا فى نومك ، لا تهضم طعامك ، افكارك مركزة فى نفسك وأحاسيسك . امعان فى الخجل ، يأس ، صداع ، امساك ، اسهال ، آلام ، تقلصات عضلية ، انقباض نوعا ما	٦٠
مجال الملانخوليا : Melancholia . تسوء حالتك الى حد تشعر فيه انك غير جدير بالحياة ، وانك خاطىء أثيم، ويساورك الميل الى الانتحار ، ويخيل اليك انك مضطهد من الغير	٤٠
مجال الهوس : Mania . وهى الحالة التى يتناوبك فيها الوجوم وشدة اليأس والحزن (الأسود) ، ونهاية الفرح والتهلل . لا تجد سبيلا للراحة ، ولا تستطيع الأكل أو النوم ، ويصيبك هذيان عنيف	٢٠
مجال انهيار القوى (الموت) : Exhaustion	٠

يعينك هذا الكتاب على الالمام ببعض الحقائق عن عقلك وجسمك ، فى عبارة مبسطة . وهذه الحقائق ، خليق بكل انسان معرفتها ، لأن سلامة الجسم وصحة العقل تتوقفان على هذه المعرفة الى حد كبير فى جميع مراحل الحياة

وفى اعتقادى ان خير ما فى هذا الكتاب ، انه يقيم لك الدليل على أن حالتك لا تدعو لليأس . قد يكون مضى عليك سنوات أربع ، أو عشر ، أو سبع عشرة ، فى قبضة المرض.. بيد ان هذا لا ينهض دليلا على انك غير قابل للشفاء ، فأمثالك فى الدنيا يعدون بالملايين ، ومع ذلك تجدهم اليوم خلوا من الآلام ، وقد زال عنهم كل أثر للاضطرابات العقلية والبدنية ، وانقشعت عنهم سحب المخاوف بشتى أنواعها ، والوساوس ، والأفكار التسلطية ، ونوبات الانقباض والحزن

لذلك أؤكد لك ان شفاءك ميسور بالعلاج ..

على ان شفاءك يتطلب خدمات طبيب ملم بطبيعة الجهاز العصبى ، وبتلك العلاقة المتينة الدقيقة ، بين الجسم والعقل ، أو بعبارة أخرى طبيب توافرت له الوسائل لعلاج الجسم والعقل معا ، لأن كلا منهما مريض. وهذه حقيقة ينبغى الا تغيب عن ذهنك بأى حال من الأحوال . فقد يكون مرضك كما شخصه الطبيب عقليا – وقد يكون أحسن التشخيص – ولكن منشأه فى الخلية العصبية ، لا فى النظام الفكرى . لذلك يتوقف الشفاء على تغذية الخلية وتقويتها بالعقاقير ، بجانب علاج النظام الفكرى « السيكولوجى » المنحرف ، وفى وقت واحد ، على يد طبيب أخصائى فى الأمراض النفسية

هـذه بالاختصار طريقتى فى علاج المصـاب .. وقد

دلنى الاختبار منذ نشأتى كطبيب للأمراض العقلية على صلاحيتها ، بعد تجربتها سنوات طويلة ، وليست ميزتها السرعة فى شفاء المريض وحسب ، ولكن النجاح فيها أكثر احتمالا من سواها ، وبوساطتها لايعافى المريض وحسب ، ولكن المرض لا يعاوده . ولدى عدد كبير من سجلات المرضى الذين عولجوا منذ ثلاثين سنة مضت ، ولم يعاودهم المرض الى يومنا هذا . وهذه السجلات هى التى أقنعتنى طوال هذه السنين ، بأن هذه الطريقة وحدها هى الطريقة العلمية التى تأتى بالنتائج المطلوبة فى شفاء المصاب

وهى طريقة فى وسع كل طبيب ملم بطبيعة الأمراض العقلية والنظرية المبنى عليها العلاج استعمالها ، اذ لا غموض فيها ولا سر ولا ابهام

وحتى أشرح النظرية التى على أساسها بنى هذا العلاج ، أستميح القراء عذرا ، اذا تحدثت فى الفصل التالى عن شخصى

الفصل الثانى :

كيف بدأت؟

لقد قضيت مرحلة حياتى الطبية فى مساعدة المرضى ـ من رجال ونساء ـ على التخلص من براثن الخوف ، والقلق ، والأفكار التسلطية ، والخجل ، والغيرة ، والانقباض ، بجانب العلل البدنية التى تلازم عادة هذه الاضطرابات النفسية

وهذه الحياة التى اتيحت لى ، هى الحياة التى احببتها ، ولا أزال احبها وأستمتع بها ، ولا يمكن أن أرضى بغيرها بديلا

لقد كنت منذ نعومة أظفارى ، أريد أن أكون طبيبا . وأذكر ان هذا كان مطمحى عندما كنت تلميذا ناشئا فى احدى مدارس « همتون » الابتدائية ، وقد شجعنى على تحقيق أمنية الطفولة أشقائى الثلاثة : دكتور وليم كولز «كبير الجراحين فى شومت الاباما » ودكتور ددلى كولز « رئيس دار هيث النشر » وكارتر كولز « مدير ضيعة كولز فدل الزراعية بفرجينيا »

وقد نشأت فى ضيعة زراعية على مقربة من بلدة « ولمزبرج » التاريخية الجميلة ، وكانت هذه الضيعة ملكا لأسرة كولز منذ أن نزح اجدادنا الى أمريكا ، مع

الفوج الأوروبى الأول من المهـاجرين ، واستوطنوا فى جيمستون

ولم يكن فى وسع أى ناشىء فى تلك البقعة التى كانت المهد الأول للحرية الأمريكية ، ألا يتأثر فى سن مبكرة بالمثل العليا ، التىكان ينادى بها فيما يتعلق بحرية الفرد

فى هـذه البقعة نشأت غلاما ريفيا ، مولعا بحياة الريف ، مغرما بشئونه . بيد انى بالرغم من هذا الولع وذلك الغرام ، لم يخطر ببالى أن أكون فلاحا ، ولم أشأ عندما اعتزمت أن أتخذ الطب مهنتى ، أن أكون طبيبا عاما غير متخصص فى أحد فروع الطب

ومن حسن الصدف ، ان بلدة « وليمزبرج » كان بها مستشفى للأمراض العقلية ، وهو أقدم مستشفى من نوعه فى أمريكا . وكنت أمر عليه يوميا ذهابا وايابا ، سواء فى مرحلتى التعليمين الابتدائى والثانوى ، أوعندما كنت طالبا فى كلية وليم وميرى

وكنت كلما مررت بذلك الصرح العابس ، أفكر فى ذلك الجيش الجرار من النساء والرجال انصـــاف الأموات ، الذين يقضون حياتهم خلف تلك الأسـوار السوداء المنيعة القاسية ، فتجيش فى خاطرى أشتات من أسئلة لاسبيل للاجابة عنها .. ما الذى كتب على هؤلاء التعساء البقاء فى ذلك السجن المظلم؟ وما الظروف التى أدت بهم الى تلك الحالة الأسيفة ؟ وما نوع العلاج الذى يتخذ وسيلة لشفائهم، واعادتهم الىحالتهم الأولى قبل ابتلائهم بالمرض ؟ وأهم من هذا وذاك ، كيف تصاب العقول بالمرض ؟ وما الذى يحدث للمرء حتى يفقد العقل وملكة التفكير؟ وما الذى يحدث له حتى يتجرد من

انسانيته ، فينحط الى أسفل درك من دركات الوحشية والبهيمية ؟

هذه أسئلة طالما كنت أوجهها الى نفسي والى الغير..

ولشد ماكان يحزنني، أن الاجابات التيكنت أتلقاها ، كانت تدعو لنهاية الأسف، ولم تكن تشفيغليلا. وكانت أسباب الأمراض العقلية فى ذلك الحين مجهولة بوجه عام ، أو مختلفا فيها على الأقل ، وكان دون ذلك معرفة وسائل علاجها . وكل ما كان يمكن تأديته من الخدمة لأولئك البؤساء نزلاء المستشـــفى ، هو حجزهم بين جدرانه السميكة حتى لايصيبوا أنفسهم اوالغير بالأذى، لأن حالاتهم المرضية كانت فى نظر الأطباء ميئوسا منها

وقد انطبع فى ذهنى من جراء هذه الحالة آثار ، تحدت تفكيرى . فوطدت عزمى على اتخاذ الطب العقلى مهنتى ، بدلا من الطب العام . وقد قر رايى على هذا القرار ، منذ التحاقى بكلية الطب فى رتشموند

* * *

كان كل مطمحى فى ذلك الحين ، تحرير أمثال هؤلاء من رق المرض

وبعد تخرجى فى كلية الطب ، وقضاء مرحلة التمرين فى ولاية فرجينيا ، رحلت الى بوسطن ، حيث التحقت بكلية الطب فى جامعة هارفارد ، لمواصـلة دراســاتى العالية فى طب الأمراض العقليـة والعصبيـة ، وهى أعظم كليات امريكا فى هذا النوع

وقد أتاحت لىجامعة هارفارد فرصة سانحة للاتصال باكبرعدد منالأطباء العالميين ، والتعرفعليهم ، والتقرب منهم. وفى مقدمة هؤلاء بلا منازع دكتور ادواردكولز.

وقد كان تشابه اسمى واسمه مجرد صدفة. وكان دكتور كولز أستاذا للأمراض العقلية ، ومدير مستشفى مكلين التابع لكلية الطب فى الجامعة . وكان أيضا أستاذا للأمراض العصبية فى كلية دارتموث الطبية ، ومحاضرا فى جامعة كلارك. ومما تجدر الاشارة اليه ، ان المحلل النفسانى الشهير سيجموند فرويد ، استدعى لأول مرة من فينا الى أمريكا ، لالقاء أول محاضراته فى هذه الجامعة (كلارك) ، بدعوة من العالم النفسانى المعروف ستانلى هول ، وشرح طريقته العالمية فى التحليل النفسانى . وقد كان لى حظ الاستماع الى محاضرات فرويد بصحبة كل من أستاذى العظيم دكتور كولز ، والعالم الشهير دكتور « بتنام » ، الذى درست عليه طب الأمراض العصبية فى جامعة هارفارد

ومن المعلومات الشائعة عن فرويد ، انه أول من ابتكر طريقة التحليل النفسانى فى شفاء المرضى. غير ان الواقع ان دكتوركولز كان قد نشر فى سنة ١٨٨٨ — أى قبل فرويد بعدة سنوات — تقريرا عن مريض بعصاب «الأفكار الثابتة » Fixed Ideas قضى فى تحليله ثلاث سنوات ، وتتبع اثر مرضه منذ طفولته ، أى انه سبق فرويد فى طريقته . على أن دكتور كولز لم يستنتج من دراسته ماتوصل اليه فرويد ، من ان كل عصاب منشؤه « ميول جنسية مكبوتة » أو «اضطرابات فى الوظائف الجنسية»

وكنت كلما تغلغلت فى دراسة العقل فى جامعة هارفارد، زدت ايمانا بأن الالمام التام بعلم وظائف الأعضاء (فيزولوجيا) ، من اهم الأسس التى عليها ينبغى بناء الدراسة فى طب الأمراض العقلية ، لأن العلاقة بين الجسم والعقل من المتانة بحيث ان حالة هذا تؤثر فى ذاك . ولم

ار طيلة المرحلة الطويلة التى قضيتها فى مهنتى ، عقلا مضطربا فى جسم سليم . كما اننى لم أفحص مريضا بدنيا ، كان فى تمام الصحة العقلية ، لأن الصحة وشاح يغطى الانســان كله .. جسمه وعقله ، والمرض يغزو الميدانين معا

وتصادف فى ذلك الحين ان دكتور ولتر كانون ــ وهو من أشهر علماء الفيزولوجيا ــ كان أســتاذا فى هارفارد ، فرجوت أن ألتحق بالفصل الذىكان يحاضر فيه لطلاب الدراسات العالية

وقد اتضح لى بعد ذلك ان طلبى هذا كان غريبا ، لم يسبق أن أحدا تقدم به قبلى ، لأن العرف لم يجر فى ذلك الحين بأن يتخصص طالب فى كل من طب الأمراض العقلية والفيزولوجيا فى آن واحد . وفوق ذلك قيل لى ان على أن أحصل على تصريح خاص من مجلس الـكلية الأعلى ، حتى يسمح لى بما أريد

ولما عرض طلبىعلىأعضاء المجلس نظروا اليه شزرا ، اذ خيل اليهم اننى من أولئك الشبان غريبى الأطوار ، الذين يتنقلون من قسم الى آخر، دون أن يستقروا على شيء معين. وطلبوا الى أن أقدم دليلا على وجاهة هذا الطلب ، واننى أعرف فعلا ماذا أريد ، وأقصده جادا

وقد استعنت بوالدتى وأعضاء أسرتى ، فكتبوا الى المجلس ، يشهدون اننى عرفت منذ طفولتى باتزانى وثباتى ومعرفتى بما أريد، واننى لم أعرف قطبالتأرجح بين فكرة وفكرة. غيرانالمسافة بين فرجينياوهارفاردكانت بعيدة فى ذلك الزمن . وكنت شـديد الرغبة فى سرعة انجاز هـذا الطلب ، حتى لا تفوتنى محاضرات دكتور كانون، فأخذت افكرفيما عسىأن أصنعه ، لأقيم الدليل

على أن رغبتى فى الاستزادة من علم وظائف الأعضاء ، تعزى الى شدة ميلى لدراسة العقل ووظائفه ومسالكه

أخيرا خطر ببالى أن أقدم للمجلس صـــــورة من محاضرة كنت تعبت فى اعدادها والقائها فى كلية وليم وميرى الطبية . وقد تم ذلك فعلا ، وقد أدهشنى أن أعضاء المجلس قد أجابوا طلبى أخيرا ، بناء على ما قرأوه فى تلك المحاضرة ، بالرغم من بعد موضوعها عن الدراسة التى أردت الاستزادة منها . وسرعان ما جلست الى دكتور كانون الشهير أستمع الى محاضراته

وكنت فى ذلك الحين أيضا منكبا على دراســـة المخ والنخاع الشوكى. فاستعنت بدكتور المر ســوثارد ، بمستشفى الأمراض العقلية بدانفرز، فىدراسة سجلات مرضاه ، ومضاهاة ما دون فيها بالبحث العلمى الذى كنا نقوم به فى معمل الجامعة ، فى تشريح المخ والنخاع الشوكى . وقد كانت هذه الدراسة جليلة الفائدة ، اذ كانت نتيجتها الوقوف على أسباب ادمان الخمر وطريقة علاجه (١) ، وايقانى بأن السر فى شــفاء الاضــطرابات العقلية ، ينبغى البحث عنه فى المخ والنخاع الشوكى

وسبقت الاشارة الى دكتور بتنام ، أستاذ الأمراض العصبية فى هارفارد . وقد كان لى حظ العمل معه فى عيادته الخارجية الملحقة بمستشفى مساتشوستس . وكان مرضاه من جميـــع الطبقات الاجتماعية ، وكانت اصاباتهم تشمل كافة الأمراض العصبية المعروفة . على أن نسبة كبيرة منهم كانت تشكو من العصاب المسمى

(١) لمؤلف هذا الكتاب الدكتــور كولز كتيب خاص ترجم الى عــدة لغات ، شرح فيه نظريته فى الادمان ، وطريقته الخاصة فى علاجه .

«نورستانيا» . وكان الدكتور جورج بيرد أول من ابتكر هـذا التعبير سنة ١٨٦٨ ، دلالة على الاصـابة بضعف الأعصاب عامة. وقد سماه أيضا مرض « نيو انجلند » ، لأن الـكثيرين من المصابين به كانوا من أهالى تلك الولاية

وبالرغم من مضى أكثر من عشرين عاما على النظرية التى نشرها دكتور بيرد ، وأقرتها الاوساط الطبية ، فان أحدا لم يكتشف علاجا ناجعا لشفاء النيروستانيا فىذلك الحين . وكانت النتيجة أنجميع منأصيبوا بتلك العلة، لازمتهم طيلة البقية الباقية من حياتهم ، مع العلم بأن فىكل أسرة فى تلك الولاية كان يشكو واحد على الأقل بهذا الداء ، وأصـبح مشكلا وعالة على أهله ، وكان الأطباء يمقتون هؤلاء المرضى ، وشكواهم المتواصلة من الصداع وأوجاع الظهر والمعدة، والتشنجات العصبية ، والنزلات المعوية ، والتقلصات العضلية ، وسوء الهضم، والآلام المتسببة من الغازات ، والاسهال ، والتجشؤ ، والشعور بالضعف . وكان لايدرى كيف يعالج هؤلاء . ومع أن أحدا من هؤلاء المرضى لم يمت بسبب هـذه الأعراض ، الا أن أحداً منهم لم يتخلص منها

لقد ظلوا طويلا أسرى آلامهم ، سجناء أمراضهم . وفى هـذا الأسر وذاك السجن تغيرت شخصياتهم .. توترت أعصابهم ، فأصبحوا يحسبون نظرات الغير لهم « اهانات » وقتلتهم سموم الغيرة والريبة حتى فى أعز الناس وأقربهم اليهم ، وسممتهم الأوهام التى بدت فى أعينهم أصدق من الحقيقة . ولم يكفوا عن الشكوى من أوجاع غريبة مخيفة تغزو كل عضو من أعضائهم . ولما كانت العلوم الطبية لا تجد أساسا لهذه الأحاسيس ، فقد كان كل ما فى وسع الطبيب عمله ، أن يصف هذه

الأعراض بأنها وهمية ، وأن ماعلى المريض الا أن ينساها

من النزوات الطبيعية عند أكثر النـــــاس الذين يستمتعون بكمال الصحة ، انهم يتضايقون ممن دونهم بصحة وعافيه ، اذا ماشكوا من اوجاع والام. كما ان اكثر الناس يأسفون حقيقة ، اذا ماشاهدوا جريحا ، أومريضا مكسور الساق ، أو محموما كثير الهذيان. هذه أمراض تراها العين ، فتترجمها الى فكرة .. « هبنى كنت فى مكانه.. » اما الأعراض التى تراها عيون الغير، ولايراها الا المريض ، والتى لا تسوء ولا تتحسن ، فانها مدعاة لضيق الصدور بها ، واليأس منها ، وعدم العطف على أصحابها

وهكذا كان المرضى بداء النورستانيا يفقدون عطف من حولهم من أطبائهم ..

وكنا فى العيادة سالفة الذكر - عيادة دكتور بتنام - نعالج هؤلاء المرضى بشيئين : الدواء والنصيحة . أما الدواء ، فلتخفيف وطأة الأعراض.. الاسهال ، الغازات الخ . أما النصيحة فكان الغرض منها حملهم على عدم التفكير فى أنفسهم، والخروج الى الهواء الطلق، والعناية بالطعام ، وتناول العناصر المغذية منها ، ولاسيما أن معظم مرضى النورستانيا كان يصعب ارضاؤهم فيما يختص بالطعـــام . وفضلا عن ذلك كنا نصف لهم فترات من الراحة والاستجمام ، والرياضة بالمشى مسافات طويلة

وكان هذا خير ما لدينا من علاج فى ذلك الوقت . وبالرغم من أن عيادة دكتور بتنام هذه ، كانت أرقى عيادات أمريكا ، فان الاتصال الشخصى بالمرضى ودراسة مشكلاتهم كانا فى حكم العدم

غيرأنهؤلاء المرضي بالنورستانياكانوا موضع أهتمامى وعنايتى ، فكنت أقضى وقتا طويلا فى التحدث اليهم ، وتشجيعهم على التحدث الى عن أنفسهم وعما يخالج نفوسهم من أفكار وأحاسيس . وكنت مدفوعا فى ذلك برغبة ملحة فىكشف أسرار ذلك الداء المجهول ، الذى لم توجه اليه المهن الطبية اهتماما يذكر ، فى حين انه كان أكثر انتشارا من مرض السرطان ، وأقل رحمة ، لأنه كان لا يميت المصابين به ، ولـكنه يعذبهم أعواما عديدة

وحدث ان دكتور بتنام جاءنى ذات يوم يطرىعملى ، وعرض على أن أشـــــغل كرسيا فى ذلك القسم من المستشفى فشكرته على هذا وقدرت صنيعه ولكنىقلت له انى أوثر أن تخصص لى حجرة ، أقوم فيها بنفسى بتجارب على مرضاه . فقال : « اذا كانت هذه رغبتك ، فلا بأس عندى من اجابتك اليها » .. وقد فعل

وبذلك شرعت توا فى أستدعاء المرضي الى مكتبى للتحدث معهم . وأخذت أوجه اليهم أسئلة عديدة ، لا فيما يتعلق بأعراض المرض — وهى كثيرة النوع — وحسب ، وانما كيف ابتدأت ، وماذا كانت الظروف الملابسة لأول مرة ظهرت فيها هـذه الأعراض ؟ وما الحوادث السابقة لها ؟ وكيف كانت حياتهم اليومية قبل المرض وقبل ترددهم على الأطباء ؟ وبذلت جهدا كبيرا فى دراسة شخصياتهم ، والبيئة التى عاشوا فيها

وقد بدأ عدد يذكر من المرضى يصرح لى بشعوره بالارتياح ، بسبب هذه المحادثات . وأخذ بعضهم فى التحسن بعض الشيء ، ولكن واحدا منهم لم يشف من مرضه ، لأننى كنت أعدم الوسيلة التى بها أساعدهم . ولـكنى كنت أسعى جاهدا الى ايجادها . ومع ذلك

فقد كانت النتائج مشجعة . وشعرت انني سائر في الطريق المؤدي الى بر أمين .. وكنت كل يوم أزداد خبرة بطبيعة المرض

وواصلت العمل على هذا النحو عدة شهور ، الى أن استدعاني دكتور بتنام يوما ، وأسر الى أن دكتور الوود ورشستر ، يفكر في افتتاح عيادة للأمراض النفسية العصبية ، وقد رشحني للعمل معه ، وقال انه واثق من كفايتي لملء هذا المنصب .. وقد سرني ذلك فقبلت على الفور

كذلك سر دكتور بتنام ، وأضاف الى ما قاله لي : « ان البروفسور وليم جيمس (١) شديد الاهتمام بهذه العيادة ، فأنصح لك أن تقابله أولا »

وقد كانت محاضرات « وليم جيمس » في الفلسفة وعلم النفس من أسمى ماتفاخر به الجامعات ، لا لتمكنه من دراسة العقل وإلمامه الغزير بقوانينه وحسب ، بل لتعمقه فوق هذا في العلوم التي تتصل به . وكان لتشجيعه اياي — فضلا عن دكتور بتنام — أعظم الأثر في اقبالي على العمل في عيادة دكتور ورشستر

وليس هذا مجالا للكلام عن العمل هناك بتفصيل .. حسبي أن أقول ان هذه العيادة كانت قبلة الأنظار من ألوف المرضى الذين قصدوها من كل صوب ، للعلاج من اضطرابات نفسية من كل لون وصنف . ولم تكتف باجتذاب الواردين اليها من أمريكا فقط ، بل أمها الكثير من الخارج ، حتى ان عددا كبيرا من مشاهير الأطباء

(١) كان وليم جيمس طبيبا وفيلسوفا ومربيا . وهو من أكبر علماء النفس في العالم ، ومن تلاميذه جون ديوي .

ساهموا فى العمل فيها ، فى مقدمتهم البروفسور وليم جيمس ، ودكتور بتنـام ، ودكتور رتشرد كابوت ، وأستاذى دكتور كولز

وفى الوقت الذى كنت أعمل فيه فى هذه العيادة ، اتخذت لى مكتبا فى عيادة شفيقى دكتور وليم كولز فى مدينة بوسطن . وحدث ذات يوم أن جاءت لاستشارتى سيدة مريضة ، سلخت من عمرها ٢٥ سنة تشكو من داء « الخوف من الجراثيم » Mysophobia .. وكانت ترتعد فرائصها اذا ما لمست شيئا لمسه احد غيرها . وكان يهيىء لها تفكيرها ان كل انسان وكل شيء ملوث بالأقذار ، تدب فيه الجراثيم . وكانت اذا دخلت مكانا ، انتحت زاوية فيه بعيدة عن الناس بالقدر المستطاع . وقد اضطرها هذا النوع من الخوف الى الاغتسال بعنف من ساعة الى ساعة ، حتى انها كثيرا ما كانت تدمى ساعديها وتنزع الجلد من يديها . وكثيرا ما كانت تتألم من جروح وتسلخات فى قدميها وساقيها وسائرالمواضع فى جسمها ، للشدة والقسوة التى كانت تلجأ اليها فى تنظيف نفسها بلا انقطاع . ولم يكن هذا أثناء النهار فحسب ، بل تعداه الى الليل. فقدكانت تهب من نومها مذعورة ، ظنا منها ان الأغطية ملوثة ، فتهرع الى حيث تستحم مثنى وثلاث ورباع ، الى أن تشبع أفـكارها التسلطية ، وتعود الى فراشها خائرة القوى . لقدكان مثل هذه المسكينة مثل سجين فى غرفة التعذيب ، وقد قضت فى هذا الجحيم نصف عمرها !

ولم تكتف بخوف الجراثيم التىخيلاليها انها تزحف فوقجسمها ، ولكنهذا الخوف امتد الى بيتها وأولادها .. فأخذت تغسل الثياب وتنظف الأرضيـة والحوائط

حتى يبست أناملها ، وهدأت أعصابها وخارت قواها .
وبلغ بها الأمر انها انهالت على أولادها تغسيلا وحكا ونتطيفا ، فى كل يوم ، وكل ساعة من النهار وبعض الليل ، ومنعتهم من كل نشاط آخر، حتى اضطرت الحكومة الى التدخل فى الأمر، وابعادهم عنها والحاقهم بأحد البيوت الخاصة !

* * *

وقد شهدت بعد ذلك حالات كثيرة مشابهة لحالة هذه المرأة .. أما فى عيادة ورشستر، فقد كانت نسبة كثيرة من المرضى تشكو من هذا الداء ، وغيره من الأمراض المماثلة التى اتفق على تسميتها « التسلطية » Compulsion Neurosis بما فى ذلك العصاب الذى يضطر المريض أن يضع قدمه على كل شق فى الطريق ، تجنبا لما قد يصيبه من سوء الحظ ، ولم أشهد حالة واحدة من هذه الأمراض التسلطية شفيت بالعلاج الذى كان معروفا حينذاك ، اذ كانت فى نظر الطب حالات ميئوسا منها ، ولكنها غير خطيرة

ونعود الى المرأة ــ أم الأطفال ــ التى جاءت الى عيادتى الخاصة فى بوسطن، فأقول انها ترددت على عدد لا يحصى من الأطباء للعلاج بكافة أنواع الوسائل الطبية المعروفة فى ذلك الحين. ولكن مرضها التسلطى أى شدة فزعها من الأقذار والجراثيم ، وخوفها من التلوث بها ، بقيا على حالهما . وحكم عليها بأن حالتها غير قابلة للشفاء ، وأشار الكثيرون بارسالها الى مستشفى «المجاذيب»!

فعكفت على دراسة حالتها بعناية فائقة ، بالتحدث اليها طويلا فى أوقات متفاوتة ، ومحاولتى بكل وسيلة ممكنة الوقوف على منشأ هذا الخوف المرضى . وبذلت

الجهد فى مناقشتها مناقشة منطقية ، ولجأت معها الى كافة الوسائل العلاجية التى كان يعرفها طب الأمراض العقلية فى ذلك العصر.. ولكن هذا كله لم يجد معها نفعا

أخيرا صحبت المريضة فى زيارة الى دكتور بتنام ، ورجوته أن يفحصها ، ويشير على بطريقة العلاج التى يحسن اتباعها معها

فاقترح ان تعطى حمامات ساخنة وباردة يوميا تحت اشراف طبيب . فقلت : « لقد لجأنا الى هذا العلاج يادكتور بتنام ، فلم يأت بنتيجة » ، فأجاب : « اذا دعها تمارس رياضة المشى يوميا ، وأن تزيد المسافة كل يوم عما سبقه ! »

فذكرت له وسائل العلاج التى جربتها معها ، ومنها الحمامات ، ورياضة المشى ، وتكليفها بأعمال منوعة ، تبعدها عن التفكير فى الجراثيم . فلم يأت شىء من هذا بنتيجة ، بل الواقع أن حالتها تزداد من سيىء الى أسوأ

فقال دكتور بتنام : « اذا ففى هذه الحالة يجب أن تحاول التنقيب والفحص عن كل فكرة تجول فى رأسها ، وأن تضطرها الى مناقشة هذه الفكرة وبحثها »

فأوضحت له اننى جربت ذلك أيضا فلم أفز بنجاح. وقد تبسطت معى فى الحديث وناقشت معى ما يجيش فى باطنها من أفكار الى أقصى حد ممكن ، ومع ذلك فالتغسيل والتنظيف على قدم وساق ، ليلا ونهارا

وفى هذه الآونة رأيت أن أوجه الى دكتور بتنام سؤالا ، طالما دار فى رأسى ، وطالما قلبته على كافة وجوهه : « ألا يمكن اعطاء هذه المرأة دواء ؟ الا يوجد فى الطب عقار يخفف من وطأة هــذه الأحاسيس العنيفة التى تدفع

المسكينة الى التفسيل الذى لا نهاية له ؟ اننا اذا توصلنا الى تخفيف حدة هذه الدوافع ، فقد نتمكن من التغلب على هذه الأعمال الاضطرارية »

فهز دكتور بتنام رأسه قائلا : « لا نعرف فى الطب دواء له هذا المفعول ، ولكنك تستطيع طبعا أن تعطيها عقارا مقويا... لبناء ما تهدم من قواها .. حاول ذلك»

غير اننى كنت لا أزال أعتقد ان الطب لايمكن أن يخلو من عقار ، يكون له أثره فى الجهاز العصبى المركزى ، فيحد من تهيج خلاياه وسرعة تأثرها ، ويخفف من شدة الدوافع التى تضطر المريض الى هذه الأعمال التكرارية. ومما زادنى ايمانا بهذه العقيدة ، ما استنتجته من دراساتى فى علم النفس ، والأبحاث والتجارب التى أجريتها فى مستشفى دنفرز للأمراض العقلية ، وعملى فى هارفارد تحت اشراف دكتور كولز . ومعنى هذا اننى اعتقدت ان المرض ينشأ فى الجسم لا فى العقل

ولاشك ان هذا الرأى كان مناقضا لنظريات الأخصائيين فى طب الأمراض العقلية فى ذلك الحين ، ومؤداها ان كل أنواع الخوف المرضى Phobia منشؤها العقل

بيد اننى رغم هذا تمسكت بعقيدتى ، وأصررت على ان المرض ينشأ فى الجسم ، وعلى هذا الأساس يجب أن يكون العلاج حيث يكون المرض . وبالقدر الذى توافر لى من المعرفة ، قلت ان الأمل الوحيد فى مقدرة المريض على مقاومة الدوافع التى تضطره الى القيام بهذه الأعمال التكرارية التسلطية ، هو الحد من سرعة التهيج فى الخلايا العصبية والتخفيف من وطأة توترها . وهذا لايتأتى بمجرد الكلام ، فقد جرب ذلك أطباء هذه المرأة

طيلة ٢٥ عاما ، فزادت حالتها سوءا بدلا من أن تتحسن، وزادت دوافع الاسراف فى التنظيف شدة

وكثيرا ما كررت على مسمعى هذه العبارات يوما بعد يوم : « انني أدرك جيدا ان فكرة القذارة والتلوث خاطئة، وأعرف تمام المعرفة ان الخوف من الجراثيم والاغتسال بهذه الكثرة وهذه الشدة ، نهاية الحمق. أعرف هذا وادرك ذاك ، ولكن لا حول لى ولا قوة على الكف عنهما. ومتى تسلطت على الفكرة ، وسرى فى الدافع ، فلاسبيل الى مقاومتهما . انهما من القوة بحيث لا أستطيع الوقوف فى وجهيهما أو عصيان أوامرهما. لابد من الطاعة ، لأنها الوسيلة الوحيدة التى تشعرنى بالارتياح (مؤقتا) »

وهذه نفس الأقوال التى كان يرددها جميع المرضى بعصاب الأعمال التكرارية التسلطية فى عيادة الدكتور بتنام ، وفى عيادة ورشستر .. لقد كانت أقوالهم كلها متشابهة .. كان لابد لهم من اطاعة تلك الدوافع والانصياع لأوامرها ، مهما كانت بعيدة عن المنطق ، لأنهم بغير ذلك لايذوقون طعم الراحة والتحرر ...

التحرر من ماذا ؟..

هذا سؤال طالما وجهته للمرضى وواصلت المطالبة بالاجابة عنه ، حتى أقنعت نفسى بأن المريض لا يخاف الجراثيم فى الواقع ، لأن المرأة التى نحن بصددها كما سبق القول ، تدرك جيدا سخافة هذا الأمر ، ولكنها تخاف تلك الأحاسيس التى تنقض عليها بسرعة وعنف. ولابد ان شيئا حدث ذات مرة أوجد فى ذهنها رابطة بين هذه الأحاسيس وبين فكرة التلوث بالجراثيم ، فتوطدت العلاقة على مضى الزمن بينهما. وما الاغتسال الاضطرارى

تخلصا من هذا التلوث ، سوى محاولة للتخلص من هذا الشعور. وبعبارة أخرى كانت المرحلة أو الحلقة الأولى فى هذه السلسلة ، الأحاسيس .. تلتها الحلقة الثانية وهى فكرة التلوث بالأقذار أو الجراثيم ، وأخيرا الاغتسال التكرارى التسلطى والامعان فيه حتى تهدأ حدة ما تحس به مؤقتا

هـــذه هى الصـــورة التى رسمتها لعصـــاب الأعمال التسلطية ، وأيقنت انها مطابقة للواقع . واليوم ، وقد سلخت أربعين عاما فى علاج الأمراض العقلية بشتى الوانها ، أؤكد أن هذه هى الصورة الأساسية ، التى تنطبق على كافة أمراض العصاب . اذا فكل علاج للنظام الفكرى وحده ــ كالعلاج بالتحليل النفسانى بغير دواء ــ لايمكن بأى حال من الأحوال أن يشفى العصاب

* * *

نعود مرة أخرى الى السيدة المريضة . لقد ذهبت الى دكتور بتنام للبحث معه فى نظريتى هذه ، وابنت له ان ما تخافه المريضة حقيقة ، ليست الجراثيم ، بل الشعور أو الاحساس الذى سرى فى جسمها . وهذا الشعور لايزيد عن كونه احساسا عاديا ، ككل احساس آخر فى الانسان السليم . غاية الأمر انه بلغ عنـــد المريضة درجة مخيفة من الشدة والعنف ، بسبب هبوط الطاقة فى الجهاز العصبى المركزى

فما كاد الدكتور بتنام أن سمع بذلك حتى اعترف بوجاهة هذا الرأى ، وعنى أشد العناية بهذه النظرية ، وشجعنى على البحث عن العلاج الذى نتفق واياها . والواقع اننى عرضت رأيى على كل من دكتور بتنام ، ودكتور كولز على حدة ، بغير أن يعرف أحدهما اننى

اتصلت بالآخر . . فألح على كل منهما مستقلا وعلى حدة ، أن أشرع على أساس نظريتى فى تجريب العلاج الذى تشفى به المرأة من ذلك المرض الذى طال أجله . ومما زادنى تشجيعا ان كلا منهما أكد لى سلامة النظرية وانها جديرة بالعمل على أساسها

وهنا ينبغى التنبيه على ان وضع أحاسيس الجسم ، قبل الفكرة ، كما فى حالة الخوف من الجراثيم ، ليست فكرة جديدة مبتكرة .. فقد ذكر وليم جيمس فى مؤلفه « علم النفس » الذى ظهر فى سنة ١٨٨٤ ، ان الاحساس الذى يسرى فى الجسم يسبق الفكرة (١) . وفى الحال يرتبط هذا بتلك ، أى ان الأحاسيس تنير الأفكار . وفى اعتقاد وليم جيمس ان الأولى سابقة على الثانية ، واننى أشاركه فى هذا الاعتقاد

وبالرغم من أن المشتغلين بطب الأمراض العقلية قد اطلعوا على مؤلف وليم جيمس فى علم النفس ، فان علاجهم لمرضى العصاب كان على أساس انه اختلال فى النظام الفكرى . واستندوا على هذا الرأى بدليل اعتقادهم ان فكرة التلوث بالجراثيم عند المريض تمر كالبرق الخاطف فى ذهنه ، ونظرا للسرعة التى تمر بها وشدة وقعها ، يخيل الى المريض انها تسرى فى جسمه . وعلى ضوء هذا التعليل ، وعلى أساس هذا المنطق ، فسروا سائر المخاوف المرضية والأعمال التسلطية .. مثال ذلك الخوف من الأماكن المقفلة أو الضيقة Claustrophobia التى قالوا عنها أن الفكرة التى تسيطر على المريض فيها أنه محصور فى مكان ضيق مغلق ، تسرى

(١) مثال ذلك اننا نحزن أولا ونخاف بعد ذلك ، ونبكى فنحزن ، لا العكس . ويشارك جيمس فى هذه الفكرة دكتور لانج الدانمركى .

فى ذهنه سريانا سريعا قويا خاطفا كالبرق ، فيشعر بالاختناق وشدة الخفقان . وكذلكَ تطبق هذه النظرية على ذلك المرض التسلطى الذى يسمى الخوف من الأماكن الفسيحة أو المفتوحة Agoraphobia ومثله الخوف من الحيوانات والخوف من الأكل (١)

وفى كل نوع من هذه المخاوف ، كان الطبيب يبحث عن منشأها فى عقل المريض لا فى جسمه . وكان أكثر الأطباء لايصـــدقون ان تلك الأحاسيس المؤلمة الحادة الغامضة التى يشكو منها مرضى العصاب ، لها ظل من الحقيقة ، بل هى مجرد وهم وخيال

وسرعان ما اقتنعت بأن أحاسيس الجسم هى الأصل فى خوف المريض ، حتى قلت فى نفسى ان هذه الحالات ليست عقلية وحسب ، انما تشمل الجهاز العصبى المركزى بأجمعه . اذا فالعلاج النفسى وحده لايكفى ، بل ينبغى علاج المواضع التى يتركز فيها المرض ، ألا وهى الخلايا العصبية

والتفسير الوحيد الذى أستطيع الاستدلال به على عنف الأحاسيس فى جسم المريض ان الخلايا العصبية ــ فى الجهاز المركزى العصبى ــ لابد أن تكون سريعة الانفعال والتأثر ، ولاشك أن هذه السرعة من صفات كل خلية عصبية فى جهاز الشخص السليم ، والا عجزت هذه الخلايا عن حمل الرسائل من المخ واليه . غير ان هذه الخلايا فى الشخص المريض تبلغ فيها الحساسية درجة من الشدة، بحيث تسبب له الآلام المبرحة والخوف الذى لايدرك مداه الشخص السليم

---

(١) وتوجد عشرات أخرى من هذه الانواع مثل الخـــوف من النار والخوف من الموت والخوف من النساء والخوف من الرجال ألخ .

وكنت لا أدرى سبب تلك الحساسية الشديدة حينذاك ، غير اننى بعد دراسة عدد كبير من حالات الامراض النفسية بعد ذلك ، والوقوف على تاريخ كل حالة ، والموازنة بين الواحدة والأخرى ، اتضح لى ان التعب اكبر عامل .. وسنبحث هذا العامل الهام فى غير هذا المكان من الكتاب

وكان همى فى ذلك الحين منحصرا أكثره فى ايجاد العقار الذى يخفف حدة هذه الحساسية فى الخلايا العصبية ، وبهذا تنكسر شوكة الدوافع التى تضطر المريض الى اتيان الأعمال التسلطية ، فيستطيع تفهم شعوره بما يتفق والمنطق . وهذا العقار هو ما أردت دكتور بتنام أن يعيننى على العثور عليه. ولما لم يرشدنى اليه ، عقدت العزم على التوصل بكل وسيلة ممكنة الى البحث عنه

وقد قضيت بين ثلاثة شهور واربعة فى التجريب فى هذا السبيل . وكان على أن أكون حريصا على مراعاة الأمور الهامة فى تحضير هذا الدواء ... أن يخلو من العناصر التى تسبب الادمان كالأفيون مثلا ، وأن يبلغ مفعوله من القوة ما يكفل تخفيف وطأة الحساسية ، وان يساعد على ابطاء الدوافع النفسية التى تنتقل فى الجهاز العصبى بسرعة البرق ، وان يرفع الطاقة العصبية حتى تهبط درجة الخوف فى عقل المريض . هذا فيما يتعلق بالدواء نفسه ، أما عن كيفية استعماله ، فيلزم الا تكون الجرعة قوية فوق ما يجب ، حتى لا تشل الخلايا العصبية ، بل يكفى أن تكون من القوة بحيث تحد من حساسية المريض ، فتستريح الخلايا ، وتتجدد ، وتعود الى الحالة التى ارادتها الطبيعة أن تكون

وكانت عادة الأطباء فى مستشفيات الأمراض العقلية ومصحاتها ، اعطاء المرضى جرعات من الأدوية القوية التى تنزل عليهم كالصاعقة ، فتخدر أجسامهم وتتركهم فى سبات عميق أياما. وكان ينتج عن ذلك تسمم المريض، فتسوء حالته سوءا فوق سوء . لذلك حرصت فى تحضير الدواء أن يكون معتدلا فى مفعوله ، وأن تكون عناصره فى مجموعهـا مغذية للخلية العصبية بطريقة مباشرة ، وبطريقة غير مباشرة ، اذ لابد من بناء الخلية ورفع طاقتها ، تعويضا لقوى المريض المنهوكة ، وتخفيفا لشدة حسه

واخيرا اهتديت الى تركيب ، اعتقدت انه يؤدى الى الغرض المقصود . وهو دواء منبه ومسكن فى الوقت ذاته ، يخفف من حساسية الخلايا ويجعلهـا قابلة للتغذية ، ويساعد الانفعالات على الاتزان ، ويحد من عنف « الرسائل » التى تمر من جسم المريض الى عقله

وعند تجربة هذا الدواء ظهر انه يضعف فى المريض الدوافع التى تضطره الى الأعمال التكرارية ـ كالافراط فى الاغتسال ـ ويقوى سيطرته عليها .. فأخذت أتبع الدواء بالعلاج النفسى ، وبهذا عالجت الجسم والعقل معا ، لأن المرض قد أصاب كلا منهما . وهذه العبارة الأخيرة لا أعتذر عن تكرارها ، لأنها فى رأيى أهم ما يجدر معرفته

وقد كان تأثير الدواء فى المصابة بداء الخوف المزمن من الجراثيم عظيما. فسرعان ماتبين لها ان فى استطاعتها مقاومة الدافع الذى يضطرها الى الاغتسال . ولم يكن سبب ذلك ان جرعة الدواء التى كنت أعطيها اياها يوميا ، قد فعلت فى قوتها الارادية فعل السحر ، وانما لأنها

خففت من عنف الدافع للأعمال التسلطية ، لا غير . وبهبوط درجة هذا العنف ارادت المريضة أن تسيطر على هـذا الدافع ، فبذلت جهدها فى ايقافه عند حده

ولما أصبح فى مقـدورها الوقوف فى وجه تلك الأحاسيس ، وما يصحبها من الاغتسال التكرارى تبين لها ان كلا من الأحاسيس والأعمال التكرارية التسلطية ، خفت شدتها من جهة ، كما نقص عدد المرات اليومية التى كانت تحدث فيها . وبهذا أتيحت لها فرصة أوسع للراحة بين الازمة والأزمة ، وأصبحت أقدر على المقاومة .. وكانت هذه بشائر شفائها

وبتقدم العلاج كانت تحاول استعادة الأحاسيس التى كانت تخيفها ، فأصبحت فى نظرها الآن لا تخشاها . وكانت تتخذ فكرة الجراثيم التى كانت ترتبط فى ذهنها بهذه الأحاسيس وسيلة لاستعادة الأحاسيس . وقد كانت تعود فعلا ، ولكن أقل عنفا بكثير من ذى قبـل . وباستمرار العلاج أصبحت تجد صـعوبة كبيرة فى استعادتها ، الى أن جاء يوم أبت فيه الأحاسيس أن تعود بتاتا رغم محاولة المريضة . وسبب ذلك زوال عامل الارتباط بين فكرة الأقذار والجراثيم والأحاسيس ، وزوال فكرة الخطر التى كانت ترتبط بها . وهكذا أخذت المرأة تستعيد صحتها ، وحلت الطمأنينة والأمن مكان الخطر والخوف ، فبدلا من تلك القضبان الحديدية التى ظلت قابعة وراءها سنوات طويلة فى سجن المرض ، شهدت الهواء الطلق وتشممت ريح الحرية والعافية

ولم يتملكها بعد ذلك خوف الجراثيم .. فقد كنت آمرها أن تسير يوميا فى أقذر أحياء بوسطن ، وتذرعها جيئة ورواحا ، وأن تمس بيديها كل سياج أو جدار

قذر، وكل باب أو نافذة ملوثة ، وان تحتك بالحوانيت والمحال التجارية ، وتلتقط الأوراق والنفايات من سلال المهملات . وبالرغم من ذلك كانت تعجز عن استعادة ذلك الشعور الأليم ، أو ذلك الدافع الاضطرارى للاغتسال ، اللهم الا ما يحس به الشخص المعافى من ضرورة غسل يديه بعد تلوثهما

وكان شفاؤها كاملا مستديما . وبقيت كذلك طيلة السنوات الباقية من حياتها . وقد أعيد اليها أولادها ، وبدأت صفحة جديدة فى حياتها ، بعد أن ظلت فريسة المرض والخوف وعذاب الألم ، ربع قرن كامل

ما الذى حدث ؟ ..

لم يكن ما حدث معجزة ، بل سلسلة من الحوادث تتفق والعقل والمنطق ..

حدث قبل كل شيء ، أننا أضعفنا قابلية الخلايا العصبية للتهيج الشديد وسرعة الانفعال بالدواء الذى وصفناه . وبالدواء كذلك غذينا هذه الخلايا ، حتى يتاح لها بناء الطاقة العصبية ، وهى من أثمن ما يعتز به الانسان . وفى الوقت ذاته شرحنا للمريضة - تفصيلا الأسباب التى أدت الى المرض ، وأثبتنا فى ذهنها ان ما كانت تخاف منه من شعور فى جسمها لم يكن خطيرا أو مؤذيا على الاطلاق ، وان الخطر لم يكن سوى ما تعزوه هى لتلك الأحاسيس، لجهلها بطبيعة المرض. ومما حدث أيضا اننا انتزعنا من المريضة عامل الارتباط — ذلك العامل الخبيث — بين أحاسيس الجسم وفكرتى الجراثيم والخطر. وبهذا العلاج زال العصاب وأصبح تيار الفكر عند المريضة سليما قويا لا يعترض سبيله عائق

وقد تتبع هذه الطريقة الجديدة فى علاج الاضطرابات

العقلية بكل حماسة واهتمام ، كل من الدكاترة وليم جيمس ، وادوارد كولز، وبتنام . ونظرا للنجاح العظيم الذى صادفته والتشجيع المنقطع النظير الذى لقيته من أساتذتى العظام الذين كانوا موضع اعجابى ، واعجاب المئات من آفراد الأسرة الطبية ، واصلت علاج مرضاى بهذه الطريقة ، ولا أزال حتى كتابة هذه السطور

وحتى يكون الدواء ناجعا ، ينبغى أن يكون أثره محسوسا فى تخفيف عنف الانفعالات التى تؤلم المريض ، حتى يتمكن من تفهم الشعور الغامض الذى يسرى فى جسمه . وفى وسع كل طبيب أن يطلب تركيب هذا الدواء ، بشرط أن يكون قد درس جيدا كلا من هذا الكتاب والكتاب الذى سبقه « لا تخف » . فمن العبث أن يستعمل هذا العلاج من لم يدرس طريقته دراسة صحيحة. انها طريقة دقيقة ، اذا اتبعها الطبيب بدقة كافية ، جنى منها كل من الطبيب والمريض نتائج باهرة

وهناك نقطة جديرة باسترعاء الأنظار اليها . الا وهي وجوب استيفاء العلاج ومواصلة تعاطى الدواء ، أربعة شهور على الأقل ، وأن بدا للطبيب والمريض انالأعراض قد زالت ، وان المصاب بها قد استرد صحته كاملة . وقد يتطلب العلاج عند بعض المرضي مدة أطول ، ولكنى وجدت بالاختبار أن متوسطها أربعة شهور . وهى مدة تكفى للتحرر من أعراض المرض ، وتجديد الطاقة العصبية ، وتخفيف حدة الحساسية ، والشعور بالطمأنينة ، وتعود الحياة العقلية السليمة. ومهما طالت مدة المرض ، ومهما تعقدت حالة صاحبه بالاعراضالمؤلمة المخيفة ، فان هذا العلاج كفيل بشفاء المريض ، وتمهيد السبيل له نحو عالم جديد

ماذا تعلمت من مرضـاى ؟ ..

لقد تعلمت من مرضاى ودراسة آلامهم واضطراباتهم العقليـة التى لا تزال يساء فهمها بوجه عام ، والتى لا تزال عرضة للتجاهل ، والاهمال ، وســوء التشخيص وسوء العلاج ـ حقائق أساسية هامة عن العقل وعلاقته المتينة بالجسم

علمتنى أمراضهم ، وعلمنى علاجهم وشـفاؤهم ان النظرية التى بنيت عليها طريقتى ، حقيقة لا تقبـل الجدل . وخلاصة هذه النظرية ما يأتى :

هبوط الطاقة فى الخلايا العصبية ، يسبب شـدة توترها وحدة تأثرها . وهذه تسبب أحاسيس فى الجسم غريبة مخيفة ، يربطها المريض بفكرة ـ كفـكرة التلوث بالجراثيم . وقد أقامت الدليل على صحة هذه النظرية ، ألوف الحالات التى عالجتها . وهذا الدليل يحدو بى أن أؤكد للقارىء ان كل خوف فى الذهن يسبقه ويرتبط به احساس فى الجسم . وليس هـذا الاحساس وهما وخيالا كما يخيل للبعض .. انه حقيقة واقعة لا غش فيها . ولكن هذا الاحساس لا خطر فيه على الاطلاق ، ولا ضرر منه ، أيا كانت الآلام المبرحة التى قد تتسبب عنه ، ومهما أدت بصاحبها الى الحرج وخوار القوى . ولان هذا الاحساس ينزل على صاحبه كالصاعقة من حيث لايدرى ، ولايعرف له سبب ، فان المريض يحسبه بطبيعة الحال خطرا

وهذا الاحساس حيثما وجد ـ فى الرأس أو القلب أو المعدة أو الأطراف ، وأيا كان نوعه ـ ألم حاد أو هادىء ، خفقان ، تشنجات ، اختلاجات ، رفرفة أجنحة فى المعدة ، صداع مزمن متواصل Migraine دوخة ، فقدان بصر ، أصوات غريبة فى الآذان ، أحاسيس عابرة « عائمة » ، الشعور بعدم الوجود ، تبلد الذهن .. هذا كله وذاك قابل للشفاء ، طالما كان الطبيب ملما بطبيعة المرض ، وكيف نشأ ، وكيف يعالج

أما الخوف الذى ارتبط فىذهنالمريض بأحاسيسه ، فيمكن التخلص منه بالعلاج النفسانى فى الوقت ذاته الذى يعالج فيه المريض بالدواء . ومثل المصاب بمرض عقلى مثل رجل كسرت ساقاه فى حادث . فليس من المعقول أن يشرع طبيب العظام فى علاج ساق واحدة ، ثم ينتظر ريثما تلتحم عظامها ، قبل الشروع فى علاج الأخرى . كذلك الأمراض التى نحن فى صددها ، نصفها عقلى ونصفها بدنى ، اذا فلابد من علاج النصفين فى وقت واحد ، كما تعالج الساقان فى وقت واحد

ومتى اتبعت هذه الوسيلة فى العلاج بأمانة ودقة ، تم شفاء المريض بسرعة غريبة ، وتجددت شخصيته وقويت ، وأصبح قادرا على ادارة شئونه ، وتحمل مسئولياته والقيام بواجباته كما كان يفعل من قبل ، بعد أن كان يخشى ألا يسترد صحته قط . وتصبح الحياة فى عينيه ذات معنى جديد ، وذات جمال طالما حرم منه أعواما . وتفتح أمامه أبواب فرص طالما كانت فى وجهه موصدة ، ويدخل مرة أخرى دنيا جديدة ـ دنيا الحرية والهواء الطلق ـ بعد دنيا السجن والمرض، وهوائهما الملوث الفاسد

الفصل الثالث :

لست الوحيد

قال لى مريض مرة ، بعد أن قضى فى العلاج فترة وجيزة :

ـ ان أهم ماشهدته ـ منذ أن جئت للعلاج فى عيادتك ـ اننى اكتشفت وجود عدد من المرضى الذين يشكون مما أشكو منه من تسلط الأفكار الغريبة والاحساسات المبهمة ، مما حدا بى أن آمل فى الشفاء ، وأن أدرك اننى لست الوحيد الذى ذاق طعم التعاسة والشقاء

فاذا كنت ـ أيها القارىء ـ تشكو خوفا ، أوخجلا ، أو شعورا حادا بالغيرة ، أوتفتقر الى الثبات والاتزان فى داخلك أو انك عديم الثقة بنفسك ، أو ان ألوانا كثيرة من الأمراض فى جسمك تتحدى كل فحص طبى ، أوتحليل بكتريولوجى .. اذا كنت هذا أوذاك فدعنى أقول لك ، انك لست الوحيد فى شكواك .. أنت واحد من عدد لايحصى من الرجال والنساء ، من كافة الأعمار والأجناس ودرجات الذكاء .. انك لاتنفرد وحدك بهذه الاضطرابات البدنية والعقلية ، ولم يقصد الخالق توقيع عقوبة معينة عليك ، ولست مصابا بهذا المرض لتكفر عن اثم ارتكبته .

وليس العالم كما تظن يكيد لك .. انك مريض ، لأنك بسبب الجهل قد كسرت قوانين الصحة الأساسية

أنت مريض ولـكن ليس ثمة ما يدعو لبقائك هكذا شفاؤك فى حيز الامكان

وحتى تشفى لابد من العلاج ، كما ينبغى لك أن تعرف عن نفسك أكثر مما تعرف الآن ، وان تتفهم العلاقة الدقيقة المتبادلة بين الجسم والعقل ، وأن تلم بالقوانين التى تنظم هذه العـلاقة . ومتى ألممت بهـذه القوانين ينبغى أن تعيش بموجبها ، وتعمل معها لا ضدها

ولنبدأ العلاج بفحص أنفسنا قليلا

اعرف نفســـك

هل أنت عديم الثقة بنفسك وبمقدرتك على ملاقاة الحياة وجها لوجه ؟ هل تشكو من خجل أليم ؟ هل تضيق صدرا بالمجتمعات ، وتشعر بالحرج والارتبـاك أمام من لا عهد لك به من الناس ؟ ألا تشعر بالارتياح حقيقة ، الا اذا كنت وحدك ؟

اذا كانت اجاباتك نعم .. فأنت خائف

أتشعر ان الناس يسيئون فهمك ، وانهم لايقدرونك، وان العالم ضدك ؟

اذا فهذه أيضا من أعراض الخوف ..

هل أنت كثير التفكير فى الماضى والتأمل فيما فات ؟ هل تشعر انك ارتكبت اثما أو وزرا نحو شىء أوشخص معين ـ سواء أكان ذلك حدث فعلا أم لم يحدث ـ فى الماضى البعيد ؟

هل تحمل بين جوارحك الأحد والديك حقدا ، لسوء معاملته إياك فى طفولتك ؟ هل انت شديد الغيرة على اخ لك أو أخت ؟ هل تميل الى مشاركة اصدقائك فى السراء والضراء ، أم تميل أن تكون أنانيا ، تأخذ ولا تعطى ؟ هل تحترق بنار الغيره اذا ما رأيت زوجك (للرجل والمراه على السواء) تراقص غيرك او تحادثه ، وتتالم لذلك ؟

كل هذه ألوان منوعة من الخوف ..

هل أنت دائم التفكير فى نفسك ، دائم الشعور بما يحدث لك ؟ هل تتوجس شرا من أمور مبهمة مجهولة تتوقع حصولها جاثمة أمامك ولكنك لا تراها ؟ هل أنت سريع الانفعال من ترهات وتوافه لا تقدم ولا تؤخر؟ هل تستشيط غيظا وغضبا وتخشى أن يؤدى بك الى حيث لا تستطيع أن تسيطر على نفسك ؟

هل أنت دائم التفكير فى نفسك ، دائم الشعور بما أنت كثير التحيز ، شديد التعصب بوجه عام ؟ أتجد صعوبة فى التزام حسن العلاقة مع الآخرين ؟

أتكره الاستيقاظ من النوم صباحا ؟ وهل تشعر دواما بالتعب عند قيامك من النوم ، ولا تستعيد راحتك الا بعد ذلك بعدة ساعات ؟ هل يزول عنك التعب فى الساعات المتأخرة من النهار ، وتحس بشىء من البشر والنشاط فى الساعات المتأخرة من المساء ، عندما يكون غيرك متأهبا للايواء الى فراشه ؟

هذه كلها أعراض معروفة لتوتر الخلايا العصبية وشدة حساسيتها ..

هل تشعر احيانا ان راسك تدور وفكرك يضطرب وان عقلك صفحة بيضاء وذهنك رقعة خاوية خالية ؟

ايخيل اليك انك فى غير عالم الحقيقة ، وتخشى أن يظن الناس ذلك فيك ؟ أمن العسير عليك أن تتخذ قرارا فى شيء ؟ اتقدم رجلا وتؤخر اخرى قبل البت فى امـــور ومسئوليات عادية ؟ هل تجد نفسك مضطرا على الدوام أن تســـتعين برأى الغير ، فيما تبيع وتشترى ، وما تلبس وما تعمل ؟

هل تأتى اعمالا تكرارية تسلطية ، قد لا يعرفها فيك سواك ؟ .. مثال ذلك انك تقول لنفسك : « يلزم ان اعمل هذا ، أو يلزم الا اعمل ذلك » ، خشية ان يحدث لك او لغيرك ممن تحب ، سوءا اذا لم تستجب لذلك النداء السرى فيك. هل تتشاءم عادة من أرقام معينة ، او اسماء ، او اماكن ؟ هل تحس بألم او مضايقة او عدم ارتياح ، اذا لم تتجنب هذه الاشياء ، او تنصاع لهذه الخزعبلات؟ هل تخاف : الوحدة؟ الظلام؟ الأماكن المزدحمة؟ الرعد والبرق ؟ مصادفة الجنازة ؟ عبور الطريق ؟ رؤية القطط أو غيرها من الحيوانات ؟

هل تخشى عادة أن تكون قد نسيت غلق خزانتك ، أو باب بيتك ، أو اطفاء المصباح الكهربائى ، أو موقد الغاز ؟ وهل كثيرا ما يدفعك الشك الى الرجوع الى تلك الأماكن مرات للتأكد مما حدث فعلا ؟ ان الكثيرين الذين يشكون من هذه الأشياء ، ليسوا مجانين ، وليسوا فى حاجة الى تحليل نفسانى أو مثل ذلك من أنواع العلاج. انما كل ما بهم ان الطاقة العصبية فيهم هبطت الى درجة تتطلب الدواء والعلاج بالطريقة التى أطنبنا فى شرحها

هل تشكو من حركات عصبية . مثال ذلك : رفة العين، وتقطيب الحواجب، وتقلصات الوجه ، وارتعاش الأيدى ؟ هل يتصبب منك العرق بكثرة تخجلك ؟ هل

تشكو عللا بدنية منوعة ، دل الفحص الطبى على خلو جسمك منها ؟

هـــذه العلل جميعها نفسية ، وسببها ان الجهاز العصبى لايؤدى وظيفته على الوجه الأكمل

هل يخيل اليك أحيانا انحواسك تخونك ؟ هلتسمع أصواتا وترى أشباحا لا وجود لها ؟ هل تفقد أحيانا حاسة الشم أو الذوق ؟ هل تسلك أحيانا مسلكا شاذا لا عهد لك به من قبل ؟ هل تظن انك على وشك الجنون، لأنك تشعر انك غريب عن نفسك ، بعيد كل البعد عما كنت ؟

ليست هذه أعراض جنون ، ولكنها عوارضعصاب. ان أكثر الناس يصابون فى وقت ما من أوقات حياتهم ببعض هذه الأعراض أوكثير منها . والكثير منهم يرزح تحت نيرها أعواما طوالا. وهىكثيرة الانتشار بدرجــة تدعو للدهشة حتى ان الكثيرينمنالمشتغلين بالمهنالطبية يمرون عليها مر الكرام ، ظنا منهم انها ليست جــديرة بالاهتمام بها ، ويصرفونمرضاهمبقولهم انها عللوهمية. والواقع انها ليست كذلك.. ان هذا الجيش الجرار من المرضى الذين تؤلمهم هــذه الأعراض والأحاسيس ، لايتركون مجالا للشك فى انها علل حقيقية ، لا من نسج الخيال

هل أنت شــاذ ؟

يعزى الكثير من الآلام التى يعانيها المرضى الذين قيل لهم ان أمراضهم عقلية ، الى ظنهم انهم من تلك الفئة الشاذة من البشر ، وانهم يختلفون عن بقية الناس

قد يكونون قرأوا فى وجوه أصـــدقائهم ومعارفهم ، مظاهر العطف والاستغراب والدهشة ، عندما قصوا عليهم ما يحسون به من انفعالات غيرمألوفة. قد يكونون قد تأثروا من كثرة ما قيل لهم من ان ما يشكون منه مجرد وهم وخيال ، ويغلب أن يكونوا قد تعرضـــوا للضحك والهزء والسخرية ، لما كان يبدو منهم من غرابة المسلك، وكثرة الشكوى من الأمراض ، وأن يكونوا قد تعرضوا للوم والانتهار والتقريع ، وطلب اليهم فى حدة أن يكفوا عن الشكوى ، أو أن يلتحقوا بعمل ، أو يشتركوا فى ناد، أو ينضموا الى جماعة دينية، أوأن يغامروا فى ميدان الحب، أوأن يتزوجوا ، أوأن ينجبوا أطفالا، أوأن يرحلوا الى أوربا لزيارة عواصمها ، أو أن يعالجوا بالفيتامينــات أسابيع أوشهورا ، أوأن يكونوا من هواة الانزلاق على الجليد أو ركوب الخيل ، أودراسة أحد الفنون الجميلة

وقد يذعن هؤلاء البؤساء لهذه التوجيهات والأوامر أيا كان نوعها أملا فى الشفاء والخلاص من جحيمهم، ولكن بلا جدوى . فلا الهوايات الجديدة ، ولا اتقان فنون الرياضة ولا الفيتامينات ، ولا التدليك ، ولابدعة يوجى Yogi الهندية ، ولا السفر الى الخارج ، ولا التنجيم ، ولا قراءة البخت يمكن أن تريح المريض من الصداع والدوخة والتشنجات المعدية والاســـهال ، وغيرها من الأعراض التى تجعل حياة صاحبها فى المجتمعات فى حكم المستحيل . ويزداد المريض اعتقـــادا بأن الحياة عبء ثقيل ، وان شمسها تأفل رويدا رويدا

وبعد تجربة كل وسيلة ممكنة من العلاج الطبى وغير الطبى بغير التوصل لنتيجة ، يستسلم المريض للقنوط واليأس والخوف . وينظر الى من حوله من الأصحاء

فيجدهم مستمتعين بالحرية والنشـــاط والنجاح فى أعمالهم ، فيقول لنفسه : « اننى لست كغيرى من الناس .. اننى شاذ » . ويشــعر ان بينه وبين ســواه هوة سحيقة لا يسبر غورها

وتفضى هــــذه الفكرة الى الشعور بالحرج والعار والخجل فيبتعد المريض عن الناس ، ويتفادى المجتمعات ، ونسحب من أصدقائه ومعارفه ، ويبيت فى هم من ان يراه يقرأ على جبينه علائم الشذوذ ، وغرابة الأطوار ، وذهاب العقل وبهذه الكيفية يبنى ، على ممر الأيام ، بينه وبين العالم ســياجا كثيفا .. ويحكم على نفســه بالسجن فى عصابه

لست شــــاذا

ان الخطوة الأولى التى ينبغى ان يتخذها المريض فى طريقه الى الصحة العقلية ، أن ينتزع من ذهنه فكرة شذوذه. عليه أن يعرف الحقيقة ــ الا وهى انه ليس الا واحدا من الملايين المصابين بمثل مرضه ــ وهو فى حاجة الى التأكد من أن الاصابة بأى مرض آخر مثل الدرن أو ارتفاع الدم ، لا يلصق به عارا ولا فضيحة

مهما بلغت الأفكار الغريبة التى تجول فى خاطرك من الخطورة ، ومهما بلغت أحاسيسك أحيانا من الشدة ، ومهما قيل لك ان ما تشكو منه أوهام وخيالات يجب نسيانها ، فاعلم انك لست الوحيد فى هذا الميدان .. وهذه عينات من الأقوال التي قصها على بعض مرضاى :

«عندما شرحت لأهلي الشعور الغريب الذى سرى فى جسمى ، أبوا الاستماع الى.. وقالوا أن هذا تخريف

مني ، فاذا لم أكف عن شكواى ، دفعت بهم الى الجنون»

« لقد عيل صبر زوجى من هذا الهراء ــ على حد تعبيره ــ واتهمنى بتخيل هذه الأشياء حتى أحمله على مضاعفة عنايته بى وتدليله اياى ! »

« لم أفهم سبب اضطرابى وتبلبل ذهنى، وكان راسى يدوركل الوقت . . تمر الأفكار ــ وهى من شتى الموضوعات ــ بسرعة البرق، فيختلط على أمرها ولا أفهم شيئا ، ويلاحق بعضها بعضا ، وكأنها فى سباق اشتدت فيه المنافسة ، ولا أعلم كيف تزاحمت فى ذهنى كل هذه الأفكار الجنونية . . أعلم انها عديمة المعنى ، ولكنى لا أستطيع ايقافها »

« عندما أخرج الى الشارع كثيرا ما أشعر اننى عاجز عن السير فى خط مستقيم ، وأحس اننى على وشك السقوط عند كل منحنى ، وأضطر الى أن أستند على الحائط تفاديا للزلل »

«كان على أن أركب سيارة عمومية لعبور قنطرة فى طريقى الى مكان عملى، وكنت أرتعد خوفا لهذا الشطر من الرحلة ذهابا وايابا. فعند اقترابى من القنطرة كان العرق يتصبب من جسمى، وتشتد ضربات قلبى، وأشعر بالاعياء والدوخة كنت أخشى أن أقفز من السيارة لألقى بنفسى فى الماء ، وكنت أخاف فى كل مرة أن أفقد سيطرتى على ارادتى »

« منذ سنوات عديدة أشعر بالخوف من أن أفعل أشياء يرمينى الناس من أجلها بالجنون . كثيرا ما أحس اننى أخرج عن الحد المألوف وأعجز عن ضبط نفسى ، فألقى على المارة شيئا ، أواستغيث ، أوأمثل دورا لافتا للغير، وسرعان ما تتوتر أعصابى وأنا أحاول بكل جهدى السيطرة على نفسي ، ثم تخور قواى »

« لابد انحاسة الدوقعندى قد أصابها شيء ، اذ لم أعد أتذوق طعم الأشياء كما كنت افعل من قبل . وقد خيل الى ان ابنتى تضع عقارا غريبا فى طعامى . وهذا هوالشيء الوحيد الذى أستطيع به تفسيرهذه الظاهرة»

« كنت موقنة اننى مجنونة ، اذ كنت ارى الأقذار وبقايا البراز، فى كل مكان يقع عليه بصرى . كنت أعلم ان هذا وهم منى ، ولكنى كنت أراه حقيقة ، ولو اننى كنت لا أمسه . كان العالم بأسره فى نظرى قذرا وملوثا .. بيتى وأعزائى الصغار ونفسى ، وكل شيء »

« أشعر اننى فى غاية الضعف.. لقد ذهبت عنى آخر ذرة من العافية والقوة .. ترتعش ذراعاى وساقاى كل الوقت ، لا أستطيع رفع فنجان من الشـــاى بغير أن أسكب ما فيه على الأرض ، مما يخجلنى أن أدعو أحدا للشاى ، أو أن أتناوله أمام أولادى ، أو أن أجلس معهم على المائدة ، ولا أشرع فى تناول الطعام الا بعد أن يغادر آخرهم الحجرة »

« أحس من حين الى حين بألم حاد ينطلق فى جنبى كالسهم كأن سيخا من الحديد محمى بالنـــار يمس أعصابى ، ولم يفهم أحد ممن قصصت عليهم ذلك معنى هذا ، ويبدو أن أحدا منهم لم يحدث له فى حياته شيء من هذا. وقد بدأت أؤكد لنفسى اننى مصاب بالسرطان، لأننى أشعر بشيء مفزع جاثم أمامى ، وعلى وشك أن يصيبنى »

« لقد بلغ من اضطراب ذهنى اننى أعجز عن التفكير فى موضوع واحد أكثر من دقيقتين .. تملأ رأسى أسوأ الأفكار وأشدها فظاعة . أسمع أحيانا أصواتا تتحدث

عني وتتفوه بألفاظ قبيحة ، فظة ، مهينة ، وتسميني بأسماء كلها شتائم وعيوب . ولكن ما تردده هذه الأصوات عني لا ظل له من الحقيقة ، ولو انني أقول لنفسي أحيانا انه يحتمل انني ارتكبتها يوما ما ونسيتها، وانني فقدت الذاكرة وقريبا أفقد عقلي . ظننت ان هذه أصوات الموتى تذكرني بآثامي وخطاياي ، ولذلك شعرت انني أكثر الناس اثما وأشدهم جرما في هذه الدنيا »

« كان يخيل الى انني وحيدة في هذا العالم .. فليس لي فيه مكان ولا قريب ولا حبيب ، حتى نفسي كانت عدوة لي . كنت أشعر انني لست شخصا حقيقيا . هذا كل ما أمكن أن أصف به نفسي . ما أفظع هذا الشعور . ان أعظم خطوة في سبيل الشفاء من المرض أن يعرف الانسان انه جزء من العالم ، له فيه مكان وله فيه قريب »

« كنت أشكو من نوبات الاسهال الأليمة .. فلما استشرت الطبيب ، قال لي قبل فحصي انه يحتمل أن أكون مصابة بداء السيلان . فارتعبت لهذا ، ولم أستطع ان انزع أقواله من تفكيري ، وحتى بعد أن أكد لي ، بعد هذا ، انني خالية من الأمراض التناسلية ، لم أتمكن من التخلص من الفكرة ، لأنها أصبحت موضع همي وقلقي . وبالرغم من العلاج فلا يزال الاسهال ملحا »

وفيما يتعلق بحالة المريضة الأخيرة ، قد يكون مناسبا أن أقتبس للقارىء عبارة قالها دكتور ولتر الفرز Walter Alvarez الأخصائي الشهير في الاضطرابات المعوية : « هناك ما يحملني على الاعتقاد أن نسبة كبيرة من حالات الاسهال التي لا نحسن تشخيصها ، نحن الأطباء ، سببها القلق أو نوبات من خوف مفزع »

ويتضح من أقوال المريضة هذه ، انها كانت قلقة ، شديدة الخوف ، مصابة بضعف وانهيار عصبى ، قبل أن تستشير ذلك الطبيب. لذلك كانت الملاحظة الأسيفة التى أبداها لها قبل فحصها صدمة شديدة الوقع فى

نفسها مما زادها خوفا على خوف وتوترا فى الأعصاب على توترها ، أى ان هذه أصبحت سببا ثانويا للاسهال

ومن طبيعة الجهاز الهضمى ان القلق يعطل قيامه بوظيفته. والكثيرون لايهضمون طعامهم اذا تناولوه وهم فى حالة انفعال. فماالميوعة وسوء الهضم وتقلصات المعدة سوى أعراض لحالات عقلية ، تعطل تمثيل الطعام. وتقل الكميات التى يتناولها هؤلاء المرضى ، تدريجا ، لأنهم لايشعرون بالراحة مع الأكل. وسرعان ما يبدو عليهم سوء التغذية وفقر الدم وازدياد انهيارهم العصبى سوءا

لا سرية هنا

كثيرا ما تعترى المرضى الدهشة عند زيارتهم الأولى لمكتبى ، لاختلافه عن عيادات المستشفيات ، ومكاتب الأطباء الذين عرفوهم . وذلك لأنه خال من الرسميات ، ولأن جوه يتسم بالحرية والبساطة ، مما يحمل البعض على الاعتقاد ان هذا الجو غريب ، غير مألوف ، خال من الروح المهنى الطبى ، وقد يكون اعتقادهم فى شخصيا ، من هذا القبيل أيضا

وسبب ذلك ان السرية فى هذا الجو معدومة. وليس فى المكان أو العلاج أو الأمراض ما يستوجب الكتمان . فالمرضى يشجعون على تبادل الحديث بعضهم مع بعض فى حجر الاستقبال ، ويشجعون على الاستفهام عن أمراضهم ، وكيف يستجيبون للعلاج

وهذه خطة موضوعة عمدا ، لأنها جزء من العلاج ، وعامل من عوامل الشفاء . فمما اتضح من الأقوال المنوعة التى سبق ذكرها ـ وقد اقتبسناها من أفواه المرضى انفسهم ـ ان هؤلاء المساكين قد عاشوا فى اطار هذه الأحاسيس المزعجة غير المألوفة ، فى عزلة عن سائر الناس . فالواجب أن تنتزع هذه الفكرة ـ أى اختلافهم عن الغير ـ منهم ، باختلاطهم بالغير والتعرف على شكواهم

وطبيب الأمراض العقلية الذى ينفرد بالمريض فى مكتبه ، لايمكن أن يكون علاجه فعالا ، بالدرجة التى يبلغها اذا ما أطلق الحرية لمرضاه حتى يتصلوا بسواهم من المرضى الذين كانوا يشكون نفس الشكوى ، ويحسون بما يحسون به من أحاسيس مبهمة غامضة ، ثم بلغوا ما بلغوا من مراحل الشفاء

ومن عادتى التى جريت عليها طيلة الأعوام التى مارست فيها المهنة ، اننى أدعو جميع مرضاى الى اجتماع خال من الرسميات مرة فى كل أسبوع . والفرض من هذا الاجتماع « تربية » المرضى بالاستماع الى محاضرات ملائمة لمقتضى الحال . وفى هذه المحاضرات لا يتعلم المريض انه ليس الوحيد فى الميدان وحسب ، وانما يتفهم فوق ذلك طبيعة المرض وان ما يخاف منه وما يسبب اضطراباته النفسية ، هى تلك الأحاسيس التى تنزل عليه كالصاعقة . ويتعلم كيف يتقبل هذه الأحاسيس ويعيش فيها وبها ، حتى ينزع من فكره الخطر الذى اعتاد أن يربطه بها . وهذه « التربية » تساعد على تجديد الطاقة فى الخلايا العصبية

ولا تقتصر هذه المحاضرات على ايقافه على طبيعة

المرض ، بل تفتح عينيه لفلسفة الحياة السليمة وجمال الشعر والأدب والفن والدورالذى تمثله فىحياة الأصحاء ونحاول فى بعض المحاضرات أن نشرح الأسسالصحيحة السليمة التى بنيت عليها فكرة الأديان ـ بغض النظر عن اختلاف الأديانأوالدخول فىعقائدها وطقوسها ـ لاسيما فيما يتعلق بالقانون الذهبى « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به». وسرعان ما يتغذى عقل المريض من جديد بلبان هذه التربية ، حتى ينزل عن آرائه الجامدة وما تحمله من روح التحيز والتعصب لهـــا ، وتقوم مكانها المرونة والليونة شيئا فشيئا ، ويدرك ان فى الدنيا جمالا يستمتع به . وللمرة الأولى فى حياته يشعر بالحرية ، وعظمة شخصيته كفرد له استقلاله وآراؤه الخاصة

وقدجريت علىعادة أخرى، لم أقصرفيها مرة واحدة الا وهى تعويد مرضـــاى فى كل من هذه الاجتماعات أن يسردوا على مسامع زملائهم قصة حياتهم وكيف نشأت أمراضهم والمراحل التى مروا بها ، وأنواع العلاج التى لجأوا اليها . وطبيعىأن يجدوا فى بادىء الأمر صعوبة فى الكلام ، لأنهم بذلك يقفون ضد أحاسيسهم وجها لوجه بيد انه سرعان ما يتبين لهم أن سردهم هذه القصص ، يخرجها منحيز السر الىحيز العلن ، ومن باطنأنفسهم الى الفضاء الأوسع ، وينسيهم تركيزأفكارهم فيها وفى أنفسهم ، ويحررهم من ذلك الاسترقاق وتلك الأغلال التى قيدهم بها الخوف العميق الغور ، لاسيما الخوف من افتضاح أمرهم امام الناس . ومع تقـــدم العلاج وتكرار هذه القصة امام سائر المرضى ، تسأمها نفوسهم وتملها آذانهم ، فتتخاخل حوادثها ، وتنسلخ عنهم

فهذه المحاضرات ـ أو على الأصح الأحاديث ـ التى

يستمع اليها المرضى فى الاجتماعات الأسبوعية ، وقصص الحياة أوتواريخ المرضىالتى يسردونها ، خاليةمنجمود الرسميات ، والحرية والسهولة التى يتنسمون ريحها فى حجرة الاستقبال.. كلها خطا بالفة حد الأهمية فى طريق العلاج والشفاء . ولايخفى أن تفهم المريض أحاسيسه ، عملية بطيئة صعبة التعلم . كذلك حمله علىاخراجها من معاقلها المظلمة الدفينة الى النور، بدلا من القذف بها الى أسفل ، وكذلك تفهم المريض ميول الخلية العصبية الجامدة وسرعة انفعالها . فاذا ما تعود المريض سرد قصته وتاريخ المرض ، على سواه من المرضى ، ساعد نفسه وغيره من زملائه على سهولة عملية التعلم وسرعتها

ومهمتىالرئيسية هىشفاء المريض واعادته الى الحياة الطبيعية . وهـــدفى الرئيسى أن يكون الشفاء دائما لا وقتيا ، وفى أسرع وقت مستطاع ، وهذه المهمة وهذا الهدف يجب أن يعنى ببلوغهما كلطبيب. فاذا أهملهما، كان مقصرا فى مراعاة آداب مهنة الطب السامية

وهذه الطريقة التى شرحتها تأتى بأحسن النتائج . فاذا ما ألقيت نظرة علىمرضاى،كان فى وسعك أن تميز فورا المريض الجديد من سواه ، بسكوته ، وتوتره ، وعزلته ، لأنه يركز فكره فى مرضه وفى نفسه ، وقلما يعير للغير أو أى شيء آخر التفاته ، بل ينظر الى من حوله نظرة المرتاب . ومن عادة المرضى الذين يتقدمون فى العلاج ، ويلمون بالنظرية التى أعمل على أساسها ، انهم يشرعون فى الاتصال بالمريض المستجد ، بعد أن يميزونه بسكونه وتوتره وعزلته ، ويأخذون فى تبادل الحديث معه ، حتى يهدموا السياج الذى يحول دونه وسائر زملائه . ولايمضى زمن طويل حتى تتغير عقليته،

ويتضح له انه ليس غريبا عنهم ، وليس شاذا كما كان يعتقد ، ولكنه كسائر « ركاب الأتوبيس » ، وانه لم يعد وحيدا فى الميدان !

والآن أقدم بعضا من مرضاى . الذى دفعهم الخوف المفزع المتأصل فيهم الى زيارتى ، أملا فى الشفاء :

الطبيب المعذب

دكتور «ج» طبيب واسع الشهرة ، أخصائى فى أمراض القلب ، يميل للقصر ويناهز الخمسين من عمره . ونظرا لسمعته الذائعة فى مهنته ، دعته كلية طب شهيرة فى ولاية نيو انجلاند لكى يشغل فيها أحد كراسى الأستاذية فى أمراض القلب . وقد كانت هذه الدعوة شرفا عظيما له ، وشهادة له بتقدير زملائه له ، واعترافا بمقدرته ، اذ كانت هذه الكلية فى مقدمة كليات الطب الأمريكية. وكان

دكتور «ج» يود لو أن فى وسعه قبول هذا المنصب . ولكنه ــ كما قال لى عندما جاء لاستشارتى ــ كان يتردد فى ذلك لأنه يؤمن ــ لسوء حظه ــ بعجزه عن تحمل أعباء هذه المسئولية الجديد

ولما سألته عن سبب ذلك أجابنى : « يخجلنى أن أجيبك عن هذا السؤال ، لقد احتفظت بسر ما أعانيه ، ولم أبح به الا لزوجتى وسكرتيرتى . فقد مضى على زمن طويل وأنا أخشى مقابلة الناس جماعات ، وأجد صعوبة عظيمة فى التحدث اليهم ، وأصعب من ذلك القاء محاضرة فى حفل أواجتماع. وقدكنت أحاول ذلك فى المؤتمرات التى كانت تعقدها جمعيتنا الطبية ، فكنت أكاد أختنق، وتسد حنجرتى ويخفت صوتى ، وكأننى شيخ باغ من

العمر نهايته . وفضلا عن ذلك أسبح فى بحر من العرق، فيزداد موقفى حرجا ، وتنتابنى بعد ذلك آلام نفسية لا تحتمل »

« وقد حاولت أن أحلل حالتى هذه ، فلم أعثر على سبب معقول ، ولم أوفق الى العثور على منشأها ، ولم أجد الى التخلص منها سبيلا »

« وقد أصبحت أخشى أن يفتضح أمرى أمام الناس ، وعلى الأخص مرضاى ، حتى اننى رتبت مكتبى بكيفية لايرانى فيها الا المريض وحده ، فى حضور الممرضة أو السكرتيرة لاغير، ولاأدخل غرفة الاستقبال أو أمر بها اطلاقا ، تفاديا من مقابلة المرضى جماعات . وما دامت هذه حالتى ، فكيف أجرؤ على مواجهة جمهرة من الطلبة فى محاضرة ؟ ان مجرد التفكير فى القيام بمثل هذا العمل، يرتجف له جسمى ويقشعر له بدنى »

هذه حالة رجل بلغ فى مهنته القمة أو ما يقرب منها. وهو فى نظر أمثاله من الأطباء العالميين، وفى نظر الجمهور، فى الطبقة الأولى من ذوى المهن الراقية. أما سر ضعفه فلا يعرفه الا هو وزوجته وسكرتيرته . والعالم الذى يحكم عليه بالمقاييس والمستويات المتفق عليها ، لايدرك شيئا عما يلاقيه من الخوف ، وما يحز فى نفسه من ألم ، وشعور متواصل بحقيقة ذاته

وقد سألته عما فعله تخلصا من هذا الداء ، قبل ان يقطع هذه المسافة الشاسعة لاستشارتى ، فقال انه اتصل بعدد من أطبـــــــاء الأمراض العقلية والمحللين النفسانيين ــ وكلهم من أتباع فرويد ، ومن ذوى الصيت الذائع ــ فعلمت منهم ان علاجى يتطلب من ثلاث الى

تسع سنوات ، ومع ذلك فهم لا يضمنون شفائى فى نهاية هذه المدة

فأشرت على دكتور «ج» أن يقبل دعوة الكلية المومأ اليها ، ويتولى منصب الأستاذية فيها ، ووعدته بالتحسن فى ثلاثة أسابيع ، يستطيع بعدها أن يبدأ عمله ، اذا استمر على اتباع طريقتى فى العلاج . وقد تم ذلك فعلا قبل فوات الموعد بأسبوع . وذلك لأنه ذكى بالفطرة ، وطبيب ماهر بالمهنة، فاستطاع الالمام بنظريتى وعلاقتها بتجديد الطاقة العصبية . ولم يكد يتفهم هذه النظرية ، حتى شرع على الفور فى تطبيقها ، بمقاومة أحاسيسه والوقوف فى وجهها ، لعلمه بأن هذه الأحاسيس على عنفها لا خطر منها

وبعد أن أتم العلاج بشهر واحد ، اتصل بى بالتليفون من كلية الطب التى قبل فيها منصب الأستاذية ، ليقول ان محاضراته تسير من حسن الى أحسن وتصادف نجاحا منقطع النظير ، لما توافر لديه من الوثوق بالنفس واللذة فى عمله ، ولم يبق أثر للاعراض التى كان يشكو منها ، من الشعور بالاختناق ، أو ضعف الصوت أو الخوف من مواجهة الناس جماعات

الزوجة الغيور

السيدة « ل » امرأة حسناء ، مثقفة ثقافة عالية ، أصيلة المحتد ، أوشكت على الأربعين . تزوجت منذ ١٦ عاما من رجل تحبه ، كان لها زوجا مثاليا . وقد أنجبا صبيا ، وكل ما يمكن أن يقال عن هذه الأسرة ان علم السعادة كان يخفق فوقها ، لولا ان ما أسرته الى السيدة « ل » ينقض هذا القول تماما

لقد أسرت الى بكل صراحة انها منذ زواجها الى هذا اليوم تعيش فى جحيم من الغيرة ، ولا تبارحها الريبة فى زوجها ، والخوف من وقوعه فى غرام امرأة سواها . ولا تجد وسيلة لطرد هذه الفكرة من ذهنها ، بالرغم من انها لا تستند على دليل واحد ، أو تقف على سبب يشتم منه ان زوجها يخونها

وتظل هذه الفكرة تملأ رأسها وتلازمها نهارا وليلا .. فاذا صحبها زوجها الى احد المسارح ، ورأته فى نهاية مشهد من مشاهد الرواية ، يصفق لممثلة كساتر النظارة . أكلتها الغيرة واشتعل جسمها بحساسية الغضب وانفعلت . ومتى سرت فى جسمها هذه الانفعالات الخاطئة ، اضطرب ذهنها ، وأغلق باب الفكر ، فأصبحت عمياء لا ترى خشبة المسرح ، وصماء لا تسمع أقوال الممثلين . ولا تحس بشىء سوى الحنق والغضب الصاخب المستشيط . ويتكرر هذا الموقف ، كلما وجدا مع أصدقاء ، حيث لا تترك لها الغيرة مجالا للاستمتاع بما يدور فى المجالس من حديث أو دعابة .. ذلك لأن كل همها حينذاك ينصرف الى مراقبة زوجها واتباع حركاته خلسة وفى غاية من الدقة ، متوقعة أن تحين منه ابتسامة لاحدى النساء ، فتندفع فى جسمها تلك الأحاسيس الخاطفة المشبعة بسموم الغيرة

وتطور الموقف حتى لم تعد ترغب فى الخروج مع زوجها ، ولم تعد تلبى دعوة الأصدقاء أو الجيران ، وتحتم على زوجها البقاء فى البيت معها ومع ولديها . وقد أصبحت ماهرة فى ابتكار الحيل الماكرة التى تمنعه الاتصال بأصدقائه وتحرم عليه المجتمعات

فاذا عاد من مكتبه يوما متأخرا بضع دقائق عن

الموعد ، انتابها وســواس الغيرة وتمكنت من ذهنها الفكرة التي لا تبارحها لحظة ، وهي فكرة اتصاله بامرأة سواها في تلك الفتره . وقلما تجد راحة في الجلوس ، وقلما تنصرف الى شئونها البيتيه ، كاعداد الطعام مثلا ، انصرافا كليا . بل تذرع البيت جيئة ورواحا ، ونار الغيرة والكراهية تتأجج في داخلها . وفي خلال هــذه النوبات العنيفة تود لو اتيح لها العثور على تلك الحسناء « الموهومة » التي وقع الزوج في شراكها ، حتى تزهق روحها ، وتخاف على الدوام مما قد تتفوه به أوتفعله عندعودة زوجها

والغريب ان مسز «ل» تعلم جيدا ان تفكيرها خاطيء ، ولكنها لاتستطيع ابعاد الشك عنها ، أو الالتجاء الى المنطق ، أوالكف عن رسم صورة تلك المرأة المزعومة في رأسها ، وماهي عليه من جمال وفتنة تأخذ بألباب الزوج . وبذلك تأكلها أنياب الغيرة وتنهك قواها وتفتك بأعصابها . ولم تكن تجهل ان مسلكها هذا يحرم زوجها لذة السعادة ، ويجعل العيش جحيما ، كما انها لا تجهل ان ابنيها أخذا يحسان بأن كل شيء بين والديهما ليس على ما يرام

الغيرة حساسية في الجسم ، يسيء العقل تفسيرها . وسبب ذلك أن منشأها في الخلايا العصبية ، لا في النظام الفكرى ، ولذلك لا تستجيب المنطق . ولا سبيل الى شفاء صاحبها الا بالعلاج ، حتى تخف وطأة العنف في شعوره . وأسوة بسائر أمراض العصاب ، أشرت على مسز «ل» ان تقف في وجه تلك الأحاسيس ولاتستجيب لندائها ، أي انها في هذه الحالة تلبي دعوات الحفلات والولائم التي توجه اليهما ، وتخرج مع زوجها في كل مناسبة ، وتعمل كل ما كانت تتعمد تفاديه ، وبذلك

تضعف حدة الشعور بالغيرة

وقد اتضح لهذه السيدة ، بعد أن تفهمت طبيعة المرض بالعلاج النفسي ، وبعد أن جددت الطاقة العصبية بالدواء ، أن مقاومة الأحاسيس تضعفها ، ومحاولتها الامتزاج بالأصدقاء لتفادي هجوم الشعور بالغيرة ، تمنع ذلك الهجوم تدريجا ، الى أن يأتي اليوم الذي «تدعو» فيه هذه الأحاسيس فلا تجيء وتتحداها فتتراجع ولا تعود . لقد فقدت قوتها لأن المريض لم يعد يخافها أو يتهرب منها ، بل وقف منها موقف الهجوم لا الدفاع

فتــاة جامعيــة

ان العصاب لا يفرق بين الأعمــار ، فالصغير والـكبير عنده سيان . هذه الآنسة «ر» شابة ذات جمال فاتن ، وفي السنة الثانية في احدى الكليات الجامعية . كانت مثال الفتاة الناجحة في المدرسة والجامعة وفي المجتمعات . ويحتمل ان هذه الأخيرة كانت تستنفد الشطر الكبير من نشاطها ، اذ أن انهيارا عصبيا نزل عليها فجأة نزول الصاعقة . حتى ان أناملها لم يعد في امكانها الامساك بالقلم للتوقيع باسمها . واذا ماشعرت أن أحد الناس مصــوب عينيــه نحوها ، أو انها توهمت ذلك ، شلت يداها عن الحركة . وقد شهد الأطباء الذين فحصوها أن جسمها خال من كل علة ، وان ما تشكو منه مرض عقلي . ومما قاله أحدهم انها تتوهم الضعف ، ربما لرغبتها في تفادي القيام بعمل لا ترغب فيه ، وقد يكون الدافع للمرض رغبتها في جذب الأنظار اليها أو العطف عليها

هــذا هو التشــخيص الذي اتفق عليــه رأي

الاطباء الذين فحصوها ، غير ان حالتها لا تخرج عن استنفاد الطاقة العصبية ، وهبوطها كثيرا الى ما تحت درجة ٨٠ فى الجدول السابق ، فاذا لم تستوف العلاج الذى يرفع هذه الطاقة ، زادت أعراضها شدة وعنفا

وما قيل عن هذه الشابة ، ينطبق تماما على فتاة أخرى جاءت تشكو الى من رغبتها الملحة فى فسخ خطوبتها من شاب ناجح من رجال الأعمال ، بالرغم من غرامها به وشدة حبها له . ولما سألتها عن سبب ذلك ، قالت انها لا تجرؤ على ذكر هذا السبب لخطيبها لأنه يدعو للحرج وشدة الخجل . أن ما تشكو منه داء يصاب به الكثيرون فى مثل هذه المناسبات ، وهو الاسهال . وكما ينتظر فى هذه الأحوال ، كانت فتاتنا هذه لا تصاب به الا عند خروجها مع خطيبها ، أو مع أهلها لقضاء حاجة أو لزيارة أصدقائها كانت تضطر الى الذهاب الى «التواليت» مرات عديدة ، وهى تتأهب للخروج ، لأن نوبات الاسهال كانت تصيبها الواحدة تلو الأخرى بلاانقطاع . فاذا خرجت فعلا ، خشيت تردد هذه النوبات ، وظلت تفكر فيما عساه أن يحدث لها .. لذلك شرحت لى أسباب عزمها على فسخ الخطبة بقولها : « كيف يحق لى أن اكون شريكة حياة رجل ، وأساهم فى الترحيب بزملائه من رجال الأعمال وأصدقائه ، وأخرج معه ، وأنا مريضة؟ وكيف أستحل لنفسى الزواج به ؟ وماذا يجنى شاب من الزواج بفتاة يلازمها المرض ؟ »

مشكلة أخرى

يقول « بل » عن نفسه انه كان منذ طفولته مرهف الحس ، شديد التوتر .. كان سريع التأثر من كل نقد

يوجه اليه ، مهما كان تافها ، وكان يخشى أن يوجه اليه الناس قولا يحط من قدره ، أو ان يبدوا له ملاحظة تجرح شعوره الرقيق. ومع انه يبدواليوم رجلاقويا ، مفتول العضل ، كبير الجسم ، فقد كان فى صغره دقيق البناء ، صغير الجسم ، وكان يقال عنه انه « جميل » الصورة . وقد كانت نتيجة هذا تركيز فكره فى نفسه ، وشعوره بعدم الارتياح اذا لم تكن كل صغيرة وكبيرة من عمله وسلوكه ، تؤدى على الوجه الصحيح وبكل دقة . وكان يخشى على الدوام أن يأتى عملا ، يعده الناس خطأ منه . وكان طيلة حياته المدرسية عديم الثقة فى نفسه ، مرتابا دائما فى صحة ما يفعل ، ولذا كان يحرص على أن يبتعد عن زملائه ، ويقضى أوقاته بمفرده ، ولما أتم دراسته ، كان اذا وجد عملا يرتزق منه ، فانه لا يلبث أن يعافه ويبحث عن سواه

ولما قامت الحرب العالمية ودخل الجندية ، ألحق بأحد الاسلحة ، ولكن لم يمض على ذلك شهران حتى وجد غير لائق بسبب ارتفاع ضغط الدم عنده فنقل الى الفرقة الطبية

وقد جرح شعوره يوما ماسماعه أحدهم يقول ان كل جندى يبدو « رخوا » Softy يحال الى الفرقة الطبية. وزاد الطين بلة ملحوظة أخرى فىغرفة العمليات ، أبداها أحدهم فى موضوع جنسى وعلاقة «بل» به . وقد أيقن فى ذلك الحين ان كل من يراه ، يتوهم فيه «النعومة» وعدم الرجولة ، ويظن انه من ذوى الشذوذ الجنسى

ولم تمض على ذلك مدة تذكر ، حتى تأصلت فىنفسه هذه الفكرة ، وأصبح من العسير انتزاعها من ذهنه . وكان يخيل له ان حركات جسمه ويديه فى السير ، تدل

على ما يتهمه الناس به . حقيقة انه كان يعلم انه ليس من أولئك الشواذ جنسيا . ولكنه كان يخشى أن يحسبه غيره كذلك ، وأصبح من الصعب عليه أن يكون طبيعيا في حركاته ، بسبب ذلك الخوف الذى كان يلازمه

واعتزم أخيرا أن يعود الى الدراسة الجامعية ، فالتحق بفرقة لدراسة علم النفس الشاذ ، وعلى حد قوله أراد أن يلم بموضوع يتصل بحالته ويعينه على تفهمها . وبعد تلقى القدر الكافى من هذه الدراسة ، قرر فى نفسه انه مصاب بميول «برانوية» Paranoic وهى ما يشعر به الشخص الذى يتوهم ان جميع الناس يراقبونه وينتقدون أفعاله

ولما اختمرت هذه الفكرة فى ذهنه ، استشار محللا نفسانيا . وقد شخص له هذا المحلل مرضه ، بأنه ناتج عن كبت ميوله الشاذة « السلبية » . وقد زاد هذا التشخيص الفكرة ثباتا ، فأصبح يعتقد انه من أولئك الشواذ ، وأن سبب بلائه كبت ميوله الجنسية الشاذة!

وكانت نتيجة هذا التشخيص ان حالته زادت سوءاً ، وأصبح عنده يقينا ، ماكان قبل استشارة المحلل شكا . ومع ذلك لم يرتح لهذا التشخيص ، لأنه كان يعلم علم اليقين شخصيا انه لايحمل فى جنباته شيئا من تلك الميول المزعومة . ورغم هذا ، ونظرا لتبلبل أفكاره ، لم يعد يثق فى نفسه وفيما يشعر . ولكن الفكرة فى الوقت عينه كانت قد أصبحت جزءاً منه ، وشغلت كل تفكيره ، فلم يبق فيه مجال لأى شىء آخر . فلاهو قادر على الدراسة ، ولا هو قادر على العمل ، أو الرياضة ، أو اللعب ، أو المطالعة . أو النوم ، أى ان الفكرة أصبحت عنده وسواسا

بيد ان هذا الوسواس المزعج ، قد زال بعد اسبوع واحد ، بفضل العلاج ، وبمجرد زواله أصبح المريض قادرا على تعليل أحاسيسه تعليلا معقولا ، وأخذ يدرك ان خوفه كان ناشئا عن ربط هذه الأحاسيس بفكرة ان الناس يلصقون به تهمة الشذوذ الجنسي . وسرعان ما أخذ يناصبة هذه الحقيقة ، حتى فقدت الفكرة قوتها وذهبت الى غير رجعة . وبعد أسابيع ترك العيادة معافى

الفصل الرابع :

استنزاف الطاقة وأسبابه

ان المامنا بحقيقة الخلايا العصبية ومعرفتنا ببواطن أمورها ، محدود للغاية . لقد تجمعت لدينـــا بعض الحقائق عنهـــا . وهذا ما حاولت تبسيطه فى الفصول السابقة حتى يكون فى وسع القارىء الذى لم يسبق له عهد بدراسة هذه الموضوعات تفهمها. وقد قصدت بذلك أيضا أن أبدد السحب التى تحجب عن عيوننا الكثير مما يتعلق بأجسامنا وعقولنا ، مما يفسح المجال للدجالين ، فيخيفون المرضى ويبتزون أموالهم ، ويضـــطرونهم فى نهاية الأمر الى الاعتماد عليهم

ولماكان فحص الخلايا العصبية بآلات علمية مستحيلا ـ كفحص الدم أو قياس الحرارة ـ فانكل معرفتنا بكيميائها وما يؤثر فيها وكيف ، مستمد من الاختبار والتجربة . وكل ما توصل الأطباء الى الالمام به وتفهمه عنها ، مستمد من المرضى أنفسهم الذين هبطت طاقتهم ، فأخذوا يقصون علينا مايشكون منه ، ويصفون لنـــا أحاسيسهم ، وكذلك من تتبع اعراضهم والرجوع الى سجلات سواهم من المرضى للموازنة بين اعراض هؤلاء

وأولئك . وجل ما سأذكره فى الفصول التالية عن تأثر الخلية بحالات المرض الذى يستنزف قوتها ، مأخوذ من سجلات المرضى التى حرصت على الاحتفاظ بها وتبويبها بكل دقة وأمانة فى خلال الثلاثين سنة الماضية

وقل من الأطباء الذين تطغى عليهم كثرة العمل والمرضى من تتاح لهم التسهيلات أو قوة الارادة ، التى تمكنهم من جمع المعلومات عن المرضى الذين يوكل اليهم علاجهم ، وتسجيل تواريخهم ، وهذا مما يؤسف له ، ويعزى اليه الجهل العام بطبيعة الأمراض العصبية ، وكيفية علاجها واغاثة المصابين بها . ولما كانت الكتب التى تعتمد عليها فى هذه الأمراض قليلة جدا ، وما يدرس فى الكليات الطبية عنها يكاد يكون فى حكم العدم ، الا ما يلقى على الطلاب فيها من عبارات عامة لاتشفى غليلا .. كانت المكتبة الوحيدة ، والمصدر الوحيد الذى يمكن الرجوع اليه فى هذا الفرع من الطب هو المريض نفسه

لقد كانت المدارس الطبية عند قدماء المصريين والاغريق وفى العصور التالية فى سالرنو ، تنصح طلابها أن ينصتوا للمرضى ، وكان على الطبيب فى ذلك الزمن أن يبنى تشخيصه على ماكان يقوله المريض وما يشعر به ، وعلى ماكان يراه الطبيب فيه . وكان لاسبيل له الى معرفة ماتجاوز هذه الحدود . ولما أصبح فى مقدور الطبيب بفضل الوسائل الآلية المحسوسة ، أن يقيس حرارة المريض ، وضغط دمه ، والسائل الذى يتدفق فى المخ وفى العمود الشوكى ، ولما أصبح فى مقدوره فحص النبض وضربات القلب ، والموازنة بين ما يستهلكه الجسم وما يتغذى به Metabolism .. لما أتيح للطبيب كل ذلك ، نزع الأطباء بالتدريج ــ وتضاعف هذا النزوع على مر

الأيام — الى عدم الاستماع الى ما يقوله المريض عن نفسه ، واقتصر همهم على هذه المقاييس ونتائج هذه الفحوص الآلية

وقد كانت لهذه المقاييس مزاياها .. فانها وفرت على الطبيب الكثير من الوقت والجهد . وحصرت اشتباهه فى هذه الفحوص بعد أن كانت تخدعه أقوال المريض . وقد خففت نتائجها من تركيز المريض تفكيره فى نفسه ، وفى شدة اهتمامه بأعراضه

ولكن فى مقابل هذه المزايا ، كان لهذه المقاييس الحسية الآلية عيب واحد ظاهر على الأقل ، مما اعتقد ان كفته فى الميزان ترجح على كفة المزايا . وذلك ان هذه المقاييس تقف حائلا دون تربية الطبيب الفنية وتنويره فيما يتعلق بالمريض نفسه ، اذ ان المقاييس تدلنا على المرض ، فى حين ان الطبيب فى حاجة الى معرفة المريض ، ومالم يستمع الى مايقوله المريض عن الأحاسيس التى تشغل باله ، وكيف بدأت ، وكيف كانت وطأتها عند ظهورها لأول مرة ، وماذا كانت أسبابها فى نظره ، وكيف اخذت فى الانتشار فى جسمه وعقله — مالم يقف الطبيب على كل هذه من فم المريض ، فانه لن يعرف عن الأمراض المقلقة — وهى أكثر الأمراض انتشارا — أكثر مما قرأ فى الكتب القليلة التى يحتمل أن يكون قد اطلع عليها عرضا ، ومما درسه فى كلية الطب

واذا بدا من هذه الأقوال مايشتم منه اننى أوجه النقد الى زملائى فى مهنة الطب ، فانما أنا أفعل ذلك بسبب خبرتى مع مرضاى الذين طرقوا أبواب العيادات الطبية بلا انقطاع بغير أن يعنى أحد بالاصغاء الى مايقولونه عن انفسهم ، بل كان يكتفى بنصحهم بعدم التفكير فى المرض لأنه عقلى .. وبهذا كان يختتم العلاج ، واذا ماقات ذلك

فانني أقوله عن خبرة أعوام طويلة ، لم أشهد فيها مريضا واحدا جاء لاستشارتي قبل أن يكون قد زار عددا من الأطباء — اثنين على الأقل — وفي أكثر الأحايين عـــددا لا يكاد يصدق . وفي سجلاتي مريض تردد على مائتين وخمسين طبيبا

أجل . . . ان أعراض هؤلاء كانت عقلية . ولكن ، هل مجرد عدم التفكير فيها — اذا كان ذلك ممكنا — يقطع دابرها ؟ وهل المســـألة بهذه السهولة ؟ ولو ان هؤلاء الزملاء كانوا قد كلفوا أنفسهم مؤونة الاستماع الى قصة كل مريض ذهب لاستشارتهم ، لكان قد تجمع لديهم على مر الزمن معلومات عن هـــذه الأمراض لا تقدر قيمتها العلمية

ما هي الطـــاقة ؟ . .

معنى الطاقة القدرة على الحركة ، والتغير ، وتأدية الأعمال والحصول على النتائج ، ويمكن القول ان معناها « الحياة »

فاذا كانت الخلايا لها نصيبها الصحيح من الطاقة ، استطاعت القيام بوظائفها بسرعة وقوة ودقة ، تفعل ذلك دون أن تشعر — في أغلب الأحايين — أو تكون لها دراية بما تؤديه أجهزة الجسم الأخرى من وظائف . مثال ذلك انك لا تعي ماذا يحدث « للرسالة » التي بعث بها المخ الى اليد فتمتد عند رغبته في أخذ شيء من مكان أو شخص ولا تحس بها عندما تحملها الخلايا العصبية من المخ الى يدك . والمسافة بين المخ وطرف الأنامل ليست بقصيرة ، ومع ذلك لم تشعر بمرور هـــذه الرسالة في قفزاتها السريعة من خلية الى خلية رغم ان كل قفزة بمثابة انفجار

كهربائى. وهل شعرت يوما بمرور الرسالة ــ حاملة الصوت الذى طرق اذنك ــ الى المخ لتفسير معناه لك ؟ وهل تشعر بالكبد أو الكليتين وهى تؤدى وظائفها ؟ وهبك بعدت على اصدقائك اثناء الاكل او بعده حكايه، فهل تكف معدتك عن هضم الطعام ريثما تنتهى من سرد قصتك ؟ كلا. . بل الواقع ان اعضاء الجسم تكون أقدر على تأدية وظائفها . اذا كنت لا تعيرها انتباهك . والوقت الذى نعى فيه ما يدور فى أجسامنا ، ونركز فكرنا فيه ، هو الوقت الذى تبدأ فيه اضطراباتنا

وقد حرصت الطبيعة على تزويدنا بأجهزة لا واعية ، وذلك ببناء سدود لا حصر لها على طول الطريق فى الجهاز العصبى ، وتوجت عملها ببناء سد عظيم فى المخ . ونتج عن هذا النظام الهندسى العظيم ، ان فى وسعنا توجيه كل انتباهنا الى العمل واللعب والهوايه وسائر نواحى النشاط بغير ان نعى ما يدور فى أجسامنا

وبفضل هذ النظام ، نتفادى طوفان « الرسائل » . ولولاذلك لأغرقت احاسيسنا ، وانطمست معالم وعينا . وبفضله أصبحنا نفكر تفكيرا سليما موضوعيا ، فنعلو فوق كل تحيز ونتسامح مع الغير، ولانرتاب فى نياتهم بلا مبرر، ونتحمل الاهانة الطارئة والمأساة ، دون أن نتأثر بجروح كبريائنا وشعورنا الى درجة المرض والانهيار

ولهذا النظام العجيب فضل كبير فى تكوين الشخصية . ولست أبعد عن الصواب اذا قلت ان الشخصية المتزنة الناجحة تتوقف على اتقان هذا النظام الهندسى وقدرته على ضبط الأحاسيس والدوافع ، وتنظيم مرورها فى كل دقيقة من دقائق الحياة . ومتى كان هذا النظام سليما

أدى وظيفته بغير أن يدرى صاحبه ، وبغير معونة منه. ومتى كان وعى الانسان بعيدا عن نفسه وما يجرى فيها من مشاعر ، كان أقدر على تسخيره فيما يدر عليه النفع والخير من اعمال منتجه . ومما ينبغى ان نذكره بهذه المناسبة ان كل ما يقراه الشخص فى كتب علم النفس والمؤلفات التى تنصح له كيف ينجح وكيف يقوى شخصيته وكيف يحافظ على سلامه عقله .. كل هذه لا تجديه نفعا ، طالما كان وعيه مغطى على الدوام بطوفان من الخوف والقلق واضطراب الفكر. ومهما حاول نسيان نفسه ، ومهما بلغت قوته الارادية ، فانه لايستطيع بنفسه اعادة بناء هذه السدود اذا تصدعت او انهارت

ويمكن تشبيه هذا النظام الهندسى بالمفاتيح التى نراها على جهاز اللاسلكى ، لأنك بها ستطيع أن تتجنب المحطات التى لاترغب فى سماعها ، وتحرك العقرب نحو المحطة التى تريدها دون سواها ، غير انك لاتستطيع ذلك اذا اختل الجهاز، أو اذا قامت فى المنطقة المجاوره لك أعاصير أو زوابع عنيفة ، اذ سرعان ما يضطرب حبل «الاستقبال» فى الجهاز فلا تسمع الا ضوضاء وأصواتا مزعجة وظواهر جوية تصم الآذان

وهذا ما يحدث تماما عند استنفاد الطاقة .. فبدلا من الانسجام والتوافق ، يضطرب العقل ، كلما مرت « الرسائل » بالسدود بشدة وعنف ، فتتكاثر وتتجمع، وبذلك يغرق فيضانها الوعى ، ويعجز العقل عن تخير ما يريده منها ونبذ ما لايريد

عمليــــة بطيئــــة ...

قلما يجىء الفيضان بفتة .. فلابد فى غالب الأحايين

أن تسبقه سيول وأمطار غزيرة مدة من الزمن طويلة ، وثلوج ذائبة ، وما تنزله السماء فى الربيع من مياه

وهذا ينطبق تماما على الجهاز العصبى .. فبينما يحتمل أن تستنفد صدمة وجدانية قوية الطاقة العصبية، وتهدم « السدود » مؤقتا ، فيندفع سيل « الرسائل » نحو المخ ويغرقه .. بينما يحتمل ذلك ، الا انه لحسن الحظ قليل الحدوث ، ويندر أن يتعرض انسان لمثل هذه الصدمات الفجائية

ولا تكون عملية الهدم هذه تدريجية وحسب ، وانما تكون فوق هذا بطيئة ، تستغرق سنوات عديدة .. أى أن نصيب الخلايا من الغذاء (الطاقة ، والراحة) يأخذ فى النقصان رويدا رويدا ، الى أن تشتد قابليتها لسرعة التهيج بنسبة هذا النقص . وينتج من هذا التـــدرج والبطء ان المريض لايشعر بها ، اذ ينسى على مر الزمن الحالة التى يكون عليها الشخص السليم المعافى ، ويتقبل الأحاسيس الغامضة التى تغزوه ، كأنها عادية ســوية لا غبار عليها .. كذلك يتغير مزاجه من حين الى حين ، وتزداد سرعة غضبه وحدته لأوهى الأسباب ، ويشتد امعانه فى الحب والكراهية ، وارتيابه فى نيات الغير ، وتحيزه البعيد عن المنطق، والأفكار التى تتزاحم فى ذهنه ليلا فتسبب له الأرق وتحرمه لذة النوم . وقــد يعلل هذه كلها بقوله : « ان ما أحس به الآن يعزى الى بلوغى متوسط العمر .. لم أعد ذلك الشاب الذى كان. وليس فى وسعى أن أقوم بما كنت أقوم به من قبل ، وينبغى الا أتوقع ذلك »

وبازدياد هذه الأعراض ــ وهو ما لامفر منه ــ قد يصاب بسوء الهضم أوالامساك أوالاسهال ، وقد يشكو

من آلام منوعة فى أجزاء مختلفة من جسمه ، ومن طنين فى أذنيه ، واشباح أمام عينيه .

ويعلل هذه أيضا بتقدمه فى السن أو وفرة العمل او نوع الحياة التى يقتضيها هذا العصر . والشكوى المتواصلة المتكررة من « صعوبة العيش ومتاعب الحياة فى هذا العصر » من الأعراض التى تدل على ان صاحبها يرجح أن يكون فى مجال النورستانيا

وعندما يبلغ هذه الحال التى تتجه فيها أنظاره الى بدنه وما يغزوه من أحاسيس غير مألوفة ، يأخذ فى قراءة الاعلانات التى تنشر فى الصحف والمجلات عن الأدوية الجاهزة ، ويقرأها باهتمام عظيم وتؤدة .. ويستمع لما يقال فى الاذاعة اللاسلكية والتليفزيون عن شتى أنواع الحبوب ، والمساحيق ، والأملاح و « الأغذية الصحية» ، ويؤثر هذا على الاستماع الى ما عداه من الأشياء التى كان مغرما بها من قبل . ويصعب ارضاؤه فيما يتعلق بأنواع الطعام ، ويلذ له الحديث وسؤال الناس عن أمراض القلب ، والقرح المعدية ، والبول السكرى ، وأمراض المرارة ، وارتفاع ضغط الدم . وهو فى هذه الأحاديث يزداد اعتقادا بأنه فى طريقه الى واحدة أو أكثر من هذه العلل

وفى هذه المرحلة يعمد عادة الى استشارة طبيب أو أكثر ، ويكثر من الفحوص والتحاليل حتى يتأكد من اصابته بهذه الأمراض أو الخلو منها . وأخيرا يقال له ان النتيجة فى القلب وسائر الأعضاء سلبية ، وان مايشكو منه عقلى ، وتكون وصفة العلاج عادة حبوبا مهدئة للأعصاب ، يتناولها ويشعر فعلا بتحسن قليل

وهو غالبا يقول لزوجته ان الطبيب لم يفهم حالته .

بيد ان زوجنه تشق فى الطبيب اكثر من ونوقها فى أقوال زوجها ، وتناكد ان مايشكو منه زوجها اوهام ، وكل ما فى الامر انه عصبى المزاج . ويسمر الزوج فى استحوى فيعمد عطف زوجته التى تلومه على برئيز كل همه فى أعضاء جسمه التى يتوهم انها مصابة بهذا الداء أوذاك، وتنصح له ــ وقد عيل صبرها ــ ان ينسى هذه الاوهام ويحاول ان يكون اكثر رجولة مما هو

وعلى هذه الصخره تحطمت مئات من سفن الزواج .. لقد اطلت فى رسم هذه الصورة لأن حالة هـذا المريض البدنيه والنفسية ، يعرفهـا القراء بين الـكثيرين من معارفهم ، ان لم يكونوا يعرفونها فى أنفسهم . ومايحدث للرجل يحدث للمراه تماما ، وبهذه الصورة نفسها .. اذ أن النورستانيا لا تفرق بين الجنسين

كيـف يحـدث ذلك ؟

الطاقة فى الخلايا العصبية ــ كما سبق القول ــ هى ثروتك التى تعتمد عليها فى ادارة دفة حياتك ، وتستمد منها الزاد لنظامك الهضمى ودورتك الدموية ، وسـائر نشاطك البدنى والعقلى ، وكافة ما يتطلبه الانسان حتى يعيش

ويتوافر لكل منا عادة الرأسمال الكافى الذى تتطلبه حياتنا اليومية ، بغير أن نقترب من المصباح الأحمر . غير ان هناك أوقاتا وملابسات ، يضطر فيها كل منـا أن «يسحب» أكثر مما يجب من رأسماله هذا (طاقته) . ومع ذلك فقـد حرصت الطبيعة على الاحتفاظ بمبلغ احتياطى للرجوع اليه عند شدة الحاجة . ويظهر ذلك واضحا فى مجال الأمن الذى قـدرنا له ٢٠ درجة فى

الجدول السابق باعتبار المسافة بين الصحة الـكاملة والموت ١٠٠ درجة

فاذا ما تراكمت أعمالنا وتضاعف الزمن الذى نقضيه فى أدائها ، وقامت فى سبيلنا مشاكل الحياة التى تحمل أجسامنا فوق ما تتحمل ، وحـدث ما يثير وجـداننا وانفعالاتنا ، وأصابتنا مأساة اوكارثة من مآسى الحياة وكوارثها .. اذا ماحدث بعض ذلك أو كله ، رجعنا الى هذا الاحتياطى من الطاقة التى احتفظت لنا الطبيعة به ، ليعيننا على النهوض بهذه المشاكل الاضافية

أما اذا واصلنا الرجوع الى هذا الاحتياطى كلما دعت الحاجة ، بغير ان نضيف الى رأس المال أو الاحتياطى شيئا ، تظهر علينا عاجلا أو آجلا الأعراض التى تدق ناقوس الخطر منذرة ايانا بالتغيرات الكيميائية التى أخذت تطرأ على الخلايا العصبية . وليذكر القارىء هنا ان هذه الاضافة الى رأس المال أو الاحتياطى لايحتاج الى طبيب. فى وسعك أن تفعل ذلك بنفسك ، بالاكثار من الراحـة واللهو البرىء ، أو القيام بنزهات ورحلات بحرية ..

وقد كانت نظريتى — وما تزال — منذ زمن طويل ، ان استنفاد الطاقة يحدث تغييرا فى الخلايا ، ومما زادنى اغتباطا ان دكتور « أوسكار كاسبرسون » أعلن أخيرا انه وزملاءه فى معهد نوبل (الذى يمنح جائزة نوبل) فى السويد ، تمكنوا من اقامة الأدلة القاطعـة على الفرق الشاسع بين كيمياء الخلية العصبية الحية فى الجهـاز العصبى لشخص متعب منهك ، وتلك التى تؤخذ من جهاز آخر نال من الراحة قسطا كافيا . وهـذا دليل مستخرج من معمل طبى ، لصحة النظرية التى بنيت عليها طيلة هذه الأعوام وسيلة علاجى للأمراض العقلية

كيف تضـــاعف رأسمالك ؟ ..

الراحة قبل كل شيء .. هذا أمر بالغ حد الأهمية . استلق على فراشك بعض ساعات استيفاء لراحتك .. الزم سريرك مدة أطول يوم الراحة الأسبوعى ، حتى تنهض صباح الاثنين وقد عوضت ما فقدته من الطاقة بسبب الأعمال الاضافية التى اضطررت للقيام بها فى خلال الأسبوع السابق ، وما أجهد أعصابك من انفعالات

واللعب عنصر آخر هام .. الانسان بالطبع حيوان لعوب . فينبغى اذا ان تتخلل ساعات العمـــل بضـــع ساعات للعب. وبذلك تتخلل حياتك السعادة والصحة. ومما يدعو لشدة الأسف ان حضـــارتنا الحديثة تغمر الـكثيرين منا بطوفان الأعمال والشئون ، فلا يجدون فرصة للهو والاستمتاع بمناعم الحياه ومباهجها

وقد تعودت أن أقول لمرضاى : « لتكن المتعة أحد العناصر التى يشملها جدول أعمالكم ونواحى نشاطكم . استمتعوا بضوء الشمس وأشعتها الذهبية .. بالأشجار والزهور، بكل ما تقع عليه عينك فى طريقك أحيانا من مناظر مسلية ، وجميلة أحيانا ، وحوادث صغيرة تدعو للضحك . لا تتخذ فى الحياة الطرق العسيرة ولا تمعن فى جعلها أكثر جدية مما ينبغى . لم تقصـــد الطبيعة أبدا أن تـكون الحيـــاة هكذا . فاذا أصررت على كسر قوانينها ، فالجزاء بالعقوبة لا مفر منه »

ونقطة أخرى هامة ـ كف عن توجيه كل همك وتركيز فكرك فى نفسك ، وفى مهنتك وفى شئونك الخاصة . ففى وسعك أن تفعل ذلك تلقائيا وبارادتك ، وأنت فى مجال الأمن ، فاذا ما هبطت الى مجال النورستانيا ، تعذر

عليك أن تركز تفكيرك فى شىء سوى ذاتك . لتكن لك هواية خارج هذه النفس التى تتخذك سجينا داخـــل جدرانها . ولتكن لك هواية خارج نطاق اسرتك وعملك

وكيف يتم ذلك ؟.. باختيار الهواية أولا ، ودراستها بعد ذلك ، لان الهواية لا تحقق الفرض منها الا بالمعرفه. فلا يمكن أن تهوى الرقص وأنت تجهله . ولايمكن أن تكون من هواة الطيور، وانت لا تميزالغراب من البلبل، اوتكونمنهواة الزهور، ولم تحاول يوما أن تزرعها وتعنى بها ، أو من هواة الأدب بغير قراءة ، أو من هواة الفن والموسيقى بغير أن تدرس شيئا عنها ، وتواصل زيارة المتاحف ومعارض الصور والتماثيل ، وحضور الأوبرا والحفلات الموسيقية

وهناك وسائل اخرى بسيطة فى متناول الجميع ، من شأنها تجديد الطاقة.. مثال ذلك ، تغيير جدول أعمالك اليومى من حين الى حين ، ومعالجة هوايات جديدة أو وسيلة من وسائل اللهو البرىء لم يسبق لك عهد بها ، وتغيير تيار الفكر الذى يجرى عادة فى ذهنك

فاذا ما اتخذت هذه الوسائل معوانا لك على مضاعفة رأسمالك من الطاقة ، تهبط درجة ميلك للقاق وكثرة الحركة التى لا هدف لها ، وتقل درجة تأثرك بتوافه الأمور وسرعة غضبك ، ونزوعك الى انتقاد النـــاس والأشياء بغير مناسبة ، وتوجه تفكيرك الى ما يخرج عن نطاق نفسك

ولابد لك أن تأكل يوميا كمية كافية من الطعام المغذى الذى يناسب حالتك ، وأن تمارس شيئا من الرياضة البدنية فى الهواء الطلق

وفوق هذا يلزم أن « تنظف بيتك » ، كلما أحسست

بنقص الطاقة . فهذه الساعة التي تحس فيهـــا بهذا النقص ، هى الفرصة السانحة لانتزاع تلك الأفكار التى ناءت عليك بكلكلها وأوشكت على القضاء عليك. الق بها فى سلة المهملات ، وابحث عن سواها . راجع ما يطوف فى رأسك من شك ، وتحيز، وكراهية ، وغيرة ، وحاول أن تتخلص منها بأوفر سرعة ، وانكنت قد ورثتها عن والديك.. اذ يحتمل أن تعصبك لرأى أوعقيدة ، كان له مبرر فى الماضى. ولكن هذا لا بنهض دليلا على وجوب تقديسهما والتمسك بهما أو أحدهما فى الوقت الحاضر

درب نفسك على القيام بعملك ــ فى مكتبك وبيتك ــ برأسك ويدك لا بعاطفتك . وهذا قانون هام يجب اتباعه للاحتفاظ بجهاز عصبى سليم . ارسم خطـــة عملك مقدما ، واحذف منها ما لايلزم ، ثم اتبع هذه الخطة بدقة . ولا توقف العمل ، مندفعا الى سواه ، فى الوقت الذى يساورك الهم عن عمل ثالث انت مقـــدم عليه . واعلم ان تكدير الخاطر بسبب أشياء عديمة الأهمية.. يتطلب الكثير من الطاقة الثمينة بلا داع ، كذلك الاهتمام بما عسى أن يقول الناس عنك . فاياك والانغماس فيه !

واذا كنت تشكو من الأرق ، فاقض ساعة قبيل النوم فى حوض ماء ساخن ، وضع فوق رأسك فى خلال هذه الساعة كيسا من الجليد

وأخيرا ، تجنب العدو بسرعة الطيارة فى عملك ، ولا تملأ رأسك بأفكار خيالية ، عما يحتمل أن ينزل بأسرتك أوعملك أوالبيئة التى تعيش فيها من كوارث ، اذ انهذه الأفكار لا تجعل حياتك أسعد مما هى.. بلعلى النقيض من ذاك ، تساعد على هبوطك الى دون درجة ٨٠ ، اذا

لم تحتفظ بمجال الأمن الذى حرصت الطبيعة على جعله فرصة سانحة لتجديد الطاقة العصبية اذا ما وهنت

أهـكذا ولـدت ؟ ..

ان أضخم ثروة يرثها الانسان ، أن يولد وجهـازه العصبى قوى سليم من كل عيب . فخير لك أن ترث عن والديك جهازا قويا من أن ترث الملايين بجانب جهاز عصبى ضعيف، فليس فى استطاعتك أن تشترى الصحة العقلية والجسدية بهذا القدر أوأضعاف أضعافه ، ولكن فى استطاعتك أن تصبح من أصحاب الملايين ، اذا ولدت سليما وتوافرت لك المواهب وتهيأت لك الفرص

فاذا كنت من أولئك الذين ولدوا ضعافا ، فاعمل على تقوية أعصابك بأول فرصة ممكنة . واعلم قبل كل شيء انك اذا أوشكت على بلوغ الرقم ٨٠ فى الجدول ، أى انك على قاب قوسين أو أدنى من مجال النورستانيا ، فلا يعنى هذا انك على شفا الكارثة أوالفشل . فالعالم ملىء بألوف النساء والرجال الذين ولدوا ضعاف الطاقة العصبية ، ومع ذلك يؤدون أعمالهم اليومية بنجاح ، وينتجون ويبتكرون رغم هذا العائق . حقيقة انهم أميل الى شدة الحساسية ، والانهيـار أكثر من سواهم من الأصحاء ، وأبطأ فى تجديد قواهم ، غير ان هذا لايمنعهم من التأخر عن الركب ، والعجز عن العدو فى سـباق الحياة ، طالما تعلموا كيف « يعيشون مع علتهم »

وهذا هو السر فى الحياة الناجحة : أن يتعلم المرء أن يعيش مع علته ، ومواهبه المحدودة . فما من ريب أن لكل انسان عيوبه ونقائصه . فمن الناس من فى مقدوره أن ينتج فى يوم ما ينتجه زميله فى شهر . ومن الناس

من ينهزم أمام أصغر الحوادث ، فى حين ان شقيقه يصمد أمام أسوأ الكوارث . بيد ان كل انسان فى حدود مواهبه وصحته ــ وفى هذه الحالة فى حدود طاقتــه العصبية ــ يستطيع أن يؤدى الـكثير وينتج الـكثير

والمهم فى الحياة أن تحرص على ما وهبتك الطبيعة اياه من الطاقة ، أياكان مقدارها ، ولا تبذر فيها تبذيرا. ان تسعة أعشار النـــاس الذين يهبطون الى حقـــل النورستانيا ، لاينزلون الى هذا الدرك لأنهم ولدوا كذلك، بل لأنهم أسرفوا فى طاقتهم العصبية بلا حساب ، كالرجل المبذر المسرف ، المتلاف فى ماله

الانحراف الخلقى Psychopathy

ان الصفة التى تطلق على الشخص المنحرف الخلق بسبب عيب فى تـكوين جهــازه العصـــبى Psychopathy أصبحت تلوكها الألسن ، فخرجت فى كثير من الأحوال عن معناها الأصلى . وسبب ذلك ان الكثيرين من هؤلاء الذين يطلق عليهم الناس هذا الاسم ، والكثيرين الذين يشخصهم أطباء الأمراض العقليـــة كذلك ، ليســـوا «سيكوباثيين» بالمعنى الصحيح ، ولكنهم أفراد عاديون ، هبطت طاقتهم عشرين أو ثلاثين درجة ، وما يبدو عليهم من أعراض لا علاقة لها بالانحراف الخلقى ، ولكنهم فى مجال النورستانيا أو دونه قليلا

فاذا عولج هؤلاء بتجديد الطاقة فى الجهاز العصبى ، زالت أعراضهم وبرهنوا للملأ وللأطباء انهم لم يكونوا يوما مصابين بذلك الداء المسمى بالسيكوباثية . ومما يدعو لشدة الأسف ان الوفا من المرضى الذين حكم عليهم أن يقضوا البقية الباقية من حياتهم فى سجون أمريكا ،

كانوا فريسة هذا التشخيص الخاطىء . فمن المعلوم ان السيكوباثية ـ الانحراف الخلقي ـ الأصيلة داء غير قابل للشفاء

ان السيكوباث (١) الاصيل (الشخص المنحرف الأخلاق بسبب عيب فى جهازه العصبى) لايستجيب أبدا للعلاج الذى وصفته فى هذا الكتاب .. كل ما فى الأمر انه يتحسن قليلا ، وتخف حدة نوباته نوعا ما ، ويقل حدوثها ، ولكنه ـ وهذا مهم جدا ـ اذ يشعر بهذا التحسن فى طاقته يسىء استعمالها ، ويسلك سلوكا لا يتفق وصاحب العقل السليم وبرغم كونه غير قابل للشفاء ، فانه يقوم بأعماله اليومية كسائر الناس ، وقد يخدعهم بلباقته وفصاحة لسانه وحسن هندامه الى أن يرتكب جريمة قتل أو سرقة أو هتك عرض أو غير ذلك من الأعمال الشائنة

وفى اعتقادى ان السيكوباث الأصيل، هو ذلك المريض الذى ينقصه فى الخلايا العصبية عنصر كيميائى ـ كله أو بعضه ـ لابد من توافره عند الشخص السليم . وليس صحيحا أن مرضه يعزى الى عيب فى نظامه

(١) المترجم ـ تطلق كلمة « السيكوبات » على الشخص المنحرف الاخلاق بسبب اضطراب فى تكوين جهازه العصبي المركزى . وهذا مايدعو القاضى فى كثير من البلدان أن يعتبره غير مسئول عن الجرائم التى يرتكبها من قتل وهتك عرض وغيرهما ، أو أن يحاول بالاستعانة بالطبيب الشرعى أن يحدد بالضبط اذا كان فى الساعة التى ارتكب فيها الجناية أو الجنحة مستمتعا بقواه العقلية أم لا . و « السيكوبات » عادة لبق ، حلو الحديث ، حسن الهندام ، حاضر البديهة . وفى كثير من الاحيان حسن المظهر ، ولذا يتعرض الذين لا يعرفونه للانخداع به ونظرية المؤلف فيه ان كيمياء مخه تجعله غير قابل للشفاء . هذا اذا كان التشخيص صحيحا . ويعتقد أن الكثيرين مما يشخصهم الاطباء بهذه الصفة ليسوا كذلك . ولكن معلوما ان السيكوباتية ليست جنونا .

الفكرى أو فى « شخصيته » ، ان العيب كله فى خلاياه العصبية ، فمن المعلوم ان الشخصيـــة فى الحيـــوان والانسان تتوقف على هذه الخلايا . وتتغير بتغير هـذه الخلايا بسبب التعب والضعف وشدة الحساسية الخ . .

وأكرر القول ان عدد الذين يصابون بهذا الداء أقل كثيرا مما يظن . وليس من الانصاف أن يحكم على رجل كان أو امرأة بهذا الوصف ، قبل أن يعالج علاجا كاملا بالطريقة التى وصفت ، فاذا لم يستجب للعلاج رغم ما بذل معه من الجهد ، وطرق معه كل باب ، يحق لنا أن نقول عنه انه سيكوباث أصيل غير قابل للشفاء ، وللانسانية حق حجزه اتقاء لشره

ماذا يضعـــف الأعصـــاب ؟ . .

لمـــا توصلت الى نظريتى التى تتلخص فى ان سبب العصاب هو الخوف من الأحاسيس الغامضة التى تسرى فى الجسم بسبب استنزاف الطاقة فى الخلايا العصبية ، كنت أجهل الأسباب التى تؤدى الى هذا

كنت ثابت العقيدة فى صحة نظريتى ، ولكننى كنت عاجزا عن معرفة الأسباب أو التخمين عن العوامل التى تؤدى الى هبوط الطاقة أو استنزافها . فأخذت على عاتقى ، ازاء هذه الحالة ، أن أبحث عن هذه الأسباب مهما كلفنى ذلك من الجهد والوقت

وتحقيقا لهذا الهدف ، رسمت لنفسى خطة لا ازال أمينا لها ، وهى الوقوف من مرضـــاى على الحوادث السابقة للمرض فى حياتهم ، بغير أن أعنى بأحلامهم أو ذكريات الطفولة المنسية

فمما يعنينى معرفته عنهم البيت الذى عاشـــوا فيه

أطفالا ، وحالة والديهم الصحية وحالتهم العصبية ، وحالة المريض نفسه فى طفولته ، فى لعبه مع غيره من الأطفال ، وفى مدرسته

يهمنى أن أعرف مدى السهولة أو الصعوبة التىكان يؤدى بها المريض واجباته المدرسية ، ومقدار نجاحه فى فرفته ألدراسية ، وفى رياضته وألعابه ، وفى حيـــاته الاجتماعبة ، وفى أول عمل أرتزق منه أو أولى الوظائف التى تقلدها ، وفى مغامرات الحب ، وفى الزواج

أريد أن اعرف أذا كان من طبيعته ســـهل التعرض للبرد والزكام ، والاصـــابة بالتهاب جيـــوب الأنف ، والحمى . وما العمليات الجراحية التى أجريت له ، والظروف التى لابستها ؟ وهل اشتغل بأعمال عرضته للاجهاد المتواصل ؟ هل أثقلت كاهله مسئوليات معينة ؟ هل أصابته هزات وجدانية فى حياته ، أو أصيب فى حادث ذى خطورة ؟

وفوق هذا كله ، يهمنى معرفة أول عهده بالأحاسيس التى سببت له الخوف الذى تفلغل فيـــه ، ومعرفتى هذا باسهاب وتفصيل

ومن عادتى أن أسجل تاريخ الحالة خلال السنوات العشر الماضية منذ بدء المرض . وكانت النتيجة التى توصلت اليها من سجلات المرضى التى تجمعت لدى طيلة السنوات الماضية ، تدلنى على حقيقة لا تقبل الجدل ، الا وهى ان الســـواد الأعظم من حالات ما يســـمونه « الانهيارالعصبى » ، والأمراض العقلية ، يعزى مباشرة الى واحد أو أكثر من الأسباب الآتية : الصـــدمات الوجدانية ، اجهاد عصبى طويل الأجل ، أمراض معدية

من شتى الأنواع ، الاصابة بحميات ، وتسرع المريض بعد الابلال منها الى استئناف أعماله قبل الأوان ، تعسر حالات الحمل والولادة عند المرأة ، اشتغال الذهن بالهموم مدة طويلة ، خوار القوى عقب عملية جراحية ، سوء التغذية

وهذا ما قصته على امرأة استحالت حياتها جحيما مدة ١٧ عاما :

« لما كنت فى سن الطفولة المبكرة قفزت أمى من نافذة ، ورأيتها بعينى ملقاة على الأرض ، وقد كان لهذا الحادث وقع شديد فى نفسى . ولم تعد أمى بعد هذا الحادث الى حالتها الطبيعية . كانت تحسن معاملة أولادها ، ولكنها كانت تسىء معاملة جيرانها ، وكان البيت لهذا السبب مسرحا للتوتر والنزاع والتصادم كل الوقت الذى كنت فيه فى مرحلة النمو . ولست أذكر ساعة كنت أشعر فيها حقيقة بالحرية »

وذكرت لى انها واصلت الدراسة لاستكمال ثقافتها ، وتوظفت ، وتزوجت ، وأنجبت طفلا ، ولكن حياتها الزوجية كانت بعيدة عن السعادة فطلقت

ثم استأنفت قصتها :

« وحدث بعد زواجى بعامين أننى بدأت أشكو من احساس مخيف كان يساورنى كلما ركبت مصعدا كهربائيا ، أو دخلت احد « أكشاك » التليفون . على أن هذا الاحساس لم يكن بالعنف الذى كان يمنعنى من ركوب المصعد أو دخول كشك التليفون .. غاية الأمر اننى كنت لا أشعر بارتياح وكنت لا أفعل هذا بسهولة . .

« وفى خلال الحرب العالمية الأخيرة ، التحقت بوظيفة

فى مدينة واشنطن . وكنت حينذاك قد بلغت حالة من المرض ، تحرمنى لذة الشعور بالارتياح فى أى مكان أغشاه ، اللهم الا بيتى ومكتبى ، واضطررت رغم أنفى أن تكون حركاتى مقصورة على ذهابى الى محل عملى والعودة منه توا الى البيت . وبهذا انكمشت نواحى نشاطى فلم أتخذ لى أصدقاء ، ولم تعد لى هوايات أو اهتمام بشىء آخر

« وفى سنة ١٩٤٦ أجريت لى جراحة خطيرة ، نالت منى كثيرا ، وكلفتنى من الاجهاد فوق ما فى وسعى ، وبدأت عندئذ أتخيل مواقف غريبة ، تصور لى اننى أقفز من النوافذ والقناطر وأرصفة الموانى ، وكان يهيأ الى ان هذه الصور واقعية ، واننى أقدم على عمل هذه الأشياء فعلا.. وبذلك أصبحت أخشى أن أذهب الى أى مكان اطلاقا »

وعلمت منها بعد ذلك انها عولجت بالتحليل النفسانى مدة عام ، قيل لها فى نهايته ان مرضها يطلق عليه اسم الخوف من الخوف Phobophobia وانها فى حاجة الى التقوية ، ورجعت بعد ذلك الى طبيب العائلة ، فزاد الطين بلة بقوله لها انها قد تكون مصابة بالسل . ولما جاءت الى كانت فى حالة تستدر العطف ، كانت لاتستطيع السفر والانتقال من مكان الى مكان أوعبور الشارع أو الخروج بمفردها ، وكانت تضطر الى أن يصحبها أحد أقاربها أومعارفها ، تجنبا لما عساه أن يحدث لها ، كأن تقفز من مرتفع ، أوتلقى بنفسها على الأرض. وبعد المرة الثانية التى تناولت فيها الدواء وعولجت علاجا نفسانيا، أمرتها بالخروج والانتقال والركوب، بغير أن يرافقها أحد.

وقد كان هذا عسيرا عليها طبعا فى بادىء الأمر ، ولكنها اضطرت الى عمله نزولا على رغبتى

وقد واظبت على العلاج أربعة أشهر ، نالت فى نهايتها الشفاء كاملا

وقدكانت العوامل التىنالت من هذه المريضة كثيرة ، أهمها : الصدمة الوجدانية التى أصابتها فى طفولتها المبكرة بسبب حادث امها — وقد كانت المريضة منذ صغرها شديدة الحساسية — والتوتر فىحياتها المنزلية، والفشل فىالزواج،كانت هذه العوامل فعالة فى استنزاف طاقتها العصبية الىدرجة باتت تحس فيها بذلك الشعور الغريب المؤلم . فلو انها ادركت موقفها فى وقت مبكر، وعملت على تغذية الاحتياطى من راس مالها ، لما وصلت الى ماوصلت اليه من المرض. ولكنحالتها زادت سوءا بما قاسته منآلام المرض ، والعملية الجراحية الخطيرة ، والحمل والولادة العسيرة ، والوحدة ، والحرمان من اللعب واللهو والتسلية زمنا طويلا ، مما هبط بها الى مجال لنورستانيا ، حيث بلغ عصاب الخوف عندها نهايته

هذا الطعام لا يلائمنى ...

وهذه مريضة أخرى جوعت نفسها عشرين عاما ، لاعتقادها ان ألوان الطعام العادية لا تلائمها . وقدكانت منذ طفولتها شديدة الحساسية ، فشجعها والداها على تخير الأصناف التى تطيب لها وتجنب سواها مما يقدم لها . وكانت تستسلم للقىء كلما توترت أعصابها . ولذا كان أهلها يكثرون من ممازحتها وتدليلها ، خشية ارغامها على أكل ما لا تحب ، فتصيبها نوبات القىء

وقد دل سجل تاريخها على اصابات مختلفة بالاسهال

والامساك والميوعة . واستشارت أطبـــاء أخصائيين فى الحساسيه Allergy واشير عليها أن تأكل هذا وذاك ، والا تتناول اى نوع من الادويه ، وأنها كانت تتأثر من تناول فيتامين معين مثير للحساسية ، ولكنها كانت تجهل اسم ذلك الفيتامين . فتعمدت أن أعطيها حبوبا ، هى فى الواقع فيتامينات ، دون علمها ، فلم تتأثر منها بتاتا ، مما دلنى على ان تأثرها كان مجرد وهم لا حقيقة فيه . وكان من الصعب ان تفهم المريضة فى بادىء الأمر ان أصل شكواها هبوط فى طاقتها العصبية وان طول المده التى كانت تستسلم فيها الى أحاسيس جعل هـــذا الاستسلام عادة يصعب الاقلاع عنها

والواقع ان عـــدد المرضى الذين يعالجون بسبب ما يشكون منه من علل معدية ، ترجع الى عللهم العقلية — لا يحصى ، وان ما يسمونه « الحساسية » ما هو فى الواقع الا هبوط فى الطاقة العصبية ، وكلما زاد هبوطها بطول المدة ، ازداد المرض شدة

مراحـــل خطـــيرة ...

فى حياة الانسان مرحلتان خطيرتان ، احداهما سن البلوغ ، والأخرى سن اليأس . وكل منهما يتسبب عن تغيرات فى وظائف الغدد الصماء ، يتأتى عنها اختلال فى التوازن واجهاد للجهاز العصبى ، شديد الوطأة

وفى خلال كل من هاتين المرحلتين ، لا تظهـــر على الأشخاص ذوى الأجهزة العصبية السليمة أعراض غير مألوفة تبعث فى نفوسهم الخوف ، لأنهم يكيفون أنفسهم تكييفا يلائم هذه التغيرات ، كما قصـــدت الطبيعة أن يكون ذلك شأنهم . وهذا ما ينبغى أن يكون

بيد ان هذه التغيرات تسبب اضطرابات لأولئك الذين لا تتحملها أجهزتهم العصبية الضعيفة ، فيشكون من احاسيس بدنية أليمة ، وأعراض مزعجة ، وكثيرا ما تساورهم من جراء هذه الأحاسيس والأعراض مخاوف منوعة

وقد تكون الملانخوليا عرضا من أعراض هـــذه التغيرات ، ويطلق عليهـا حينئـذ اسم التقهقرية (١) Involution Melancholia نسبة للسبب الذى أدى اليها ـ اى التغييرات التى باغتت الجهاز العصبى بعنف ، فاستنزفت منه الطاقة . ومع ان قرائن هذا النوع من الملانخوليا لا تختلف عن مثلها فى مجال الملانخوليا التى سبق وصفها ، فانها تستجيب للعلاج بسرعة عجيبة ، وتزول أعراضها فى وقت قصير

والمهم أن يعرف المرء كيف يواجه التغيير الذى يطرأ عليه فى كل من مرحلتى البلوغ واليأس بكل شجاعة ، ولا يتطرق الى نفسه بسببها شيء من الخوف ، لأنه حادث طبيعى لا يستدعى الانزعاج

---

(١) المترجم ـ والملانخوليا التقهقرية نوع من الجنون Psychosis وليست Neurosis عصابا .

الفصل الخامس :

الخجل

في أغلب حالات الأمراض العقلية التي تساور أصحابها المخاوف المنوعة ، نجد في سجلات المرضى أمثال العبارات الآتية التي لها دلالتها :

« لقد كنت في طفولتي خجولا ، أو خجولة »

« كنت على الدوام شديد الحساسية ، وكان شعوري يجرح بسهولة »

« كان يبدو انني كنت دواما أخاف شيئا ما »

« كان من العسير على أن يكون لي أصدقاء ، وكنت احسد اخوتي واخواتي لقدرتهما على ذلك »

« كنت طول حياتي أريد أن أكون محبوبا ، ذا حظوة عند الغير ، ولكن كان ذلك عسيرا على »

« لا أستطيع أن أعبر عما يجول في ذهني ، مهما بلغت معرفتي بالشيء الذي أريد أن أقوله . ويبدو لي ان هناك شيئا يحول بيني وبين التعبير عن رأيي . اسمح للآخرين أن يبدوا آراءهم ، وبذلك يغطون بأقوالهم على اقوالي ، واقف حيال هذا مكتوف اليدين . وبعد ذلك آخذ في التفكير في هذه الحالة الأليمة عندما آوى الى

فراشي ، وأحتد غضبا ، وأحارب نفسي لأن الشجاعة قد خانتني ، فلم أستطع الدفاع عن آرائي ومعتقداتي»

ليست هذه الاعترافات مجرد اقاويل ساقتها الصدف. انها قرائن وأدلة لها أهميتها لطبيب الأمراض العقلية فى تشخيص المرض

الخجل ـ سواء فى الصغير أو الكبير ـ من أكثر أعراض التعب فى الجهاز العصبى ظهورا ، وهو فى الوقت نفسه من أسباب اضعاف الطاقة العصبية .. فلندرس هذه الظاهرة اذا من ناحيتين : كعارض أولا ، وكسبب ثانيا

لا يولد أحد خجولا ...

ليس الخجل صفة يولد بها الانسان ، وان كان صاحبه لايذكر مناسبة واحدة فى حياته ، تجرد فيها من الخجل .. الخجل حالة مكتسبة ، ارتبطت بحادث معين مفزع قد يرجع الى عهد الطفولة المبكرة ، لاسيما اذا كان الجهاز العصبى ضعيفا شديد الحساسية

وخذ مثلا : طفل فى السابعة من عمره مرهف الحس يطلب اليه أن يعزف على الكمان أمام قريبة له بمناسبة حضورها للزيارة . وتلبية لهذا الطلب يمسك الطفل بالكمان ويسندها الى كتفه بالكيفية التى تعلمها ، ولكنه وهو يفعل ذلك يشعر باحساس غريب مزعج فى معدته. تأخذ عضلات بطنه فى التقلص . فيقول فى نفسه : « أخشى أن أقع مغشيا على من شدة الألم أمام قريبتنا الزائرة »

وفى الحال يعتريه خوف مزعج ، لاسيما انه يعلم ان أمه تريده أن يعزف أمام الزائرة ، حتى تظهر اعجابها به . وهنا أخذ يخشى أن يفتضح أمره بما يظهر عليه من

الارتباك والألم . حاول أن يمس الأوتار بالقوس فعجز، فأخذت أمه في تشجيعه ، فلما لم يجد التشجيع نفعا ، أخذت في توبيخه وأخيرا نجح الطفل بعض الشيء في مقاومة الميوعة والخوف ، وتمكن بشق النفس أن يعزف لحنا ، تعبل لأجله الاطراء ، ثم أوسع الخطا منسحبا ، انقاذا للموقف . فلا الضيفة ولا الأم كان عندهما أدنى فكرة عما كان يشعر به الطفل أوعما حدث له . وللأطفال مهارة في حفظ الأسرار لا تضارع . ومهما يكن من شيء فقد احتفظ الطفل بهذا الحادث الأليم ، ولم يفه به لاحد . فاذا ما طلب اليه مرة اخرى ان يعزف على كمانه أمام أحد أو جماعة ، فقد يتسبب عن خشيته من تكرار ماحدث له ، أن تعود اليه تلك الأعراض فعلا . بل الواقع ان عودة هذه الأعراض لا مفر منها ، اذا كان جهاز الطفل العصبي ضعيفا ، وكان قد ركز تفكيره فيما حدث له ، وساوره الهم لأجله . أما الأطفال الأصحاء ذوو الجهاز العصبي السليم القوى ، فسرعان ماينسون أمثال هذه الذكريات ، وبذلك ينقذون أنفسهم من عامل الارتباط الذي يتسبب عنه مثل هذا الاضطراب . وهذا ما لايستطيع عمله الطفل شديد الحساسية ، الذي يلتصق حوله الخوف من افتضاح أمره أمام الضيوف ، التصاق الكرمة حول الشجرة ، وبذا يصبح جزءا منه

ولنزد هذه النقطة ايضاحا .. ان هذا الخوف قبل كل شيء ، خوف من الأحاسيس ، وهي التي انطلقت مندفعة في جسم الطفل الذي اتخذناه مثلا . وقد كان يحتمل أن ترتبط بشيء آخر غير العزف على الكمان، كما اذا كان طلب اليه احضار شيء من حجرة مظلمة ، او

من مكان آخر أثناء هبوب زوبعة شديدة ، أو اذا كان قد طلب اليه أن ينظر الى هوه عميقة من مرتفع شاهق، أو أن ترتبط أحاسيسه بلعبة مع كلبه المدلل ، أو فى أية مناسبة أخرى

وهذا ما يحدث تماما فى غير هذا من أنواع الخوف.. مثال ذلك أصل الخوف من وقوف الطعام فى الزور أثناء الأكل Sitophobia والخوف من الأماكن الفسيحة المفتوحة ، والخوف من الأماكن المضيقة ، أو الحيوانات ، أو الجراثيم والأقذار

يبـــدأ الخجل فى المدرســة ...

قد يشعر الطفـــل باحساس أليم مفاجيء يسرى فى جسمه ، اذا ما دعى الى الوقوف وتسميع الدرس امام تلاميذ فرقته انه فى هذه الحالة يريد أن يحسن القول ، ولكنه يخشى أن تكون النتيجة غير ذلك ، يخاف أن يفتضح أمره أمام زملائه ، ويكون موضعا لسخريتهم . وقد يرتبط خوف هذا الاحساس الذى يسرى فىجسمه بفكرة التسميع أوالــكلام أمام مجموعة من النـــاس ، فيخجل بعد ذلك من كليهما

واذا ماتكررهذا الموقف ومايشعر فيه منأحاسيس ، أصبح يحاول التملص من أن يدعى للكلام . ويتسبب عن هـــذا الخجل وتمنعه من التسميع ، تأخره فى أعماله المدرسية ونواحى النشاط فيها . فاذا أقامت المدرسة حفلة راقصة امتنع عن الذهاب اليها. واذا لم يغلبعليه الخوف وحضرها لا يجرؤ أن يطلب فتـــاة من زميلاته للرقص ، وانما يكتفى لمشاهدة الراقصين دون أن يساهم معهم . وهكذا يزداد ميلا للوحدة تدريجا وتجنب الغير.

وتخلو حياته من صديق يثق فيه أو يبوح له بسره . وهكذا يبيت سجينا مكبلا بأغلال الخجل

ومتى تمكنت صفة الخجل من امرىء ، أصبحت جزءا لا يتجزأ من شخصيته

والخجل ينمو كما تنمو النباتات السامة .. تطول فروعه وتمتد الى كل ناحية من نواحى الحياة ، فتغزو فريسته فى كفايته وقدرته على العمل ، كما تغزو رياضته وتسليته ولهوه . فكم من ألوف النساء والرجال الأكفاء حسان الوجوه والأجسام ، يسيرون فى طريقهم والجبن باد على وجوههم ، ويؤدون أعمالهم والشعور بالخجل والتعس والألم لايفارقهم . يعيشون فى حياة كلها احراج لهم ، اذ يخيل اليهم ان كل العيون فى الطريق تتطلع اليهم ، وتنتقد حركاتهم وسكناتهم وقلما يقدمون على اتيان عمل ، بغير أن يخشوا استرعاء الأنظار اليهم

وقد يصبح الخجل وسواسا .. فقد شهدت مريضة كانت تعتقد ان فى أحد خديها حفرة تشوه منظرها ، وتدعو المارة للتحديق فيها والسخرية منها . وكانت تخشى الخروج حتى لاتكون أضحوكة لمن يراها فى الشارع أو أى مكان آخر. ولما تمكنت منها الفكرة وأصبحت جزءا منها ، كانت تنظر فى المرآة وترى فعلا تلك الحفرة الموهومة، وتضع أصبعها فيها ، فتزداد يقينا من وجودها

وكانت مريضة أخرى تشكو من أن فكها الأسفل هبط حتى كاد يصل الى صدرها . وكانت تؤكد لى انها تراه هكذا كلما نظرت خيالها فى المرآة ، ومن الأقوال التى كررتها على مسامعى : « عندما أنظر فى المرآة لايسعنى الا أن أقول : ما هذه الخلقة القبيحة المشوهة ؟ »

وجاء مرة لاستشـــارتي مدير محل تجاري كبير في نيويورك ، بشأن أمر طال تردده فيه ، وأعجزه عن البت في الطريق الذي يسلكه حياله ، قال ان الشيب قد دب في رأسه ، ولا يدري اذا كان من اللائق صبغه أو تركه على حالته الطبيعية ، وهو حائر لا يدري أي قرار يتخذ فمن جهة يخشى أن يبدو عليه الـكبر والهرم اذا ترك الشعر الأبيض يغزو رأسه ، ومن جهة يخشى أن يصبغه، فيصبح أضحوكة زملائه ومرءوسيه ، والواقع انه كان شديد الرغبة في صبغ شعره ولكنه لم يجرؤ على اتخاذ قرار حاسم

وكان الزاما على أن أبين له ان هذا التردد الذي سبب عذابه ، وأرقه ، وعصبية مزاجه ، وقلقـــه ، وارتيابه في نظرات زملائه ومرءوسيه ، وسرعة غضبه ، وتعطيل عمله ، لا دخل له اطلاقا بالشعرات البيضاء التي دبت في رأسه . كل ماهنالك ان التردد تصادف ارتباطه بهذه الفكرة . وكان الأمر يكون كذلك ، او انه طلب اليه ان يبت بين أحد هذه الأمور: اما الزواج ، أوشراء بيت ، أو استثمار المـال في تجارة

وبعد الاستماع الى قصة حياته ، اتضح لي مايأتي : مرت عليه في شبابه فترة من التردد قاسى فيها شدة الألم ، وذلك انه لم يستطع البت في الاحتفاظ بشاربيه أو الاستغناء عنهما ، وكان في طفولته يخشى التلعثم في الـكلام ، بالرغم من انه كان لا يبدو عليه ذلك الا قليلا

والواقع ان هذا المريض كان منذ ولادته دقيق الحس ضعيف الجهاز العصبي ، عرضـــة للشعور بأحاسيس بدنية عنيفة . وقد كانت هذه سببا في شعوره بالخجل.

وقد علمت منه انه لم تمر به فترة فى حيـــاته ، كان لا يخاف فيها أن يبدو مضحكا أمام الغير

كان فى صغره شديد الرغبة فى أن يكون مثل زملائه من الصبية ، وأن يكون موضع احترامهم واعجابهم به ، ولكن نظرا الى خجله وتركيز همه فى نفسه ، لم تتحقق رغبته ، ولما كبر ، ظن ان الاحتفاظ بشاربيه ، يضفى عليه شيئا من الهيبة والوقار.. وهما صفتان كان يشعر بافتقاره اليهما ، ومع ذلك فقد أحجم عن ذلك خشية أن يكون موضعا لانتقاد اهله ، وأضحوكة زملائه وأصدقائه

اخيرا اطلق شـــاربيه ، وبذلك تغلب على الخوف بوقوفه فى وجه احاسيسه ، وقد كان هذا سببا فى تحسنه بعض الشىء ، ولكنه بالرغم من فوزه فى هذه الجولة ، فان الخوف كان لا يزال متأصلا فيه ، متغلغلا فى شخصيته كان أبدا شديد التأثر ازاء كل ملحوظة أو اشارة يبديها انسان عن منظره . والغريب انه كان حسن المنظر ، حسن الهندام ، أنيقا . وكان يبدو أصغر سنا مما هو ، وكان الناس يمتدحون قوامه وشكله ، ومع ذلك فقد كان عصابه يصـــور له كل مديح واطراء ، هزءا وسخرية . وكان يخيل اليه ان ما يقوله الناس عن حسن هندامه وطلعته ، بعيد عن الصدق والاخلاص . وكثيرا ما كان يتطرق اليه الشك فيظن أن الناس يضحكون منه فى غيبته

وكان قبـــل ان أبدأ فى علاجه ، يحتد غضبا وتثور اعصابه اذا ماحاول أحد مرءوسيه انجاز عمل معين من تلقاء ذاته بغير استشارته ، لتوهمه ان هـــذا العمـــل اهانة له

وقد نجح الدواء والعلاج النفساني فى انقاذه من عنف احاسيسه وضعف جهازه العصبى، ونجحت عملية تربيته من جديد فى ازالة الأوهام من ذهنه ، فلم يعد يظن أن الناس يحدقون النظر فيه ويعلقون على مايرونه فى منظره . وتكسرت تدريجا شوكة المرض فلم يعد يركز فكره فى نفسه ودفاعه عما يتوهمه فيها من هيبة زائفة ووقار كاذب . وحلت الطمأنينة محل الخوف ، وبدأ يدرك ان صبغ شعره أو تركه على ما هو عليه ، أمر خاص به ، لايهم سواه ، كما ان تخيره المظلة أو رباط الرقبة ، من شأنه لا من شأن غيره

وكان طبيعيا ، بعد شفائه من عصابه ، أن يجد علاقاته بمرءوسيه وزملائه قد تحسنت تحسنا كبيرا ، وأن تجد زوجته الحياة معه أسعد مما كانت . وبالجملة بدأ يفهم حقيقة السلامة العقلية

الخجل ... والانهيـــار العصـــبى ...

وهذه حالة رجل من رجال الأعمال الذين كان الحظ حليفهم ، فبلغ من النجاح ورغد العيش ذروته ، ولكنه أخذ يشكو يوما من انهيار أعصابه ، ولم يجد تعليلا لما حل به ، لأنه كان لايبذل فى عمله جهدا أكثر مما اعتاد طيلة الأعوام الماضية ، ولم تشغل أفكاره هموم مالية ، وكان وزوجته من أبرز سكان الضاحية التى كانا يقطنان فيها ، ومن احب افرادها اليهم . ولكن على حد قوله : « أخذت أحس بغتة اننى تمزقت اربا اربا ، ولم يعد فى وسعى أن أقوم بعمل بغير اجهاد مضن »

وكان يشعر بما يشبه انفجارات شـــديدة الوقع فى جسمه فيرتجف من قمة رأسه الى اخمص قدمه ، ويسمع

طنينا متواصلا فى أذنيه ، ويرى نقطا وأشباحا سوداء أمام عينيه، ويخيل اليه ان قمة رأسه على وشك الانفجار فى الهواء ، وكان وهو فى هذه الحالة يشكو سوء الهضم، والتقلصات المعدية ، والامساك تارة ، والاسهال أخرى.
ولجأ الى الأطباء فشخصوا مرضه بالتسمم تارة وبالتهاب المرارة تارة أخرى وعالجوه على هذا الأساس ، بغير نتيجة .. وساءت حالته يوما بعد يوم

ولم تكن آلام المعدة سببا فى آلام مبرحة وحسب ، بل كانت نذيرا له بخطورة حالته . وأصبح يخشى الخروج من منزله ، فتصيبه أزمات المرض فى الطريق ، وبات يخاف ان يعرض نفسه أمام الناس للسخرية والفضيحة ، ولم يعد يجد لذة فى عمله أو فيما يساهم فيه من ألوان النشاط فى المجتمع الذى يعيش فيه . فكف عن أن يختلف الى النادى ، وأن يلعب «الجولف» أو « البردج » وأن يصحب زوجته الى الحفلات ، واذا ماجاءهم أصدقاء لزيارتهم ، اعتذر عن البقاء معهم ولزم حجرته الخاصة

ولما فحصته واطلعت على سجل حياته فى البطاقة التى أعدتها السكرتيرة، قلت له فورا ان انهياره العصبى يعزى الى خجله. فأبى أن يقر هذا التشخيص ، واحتج بقوله ان هذا مدعاة للضحك . ولكنه بعد أخذ ورد ، وسؤال وجواب ، اعترف بأنه كان فى كل حياته يحارب فى نفسه شعورا «بالحرج والارتباك» والتهرب من مقابلة الغريب الذى لم يسبق له عهد بمعرفته ، أو كما قال لى حرفيا : «كنت أخشى دواما أن أظهر بمظهر لا يشرف»

وكان هذا الخجل مصدر ألم له فى المدرسة . حينما

كان يطلب اليه التسميع أوالاجابة عن أسئلة ، كان يضطر حينئذ أن يشدد الضغط على أسنانه ، حتى يظل صوته متزنا واضحا ، واتبع هذه الوسيلة من ضبط النفس وتدريبها فى الألعاب الرياضية ، وبعد ذلك فى الحياة الاجتماعية فى مرحلة الدراســـة الجامعية ، وكان مما اعترف به قوله : « أما فى الحفلات الراقصة فكنت أشعر باضطراب شديد ، بسبب العرق الذى كان يتصبب من جسمى . وكانت يداى تظلان مبتلتين طول الوقت »

ولما أتم دراسته ، توظف فى عمل يتطلب المرور على العملاء وكان يكره ذلك بشدة ، ولكنه وطد العزم — برغم هذه الكراهية — على أن يقوم به على أكمل وجه . ومن اقواله : « وكنت كلما ركبت المصعد الــكهربائى لزيارة أحد مديرى الأعمال لقضاء مهمة تختص بوظيفتى ، كانت تعترينى نوبات من الألم بسبب التقلصات المعدية ، وكنت أشعر أثناء الحديث معه بتوتر شديد الوطأة ، وكانت يداى ترتجفان ، حتى تكونت عندى عادة غريبة ، وهى وضعهما فى جيبى . وفى النهاية أخرج وقد نالت منى هذه المهمة ما نالت ، ومع ذلك كله كنت أنجز العمل الذى ذهبت لأجله »

أجل ، قد أنجز العمل ولكن على حساب ماذا ؟ .. على حساب الطاقة العصبية التى لا تقدر بمال ، والتى نالت من جهازه العصبى الضعيف ما نالت ، وقد استطاع أن يحتفظ بهذه الوظيفة زمنا ، لأنه كان يسمح له بعطلة لابأس بها مرتين فى العام ، ولأن حياته البيتية كانت تعينه على مواصلة العمل . بيد ان ذلك قد انتهى أخيرا باستنزاف طاقته وهبوطها الى مجال النورستانيا .. فانهارت أعصابه وأقعد عن العمل

وحتى يستعيد المريض صحته ، كان عليه أن يدرك حقيقة حالته ، ويفهم انه ـ ليس كما يتصور ـ فريسة مرض خطير خبيث مجهول الاسم ، بل فريسة الخجل ليس الا . وكان عليه أن يعلم ان هذا الخجل والمعارك العنيفة التى كان يشترك فيها ضده ، تسبب عنهما هبوط طاقته وشكواه من أعراض الاسهال والامساك وتشنجات المعدة وتقلصاتها ، وطنين أذنيه ، والأشباح السوداء أمام عينيه ، وارتجافه ، وتصبب عرقه ، وشعوره بأنه لم يعد هو هو ، وان قمة راسه تنفجر وتطير فى الهواء

احمـــرار الوجـــه ...

هذه قصـــة شابة مثقفة تخرجت فى احدى كليات التجارة واشتغلت فى احدى المؤسسات كاتبة سجلات ، ولما انس رئيسها فيها الذكاء والكفاية ، عرض عليها ان ينقلها الى عمل آخر ، أعلى مرتبا وأمتع ، فأبت ذلك رغم كل الحاح . فلماذا رفضت ؟.. لأنها مصابة بداء الارتباك والتحرج ، والشعور بشدة الألم اذا كان عملها يستدعى التحدث الى غريب أوالعمل بين مجموعة من الناس . ولذا آثرت البقاء فى وظيفتها على تفاهتها اذ فيها تتهيأ لها فرصة لا تجدها فى سواها ، الا وهى دفن وجهها فى السجلات فرارا من لقاء الناس وجها لوجه . هذه الفتاة لاينقصها ذكاء ولا كفاية ولا جمال ولا طموح ، ولـكنها لاتطمئن الى ملابسات الحياة اليومية . تخشى أن يفتضح امرها لاحمرار وجهها خجلا . وهذا ما يضطرها الى اخفائه وراء الأوراق والسجلات ، لأنها منطقة الأمان

وهذا شاب رياضى ، كان فى حياته المدرسية فى مقدمة اعضاء الفرق الرياضية ، وأحد المبرزين فيها ، ولكنه

كان على الدوام يحمر خجلا اذا وجد مع فتاة . كان اذا قدمه أحد أصدقائه الى فتاة أو سيدة ، اندفع الدم الى وجهه حتى أصبح قرمزى اللون ، متوهج الوجنات ، واستحالت كل من اذنيه رقعة شديدة الاحمرار ، وسبب ذلك انه كان يشعر ان الفتاة أو السيدة التى أمامه ، مصوبة عينيها نحوه ، تطيل النظر اليه ، لأنها تراه غريب الأطوار ، وتحدو به هـــذه الفكرة الى الامعان فى حمرة الخجل ، وتصبب العرق ، والارتباك

وكثيرا ما يتخذ الناس احمرار الوجه ذريعة للدعابة والضحك. والواقع انه لايوجب هذا ولاذاك ، بل يستدر العطف على صاحبه ، لأنه مصدر الم لا مزيد عليه . فالكثير من النساء والرجال يشكون من احمرار وتصبب عرق ، لا سبيل الى التخلص منهما ومما يجلبانه عليه من حيرة وارتباك . وكلما تغلغل فيهم ذلك الشعور ، تضاعف تركيز أذهانهم فى نفوســـهم ، وزادت طاقتهم العصبية هبوطا

وأمثـــال هؤلاء ، يدفع بهم الاحمرار والخجل الى الشعور بالاختناق ، وتقلصـــات الحنجرة ، وفقـــدان الصوت ، ومنهم من تساورهم أفكار مشوشة مفزعة تدور فى رءوسهم ، فتضطرب أذهانهم ويعجزون عن التفكير السليم ، ويبلغ بهم الخوف من الاضـــطراب وتشويش الذهن ، انهم يلزمون الصمت فلا يفتحون أفواههم بكلمة

هذه كلها أعراض الخجل .. وهو خشية التعرض لسخرية الغير. وهذه الخشية كما سبق القول مرارا سببها ربطها بأحاسيس الجسم ، فاذا ماخاف صاحبها منها ، انتقل منها الى الخوف من اوضاع أخرى يعتقد

انها سبب سريانها فى جسمه. وما سبب هذه الأحاسيس فى الواقع سوى هبوط الطاقة فى خلايا الجهاز العصبى ، وبتجديدها بالعلاج تعود الى حالتها الطبيعية . أما اذا اقتصر العـلاج على الأعراض ، دون تقوية الخلايا ، اشتدت الأحاسيس وازدادت عنفا وعددا ، وازدادت الطاقة هبوطا . وهكذا تصبح الحالة دائرة خبيثة

قـد تـكون خجولا ... ولا تدرى ...

اذا كان الخجل طويل المدى ــ من الطفولة المبكرة مثلا ــ فقد يجهل صاحبه انه خجول . فالكثير من الناس يتألمون من اضطرابات هضمية ومعوية ، أو أمراض قلبية ، أو قرح معدية ، أو اكزيما أو ضيق فى التنفس ، وغيرها من العلل التى تدل على انها أعراض الخوف من الأحاسيس البدنية . كل هؤلاء يخشون أن يفتضح أمرهم أمام الغير

هذا هو أكثر أنواع أمراض الخوف انتشارا . وهو عادة أول لون من ألوان الخوف يساور ذهن المريض ، ثم يتسع بعد ذلك الى أن تتضخم أصوله وتمتد فروعه . وبهذه المناسبة نسرد فى الفقرات التالية تاريخ مريض وليكن اسمه المستعار س :

« كنت فى السنوات الخمس الأولى من حياتى وحيد والدى . وحدث قبل أن أولد ، أن فقـد والدى عدة أطفال . فكان طبيعيا أن تشتد عنـاية والدتى بى ، وتوجه كل همها وفكرها فى صحتى وفيما أفعل ، ولم تكن تسمح لى أن ألعب مع غيرى من أولاد الجيران ، بدعوى اتصـافهم بالخشونة وافتقـارهم الى الآداب السامية ، وكانت تخشى على الدوام من أن يدفعونى الى المساهمة معهم فى عمل يتأتى عنه خطر أو نتائج غير

حميدة . وكثيرا ما كانت تجرنى جرا من بين رفاقى فى اللعب ، وقد عاقبتنى مرة بالضرب بسبب اللعب معهم ، وأمام عيونهم ، فكرهتها للتدخل فى حريتى ، وعرفت أن هذا العقاب قد جعلهم يصفوننى بعبارة « ابن ماما » وأمثالها . ولما لم يكن لدى حيلة لمقاومتها رضخت لرغبتها

« وقد كان هذا سببا فى خجلى وابتعادى عن غيرى من زملائى، وكنت أضطرالى التعويض عن ذلك بالالتجاء الى أبى أو عمتى أو جدى لتشجيعهم اياى وعطفهم على. وكانوا لا يترددون فى اللعب معى ، وكنت أشـعر معهم بالطمأنينة

« وقد كنت ناجحا فى مدرستى ، مكبا على دروسى فى الفرقة ، وكان المدرسون راضين عنى وعن عملى ، وكانت نتائجى النهائية فى الامتحانات حسنة . غير أن الشىء الوحيد الذى كنت أفشل فيه هو الوقوف أمام التلاميذ للتسميع

« وفى مرحلة الدراسة الثانوية كانت نتائجى كذلك متفوقة غير اننى كنت لا أساهم فى الألعاب الرياضية أو النشاط الاجتماعى . ولم يكن سبب امتناعى عنها عدم الرغبة فيها ، انما العكس هو الواقع ، اذ كنت أتمنى من صميم فؤادى أن أكون محبا لمشاركة الغير والاندماج فى الجماعة . وقد حاولت ذلك فلم أنجح . وكنت اذا تحدثت مع فتاة ، شعرت بعدم ارتياح وعصبية فى مزاجى، وكانت القريحة لا تجود بكلمة أقولها لها . فاذا حاولت الكلام ، يأخذ العرق فى التصبب من جبينى ، وينخفض صوتى حتى يصبح الكلام تمتمة خافتة غير مفهومة ، وأشعر بالخزى . ولجأت بعد ذلك الى تبرير موقفى

بقولي أن أولئك الزملاء من فتيات وفتية غير جديرين بالاهتمام على كل حال ، وانني أشد ذكاء من أكثرهم . وأصبحت بعد ذلك أسلك مسلك المتعالي المتباهي ، وأشعر ان سواى لايستحق مني سوى الازدراء والاحتقار

« واشتغلت عاما مع والدى فى اعماله التجاريه ، ثم اعلنت الحرب فدخلت الجنديه ، حيث عهد الى بعمل كتابى فى احدى الفرق . وكان عملى مكللا بالنجاح ، ولم اجد ادنى صعوبه (خجل) فى التحدث الى الضباط ، ولكنى كنت اشعر بعدم الارتياح والقلق وعدم الميل للكلام ، عند وجودى مع امثالى من المجندين ، ولم استطع أن تكون علاقاتى معهم كما يجب رغم محاولتى . ونظرا لما كنت أشعر به من تركيز افكارى فى ذاتى وعدم ارتياحى لوجودى معهم ، كنت اتجنبهم . ولذا لم يكن لى اصدقاء ، ولم اساهم فى الحفلات التى كانت تقام لجنود فرقتى

« وخطر ببالى مرة أن أتصيد فتاة كما يفعل الغير ، ولكنى عجزت عن ذلك لجهلى العثور عليها بنفسى . وكان مجرد التفكير فى مرافقة فتاة غريبة لا أعرفها ، ترتعد له فرائصى اذ كنت لا أدرى كيف أسلك معها أو ماذا أقول لها

ولما سرحت من الجندية ، استأنفت العمل مع والدى وكنت حينذاك قد بلغت العمر الذى ينتظر منى فيه أن أتحمل مسئوليات العمل ، كالمرور على المطاعم التى نبيع لها بعض منتجاتنا ، ولكن مثل هذه المهمة كان عبئا ثقيلا على . وكان ينتظر أن يكون مثل هذا العمل سهلا ، بل داعيا للتسلية ، لأن والدى كان يعامل تلك المطاعم منذ أعوام طويلة

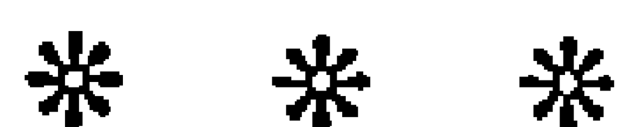
« كان يخيفني في هذه المهام علمي انني سأتحدث الى المدير أمام الناس ، وأن جسمي سيبتل بالعرق بمجرد أن يفتح الباب المؤدى الى مكتبه ، وان عضلات معدتي ستأخذ في التقلص . فأتلوى من الألم وأخشى أن اتقيأ . وكنت أشعر بخشونة في يدى، ولذا كنت أخشى التسليم على الناس . وكنت أخاف ان يهزأ بي الناس اذا ما خانني صوتي فيصبح كلامي فحيحا ضعيفا ، لا يليق برجل مثلي ضخم الجسم . وكان مما يزيدني اربابا خوفي من ان المدير والفتاة الجالسة الى الحزينة ، يرمياني بالجنون

« وبالرغم من ذلك فقد كان لزاما على تأدية هذه المهام .. بيد انني كنت أعود بعدها مرهقا ، أجر قدمي جرا ، ولا أستطيع الذهاب الى السينما ، وكنت اكره البقاء مع افراد اسرتي او ان اشارك والدى في اللعب ، بل كان كل همي ان اغلق باب حجرتي ، واستمع للاذاعة ، وآسف على ما وصلت اليه حالتي ..

« تأكدت انني فاشل ، تعيس ، لايرجى مني ، لا حيلة لي في التغلب على متاعبي، وكنت اكره ان افكر في السنوات الطويلة الباقية من عمري . وخطر ببالي أن أستعير من المكتبة بعض كتب علم النفس والتحليل النفساني ، ففعلت آملا أن أجد حلا لمشكلتي الغامضة ، وأن ابحث اذا كان في هذا العالم اناس مثلي

« وكنت كلما توسعت في المطالعة ، زدت اضطرابا ، واخذت الوم أمي لتربيتي هذه التربية الفاشلة التي خلفت مني « ابن ماما » . ثم أخذت الوم والدى لأنه لم يوقف أمي عند حدها في تربيتي ، في حين انه كان يجدر به أن

يعرف عاقبة هذا النوع من التربية .. كل هذا لم يأت بنتيجة ، ولم يبعد عنى ذلك الشعور المخيف الذى يستولى على كلما لقيت أناسا لا أعرفهم وكان على أن أتحدث اليهم »



لقدتعمدت الاطالة فى وصف هذه الحالة ، لأننى سأشير اليها مرات فى الفصول التالية من هذا الكتاب ، ولانها حالة مثالية للخجل واثره فى عمل صاحبه وشخصيته

ان الأعراض التى كان يشكو منها هذا الرجل كانت فى جملتهـا عقلية لا بدنية ، برغم الآلام المعديه والعرق البارد الخ ..

لقد ولد بجهاز عصبى ضعيف ، فكان عرضة لشدة الحساسية وسرعة التأثر مما يقال له أو عنه . وقد زاد هذه الحساسية معاملة الأم . ويذكر القارىء ان هذا المريض كان يصادف ارتياحا فى اتصاله بعمته وجديه اكثر مما يجده مع نظرائه من الأطفال الذين فى سنه . ولذا قضى شطرا كبيرا من عمره مستسلما للخوف وعدم الاطمئنان والشك فى نيات الغير. كان لايشعر بارتياح فى حياته المدرسية والجامعية وخلال الفترة التى قضاها فى الجيش ، كلما حاول الاندماج فى الحياة الاجتماعية ، فلما نزل الى ميدان العمل ، تأصلت فيه كراهية المجتمعات . وقد تضاعف خوفه لسبب استسلامه لشعوره وتجنبه الغير

وتسبب عن عصاب الخوف استنزاف الطاقة من جهازه العصبى . ولما اضطر الى القيام بالمهام التى كان يكره القيام بها ــ وهى المهام التى تثير فيه تلك الأحاسيس

الأليمة — اشتدت هذه الأحاسيس وساعدت على أضعاف طاقته فوق ضعفها

حارب مشـــــاعرك ...

عندما انصح للمريض ان يحارب مشاعره ويقف ضدها ويتحداها ، اكون قد مهدت لهذا النصح بشرح هــذه المشاعر والاحاسيس له وايقافه على طبيعتها .. فلابد من تعريفه انها عديمة الضرر ، وانها شعور عادى يشتد ويتضخم بسبب مرضه ، وانها كانت سببا فى خوفه زمنا طويلا ، ومتى ادرك جيدا هذه الحقائق ، يطلب اليه أن يتحدى هذا الشعور ويقف فى وجهه ، ويقوم بعمل الأشياء التى كان يخشى القيام بها . عليه ان يخاطب هــذه الأحاسيس بقوله : « هلمى ، هلمى .. اننى أعرف حقيقتك .. اعلم جيدا انك لا تستطيعين ايذائى ، وأعلم ان الخطر الذى كنت اتوهمه فيك لا وجود له »

فاذا مافهم المريض جيدا طبيعة أحاسيسه : اسبابها وخلوها من الضرر ، وأتى الأعمـــال التى كان يخشى اتيانها ، يتبين له ان المشاعر التى ترتبط بهذه الأعمال باتت أخف حدة ووطأة مما كانت ، ويدرك انه أصبح فى وسعه أن يعمل اليوم ما كان يجبن أن يعمل بالأمس

وحسب هذا الادراك أن يكون معوانا له على تجديد طاقته والخطوة التالية أسهل من سابقتها .. فكلما اتبع امر الطبيب ووقف لأحاسيسه بالمرصاد ، وتحداها ان تتقدم نحوه ، أيقن ان حــدتها قد خفت ، وأصــبحت لا تستجيب له اذا ما دعاها . والخطوة الأخيرة فى سلم العلاج انها لا تعود . لقد شفى المريض تماما

وهنا أريد أن أوصى القارىء أن يقرأ هذه الفقرات

مرة أخرى ، لأنها على الرغم مما تبدو عليه من السهولة والبساطه فان معانيها تختلط على الكثيرين

وأرجوملاحظة النقطة الآتية بعناية :

ـ انني لا أوصي المريض أن ينفض يديه من هـذه الأحاسيس ويأبى الاعتراف بها . فليس فى وسع انسان أن يخدع عصاب الخوف. بل ينبغيان يواجهها بصراحة « فى العصاء الاوسع » وفى غير مدراه . أما اذا حاولت طمس معالمها ، والزعم بأنك لست خائفا ، فانك تـكذب على نفسك ، وبذلك تضاعف قوة الخوف بدلا من أن تـكسر شوكتها

ـ انصح لك أن تلاقى الخوف كما هو ـ وعلى علاته ـ بعد أن أصبحت تتفهم طبيعته ، وأيقنت انه عديم الضرر ومتى تسلحت بهذا الادراك وهذا الفهم ، تقـدم نحو أحاسيسك بشجاعة وجرأة ، كما تقدم داود النبى نحو « جوليات » الجبار فى القصة التى وردت عنه فى التوراة

انت الآن كالنبى داود مزود بسلاح الحق ، والحق لا يغلب

الفصل السادس :

الغـــيرة

الغيرة كداء السرطان ، تغزو فريستها وتتغلغل فى شخصيتها ، حتى لا تدع جانبا من جسم صاحبها او عقله يخلو منها .. ومتى علقت بذهن انسان ، فهيهات أن يفلت من قبضتها الفولاذية ، لانها تبقى جاثمة فوقه ليلا ونهارا . ولا تنفك تهمس فى أذنيـه موحيـة اليه بالشكوك السامة ، فتمنعه الراحـة ، وتحرمه سـلامة العقل . ان الغيرة مصدر الكثير من نواحى التعب التى تستولى على أعصاب المصاب بها

ومن طبيعة الغيرة انك لا تستطيع مهادنتها أوملاقاتها فى منتصف الطريق ، لأنها لا ترضى الانصاف ولا تقنع الا بالنصيب كاملا غير منقوص ، وليس فى وسعك مداعبتها أوالضحك عليها. واذا سخرت منها تسربت الى الأعماق، وبات خطرها على العقل أشد مماكان. والواقع انالفرق بين الرجل الذى يعتقد انه السيد المسيح ، فتمكنت منه هذه الفكرة ، والرجل الذى يعتقد ان كل موظف جديد فى المكتب الذى يعمل فيه يحاول أن يحل محله.. الفرق بين هذا وذاك درجة من درجات الجنون !

فما هى الغيرة ؟ ..

الغيرة عارض من أعراض الخوف .. والرجل الذى يشعر بالاطمئنان والأمن فى قرارة نفسه ، لايمكن ان يبتلى بدء الغيرة ، أو أن تعرف الغيرة اليه سبيلا. قد تحسد أحد الناس لأنه أسعد منك حظا وأكثر استمتاعا بمزايا أنت محروم منها ، أو يبدو على الأقل كذلك ؛ بيد أن هذا ليس المقصود من الغيرة

الغيرة دليل المرض ، لأن العقل الذى تلازمه مفعم بالخوف والخجل ، وعرضة للاصابة بحالة خبيثة من المرض تفتك بشخصيته ، ودعنى اكرر القول — وان اتهمت بعيب التكرار — ان الخوف أو توقع الخطر ، أول دليل على التعب الذى يصاب به الجهاز العصبى

ويأتى الخوف أو توقع الخطر فى بادىء الأمر فى صورة غامضة ، ينقصها الوضوح والتكوين . يشعر صاحبها بعدم الطمأنينة ، ولا يعرف سبب ذلك ، اللهم الا اذا فهم جيدا النظريات التى جاءت فى هذا الكتاب أو المؤلف الذى سبقه « لا تخف »

الغيرة احساس ...

الكثيرون من الكتاب الذين عالجوا هذا الموضوع ، يعزون الغيرة الى وجدان هدام شديد الوطأة فى النظام الفكرى . ويشجع هؤلاء الكتاب المرضى على البحث عن جرثومة داء الغيرة والتنقيب عنها فى الأفكار التى تشغل بالهم . وفى اعتقادى بعد خبرتى الطويلة فى علاج هذا الداء ، ان الباحث فى افكاره عن مصدر الغيرة «كمتطلب الماء فى جذوة نار» اننى أقرر عن يقين ان الغيرة لا علاقة لها بالنظام الفكرى ، ولكنها كسائر أنواع الخوف ، ترجع

الى شعور فى جسم صاحبها

ان المرأة او الرجل الغيور ، يشعر بأحاسيس عنيفة تندفع سارية فى جسمه ، دلالة على خوفه وعدم اطمئنانه ، وكلما اشتدت هذه الأحاسيس ، اشتد خوفه وعدم اطمئنانه تبعا لذلك . فاذا كنت لا تفهم طبيعة هذا الشعور وأسبابه ، تعزوهما الى ان المرأة التى تحب ـ أو الرجل ـ على وشك الافلات منك ، وانك مهدد بفقدانها . وتعلل الأحاسيس بالقول « لولا ان هناك ما ينذر بفقدان السعادة وحرمانى من الحبيب ، لما كنت أشعر بما أشعر به » . وعندما توحى الى نفسك بهذا القول ، يكون مثالك مثل الرجل الذى يعلل المشاعر المبهمة الأليمة فى صدره بأنها من أمراض القلب أو مثل المرأة التى تعتقد ان ما تشعر به فى ظهرها من آلام حادة ، من اعراض السرطان ، انك تشخص أحاسيس الجسم تشخيصا خاطئا ، وتعتقد بصحته وتتقبله قضية مسلما به

وكلما استسلمت لهذا الاعتقاد اشتد شعورك عنفا ، وأصبح الواحد للآخر ككفة الميزان للكفة الأخرى ، وكلما زاد خوفك وعدم اطمئنانك ، زاد شعورك بعجزك عن ضبط نفسك ، وبأنك سرعان ما تنفجر وتطير فى الهواء . ومعنى هذا انك تخاف من احاسيسك المروعة الأليمة التى لا تفهمها لا من الأفكار التى تساورك بخصوص فقد حبيبك . اى ان الاحساس والفكرة التى ربطتها به ، قد اصبح الواحد شرطا لظهور الأخرى ، واصبحا معك فى كل حين ، ونتج عن ذلك ان وجودك مع من تحب ، لايشعرك بالارتياح التام ، ولذا يشتد بينكما الخصام والجدل ، ويتهم أحدكما الآخر بكل أنواع التهم ، وتساور

كل منكما الريب والشكوك فى كل ساعة من ساعات الليل والنهار

وأيا كانت المسالك البريئة التى يسلكها صديقك أو صديقتك ، فانك تحملها على الدوام محمل الخديعة والكذب .فى كل هذا تعتقد ان تعليلك صحيح وانمنطقك سليم ، فى حين ان النتائج التى توصلت اليها مبنية على أسس لا نصيب لها من الصحة . وبذلك توشك أنتصل الى حالة المصاب بداء « البارانويا » ، أى الذى أصبح يعتقد اعتقادا ثابتا أن كل رجل فى الدنيا يكيد له ويعمل لايذائه ، ويرى الخطر محدقا به فى كل ما يبدو من الآخرين نحوه من حركات وسكنات ، وبذلك أصبح هذا الاعتقاد فيه بديهة لا حاجة للاستدلال على صحتها . والشخص المصاب بداء « البارانويا » مجنون ، وجنونه أشد أنواع الجنون خطورة ، ولكن قدرته على تعليل الأشياء تدل على نهاية الذكاء ، ولولا ان الوقائع التى بنى عليها نتائجه باطلة ، لكان عمله سليما دالا على الذكاء والمقدرة

ان المرأة والرجل الذى تبلغ به الغيرة حد الجنون وتدفعه الى القسوة كارتكاب جريمة القتل ، هو الذى سلم بصحة آراء وصدق وقائع ، هى فى الحقيقة كاذبة . والذى حدا به الى هذا انه لم يتفهم طبيعة أحاسيسه

ولاريب ان الغيرة طبيعية والشعور بها أمر عادى الى حد ما . وهى كسواها من أنواع الخوف . فليس ثمة خروج عن المألوف أن يخشى انسان فقدان شىء يقدره ويحبه ، سواء أكان ذلك الشىء شخصا ، أم وظيفة ، أم متاعا . أما اذا بلغت الغيرة حد العنف والشدة ،

وسيطرت الحساسية بها على العقل ، فانها تصبح حالة خفيفة من حالات الجنون

والغيرة كسائر انواع المصاب ، يشتد ساعدها بالتشجيع فكلما انغمس فيها المرء واستسلم لها ، ازدادت قوة. وكلما ترك لها الحبل على الغارب، سيطرت على تفكيره وهدمت قدرته على ضبط أعصابه وتعليل الأشياء تعليلا منطقيا ، ولهذا يعزى السبب في الكثير من جرائم القتل

وللغيرة ترجع اغلب حوادث الطلاق ، وما يتمثل على مراسح الزوجية من المشاهد الصاخبة والمآسي المحزنة ، التي لا تضر بالزوج والزوجة وحسب ، وانما تتعداهما الى البنين والبنات

ويتضح لمن يدرس نظرية هذه الحساسية وكيف تنشأ وتتطور ، ان الغيرة ليست من طبيعة الانسان وخلقه ، ولكنها صفة ضارة هدامة مكتسبة . ان الطفل لا يولد غيورا ، ولا يرث الاحساس بها من والديه أو اجداده ، ولا يعقل أن أبا أو أما ينقل مثل هذه الميول والنزعات المؤذية الى ذريته . ان ما يمكن أن يتوارثه الطفل عن والديه ، جهاز عصبي شديد الحساسية سريع التأثر . ولكل جهاز ضعيف مرهف الحس ، قابلية لاشتداد الشعور وتضاعفه . وهذا أساس الغيرة

واذا فحص طبيب الأمراض العقلية الرجل الغيور فحصا دقيقا ، تبين له أن مرضه لا يقتصر على الخوف وحده ، أي الخشية من فقدان الشيء أو الشخص الذي يحبه ، وانما يشمل فوق ذلك حدة الطبع . ويغلب أن يكون قد ظهر عليه ذلك منذ نعومة اظفاره ، وانه كان

منذ سن مبكرة عنيفا فى حبه وكراهيته . والغريب ان امثاله يباهون عادة بشدة انفعالهم وسرعة تأثرهم ، ظنا منهم ان حدة الطبع ، دليل القوة ، والواقع ان العكس هو الصحيح . ان عنف الطباع دليل على ضعف الجهاز العصبى ، وهو ما لايدعو الى التفاخر ، أو ما يحسد عليه صاحبه ، وعلى من يشعر به أن يسلم بهبوط الطاقة فى الخلايا العصبية

الرابطة بين الخوف والغيرة ...

ولكى نفهم كيف يتحول الخوف أو توقع الخطر — وهو أول أعراض الضعف العصبى — الى غيرة ، نوجز قصة سيدة عرفتها :

كان زواجها سعيدا ، وكان زوجها لايدخر وسعا الا ويبذله لارضائها والسهر على راحتها ، وكان بيتهما نموذج الأناقة مستكملا وسائل الراحة ، وكان لا يشغل بالهما فى الظاهر هم ولا نصب . وكل ما توافر للزوجة من أطايب الحياة كان مما تحسد عليه كل امرأة . وبالرغم من ذلك ، كانت على الدوام قلقة ... لا بسبب شىء معين ، بل بكيفية غامضة لايمكنها تحديدها . ولا تدرى أين مصدرها . ولم يقل لها أحد ان الحمى التى اصابتها ، والعملية البسيطة التى أجريت لها بعد ذلك ، تسبب عنها هبوط فى طاقتها العصبية . حقيقة ان هذا لم يبلغ درجة توجب شدة الاهتمام ، ولكنه كان كافيا لاشعارها بشىء من الخوف وعدم الطمأنينة . وكثيرا ما كانت تحاول أن تبحث عما عساه أن ينقصها فى الحياة مما يسبب لها هذا القلق ، فلا تجد له أثرا . ولكنها كانت تقول فى نفسها ان هذا الخوف لابد أن يكون انذارا

أو تمهيدا لحادث على وشك الوقوع ، وان « غريزة » الأنوثة فيها أو فطرتها تحاول أن تنبئها بخطر لم يكشف عنه المستقبل بعد

ثم لا تفتأ أن تتساءل عن معنى هذا كله . وقد تظن امرأة سواها انها ستصاب بمرض لم يكتشفه الطبيب بعد .. أما هي فتقول فى نفسها : « ان هذا الذى أخشى وقوعه قد يكون له علاقة بزوجي ، فقد تكون صحته على غير مايرام » ، ولكنها سرعان ما تتذكر ان الطبيب قد فحصه أخيرا ، ووجد انه فى تمام الصحة . غير انها رغم ذلك لايزال الخوف يساورها – وكيف لا وجهازها العصبى ضعيف ؟ – فتنشرع فى شحذ القريحة مستعينة بخيالها ، للوقوف على سبب الخوف ، فيوسوس هاتف فى أذنها ان زوجها يحتمل أن يكون متصلا بامرأة سواها . فهناك تلك الشابة ذات الجاذبية الجنسية فى مكتبه – انه كثيرا ما كان يتحدث عنها .. فلا يمكن أن يخفى على أحد انه كان معجبا بها . على ان ذكرها لم يجىء فى سياق حديثه أخيرا . فلماذا ؟ هل معنى هذا انه أصبح أشد اهتماما بأمرها وأكثر اعجابا بها فسكت عن ذكر اسمها أمام زوجته ، لئلا ينكشف أمره ؟

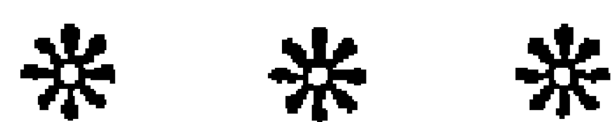
الغيرة اذا كالشجرة يمكن أن تبدأ حبة ولا يلزم أن تكون الحبة كبيرة ، طالما كانت التربة التى تقع عليها خصيبة . أن الخوف أوتوقع الخطر ، الناتج عن التعب ، كالسماد الذى يزيد الأرض خصوبة صالحة لهذا النوع من الزرع

واذا لم تتخذ الوسائل العلاجية لازالة هذا التعب ، فلابد من أن يزداد شدة . ويزداد بسببه القلق والهم

والارتياب ولا تخف وطأته ، حتى اذا تحديته وحاربته ، طالما كنت لا تفهم طبيعته ونشاته . وكلما زاد تعبك ، زاد خوفك ، وتضاعفت شدة حساسيتك . تبيت يقظا لكل ما يقال عنك فتحسبه تعريضـــــا بك ، ويجرح احساسك لأوهى الأسبـاب . تفسر نظرات الغير او سلوكهم العابر بأنه كراهية لك او استهزاء بك . ويصعب عليك تركيز فكرك فى موضوع واحد ـ اللهم الا فى نفسك ـ وتتأصل فيك تلك الفكرة التى تشغل بالك

بهذا تستسلم لليأس من الحياة ، تقول لنفسها انها لم تعد فى عنفوان الصبا ، وتشكو من التعب ، فتمتنع عن الذهاب للحفلات ، لعجزها عن الظهور بمظهر المرأة المرحة البشوش

ولا تريد ارتداء ملابسها الجميلة التى كانت تباهى بها . ولم تعد ترغب فى شراء حاجاتها كعادتها لأن ذلك يزيد شعورها بالتعب . ولا يخفى عليهـا انها تنحـدر تدريجا الى أسفل السلم ، وقد تلوم نفسها على هـذا الاستسلام للريبة ، والاذعان للشك ، ولكنها لا تجد سبيلا للكف عنهما . ولا يزيدها هذا الا شقاء وهما .. هذه هى الحالة التى يكون فيها المرء فريسة رأى ثابت . وبهذا يتطور الوضع الى عصاب خطر ، هو عصـاب الغيرة .. « فحذار من الوحش ذى العيون الخضراء »



وقد أبدع شكسبير فى روايته الشهيرة « عطيل » فى وصف عقل نبيل أضنى أعصابه التعب ، فقتلته الغيرة . ورسم لنا عطيل لوحة فنية لما لاقاه من المتاعب بعد عودته من ساحة القتال فى قوله : « حروب وحصار

وكوارث مروعة مررت بها .. حوادث خاطفة من سيل جارف وقتال عنيف ... عهود تكسر ... وجنود تقع فى قبضة عدو نذل ... وتؤسر وتباع فى سوق الرقيق».

وفى طب الأمراض العقلية الحديث حالات لا حصر لها للأمراض التى تتسبب من صدمات الحروب واثرها فى انهاك الجهاز العصبى

ويذكر لنا عطيل كيف ان « ديدمونا » افتتنت بهذا الوصف الرائع والمغامرات التى قام بها فى ساحة القتال فقال : « أحبتنى لما لاقيته من الأخطار ، وأحببتها لما لقيت فيها من عطف ! .. »

بيد ان تلك المغامرات المثيرة ـ برا وبحرا ـ وتلك الحروب الطاحنة والحوادث المروعة ، كان لها عميق الأثر فى جهاز عطيل العصبى. كان حبه «لديدمونا» نبيلا، ولكن عقله كان سريع التأثر بسموم «ياغو» ـ ذلك الوغد الخسيس ـ وما كان سره فى أذنيه . وقد مهدت متاعب عطيل السيل «لياغو» ، فصادف مرتعا خصبا للوشاية والدسيسة ، وما كاد « ياغو » يوحى اليه بالفكرة حتى انشبت أظفارها فيه وأصبحت جزءا منه . وما ان ثبتت اقدامها حتى تضخمت وكبرت فأصبحت غيرة وحشية ، فتكت بحبه «لديدمونا» ، ثم قضت على حياتها وحياته !

وقد ظهرت فى امريكا رواية سينمائية ، حضرها ملايين من الناس فى طول البلاد وعرضها ، خلاصتها أن بطل الرواية ـ وقد كان ممثلا مسرحيا يقوم بدور عطيل «مغربى البندقية» ـ بلغ منه التأثر بدوره ، انه لبس شخصية عطيل بكل ما فيها من تصديق للوشاية واستسلام للدسيسة ، والاصابة بذلك الداء الوبيل :

الغيرة . وقد كان كلما قام بتمثيل هذا الدور فى المسرح يخشى أن يصبح شعوره التمثيلى حقيقة واقعة ، فتحققت مخاوفه ، وأخذت الفكرة تتأصل فيه . وقد انتهى به الخوف – وهو بلا شك دليل ضعفه العصبى – الى وسواس فماساة ، قضى فيها على حياته

وقلما قرأ صحيفة يومية فى أثناء الحروب أو بعد أن تضع أوزارها ، حتى نقرأ عن مآسي الجنود القدماء ، الذين يصابون بوسواس الغيرة ، فيقدمون على قتل زوجاتهم . ان أحوال الحروب تضعف الطاقة فى جهاز الجندى ، فتهبط الى درجة يسهل فيها وقوعه فريسة الأفكار الثابتة ، ونظرا لقلقه وسرعة تأثره وعنف أحاسيسه ، وعصبية مزاجه ، تصبح حياة الزوجة معه مستحيلة ، اذ لم يعد ذلك الرجل الذى تزوجته وعرفته قبل الحرب . ومن السهل أن تتوالى الأحداث والملابسات حتى تتطور الى غيرة قاتلة تختتم فصول الرواية فيها بجريمة القتل

الغيرة قابلة الشفاء ...

لقد وضح مما سبق ان الغيرة لون من الوان الخوف ، ولا تختلف فى شيء عن غيرها من المخاوف المرضية التى وصفناها ، وتستجيب للوسائل العلاجية التى يستجيب لها سواها

ويسهل كسر شوكة هذا العصاب اذا أحسن الطبيب تشخيص المرض وعلاجه قبل أن يتمكن من المريض ويستفحل ولا يتم هذا الا بتمييز أحاسيس المريض عن سواها . انها أحاسيس بدنية عادية ولكنها قوية ، عنيفة ، أليمة ، تضطرب لها حياة المريض اليومية . انها

انذار بتوتر الخلايا العصبية ، فمتى ادرك المريض ذلك كان لزاما عليه الوقوف ضدها ، وأن يردد لنفسه : « ان هذا الشك الذى يساورنى لا أساس له » ، ويأبى أن يرضخ له أوأن يتوهم ان الشخص الذى يحبه على وشك الافلات منه . فى وسع الغيور ان يعيد المياه الى مجاريها بغير الالتجاء الى الطبيب اذا سارع الى تجديد طاقته بالراحة والاستجمام والوسائل التى سبق تفصيلها ، قبل أن نهبط الى درجة تستوجب علاج الطبيب وتنذر بالخطر

ان علاجى للمريض المصاب بداء الغيرة لا يختلف عن علاجى لسواه من المصابين بالمخاوف المرضية . أطلب اليه قبل كل شيء ان يقص على سيرته ، حتى أبين له أثر البيئة وحالته الصحية وعمله وعلاقته بأفراد أسرته وما الى ذلك ، على حالته البدنية والعقلية . ويسلم كل غيور بأنه كان حاد الطبع طول حياته ، ويدل الفحص على ان هناك أعراضا أخرى فيه تدل على ضعف جهازه العصبى . هذه كلها أشرحها للمريض ، ثم أبين له ان غيرته وثيقة الارتباط بأحاسيسه ، وان هذه يمكن تخفيف وطأتها أو التخلص منها كلية .. فالمريض نفسه هو الذى ربط فى ذهنه بينها وبين خوفه من فقدان من يحب ، وبهذا تتكون الغيرة

ومن هذة النقطة يبدا علاج المريض طبقا لنظام موضوع ... يتعاطى الدواء الذى يرفع الطاقة فى الجهاز العصبى ، ويشجع على عدم الرضوخ لأحاسيسه بل يعمل ضدها . وبفعل الدواء يجد انه كفء لذلك . وعندما تقف رحى القتال بينه وبينها ، يتجدد جهازه العصبى ويقوى

وفى الوقت الذى يعالج فيه بالدواء لتقوية أعصابه ، يعالج كذلك نفسانيا بتربيته من جديد حتى يفكر تفكيرا سليما . ومتى نبتت فى ذهنه حقيقة الغيرة — اى انها فى احاسيسه لا فى نظامه الفكرى — يشجع على تكوين مثل جديدة فى الحب ، أسمى مكانة وأصدق . وبذلك يدرك ان الحب ليس ملكية ، وان الحب السليم الصحيح يتطلب الثقة فى المحبوب ، ومنحه نصيبه وحقه من الحريه

الحب العنيف ...

ان الأفكار التى تساور صاحبها لا تلد غيرة الا اذا غذاها الخوف وعدم الطمأنينة ، كما رأينا .. بيد ان هذا ليس معنـــاه ان كل شخص عرضة للمخاوف والشعور بعدم الاطمئنان ، تكون الغيرة طبيعة فيه .. اذ يشترط فوق الخوف والشعور بدنو الخطر — وهما غذاء الغيرة — ان يكون حب الغيور كحب عطيل فى رواية شكسبير .. حبا عنيفا ولـكنه خال من الحكمة

الحب من أهم الدروس التى ينبغى لكل امرىء أن يتعلمها ويأخذ بناصيتها حتى يعيش حرا ، سعيدا ، منتجا . وليس كل انسان يولد ملما بهذه الدروس بالفطرة ، فيعرف كيف يحب حبا صحيحا . ولكن فى وسع كل انسان أن يتعلمها كما يتعلم السباحة أو الرماية ، طالما كانت له الرغبة الصادقة فى تكوين خلقه وشخصيته . ولا يولد أحد بالفطرة عرضة للغيرة بسبب ضعف جهازه العصبى . وفى وسع كل مخلوق أن يتحصن ضد الغيرة ، كما فى وسعه أن يتحصن ضـــد حمى التيفوئيد ، أو التيفوس أو أى مرض آخر خطير . ومتى توافرت لديك المناعة ، وتعلمت دروس الحب ، فأصـــبح رائد حبك

الحكمة ، فانك مهما انهك التعب قواك ، ومهما بلغ منك الخوف ، ومهما استسلمت لليـــأس ، فان الحسد لن يعرف الى قلبك سبيلا

فى وسع الطبيب الذى يفهم طبيعةالجهاز العصبى أن يعالجك بالدواء حتى تتخلص من التعب الذى تسبب عنه ضعف الطاقة ، واذا كان طبيبا نفسيا كان فى وسعه أن يزيل عنك وسواس الغيرة . والطبيب ، اواخصائى الأمراض العصبية ، أو الـــكاهن الذى يحاول عـــلاج المريض بالكلام وحده وبدون دواء ، يكتب عليه الفشل

نعود مرة أخرى الى موضوع الحب ، فنقول ان صفة الحب لا تقاس بشدتها وعنفها ، بل بدرجـــة ما تسمح لنفسك فيها من معنى الملكية .. فاذا كنت تقدرحقيقة حريتك العقلية ، وتعمل على تقويتها ، كان لزاما عليك أن تحب من تحب ، بشرط ألا تعرض حريته للخطر او الأذى . فمن حقوق الانسان المقدسة حريته . ومن حق كل فرد أن يكون «هو» نفسه . وينبغى أن نحرص على هذا الحق ، حتى فيما يتعلق بمن نحب . لكل فرد فى الوجود ــ حتى من نحب ــ أن يكون له حق الحرية ، وحق الاحتفاظ بجانب من أسراره ورعاية شئونه الخاصة. وليس الحب مبررا للتعدى على هذه الحرية والحرمان من هذه السرية . الواقع ان الحب الصـــادق الصحيح لايسمح لنا أن ندوس على هذه أو نتجاهل تلك ، ولن نتعلم فن الحب الصحيح من الشاشة البيضاء . فمن أقوى العوامل التى تعطى الناس فكرة خاطئة عن الحب «الرومانس» وعلاقة الجنسين بعضهما ببعض كما تبدو فى السينما . انها وما يذاع من محطات اللاسلـكى من

الأغانى الرخيصة والروايات المبتذلة يوميـــا ، تترك فى العقول الناشئة التى لم تنضج بعد آثارا هدامة ، فيظنون ان الحب يقاس بمقدار سيطره الحبيب على حبيبه

لقد دلت الأبحاث والدراسات الاجتماعية على ان فى مقدمة الأسباب التى تؤدى الى الطلاق وهدم الأسر ، افتقار الزوجين الى النضوج قبل الاقدام على الزواج . ان ارث الحرية الذى تتوق اليه كل أمة وكل فرد . لايتوافر الا متى تعلم الناس كيف يحبون ، وكيف يحبون بحكمة لابعنف ، وكيف يحترمون حرية الحبيب وسريته ، وبتعبير آخر كيف يبلغون درجة من النضوج البـــدنى والعقلى والاجتماعى والوجدانى ، تكفل سعادة الزوجين ، أو المتحابين

قصـــة فأر ...

هذه قصة مريضة جاءت تشكو لى من آلام معـدية شخصها الأطبـــاء انها عقليـــة . ولولا ان حالتها التى ستصفها بالتفصيل جديرة بالاهتمام ، لـكانت مصدرا للفكاهة والتسلية :

« لقد علمت من جميع الأطبـــاء الذين استشرتهم ان معدتى خالية من المرض . وقد جاءت نتائج جميـــع الفحوص سلبية ، اذ لم يظهر فيها مايدل على ان سوء الهضم وفقدان الشهية والضعف العام يعزى الى علة بدنية . وقد نصح لى الأطباء أن أنسى معدتى وألتزم الراحة وأكف عن التفكير فى نفسى . وأنى لى ذلك ازاء هذه الأوجاع المبرحة التى أشكو منها ؟ »

وقد فحصت هذه الســـيدة جيدا فتبين لى صحة اقوال الأطباء ، وتأكدت من أن ما يبدو عليها من ضعف

وعصبية مزاج ومايبدو فيحديثها من هستيريا ، منشأه عقلي . واتباعا لطريقتي في العلاج وقفت على سيرة حياتها في خلال السنوات الماضيه . عرفت انها سيدة أمريكية ، انحدر والداها من سلالة أسبانية ، كاثوليكية المذهب . وقد كانا محافظين في تقاليدهما ، فشبت ابنتهما على التربية الدينية الدقيقة ، وظل والداها يشددان الرقابة عليها ، والعناية بها ، وملاحظة كل حركاتها وسكناتها في البيت والمدرسة ، في خروجها ودخولها ، حتى لم يبق لها منفذ للحرية ، ولم تعد تعرف معنى للسريه

ولما بلغت العشرين من عمرها تزوجت ، فذاقت لأول مرة في حياتها معنى الحرية والاستقلال الذاتي ، وتنفست الصعداء . ولكن هذا لم يدم طويلا ، اذ سرعان ما أزعجتها هذه الحرية وذاك الاستقلال اللذان لم تعهدهما من قبل . فلازمت زوجها كالظل ، وأصبحت لا تشعر بالطمأنينة الا اذا كانت معه ، وايقنت انها موضع اهتمامه .. أي انها عادت الى بيئتها الأولى التي كانت لا تشعر فيها انها مستقلة عن أمها وأبيها ، أو تحس انها في مأمن من الخطر الا اذا كانت في كنف من تحب (والديها) . وبعد قليل حملت ووضعت طفلا ، تعسرت في ولادته . وكان الطفل سببا في همها لأنها كانت تخشى عليه دواما من كل وعكة أيا بلغت تفاهتها . وتضاعف همها عند قيام الحرب العالمية الثانية ، وعلمها أن زوجها سيدعى حتما للجندية . وهنا نترك المريضة تتحدث عن نفسها :

« طفقت أترقب البريد يوميا خشية أن أجد رسالة من مصلحة التجنيد ، لعلمي أن زوجي كان شديد الرغبة في خدمة وطنه ، مما حدا بي الى أن أفخر به . على أن

لمجرد التفكير فى هذا كان يمزق نياط قلبى ، لعلمى أن الجندية معناها التغرب والتعرض لمخاطر القتال . فكنت أصلى داعية أن تضع الحرب أوزارها قبل أن يدعى زوجى

« أخيرا وقع القدر المحتوم .. فسافر زوجى الى معسكر تمهيدا لارساله الى الميدان. أما أنا فأخذت طفلى ورحلت الى حيث يقطن والدى . ولما بلغت بسفر زوجى الى ما وراء البحار، انفطر قلبى حسرة ونقص وزنى عشرة أرطال بعد بضعة أيام . ولم أجد سبيلا الى النوم او الاكل . وأصبح ذهنى موزعا بين خوفى من أن يستشهد زوجى ، وبين مصيرى اذا ماحدث ذلك . وكنت أذهب للكنيسة يوميا وأدعو الى الله أن يعود الى سالما . وقبل سفره تحدثت معه طويلا، وأخذت عليه عهداً الا يقول لى عند عودته من أوربا شيئا عن مغامراته مع النساء هناك ، أو مايشتم منه ذلك ، مهما كانت الأحوال . ولم أطلب اليه أن يكون أمينا لى ، بل لم أنتظر منه ذلك . وقد احتج على حديثى هذا مؤكدا لى أنه يحبنى ولايمكن أن يفكر فى سواى ، او يخطر بباله أن يخوننى . وبرغم تأكيده واحتجاجى أصررت على أقوالى وألححت عليه أن يقطع لى عهدا بألا يبوح بشىء مما يحتمل حدوثه

« وقد استجاب الله لصلواتى ، فعاد زوجى من ميدان الحرب فى أوربا بعد عامين سالما ولم يصب بأذى . وكان كل شىء ينبىء بحياة زوجية سعيدة من جديد. فأخذت أبحث عن بيت لائق ، لاسيما بعد أن تحسن مركز زوجى فى الشركة التى استأنف عمله فيها . وقد توصلنا اخيرا الى العثور على «شقة» ليست ما كنا نرومه ، وليست فى حى من الأحياء التى تعودنا السكنى فيها . ومع ذلك

فقد سررنا لاستئناف حياتنا الزوجية ...

« وكان ابنى موفور الصحة ، ذكيا نشيطا ، فكنت أقضى اكثر الوقت فى العناية به والخروج معه الى الحدائق والمنتزهات العامة ، فضلا عن عملى المنزلى الذى كنت احاول فيه أن أجعل البيت جذابا انيقا ، يسر له زوجى. ولم يخامرنى شك فى حب زوجى لى واخلاصه ، ولم ادع لذهنى مجالا للشك فى أمانته لي أو التفكير فى نساء يحتمل أن يكون قد اتصل بهن أثناء خدمته العسكرية فى أوربا ، ولايخفى اننا كنا ولا نزال نسمع الكثير من الشائعات ، ومن قصص الجنود الذين كانوا يولعون بالفتيات النمساويات والايطاليات مؤثرين الزواج منهن بعد تطليق زوجاتهم . وحدث مرة أن ساق الحديث زوجى الى ذكر وفائه وعدم خيانته ، فقطعت عليه الحديث توا وذكرته بالوعد الذى قطعه على نفسه ، وكررت عليه قولى بأننى لاأريد أن أسمع شيئا عما حدث له فى غربته ، وقلت له انه يحتمل انه كان أمينا أو خائنا ولكنى فى كلتا الحالتين أوثر ألا أعرف شيئا ..

« كان كل همى منحصرا فى اسعاده ، مركزا فى شخصه أكثر من ذى قبل . كان كل جهدى موجها الى توفير الراحة البيتية والسعادة الزوجية له ، حتى يواصل حبه ودوام ولعه بى

« ولكن .. ما لبثت أن شغلت بصحته ، وقد عاد الآن من الميدان . وكنت أقول لنفسى : الى هنا كان السعد حليفنا ، فهل يدوم ؟ هب أن حادثا — والحوادث محتمل وقوعها فى كل حين — هب ان سيارة صدمته ، أو انه اصيب فى حادث قطار ، أو انفجار .. وهكذا

أخذت هموم هذه الاحتمالات تشغل بالى

« وكنت فى الساعة الخامسة من كل يوم أجلس الى النافذة انتظارا لرؤية زوجى فى الشارع قادما من عمله. وكان هذا موعد تقديم العشاء لابنى وحمله الى فراش النوم . ولكن كان لايروق لى أن افعل شيئا من هذا قبل أن أتأكد من سلامة زوجى ورؤيته بعينى قادما نحو المنزل . وذات يوم رأيته يدور حول المنحنى المؤدى الى المنزل ، وصليت صلاتى القصيرة التى اعتدت تأديتها يوميا بهذه المناسبة . وعددت الدقائق ريثما أسمع خطواته فوق السلم ودخوله وأخذه اياى بين ذراعيه . على ان الدقائق طالت وامتدت فى ذلك اليوم ، ولم يدخل بعد ، بالرغم من اننى رأيته بعينى وسمعت خطواته على السلم ، فاستولى على ذعر شديد .. وفتحت الباب لأرى ما عساه أن يكون قد حدث ، وانحنيت فوق « الدرابزين » المطل على السلم ، وأخذت أتسمع . سمعت وقع أقدام، ثم لم ألبث أن سمعت باب «الشقة» التى تحتنا مباشرة يفتح ، وصوت امرأة ينبعث منه قائلا : « لا أستطيع أن أفيك من الشكر حقك .. » وسمعت صوت زوجى يجيبها ويصعد الى فوق

« ماذا كنت تفعل فى بيت السيدة ص ؟ هذا هو السؤال الذى بادرته به . وكان جوابه الضحك وقوله: « لا تكونى غيورة » فاحتججت على قوله وأفهمته اننى لست غيورة ولكن أريد أن أعرف .. فأجابنى وهو يواصل الضحك : « ان السيدة ص خرجت من «شقتها» وأوقفتنى راجية اياى أن أؤدى لها خدمة . كانت قد نصبت شركا فى مطبخها ، ووقع فيه فأر لم

تعرف كيف تتخلص منه . فأجبتها الى طلبها »

« هذه حادثة تافهة ولكن لا سبيل لى الى نسيانها ، اذ لا أفتأ أن أحدث نفسي قائلة : قد تكون هذه حيلة تذرعت بها السيدة «ص» لحمل زوجي على دخول بيتها.

انها لم تعرنى يوما ما التفاتة ولم تتعرف الى . انها أرملة تعيش بمفردها . وكان زوجي حسن المنظر ، ومن ثم اخذت أفكر فى امر ذلك الفأر . هل كان ثمة فأر حقيقة؟

ان زوجي لاينتظر مني أن أوجه اليه مثل هذا السؤال. لقد كررت عليه القول بأننى لن اناقشه فى مثل هــذه الأمور، واحتججت مرارا كي أمنعه من التفوه بكل ما يتصل بعلاقاته مع غيرى من النساء . وبت الليل كله أدير هذه الأفوال فى رأسى ، فلم أذق طعم النوم أو الراحة. ولم أقل شيئا لزوجي عن ذلك فى اليوم التالى، ولكنى أخذت أراقب السيدة ص عن كثب . وعنــدما لمحت من النافذة زوجي وهو فى طريقه الى المنزل، هرعت الى مدخل الشقة ، لأتسمع وراء الباب ، وأرى اذا كان يمر ببيت السيدة «ص» أم انه يصعد توا الى شقتنا. وبالرغم من انه لم يمر عليها ، فان ذلك لم يشف غليلى كما كان يتوقع . فقد واصلت التفكير فيما حدث فى اليوم السالف ، وفيما اذا كان زوجي قد كذب على فى مسألة الفأر. وشددت الرقابة على جارتنا «ص» ، ولم اكتف بذلك بل اخــذت أراقب زوجي كلما خرجنــا سويا ، لأرى اذا كان يغازل امرأة أو ان امرأة تغازله . وقد ملأت كل هذه الأفــكار وأمثالها رأسى »

ومن هذه المرحلة التي وصلت اليها مريضتى، أخذت تبدو على حالتها البدنية آثارالهبوط فى جهازها العصبى،

نظرا الى تلك الفكرة الثابتة التى تأصلت فيها . وترتب على هذا أن اشتد الأرق عليها ، وقلت قدرتها على هضم الطعام ، وتضاعفت آلامها ، وضعفت شهيتها للأكل ، وأقعدها التعب عن العناية ببيتها وولدها . لقد استنفدت طاقتها الأفكار وأنهك قواها وسواس الشك فى زوجها ، ولازمتها فكرة الخيانة واحتمال اتصاله بغيرها من النساء . وبذلك أصبحت الغيرة مصدر عذاب وهم وشقاء . ولم يعد الدين ـ وقد كانت شديدة التمسك به ـ وازعا لها .. ولم يعد حبها لولدها وبيتها كافيا لانقاذها من أنياب الغيرة الخبيثة ، التى كانت تنهش فى جسمها وتفتك بعقلها

هى الغيرة الخبيثة التى كانت سبب تشنجاتها المعدية واضطراباتها الهضمية التى أنهكت جهازها العصبى فجاءت لاستشارتى

ولما أن شرحت لها ذلك ، فهمته جيدا .. غير انمجرد الفهم لا يشفيها من عللها البدنية ولا يريح عقلها من الوساوس المزعجة التى كانت لا تفارقها . كان لابد أن تعالج أولا بالدواء الذى يريح الخلايا العصبية من شدة تهيجها ، ويجدد طاقتها ، وبذلك يزيل عن المريضة أفكار الشك التى تسمم عقلها ، والخوف ـ وهو التربة التى نمت فيها الغيرة وترعرعت. وكان لابد أن يصحب هذا ، العلاج النفسانى ويتلخص فى اعادة تربية المريضة تربية جديدة ، لاسيما فيما يتعلق بالحب ، وتعليمها ان الحب ليس معناه التملك .. وكان هذا أصعب الدروس التى علمتها اياها ، لأن درس الحب الذى تلقته من والديها لم يكن الا تملكا الى أقصى ما تحمله هذه الكلمة من معان

..كذلك لم تكن « مدة التمرين » فى الزواج أفضل من السنوات التى قضتها مع والديها ، لأن الحب فى خلالها كان كذلك مرادفا للملكية

وقد احتاج علاجها أربعة شهور ، نالت فى نهايتها الشفاء ، وظلت كذلك الى كتابة هذه السطور ، لأن التعب الذى كان ينهك قواها قد زال ، ولأن وسواس الخيانة لم يبق له أثر ، وأخيرا لأن الحب عندها أصبح متصفا بالحكمة لا بالعنف

الفصل السابع :

الغيرة فى الأســرة والمجتمع

لقد كان الكلام عن الغيرة فى الفصل السالف مقصورا على العلاقة بين الزوجين .. بيد أن حدودها لا تنتهى عند هذه العلاقة . الغيرة تغزو حدود الأسرة والعمــل والعلاقات الاجتماعية ، تبث سمومها الخبيثة فيها ، وفى كل ناحية من مرافق الحياة

فاذا رأيت الغيرة قد أنشبت أظفارها فى أحد من معارفك أو زملائك أو أى شخص آخر ، فاعلم ان وراءها يكمن شبح الخوف وان الخوف مصدره تعب الخلايا العصبية ، وهو فى الوقت عينه السبب والعامل الأقوى فى مضاعفة هذا التعب

من ذا الذى لم يعرف فى دوائر الأعمال تلك السكرتيرة الغيورة على مركزها ، ومقامها ، ومستقبلها ، وما تعلقه من الأهمية على نفسها .. فتستاء بشدة من كل من عداها ، اذا ماحاول أن يؤدى عملا خيل اليها انه من اختصاصها ؟ وقد تضطر الى قضاء ســاعات أطول ، وبذل جهد أكبر ، والعمل بأمانة وذمة أكثر من زميلاتها وزملائها بسبب هذه الغيرة . وتفاخر بذلك بالرغم من

شكواها بغير انقطاع من ان الآخرين لايؤدون واجباتهم على الوجه الصحيح . وقد تصر على أن يعهد اليها تأدية أعمال ، هى فى الواقع من اختصاص سواها ، واذا رأى مدير العمل أن يحيل مسئولية على موظف أو موظفة من زملائها ، تثور غضبا وتعد هذا اهانة لها

والواقع ان مزاجها سريع التغير، فهى تنتقل من حالة وجدانية الى اخرى كل الوقت تقريبا ، وذلك لأن أعصابها مجموعة من الأوتار الحساسة تتأثر بكل حركة ، وتؤذيها أتفه حادثة ، وقد ترضي عن بعض الأشياء وتسر لها ، ولكن هذا لايدوم الا دقائق أوسويعات ، اذ لا تلبث أن تكتشف فى أقوال الغير وتصرفاتهم مايشعرها بتحقيرها ، فى حين ان شيئا من هذا لم يكن مقصودا أوموجها اليها. ولا يحدث بتاتا انها تساهم فى دعابة أونكتة بريئة ، بل لاتستطيع ذلك اطلاقا . وتبدى فى حركاتها وسكناتها وطريقة كلامها ، انها لا تحب أحدا من زملائها وزميلاتها فى العمل

ثم تنصب كراهيتها تدريجا على أحد هؤلاء وتتركز فيه . وقد يكون هذا رجلا أو امرأة أكفأ منها وأصغر سنا . ففى كلتا الحالتين تتسلط عليها تلك الفكرة المؤلمة الملحة التى تهيىء لها ان تلك المرأة أو هذا الرجل يضمر لها العداء سرا . ومن هذه النقطة يخيل اليها أن أشد الاعمال براءة التى تقوم بها هذه المرأة ، وأبعد المسالك عن الأذى ، موجهة ضدها ، فتقول فى نفسها : « انها تعمل على سلب وظيفتى منى.. انها تشى بى الى المدير وتدس لى السم بكل وسيلة ممكنة .. انها تثير الآخرين فى المكتب ضدى . انهم يسخرون بى فى غيبتى.. اعرف

ذلك ، وأشعر به »

السكرتيرة المتجولة ...

جاءتني يوما مريضة تشكو وسواسا يهيىء لها ان زملاءها فى العمل بكيدون لها ويضطهدونها . وقد كان من محاسن هذه الشابة التى أوشكت على الثلاثين ، انها كانت شديدة الذكاء ، فأدركت ان ما يساورها من هذه الأفكار وسواس فى حاجة الى العلاج ، فان لم تسارع فى ذلك ، تطورت حالتها الى ذلك النوع الخطير من الجنون الذى يسمونه جنون المراهقة أو « شيزوفرينا »

وقد جاءت هذه الشابة ــ واسمها مارى ــ الى نيويورك من بلدة صغيرة فى احدى الولايات الغربية الوسطى، ومن أسرة طيبة فقيرة ، لم يكن لأفرادها نصيب يذكر من الثقافة ، ولكنهم اشتهروا بالجد والعمل. وقد حرص والدها على بذل أقصى الجهد فى توفير كافة المزايا التى تهيىء لها حياة ناجحة سعيدة . وكانت مارى بطبيعتها طموحة ، نشيطة فى حياتها المدرسية ، غيورة على عملها ، تؤدى واجباتها بكل ثقة وأمانة . وبفضل تفوقها فازت بمنحة مالية من احدى الجامعات ، وأتيح لها بوساطتها وبما أعانها به أهلها أن تلتحق بتلك الجامعة حيث أتمت الدراسة فيها والتحقت بعمل فى احدى الدوائر الصناعية . وكانت مولعة بوظيفتها ناجحة فى عملها . وكان لايخفى عليها ماصادفها فيه من حسن الطالع ، فضاعفت جهدها فى الاستزادة من نجاحها ، ومواصلة تقدمها . وقد أرادت أن تبرهن لوالديها ــ وقد كانا غير راضيين عن هذه الوظيفة ــ ان فى وسعها أن تضرب فيها بسهم وافر. وفى خلال السنوات الأولى

من الحرب العالمية ، تضاعف العمل فاضطرت الى مضاعفة جهدها وزيادة ساعات العمل تبعا لذلك. وأصيبت بحمى نصح اليها بعدها أن تستريح أياما للاستجمام ، ولكنها أبت الا أن تعود الى مكتبها بعد ابلالها من المرض مباشرة

ومما زادها حبا لوظيفتها ان صداقة توثقت عراها بينها وبين احدى زميلاتها فى العمل ، وهى شابة تدعى «اليس» لها صلة قرابة برئيس الشركة التى كانت تعمل فيها «مارى» وكانت « اليس » ، أول فتاة تعلقت بها «مارى» وقويت أواصر الصداقة معها ، فقد تمثلت فيها جميع الصفات التى كانت «مارى» تعجب بها وتود لو انها من الصفات التى حبتها الطبيعة بها : جمال، وثقافة، وآداب اجتماعية عالية . وسهولة طبيعية فى علاقاتها مع الغير . وطالما تمنت «مارى» أن يكون لها يوما صديقة تتحلى بهذه الأخلاق ، وقد تحققت أحلامها ، وكانت فخورة الى أقصى حد بأن «اليس» اتخذتها دون سواها من الزميلات صديقة حميمة لها . وخيل اليها انها بهذه الصداقة قد كوفئت على جهودها وما ضحاه والدها فى سبيل تربيتها والعمل على اسعادها

على ان هذه الصداقة السعيدة لم تلبث أن شابتها شائبة ، كادت تؤدى بها . فقد أخذت الشبهات تلقى على علاقتهما وشاحا كثيفا ، وأخذت «مارى» ترتاب فى اخلاص «اليس» ، متوهمة انها لم تعد تحبها بالقدر الذى تكنه هى « لاليس» . واخذت «مارى» تدرك أن « اليس » تتبرم احيانا من صداقتها ، بسبب عنف هذه الصداقة من جانب «مارى» ، وقد أوشكت أن تكون تملكا واحتكارا. وكثيرا ما حدا ذلك « بأليس » الا تحافظ على المواعيد

التى كانت تضربها لتناول طعام الغداء مع « مارى » ، وكانت تؤثر أن تصحب سواها أحيانا

ولما أخذت « مارى » تعاتبها وتنهرها لهذا الصد ، غضبت . ولما أخذت «مارى» تجهش فى البكاء وتقول انها لن تطيق الحياة اذا حدث مايقضي على هذه الصداقة، لم تبد «اليس» عطفا ولا اهتماما ، بل صارحتها بقولها : « انك بمسلكك هذا شبيهة بامرأة عانس مصابة بداء العصاب ! »

ومن هذه الساعة أصبحت حياة المريضة عذابا لايطاق وغيرة وخوفا لا سبيل الى احتمالهما . وباتت تمقت الساعات التى تقضيها فى المكتب بقدر ماكانت مولعة بها. واتهمت «اليس» بأنها تسخر منها بما تتفوه به عنها لزميلاتها ، وانها توقع بينها وبين مدير الشركة

وبعد شهرين لم تطق «مارى» البقاء فى عملها فاستقالت .. لا لأن العمل كان شاقا ، وانما لأنها لم تستطع أن تكون على علاقة طيبة مع بقية الزملاء والزميلات ، أو تشعر بارتياح لوجودها معهم . ولم تشأ أن تصادق غير «اليس» ، لأنها كانت تعلم انه ليس بينهم من يشابه «اليس» جاذبية وخلقا . هذا الى أنها كانت تخشى أن تجرح شعورها اذا ماسعت الى احدى الزميلات. وبدأت ترتاب فى عارفيها ، متوهمة انهم يقولون عنها انها «فتاة عانس ، غريبة الأطوار »

وقد تقلبت بعد ذلك على ثمانى وظائف ، فى ثمانى مدن مختلفة

وسرعان ما أصبحت وحيدة ، لاصديقة لها ، بائسة، لاتميل الى معاشرة أحد، ولا تحب أحدا ــ حتى والديها،

أخذت تلومهما وتخجل من جهلهما وفقرهما، وسذاجتهما، ورمت بعقيدتها الدينية عرض الحائط، واعتنقت فلسفة مادية كلهـا مرارة وكراهية ، هى مزيج نصف مفهوم ونصف مهضوم ، من تعاليم «نيتشه ، وكارل ماركس ، وسيجموند فرويد »

وكانت كراهيتها للحياة وغضبها منها منقوشة بحروف بارزة على وجهها . وكانت تكثر من التدخين الى درجة الادمان ، ولا تأكل الا قليلا ، وتسبب عن ذلك امساك وسوء تغذية واصابات منكررة بالزكام ، فضلا عن صداع اليم وخمول شامل . ومما قالته لى انها أصبحت تعتقد ان الحياة ليست جديرة أن نحياها وانها تفكر فى الانتحار

ومن الواضح ان هذه حالة جهاز عصبى شـــديد الحساسية ، أنهكته كثرة العمل والاجهـاد والاصـابة بالحمى . هذا عدا السنوات التى قضتها فى الجامعة فى عمل متواصل أنهك قواها واستنفد الكثير من طاقتها.. فقد كان عليها أن تنافس طلابا ، أوفر منها حظا ، وكانت طبيعتها المعنة فى مراعاة الأمانة والذمة ، تحتم عليها ان تحقق آمال أهلها الذين قاسوا ما قاسوا فى سبيل الانفاق عليها ، وأن تكون أهلا للمنحة المالية الجامعية التى فازت بها . وقد اضطرت أثناء دراستها فى الجامعة أن تعمل جزءا من الوقت حتى تكتسب ما يعينها على شراء الملابس التى لا تخجل من الظهور بها أمام غيرها من الطلبة ، وذلك بمساعدة أمناء المكتبة. هذا الى انها كانت تقضى العطلة الصيفية فى الخدمة فى احدى الفنادق ، وبذلك لم يتوافر لديها الوقت الكافى أو الحرية لاكتساب الأصدقاء

ولو انهاكانت منهكة القوى عند التحاقها بتلك الوظيفة التي تحدثنا عنها ، لما بلغت صداقتها لزميلتها «أليس» ذلك العنف وتلك الشدة . ولا يخطرن ببال القارىء ان «ماري» هذه كانت لها ميول جنسيه نحو «أليس» أو فتاة سواها . الواقع انها كانت تخشى أن نكون من هذا النوع من النساء ، بسبب غرامها بصديقتها ، وعدم ميلها للرجال بتاتا . وقد أوضحت لها أثناء العلاج كيف ان تعب الأعصاب يقتل الميول والرغبات الجنسية. يضاف الى ذلك ان الكثير من حالات الشذوذ الجنسي يعزى الى هذا التعب ، فاذا عولج المريض وفهم حالته النفسية جيدا ، زالت ميوله الشاذة

ومما يدل على ان أعصابها كانت منهكة ، انها كانت مرهفة الحس ، سريعة الشعور بما يشتم من اهانتها او تحقيرها . ولعل أكبر دليل على ضعفها ان خوفها من أن تفقد صديقتها «اليس» بلغ حد الجنون ، فضيقت عليها الخناق ، وحاولت أن تحتكرها احتكارا وتتملكها ولا تسمح لها بالاتصال بسواها . وترتب على هذا المسلك الذى يعزى بعضه الى عدم خبرتها بالصداقة والأصدقاء، انها فقدت أثمن شيء عندها ، وقتلت ذلك الحب الذى يجيش فى صدرها ، والذى وصفه أوسكار وايلد فى قصته الشعرية البليغة فى قوله : « يقتل البعض الصداقة بنظرة قاسية ، ويقتلها آخرون بالملق والمداهنة . وبقبلة يقتلها الجبان ، وبالسيف يقتلها الشجاع ، ومن الناس من يحب قليلا ، ومنهم من يحب طويلا . البعض يبيع والبعض يشترى . بالدموع الغزيرة يميتها احدهم وآخر يفتك بها وهو لايحرك ساكنا . على ان كلا من هؤلاء

يقتل من يحب ، وكلا يعيش بعده »

وقد تطلب علاجها عدة شهور، استعادت فيها طاقتها العصبية تدريجا وانتشلتها من تلك الهوة السخيفة التى استسلمت فيها للانقباض وظهرت عليها أعراض الملانخوليا ونزعت الى الانتحار. وكذلك أخذت فى تنظيم حياتها النفسية من جديد ، ومقاومة أحاسيسها ، واتخاذ الخطوة الأولى لاكتساب الأصدقاء والاندماج فى الحياة الاجتماعية ، لا مع النساء فقط ، بل مع الرجال أيضا . وقد أكدت لى فى بادىء الأمر ان اقدامها على هذه الألوان من النشاط مستحيل. وذلك لأن الأحاسيس العنيفة كانت تسرى كالتيار الكهربائى فى جسمها ، كلما فكرت فى اكتساب صداقة أحد ، وكانت تبلغ آلامها من الشدة ما يدفع بها مرة أخرى الى حياة الوحدة والعزلة. وكان لابد أن تفهم جيدا منشأ هذه الأحاسيس وتوقن انها لا تسبب لصاحبها ضررا ، وكانت ككل مريض طال عليه المرض ، تجد مشقة كبيرة فى تلقى هذه الدروس واستيعابها . كان لزاما عليها أن تدرك أن حياتها العقلية لاتعود الى حالتها الأولى الا اذا شيدت على أسس جديدة من سلامة التفكير البعيد عن ذاتيتها وشخصيتها

ولما أنتهت من العلاج فى أواخر الشهر الرابع ، خيل اليها انها «عثرت على نفسها » بعد فقدها ، وأصبحت علاقاتها مع الناس حسنة ، وبات اندماجها فى المجتمعات أمرا يسيرا ، وساهمت فى الحفلات الراقصة ، وانضمت الى ناد . وتوظفت فى مؤسسة كبيرة ، فمكنت علاقتها

فيهامع سائر الموظفين . ولم تعد تعتمد فى حياتها الوجدانية على شخص واحد ، كما حدث من قبل . وتبتت أقدامها فى هذه المؤسسة بعد أن ظلت تتنقل خمس سنوات متجولة من مدينة الى مدينة . لقد تحررت من رق الغيرة

الطفل الغيور ...

اهتز الرأى العام أخيرا لحادث مروع وقع فى ضاحية بولاية نيوجرسى بأمريكا ، ذلك ان صبية فى الحادية عشرة من عمرها قتلت اخاها الأصغر. ولما سئلت عن الباعث الذى دفعها الى ارتكاب هذه الجريمة قالت انها كانت تغارمن أخيها لشدة العطف الذى كان يفوز به من والديها والعناية التى كانا يخصانه بها . وجاء فى تقارير ذوى الشأن بعد فحصها والتحقيق معها انها ارتكبت جريمتها وهى فى كامل قواها العقلية ، قادرة على التمييز بين الخطأ والصواب. وكانت تدرك جيدا ان فتكها بأخيها والقضاء على حياته عمل اجرامى يعاقب عليه. ومع ذلك فقد رجحت كفة الدافع للانتقام بسبب الغيرة على كفة الوازع الخلقى

لقد كانت هذه الصبية بلا شك مصابة بالوسواس Obsession بالرغم من اننى لم أفحصها ، ولا أعرف عنها الا ما روته الصحف ، فان هناك ما يحملنى على الاعتقاد بأن جهازها العصبى لم يكن سليما ، وانها كانت فريسة أحاسيسها التى بلغت من الشدة ماجعل الغيرة تتأصل فى نفسها وتنمو وتكبر حتى تدفعها الى ارتكاب هذا الجرم الشنيع !

ان عدد الأطفال الذين يغارون من اخوتهم واخواتهم — بسبب عطف الوالدين عليهم وتمييزهم على بقية

الأخوة والأخوات ـ لا حصر له . وتبدو عليهم أعراض الغيرة بشتى الطرق وشتى الدرجات ، وكثيرا ما تكون مصدر متاعب للوالدين.. بيد ان المشكل فى هذه المتاعب ليس أخلاق الطفل أوشخصيته.. المشكل جهازه العصبى .. فاذا رفعت الطاقة العصبية بالدواء وبشىء من العلاج النفسانى ، زال الوسواس وزالت الغيرة من ذهنه . واذا ترك الطفل بغير علاج ، ولم تستأصل « الفكرة الثابته » من ذهنه ، زادت أعراض الغيرة ، وصحبتها أعراض أخرى بدنية وعقلية . والمرض كالنبات السام ، عبثا تحاول القضاء عليه بكبته . بل لابد من استئصال جذوره ، واصلاح التربة التى نما فيها حتى لا تكون مرتعا خصيبا لنمو نبات آخر سام

عقدة الأمومة ...

شاع استعمال هذا التعبير حتى أصبح يطلق على حالات لا حصر لها .. فكثيرا ما يوصم البنون والبنات المولعون بأمهاتهم ، بأنهم مصابون بعقد الأمومة Mother Complex اما أنا فلست أدرى معنى هذه العبارة .. ان حب الأم حبا صادقا عميقا عاطفة نبيلة سليمة سوية لا تشوبها شائبة . وهى عاطفة يتصف بها كل رجل وامرأة ، وتمر بحياة كل فرد جدير بالحياة ، اللهم الا اذا كان سيىء الحظ فولد من أم شاذة غير خليقة بالحب البنوى . ومثل هذه الأم الشاذة ـ اذا وجدت ـ نادرة الوجود

ان أعظم امرأة عرفتها فى حياتى ، فسحرت بما كانت تتحلى به من صفات هى أمى . وقد ظللت وسائر اخوتى الى آخر يوم من حياتها ـ وقد عمرت ٩٧ عاما ـ نجد

فى مجلسها متعة لا نحظى بها مع أى انسان آخر. فقد كان حبها العميق لنا ، وتفهمها طبيعة كل منا وحاجاته ـ على اختلاف هذه الطبائع والحاجات ـ وما اتصفت به من معانى التسامح والاحتمال ، وما امتازت به من ظرف الدعابة والمرح ، كانت هذه الصفات كلها مدعاة لتعلقنا بها وشدة حبنا واخلاصنا لها الى النهاية ، رغم ما بلغناه من سنوات العمر رجالا ونساء. فاذا شاء أتباع فرويد أن يسموا هذا الحب عقدة أو مركبا ، فلا يسعنى الا أن أقول اننى فخور بأن أكون أحد أولئك الرجال والنساء العظام الذين أحبوا حب العبادة الأمهات اللاتى سهرن على تربيتهم وكن سبب وجودهم

والواقع أن الناس حينما يتحدثون عن عقدة الأمومة ـ على افتقار هذا التعبير للدقة ـ انما يشيرون الى انسان ضعيف الشخصية ، خجول ، جبان ، عاجز عن تحمل المسئوليات التى يقوم بأعبائها عادة كل من بلغ سن الرجولة والنضوج . وفى كثير من الأحايين ، لاتكون الأم ملومة أومسئولة عن هذه العيوب . فهى لم تقصد ـ أوتحاول ـ أن يعتمد عليها ولدها هذا الاعتماد الكلى الذى منعه من أن يكون مستقلا فى حياته وتصريف أموره . وتتطلب حالة أمثاله علاج الخوف والخجل والهرب من المسئولية ، وتنظيم حياتهم من الناحية النفسية ، حتى يعيشوا فى غير تواكل ، ولن يعيبهم أن يساهموا بالقدر الذى يطيب لهم فى عشرة أمهاتهم ، طالما كانوا يحتفظون باستقلالهم الذاتى وحريتهم الشخصية. وبالعلاج تزول عنهم أعراض ما يسمونه «عقدة الأمومة» بالسرعة التى يزول بها تعب الأعصاب وما يشكو منه

أصحابه من أرق وصداع واسهال وقرح معدية ، والخوف من الأماكن الفسيحة أو الضيقة ، وخشية الأقذار والجراثيم وسائر المخاوف الشاذة

ولست أبعد عن الصواب اذا قلت ان علاج هؤلاء لايتطلب أكثرمن مدة تتراوح بين ثلاثة أيام وستة اسابيع، تبعا لدرجة ذكائهم وقدراتهم على التعاون ورغبتهم فيه. ومما ينبغي معرفته ان منشأ هذه « العقدة » الخوف من أن يفرق بين صاحبها وبين أمه . وهذا لا يختلف بتاتا عن أى نوع آخر من المخاوف التى سبق ذكرها مرارا فى هذا الكتاب .. أى انه يستجب للعلاج الذى يستجيب له الخوف من الحيوانات ، أوالجراثيم ، الخ. ان أساس هذه كلها واحد ، وهو الخوف من الأحاسيس

الأم مصاصة الدماء ! ..

الحب النقي الشريف لا يعيش فى عقل سممه الخوف. فالزوجة التى يلازمها وسواس الخوف من أن تفقد زوجها ، أوشبابها ، أوجمالها ، أوسحرها وقوة تأثيرها على الغير ــ مثل هذه الزوجة لا تستطيع أن تحب زوجها أو أولادها حبا صحيحا ، لأن الخوف الذى يحتل ناحية من عقلها وينشب فيه أظفاره ، يستنفد طاقتها وقدرتها على التفكير فى أى شخص بالقدرالذى تفكر به فى نفسها

والمرأة التى تتقدم فى السن بعض الشيء ، فتشعر بعدم الطمأنينة ، ويرهف حسها ، فيخيل لها ان الغير يهينونها أو يجرحون كبرياءها ، كثيرا ما تتعلق بأحد أبنائها وتمعن فى اهتمامها به وعنايتها بأموره وشخصه ، وتغار عليه من كل نظرة ، ولايرضيها منه بعض العناية ، ولا تكتفى منه ببعض وقته ، بل تريده كله كاملا وفى كل

وقت . وتوصلا الى هذا الغرض تدبر المكايد وترسم الخطط التى تحول دون كل صداقة تقوم بينه وبين غيره ، طالما كانت هذه الصداقة لا تشملها. قد تتنازل بالسماح له بأن يدعو أصدقاءه الى البيت ، حيث تكون قابضه على زمام السلطة ، وحيث لها الكلمة العليا ، ولكنها تنذر عليه بشده أن يغشى أماكن لا ترافقه اليها ، أو ان يشترك فى حفلات او مجتمعات بغير ان تكون معه

وتدفع الغيرة مثل هذه الأم الى التدخل فى كل أموره. فتفتح رسائله البريدية ، وتقطع عليه رسائله التليفونية ، أوتجيب عنها اجابات كاذبة ، واذا اتيحت لها الفرصة ، فتحت حافظة نقوده لتقف على مبلغ ما أنفق ومبلغ ما تبقى ، ولتبحث فيها عن الصور الشمسية التى يحتمل أن تكون قد أهدتها له فتاة أو فتيات ، وتبرر هذه التصرفات المعيبة بقولها ان شدة حبها لابنها تدفعها الى معرفة كل شيء عنه حتى تحميه من كل أذى وتدفع عنه كل ما يحتمل أن يعرضه لسوء العثرة

ولاريب أن الأم التى تتصف بهذه الصفات ، بعضها أو كلها ، مصابة بوسواس قد يدفعها يوما ما الى ارتكاب أمر شائن بعيد عن الحكمة والآداب العامة ، أو مايوشك أن يكون اجراما . وهذا الوسواس ــ ككل فكرة ثابتة ــ يتسلط على عقلها ، ويقلب نظام حياتها النفسية ، ويهدم شخصيتها ، الى أن تصبح فى حالة تقرب من الجنون . فتحاول مثلا أن تقضى على رجولة ابنها ، حتى تحرمه من كل صداقة أو نشاط برىء ، وكل ما يلذ لمثله من الشبان عمله . وتبذل جهدها فى أن ينشأ « ابن ماما » كالفتاة الحيية ، بدعوى ان أكثر الشباب متصف

بالخشونة وسوء الأخلاق التى لا تليق بابنها ، وبذلك تربى فيه صفات الخجل والجبن وخشية الأصدقاء الذين من سنه وجنسه ، وينتج عن ذلك أن يأخذ تدريجا فى الشعور بالسعادة طالما كان فى صحبة أمه أو أمثالها من النساء اللاتى فى سنها ، ولايشعر بالارتياح اذا وجد مع غيرهن من الشبان الذين تقرب أعمارهم من عمره

وهنا أريد أن أوضح فى عبارة لا تحتمل الابهام ، ان الكثير من النساء اللاتى يسلكن مع أبنائهن هذا المسلك ، مريضات ـ لا شريرات .. انه الوسواس الذى يسمم عقولهن كما يسمم السرطان جسم المصاب به . والمرأة التى تشكو من هذه الفكرة الثابتة نحو ابنها ، لا تختلف كثيرا عن المرأة التى تشكو من عصاب الأعمال التكرارية التسلطية ، مثل الغسيل المتوالى وتنظيف البيت مرارا وتكرارا خشية الجراثيم ، أو تخطى كل شق فى الرصيف خوف سوء الطالع

شذوذ مرضى ...

طبيعى أن يتوق الولد أو البنت ، بدافع حب الاستطلاع ، الى أن يعرف شيئا عن النادر والمجهول والغامض من أسرار الحياة . فالصبى الذى ينشأ بين اخوته وأقرانه من الذكور ، يبهره جسم الفتيات لاختلافه عما يعرفه من أجسام الذكور مثله . أما الصبى الذى ينشأ فى بيئة كلها من النساء ، ولم بت الا فى حجرة النوم التى تنام فيها أمه ، تسترعى أنظاره أجسام الذكور أكثر مما تسترعيها أجسام الاناث

ومن المشاهد ان الطلاق ، وحياة الأسرة التى هدمتها

الحروب أو الأمراض ، وأجور المنازل التى تتضاعف عاما بعد عام ـ كما تدعو الأمهات وأبناءهن الى سكنى بيوت ضيقة مزدحمة بمن فيها ، وحرمان كل من الأمهات والأبناء من كثير من مزايا الحرية والسرية . وهــذه من الأسباب التى تحمل الـكثير من هؤلاء الأبناء على الاصابة بداء اللواط

والمعروف ان الصبيان الذين يبقون طويلا فى كنف الأم ، والذين يدينون بتربيتهم ونشأتهم للأم أكثر منهم للأب ، يكونون عادة أودع خلقا ، وأرق حسا ، وأكثر أنوثة من أولئك الذين تتاح لهم فرصة أطول فى علاقتهم بالأب ، ونصيب أكبر من تربيتهم . واذا كانت علاقة الأم بالرجال وخبرتها معهم ليست على ما يرام ، عمدت الى تنشئة ابنها بعيدا عن صفات الرجولة ، سواء كان ذلك عن وعى منها أم من عقلها الباطن .. فهى تحاول أن تجنبه خصائص الرجال وتشجعه على التحلى بصفــات النساء . وكثيرا ما تحذره من خشونة الذكور وألعابهم العنيفة . وتبث فيه الشعور بالارتيــا فى مجتمعــات النساء ، أكثر منه فى مجتمعات الرجال

ومتى كبر ، دفعته ميوله الطبيعية الجنسية ورغباته الى ذلك المجهول ، الذى لم يكن له عهد بعشرته .. أى ذلك الجنس المحرم ، الرجل

وفى اعتقادى ان عددا كبيرا من المصابين بهذا الداء ، تعزى اصابتهم الى الخجل والخوف والتربية الخاطئة

وقد كان بين مرضاى عدد لايستهان به ممن كانوا شديدى الرغبة فى الشفاء من هذا الداء . وكانوا يدركون ان الاستسلام له شذوذ يجب التخلص منه. وقد جاءوا

للعلاج لأنهم أرادوا أن يكون اتصالهم بالجنس الآخر ، أسوة ببنى جنسهم من الرجال الأصحاء الذين يعيشون عيشة سوية سليمة . وقد دلت تواريخ الكثيرين منهم على انهم نشأوا « أولاد ماما » وكانوا مرهفى الحس ، ضعاف الأعصاب . وعلاج هؤلاء لا يختلف عن علاج الحالات التي سبق ذكرها — وهى حالات الخوف والخجل ، ولا سبيل الى علاج هؤلاء علاجا نفسيا بغير دواء . فلا النصح والارشاد ، ولا الاقناع ، ولا التوبيخ ، ولا العقاب ، يكون له اثر فى شفاء المصاب بهذا الداء

أبناء الأمهات ...

هذه قصة سيدة توشك على الخمسين من عمرها ، ولنرمز اليها بالحرف «ل» .. تزوجت بعد سن العشرين بقليل، ولكنها طلقت بعد عدة سنوات ، ومنحتها المحكمة حق تربية ابنها الوحيد . والآن قد مضى عليها أكثر من عشرين سنة ، وحياتها كلها تدور حول محور واحد ، هو هذا الابن . وهنا نتركها تصف لنا علاقتها بابنها :

« لقد كان ابنى كل شىء لى فى الحياة .. وكنا صديقين ، لا مجرد أم وابن . وكان كل الناس يتحدثون عن هذه الصداقة ، وعن اخلاص الابن البار لأمه الحنون. وكنا نشترك معا فى جميع نواحي النشاط . وأنكرت على نفسي الكثير من مناعم الحياة حتى أهيىء له التربية التى يتمناها الكثيرون أمثاله . ولما كان لايزال فى سنوات الطفولة والصبا ، كنا نذهب معا الى المتاحف ودور التمثيل ، وحفلات الموسيقى ، والأوبرا فى كل يوم من أيام السبت. وبعد ذلك بسنوات تعلمت الانزلاق على الجليد والسباحة وكنت اشاركه هذه الرياضة على الدوام .

ولما كبر ونضجت ميوله للرقص وأتقن هذا النوع من الترفيه ، علمنى رقصة « الرومبا » و « السمبا » فكنا نرقص معا .. وكان لايخطر ببال أحد اننى أمه ... »

وسرعان ما تبدل حالها بغتة عندما وقع الابن فى غرام فتاة من سنة ... حقيقة انه كان يصادق فتيات قبل ذلك أحيانا ، ولكنه لم يكن جادا فى تلك الصداقة كما ان امه كانت تحول دون ذلك ، لا سيما انها حرصت على ان تكون هؤلاء الفتيات من صديقاتها ، حتى لاتسول لهن انفسهن أن يقتنصن ابنها منها . أما فى هذا الغرام الجديد ، فقد كانت المسألة بخلاف ذلك .. كانت عين الأم الغيورة سريعة الملاحظة ، فأدركت التغيير الذى طرأ على الابن . شهدت تبادل اللحظات بين الحبيبين ، وأدركت ان سلعتها قد كسدت . وفى الحال هاجت أحاسيسها فى عنف ارتعدت له فرائصها ، وشاع الألم فى صدرها ، وجف اللعاب فى فمها ، وشعرت باختناق كاد يمنعها عن التنفس ، وهتف هاتف فى داخلها يقول لها : « لقد أفلت من يدك .. لقد انتزعته الفتاة منك ، سيكون نصيبك الوحدة . لم يعد لك فى الحياة شىء »

وهكذا اشتعلت نار الغيرة فى صدر السيدة «ل» حتى أعمتها عن الصواب ، كما كادت تعمى عينها حقيقة . وأخذت منذ ذلك الحين تضمر الكراهية للفتاة التى أحبها ابنها ، واشتدت رغبتها فى الانتقام منها ، سواء كان بالحاق الأذى أو القضاء على حياتها كلية ، بالرغم مما كانت تظهره لها الفتاة من احترام وأدب وكياسة..

هذه حالة غيرة ناضجة أوشكت أن تلد مأساة . وهى منشأ ثلاثة أرباع المتاعب التى يلاقيها الأزواج من

الحموات . فقد تتاح الفرص للابن أن ينال حقه من الاستقلال فى الرأى والحياة ، ويتزوج من الفتاة التى يريد ، ولكنه يجد أمامه مشكلة أخرى ، هى مشكلة الأم ـ اذا كانت كالمريضة التي نحن بصددها ، أو تقرب منها . وتزداد المشكلة تعقيداً اذا كانت الأم فى حالة مالية لا تمكنها من العيش مستقلة عن ابنها

والأم الفيورة المريضة ـ كالسيدة «ل» تكون عادة واسعة الحيلة، داهية، ماكرة، ماهرة فىالتأثير فىابنها ـ تأثيرا يفرق بينه وبين زوجته . وكثيرا ما تبلغ قسوتها نحو الابن والزوجة حدا لا سبيل الى احتماله .. تلجأ الى الكذب ، وتفسير الوقائع تفسبرا أعوج ، وتخلق المشاكل اذا لم توجد ، وتمثل أدوارا قد تنتهى بأسوأ العواقب ، وقد تصاب الأم بسبب الفيرة بأمراض من شتى الأنواع ، فيجد الابن نفسه بين نارين .. البر بأمه أو الاخلاص لزوجته . ويفلب عليه الفشل فىمحاولته تكييف الأمور فى صالح الزوجة ، لأن الأم لا تكف عن اجتذابه نحوها بشتى الوسائل ، وهو بطبيعة الحال يجبن أمامها ويرضخ لها ، لأنه نشأ هكذا شديد التعلق بها والاعتماد عليها وعدم اتخاذ أى قرار بفير رضاها . والأم التى تحب ابنها منذ صفره حبا أقرب الى الملكية منه الى الأمومة ، وتظل كذلك بعد بلوغه سن الرشد ، فتمنعه من معاشرة أصدقائه وأقرانه حتى تحتكره لذاتها، وتحرم عليه اللعب مع من فى سنه تجنبا لما فى الألعاب من خشونة انرجال .. مثل هذه الأم تضعف الابن وتسلب منه أسمى صفات الرجولة

ونسبة كبيرة من حالات الطلاق تكون وراءها أم

كالسيدة «ل» . ومما يؤسف له ان الزوجة فى هذه الحالة ، اذا كان لها ولد ، قد تكرر الدور الذى قامت به حماتها ، فتنشئه تنشئة لا تختلف عما نشأ عليه زوجها ، وتفعل ذلك بغير أن تتعمد محاكاة حماتها . ومثل هذه الحالة التى وصفت كثيرة الحوادث واليها يرجع الكثير من حوادث الطلاق ، والشقاء ، وخيبة الأمل ، واصابة الأطفال بالعصاب

طلب النجدة ...

هذه قصة السيدة «ل» التى جاءت لاستشارتى ، تطلب النجدة من الم الوحدة والسآمة والمرارة التى تحملها بين جوارحها ، منذ زواج ابنها وحرمانها من عشرته . لم تجد فى الحياة ما يطيب خاطرها بعد أن أصبح ابنها لغيرها . ولم تعد تعنى بزيارة المتاحف ، او الاصغاء الى الموسيقى ، أوالسفر أوالمساهمة فى ألعاب رياضية . ولم تعد تهتم بالمجتمعات والحفلات ، طالما أصبح ابنها لايرافقها اليها . وكان لايخلو ذهنها دقيقة واحدة من الحقد عليه وعلى الفتاة التى اتخذها زوجة. واستولت على أفكارها الغيرة والأسف الشديد على ما وصلت اليه حالتها

وكانت النتيجة المحتومة أن تألم جسمها مع عقلها .. فقد فقدت شهيتها ونقص وزنها ، فاذا أكلت أصيبت بسوء هضم . أما الأرق فاستنزف جهدها .. كانت لاتأوى الى فراشها قبل الساعة الثانية صباحا أوالأولى أحيانا ، ثم لا يجد النوم الى جفنيها سبيلا قبل مطلع الفجر ، فتظل قلقة ، تعيسة ، دائمة التفكير فى متاعبها مرهفة الحس ، سريعة الغضب

وكانت زوجة الابن لا تنطق بكلمة ، الا وتغدها الام اهانة واحتقارا لها ، ثم تبالغ فى تضخيمها حتى يختل تفكيرها اختلالا يوشك أن يكون جنونا

وبعد مواجهتها بسيل من الأسئلة قصت على التاريخ الذى فصلته فى الفصل السابق ، وقد أبت فى بادىء الأمر أن تصدق ان مصدر الأعراض التى تشكو منها عقلى وان سببها الغيرة ، وان الغيرة وليدة التعب والخوف . ولما واظبت على تعاطى الدواء يوميا ، خفت حدة الحساسية فى الخلايا العصبية ، وزال عنها الأرق والتوتر، واخذت تنظم حياتها النفسية تدريجا. وليس من السهل على مريضة مثلها فى السادسة والأربعين من عمرها ، أن تنسى دروس الحب الخاطئة التى تعلمتها اثناء السنوات التى قضتها مع ابنها ، وأن تتعلم من جديد فن الحب الصحيح السليم ، ومع ذلك ليس الأمر فى حكم المستحيل ، وليس معنى هذا ان العلاج قد حول كراهيتها لزوجة ابنها الى حب . كل ما هنالك ان عقلها قد استراح ، فأخذت تكون لنفسها علاقات جديدة وتشغل ذهنها ووقتها بنواح أخرى من نواحى النشاط . واخذت لهب الغيرة تنطفىء شيئا فشيئا الى أن أصبحت تواجه الأمر الواقع وتقبل الفتاة على علاتها — كزوجة الابن — بل بدأت فعلا تنظر اليها نظرة احترام

وحسب هذه النتيجة أن تكون انتصارا على المرض

* * *

وقد استمعت من مرضاى الى قصص كثيرة من هذا النوع. وكان بين هؤلاء أبناء ، فضلا عن الأمهات.. يأتى الابن عادة لاستشارتى فى مثل الحالة السالفة ، لأنه

يواجه مشكلة خطيرة لايعرف لحلها سبيلا.. فحبه لزوجته يوجهه شرقا ، وحبه لأمه يوجهه غربا ، وهو حائر بين هذا وذاك ، لايعرف للسلام الفعلى معنى ، ولايذوق للراحة طعما . وسرعان ما تسبب هذه الاضطرابات النفسية أعراضا بدنية ، فيشكو من قرح معدية تارة ومن زكام أو سوء هضم تارة أخرى .. أعصابه متوترة ، شديدة الانزعاج ، متعبة ، فتترك أثرا سيئا عند رؤسائه فى العمل . ولا يخفى عليه انه لايقوم بعمله على الوجه الصحيح . وفضلا عن هذا كله ، فان ضميره يؤنبه لشعوره بالاثم واعتقاده ان تخليه عن أمه اكراما لزوجته ، نكران للجميل ، وتجاهل لكل ما بذلته أمه فى سبيل تربيته

وعلاج هذا المريض وأمثاله لا يختلف عن سواه .. عليه أن يفهم ان الأعراض البدنية صدى لاضطراباته العقلية، وان منشأها استنزاف الطاقة العصبية. فلابد من ازالة هذا التعب الذى استولى على أعصابه بالدواء. وبذلك تزول الأعراض البدنية . وفى الوقت عينه ينبغى تنظيم حياته العقلية ، حتى يتعلم كيف يحب أمه ، ولكن ليس على حساب زوجته ، وأن يتعلم كيف يكون مستقلا فى حياته ، غير معتمد على أمه فيما يبت فيه من قرارات ، وان هذا الاستقلال لايتعارض مع حبه واحترامه لأمه

وكثيرا ما تكون الزوجة هى التى تجىء لاستشارتى ، وتطلب مساعدتى فى حل هذا المشكل والتوفيق بينها وبين الأم والزوج. وفى مثل هذه الحالة كنت أصارح الزوجة المسكينة انها لن تستطيع وحدها الوصول الى حل مرض، اذ لابد من علاج كل من الزوج والأم علاجا طبيا ، وكل ما فى وسعى أن أقوله لها فوق ذلك ، انهما مريضان

بنات فى خدمة الأمهات ...

ليس الأبناء وحدهم هم الذين نمتص الأمهات دماءهم .. فالكثيرات منهن لا أبناء لهن ، ولكن لهن بنات ، هناك عدد من النساء اللاتى بلغن سن الهرم أو الشيخوخة يحتفظن ببناتهن للعناية بهن ، والسهر ليلا ونهارا على خدمتهن . هؤلاء الأمهات بطبيعتهن أنانيات ، شديدات الغيرة من حياة الغير وسعادتهم ، لاسيما الأصغر منهن سنا . كل همهن أن يكن بطلات فى مرسح الحياة ، فى الاسرة أو البيئة التى يعشن فيها .. لماذا ؟ قد يكون الباعث الخوف من أن يهملن ويتجاهلهن الغير

والمراة العجوز التى يستولى عليها هذا اللون من الخوف ، تخلق من نفسها مشكلا للأسرة عسير الحل .. فتكشر عن ناب الغضب ، وتجعل حياة ذويها لا تطاق ، اذا ما أعار أحدهم ابنتها التفاتة ، وخصها بنصيب من العناية اكبر من نصيبها . أما ابنتها فتلتزم الصمت فى هذه الحالة ، وتظل وراء الستار ، لعلمها ان أقل حركة منها ، تثير أعصاب الأم ، وتمثل دورا عنيفا من الأدوار التى أصبحت أخصائية فيها

وليس مايهمنا فى هذا الفصل الأم ، بل الابنة المسكينة وقد ضحت شبابها فى سبيل خدمة الأم التى امتصت دمها ، فعلا وجهها الاصفرار وقتلها الخجل ، وأصبحت عاجزة عن القيام بعملها ، وضعفت شخصيتها .. تقضى حياتها مجهدة متوترة ، تحارب عاطفتين وتعيش بين نارين : حبها الطبيعى لأمها ، واستيائها من معاملة أمها لها ، كانت تقول لنفسها : « اذا كنت حقا أمينة لدينى مطيعة لضميرى ، كان لزاما على أن أتغاضى عما تسببه

لى أمى من متاعب وآلام ، والا كنت خائنـــة ، ناكرة للجميل ، محبة لذاتى ، بعيدة عن النبل والشمم » . ويترتب على هذا اصابتها بالعصاب الذى يضعف طاقتها، ويسبب لها الأعراض البدنية التى تتطلب الدواء والعلاج النفسانى

وكثيرا ما تطول هذه المآسى سنوات وتمتد أعواما ، بفضل تلك العجوز التى اشتهرت بقوة الشكيمة وكامل الصحة ، فقد آلت على نفسها أن تقوم ابنتها على خدمتها والسهر على صحتها بلا توان . ووطدت العزم على أن تعيش الى التسعين أو أكثر، فى الوقت الذى امتصت فيه دماء ابنتها ، فذوى عودها ، ودب فيها الكبر قبل الأوان. وعندما يدنو الأجل وتموت الأم فى النهاية ، تكون العلل البدنية قد أنهكت قوى البنت ، وتركتها مريضة البقية الباقية من حياتها ، اللهم الا اذا أتاحت لها الفرص العلاج

الفصل الثامن :

هل تخاف الحياة؟

ان المقياس الصحيح لصحتك العقلية شعورك .. فمتى شعرت بالسرور يملأ جوانحك والعافية تتغلغل فى جسمك ، كان هذا دليلا على ان طاقتك العصبية بلغت الرقم ١٠٠ ـ انظر الجدول ـ وانك متفائل واثق من نفسك . تنتظر الغد ، والأسبوع القادم ، والسنة كلها بثغر باسم وبفارغ الصبر. ترسم خطط المستقبل ، فلا يتطرق الى ذهنك الشك فى نجاحها . وتنطلق أفكارك مندفعة كالسهام بعيدة عن نفسك ، لأن العالم كله لك ؛ الحياة فى نظرك كلها لذات ومفاجآت ، مليئة بالحوادث والمغامرات ، تتوقع الخير فتجده ، وتنتظر الساعة التى يتاح لك فيها التعرف الى فوج جديد من الناس ، ومتى دنت ، تهيأت للقيام بها فرحا، توقعا منك انك ستحبهم ، ومن انهم سيحبونك ، لا تعرف اليأس ، فاذا أخطأت مرة أو فشلت ، أسفت الى حين وأحرجت . ولكن شعور الأسف لايلبث أن يزول بعد ساعة أو يوم . وفى هذه الحالة لا تلازمك الأفكار التى تتصل بهذا الشعور، ولا تهبط الى أغوار العقل الباطن.. تهضم خبراتك العقلية اليومية ، كما تهضم طعامك اليومى وشرابك ..

هذه هى الصحة العقلية .. وهذا هو مستوى الحياة الذى نسعى اليه جميعا ، ويجب علينا بلوغه

والدليل الأول على هبوط طاقتك دون المستوى السليم ، الذى لايمكن استعادته بالنوم الكافى وراحة آخرالأسبوع ، هو انك تاخذ فى تركيزفكرك فى ذاتك ، وتصبح راعيا لما يسرى فى جسمك من أحاسيس . انك قلق ، سريع التاثر ، ولا تعرف لهذا سببا . تهتاج لاوهى الأسباب ، فالضوضاء التىكنت بالأمس لاتأبه لها وقلما كنت تسمعها ، تصبح مصدرا لتنفيص حياتك ، ولايمضى زمن طويل حتى تصبح لا تطيق حركات من حولك وسكناتهم : الوالد والوالدة والزوجة أوالزوج والأطفال، فىحين ان هذه مجرد عاداتهم الشخصية التىكانت قبل ذلك لا تسبب لك أدنى مضايقة. ولايقف شعورك هذا عند حد بيتك ، بل يتبعك الى محل عملك .. فاذا ما أراد رئيسك أن يملى عليك رسالة ، وأخذ يسعل أو « يسلك زوره » وتكرر ذلك منه ، ضقت صدرا به ، وأحسست برغبتك فىضربه أوقذفه بالأوراقالتى فى يدك

ثم تساورك الهموم ، بالرغم من علمك ان ليس تمة مايدعو لذلك . ويتسرب خيط من الشككالثعبان السام الىذهنك ، ويهمس فىاذنيك فحيحا ينذرك بسوء المصير .. فيخيل اليك ان كارثة توشك أنتدنو منك ، أو ان حربا عالمية على الأبواب ، وان أثمان الحاجيات وأجور المنازل سترتفع ، وضرائب جديدة ستفرضعلىالأهلين

ولما كانت هذه المخاوف تواصل انشاب أظفارها فى جسمك ولا تخف وطأتها ، ولما كان شعورك بهذا التغيير الذى حدث فى حالتك الصحية يفارقك ، فانك توقن ان الأفكار المزعجة التى تساورك حقيقة لا أوهام ، واذا

ما تصفحت جريدة ، تقع عيناك على العناوين المزعجة دون سواها ، لأنها تتفق وما يجيش فى خاطرك ، مثال ذلك « الخطر الشيوعى يزداد دنوا » ، « الأسهم والسندات فى نزول » ، « تخفيف الضرائب أمر بعيد الاحتمال »

وتدهش عند قراءتك الجرائد يوميا للعدد الكبير من الرجال والنساء من أندادك الذين يموتون ، وتحس بعد الفائت نظرة على الوفيات بشعور غريب غامض ينبئك بأن صحتك فى تدهور ، وان هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن مرضا بدأ يصيب قلبك ، أو ان الكلى أخذت تضعف ، أو ان داء السرطان اخذ يغزو جسمك

وهنا يتركز تفكيرك فى نفسك .. وكلما ارتفعت درجة التعب فى جسمك وأعصابك ، قل اهتمامك بكل ما هو خارج عن هذا النطاق الضيق : نطاق نفسك ، وما يتعلق بها . ولا تعود تفكر فى المستقبل أوترسم الخطط ، كما كنت تفعل من قبل ، لأنك فقدت الكثير من الثقة فى قدرتك على العمل .. ويهتف فى أذنك هاتف قائلا : « لقد قضى على مستقبلك » . وسرعان ما تجد مشقة عظيمة فى ارتداء ملابسك للخروج مساء تلبية لدعوة ، أو قضاء لسهرة . ولا تشعر بالارتياح الذى تشعر به فى بيتك ، اذا وجدت فى بيت جارك أو صديقك .. ومتى فرغت من عملك هرولت مسرعا الى منزلك ، حيث تنكمش فى حجرتك كالحيوان المريض فى حظيرته

والواقع أنك مريض حقا ، وان كنت لا تعرف ذلك .. ان كل ما تعرفه ان الدنيا ليست بخير ، وانك انت كذلك

ولضعف الثقة فى نفسك تأخذ فى التفكير فى الماضى ، ويختفى كل ما صادفته فى حياتك من نجاح . وينتج

عن هذا طبعا احجامك عن منافسة الغير ، أو الاقدام على مشروع جديد

على هامش الحياة ..

فى العالم الذى نعيش فيه مئات الألوف من الناس ـ رجالا ونساء ـ يعيشون على هامش الحياة وفى ظلالها. أولئك هم الذين يقضون جل حياتهم فى المجال الذى سميناه «النورستانيا» . ان مايخافون منه هو الحياة .. الحياة بعينها . انها فى نظرهم عبء لايطاق .. مطالبها كثيرة ومسئولياتها ثقيلة . والعلاقة مع النـاس طريق وعر محفوف بالأشواك

ومن أعراض « النورستانيا » أن المصابين بها يجدون صعوبة كبيرة فى تكوين علاقات حسنة مع الغير .. فلا يستطيعون أن يكونوا على وفاق مع أزواجهم ولا مع أولادهم ، ولا أن يعيشوا فى وئام مع جيرانهم وزملائهم فى العمل . ولايستطيعون أن يصونوا ألسنتهم عن العيب فى سواهم ، أو أفكارهم عن التحيز والتعصب لأغراضهم الشخصية ، وهم على الدوام مرهفو الحس ، يتأثرون بكل كلمة توجه اليهم فيحملونها على محمل سيىء ، ويعتقدون فى الخرافات والخزعبلات . فاذا وقع لأحدهم حادث لا يسره ، عزاه الى مرآة كسرت أمامه ، أو أن أحدا ترك قبعته على فراشه ، أو انه أنجز عملا معينا يوم جمعة . وما تعلقهم بالأباطيل سوى تبرير لأخطـاء يرتكبونها .. فلا غرابة اذا لجأوا لقراءة الكف والتنجيم الخ ..

ان أحسن وصف لأولئك الذين يعيشون على هامش الحياة ، ما يقولونه هم عن أنفسهم . ومن عادتى أن

أطلب الى بعض مرضاى ، بعد ترددهم على العيادة ، أن يكتبوا وصفا لشعورهم ، وهذا ما كتبه شاب :

« لقد مضى على فى العلاج شهر كامل ، ولكنى لا أزال مضطرب الدهن ، وكأننى اسلك طريقا يكتنفه الضباب. واكاد لا أستطيع رفع عينى لثقل الجفون . ومتى نمت تكاثرت على الأحلام المخيفة ، فاذا صحوت وجدت نفسى خائر القوى . اننى لا أنتظر منك معجزة يادكتور. قد يكون علاجك عين الصواب ، ولكن حالتى تزداد سوءا . التعب يضنينى ، والضجر من الحياة يلازمنى ، ولست أدرى أى طريق أسلك . لقد سمعت الكثير من الأطباء العديدين الذين استشرتهم ، فلم أعد أفرق بين ما أصدق وما لا أصدق... قد يكون دوائى صفعة قوية على رأسى أثوب بها الى رشدى .. لا أجد لذة فى شيء أكثر من بضع دقائق .. فهل من وسيلة لانتزاع أفكارى من ذهنى حتى لا تتركز فى نفسى ؟ »

وقد طمأنت هذا البائس ، مؤكدا له انه فى طريق الشفاء وانه سينتهى من العلاج بعد شهر واحد . وقد حدث فعلا ، وهذا ما كتبه بعد اتمام العلاج :

« كنت لا أصدق يادكتور اننى سأنتشل من تلك الهوة .. هأنا الآن قوى ، سعيد ، أجد فى الحياة لذة ومتعة لم يكن لى عهد بهما من قبل . لقد زال عنى الخوف من تلك الأحاسيس المزعجة التى كانت تنقض على فجأة ، فتسحقنى سحقا »

* * *

وهذا رجل فى متوسط العمر ، طالت شكواه من العصاب ، يصف حالته قائلا :

«خيل الى قبل مجيئى الى هذه العيادة اننى فى طريقى الى الجنون .. كنت أخاف ان أموت ، كما كنت أخاف أن أعيش ، كنت لا أتحمس لشىء ولا أجد لذة فى شىء . كنت أشعر اننى فأر فى مصيدة »

وهذا ضابط فى الجيش يصور لنا ماعاناه من آلام :

« مضت على عدة سنوات ، كنت أؤكد فيها لنفسى اننى دون سائر الناس فى حالتى العقليه . وكنت أفكر فى الالتجاء الى أحد الاخصائيين لفحصى بواسطة اختبار الذكاء . كنت اخشى أن أقدم على عمل جديد أو مخالف لما اعتدت عليه . وقد انقطعت عن الدراسة فى خلال السنة الثانية الثانوية ، بسبب كثرة الغياب واضطرارى الى الاعتكاف فى المنزل أياما من حين الى حين ، وكنت أشعر بارتياح طالما كنت فى البيت ، فاذا استأنفت الذهاب للمدرسة عاودنى التعب والمرض من جديد. وكنت أشعر اننى مخطىء لعدم اتمام دراستى ، وهذا ما حدا بى الى الانزواء واعتزال الناس . وكنت أتصور ان جميع الناس ضدى ، ولذا كنت لا أثق فى أحد »

كان هذا الشاب فى الثانية والعشرين من عمره ، حسن الطلعة . يبلغ طوله ستة أقدام . غير ان صوته الخافت كان يحمل السامع على الظن انه طفل فى السادسة . ومددت يدى اليه فتناولها برعشة وخوف. ولم يستطع أن يفتح عينيه أو يقابلنى وجها لوجه . فجلس منكمشا فى كرسيه ، منخفض الرأس ، مسبل العينين . وقد تسبب عن عزلته وبعده عن الناس زمنا طويلا ، انه استسلم لدنيا الأحلام ، واسترسل فى الخيال ، تعويضا عما صادفه فى الحياة من فشل وخيبة أمل ...

لقد كان هـذا الشاب عندما جاء لزيارتى قد قطع شوطا فى طريقه الى جنون المراهقة أو الشيزوفرينا ، وقد قال لى عندما سألته عما يشكو منه :

« لقد أصبحت فى عداد أولئك الذين يقال عنهم انهم على الرف . أرى الناس فى حياتهم اليومية يروحون ويجيئون فى حالة طبيعية سعيدة سهلة ، فيدهشنى كيف يتاح لهم ذلك ، فى حين انى لست أدرى كيف أبدأ ، وأين »

« منذ ١٥ عاما كنت أداعب كلب صديق لى ، فعضنى فى ساقى . ولم يكن هذا أمرا ذا بال فى ذلك الحين ، فقد كنت مولعا بالكلاب منذ صغرى ، وكان لدينا اثنان . غير ان أصدقائى أخذوا يهولون هذا الحادث . ولعل ذلك كان اشباعا لرغباتهم لا لارضائى . فذهبت الى صيدلية وأردت أن أشترى مطهرا ، أضعه فوق التسلخات السطحية فى ساقى . فأبى الصيدلى ان يبيعنى شيئا ، وقال انه لا يريد أن يتحمل مسئولية ونصح لى أن أستشير طبيبا . ولكنى لم أفعل ذلك فى تلك الساعة المتأخرة من الليل . وبعد أن أويت الى فراشى بدأت أحس بالألم ، فأخذت أفكر فى نتائجه ، وفى اليوم التالى تبين لى ان طبيب العائلة متغيب ، فزرت آخر لا أعرفه . وبعد علاجه اياى طلب الى أن أزوره بعد أيام قليلة ، حتى يراقب سير الجرح »

« وهنا ساورنى القلق وخشيت أن أصاب بداء الكلب . وقد ذكرت ذلك الطبيب حينما زرته بعد ذلك فقال لى ان اصابتى بداء الكلب بعيدة الاحتمال وان قلقى دليل اصابتى بالعصاب . فما معنى هذا ؟ اننى لم أفهم هذا التعبير ، ولكنه أزعجنى على كل حال . فذهبت توا الى المكتبة العمومية واستعرت بعض الكتب التى تبحث فى

طب الأمراض العقلية . وكنت كلما زدت قراءة زدت اكتشافا لأعراض مرضية فى »

« وكان ينتظر أن تكفى كل هذه الأعراض الشاذة التى اكتشفتها فى نفسى ، لانتزاع فكرة داء الكلب من ذهنى ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث . فقد أصبحت أخاف كل كلب تقع عليه عينى ، حتى الكلاب التى اعتدت رؤيتها طول حياتى فى بيتنا . وكنت لا أجرؤ على مس كلب بيدى ، ولو أعطيت فى مقـابل ذلك مالا وفيرا . وكان مجرد المشى فى الشارع ترتعد له فرائصى ، خشية أن الاقى كلبا فى طريقى ، ولو كان سيده ماسكا بزمامه . فاذا فعلت ولمحت كلبا ، سارعت الى الجانب الآخر من الطريق أو هرعت الى منحن بعيدا عنه .. وهذا حالى منذ ١٥ عاما حتى هذه الساعة »

« لقد كنت على الدوام أشعر بعدم الطمأنينة ، وبأننى غير كفء لما أؤديه من أعمال ، ودون الآخرين فى كل شيء . واذا ماحاولت ذكر الأشياء التى كنت أخاف منها منذ أن كنت فى الثامنة عشرة من عمرى ، فاننى أضع فى مقدمتها الخوف من لعب «البلى» وسائر الألعاب التى كانت أمى لاتوافق عليها، الخوف من اثارة غضبها فى الواقع ، الخوف من التدخين للسبب عينه ، الخوف من وجودى بمفردى ليلا، الخوف من أن أكون خامل الذكر، الخوف من خلع ملابسى أمام غيرى من الصبيان والذكور عموما ، وقد كنت أخشى ان يهزأوا بى نظرا لبدانتى ، الخوف من ان أكون غير حسن المنظر، الخوف من افتقارى الى المال ، فقد كانت أسرتى موسرة يوما ما ، ولكنها أقاسبت فى خلال الضائقة المالية . وقد علقت بذاكرتى المدة التى كانت أختى تشتغل فيها فوق طاقتها حتى تسدد الديون التى

كان بيتنا مرهونا لأجلها . وكنت أخاف الا يتوافر لدى المال والثياب،كغيرى من أصدقائى . وكنت أشعر بجرح كبريائى لأن زملائى كانوا فى مدارس داخلية ، فى حين انأمىكانت لاتمكنها ماليتها من ارسالىالى تلك المدارس. وأذكر انىكنت أرجو أمىاحيانا أن تعطينى نقودا لأنفقها فى دعوة احدى صديقاتى للخروج معا . فاذا لم تجب طلبى ، كنت أغضب وأتخذ الغضب مبررا لسرقة المبلغ من أختى أو أمى . وكنت أخاف أن يكشف أمرى وأنا ادخن او اشرب خمرا . وكنت أخاف أن أعود متأخرا الى البيت ليلا، لئلا أجد أمى فى انتظارى.. وفىالمدرسة كنت أخاف الرياضيات وأخشى أن أغدو غبيا أمام التلاميذ »

وبعد أن فحصت هذا المريض فحصا دقيقا ، واطلعت على نتيجة الفحص الكيميائى والأشعة ، وانواع العلاج العديدة التى عولج بها من قبل ، استقر رأيى على التشخيص ، وقبل شروعى فى العلاج طلبت الى هذا الضابط البحرى المسكين ، أن يقص على سيرة حياته تفصيلا فى بحر السنوات العشر الماضية ، فى بلدته الصغيرة التى قضى فيها طفولته . قال :

« لما كنت أصغر اخوتى الخمسة ، وكنت حريصا على الاحتفاظ بالمستوى الذىكانت تتوقعه منه أمى واخواتى الثلاث وأخى ، فقد كنت دواما معنيا بأن أكون عند حسن ظنهم بى. وقد توفى ابى فجأة وأنا فى سن الطفولة. وكانت أمى بعد وفاته لا تفتأ تذكرنى بما كان عليه أبى من قوة الخلق ، وكم كان يؤسفه الا يرانى على غير ما يريد ، فيما لو كان حيا . لذلك كنت منذ صغرى أقدم رجلا وأؤخر أخرى قبل الاقدام على عمل ، حتى

اضمن نجاحي فيه . وكانت نتيجة امعاني في الحذر ، انني كنت لا أخطو خطوة أتوجس منها الفشل ، أو قبل أن أوقن من نجاحي فيها

« وفي السنة التي توفي فيهـا والدي ـ وكنت قد بلغت الثامنة ـ أصبت بمرض في أنفي ، فكانت تدمى اذا لمستها ، وكنت عرضـة للزكام والتهاب الجيـوب الأنفية . وفي تلك السـنة أصبت أنا ووالدتي بالدفتريا ، فزاد ألم الجيوب عندي شدة

« وكانت علاقاتي بزملائي حسنة ، وكانت حياتنـا البيتية فوق المعدل . وكانت أسر زملائي كذلك حسنة. ولعل أمي كانت الوحيدة في شدة معاملتها نوعا ما . وكان التوفيق بين ارضـائها ، مع الاحتفـاظ بحسن صداقتي مع زملائي ، يستنفد مني جهدا متواصلا . مثال ذلك انها كانت تعترض على لعبي «البلي» بدعوى انه ضرب من المقامرة ، لايتفق وتقاليـد البيئـة التي يعيشون فيها . وقد قبض على أخي مرة وأنا متلبس بتهمة التدخين وهددني بشكواي لأمي . وكانت أمي تستاء لرؤيتي مع أحد ممن اعتادوا التدخين ، وكانت تجافي أصدقائي الذين يجيئون لزيارة شقيقاتي وتغلظ لهم القول . ونتج عن ذلك على ما أعتقد ، ان لم تتزوج منهن سوى واحدة

« أما حيـاتي المدرسـية فكانت على ما يرام ، ولم تعترضني صعوبة فيها سوى فيما يتعلق بالرياضيات ، ويعزى ذلك الى معلمة الحساب عند أول عهدي بهذه المادة . فقد كان صبرها ينفد بسرعة ، وكانت تأبى أن تمهلني ، ونتج عن ذلك انني كنت أخشاها . وقد اختمر في ذهني انني لا أصلح لدروس الرياضة . وبقيت

هذه الفكرة معى طول حياتى الدراسية بما فى ذلك الحياة الجامعية . وكان نصيبى فيها على الدوام الفشل. ولما تقدمت لدخول المدرسة الحربية فى أنابوليس ، كانت الرياضة سبب عدم قبولى

« وخلال دراستى الثانوية أصبت فى حادثين .. قفزت فى حمام السباحة فى مكان قليل العمق فأغمى على غير اننى أصبت نجاحا باهرا فى السباحة والقفز وفزت بكأس الجدارة فى المخيمات الصيفية مرات

« والتحقت فى السابعة عشرة من عمرى بكلية باحدى الجامعات . وتجنبت الرياضيات ، ودرست بدلا منها علم طبقات الأرض . وكانت درجاتى متوسطة أو حول المتوسط . ولكنى كنت أشعر بالتعب ، وكنت أصاب بالزكام خمس مرات أو ست كل شتاء ، وألزم الفراش أسبوعا بسبب الحمى . وازداد الألم بسبب الجيوب الأنفية رغم العلاج المتواصل . وكنت لا أستيقظ تماما قبل الساعة الحادية عشرة صباحا . وقد أجريت لى عملية فى الأنف ، بغير جدوى. وكان يصعب على التنفس ليلا الا باستعمال دواء لفتح المسالك الأنفية والشعب الرئوية

« وقد كنت خلال الدراسة الجامعية ذا حظوة عند زملائى الطلبة ، لاسيما الطالبات ، اذ كنت أكثر من الخروج معهن . وكنت أشرب الخمر فى المجتمعات فى العطلة الأسبوعية ، طالما كان ذلك لايتسرب خبره الى أمى . وحدث فى ذلك الحين أن شقيقى الطيار الذى كنت أعبده استشهد فى حادث فحزنت عليه كثيرا . وقدكنت أرغب فى دخول فرقة الطيران فى الجيش ، ولكن وفاة اخي ثبطت همتى . وشعرت فى ذلك الحين اننى مسئول

عن موته لأنني كنت قد شجعته على الالتحاق بالقوات الجوية

« وفي سنة ١٩٣٥ أراد أفراد أسرتي الحاقي بكلية الحقوق، فنزلت على رغبتهم بالرغم من عدم ميلي لدراسة القانون . ولما يكد يبدأ فصل الشتاء حتى توالت على اصابات الزكام ، فكنت أخشى أن أفشل في دراستي ، لاسيما بعد أن أصبحت الرجل الوحيد في العائلة. ومهما يكن من شيء فقد فزت بنيل درجتي في النهاية. وفي ذلك الوقت أحببت فتاة وأحبتني ، ولكن أهلي لم يوافقوا على زواجي منها ، غير ان صلتي بها لم تنقطع ، بل دامت خمس سنوات الى أن التحقت بالبحرية . ولم أجد في نفسي ما يشجعني على الزواج أو أن أكون مسئولا عن امرأة ، لسوء حالتي الصحية ، فافترقنا بعد أن نصحت لها أن تنساني . وفعلا تزوجت من سواي . ومنذ ذلك الحين كانت لا تعاودني رغبة في الخروج مع فتاة ، اللهم الا مرة أو مرتين ضربت فيهما موعدا ...

« بعد تخرجي في كلية الحقوق التحقت أولا بوظيفة في شركة التليفون المحلية ، ثم بعد ذلك في أحد البنوك ، وكنت أمقت وظيفتي الأخيرة ففصلت منها لعدم خبرتي بالعمل . والتحقت بعمل آخر لم أستمر فيه سوى أسبوع بسبب المرض وحنيني الى أهلي . وبعد قليل اشتغلت وكيلا لاحدى شركات التأمين ، وظللت فيها سنة ونصف سنة بغير أن أكتسب دولارا واحدا . وكنت أعلم منذ البداية ان نصيبي فيها سيكون الفشل، ولكني احتفظت بالعمل فيها لعدم وجود سواها

« وبعد عامين لاحظت انني أخذت في ادمان الخمر مساء كل سبت ، وكانت آثارها تظل معي طيلة أيام

الأسبوع التالى ، وكنت فى ذلك الحين على اتصال بالفتاة التى ذكرت . وفى سنة ١٩٤٠ أدركت ان أمريكا لابد أن تساهم فى الحرب فرغبت فى التطوع فى الخدمة العسكرية ، هربا من عملى وأسرتى والفتاة التى لم أكن أصلح للزواج منها . وكان مما زادنى رغبة فى الابتعاد عن بيتى، التعب وشدة حاجتى للتغيير. وفىسنة ١٩٤١ رحلت الى مدينة نيويورك للتمرين . وهنا بدأت متاعبى تزداد عنفا . فقد كان العمل شاقا منهكا ، وكدت أفشل فشلا ذريعا ...

« وعند التحاقى بالخدمة ، أجريت لى عمليةجراحية أخرى فى الأنف ، وأخرى لاستئصال المصران الأعور ، وخلع لى ضرسان ، واستؤصل ضلع ، وأجرى لى بذل السلسلة الفقرية أربع مرات . وكنت أشعر بشىء من التحسن أحيانا ، ولكنىكنت عصبى المزاج على الدوام ، أخشى المجهول وأجد صعوبة فى النوم . وألجأ الىتعاطى الكحول أحيانا ، ولكنى أحس بعده بتعب وشعورغامض وستولى على اليأس أحيانا فلا تهمنى الحياة ولا أعبأ بالموت . وقد مضى على زمن طويل وأنا عاجز تمام العجز عن تركيز فكرى فى شىء . فاذا صادفتنى مسألة تتطلب تفكيرا طويلا ، أرجأتها أو نسيتها كلية

« وليس فى وسعى أن أوضح شعورى نحو أفراد أسرتى ، اذ أكره أن أعزو اليهم سبب متاعبى . اننى أكن لهم أسمى عواطف الحب . غير اننى قبل التحاقى بالحربية كنت أكره الذهاب للبيت ، بل كنت أوثر البقاء فى الخارج أطول مدة ممكنة . كنت أغادره فى الساعة الثامنة صباحا وأعود الساعة الحادية عشرة مساء ، الا اذا كنت أعود أحيانا لتناول طعام العشاء ، فاذا عدت ،كنت أخرج توا

بعد ذلك . وكنت أستاء من مسلك والدتي مع أصدقائي، وموقفها ازاء التدخين وشرب الخمر، وتدخلها في حريتي. وكانت أمي واخواتي توجهن النقد المرير للغير مما جعلني في عقلي الباطن أحذو حذوهن، وأتوقع في الناس الكمال. وكانت الحياة في البيت بهذه الكيفية عسيرة الاحتمال.. فكان كل ما في وسعي عمله أن أغادره في كل فرصة ممكنة، لعدم شعوري بالارتياح فيه . ولست أدري اذا كان هذا نتيجة حالتي النفسية أم حالتي الصحية ... »

هذا سجل واضح لمريض أنهكه التعب ، بسبب ما لاقاه من الزكام المتكرر وآلام الجيوب الأنفية والاصابة بالدفتريا وشدة الحساسية التي زادت هذه الأعراض عنفا . هذا الى أن تربيته البالغة حد الدقة ، وامعان امه في التشديد عليه ، وخطة شقيقاته الانتقادية ـ كل هذه كانت بالغة الأثر في شعوره بالألم وتأنيب الضمير ، وتوقعه الكمال في نفسه وغيره . غير ان متاعبه الجسمية وأثرها في حياته النفسية ، التي أشعرته بالفشل والعجز عن معالجة مشاكل الحياة ، لا تعزى الى أمه أو اخواته .. ان منشأها استنزاف طاقته العصبية

ومما يبرهن على صحة هذا التشخيص ، ان المريض بعد علاج ثلاثة أشهر ، أخذ يشعر بتحسن ظاهر. فقد خفت وطأة حساسيته ، وزال عنه الأرق ، وانتظمت حياته النفسية . وبعد أن حضر لعيادتي بأربعة أشهر ، مكنته صحته من الالتحاق بعمل في احدى الشركات في نيويورك وصادف فيه كل ما كان يرجوه من نجاح . وعاد الى الحياة الاجتماعية الطبيعية . وأخذ يستمتع بالحياة ويدرك انها جديرة بأن يحياها لأن شبح الخوف قد زال عنه . هذا هو الشاب الذي جلس في كرسيه

منكمشا مطأطىء الرأس ، مسبل العينين يوم أن جاء لزيارتى

لقد تعمدت التفصيل فى هــذه الحالة لأنها صــورة وافية لمئات الحالات التى يقع فيها الناس فريسة لتعب الاعصاب . ولو ان هــذا المريض قد عنى بعلاج نفسه منذ ١٥ سنه مضت لكان قد مضى تلك المدة الطويلة ناجحا سعيدا، بدلا مما لاقاه من الجهاد والشقاء وخيبة الآمال . وكانت البحرية الأمريكية قد وفرت ما أنفقت عليه من اموال بغير طائل . وكان المريض قد تجنب ويلات الخوف والآلام البدنية والعقلية . ولابد لى من أن أقرر هنا ان كافة العمليات الجراحية التى أجريت لهذا المسكين ــ فيما خلا عملية الأنف ــ كانت لا مبرر لها اطلاقا

وليسمح لى القارىء أن أوجه نظره الى السرعة التى استجاب بها المريض للعلاج ، بالنسبــة الى السنوات الطويلة التى قضاها فى أمراضه المختلفة . ولست أعنى بهذا ان أفاخر بطريقة العلاج ، ولكنى أريد أن أقول ان رغبة المريض فى الشفاء وسرعة استيعابه للظروف التى نشأ فيها المرض ، ومساهمته وتعاونه مع الطبيب ــ كلها كانت من أشد العوامل التى ساعدت على سرعة الشفاء. هذه ، مع الدواء الذى خفف من وطأة التعب فى جهــازه العصبى ، والعلاج النفسانى الذى نظم حياته العقلية ، انتزعت منه فكرة الغموض والخوف من المجهول والعودة به الى حياته الطبيعية

الفصل التاسع :

هل تخاف ميولك الجنسية؟

عندما نشر دكتور « الفرد كنزى » وزملاؤه مجلده الشهير « السلوك الجنسى » (١) ، كان صداه بمثابة قنبلة انفجرت ، فهزت الضمير الأمريكى هزا ، زعزع أركان الايمان بالأسس الخلقية التى عليها شيدت اسمى المبادىء وأنبلها . وقد تبع صدوره عشرات من الكتب والمقالات والتقارير ، نشرها أساتذة وكتاب تعليقا عليه، واسهابا فى الكلام عن المسائل الجنسية وأثرها فى الحياة الأمريكية الحديثة

ولا يسع من يقرأ هذا المجلد الضخم قراءة سطحية الا أن يصل الى نتيجة واحدة ، هى ان أكثرية الشعب الأمريكى شبق ، أو شهوانى فاسق ، أو داعر ، أو منحرف جنسيا

ولست أريد هنا أن أناقش الحالات التى ذكرها دكتور كنزى أو أن أطعن فى احصاءاته . ولكننى أريد أن أقرر

(١) المترجم ــ نشر هذا الكتاب كنزى واعونه من جامعة أندبانا بهبة من مؤسسة كبيرة ، فى مجلدين أحدهما عن الرجل الامريكى والاخر عن المرأة الامريكية ، بين الاول والثانى فترة قدرها ١٢ سنة . ولما ظهر المجلد الثانى فى أواخر سنة ١٩٥٣ ، بيع منه مليون نسخة فى الاسبوع الاول ، بالرغم من ان ثمنه ٣ جنيهات مصرية تقريبا .

أن الاختبار قد علمني بوصفي طبيبا ، الكثير عن المسائل الجنسية والدور الذى تمثله فى حياة الأغلبية الساحقة من المرضى . فهناك نسبة كبيرة من المرضى الذين يشكون من أوهام ووساوس تتعلق بهذه المسائل

وقد استرعى انظارى العدد الغفير من المرضى — رجالا ونساء — الذين كانوا ، ولايزالون ، يعترفون لى انهم يخافون من ميولهم الجنسيه وما يتعلق بها . واننى اعلم يقينا اننى لست الوحيد بين اطباء الامراض العقليه ، الذين يجدون هؤلاء المرضى اغلبيه تكاد تكون ساحقه . ومن الحقائق التى لاتقبل الجدل انأولئك الذين يجبنون امام رغبـــــاتهم الجنسية ، ويستحيون ، ويترددون ويخافون ، أضعاف أولئك الذين اتصفوا بالجشع فى ارضاء شهواتهم ، ومن يوصفون بلقب «دونجوان» ، ومن اشـــتهروا باللواط من الرجـــال ، وبالسحاق من النساء ، ومن يتصلون جنسيا بالحيوانات ، على كثره هؤلاء وأولئك . ويذكر « ارنست جروفز » أستاذ علم الاجتماع فىجامعة كارولينا الشمالية ، فىكتابه «الزواج» سبعة عوامل هامة فى قيام المشاكل الزوجية من الناحية النفسية ، وقد وضع فى مقدمتها ، الاشمئزاز منالمسائل الجنسية ، ومما ذكره فى هذا الشأن قوله : «الاشمئزاز بين النساء أكثر انتشارا منه بين الرجال ، ومع ذلك فالكثير من الرجال يشوبهم هذا العيب . ويعزى السبب فى كثير من الأحوال الى الكيفية التى عولجت بها المسألة الجنسية لأول مرة فى الحياة الزوجية» . ويلىالاشمئزاز بين الأسباب السبعة — كما تدل على ذلك دراسة دكتور جروفز — الخوف من الحمل ، والشعور بالاثم

ميول جنسية فى اجازة ...

متى كان الرجل منهك القوى العصبية ، وقد هبطت طاقته الى الدرجة التى يشعر فيها بالخوف والقلق ، والضجر بالحياة وعدم الارتياح ، وشـــدة الاهتمام بأحاسيسه نلا مندوحة من عجزه عن الاستمتاع بحياه جنسية راضية . والرجل الذى لايطمئن الى عمله ، أو يساوره الهم لمرض فى قلبه أو معدته ، سواء كان ذلك حقيقة أو وهما فد يكون شديد الولع بزوجته ، يحبها حبا جنونيا ، ولكنه مع ذلك يعجز عن رغبة الاتصال بها جنسيا ، أو بأية امراة سواها . التعب الذى يصيب الجهاز العصبى يقتل الميل الجنسى كما يقتل الصـقيع الزهرة . فاذا تعمق هذا التعب فى نفس المصاب به ، تمكن منه الخوف من المسائل الجنسية ، كما يتمكن منه الخوف من الجراثيم أو الأماكن الضيقة أو غيرهما من انواع المخاوف المرضية

وبهذه المناسبة أشير على القارىء أن يرجع الى حالة الضابط التى أسهبنا فى سردها فى الفصـل السالف ، ويقرأ ما قاله عن الفتاة التىأحبها والتىاضطر أن يعدل عن الزواج منها ، لأنه شعر « انه ليس كفؤا جسميا للزواج »

لم يكن هذا الشاب مصابا بشذوذ جنسي ، ولم يكن ضعيفا أو دون المتوسط فى قوته الجنسية . ولم تكن عنده « عقدة الأمومة » التى يقال انها تسبب اضطرابات جنسية . ان علته كانت التعب العصبى الذى ملأ ذهنه بالوساوس وفى مقدمتها انه ليس كفؤا من الناحيـة الجنسية للزواج . كان مفرما بفتاته ، ولكن تركيز أفكاره

فى نفسه جعلت غرامه معيبا مشوبا . وقد أدى به الخوف الى النظر الى الحياة بمنظار أسود ، ففقد كل أمل فى السعادة وبهجة العيش ، وخشى الزواج ومسئولياته

كذلك المريض الذى سردت قصته فى الفصل السادس، قص علينا كيف انه كان لا يحاول أن يحدث فتاة الا ويشعر انه عصبى المزاج ، فيتصبب العرق من جبينه ، ويخفت صوته ، فلا يجد ما يقوله لها . وحينما كان فى خدمة الجيش ذكر لنا كيف انه كان يود لو أمكنه التعرف على فتاة كسائر زملائه ، ولكنه كان لايعرف السبيل الى ذلك ، أو كيف يجرؤ أن يخاطب من لا يعرف ، أو ماذا يقول لها اذا ما عرفها . ولما شرع فى قراءة كتب علم النفس رغبة منه فى تفهم حالته ، كان مما فكر فيه ان سبب خجله وفشله انه مصاب بشذوذ جنسى ، اذ لم يجد غير هذا التعليل ما يعزى اليه نفوره من الجنس اللطيف . ومما قاله بهذه المناسبة انه لام والدته على تنشئته تنشئة خاطئة ، ولام والده لأنه سمح لها بذلك

وعندماجاء لاستشارتى كان بين ما أراد الوقوف عليه منى ، أن أصارحه اذا كان به شذوذ جنسى . وكان يخشى هذا الداء بعد أن قرأ عنه فى كتب علم النفس ، وما ساوره من الشك فى أن يكون مصابا به . وقد أبنت له كيف انه سيشعر برجولته ويكف عن التفكير فى أمر هذا الشذوذ بمجرد ابلاله من المرض .. وقد بررت بوعدى فعلا

ومما لاريب فيه ان الجرأة فى العلاقات الجنسية ، تكتسب بالخبرة والمران . فامعان الشاب فى الخجل والحياء ينفر منه خطيبته وشريكته فى المستقبل. وفضلا عن ذلك يدفعها خجله الى زعزعة ثقتها بنفسها . فقد

يتطرق الى ذهنها ان افتقارها الى الجاذبية الجنسية هو سبب تمنعه وحرصه على عدم رفع الكلفة . وكم من فتاة رفضت يد شاب دمث الأخلاق ، شديد الذكاء ، كان يمكن أن تكون أسعد زوجة معه ، وآثرت عليه آخر لا مزية فيه سوى ما نقص سابقه من جرأة ! !

عدم التوافق بين الأزواج ...

من الأزواج الذين يخلصون لزوجاتهم ويتفانون فى حبهن من يساورهم الخوف كلما اتصلوا بهن اتصالا جنسيا ، وينتهى أمرهم بالاصابة بالعنة . كذلك من النساء من يساورهن الخوف للسبب عينه ، فيحرمن من الاستمتاع بالحياة الزوجية الكاملة

ان استنزاف الطاقة من الجهاز العصبى لايترك مجالا للميول الجنسية ، أو على حد تعبير أحد المرضى « متى تعبت الأعصاب ، رحلت الرغبة الجنسية فى اجازة »

وهذه قصة السيدة «م» التى جاءت تشكو من مرض طال أجله . حاولت أن ترجع بذاكرتها الى بدء هذا المرض ، فقالت انه ظهر عقب فترة توتر وقلق بسبب حادث وقع لابنها ، وتجنيد زوجها للخدمة العسكرية . وتسبب عن هذين الحادثين أن تراكمت عليها الأزمات المالية والوحدة والمرض ، فنقص وزنها وفقدت كل لذة فى الحياة . وهذه سيرتها ترويها بنفسها :

« كنت كلما غادرت البيت لقضاء حاجة انتابنى قلق شديد يضطرنى الى العودة . وكنت لا أطيق البقاء فى السينما أكثر من دقائق ، فأسارع فى الخروج فى الوقت الذى يعرض فيه أبدع فصول الرواية ، والفزع يرعبنى ، والمعدة تفوص بى الى حيث لا أدرى ، والذهن يخلو من

كل ماشهدته على الشاشة ، ويصبح صفحة بيضاء لا أثر فيها للماضي . وكنت بعد ذلك آوى توا الى فراشي أملا فى تهدئة أعصابى . وكثيرا ما كانت تصحب هذه الأزمات ميوعة واغماء واسهال . وكان مجرد تفكيرى فى الخروج لشراء لوازمى من السوق ، يعيد الى هذه الأزمات . وأصبح مستحيلا أن أقف فى حانوت تاجر ، انتظارا لدورى ، فاتفقت مع كل من القصاب والبدال أن يقضى حاجتى قبل غيرى نظرا لحالتى الخاصة . ومع كل هذا كان لايفارقنى الخوف والاضطراب فى خلال هذه الدقائق لتغيبى عن البيت وشدة الشعور الذى يدفعنى لسرعة العودة . وقد اضطررت أخيرا أن ألجأ لكل حيلة ممكنة ، لأحمل الآخرين على شراء حاجاتى لى ، تهربا من الخروج

« وكنت شديدة القلق على زوجى .. لقد مضى على زواجنا ١١ سنة ، وكانت كل الظروف تهيىء الطريق أمامنا للسعادة ، سوى شىء واحد ، اختلاف الدين .. ذلك اننى اسرائيلية وزوجى مسيحى ، كاثوليكى المذهب . وقد كان كل من أهلى وأهله غير راض عن زواجنا منذ اعلان الخطوبة لهذا السبب . وكانت أسرتى لا تقل مقاومة لهذا الزواج عن أسرته . وكانت كل من الأسرتين تؤكد لنا سلفا أن هذه الشركة لن تكون سعيدة ولن تأتى بنتائج حسنة . وقد كانت هذه التنبؤات منذ ذلك الحين بمثابة تهديد ، لايزال سيفه مسلولا فوق رأسى الى هذه الساعة . وكان يبدو لى ان كلينا قد أخطأ فى الاقدام على الزواج . وخطر ببالى اننى اذا تعهدت أمام الله اننى لن أعيش معه بعد ذلك ، فقد يعود من الحرب سالما ولن يتعرض لخطر القتال . وفضلا عن ذلك ، فان هذا القرار يعيد المياه الى مجاريها بينى وبين والدتى وشقيقاتى !

« أخيرا عاد زوجي من الميدان سالما .. فبدا لي أن هذا دليل قاطع على انني كنت محقة في العهد الذى قطعته على نفسي. وفعلا امتنعت عن كل اتصال جنسي معه. ولكني لم أجرؤ في بادىء الأمر أن أخبره بالسبب الحقيقي ، بل تذرعت بمبررات أخرى كالمرض والتعب. وكان رده على ذلك انه أخذ يمازجني. وقال لى مرة : « لقد افترقنا طويلا. وربما كان عسيرا عليك أن تعودى الى الحياة السابقة بهذه السرعة . فلنرجىء المسألة الى أن يسعى أحدنا الى الآخر» . وقد كنت أشعر أحيانا برغبة ملحة تدفعني للسعى اليه ، وكنت موقنة من انه هو كذلك ، وانه في انتظار اشارة مني . بيد ان هذا كان مستحيلا على. كنت خائفة. وكنت أحذر نفسي من استئناف العلاقة الجنسية معه ، تجنبا لما قد يترتب على هذا من الأضرار التي قد تقع عليه أو على ابننا ، فضلا عن استحالة العودة الى أسرتي ، وقطع علاقتي بها الى الأبد . وهكذا كانت حياتي بعيدة كل البعد عن السعادة . وباتت خشيتي من الخروج من البيت أشد وطأة مما كانت وكنت أنتهز فرصة وجودى وحدى فأجهش في البكاء وأذرف الدمع غزيرا

« وكان لأبي بيت في فلوريدا يتردد عليه في فصل الشتاء. فبعث الى بتذكرة طيارة، ودعاني للحاق بأفراد الأسرة هناك . وكنت شديدة الرغبة في تلبية دعوته ، تفاديا لزمهرير الشتاء هنا ، ورغبة في الوجود مع أهلي، لاسيما مع أبي . لقد كنت في طفولتي ابنته المدللة التي كان يؤثرها على سائر اخواتها . والآن وقد بلغ من العمر نهايته ، كنت مشتاقة لقضاء بعض الوقت معه ، ولكني عجزت عن اتخاذ قرار حاسم للسفر.. ست مرات جزمت فيها حقائبي ، وفي كل مرة كنت أعدل وأبعث ببرقية

أعتذر فيها منذرعة بسبب من الأسباب . أما السبب الحقيقى فكان الاصابات المتكررة بالاسهال والقيء خلال أربع أوخمس ساعات ، وما يتبعهما من اغماء شديد الوطأة. وكان يخيل لى اننى فى طريقى الى الجنون، ورغم ما كنت أعرفه فى نفسى من الذكاء ، فاننى لم أستطع تعليل ذلك . وقد لجأت الى الأطباء ودخلت مستشفى «مونت سينا» ، فكان يقال لى اننى خالية من الأمراض وعلى أن أترك هذه الأوهام

« والآن قد مضى على عامان لم أشتر فى خلالهما قطعة واحدة من ملابسى ، اذ كان زوجى هو الذى يقوم بهذه المهمة ، حتى شراء ملابسى الداخلية . ويدفع زوجى خمسة دولارات للحلاق ليأتى الى البيت ، حتى لا أضطر للذهاب اليه . واستأجر من يقضى حاجات البيت من السوق بدلا منى . وكان كل هذا يزيد من شقائى وألم ضميرى ، لأننى كنت أكلف زوجى نفقات باهظة ، رغم اننى كنت مصدر شقائه ، وبرغم اننى كنت أحبه حبا لا مزيد عليه »

لقد كانت حالة هذه المرأة تستدر العطف والرثاء .. وبينما كانت تسرد على قصتها ، والسكرتيرة تدون أقوالها ، كانت لا تكف عن البكاء . وقد اعترفت انها فكرت فى الانتحار تخلصا مما تلاقيه من العناء وما تسببه من التعاسة لزوجها. ومما ذكرته بهذه المناسبة قولها : « يستطيع على الأقل أن يتزوج بعدى من امرأة من دينه ، بحق له أن يعيش سعيدا معها » . ويتضح مما سبق أن السيدة «م» كانت تتألم من وخز الضمير والشعور بالاثم لزواجها من رجل من غير دينها ، وقد أصبحت هذه الفكرة الثابتة وسواسا ، دفعها الى كبت

رغبتها الجنسية . ولم يكن هذا الحادث فريدا فى بابه ، فقد لقيت من المرضى عددا يذكر ، ممن كان اختلاف الدين عندهم سبب توتر العلاقات الزوجية ، أوالقضاء عليها . على ان هذه الحالات العديدة ، لم يكن الشعور بالاثم فيما يتعلق بالعلاقة الجنسية مع اختلاف الأديان ، السبب المباشر. كان هذا الشعور لا يحدث الا عقب مرض أو هزة عصبية ، أو تعب فى الجهاز العصبى . أى ان التعب جاء أولا ، وتبعه الخوف ، ثم أخيرا الشعور بالاثم أو وخز الضمير. ومعنى ذلك ان العقل بطبيعته يبحث عن مبرر فلا يجد أمامه فكرة يتشبث بها الا ان اختلاف الأديان يجعل العلاقة الجنسية محرمة والاتصال الجنسى اثما ، أى ان الشعور بالاثم فى حالة السيدة «م» وفى جميع الحالات التى شهدتها ، لم يظهر الا عقب التعب العصبى

على ان حالة السيدة «م» كانت نهايتها سعيدة . لقد كانت أولى زياراتها لى يوم اثنين . ورافقتها أختها الى عيادتى فى نيويورك من احدى الضواحى القريبة . وقد أوصيت الأخت أن ترافق المريضة الى حين ، الى أن تتقدم قليلا فى الشفاء ، وحينئذ يجب حضورها بمفردها ، كما ذكرت المريضة ان عليها أن تواظب على العلاج يوميا . وفى اليوم التالى ــ الثلاثاء ــ حضرت ومعها أختها أيضا. وفى اليوم الثالث ــ الأربعاء ــ جاءت بمفردها . وكان ذلك اليوم أول مرة خرجت فيها من المنزل بغير أن يرافقها أحد فى خلال سنوات ثلاث . وكاد يبلغ انفعالها درجة الهلع ، لوجودها فى القطار الأرضى بين جم غفير من الناس ، بعد أن كانت فى عزلة عنهم . وقد ابتاعت صحيفة يومية ، واخذت تقرأ الاعلانات الضخمة عن المحال التجارية ، وتنتظر بفارغ الصبر موعد زيارتها لتلك المحال لشراء ملابسها

وفد تم الشفاء لهذه السيدة فى خمسة اسابيع ،كان الناظر اليها فى نهاية العلاج يخالها شخصا آخر، وزالت عنها الفكرة الثابتة والشعور بالاثم فى علاقتها الجنسية مع زوجها . فأصبح الزوجان عاشقين من جديد . ولم تتطلب حالة المريضة تحليلا لا نهاية له ، ولا تنقيبا عن علاقتها بوالديها فى طفولتها . لم يكن هناك داع لشىء من هذا . كل ماحدث ان الدواء أنقذها من نوبات التعب العصبى الذى كان يصيبها ، والعلاج النفسانى ساعدها على تفهم أحاسيسها . وبذلك ذاب الخوف والشعور بالاثم كما تذوب الثلوج أمام أشعة الشمس الحارة . أما ماحدث بعد ذلك فمن فعل الطبيعة ، والطبيعة خير طبيب معالج

العنـة . . .

انحياة الرجل الجنسية لايأفل نجمها أبدا .. فالكثير من الرجال فى سن السبعين يبلغ فى حياته الجنسية من النشاط والصحة والقوة درجة يحسده عليها رجل فى الخامسة والثلاثين . كما أن هناك الكثير من الرجال فى مقتبل العمر وفى عنفوان الصحة البدنية ، من فقد قوته الجنسية وأصبح عنينا بكل معانى الكلمة . والأطبـاء يعرفون هذا كل المعرفة . ولعل نسبة كبيرة من هؤلاء من ذوى المهن الشريفة الكبرى . وكأن الحضارة أرادت لهم أن يدفعوا ثمنا باهظا لمـا حازوه من النجاح المهنى والمال . وسبب اصابة هؤلاء بالعنة ، استنفاد الطاقة فى جهازهم العصبى . وكان العامل الأكبر فى هذا ، سرعة الحركة فى الحياة الحديثة ، وشدة التنافس ، والاجهاد المتواصل فى تصريف الأعمـال المتراكمة ، والمسئوليات المالية وما يترتب عليها من هم وقلق

انأعظم منافس للزوجة، ليست الفتاة الشقراء التى تعمل فى مكتب زوجها ، وانما ذلك المنافس العنيد ، قوى الشكيمة ، هو عمله ، مهنته ، وظيفته

وكثيرا ما يكون البول السكرى والبدانة من أسباب العنة . كذلك قد يكون من أسبابها مقاطعة الرجل للحياة الجنسية زمنا طويلا. بيد ان أهم أسباب هذا الداء ، انهاك القوى بسبب الاجهاد فى العمل ، والقلق والهم ، وتوتر الأعصاب والخوف . وهذه الأسباب لا تفرق بين الأعمار اذ ان الشيخ والشاب أمامها سيان

ومن المشاهد ان عددا من الرجال يصاب بالعنة فى مستهل الحياة الزوجية ، ولكن هذه الاصابة تكون عادة مؤقتة . ومن أسبابها عصبية المزاج والجبن والخجل ، عند الاتصال الجنسى. وهذه تزولعادة بالعلاج . ويقول دكتور تشارلس كلنتون فى كتابه « السلوك الجنسى فى الزواج » : « كم من رجل سليم البنية ، ممتلىء قوة ونشاطا ، كفء للقيام بواجباته الزوجية الجنسية ، يجد نفسه عاجزا «عنينا» بسبب انفعال ينتابه أثناء القيام بهذه الواجبات » . وهذا الانفعال يكون عادة الخوف الذى يرتبط فى ذهن صاحبه بالعملية الجنسية . وهذه العنة الوقتية ، نفسية لابدنية. . وهذا الخوف لايختلف عن غيره من الأنواع التى سبق ذكرها

وقد يكون الخوف خلال الاتصال الجنسي ، سببا فى عجز المرأة بلوغ النهاية Orgasm والواقع ان هذا كثير الوقوع بين النساء . ويستدل من السجلات الطبية ان نسبة ضئيلة من السيدات المتزوجات حديثا تبلغ هذه النهاية أو تعرف شيئا عنها فى شهر العسل ، أو حتى بعد ذلك بشهور . وينبغى أن نذكر ان العملية الجنسية

تستدعي فهما وخبرة وليست عملا يدرك بالفطرة والفريزة . كما ينبغي أن نذكر ان بلوغ المرأة هذه النهاية ليس مقياسا للسعادة الزوجية أوعدمها . انخوف المرأة او شدة حيائها من هذه العملية ، يمكن التغلب عليهما تدريجا ، اذا ما التزم الزوج الرقة واللطف وحسن السياسة مع الزوجة ، أو اذا استدعى الحال ، عرضها على الطبيب لعلاج الجهاز العصبي بالطريقة التي وصفت. وأهم ما ينبغي للزوج مراعاته ، ألا يشكو من خجل الزوجة أو خوفها في مثل هذه الظروف ، وألا يدخل في ذهنها انها عاجزة عن بلوغ النهاية . فهناك عدد لايستهان به من النساء اللاتي عشن طول العمر مع أزواجهن ، بغير أن تتم معهن العملية الجنسية مرة واحدة ، ومع ذلك كانت حياتهم الزوجية سعيدة . ان هذه الفكرة ككل فكرة أخرى ثابتة، منشؤها الخوف بسبب التعب العصبي

ان الرجل ــ أو المرأة ــ الذي يشكو من ضعف الأعصاب، والخجل ، ويشعر بعدم الطمأنينة ، ويركز فكره على الدوام في ذاته ــ لايمكن أن يشفى من هذه الاضطرابات النفسية بالاتصال الجنسي ، والانغماس فيه . لقد شهدت عددا كبيرا من المرضى الذين قضوا سنوات عولجوا فيها بالتحليل النفساني ، وقد نصح لهم اما أن يتزوجوا ، واما أن يتخذوا لهم خليلة ، واما أن يعاشروا امرأة غير الزوجة ، اذا كانوا متزوجين . وقد بررت لهم هذه النصيحة بأن اشباع الرغبات والميول الجنسية والانغماس فيها ، يريح المريض من متاعبه النفسية ، ويزيح عن أعصابه التوتر

وقد اتبع بعض المرضى هذه النصيحة بحذافيرها ، ولكن واحداً منهم ــ أو واحدة ــ لم يشف من مزاجه

العصبى أو خوفه . أما النصف الآخر الذى لم يؤمن بهذا النوع من العلاج ، فقد صفعته هذه النصيحة ، واحتج ثائرا على مجرد التوصية بها

ان العلاقات الجنسية ، سواء أكانت بواسطة الزواج ، أم خارجة عنه ، لا تشفى مريضا من الخوف أو الانهيار العصبى ، ولم يحدث فعلا انها كانت سببا فى شفاء مريض

كذلك تنصح المراة فى كثير من الأحوال أن تحمل حتى تشفى من مرضها النفسى .. ان مثل هذه النصيحة جريمة تستوجب العقوبة. ان الحمل والولادة بطبيعتهما تستنزفان الطاقة العصبية ، وبذلك تزداد الطينة بلة . يضاف الى ذلك ان المرأة المصابة بمرض عقلى ، ليست كفؤا أن تكون أما ، لأن معنى هذا ان الطفل يصبح فريسة لعصاب أمه منذ أن يكون جنينا فى الرحم

وبهذه المناسبة نترك مريضة تقص علينا حالتها :

« مضى الآن على أربع سنوات وأنا أعانى مرضا نفسيا . أشكو بغير انقطاع من ضعف فى المعدة والساقين ، وأتألم من توالى نوبات الاسهال . كنت أخاف أن أخرج بمفردى ، أو أسير بضعة أقدام بغير أن يرافقنى أحد . وكنت أشعر فى كل حين تقريبا اننى فى حاجة الى الذهاب الى المرحاض. وقبل أن يولد طفلى البكر ، كنت كلما قرأت خبرا فى الصحف أو سمعته ، يخيل لى انه خاص بى ، أو اننى التى فعلت ذلك الشيء . وقد استشرت عدة أطباء فى نيويورك وفى الضاحية التى نسكنها ، بلاجدوى. وكنت أتشاجر مع زوجى كل الوقت. وكان يتفوه بأقوال تمس كرامة أهلى ، وكنت لا أرد عليه كثيرا ، غير اننى كنت أشعر بالامتعاض والهزيمة

« وأشار على الطبيب ذات يوم أن اترك زوجى وابنى وأرحل الى مكان ما بعيدا عنهما ، طلبا للراحة . ونصح لى أن أستشير الطبيب «س» مدير مستشفى الأمراض العقلية فى ذلك المكان . ولما زرته رجوته أن يدخلنى المستشفى للعلاج . وكان يشغل بالى فى ذلك الحين بنت صغيرة كانت تلعب مع ابنى . فقد كانت هناك فكرة تساورنى بخصوصها ، غاية فى الغرابة والابهام . فقد كان يبدو لى اننى أريد اما ان أحبها أو أؤذيها . اما من حيث الدكتور «س» فقد أخبرنى اننى لست فى حاجة الى العلاج الذى يتبع فى مستشفاه . ولكنى توسلت اليه ورجوته بالحاح فقبل ادخالى وعلاجى مدة أربعة أسابيع تحت التجربة . وبعد أن أدخلت ابنى مدرسة حضانة داخلية ، دخلت المستشفى . وفى طريقى الى هناك ، كان زوجى يسب ويلعن ، ويرغى ويزبد ، ولكنى لم أعبأ به . وكنت أقول لنفسى اننى سأعود الى حالتى الصحية الأولى وأكون أما مثالية لابنى

« وكان يخيفنى فى المستشفى النوافذ المغطاة بالأسلاك الحديدية ، والأبواب المغلقة بالمفاتيح ، غير ان الممرضة افهمتنى ان هذه الاحتياطات لم تتخذ الا لصالح المرضى الذين تتطلب حالاتهم تقييد حريتهم . وكنت أحيانا أسمع المرضى يصرخون بأعلى أصـــواتهم فى الطابق السادس فكنت أخاف منهم ، وكنت أشعر أحيانا اننى اريد أن أصرخ مثلهم . كذلك كنت أحس برغبة شديدة فى داخلى تدفعنى الى طعن أحد الناس بعصا «بلياردو» ولما سألت الطبيبة عن سبب ذلك ، قالت اننى أحس بهذا لأننى مذنبة . ولما سألتها عن نوع الذنب ، قالت اننى أدرى به . وكنت لا آتمن نفسى على وضع كرة فى يدى ،

خشية أن اوذى أحدا . غير ان هذا الشعور كان يزول عنى ليلا عندما كان ينتابنى كابوس يشتد فيه صراخى . وكنت اذا استيقظت بعد ذلك استأنفت الصراخ بأعلى صوت ممكن . ولما سألت الطبيبة فى ذلك نظرت الى نظرة مضحكة ، فأحسست اننى مذنبة

« وبعد أن مكثت فى المستشفى شهرين ، اتضح لى اننى حبلى . وأدركت حينئذ ان الحمل بدأ عندما كنت فى رحلة مع زوجى فى عطلة آخر الأسبوع ، ولما ابلغت الأطباء بذلك ، قالوا : افعلى ما تشائين . وأبقونى فى المستشفى الى أن أيقنوا اننى حبلى حقيقة ... حينئذ نصحوا لى أن أعود الى زوجى أو أهلى. فاخترت العودة الى زوجى وابنى. وقد سئلت مرة اذا كنت أريد الطلاق، فقلت اننى أوثر الموت على أن أضع ابنى فى موقف كهذا. ولما علم زوجى بأننى حبلى ، تبدل حاله نوعا ما ، لأنه يعلم ان ولادتى الأولى كانت عسيرة جدا . فأخذنى الى بيت فيه غرف معدة للايجار للبقاء هناك. وكنت لا أقوم بأى عمل فى ذلك البيت . على اننى كنت أشعر برغبة مريعة تدفعنى الى طعن نفسى بسكينة كنت أراها دائما فى المطبخ . وكنت أرى ابنى من حين الى حين ، ولكنى كنت حزينة ، منهارة الأعصاب . وكنت اخاف من أن أكون قد ارتكبت أمرا مع ابن صاحبة البيت . وكثيرا ما كانت تساورنى أفكار غريبة كهذه . كذلك كنت أشعر بأحاسيس غريبة جدا عقب خروجى من المستشفى . ولا يمكن أن يتصور انسان كيف يشعر المريض بعد أن يكون فى حجرة مغلقة طول الوقت ثم يخرج الى عالم الحرية . ولا يمكن أن أعبر عن هذا تعبيرا صحيحا. كل ما أستطيع أن أقوله ان المريض فى ذلك المستشفى يخيل

اليه أنه ليس بشرا . وليس كسائر بنى الانسان

« ولما عدت الى البيت ، استدعيت خادمتى القديمة لاستئناف العمل معنا . والتزمت السكون والراحة ، متبعة نصائح الطبيب الاخصائى فى الولاده . وكنت أقضى أطول ساعات ممكنة فى الشمس . وأحضرت ابني من الحضانة . وكان زوجي يحسن معاملتى ، وبدأت أشعر بتحسن فى قوتى . وكان الطبيب قد نصح لى أن أستريح ولا أجهد نفسي فى شيء . ولكنى بدأت بعد ذلك أتريض بالمشي قليلا عدة أقدام. ثم أخذت أتمشى فى الخلاء برفقة ابنى الفينة بعد الفينة ، بعد أن كنت لا أستطيع أن أمشى خطوات بمفردي . كنت أشتري حاجاتى بالتليفون لأننى كنت أخشى الخروج ، رغم قرب المحال التجارية من البيت وكنت اذا أردت من الخياط شيئا ــ وهو على بعد خطوات من المنزل ــ كانت فرائصى ترتعد ، وكنت أسارع مهرولة الى البيت خوفا من أن أعجز عن العودة قبل الوقت الملائم

« وأخيرا تم الوضع بسلام . وكنت أنام نوما هادئا عميقا معظم الوقت . غير ان خوفى القديم ، من أن أصيب الطفل بأذى ، كان يعاودنى . كذلك الشعور بالاثم ، وقد اضطر زوجي ذات ليلة أن يستدعى الممرضة من المستشفى لتهدئتى . وكنت أخاف أن يسقط الطفل من يدى فيصاب بحادث . وكنت أخاف أن تكتم أنفاس الطفل أثناء الليل . وبدأت أشعر بألم فى ساقى . ثم انتقلنا الى بيت آخر. وقد كثر انتقالنا بالرغم من ان هذا لم يكن فى صالح العمل الذى يرتزق منه زوجى . وقبل أن يبلغ ابنى الثانى الشهر السابع من عمره حملت مرة أخرى »

وفى خلال الحمل كانت صحة المريضة حسنة . وكانت الولادة سهلة . ولكن حدث بعد ولادة طفلها الثالث أن مات شقيقها ، فعادت اليها المخاوف القديمة ، وعدم الوثوق فى نفسها ، وشعور عنيف بالاثم . ولندعها الآن تستأنف قصتها :

« وأصبح الآن من العسير على زوجى أن يعيش معى. وحتى الاتصال الجنسى كنت أعده اثما لا يغتفر ، لأن شقيقى قد حرم حقه من الحياة . ومنذ ذلك الحين أصبحت الحياة الجنسية عندى حراما محرما . وقد زاد على مرضى شىء آخر وهو رغبتى فى عمل الأشياء مرارا وتكرارا . وأصبحت أرثى لحال كل شخص وكل شىء . وكنت لا أطيق أن أفرط فى شىء مما عندى حتى الخرقة القديمة الممزقة ، لأننى كنت أشفق عليها ، وأخاف ألا يعاملها الغير بالحسنى . وبلغ منى الأمر اننى كنت أشفق على الفضلات والمهملات فى صندوق « الزبالة » . وقد تكون لدى شعور غريب كان يدفعنى الى قراءة الوفيات فى الصحف . فاذا كنت مشغولة عند وصول الجرائد ، كنت أحتفظ بها لقراءتها بعد فراغى من العمل

« وبعد موت أخى مباشرة ، بدأت أشعر برغبتى فى أن يموت الناس جميعا حتى يتألم ذووهم كما كنت أنا وأمى نتألم

« وكنت كلما شعرت بدافع يضطرنى لعمل شىء ، كان يخيل الى أن روح شقيقى متغلغلة فى ، تدفعنى لعمل ذلك الشىء . وكنت اذا وضعت يدى على شىء ، أحس بدافع يضطرنى الى أخذه . مثال ذلك اننى اذا أردت شراء سلعة ، ثم أعدتها الى مكانها لتفضيل سلعة أخرى

عليها ، اضطر لشراء الاثنتين ، بالرغم من عدم حاجتى للسلعة الأولى . ووضعت لنفسى قانونا لا أحيد عنه ، وهو أن أعمل الشيء مرتين ، زعما منى ان هذا اسرع فى انجاز عملى . وقد شمل هذا كل شيء .. الاستحمام ، وتنظيف الأوانى ، وطهى الطعام ، وتخطى عتبة كل حجرة أدخلها ، وحياكة الثياب ، وحتى تقبيل زوجى أو الأطفال

« وكان طبيعيا ، كما يتبين مما سبق ، أن أكون متعبة ، مشمئزة من نفسى ومما وصلت اليه حالتى . كنت أخشى أن أسبب ضررا لأى شيء . فاذا أردت أخذ شيء من الثلاجة الكهربائية ، وكان هذا الشيء فى المؤخرة كنت أضطر الى رفع كل شيء أمامه حتى لا تكون هناك فرصة لايذائه . واذا سمعت بموت أحد ، ساورنى الخوف ، وشعرت ان من واجبى عمل شيء ، كأن أشبك قدمى الواحدة بالأخرى مرات عديدة . وكنت أتصور ان الأشياء الجامدة ، تدب فيها الحياة . لذلك امتنعت عن حياكة الثياب ، لاشفاقى على الخيط داخل القماش، وخفت أن أتتبع الرسم أو النموذج عليه خشية أن تؤلمه الابرة

« ولما كنت شديدة الرغبة فى نيل الشهادة الثانوية ، فقد تقدمت للامتحان ونجحت وكانت درجاتى فوق المتوسط ، ونلت الدبلوم . كنت أخاف لأننى لم أتثقف التثقيف الكامل كبقية الناس . ولما جلست فى حجرة الامتحان ، شعرت بالخوف . وقلت لنفسى : ما شأنى والامتحان وقد مات أخى قبل أن ينال الدبلوم ؟ وقلت هذا لأطفالى فشجعونى على ارتداء ملابسى والذهاب للامتحان ، فذهبت مبررة ذهابى ، بأن الدبلوم الذى سأناله سيكون لى ولأخى . وكثيرا ما خطر ببالى أن

أضع اسمه بجانب أسمى . وكثيرا ما نصح لى أن أحمل مره أخرى ، ولكنى خشيت الحمل . فهل تظن اننى أتحسن اذا أقدمت على ذلك ؟ »

كانت هذه المريضة تشكو من هذه المخاوف وتلك الأعمال التكرارية التسلطية عندما جاءت لاستشارتى . وهى نتيجة مرض دام أكثر من ١٥ سنة ، وتعب عصبى فضلا عن ان الأطباء الذين لجأت اليهم لم يحاولوا أن يفهموا حالتها أوأن يعالجوها العلاج الذى يتطلبه المرض. وكانت حياتها مع زوجها سببا فى شقائها . لم يذق الزوج المسكين طعم الحياة الزوجية السعيدة يوما واحدا ، ولم يجد الأطفال البيئة الصالحة التى فيها ينمون ويترعرعون، ولا يسع المرء الا أن يبدى رأيه فى أطباء ذلك المستشفى الكبير الذى توافرت فيه كل وسائل العلاج ، وينحى عليهم باللائمة لعدم اتصالهم بزوج المريضة، وايقافه على خطورة حالتها — وهو رجل ذكى مثقف من ذوى المهن الكبرى — لاسيما فيما يتعلق بالحمل بالمولود الثانى ، الذى كانت صحتها البدنية والعقلية لا تساعدها عليه

فلو أن تشخيص مرضها عند دخولها مستشفى الأمراض العقلية كان صحيحا ، وعولجت علاجا يرفع من طاقتها العصبية ويزيل عنها شبح الخوف الذى انتابها عقب ولادتها الأولى العسيرة، لما وقعت فريسة للمخاوف الأخرى التى ابتليت بها أثر وفاة أخيها ، ولما نسج العنكبوت حولها نسيج الأعمال التسلطية التى كادت تكتم أنفاسها وتشل حركتها

أثر التربية الجنسية ...

تكلمنا فى فصل سابق عن الميول الجنسية الشاذة التى

تنشأ عن نموالصبى فى بيئة نسائية ، وكيف أن دوام مرافقته لأمه ، دون أبيه ، ونقربه منها ، تقتل فيه رغبة حب الاسنطلاع فيما يختص بجسم الجنس الآخر ومايحوط به من غموض ، وتدفعه الى التطلع الى غيره من الذكور

والصبى الذى يلقنه ذووه منذ صغره ان الميول الجنسية مصدر الشر والرذيلة وانها من أحط الطبائع الانسانية ، قلما يشب رجلا سويا ، كفؤا للزواج والانسجام مع شريكة حياته . ومثل هذا النوع من التربية الجنسية لايكون أثره على البنت بأفضل من أثره على الصبى . فلا هذا ولا تلك يجد الزواج أمرا ميسورا . ان الرجل الذى ينشأ فى البيئة التى وصفنا ، تثبت فى ذهنه تلك الفكرة الخاطئة عن الميل الجنسى ، فلا يمكن أن يستمتع بالحياة الجنسية مع زوجة ، مهما بلغت درجة حبه واحترامه لها . وقد يشعر — كما يحدث كثيرا — ان فى اتصاله الجنسى بها تحقيرا لها . ويدفعه هذا الشعور الى الالتجاء الى البغايا ، لأن البغى ومن فى طبقتها هى المرأة الوحيدة التى يستطيع الاتصال بها بغير أن يستولى عليه الخجل والاستحياء ، وبغير أن يؤلمه ضميره . ومثل هذه الأفكار الثابتة التى تعلق بأذهان بعض الذكور بشأن الميل الجنسى ، تتطلب علاجا اسوة بالوساوس وأنواع العصاب التسلطى التى تحدثنا عنها

واللواط (١) يمكن أن يكون أيضا وسواسا ويستجيب للعلاج كغيره من انواع الوسواس . وقد سألت مرة مريضا

---

(١) المترجم — يقصد بهذه العبارة في المصطلحات العلمية ميل الذكور للذكور ، سواء أكان ذلك الميل ينتهى باتصال جنسى فقط . أم مجرد اشباع رغبة جنسية بالنظر أو المصادفة ألخ ويقابل ذلك فى الاناث « السحاق » .

جاء يطلب العلاج للتخلص من هذا الداء ، كيف بدأ وما الظروف التى دفعت به الى هذا المسلك فكان جوابه ان السبب اقتصادى محض ولاعلاقة له بأى شيء آخر. لم يكن أهله من ذوى اليسار. حقيقة انهم أتاحوا له فرصة الالتحاق بجامعة هارفارد ، ولكنهم لم يستطيعوا تزويده بالمال اللازم لنفقاته الخاصة اثناء حياته الجامعية . وبين لى كيف ان الحياة الاجتماعية السليمة مع أفراد الجنس اللطيف تكلف نفقات باهظة لاسبيل الى تحملها.. فدعوة زميلة لاصطحابها الى دارالتمثيل وتناول العشاء وقضاء السهرة ، تتطلب مالا. هذا الىأن الفتاة تنتظر عادة باقة من الزهور ومكانا محترما فى الحفلات ، والعودة فى نهايتها فى سيارة أجرة . ولما كان هذا مستحيلا لضيق ذات يده ، كان لابد له أن يكتفى بقضاء السهرة فى احدى دور السينما أوالتمثيل والعشاء وما الى ذلك مع صديق ، فيدفع كل منهما حسابه ، وهذا لايكلف كثيرا . لذلك كان يبحث عن زميل مثله لا يهمه صحبة الفتيات . وهنا أضاف على ذلك قوله : « هذا مادفعنى أن أكون هكذا »

وبهذه المناسبة نذكر شيئا عن العادة السرية من الاحصاءات التى جمعتها عن مرضاى . ان ٧٥ ٪ منهم على الأقل مارسوا هذه العادة يوما ما . والكثير منهم رجال مثقفون ونساء مثقفات ، لايزالون يمارسونها . وتدل سيرة حياة عدد يذكرمنهم، أن هذه العادة تشعرهم بالاثم وبأنهم يرتكبون خطيئة تؤنبهم عليها ضمائرهم

ومن عادتى ان أصرح لمرضاى انها عادة ذميمة وينبغى الكف عنها ، الا انها خالية من كل خطر ولا تسبب لمن يمارسها جنونا كما يعتقد الكثيرون . وفى الحالات التى تكون فيها هذه العادة عصابا تسلطيا تكراريا ، ينبغى

علاجها كما يعالج كل عصاب تسلطى آخر

ولعل أخطر ما فى العـادة السرية خوف صاحبها ، وشعوره بالاثم والخجل . وهـــذا الخوف والشعور بارتكاب الاثم يترك فى نفس صاحبهما أثرا أبعد غورا من العادة ذاتها

الفصل العاشر :

إدمـــان الخـــمر

ان علاج مشكلة الادمان منذ عهد أفلاطون الى يومنا هذا ، لم يكن على اساس سليم ، فقد كان المدمن مدى الأجيـال ينظر اليه كما ينظر الى المنبودين والانجاس وذوى السلالات المنحطة والمصابين بداء البرص ، وكان على مدى القرون يعامل كان اقلاعه عن الادمان موقوف على قوة ارادية كامنة فى نفسـه . وطالما كان هدفا لتقريع الغيورين على الدين وتهديداتهم ، وعـلاج الدجـالين والمشعوذين من أركان الدنيا الأربعـة ، وطالمـا حاولوا شفاءه بكافة أنواع العقاقير قديمها وحديثها . وقد مات الملايين من أمثاله ، ولم تبـذل جهود تذكر فى دراسـة أسباب هذا الداء والوسائل التى تؤدى الى شفائه

ويمكن أن يقال بوجه عام ان مهنة الطب فى جميع أنحاء العالم لا تقل جهلا بحقيقة الادمان وأسبابه ووسائل علاجه عن بقية الناس . واذا استثنينا النفر القليل من رجال الطب البارزين ، قلما نجد طبيبا يستطيع الاجابة علميا عن هذا السؤال وهو : هل الكحول منبه لشاربه أو مقبض؟ ومع ذلك فمن المستحيل أن نفهم جيدا الأسباب التى تحدو بالكثيرين من أذكى الرجال والنساء من جميع

الطبقات الاجتماعية، أن يعاقروا بنت الحان حتى الموت، ما لم نعرف معرفة علمية كيف تؤثر الخمر فى خلايا المخ

* * *

وعلى النقيض من الرأى بين عامة الناس ، فان الكحول مقبض لا منبه . أما ما يشعر به الشارب من زوال التوتر والتعب والانقباض ، فيعزى الى أثر الخمر فى الحيلولة بين مراكز معينة فى الدماغ وبين الملكة الواعية . وبشبه أثر الكحول فى خلايا المخ ، تعب الأعصاب فى الجهاز العصبى ، الذى سبق شرحه تفصيلا فى الفصل الرابع ، ويترتب عليه الانبساط والتهيج

ويعزى التنبيه الظاهرى هذا الى أثر الخمر التخديرى فى مراكز الدماغ العليا التى تسيطر على المراكز السفلى. ومتى واصل المدمن احتساء الخمر، ومر بمراحل السكر الأربع ، يصبح أثرها فى الجهاز العصبى الانقباض ، أو تعطيلا لهذه المراحل ، بنظام عكسى ، اى ابتداء من المرحلة الأخيرة الى الثالثة ، فالثانية فالأولى

ومن المعلوم ان أعلى رتبة بلغها المخ من مراتب التطور، توجد فى الجزء المسمى بالغشاء السحائى Cortex وان هذا أول أجزاء المخ تأثرا بالخمر . وكلما استزاد الشارب من الخمر ، تغلغل أثرها فى الأجزاء الداخلية . ومتى تأثرت هذه ضعفت ملكة الوعى عنده ، وضعفت معها القوة على ضبط النفس أو انتقاده لذاته . ويبدو هذا الضعف فى وعى المدمن : فى انفعالاته المتقدة ، وحديثه الثائر ، وعنفه ، ويدل عليه كذلك ارتعاش يديه ، والتعثر فى الكلام ، وسماجة حركاته اذا ما حاول أن يقوم بعمل يستدعى شيئا من المهارة

فاذا واصل الشرب بعد ذلك ، كثيرا مايرى الشيء

شيئين ، ويفقد فى حركاته قوة التنسيق ، ويجد صعوبة فى المشى والوقوف ، ويتأرجح فى وقفته بدلا من أن يكون منتصبا ، ويضطرب حديثه ويعوزه الانسجام . أما عن انفعالاته فاما أن يكون منبسطا رمشاغبا أو منقبضا فاقد العاطفة

وفى المرحلة الرابعة يفقد وعيه ، ويصاب بغيبوبة وتنفس مصحوب بالشخير . وقد تتأثر مراكز المخ ، لاسيما مراكز التنفس ، بدرجة انه فى نومه العميق قد يموت لعجزه عن التنفس

وهذا ما يحدث لكل انسان سليم البنية ، كامل القوى العقلية ، اذا ما تمادى فى الشرب حتى مر بمراحل السكر الأربع هذه

لماذا يدمنون ؟ ..

ألوف من الناس يشربون للتخلص مما يحسون به من توتر اجتماعى . انهم يشربون الخمر للتسلط على ما يشعرون به من خجل واستحياء ، ولتخفيف وطأة ما يؤلمهم من الوعى الذاتى ، وتأنيب الضمير . يشربون حتى يتحدثوا بطلاقة وبحرية . هؤلاء فى الواقع مصابون بعصاب الخوف ، ولكنهم ليسوا مدمنين بحال من الأحوال . ولأنهم عصابيون ينبغى علاجهم على هذا الأساس ، أى لشفائهم من عصاب الخوف ، ونزوعهم الى علاج أنفسهم باحتساء الخمر .. ان هؤلاء يتخذون الشرب عكازا يتوكأون عليه ليس الا ..

وهناك ملايين من الناس يشربون كأسا من الخمر احيانا . ومن الناس من يشربون كأسا أو كأسين ويقف عند هذا الحد . والبعض لايكتفى بذلك بل يشرب أربعا

أو خمسا أو أكثر بغير أن يبدو أى تغيير فى شخصيته. كل ما هنالك انهم يكونون أكثر حرية فى حديثهم وأشد مرحا ، ولكن لايظهر عليهم اى أثر آخر من آثارالسكر. قد يستيقظون فى اليوم التالى ، شاعرين بشيء من التوعك ، ولكنهم سرعان ما يتخلصون من ذلك الشعور، ويستأنفون أعمالهم ، وقد أصبحت حفلة الليلة السابقة نسيا منسيا ، ومعنى هذا ان الخمر لا سلطة عليهم بتاتا ، وان لهم القوة التى تمكنهم من الكف عن شربها

وهذا بخلاف المدمن ، فان هذه القوة تنقص ، فمتى احتسى الكأس الأولى تغيرت شخصيته . ومتى احتسى الثانية ، كان شخصا آخر كلية . وسبب ذلك ان غشاء المخ بطبعته يهيىء الشارب للتأثر بالخمر . وتختلف كميات الخمر التى تهيىء صاحبها لهذا التأثر باختلاف الأفراد

ويجدر بنا أن ندرك أن ادمان الخمر لا علاقة له بالخلق أو قوة الارادة . المدمن مريض ، مصاب بداء فى كيمياء المخ ، يمكن تشخيصه كيميائيا تشخيصا دقيقا ، ومعالجته ، وهو قابل للشفاء

وقد ابتكر بعضهم من وسائل العلاج بدعا من شتى الألوان . فمن علاج دينى ، الى علاج تحليلى الى علاج « غرامى » . واذا نحن تأملنا جيدا فى هذه الأنواع العلاجية ، تبين لنا ان المريض فيها يحاول أن يستبدل مخدر الخمر بمخدر العاطفة ، وسرعان ما يعود مرة أخرى الى المخدر الأول . فكم شهدنا من مدمن أقسم بأغلظ الايمان لصديقته قبل الخطوبة ، انه لن يذوق المسكر، اذا ما قبلت يده للزواج ، فما كادت مراسم الزواج تتم حتى حنث بعهده ورجع الى الادمان كما كان.

ان المسألة ، مسألة كيمياء المخ . وليس ثمة علاج من البدع الموصى بها ، يستطيع أن يخفف من ضغط السائل الداخلى فى الجمجمة ، أو يغير من كيمياء المخ شيئا . ان العلة كامنة فى خلايا الدماغ ، وما لم تعالج على هذا الأساس ، فلن يجد المريض قوة ارادية فى داخله ، لمنع تعطشه للخمر

الاستجابة للادمان ...

من طبيعة بعض الأفراد أن يستجيبوا للادمان كما يستجيبون للمرض اذا أكلوا أو شربوا شيئا معينا . ويمكن تشبيه الاستجابة للخمر، بالاستجابة لطلع النخيل ففى حمى الخريف Hayfevet يفرز الأنف «الحساس» السائل المخاطى بعد العطس . غير ان تجويف الأنف مفتوح ، ولذا يجد السائل منفذا للخروج . أما المخ فتجويف مغلق ، وفى حالة الشخص الذى يستجيب للخمر، تتهيج قشرة الدماغ ، « فتعطس » كما تعطس الأنف ، ولكن ، داخل ذلك التجويف المغلق ، فلا تجد منفذا للخروج . وينتج عن ذلك ورم المخ Edema . وحسب المدمن أن يشرب كأسا واحدة حتى يحدث ذلك الأثر، ويصبح عديم الحيلة ، لا حول له ولا قوة على الكف عن الشرب . لقد تخدر بطبيعته من جراء تلك الكمية الوافرة من السائل . حسبه أن يشرب الكأس الأولى حتى يصبح ثملا ، فينسى معانى الرزانة والتعقل، ويموت الضمير ، فلا يعود يشعر بوخزه . أما الرجل الذى لا تستجيب طبيعته للادمان ، فلا يحدث له ذلك ، مهما أحتسى من الخمر ، الا أثرا خفيفا لا يغير من شخصيته .. وهذا هو التفسير العلمى للادمان

الدماغ يبكى (١) ...

وكلما زاد ورم المخ ، تفككت شخصية المدمن بنسبة هذه الزيادة ، ومالت الى الانحلال الخلقي . فبعد أن كان قبل الادمان صريحا ، يصبح ماكرا ، يبطن غير ما يظهر ، وبعد أن كان أمينا صادقا ، يصبح خائنا كاذبا .. يهرب من المسئولية ، يزور الشيكات ، ويبذر في أمواله وتصبح حياته الجنسية فسقا واستهتارا . وبالايجاز يصبح «دكتورجيكل ومستر هايد» . ومما تنبغي معرفته أن هذه الأعراض وما ينتج عنها من تغيير في المخ ، تستمر ، ولو كف المدمن عن شرب الخمر سنوات

واذا قسنا ضغط ذلك السائل في مخ المدمن ، بعد أن امتنع عن الشراب أعواما ، نجد انه يزيد عن مثله في مخ الرجل العادى بمقدار ١٠ أو ١٥ ضعفا أو أكثر ، كذلك اذا فحصنا السائل في النخاع الشوكى للمدمن ، وجدنا زيادة كبيرة في كمية الكريات الدموية والزلال ، مما ينتج عنه أثر « بروتيني » رجعى ، ولا سبيل الى ضمان شفاء المدمن شفاء تاما وعدم عودته للشرب ، ما لم يعالج بتخفيف الضغط داخل المخ ، واعادة كيمياء السائل في النخاع الشوكى الى حالته الطبيعية

بذل السلسلة الفقرية ...

أما علاج الادمان فيتم ببذل السلسلة الفقرية ، وتكرار هذه العملية مع تناول المدمن أدوية طبية معينة . وفى كل مرة يتم فيها بذل السلسلة الفقرية ، تؤخذ كمية من

(١) المترجم - استعملنا هذا التعبير حرفيا كما استعمله المؤلف ، لانه عظيم الدلالة فى تشبيه كثرة الافراز داخل الدماغ بالبكاء ، وتشبيه السائل بالدموع فى حالة الادمان .

السائل وتفحص جيدا لتعيين مقدار التغيير الذى حدث فى كيميائه . وكذلك يقاس الضغط داخل الجمجمة فى كل مرة بواسطة « الجهاز الزئبقى » Manometer . وبهذه العملية ، أى بتفريغ السائل فى كل مرة تبذل فيها السلسلة الفقرية ، يقل الضغط على المخ الى ان يبلغ المعدل الطبيعى . وتهدأ خلايا المخ بعد شدة تهيجها . وتقف افرازاتها « الشاذة » عند حدها . وبهذا العلاج تشفى الخلايا العصبية وتعود الى حياتها الطبيعية .. وهو علاج سهل لا يتأتى عنه أى ضرر

ومما يدعو للاعجاب فى هذه الوسيلة ان المدمن يمكنه أن يعالج فى عيادة الطبيب . كل ما فى الأمر أن المريض يجب أن يستريح فى العيادة بعد كل مرة تبذل فيها السلسلة ، ثم يعود الى بيته ، وليس دخول المستشفى أمرا لازما ، الا فى الحالات الاستثنائية العسيرة . ويشعر المدمن عادة بعد عملية البذل الأولى بعدم رغبته فى الشرب أو تعطشه الخمر كعادته . وبمواصلة العلاج ، تزول تهيجات الخلايا المخية ، ويصل الضغط الى المعدل ، ويعود كل من الزلال والكريات الدموية والسكر الى حالته الطبيعية .. فلا يعود المدمن بعد ذلك الى طلب الشراب

ويكفى لعلاج المدمن الى أن يتم شفاؤه ، تكرار عملية البذل ست مرات فى بحر عشرة أيام . ومما يدعو للدهشة ان المريض بهذا العلاج يبدأ تفكيره يعود الى ما كان عليه قبل الادمان ؛ كما تعود شخصيته الى سلامتها . فيكف عن الكلام البذىء ، وعن الدهاء والمكر ، ويفكر تفكيرا واضحا معقولا ، ويشعر بتحسن فى صحته بوجه عام ، ويصبح أهلا للاعتماد عليه فى القول والعمل ، ولا يضيره أن يصحب أصدقاءه الى المطاعم والحانات التى تقدم

فيها الخمر ، لأن نفسه لا تعود تسول له أن يتعاطاها ، أو تتوق اليها ..

على ان الكثير من الأطباء يقولون لمرضاهم من المدمنين انهم لايوصون ببذل السلسلة الفقرية ، بدعوى انها عملية خطيرة . وانني أتفق مع هؤلاء الأطباء .. انها عمليـة دقيقة حقا ، وهي خطيرة في الأيدي الجاهلة ، ولكنها في يد الطبيب الماهر لاخوف من المريض عليها بتاتا . وهي عملية لا تحتاج الى تخدير ، اذ ان المريض لا يحس في خلالها الا بوخز الابرة عند اختراقها الجلد ، وما يشعر به من الارتياح التام بعدها مباشرة تقريبا ، مما يدعو للعجب . وقد كنت أول طبيب لجأ الى هذه العملية في علاج الادمان ، كما كنت أول من لجأ اليها فيما هو أشد خطرا من ذلك ، وهو جنون الهذيان Delirium Tremens انها العلاج العلمي الوحيد الذي عرفه الطب الى الآن

الفصل الحادى عشر :

عــــلاج الأطفــــال

فى خلال السنوات العشر الأولى من حياة الانسان ، تتكون شخصيته ، وتتأصل عاداته التى تحدد مقدار ما يصادفه فى المستقبل من فشل أو نجاح

لذلك درجت عند لقاء المريض لأول مرة أن أبحث عن تاريخه فى خلال تلك السنوات العشر .. هل كان صحيح البنية ، أم عرضة للأمراض ؟ هل كان يصـــاب مرارا بالزكام ، وأمراض الحنجرة ، وجيوب الأنف ، وغيرذلك من العلل والعمليات الجراحية ؟ هل له فى حياته حادث أوصدمة ، يحتمل أن تكون قد أضعفت قواه العصبية ؟ هل كان الخجل من صـــفاته ؟ وقد ســـبق ذكر الخجل تفصيلا فى فصول أخرى من هذا الـكتاب ، كعامل هام من العوامل التى تتسبب عنها الانهيار العصبى فى مراحل الحياة التالية للطفولة أو المراهقة

ومن الأسئلة الهامة التى أطلب الاجابة عنها ، اذا كان المريض فى طفولته قد شعر باهمال والديه فى العناية به ، أو انه عاش فى فقر وعوز. هل كان هناك اتفاق ووئام بين الوالدين ؟ هل كانت الحياة البيتية سعيدة وداعية للطمأنينة ؟ هل كانت الأم عصبية المزاج ، فعكرت صفو

من حولها بهذه العصبية ؟ هل كان أحد الوالدين سكيرا أو مدمنا ؟ هل كان هناك نزاع وخصام بينهما ؟ هل افترقا ؟

ان الأطفال الذين يتعرضون لبعض هذه الأحوال أو كلهـا ، يعيشـون فى حـاله من التوتر الذى يستنزف طاقتهم العصبيه فى سن مبكرة . فاذا كانوا قد ولدوا بجهاز عصبى ضعيف ، شـديد الحساسية ، فانهم لايمكنهم أن يتحملوا مثل هذه الظروف ، بغير أن يصابوا بمرض عقلى ، فاذا استنفدت طاقة الطفل العصبية ولم تعالج وتجدد قبل بلوغه سن المراهقة ، فانه لن يكون مزودا بما يتطلبه جسمه الآخذ فى النضوج وعقله الآخذ فى النمو ، من العدة الـكاملة ، وسبب ذلك ان التغيرات الخطيرة التى تحدثها الغدد الصماء فى الجسم والعقل فى مرحلة سن المراهقة ، تلقى على عاتق الجهاز العصبى مسئوليات جسيمة

وهذا هو السبب الفيزيولوجى ، الذى يعزى اليه الانهيار العصبى عند الأطفال فى سن المراهقة ، وظهور أعراض عصبية ، وعادات عدائية أو غير اجتماعية عليهم بغتة وبغير انذار. وقد يتمكن هؤلاء بشق الجهد من انهاء دراساتهم الثـانوية بغير أن تظهر عليهم أعراض المرض ، ولـكنهم سرعان ما تـكسر المرحلة الجامعيـة ظهورهم ، فيستسلمون لمرض من الأمراض العقلية

واننى الى هذه اللحظة لم أشهد فى حياتى المهنية ، مريضا واحدا مصابا بعلة عقلية قبل سن العشرين ، لم يكن فى تاريخ طفولته عامل أو أكثر ، أو كل العوامل سالفة الذكر . وليذكر القارىء اننى لا أتكلم عن ضعاف العقول ، فالطالب الجامعى الذى تبدو عليه اعـراض

الانقباض والوجوم والحزن ، لأن درجاته ضعيفة ، أو انه يحاول الانتحار لرسوبه فى الامتحان ، لابد انه كان فى مجال النورستانيا ، وكان يخاف من احاسيسه ، قبل دخوله ذلك الامتحان بزمن ، ونيله درجات ضعيفة او فشله فيه . ولم يكن ماحدث له وأثره فيه ، سوى العصا الأخيرة التى حاول أن يتوكأ عليها فهوت به الى مجال الملانخوليا ، وموجز القول ان مرضه كان قد بدأ قبل دخوله الجامعة بزمن طويل

كذلك الفتاة التى زفت الىالحياة الاجتماعية حديثا ، وبينما هىكالزهرة اليانعة ، اذا بها يذوى عودها وتنهار أعصابها فجأة بسبب فشلها فى الحب ، أو لانها لم تكن ذات حظوة عند الغير بالدرجة التى تتفق وجمالها ومنزلتها . مثل هذه الفتاة ، لابد انها كانت تشكو من أعراض الضعف العصبى فى طفولتها المبكرة أو على الأقل فى مرحلة المراهقة ، ولأن هذه الأعراض قد أغفل أمرها أو لم تشخص تشخيصا صحيحا ولم تعالج ، فلما أن بلغت السن التى فيها تثقل مطالب الحياة العقلية والوجدانية ، وتكثر مسئولياتها ، انهارت كما ينهار البناء أمام العاصفة !

الطفل السوى والطفل الشاذ (١) ...

ما الذى تجب معرفته عن الطفل من الصفات وأنواع السلوك ، التى يمكن أن نقول عنها انها سوية ، أوشاذة؟

(١) المترجم ـ يقصد بالشخص السوى Normal ، الذى يبلغ المعدل أو الدرجة من الصحة التى يكون عليها أكثر الناس ، والشاذ هو الذى يصاب بأمراض معينة تجعله بعيدا عن هذا المعدل . على أن المعروف انه لا يوجد شخص سوى ١٠٠٪ انها اذا مسألة نسبية ، وكل فرد مهما بلغت سلامته قد يكون فيه بعض الشذوذ من ناحية من النواحى .

هذا سؤال هام جدير بالاجابة عنه . ومما يدعو للتفاؤل فيما يتعلق بمستقبل الجنس البشرى ، انه لا توجد الان حالة شاذة غير قابله للشفاء ، اذا ما عولجت فى الوقت المناسب - يستثنى من ذلك ضعاف العقول الذين يولدون كذلك - مثال المعتوه Idiot والسفيه Imbecile

ومن الأخطار التى تترتب على جهل الوالدين والمعلمين والمربين من انصاف المتعلمين ، انهم كثيرا ما تختلط عليهم أعراض التعب العصبى فى الطفل - وهى أعراض عادية يتعرض لها الجميع - والسلوك الشاذ

واذا أحصينا الشواذ من الأطفال فى مجموعة من السكان ، اتضح لنا ان نسبتهم ضئيلة اذا قيست بالمجموع .. بيد أن هناك نسبة كبيرة من الأطفال ، مصابة بهبوط فى الطاقة العصبية الى درجة تجعلهم فى مجال النورستانيا . ومن أمثال هؤلاء : أولئك الذين يتهتهون ويتلعثمون فى كلامهم أو يخجلون فى مناسبات لا تدعو للخجل والاستحياء أو ذوو الحركات العصبية فى الوجه أو الأطراف الخ أو الذين لايتكلمون بعد بلوغ السن الملائمة ، رغم انهم يسمعون الكلام ويفهمونه أو الذين يبللون فراشهم أو الذين يحتدون غضبا لأتفه الأسباب ، كل هؤلاء فرائس ضعف الطاقة فى الجهاز العصبى . ولكن ليس معنى هذا أنهم أطفال شواذ . وليس من الحكمة ان نسم احد هؤلاء باسم « الطفل المشكل »

ان أعراض التعب فى الطفل لا تختلف عن مثلها عند الكبار الذين تهبط طاقتهم تحت درجة « الأمن » . والفرق الوحيد ان ضبط النفس عند الكبير ، أقوى منه عند الصغير ، أو يجب أن يكون كذلك . ففى وسع

الكبير أن يخفي شدة حساسيته وحدة غضبه وغيرته ، او انه يحاول تبريرها لنفسه ، بزعم انها دليل الذكاء الفطرى ، ورقة الشعور

أما الطفل ، فلما يعلمه الاختبار بعد أن يبرر سلوكه بهذه الكيفيه . لذلك يظهر مزاجه العصبى بكل صراحة. فاذا ما هبطت طـاقته وارهف حسه ، لجأ فورا الى شدة الغضب والانفجار. فيقذف بالدمى أو يأخـذ فى تكسيرها ، ويصرخ باعلى صوته ، ويتشاجرمع غيره من الأطفال . واذا شعربأحاسيسغامضة تنذره بخطر مزمع، أبى أن يلعب بمفرده أو ينفصل عن أمه لحظة .. يبكى اذا رأى فراشة فى غرفته ، ويرفض أن ينام ، يميل الى القلق وكثره الحركة ويرتاب فى كل غريب ويخشاه ، ويخشى الاماكن والاشـياء غير المألوفة عنده . يتعكر صفوه لاقل سبب ،ولذا قلما يهضم طعامه جيـدا ، وقد يرفض الاكل بتاتا . وهو عادة سهل الانفعال ، عاطفى .يضحك ضحكا هستيريا،ويبكىفىغايةمنالسهولة والعنف ، واذا لعب ، أمعن فى اللعب ، أو يأبى اللعب بتاتا . ولا يميل الى التعاون ، ولا يطيع الأوامر ، ولا يتفق فى سلوكه وتصرفاته والحياة البيتية التى اعتادها سائر أفراد الأسرة

وأكرر القول ان هؤلاء ليسوا شواذ .. انهم مرضى بالخوف بسبب ضعف الطاقةولا ينقصهم آلا العلاج . ومن عادتى أن أجيب عن اسئلة الوالدين الذين يطلبون الى أن انصح اليهم كيف يساعدون أطفالهم بقولى : « تعلموا كيف تكتشفون أعراض الضعف فى طـاقاتهم العصبية ، وانظروا اليها كنذير للخطر ، ثم اتخذوا الخطوات اللازمة لعلاجهم حتى لا تهبط الطاقة أكثر مما

هبطت ، وحتى لا تتكون فى نفوسهم المخاوف التى تؤدى الى هذه الأمراض »

مخاوف الأطفـال ...

كم منا يعرف كيف يتخذ الخطوات اللازمة لتقوية ملكة الملاحظة فى الأطفال ، وملكة الادراك ، وملكة تركيز الفكر ؟ وكم منا يعرف كيف يتخذ خطوات عملية فى التغلب على حدة التهيج ، وتوتر العضلات ، والتركز الذاتى ومايتأتى عنه من الاستبطان ـ أى التأمل والامعان فيما يجول بالخاطر؟ وكيف نصلح العادات الذميمة أو نضع لها حداً ؟ كيف نكف عن النزوع لأحلام اليقظة ، وما يصحبها من محاولة الهرب من الواقع والحقيقة ؟ كيف تتخذ الحيطة للتغلب على الخوف ، وتهيـــج الأعصـــاب ، والعادة السرية ، وغير ذلك من المسالك المعيبة التى يتعرض لها الأطفال عادة ؟

ان المخاوف التى تصيب الأطفال هى عين المخاوف التى تنشب أظافرها فى الكبار. وفى وسعى أن أريك مقابل كل طفل يخاف من الرعد أو البرق أو الكلاب أو الغريب أو الأماكن غير المألوفة ، رجلا يخاف من هذه الأشياء عينها .. فالطفل الذى يخاف أن يسير فى طريقه الى المدرسة وحده ، دون أن ترافقه أمه أو طفل آخر أكبر منه سنا ، لايختلف عن المرأة أو الرجل الذى يستولى عليه الفزع اذا عبر الشارع أو استعمل المصعد الكهربائى أو اضطر الى مقابلة غريب ، ومن الكبار من لايجرؤ على البقاء فى حجرة بمفرده ـ كما رأينا فى الحالات التى سردنا تواريخها ـ كالصغار الذين لايهدأ بالهم الا اذا كان معهم انسان . ومن مرضاى امرأة كانت تضطر زوجها أن يصحبها يوميا الى بيت والديها فى طريقه الى عمله ، ويتركها هناك ، ثم

يعود آخر النهار فيصـــــحبها معه الى بيتهما ، لأنها لا تستطيع البقاء وحدها .. واخرى تحتل منصبا هاما فى احدى دور المال ، ومع ذلك تخشى الذهاب الى عملها بمفردها ، وتخاف ركوب السيارات العامة واستعمال طرق المواصلات التى يستعملها الجمهور ، فاتفقت مع سائق سيارة أجرة تثق به أن يصحبها ذهابا وايابا الى مكتبها ومنه الى بيتها . ان هذه المخاوف وأمثالها كثيرة الانتشار ، وليست دليل الشذوذ فى الـــكبار ولا فى الصغار، انها دليل على هبوط الطاقة فى الجهاز العصبى، وتستجيب للعلاج بنجاح عند الكبار والصغار على السواء

والطفل الذى لايمكنه تسلية نفسه بنفسه ، أو الذى لا قدرة له على اللهو بالدمى وممارسة هوايات الأطفال ، أو الذى يجفل من صحبة غيره من الصغار، ولا يساهم فى اللعب معهم ــ هؤلاء جميعا يشكون من العلة التى يشكو منها الطفل المصاب بالمخاوف السابق ذكرها

ان شدة حساسيته تركز كل أفكاره فى نفسه ، فلا يستطيع الافلات من قبضتها الحديدية ، للاهتمام بشىء آخر ، كالمساهمة فى اللعب أو اللهو بالدمى ، أن بعض مرضاى من رجال ونساء كثيرا مايستعمل هذا التعبير فى وصف حالته بقوله : « أشعر انني ميت داخل نفسى » . ولو ان لغة الطفل المريض طوع أمره ، لاستعمل هذه الكلمات عينها وصفا لحالته . كم من الكبار من يخيل اليه انه ليس شخصا حقيقيا ، وانه سبب الأحاسيس التى تنفجر مندفعة فى جسمه ، يخيل اليه انه يسبح فى جو آخر بعيد عن سائر مخلوقات الله .. كذلك كثير من الأطفال

ان واجب كل اب وام ومربية ومعلمة أن تبحث فى

مثل هذه الحالات لا عن الشذوذ فى الطفل بل عن أعراض التعب العصبى حتى تبادر بعلاجه

ان الخوف فى الأطفال — كما فى الكبار — يبدأ باحساس فى الجسم . وينقض هذا الاحساس على صاحبه عادة ، بغتة ، وبعنف ، وبسرعةالبرق . أما اذا كان هذا الاحساس خفيف الوطأة ، فانه يسبب لصاحبه على الأقل ضيقا وعدم ارتياح ، ورغبة فى الخروج أو الحركة على غير هدى

ويخاف الطفل بالفطرة هذه الأحاسيس ، ويخشى عودتها ، ويتفادى الأوضاع والأشخاص الذين ارتبطت بهم فى ذهنه هذه الأحاسيس . وكلما استسلم لها قويت شوكتها . وما على المهيمنين على شئون الطفل سوى تفهيمه تدريجا أن هذه لا خطر عليه منها ، وتدريبه على العمل ضدها

وهناك طبيعة كامنة فى نفس كل انسان — كبيرا كان او صغيرا — وهى خوفه من الا يكون كسائر الناس ، وان يترتب على اختلافه عن الغير ، انه يكون اضحوكة امامهم أو أن يكون لافتا للأنظار . . ان هذا الخوف أشد فى الأطفال منه فى الكبار ، فكلما نضج الشخص عقليا واجتماعيا أعجب بالانفرادية — أى رغب فى أن تكون له شخصيته التى تميزه عن سواه . والكثير من الكبار لايبلغون مرحلة النضوج هذه بتاتا ، فيعيشون طيلة اعمارهم كالأطفال ، لايحسون بارتياح الا اذا شابهوا من حولهم ، منظرا ومسلكا وعيشة وعملا . وهذه الطبيعة فى الانسان ، يستغلها أصحاب الاعلانات الى أقصى حد ، لعلمهم ان نسبةكبيرة من الناس تتعطش الى اتباع التيار العام ، وارتداء الطابع أو النموذج الذى يرتديه الجمهور

.. يأكلون ما يأكلون ، ويلبسو ما يلبسون ، ويقتنون السيارات التى يقتنون

فليس غريبا أن يريد الطفل أن يكون واحدا من المجموع .. ان هذا فى الواقع ما ينتظر من كل طفل سوى . فاذا خاف أن يفعل شيئا يجعله فى وضع مخالف لغيره ممن حوله ، فينظرون اليه شزرا ، أو يبتعدون عنه ، أو يهزأون به ، أو يرفضون اللعب معه ، فانه يتألم ألما شديداً وهذا للأسف ما يشعر به الطفل الخجول على الدوام ، وما يتألم منه . وهذا هو السبب الذى لأجله تضعف أعصابه تدريجا ، ولا يكاد يبلغ مرحلة المراهقة أو ما بعدها حتى ينهار ويصاب بواحد أو أكثر من الأمراض العقلية المختلفة ..

الأطفال والأحاسيس المألوفة ...

الطفل أيا كانت سنه يشعر بالأحاسيس العنيفة التى تحدثنا عنها كما يشعر الكبار .. فمنذ الدقيقة التى يولد فيها ، يمتلىء ذهنه بمختلف الأحاسيس اللازمة للضوء ، والحرارة ، والبرودة ، والظلام ، والجوع ، أو العطش أو النعومة أو الخشونة أو السكوت ، أو الضوضاء . واثر هذه كلها فى مجموعه هو ما نسميه حياته كانسان أو بشر يحس بما يحدث حوله . وهذه الأحاسيس لا تهدأ لحظة أو تكف عن الظهور منذ ولادة الطفل الى ساعة الوفاة . وهى الطريق الوحيد للمعرفة ، بها يعرف كلما نضج وتعلم ، شيئا عن عظمة الأدب فى روايات شكسبير ، وفتنة الجمال فى فينوس ، وسحر الفتاة الشقراء التى يراها من حين الى حين فى فرقة المغنين ، وبها يعرف التقلبات الجوية ، واسعار البورصة ، وكيف أثرت الوجبة الأخيرة فى نظامه الهضمى . يبعث

بصره وسمعه وذوقه وسائرحواسه يوميا ملايين الرسائل الى مخه على جناح أعصابه . وبعض هـذه الرسـائل سار ، وبعضها يدعو للقلق ، وقد يكون شديد الخطورة أحيانا

غير ان عقل الطفل يعجز عن فهم كل هذه الرسائل التي تبعث بها حواسه ، الآخذة فى النضوج والتفتح .. ذلك لأن قياس الأحاسيس يتوقف على الخبرة ، وكميتها عند الطفل محدودة . ولكنه على كل حال ، بوصفه كائنا حيا ، يمكنه ان يميز بين ما ترتاح اليه نفسـه من هذه الأحاسيس وبين ما يضايقه منها . فاذا باغته احساس عنيف ، تألم له أو على الأقل لم ترتح نفسه اليه ، عبر عن ذلك بالبكاء . ولما كان قانون الترابط ، ينطبق على الطفل والوليد فى المهد انطباقه على الكبار ، فان الطفل سرعان ما يربط هذا الاحساس العنيف بالانتقال من النور الى الظلمة ، أو بتركه وحده ، أو بالضوضاء ، أو برائحة معينة أو مذاق معين . ومن هذه اللحظة التى يحدث فيها هذا الترابط ، يصبح الظلام ، والوحدة ، والضوضاء ، والرائحة او المذاق المعين — فى الطعام أو الدواء — سببا فى تـكرار ذلك الاحساس البغيض

عندما يطفأ النور مثلا ، يشعر الطفل بهذا الاحساس الذى ترتب على هذا التغيير المفاجىء فى الغرفة ، وعند وصول هذه الرسالة — الاحساس — الى المخ ، يدرك الطفل أن تغييرا قد حدث ، ولكنه لايدرك ما هو ولا يعرف عن الظلام شيئا لصغر سنه وقلة خبرته ، ولو أنه كان طفلا سليما ، أى ان أعصابه ليست متعبة ، لما شعر بهذه الأحاسيس ، لأن «السدود» التى تكلمنا عنها فى الفصل الرابع ، كانت تمنع تسربها الى وعيه

ولنفرض الآن ان طفلا كان متعبا بسبب العاب عنيفة هيجت أعصابه ، أوصدمة عاطفية قوية ، أو مرض ، أو اضطرابات انفعالية. فى هذه الحالة تكون الخلايا العصبية أشد حساسية منها فى الطفل السليم أضعافا مضاعفة. ويترتب على هذا ، ان هذه الأحاسيس المألوفة التى لايشعر بها الطفل السليم ، تتضخم وتشتد الى أن تكسر تلك السدود وتنفذ الى وعى الطفل « المتعب »

فاذا كان الطفل قد ولد ضعيف الجهاز العصبى — وكان طبيعيا سريع التأثر — فانه يشعر بهذه الأحاسيس العادية المألوفة ويتألم منها ، فى حين أن شقيقه الذى ولد قوى الجهاز العصبى ، لايشعر بها . وليس الأطفال — حتى الأشقاء — كلهم يولدون سواء . ومما تبغى معرفته ان سلامة الانسان وصحته تقاس فى كل لحظة من لحظات الحياة بقوة جهازه العصبى

والطفل الذى يجد نفسه فى حجرة مظلمة بعد أن كانت مضيئة ، تسرى فى جسمه هذه الأحاسيس الناتجة عن هذا الانتقال ، فيخاف .. لكنه لا يخاف من الظلام فى بادىء الأمر ، لأنه لا يعرف ما هو الظلام لصغر سنه حتى يخاف منه .. انما يخاف تلك الأحاسيس ، وترتبط الأحاسيس بالظلام بعد ذلك ، ما لم تبادر الأم بمنع هذا الارتباط ..

وكيف يتسنى لها ذلك ؟.. يمكنها منع الارتباط بنقله من الظلمة الى النور وتطمينه بطريقتها الخاصة ، ثم تعيد الكرة فتنقله من النور الى الظلمة ، وهكذا الى أن يشعر انه بين ذراعيها فى أمن من الخطر . وبهذه الطريقة يتعود هذه الأحاسيس ولا يعود يعبأ بها . وكلما هبطت درجة الخوف منها ، خفت وطأتها ، وفى الوقت

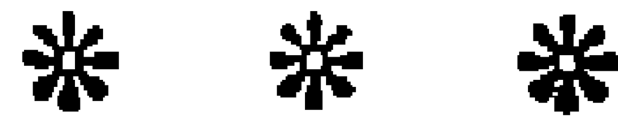
ذاته ، انحلت العقـــدة التى كانت تربط بين الظـلام والأحاسيس

وقد تضطر الأم أن تعيد الكرة مرات عديدة ، بيد أن ذلك ينبغيأن يكون بلطف وسياسة وتؤدة ، وبغيرتوقف، وبشرط أن تدرك تماما الغرض منه . ينبغى أن تعرف انها بهذا العمل تساعد طفلها علىمقاومة شعوره . وهذا يتطلب الكثير من الصبر والحلم واللطف والحزم مجتمعة. ولا يمكن التوصل الى الهدف المرجو بالتدليل أو شدة المعاملة .. فليس من المستطاع طرد الخوف بالمنطق ، كما لا يمكن طرده بالعصا

وطالمــا كانت الطاقة العصبية فى مجال الأمن ، نهض الطفل من فراشه فى الصباح المبكر فرحا ، مرح المزاج ، متأهبا للنشاط والحركة .. يقفز ويجرى ويصيح لأنه يشعر بسرور يشيع فى جسمه ، وعافية تملأ كل جارحة من جوارحه . فاذا قضى اليوم كله فى اللعب ولم يجهد، آوى الى فراشه ليلا ونام نوما عميقا هادئا . أما اذا كان قد أضناه التعب فى ذلك اليوم ، أو نام متأخرا ، أو أكل طعاما لم يهضمه ، أو لم يتغذ التغذية الكافية ، أو قضى يومه مع أم عصبية المزاج ، حادة الطبع ، فانه يختم يومه فى حالة من التوتر وشدة الحساسية ، فيصبح شرسا ، قلقا ، لايتعاون مع أحد. وقد يرفضأن يتناول طعام العشاء ، أو يأكله ولايستطيع هضمه ، وقد يقضي ليلته أرقا ، أو يأبى أن ينام .. وهذه كلها دلائل واضحة على استنفاد الطاقة الذى شرحناه فى الفصل السابق . ومن الطبيعى أن يكون فى صباح اليوم التالى مجهدا متعبا

وعلى الأم أن تكون يقظة فى ملاحظة هذه الأعراض والعمل على التخلص منها ، واذا لزم الأمر ، يستشار

الطبيب لايقافها عندحدها. والنقطة التى‌أريد أن أشدد فيها هنا ، هى اتخاذ الخطوه اللازمة فورا لمنع تكوين المخاوف فى نفس الطفل، فقد تكون سرا يحاول احفاءه . فاذا تركت هذه المخاوف السريه ، علقت بذهن الطفل وتأصلت فيه ، فتضعف شخصيته ، ويصبح عرضه للأمراض العقلية



ومن المستطاع أن تفهم الام ولدها منذ نعومة أظفاره طبيعه الاحاسيس التى سرى‌مندفعة فى جسمه ، وان كانت مؤلمة . وليس من العسير أن تنقلها الى ذهنه بلغة غير علمية ، تتفق وسنه وخبرته . ومن السهل عليه فهمها ، لأنها لا تختلف فى شىء عما يشعر به حينما تزل قدمه فتنسلخ ركبته ، أو حينما يضرب يده باليد الأخرى . قد تكون هذه مؤلمة ولكنها غير مؤذية

من الممكن أن تحمل الطفل على اللعب وحده ، بشرط أن يواجه فى ذلك الحالة التى ترتبط فيها أحاسيسه بالخوف من تلك الحالة . مثال ذلك ، هب الطفل يخاف الطيور مثلا ، اذن ينبغى تفهيمه قبل كل شىء ما الذى يخاف منه . ليس الطائر ، بل الاحساس الذى يرتبط بلمس الريش . وبالتدريج يشجع على استعادة هذا الاحساس الذى يخيفه بينما يوضع الطائر على مقربة منه .. وتكرر هذه العملية يتطلب صبرا ، ولكنه يؤدى الى الهدف

وليس غريبا أن يخاف الطفل من بعض ألوان الطعام ويشمئز منها .. هذا أمر يشاهد فى كل أسرة تقريبا . على ان اصلاح هذا العيب فى الطفل ليس بالأمرالعسير، اذا اتبعت الطريقة التى ذكرناها فى الفقرة السالفة .

وحتى تنجح هذه الطريقة ينبغي أن تفهم الأم حقيقة ما يخاف منه ولدها . وعليها ان تفهم ان اشمئزازه من ذلك اللون من الطعام ليس تعنتا او عصيانا . انه خوف من احساس ، ربطه فى ذهنه بذلك الطعام . وليس من الحكمة فى شىء أن يتحدث الكبار أمام الصغار وبصوت مسموع ، عما يحبونه ويكرهونه من أصناف الاكل . وذلك لأن الطفل ، اذا كان ضعيف الجهاز العصبى ، شديد الحساسية ، فان ما يسمعه ، يترك فى ذهنه الأثر السيىء الذى يتركه الكلام عن السرطان ، أوالزهرى ، أو أمراض القلب فى ذهن المراة أو الرجل الذى يخاف هذه الأمراض

الخوف لا يستجيب للمنطق ...

الخوف أثر رجعى لاحساس ، لا لفكرة ، فاذا نجحت فى نزع الفكره ، فان الخوف لايزول ، بل يكون ارتباطا آخر.. فمن العبث اذا أن تتخذ العقل اوالمنطق وسيلة لمنع الطفل من أن يخاف الظلام ، أو العاصفة ، أو اللعب مع زملائه ، أو شرب اللبن ، أو أكل اللحوم ، أو اى شىء آخر. هذا كله ضياع للوقت والجهد بلا نتيجة . ولا تخدع نفسك بظنك انك تستطيع القضاء على الخوف بتهديد الطفل أو تعريضه للخجل من نفسه . اذا كان لمثل هذه الوسائل نتيجة ، فانها تحمل الطفل على اخفاء الخوف والتظاهر بنسيانه ، مع الاحتفاظ به وجعله سرا مكتوما

والخوف المكتوم كجبل الجليد المغمور فى الماء — اى انه أخطر بكثير من الجليد الطافى فوق الماء . والخوف المكتوم فى الطفولة لايزول ، ولكنه يبقى متربصا فى الخفاء ، ويكبر ويتضخم ويمتص الطاقة العصبية شيئا فشيئا

الى أن ينهار صاحبها انهيارا تاما . والمخاوف التى لايكتشفها الوالدون فى الطفل ، هى سبب التبول اللاارادى المزمن ، والحركات الالتوائية العصبية ، وعدم القدرة على تركيز الفكر، والافراط فى العادة السرية ، والأعراض الهستيرية . وقد تكون اعراض الخوف فى الصغار ـ كما فى الكبار ـ الاسهال والامساك ، والتشنجات المعوية، وسوء الهضم ، والأحاسيس المخيفة الغريبة فى الأذن والعين ، والشعور بالاختناق وفقد الصوت

كان « فيليب » فى الثانية عشرة من عمره ، حينما احضره أبوه الى عيادتى بسبب الخوف الذى كان حائلا بينه وبين النجاح فى دراسته ، وفى حياته الاجتماعية والوجدانية . كان وسيما ولكن وزنه كان دون المعدل. وكان يتردد فى اللعب مع زملائه ، خصوصا اذا كان فى ذلك شيء من العنف أو الخشونة ، وكان يكره أن ينافس سواه . أما فى ذكائه وخلقه ، فقد كان لاعيب فيه .. حسن التفكير، حسن السلوك ، متفوقا فى قواه العقلية ، محبوبا من والديه وأجداده ،كل شيء فيه يدعو للاعجاب ولايستثنى من ذلك الا انه كان فريسة للخوف . لم يكن يخاف أن ينام فى حجرة بمفرده وحسب ، بل كان لايستطيع النوم فيها بتاتا. فاذا اضطر أن ينام وحده ، وفى الظلام ، ظل ساعات أرقا ، يرتعش خوفا ، ومتى استيقظ فى صباح اليوم التالى ، كان واهى القوى ، عاجزا عن هضم مايأكله ، وعن تركيز فكره فى عمله المدرسى

وقد كان بدء هذا الخوف منذ سنتين .. حدث ذات ليلة أن لصا سطا على البيت محاولا السرقة ، ولكن فيليب لم ير اللص ، الا انه سمع الضوضاء التى أحدثتها

أمه وصراخها للاستغاثة ، والجلبة التى أحدثها أبوه ، عند استغاثته برجال البوليس . وتبع ذلك تدفق عدد كبير منهم مدججا بالسلاح . وتسبب عن كل هذا ان أعصاب الطفل قد توترت واهتزت بشدة وعنف . وحاول أبوه عبثا تهدئته ، بأن أخذه الى غرفته بقية الليل

وفى الليلة التالية رفض النوم وحده فى غرفته ، وطلب من والده أن يرافقه . واستمرت هذه الحاله زمنا ، كان يحاول فيها والده تدليله وتهدئة خاطره . ومع وجود والده معه فى غرفة واحدة ، كان ينهض فيليب من فراشه منزعجا ، ويتطلع من النافذة ، ليرى اذا كان هناك لص آخر ، وكان يتسلل الى سرير والده ، ويتسمع دقات قلبه ، لأنه كان يخشى أن يصاب أبوه بسوء ، لانه سمع رجال البوليس ليلة الحادث ، يقولون لوالده انه لم يكن حكيما فى مطاردة لص كان يحتمل ان يكون مسلحا

وكان هذا الخوف المتواصل سببا فى هبوط درجاته المدرسية ، بعد أن كان فى المقدمة ، ونتج عن ذلك انه أصبح يخجل من نفسه ، ويخجل من أن يكون زملاؤه قد سمعوا بما يشعر به من الخوف .. فلجأ الى العزلة ، وأبى المساهمة فى الألعاب الرياضية ، وآثر أن يكون برفقة من يكبرونه سنا ، لا سيما أجداده الذين كانوا يدللونه

ولم يكن متعلقا بأمه لأنها كانت تحاول اجباره على النوم فى حجرته بمفرده . وكانت توبخه ظنا منها خطأ ان هذا لصالحه ، وأكثر من ذلك كانت تهدده بتعريضه للسخرية أمام أقرانه ، أما أبوه فقد كان يعطف عليه ، ولكنه كان يجهل الوسيلة التى يساعده بها ، فضلا عن انه كان حاد الطبع متوتر الأعصاب

وبعد فحص المريض والاطلاع على تاريخ السنوات العشر الاولى من حياته ، اتضح انه ورث جهازا عصبيا ضعيفا ، وكان على الدوام أشد حساسية من أخته . فقد كانت قوية كأمها ، فى حين انه شابه أباه . وكان ضعفه هذا سبب تأثره بحادث اللص . وكان قبل خوفه والصدمة التى أصابته بسبب ذلك الحادث ، كثير التفكير فى لص آخر او شيء ما يسبب أذى لوالده الذى كان يحبه ويعتمد عليه فى اعادة الطمأنينة الى نفسه . ومما ساعده على هذا التفكير الجرائد الهزلية التى كان دائم الانكباب عليها ، وأخبار الجرائم التى كان يستمع اليها من محطات الاذاعة ، وقصص اللصـــوص التى كان يشاهدها على الشاشة الفضية ، وأخبار السطو على البنوك واطلاق النار .. الخ

فمهما زودنا هذا الصبى بالنصائح ، ومهما عللنا له الأشياء تعليلا منطقيا ، فان ذلك لا يصلح من أمره ، طالما اننا لم نرفع من طاقته الى الدرجة التى تمكنه من مقاومة أحاسيسه وفوق هذا يجب أن يعرف جيدا ان سبب خوفه ليس الظلام بل اندفاع هذه الأحاسيس فى جسمه ، كلما وجد نفسه وحيدا فى غرفة مظلمة

وليس من الصعب على صبى ذكى فى الثانية عشرة من عمره أن يفهم هذا . ومن حسن الحظ ان أطفال هـذا العصر على علم بشيء من مبادىء الكهرباء واللاسلكى ، مما يعينهم على الالمام بطبيعة الجهاز العصبى والرسائل التى تبعث بها الحواس الى المخ والأحاسيس المألوفة ، وقد فهم فيليب جيدا فكرة « السدود » التى سبق الكلام عليها وقلنا انها تمنع طغيان « الرسائل » وتسربها الى وعى المريض. ولم يستلزم شرحها الا فترة قصيرة .

وأدرك ان هذه « السدود » فيحالته الراهنة قد تهدمت، وهذا ماحدا به الى الاستسلام للخوف . وقد ساعده على التخلص من مرضه كذلك ، انه سمع من الطبيب انه لا يختلف عن غيره من مئات الناس الذين يقعون تحت طائلة المرض ، وانه ليس الوحيد الذى يساوره الخوف ، وليس به شذوذمما كان يسمعه عن نفسه من الغير

وبفعل الدواء والايحاء والدروس التى كانت تلقى عليه ، أخذ فى التحسن بعد أسبوع واحد . وحالما وجد ان فى استطاعته أن ينام فىحجرته بمفرده ، أحس بالكثير من الفخر والزهو. ولم يعد يخشى أن تصل قصته الى أسماع زملائه فيتخذونه أضحوكة . وقد تطلب تجديد طاقته فترة من الزمن ، أصبح بعدها قادرا على تحمل الصدمة اذا جاءت بعد أن كان يذعن لها فيهبط الى مجال النورستانيا . والغريب ان التقارير التى وصلتنى من أهله بعد مدة طويلة ، يستدلمنها انه ليس بكامل الصحة وحسب ، أو انه لم يزل « طيبا » وحسب ، وانما أصبح معدوداً من « الأشقياء »

البيئــة البيتيـــة ...

للطفل على والديه حق المكان الملائم الذى ينمو فيه نموا سليما . وليست « الشقة » الصغيرة ذلك المكان ، وان كانت بالغة حد الزخرف والأناقة ، وأيا كان الحى الأرستقراطى التى توجد فيه . ان للطفل على والديه حق البيت ، وقبل كل شيء حق غرفة خاصة له فيه ، يطمئن اليها ، بمعنى ان أحدا من أفراد الأسرة لا يشعر انه يزاحمه أو انه فى طريقه

خير لطفلك أن يشب فى حى متواضـع ، وفى بيت

ينقصه الكثير من أحدث مرافق الحضارة ، طالما كان له فيه غرفة يستطيع أن يكون حرا للعب فيها ، وأن يدعو أصدقاءه اليها لمشاركته فى اللعب متى شاء ذلك

وللطفل حق الحرية التى بها يشعر انه يستطيع دعوة أصدقائه الى «بيته» وأن يكونوا فيه على الرحب والسعة لأنهم أصدقاؤه . واذا لم يفعل ذلك من تلقاء ذاته ، فعلى أمه تشجيعه ، وخير لك أيتها الأم أن تعدى له ولأصدقائه « الكاكاو » والكعك أو السندوتش ، حتى يشعر انه وهم فى بيته ، من أن تستمعى الى سلسلة محاضرات فى سيكولوجيا الأطفال

واذا كان طفلك خجولا ، شجعيه على أن يصحبه طفل أوأكثر — أصغر منه قليلا — ليلعبوا معه . وساعديه فى بادىء الأمر، الى أن يزول عنه الخجل، ثم اتركيهم يلعبون وحدهم. وحذار من أن تشجعى الطفل على ايثار البقاء معك أو مع أجداده ، على رفقة من فى سنه ، لأنك بعملك هذا تساعدين الطفل على خجله ، باذعانه الى احاسيسه

وفوق كل شيء لا تنتظرى أن يكون طفلك ما يسمونه «طيبا» اوهادئا كل الوقت أوأكثره . وذلك لأن الطفل السوى ، سليم البنية ، يكون عادة جم النشاط ، كثير الحركة كثير الضوضاء والجلبة ، محبا للاستطلاع والتجريب ، ولايهمه راحة الكبار من أفراد الأسرة . فهناك الكثير مما ينبغى أن يتعلمه ويريد أن يتعلمه ، ومن طبيعته ان فى داخله دافعا قويا ملحا ، يدفعه الى معرفة كل شيء وبأسرع ما يمكن فاذا أتيحت له الفرصة ، اخذ ماكينة الخياطة وفك أجزاءها وحاول أن يصلح جهاز اللاسلكى والمكنسة الكهربائية . ولو أتيحت له الفرصة ،

أظهر ولعا بالحيوانات المدللة، ولم يعبأ بالأقذار والجراثيم، ولا يخشاها. وآمل، أيتها الأم، أن تعلمي أن هذا أفضل بمراحل من أن يشب مريضا بعقدة الخوف من الجراثيم

اننا نسمع في هذه الأيام عبارة « الطفل المشكل » تدور على الألسن.. ليس الطفل المشكل هو الذى يعالج أقفال الأبواب فيفسدها ، ولا هو الذى يشوه جدران الحمام بأحمر الشفاه وطلاء الأظافر ، ولا هو الذى يعيث في صنابير الماء فسادا ، ان الطفل المشكل هو ذلك الطفل النموذجي شديد الحساسية، المطيع لكل الأوامر وفي كل وقت ، الهادىء ، المحافظ في حركاته وسكناته ، المكب على دروسه في أوقات فراغه ، الممتلىء حياء وحشمة ، الذى يؤثر البقاء مع الكبار من افراد أسرته ، على رفقة البنين والبنات من أنداده

مثل هذا « الطفل النموذجي » هو الجدير بشدة الملاحظة لأنه في حاجة ملحة الى العلاج الطبي والعلاج النفساني . ولم ذلك ؟ لأنه مريض . وامثاله هم الذين يحملون عادة في أجسامهم وعقولهم « الجراثيم » التي تؤدي بهم في مستقبل حياتهم الى الانهيار العصبي

لماذا ينهار الصغار ؟ . .

اتضح مما سبق ، ان ليس كل انسان يولد بجهاز عصبي قوى سليم ، ويختلف الأفراد في مدى هذه القوة والسلامة ـ حتى اذا كانوا أشقاء ـ اختلافا عظيما . وتزداد هذه الفروق الفردية الكامنة فيهم ظهورا ووضوحا، متى أخذت مسئوليات الحياة تلقى على أكتافهم، فتتكبد الطاقة العصبية العناء بسبب ذلك ، وتتكاثر عليها المطالب ، من مضاعفة التعاون والتنافس ، وتركيز الفكر،

واصدار الأحكام الصائبة فى الأعمال اليومية ، واحتمال المشاق والصبر على المكاره

والكثير من الناس لا يقوى على هذه المطالب فينهار..

وسبب هذا الانهيار عند السواد الأعظم منهم ضعف الجهاز العصبى . فاذا كان هذا الضعف يسيرا ، بدت على صاحبه الأعراض التى أشرنا اليها فى الفصول السابقة، وقلنا ان هذه الأعراض تستجيب للعلاج ، وأن المريض يستطيع أن يعيش بعد شفائه عيشة سوية ، بشرط أن يتوخى الاعتدال فلا يجهد ذلك الجهاز الذى سيبقى دون المعدل فى صلابته ، مهما بلغت العناية به للمحافظة على سلامته

أما اذا كانت خلايا الجهاز العصبى تنقصها المادة الزلالية الحيوية Protoplasm ــ وهو نقص طبيعى لم يهتد الطب الى ايجاد علاج له بعد ــ فان صاحبه يبدو عليه منذ طفولته مايدل على هذا العيب البيولوجى . فاذا لم يعالج فى سن مبكرة ، كان عرضة لاصابته عاجلا أو آجلا بالجنون المسمى بجنون المراهقة « شيزوفرينا »

جنون المراهقة ...

ان جنون المراهقة « الشيزوفرينا » أشد الأمراض العقلية خطورة وأكثرها تحديا للعالم المتمدين اليوم. ففى أمريكا مثلا يصاب به سنويا ٤٠ ألف صبى وفتاة ، تتراوح أعمارهم بين ١٦ و ٢١ ، فيودعون مستشفيات الأمراض العقلية حيث يبقى أكثرهم فيها طول حياته .

وهؤلاء عادة من أشد التلاميذ ذكاء ، وقدوة حسنة تحتذى بها فى المدرسة والبيت ، ولذا يغلب أن يكونوا فخر والديهم ومصدر سعادتهم ، والفئة المدللة المختارة عند معلميهم. ومن صفاتهم الولع بالدراسة وحب العمل،

انهم يؤثرون الانكباب على الأوراق والكتب ، على أن يساهموا مع زملائهم فى وقت اللعب ، يفوزون بكافة الجوائز المدرسية ، ويتخرجون فى مدارسهم بامتياز ولكنهم يمنحون الدبلوم النهائية فى مستشفى المجاذيب !

هؤلاء الأطفال مصابون بعيوب طبيعية بيولوجية .. وليس معنى هذا انهم ضعاف العقول ، انهم على النقيض من ذلك شديدو الذكاء ، وأكثرهم من بيوت كريمة ، واسر مثقفة ، ولم يدخر ذووهم جهدا الا بذلوه فى السهر على راحتهم وتربيتهم . ولا يستثنى من ذلك الا شيء واحد . وهو ان احدا من أقرب المقربين اليهم لم يكتشف فى الوقت المناسب اعراض هذا العيب فى جهازهم العصبى ، وعلاجه قبل أن سلغ بصاحبه درجة الجنون

وأرجو الا أكون مروجا للمخاوف ، فلست أريد أن تساور الوالدين من قراء هذا الكتاب فكرة جنون المراهقة بمجرد وصفها ، كما يساور الكثيرين الخوف من السرطان بعد قراءة شيء عنه

من المهم جدا الا يتطرق الى الأذهان ان كل استنفاد للطاقة العصبية من أعراض هذا المرض . والكثير من اطباء الأمراض العقلية للأسف يقع فى هذا الخطأ . والنتيجة المؤسفة ان ألوفا من المرضى الذين يدخلون مستشفيات الحكومة ، وقد يبقون فيها البقية الباقية من حياتهم ، بدعوى انهم مصابون بجنون المراهقة ، ليسوا كذلك اطلاقا . وهكذا يظل هؤلاء التعساء أعواما فى تلك المستشفيات ، بغير أن يزيل طبيب عنهم مخاوفهم ، او ينقذهم من الاحاسيس الغريبة المؤلمة التى تسرى كالكهرباء فى اجسامهم ، أو يريحهم من الوساوس التى تغرق أذهانهم . هؤلاء يعيشون سجناء ، وقد حكم عليهم

ظلما وجهلا انهم مجانين لايستجيبون للعلاج فعليهم أن يظلوا هناك الى أن يموتوا

ان جنون المراهقة ينشأ من عيب وراثى فى الخلايا العصبية ينتج عنه تعطيل نموها . فيشب المرء ضعيف الطاقة ، شديد الحساسية ، يشعر منذ صغره بعدم الرغبة فى اللعب مع أقرانه ، ولا يميل الى التنافس ، ويكون أكثر ارتياحا مع من يكبرونه سنا ، منه مع من هم فى سنه ، وقلما يكون حسن العلاقة بسائر اعضاء الأسرة

وتبدو أعراض هذا الداء الخبيث قبل سن العاشرة .. وتظهر واضحة فى سلوك صاحبها بوجه عام ، وكلما تقدم الطفل المريض نحو سن المراهقة ، آثر البقاء فى عالمه الخاص أو على الأقل يظهر عليه ذلك . وبهذه الطريقة تتكون فيه الشخصية المعتزلة المنزوية .. فيميل الى السكون والوحدة

وبين السادسة عشرة والعشرين ، يأخذ عادة : فى التساؤل «ما العيب فى ياترى؟ لماذا لا أستطيع الانسجام مع الآخرين ؟ » . وفى هذه الفترة من العمر ، تكون مطالب الحياة قد أخذت فى الاشتداد . فلابد أن يحتفظ بمكانته بين اقرانه فى المدرسة أو الجامعة أو فى المكتب ، أو المصنع ، أو الجيش فى حين انه يشعر بالعوائق التى تقف حائلا دون بلوغه هذا الهدف . ومما يزيد المسألة تعقدا ، أن شدة ذكائه تدفعه الى مواصلة التفكير والعودة الى السؤال عينه : « ما العيب فى ؟ »

وهنا ينتابه ذلك الشعور الذى يمنعه دواما من اللعب مع زملائه والاشتراك فى حياتهم الاجتماعية الخ . وسرعان مايترجم ذلك الشعور الى ان الناس ضده أو يكيدون له ،

ومن هنا تبدأ الآراء الاضطهادية تساوره ، ولايقتصرهذا الشعورعلىأفراد معينين ، بل على العالم كله . فيخيل اليه انكلعابر سبيل يتكلم عنه ويرقب خطواته . وفعلا يسمع أصوات هؤلاء ، وتقرع أذنيه عبارات السخرية التى تصدر عنهم ، وما يتهمونه به من اجرام وأفعال فاضحة . وقد يخيل اليه ان هنـاك فردا من الأفراد يدير دفة عقله

وكلما تقدم المرض ، زادت هـذه الأوهام شـدة «فيسمع» أصوات الناس حيث لايوجد أحد.. وهذه هلوسة شائعة بين المرضى بهذا الداء . وقد تكون هـذه الأصوات فى اعتقاده للتهديد ، وقد تكون للاستهزاء به. وتارة توعز اليه أن يرتكب أمورا شائنة لايرضاها. وكما ان هذه الهلوسات سمعية ، فقد تـكون أيضا بصرية

وتأخذ حياته الوجدانية فى التقهقر والانحطاط .. فلا يعود يجد فى الحياة لذة ، ولا يعير الأشياء عناية أو انتباها . وقد يتقلب بين تبلد العاطفة تارة والعنف أخرى ، فيقذف بالأشياء هنا وهنالك ، ويكسر النوافذ ويهشم الأثاث ، وقد يعتـدى على من حوله ، وهـذه الدوافع تبلغ فى داخله نهاية الشدة ، فلا يمكنه مقاومتها

ويتأثرحكمه على الأشياء الى أقصىحد ، وبينما يكون واجما منقبضا ، ينتابه شعور فجائى بالعظمة ، فيزعم انه ملك أو زعيم أو دكتاتور عالمى . وكثيرا ما يخيل للمرأة المصابة بهذا المرض أنها قديسة !

علاج جنون المراهقة ...

اكرر القول انه بالرغم من ان الـكثير من حالات هذا المرض ميئوس منه ، فان عددا منها قابل للشفاء اذا عولج مبكرا

واستعمال صدمات الانسولين فى علاج الشيزوفرينا (جنون المراهقة) كثير الشيوع الآن ، وهو علاج لابأس به مع التحفظ الشديد . وأقول مع التحفظ ، لأنه وحده لا يغنى فتيلا ، اذ ينبغى أن يتبع ذلك بالعقاقير التى تقتضيها الحالة مع اعادة تربية المريض Re-education ، والى علاجه نفسانيا. أما التحليل النفسانى فقلما يفيد. وقد تفيد الصدمات الكهربائية فى بعض الحالات فقط. واساس هذا العلاج اعادة الخلايا العصبية الى حالتها الصحية العضوية بالقدر المستطاع ، بالدواء أولا وتنظيم حياة المريض النفسية ثانيا

وأريد أن أقول بهذه المناسبة ان العلاج بالصدمات الكهربائية لايجدى فى أغلب الحالات. ومما يؤسف له ان الكثير من الأطباء يلجأ اليه بغير تمييز، وقبل ان يشخصوا المرض تشخيصا صحيحا ، وقبل أن يعرفوا شيئا عن نفسية المريض. وحتى فى الحالات القليلة التى تصلح فيها ، لا تفيد المريض بشىء ما لم يتبع ذلك بالعقاقير التى تجدد خلايا الجهاز العصبى. وأنا شخصيا لا ألجأ بتاتا الى الصدمات الكهربائية الا فى حالات نادرة مختارة ، مع العلاج النفسانى وفقط اذا آنست من المريض استعدادا لها. وفى هذه الحالة فقط يكون العلاج ناجعا وسريعا

اما فى أمراض العصاب التى أشير لها فى هذا الكتاب ـ القلق والوسواس والهستريا والمخاوف بشتى أنواعها الخ ـ فينبغى الا يلجأ فى علاجها الى الصدمات الكهربائية بتاتا ، اذ انها عقيمة لا تفيد المريض اطلاقا

الوقاية ليست عسيرة ...

مما يدعو للاغتباط أن الوقاية من هذا المرض ليست عسيرة بالرغم من أن الشفاء منه ليس كذلك . وهى

تتوقف على اكتشاف أعراض المرض مبكرا، وتشخيصه تشخيصا دقيقا وسرعة علاجه على يد طبيب ماهر .
وعلى كل من الأم والمعلم أو المعلمة أن « تقرأ » هذه الاعراض عند ظهورها فى الطفولة المبكرة ،ثم تعمل على مساعدة الطفل حتى يقاوم احاسيسه ويعمل ضدها. وهذا يستدعى الكثير من الصبر والملاطفة والتفاهم والحلم . وينبغى الاقدام على هذا بالكيفية التى تقدم عليهــا الأم اذا أرادت انقاذ ولدها من كارثة مدلهمة

وجل آمالى أن يأتى اليــوم الذى يكــون فية لكل مدرسة طبيب للأمراض العقلية مدرب ، يقضى ساعات عمله كلها فى زيارة الفصول والملاعب ، لمراقبة التلاميذ فى دراســاتهــم والعابهم ، وفى حركاتهم وسكناتهم . فاذا كان ماهرا فى مهنته استطاع أن يكتشف فى السنوات الدراســـــية الأولى الأطفال الذين تدللهم معلماتهم ، واولئك الذين يتهربون من الالعاب التى تتطلب شــيئا من الخشونة والعنف ، وغيرهم ممن يتأثرون بسرعة مما يوجه اليهم من الاقوال ، واولئك الذين لاتمكنهم بنيتهم او شجاعتهم من ان يردوا الكلمات التى توجه اليهم بمثلها

هؤلاء الاطفال وامثالهم يجب علاجهــم فى الوقــت المناسب حتى لا تستفحل حالتهم ،حقيقة انهم سيظلون طول حياتهم مرهفى الحس غالبــا ، ولــكنهم بالعلاج الســليم ، وتقويم ما اعوج من ميــولهم واتجاهاتهم ، وتفهيمهم شيئا عن طبيعة أحاسيسهم ينقذون من الانهيار او الاصابة بهذا النوع من الجنون فى مستقبل حياتهم .. ينقذون من الانتقال من مدارسهم للتخرج فى مستشفيات الأمراض العقلية ، بل يخرجون الى ميدان الحياة حيث يساهمون فى بناء الأسرة والوطن

الفصل الثاني عشر :

تعلم كيف تعيش

العيش فن جميل ، بل أعظم الفنون الجميلة شأنا . وهو كسائر الفنون : الرسم والتصوير ، وصناعة التماثيل ، والكتابه ، والغناء والتمثيل ، والرقص ، يتطلب لاتقانه اراده، وعزما ، ووقتا ، وتطبيقا ، وجهدا، وليس لاتقانه والأخذ بناصيته حد يقف عنده صاحبه . فكلما تبحر انسان فى فن من الفنون ايقن انه لايزال بعيدا عن الكمال بمراحل

لقد ظل الرسام الايطالى الشهير « تشيان » يتعلم ويخرج لعشاق الفن لوحاته الرائعة الى آخر نسمة من حياته ولما بلغ التاسعة والتسعين من عمره اعترف بأن المجال أمامه واسع لاتقان الكثير مما يجهله من نواحى فنه المحبوب . وهذا ميكل انجلو ــ وعظمة صوره وتماثيله من بدائع الفن ومعجزاته ــ نظر الى لوحته الخالدة « الخليقة » وهو على وشك التسعين من عمره ، فتأوه والأسف يملأ فؤاده وهو يقول : « آه لو أن لدى من العمر متسعا لزيادة اللوحة اتقانا ، واخراج مايفوقها جمالا وموضوعا » . كذلك « فردى » ظل يخرج للعالم مقطوعاته الموسيقية الشهيرة الى أن قارب التسعين

وكلما زدت اختبارا والماما بفن الحياة ، زاد العيش رغدا وحرية ، وسعادة ، ولذه . وكلما قل تفكيرك فى نفسك ، وقل اهتمامك بأحاسيسك وبما يقوله الناس عنك ، وبالمنافع التى تعود عليك من كل شيء ، تكشفت أمامك آفاق جديده ، وطرق واحتمالات تزيد العيش بهجة ومرحا وسرورا

ولا سبيل الى هذا الا اذا تعلم الانسان كيف يعيش

لقد ذكرت مرارا وتكرارا فى الفصول السابقة وجوب تجديد الطاقة فى الجهاز العصبى ، وتنظيم حياة المريض السيكولوجية ، حتى يتخلص من عصاب الخوف. وقلت ان تنظيم الحياة النفسية معناه اعادة تربية المريض . فماذا يقصد بهذا التعبير الأخير ؟..

فى اعتقادى ان التعريف الآتى للتربية يجيب عن هذا السؤال اجابة وافية شاملة فى جملة واحدة ، وهو :

« التربية هي تكوين العادات السليمة »

وينطبق هذا على الجسم كما ينطبق على العقل ..

لقد كان جل عنايتى فى وضع هذا الكتاب ، أن أخاطب القراء الذين لا تتاح لهم الفرص ــ لسبب ما ــ لكى يستشيروا طبيب أمراض عقلية خبير ، فى المسائل التى يحتاجون فيها الى مساعدة . وقد حرصت أن أوضح كل شيء بلغة بسيطة يفهمها كل قارىء ، بما فى ذلك طريقتى فى علاج الأمراض العقلية ، والنظرية التى على اساسها اتبعت هذه الطريقة . وليس تجنبى الألفاظ العلمية دليلا على أن العلاج غيرعلمى. وليس خلوالكتاب من الكثير من العبارات الفنية المعقدة ، يجعل قراءته من الأطباء حاطا بكرامتهم . لقد اعتدت أن أنصح مرضاى

دواما وبغير استثناء ـ لاسيما الذين قضوا مرحلةطويلة من أعمارهم منطوين على أنفسهم وشعورهم ـ بأن هناك مجالا واسعا أمامهم لتعلم شيء جديد لم يسبق لهم عهد به من قبل . وأريد هنا أن أوجه هذه النصيحة عينها أيضا الى زملائى فى مهنة الطب الذين سيطلعون على هذا الكتاب

وليسمح لي القارىء أن أشدد فى التنبيه الى هذه النقطة للمرة الأخيرة وهى : « اذا كنت مريضا فلابد من علاجك على يدطبيب.. فليس فى وسعك أن تعالج نفسك بقراءة كتاب أو بمجرد التفكير المنطقى. وليس فى وسع هذا الكتاب أن يؤدى لك الخدمة التى يستطيع الطبيب بعلمه وفنه تأديتها . كل ماهنالك ان قراءته تساعدك على تفهم طبيعة علتك ، وتطمئنك على انها قابلة للشفاء ، وتوجه نظرك الى انك فى حاجة الى طبيب. وفوق هذا كله قد تساعدك على التعاون بحكمة مع طبيبك فيما يحاول أن يتخذه من وسائل العلاج . على ان أجل خدمة يقوم بها هذا الكتاب ، هى اقناعك بأهمية « العمل ضد أحاسيسك » ومقاومتها بدلا من الاذعان اليها . فهذا هو الطريق المؤدى الى الحرية العقلية

كثيرا مايقول لى المرضى : « لقد لازمنى المرض هذه الأعوام الطوال . وقد أضعت من عمرى سنوات هى زهرة الحياة ، وقد فاتت الفرصة التى كان يمكن أبدأ فيها حياة جديدة » . أن هذا القول هراء .. انه دليل قاطع على النفسية المريضة ، وان صاحبها مفتقر الى اعادة تنظيم حياته والى خلق نموذج جديد من العيش

عمرك فى أعصابك ...

العمر كمية نسبية ، لا تقاس بعدد السنوات .. فمن

الناس من يبلغ مرحلة الشيخوخة فى سن الثلاثين ، ومنهم من يبقى فى مرحلة الشباب وهو فى الثانية والتسعين . والمسألة مسألة أعصاب

ان أكثر أعراض الشيخوخة ـ التذمر والتحسر ، سرعة الغضب لاتفه الأسباب ، تركيز التفكير فى النفس التأثر مما يمس الكرامة وان كان من نسج الخيال ، خشية وقوع كارثة أو خطر محدق ... وكل هذه وأمثالها ليست مقصورة على من يبلغ من العمر السبعين او أكثر . وانما هى جزء من نفسية الأشخاص بغض النظر عن أعمارهم ، طالما كانت الطاقة فى خلاياهم العصبية قد هبطت الى الحدود العليا من المجال النورستانى

فاذا بدت عليك هذه الأعراض ، فاعلم انك لا تصلح ان تكون رفيقا أوصديقا مرغوبا فيه لأحد . ولايرجى أن تكون ذا حظوة عند الغير . فليس ثمة من يعنى برفقة شخص مزمن فى الشكوى من كل شىء ، كثير الانتقاد ، ممعن فيه ، دائم التأوه ، ماهر فى البحث عن العيوب والأخطاء فى الناس والأشياء ، كثير الهم ، لايعجبه العجب .. كذلك اذا كنت غارقا فى التفكير فى نفسك وفى احاسيسك ، فان الناس يعدونك مصدرا للملل والسآمة

ولا ينكر أن الكثيرين من العجائز تبدو عليهم هذه الأعراض ، ولكن ليس السبب كبر سنهم ، بل حالة أعصابهم . وليس هناك مايدعو لبقائهم على هذه الحالة ، الا انهم يستجيبون للعلاج ، ومتى جددت الخلايا فى الجهاز العصبى ، زالت عنهم الأعراض والصفات التى تجعلهم عرضة للملل الناس منهم . وليس من طبيعة الشيخوخة أن تجعل صاحبها عبئا ثقيلا على نفسه وغيره . ان القدرة على الاستمتاع بالحياة يمكن الاحتفاظ بها الى

آخر نسمة ، طالما داوم صاحبها على تغذية جهازه العصبى بالطاقة . وبين مرضاى من تجاوز السبعين من رجال ونساء ، ويعيش عيشة سعيدة خالية من الأعراض السابق ذكرها . ولا تزيد عنايتهم بأنفسهم عن أكثر ما يعنى كل شخص ذكى عاقل بنفسه ، كما انهم لايداومون الشكوى من أمراض لا وجود لها ، ولايكثرون من الكلام عن صحتهم والتفكير فيها. ويجدون سعادة ولذة فى عشرة الناس والمساهمة فى نشاطهم ، ويرقصون ، ولاتفوتهم الرحلات والأسفار، ويطالعون الكتب والمؤلفات . ويقضون شطرا من أوقاتهم فيما اعتادوه من الهوايات. وكثيرا مايشغلون أنفسهم بأشياء كانت لا تمكنهم الفرص فى شبابهم من الاشتغال بها ، أو لأنهم ــ على حد قول بعضهم ــ كانوا لايعرفون فى ذلك الحين من فن الحياة ما يعرفون اليوم

ان جل آمالى انك بعد تصفحك هذا الكتاب ، وتتبعك النصائح التى جاءت فيه ، تستطيع أن تضرب صفحا عن سنك ــ بلغت فيه ما بلغت ــ فاذا ما أعدت تربية نفسك من جديد ، تبدلت نفسيتك المريضة الهرمة ، الى نفسية موفورة الصحة والعافية والشباب ، وازدادت مقدرتك على الاستمتاع بالحياة ، وأصبحت محبوبا عند الناس ، فيكثرون من دعوتك الى حفلاتهم ، لا لأن ذلك واجب يؤدونه ، ولكن لأن وجودك معهم يزيدهم سرورا

فابدأ من الآن بحياة جديدة . . واتخذ لنفسك عادات غير التى هبطت الى مستواها

داء التردد ...

ان العجز عن اتخاذ قرار نهائى حاسم ، حتى فى الأشياء التافهة ، من الأعراض الشائعة للضعف العصبى.

فالكثير من المرضى يقضى ســاعات فى ارتداء ملابسه ، لأنه لايستطيع أن يقرر أى جورب يلبس قبل الآخر ، أو أن يمشط شعره قبل الاستحمام أو بعده ، أو أى رباط رقبة أو أية بذلة يختار لذلك اليوم

والكثير منهم يشكون هذا التردد فى ظروف شتى وفى مناسبات أشد تفاهة مما سبق . فاذا قصدوا مخزنا تجاريا لشراء سلعة ، وقفوا حائرين لايدرون أية سلعة يتخيرون . واذا هموا بالخروج من منازلهم طال وقوفهم ،

وهم لايستطيعون أن يقرروا حمل المظلة للوقاية من المطر أم تركها فى المنزل . وهكذا يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى فى الاقدام على كل شيء ، وبذلك يستنزفون الطاقة من أعصابهم فى كل عمل يأتونه فى حياتهم اليومية . فاذا كنت احد هؤلاء فبادر بالعلاج ، وبدأ بالعمل ضد أحاسيسك . اى اذا خطر ببالك حمل مظلتك ، وساورتك فكرة عدم حملها ، فاحملها قبل أن تستسلم لحساسيتك وخوفك من حملها

من تعاليم الفيلسوف السويسرى « آميل » Amiei قوله : « كل قرار تتخذه يحد من حريتك » . وسبب تمسكه بهذا القول انه كان رجلا مريضا ، مصابا بالخوف من انهاك أعصابه . لقد كان مخطئا كل الخطأ ، لأن كل قرار تتخذه ــ بحزم وحكمة ــ تقوية لعقولنا ، وتزويد لنا بالسلاح لمجابهة الحياة

عود نفسك يوميا على اتخاذ قرار حاسم فيما تقدم عليه من الأعمال ، ولا تذعن للشرود ، ولا تخش عاقبة الخطأ .. فهبك أخطأت فى أربع قرارات وأصبت فى ستين ، فهل فى ذلك مايؤدى الى كارثة ؟ .. ان القرارات التى يتردد المرضى فى اتخاذها ، لا أهمية لها فى حــد

ذاتها . من المهم فى الحياة أن تجرب حظك فى الحياة ، وان كان فى ذلك ما يعرضك للخطر، فان هذا فى مقدمة الوسائل التى بها تتعود الاقدام والمخاطرة

أهمية اللعب ...

قل من الناس من يخصص وقتا كافيا للعب اذا ما تقدم فى السن ، وذلك لأنهم يعدون العيش عملية شاقة ، وينظرون الى الحياة «كروتين» تجرى نغماته على وتيرة واحدة . ان اللعب لايستنفد الجهد كما يظن البعض ، ولكنه على النقيض منذلك يغذى الطاقة ويجدد القوى ، وينشط البدن فيتضاعف عمل صاحبه وانتاجه

انني شخصيا مولع بالرقص، وقد اتخذته طول حياتى نوعا من أنواع «اللعب» الذى يريح الجسم والعقل معا ، وبه استطعت أن أواصل عملى الطبى بغير توقف ، وبأقل ما يمكن من الاجازات والعطلات ، وبغير حاجة الى ما يسمونه «علاج الراحة» Rest Cure من وقت الى آخر كما يفعل الكثيرون

وطالما نصحت مرضاى الذين لم يعد الرقص عندهم وسيلة للعب والتسلية بعد تقدمهم فى السن أو اصابتهم بالمرض ، بأن يتلقوا من جديد دروسا فى هذا الفن ، وان يخصصوا ثلاث ساعات أو اربعا أسبوعيا لهذا النوع من الرياضة

ولاشك ان هذا الدواء الذى أصفه لهم ، ألذ طعما وأعم فائدة ، من كثير من العقاقير التى يصفها الأطباء لمرضاهم

واذا كنت شديد الميل الى تأليف الروايات ، أو الى التصوير أو صناعة التماثيل ، واحتفظت بهذا الميل سرا

بينك وبين نفسك ، فتشجع ومارس هذه الفنون ، واتخذها لونا من ألوان اللعب . قد لا تدر هذه عليك مالا ، ولكنك ستجد فيها رياضة ، وصحة ، ومتعة ، وراحة . وبعملية حسابية بسيطة يمكنك تحويل هـذه الى دولارات ...

قد تقول : « انى لى ذلك وقد بلغت من العمر ما بلغت ؟ »

وأنا أجيبك : « تستطيع ذلك .. من المهد الى اللحد »

انظر الى من حولك من الذين تجاوزوا الستين والسبعين من أعمارهم ، تجد منهم كثيرين ممن تعلمـوا هوايات وفنونا وصناعات ، ولم يعبأوا بهذه السنوات . وأنت تستطيع ذلك بغير أن تدفع عنها ثمنا .. فالفصول التى تعقدها المعاهد العلمية للكبار(١) ، مفتوحة أبوابها للطلاب من كافة الأعمار ، وللرجال والنساء ، وكلها مجانية

اتخذ من هـذه المعاهـد ومن المكتبات العامة وسيلة لتعليم نفسك ، حتى يتسـع افقك ويزيد اسـتمتاعك بالحياة . أتعرف شيئا عن الشعر ؟ .. اذا كان الجواب لا ، فابدأ بقراءته من الآن ، تجد فيه لذة لم يسبق لك عهد بها . أعد تربية نفسك حتى تجد متعة فى جمـال الطبيعة : عجائب الزهور والأشجار والطيور ، حركات السحب فى السماء وتغيرات الفصول ...

اخرج من «نفسك» .. ذلك السجن الذى يأوى شتى أنواع الخوف والحساسية والخجل والاستحياء . اهدم تلك الحواجز . ان الحياة لك ، وبين يديك ، وأنت حر التصرف فيها .. وفى وسعك تشويهها ، وفى وسعك تزيينها وملؤها بهجة ونورا

---

(١) المترجم ـ كالجامعة الشعبية فى مصر .

من أقوال « امرسون » : « طالما وقف المرء فيطريقه ، وقف الناس في طريقه وسدوا عليه المسالك » .. فافسح لنفسك الطريق

لا تكن رقيبا على نفسك ...

يواصل المصابون بأمراض عصبية الرقابة على انفسهم ليلا نهارا .. تجنب هذه العادة الذميمة .. اقلع عنها فى أول فرصة ممكنة ، فيما يختص بما تحب وما تكره . فمهما يكن من شيء ، فان كراهيتك لهذا الكتاب او تلك الرواية أو ذلك الشخص ، أقل أهمية بكثير من معرفتك شيئا عن هذا الكتاب أو تلك الرواية أو ذلك الشخص. اذ كيف يمكنك أن تعرف شيئا عن هذا أوذاك ، اذا كان أساس هذه المعرفة مجرد حبك الشخصى له أوكراهيتك؟

تعلم ان تتقبل الحياة كما هى — على علاتها — فبهذه الوسيلة تتغلب على العاصفة اذا هبت . نعم كيف تنحنى مع التيار بغير أن تتمادى معه فى السير . الا ترى شجرة السنديان تنحنى مع الريح ثم تعود الى مكانها ولاتنكسر؟

هذه هى القوة الحقيقية والحكمة والفن ...

حاول،كلما وجدت تفكيرك مركزا فىنفسك وأحاسيسك وهمومك ومخاوفك ، أن توجهه الى ناحية أخرى . فى هذا التوجيه انعاش للعقل ، وترويح للنفس. يمكنك أن تستبدل تفكيرك فى ذاتك بتفكيرك فى زهرة مثلا ، كما يفعل أحد مرضاى. وبين مرضاى سيدة مولعة بالأسفار تستبدل تفكيرها فى ذاتها ، باستعادة صورة أحد المناظر الطبيعية الجميلة أو المبانى الفخمة أو التحف الفنية ، الى الذاكرة . هذه بعض الحيل التى يتخذها المرضى وسيلة للهرب من أنفسهم .. غير ان كلا له طريقته

الخاصة فى أبعاد تفكيره عن نفسه

وأذكر الا شيء أقـــدر على تجديد الذهن من تغيير المادة التى يفكر فيها . وليس اشد خطرا على النفس من الأفكار الثابتة الملحة ، وسواء أكانت هذه وساوس دينية أو تحزبا لآراء عنصرية أو سياسية ، أم تعصبا لمسائل اجتماعية ، فانها كلها منهكة للجسم ، مضنيـــة للعقل

من لوحات الرسام الأمريكى « توماس برتتون » ، صورة شهيرة لثلاث نسوة عنوانها « بنـــــات الثورة الأمريكية» يتمثل فيهاهذا المبدأ الهاموهو : انالكراهية، والحقد ، والشـــعور بالاثم ، والاستياء وأمثالها من الانفعالات التى تلازم أصحابها زمنا طويلا ، تدفع بهم نحو الشيخوخة بخطا واسعة سريعة

دعك من الماضى ، لأنه لن يعود .. الحياة سلسلة من الاختبارات الجديدة .. الأموات لا مستقبل لهم ، اما الأحياء فلهم اليوم وما ينتظرونه من الغد

ليكن دأبك أن تغفر للغير زلاتهم ، وتغفر لنفســـك زلاتك . فأيا بلغت آثامك وذنبك من الجسامة ، فليس ما يدعو الى تركها تسمم جسمك وعقلك

كانت احدى المريضات التى تتردد على منذ سنوات ، تشكو انهيارا عصبيا شـديد الوطأة ، وعسر هضم ، وانقباضا فى النفس ، ويأسا من الحياة . وعندما جاءت لاستشارتى كان قد مضى عليها فى هذا المرض ثلاثون عاما. والسبب؟ السبب أن أهلها أشبعوها توبيخا ولوما وتقريعا عندما كانت فى السابعة عشرة من عمرها ، لأنها سمحت لشاب بتقبيلها . وظلت بعد ذلك تكيل ذلك

التوبيخ لنفسها ، فلازمها الشعور بالاثم . ومن الطبيعى أن تكون هــذه السيدة قد ولدت أصــلا بجهاز عصبى ضعيف ، اذ لولا ذلك لما كانت تلك الذكرى تسبب لها كل هذه الآلام . على ان المهم فى هذه الحالة ان الشعور بالاثم ، لذلك الحادث التافه البرىء الذى يقع لأكثر الشباب ، قد علق بذهن صاحبته سنوات ، ولم تتمكن من الخلاص منه ، زعما منها انه جرم أعظم من أن يغتفر

الواقع ان الطاقة العصبية متى هبطت ، نزع صاحبها الى التنقيب عن نزوات الشباب ، وآثام الماضى ، مهما بلغت من التفاهة ، واخذ فى تضخيمها وتكبيرها الى أن تبدو اجسم من أن تنال العفو

وهذه حالة سيدة أخرى من مرضاى ، ظلت سنوات عديدة تشكو وسواسا غريبا ، وهو ان مكتب المباحث الجنائية يبحث عنها ويطاردها . وكانت تقرأ بين السطور فى كل صحيفة ومجلة واعلان ، عبارات تهديدية ، كان يخيل اليها انها موجهة اليها . وعبثا حاولت الوقوف على الجريمة التى ارتكبتها فى ماضيها حتى تخشى مطاردة البوليس لها . كل ما فى الأمر ، على حد قولها ، انها تخشى أن تكون قد ارتكبت خيانة ضد الوطن ، لا تعود تذكرها . وظلت تنوء تحت هذا الوسواس الأليم سنوات طويلة قبل أن تلجأ للعلاج

لا تخف من المسئولية ...

المسئولية لا تقتل أحدا أبداً .. وليست هى التى تهد كيان الجسم وتضنى العقل . ولم يسمع من أحد انه مات بسبب القيام بأعماله اليومية . قد تلقى اللوم على العمل اذا اصبت بالمرض ، ولـكنك بذلك تتخطى المذنب الأصلى : نفسك

ليست الوظيفة هي التي يعزى اليها المرض، بل الوسيلة التي بها تؤديها. وليست المسئوليات هي سبب علتك، وانما الكيفية التي بها تستجيب لها ، هي التي تنهك أعصابك . والرجل الحكيم هو الذى يعمل بيديه وذكائه ، لا بوجدانه وعاطفته وانفعالاته

المسئوليات هي الخطا التي أخرجت الجنس البشرى من الظلمات الى النور ، ومن الهمجية الى الحضارة . وهذا تاريخ أمريكا يدلنا على ان تلك المساحات المترامية الأطراف ، التي مهدت للزراعة والصناعة ، فى حقبة قصيرة نسبيا ، ما كانت لتبلغ مابلغته من التقدم والرقى، لولا المسئوليات الجسام التي تحملها رجال البلاد ونساؤها ، وجاهدوا فى سبيلها

وهذه آثار الرواد الذين تسلقوا جبال « الالفان » وجابوا البرارى والقفار ، ثم جازوا الجبال الصخرية فى طريقهم الى أرض الموعد ـ كاليفورنيا ـ هذه الآثار تدل عليها قبور أولئك الذين لقوا حتفهم ، لأن قواهم لم تتحمل أعباء تلك المسئوليات . بيد ان مقابل كل خمسة ماتوا ، تقدم عشرة نحو الهدف الى أن بلغوه . ولم تكن قوة الارادة وحدها هي التي ساعدتهم على السير ، وتحمل المسئوليات ومجابهة الأخطار ، ولكن صلابة أجسامهم وقوة أعصابهم هي التي دفعتهم الى الأمام . ومعنى هذا ان الجمع بين الارادة والقدرة ، قوة لا تقهر ولا **تقف أمامها جبال ولا أدغال**

ان رجال الولايات المسماة « نيو انجلند » ونساءها ، وكذلك سكان الولايات الجنوبية ، هم الذين حزموا انفسهم ، وشدوا رحالهم للتقدم الى الأمام بحثا عن

مصادر جديدة للرخاء والعيش الرغيد . أما اخوتهم وأخواتهم الذين قنعوا بالحالة الراهنة ، وقالوا : « هذه الأرض لتى عاش فيها آباؤنا واجدادنا » ، فقد تخلفوا عن الركب وآثروا البقاء فى أماكنهم

ان الخطر الأكبر الذى يهدد حرية الفرد ، لم يكن سببه تفشى الشيوعية أو النازية أو أمثالهما .. ولكنه الفلسفة التى يطالب معتنقوها الدولة بضمان الرزق للفرد .. الفلسفة التى تجعل الدولة مسئولة عن توفير العيش لمواطنيها . ونتيجتها اعتماد الفرد على الحكومة والمنشآت الاجتماعية ، بدلا من اعتماده على نفسه ، أو بتعبير آخر : احلال التواكل مكان الاستقلال الذاتى . وفى هذا هدم للمبادىء التى شيدت الحرية على أساسها

ان قبول هذه الفلسفة ـ كلها أو بعضها ـ يهدد كيان الارث الاجتماعى الذى به نفاخر ، لأنه يسمم نفسية من يؤمن بها ويمتص قوته العقلية ، فيشب عاجزا عن القيام بالمسئوليات التى تلقى على عاتقه

فلا غرابة اذا وقف أولئك الذين أغوتهم تلك الفلسفة حيارى مكتوفى اليدين ، أمام المشاكل التى تصادفهم فى حياتهم اليومية ، كالزواج ، وحياة الأسرة ، والحياة الاجتماعية ، وروتين العمل والوظيفة . يصعب على هؤلاء مسايرة الغير ، وتوطيد العلاقات الحسنة بينهم وبين زملائهم . ولايعتمدون على أنفسهم فىحل مشاكلهم ، ويتهربون من المسئولية ، والنتيجة الطلاق ، وهدم كيان الأسرة والحياة البيتية ، وتشرد الأطفال ، وما تقاسيه النساء من بؤس وهم ، ومايحمله الرجال من حقد ومرارة

ويترتب على هذا الاضطراب وتلك الفوضى ، انتشار

الامراض النفسيه ، واضطرار المصابين بها أن يلجأوا الى أطباء الأمراض العقلية. وواجب الطبيب الذى يعنى بشرف مهنته ، انتزاع الفلسفات الخرقاء والآراء المريضه من ادهان هؤلاء ، وتنظيم حياتهم النفسية واعادة تربيتهم من جديد، واستئصال التواكل والاستضعاف ، والانانية، والنزعات الصبيانية منهم، حتى يبلغوا درجة من النضوج تمكنهم من تحمل المسئوليات عن رغبة وطيب خاطر.. هذه هى الحرية الذاتية ، والتحرر من الخوف والتعب

الحياة طيبــة وجميــلة ...

أجل الحياة طيبة وجميلة .. واياك أن تسمح لأحد أن يقول لك انها ليست كذلك . ومهما يكن من شيء ، فانها أحسن وأجمل مما هى فى نظر أى واحد منا

لعل أشرف صفة فى الانسان ، أن يكون قادرا على « تجديد نفسه » . فالمريض الذى قضى شهورا وأعواما مثقلا بالداء ، وأضاع زهرة العمر بين أوجاع الجسم وعذاب الفكر، يستطيع بالعلاج وقوة الارادة أن يعوض مافات ، ويعيش البقية الباقية من عمره عيشة هانئة سعيدة . حقيقة انه لايستطيع أن يضيف الى عمره سنوات ، بيد انه خير للمرء أن يستمتع بالسعادة عاما من أن يعيش شقيا خمسين عاما . وهــذا ما عنينــاه بقولنا : قدرة الانسان على « تجديد نفسه »

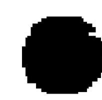
كثيرا ما أشبه تجديد النفس لمرضاى بعمل النحات الماهر ، الذى ينظر الى التمثال كل صباح ، فيمسه بأزميله ، هنا وهناك ، ليزيده جمالا وتكوينا وانسجاما وقربا من الكمال . هكذا الانسان الذى يعمل على تجديد ذاته ، بتفكيره السليم وسلوكه المستقيم يوما بعد يوم ، يقرب من المثل الأعلى

ولاسبيل لتجديد الذات بغير الحرية العقلية . فسرعان ما ينال المرء هذه الحرية ، حتى يجد علاقاته بزوجه وأولاده وجيرانه وزملائه فى العمل تتقدم من حسن الى أحسن ، وبكيفية ما كان يحلم بها من قبل . وكلما تقدم فى الأيام وواصل عملية التجديد ، زادت الحياة فى عينيه بهجة ومتعة وجمالا

ولعل الشاعر « أولفر وندل هولمز قد أوضح لنا بلغته الشعرية العذبة ، فلسفة التجديد هذه ، التى بها يجمل المرء « تمثاله » يوما بعد يوم الى أن يسمو به الى درجة من النبل والجمال والقرب من المثل الأعلى . وهذه أبيات مما جاء فى احدى قصائده الرائعة فى هذا المعنى :

لتزدد قصورك أيتها النفس فخامة
على مر الأيام وكر السنين
وانسى ماضيك بقبابه الوضيعة الواطئة
وليكن كل صرح جديد تشيدينه أنبل من سابقه
ولتتسع آفاق القبة التى تفصلك عن السماء
الى أن تنطلقى حرة الى العلياء
تاركة وراءك هيكلك البالى يلاطمه بحر الحياة العجاج

Build thee more stately mansions, O my soul !
As the swift seasons roll
Leave thy low-vaulted past !
Let each new temple, nobler than the last,
Shut thee from heaven with a dome more vast,
Till thou at length art free,
Leaving thine outgrown shell by life's unresting sea !



وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشـــم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :
THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :
M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

هـذا الكتاب

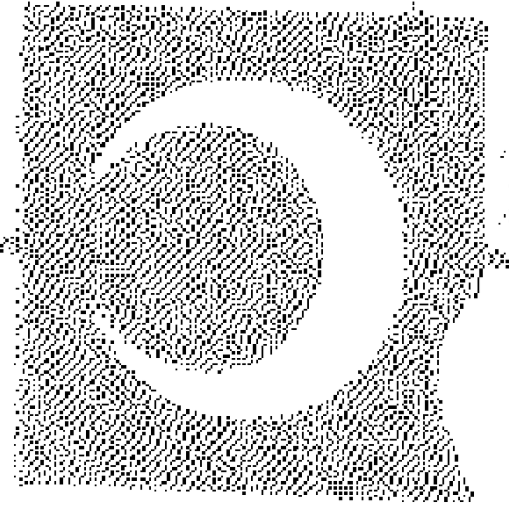
هذا الكتاب هو أحد كتابين هامين للدكتور ادوارد سبنسر كولز مدير مستشفى بارك افنيو بمدينة نيويورك ، وعضو الجمعية الامريكية لتقدم العلوم واكاديمية الطب والعلوم ، وكلا الكتابين في علاج الامراض النفسية ! ..

وقد سبق لسلسلة كتاب الهلال أن نشرت الكتاب الأول منهما بعنوان : « لا تخف » . وها هي تنشر الكتاب الثانى The conguest of Fatigue and Fear (التغلب على التعب والخوف) . وقد اخترنا له اسم (اعرف نفسك) حتى لا يلتبس على القراء بالكتاب الأول ، ولأنه لا يحوى علاج الخوف والتعب فقط ، بل يشرح حالات النفس البشرية ، ويتناول الجسم والنفس ككل واحد يتأثر كل منهما بالآخر . وقد تبين للمؤلف أن نجاح العلاج يتوقف على نوع التربية الذى تلقاه المريض ، ومعرفته لنفسه .

ولهذا فان الكتاب الذى نقدمه لقرائنا اليوم يحتوى على ارشادات دقيقةيفتقر اليهاالاصحاءوالمرضى النفسيين علىالسواء ويوجههمالتوجيه الصحيح الى ما يصلح انفسهم واجسامهم ، وينقذهم مما يعانونه من الأوهام والأحاسيس الغامضة ويعيد اليهم الشعور بالطمانينة والعافية والصحة .

٢٥ قرشا

كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

أحاديث جدتي

بقلم
• الدكتورة سهير القلماوي

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٣٠ ـ جمادى الثاني ١٣٩٨ ـ يونيه ١٩٧٨

No. 330 - Juin 1978

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عددا » في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا . في سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٥ر٢ جك - والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال في جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية . في الخارج بشيك مصرفي قابل للصرف في جمهورية مصر العربية والأسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الأسعار المحددة عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغــــلاف بريشة
الفنان جمال قطب

الدكتورة سهير القلماوى

أحاديث جدتى

دار الهلال

الاهــــــــداء

الى التى لولاها لم أكن شـــــــــيئا . . .

الى أمى . . .

تقديم

لا يحتمل هذا الكتاب الصغير مقدمات .. ومقدمة أستاذى ، التى أعتز بها ، قد اشتكى هو نفسه الخوف من أن تعتدى على حجم الكتاب . ولكنها كلمات قصار أريد أن أصدر بها هذه الطبعة .

ان لهذا الكتاب من قلبى منزلة الابن الأول من قلب أمه . انه أول ما ألفت ، وكان عهدى بلقاء القراء عن طريق القلم ، أو المستمعين عن طريق المذياع ، لا يجاوز عاما وبعض عام ، ولقد ألفته فى ظروف نفسية عصيبة اثر أعنف صدمة فى حياتى وهى موت أبى فى مطلع عام ١٩٣٥ ، ولعل فكرة تأليف الكتاب لم تعد أن تكون الدواء الذى اقترح على لأتسلى به عما كنت أعانيه من يأس وألم . وكانت الحياة من حولى تعين على يأس وألم ولكنى وجدت المهرب منها فى ماض أتعلق به وأحبه ومستقبل أرجوه وأثق انه سيكون .

ولكن الكتاب الذى قبعت آلاف من نسخه فى المخازن حينا كان قد عرف طريقه الى خارج مصر وهو بعد وليد . واستقبلنى أستاذى وليم مرسيه الأستاذ بالكوليج دوفرانس يوم سافرت اليه طالبة فى البعثة على انى مؤلفة « أحاديث جدتى » التى كان يقرأها مع

طلابه فى جامعة الجزائر . وكانت هـــذه الحقيقة أول فرحتى بالـكتاب . ثم أرسلت الى أمريكية ترجمـــة انجليزية فى أصولها لأراجعها . وراجعتهـــا ولا أدرى مصير هذه الترجمة من الـكتاب .

وفى العـــام المـــاضى طلب الى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب أن يقوم بترجمة الـكتاب ضـــمن ما سيترجم من أدبنا الحديث لنشره فى الخارج . وبعـــد أسابيع وافتنى الطالبة « نجاح هاشم » برسالة باللغة الانجليزية قدمتهـــا عن الـكتاب لجامعة دمشق ، وفى الرسالة جزء كبير مترجم عن الـكتاب .

وقد لقيت فى القاهرة الأستاذ هنرى ماسـيه مدير مدرسة اللغات الشرقية فى باريس فحدثنى عن ترجمته للـكتاب الى اللغة الفرنسية ، واليوم تطلب منى هـــذه المؤسسة التى تشرف على اصـــدار هـــذه الطبعة أن تنشر الـكتاب على أكبر عدد ممكن من القراء .

وهكذا كبر الوليـــد ، وبعد ربع قرن تقريبا من ميلاده يلقى القراء يافعا قـــد اكتسب ، كما اكتسبت أمه من خبرة الابن الأول ، حقـــائق ومعلومات عن الحياة على هذه الأرض ــ حياة الأجساد وحياة العقول على السواء .

ولا يسعنى وأنا أقدم الـكتاب فى طبعته تلك الا أن أزود ابنى الأكبر بالأمنية التى تزود بها الأم ابنها وهو مقبـــل على ســـفر فى مهمة ترجو له فيهـــا النجاح . فليعنك الله يابنى على أن تنجح فى أن تثير فـــكرة ، أو تنعش عاطفة ، فتخفف على قارئك شيئا من عناء السير المضنى فى الطريق الطويل الشاق ــ طريق الحياة .

ســـهير القلمـــاوى

مقدمة

للدكتور طه حسين

ان صدق ظنى فسيكون لهذا الكتاب الذى أقدمه الى القراء شأن أى شأن . فقد قرأته مرتين وما أشك فى انى سأقرؤه مرة ومرة ، وما أظن أنى سأنصرف عنه وقد أرضيت حاجتى الى قراءته ، وانما ستصرفنى عنه كتب أخرى لابد من أن تقرأ ، وواجبات لابد من أن تؤدى ، وهذه الظروف المختلفة التى تحول بينك وبين ما تريد .

ولو أنى حاولت أن أبين الأسباب التى تحبب الى هذا الكتاب ولا تزهدنى فى قراءته مهما تتكرر ، لما وجدت ذلك سهلا ولا يسيرا . فقد ألتمس هذه الأسباب فى هؤلاء الأشخاص الذين يتحدث الينا الكتاب عنهم ، والذين يصورون لنا عصرا من عصورنا القومية نحبه أشد الحب ، ونجهل من أمره غير قليل ، أو تكاد نجهل من أمره كل شيء ، وهو هذا العصر الذى سبق الاحتلال الانجليزى واتصل حتى ادرك أوائله .

ففى هذا العصر كانت لمصر آمال واسعة وأمانى عراض ، وكانت لها خطوات بعيدة موفقة الى تحقيق

الآمال وادراك الأماني ، وكان فيها نشـــاط تخفق له القلوب بالحياة ، وتمتلىء له النفوس ثقـــة وعزما ، ثم بينا هى ماضيـــة فى طريقها يدفعها اليقين ، وتبتسم لها الأيام ، وتثور من حولها المصاعب مختلفة معقدة ، فلا تثنى لها هما ، ولا تفل لها عزما ، اذا ســـحابة مظلمة قاتمة تسعى اليها من وراء البحر فلا تحفل بها ولا تهتم لها ، بل لا تزيدها هذه السحابة الا قوة وأيدا ، والا نشاطا وجـــدا ، والا ثقة بالنفس واطمئنانا الى حسن الحظ .

ولـكن السحابة تسعى متثاقلة متباطئة فى جـد مع ذلك وتصميم ، وقد قدمت بين يديها نذرا لم تسمع لها مصر ولم تصغ اليها ، وما تزال السحابة فى سعيها تسبقها ظلمات ، وتكتنفها ظلمات ، وتتبعها ظلمـات ، حتى تبلغ وادى النيل فتطبق عليه اطباقا ، واذا هى تحجب عنه الضوء ، وتصد عنه النسيم ، وتضطره الى حيـاة فيهـا البؤس كل البؤس ، وفيهـا الشقاء كل الشقاء ، وفيهـا العودة الى ذل كانت مصر قد برئت منه ، والى خمول كانت مصر قد حطت عن نفسها أثقاله ، والى يأس كانت مصر قد فرجته عن نفسها تفريجا ، واذا نفوس تزهق ، ودماء تراق ، وآمال تحطم ، وعزائم تفل ، وقلوب يملؤها القنوط ، ووجوه يغشيها العبوس ، وثغور كانت تبتسم فمحى عنها الابتسام محوا ، واذا حزن متصل ويأس مقيم ، واذا أمور مصر ليست اليها ، واذا هذه الأسباب التى كانت مصر تمدها موفقة الى مجد جديد تقطع تقطيعا ، واذا الســـلاســـل والأغلال تفرض على هذا الشعب الذى كان قد حطم السلاسل والأغلال .

هـذا العصر يصوره لنا الأشخاص الذين يتحدث عنهم هـذا الـكتاب ، فأكثرهم كان يعمل فى الجيش المصرى ، فى هـذا الجيش الذى لم يكد يتكون وينشط ويعمل حتى أظهر الأعاجيب ، وأقنع الأمم المعاصرة بأن مصر خليقة أن يحسب لها حساب حين ترضى ، وأن يحسب لها حساب حين تغضب وأن يحسب لها حساب حين تريد .

وكان هؤلاء الأشخاص يستقبلون أعمالهم فى الجيش راضين مغتبطين واثقين ، وكان رضـاهم واغتبـاطهم وثقتهم تشـيع من حولهم شـعورا حلوا هادئا بالأمن والدعة وحسن الرجاء ، وكان ما يعرض لهم من الخطوب والأهوال يثير من حولهم أحيـانا هـذا الاضطراب النقى الـكريم الذى يملأ قلوب الأمهات والزوجات حين يعلمن ان أبناءهن وأزواجهن يتعرضون للخطوب والأهوال ، ولـكن فى سبيل عز الوطن واقامة مجده الخالد ، هذا الاضطراب النقى الـكريم الذى يحمل الى القلوب الحزن والعزاء ، ويحمل اليها اليأس والرجاء ، ويحمل اليها الجزع على من تفقـد ، والأمل فى رفعة الوطن وفوزه بالمجد الطريف يضاف الى المجد التليد .

هؤلاء الأشخاص الذين يتحدث عنهم الكتاب يحببونه الى ويرغبوننى فيه ، ويحملوننى على أن أقرأ أنبـاءهم مرة ومرة ، دون أن أشعر بالملل أو أن أحس الفتور .

وقد ألتمس هـذه الأسباب عنـد أشخاص آخرين يتحدث عنهم الـكتاب ، لم يكونوا يعملون فى الجيش ولا يتعرضون لأهوال الحرب . وانمـا كانوا يعيشـون فى المدينة هادئين مطمئنين ، وكانت لهم أخلاق وعادات قد

بعد عهدنا بها ، وان كان قريبا ، لشدة ما أثرت الحضارة الحديثة فى حياتنا ، وقطعت أو كادت تقطع ما بيننا وبين ماضينا القريب جدا من الأسباب والصلات . فنحن نجد لذة حين نقرأ أحاديث هؤلاء الناس ، وحين نرى من عاداتهم وأخلاقهم ما نرى ، وحين نحس ما كان بينهم من هذه المودة الصادقة الساذجة التى لا تفسدها المنافع ولا تغيرها الأهواء ، وحين نلمح هذه العقلية اليسيرة التى كانت تطمح طموحا قويا الى المثل الأعلى ، ولكن فى غير تكلف ولا تصنع ولا اعتداد بالنفس ، ولا غرور بما تأتى من الخير ولا امتنان بما تقدم من الجميل ، ولا كفر بما يسدى اليها من النعمة . ونحن نجد لذة حين نسمع هذه الأحاديث التى تصورهم لنا كما رأينا آباءنا وأمهاتنا أو قريبا مما رأينا آباءنا وأمهاتنا حين كنا أطفالا ، وحين كانت الحضارة الحديثة تنسل الى بيوتنا انسلالا ، وتنسل الى نفوسنا أيضا ، وتمد حولنا الحبائل والشباك الخفية الدقيقة ، تأخذنا بها فى المدرسة ، وتأخذنا بها فى البيت ، وتأخذنا بها فى الشارع حين نمشى ، وتأخذنا بها فى أنديتنا حين نلعب ، فنقدر ما بينهم وبيننا من هذه الآماد التى كانت قريبة فبعدت ، ومن هذه الصلات التى كانت متينة فوهنت وأصابها الضعف ، حتى أنا لنلقى من بقى منهم فنتحدث اليه فلا يكاد يفهم عنا ، ونسمع له فلا نكاد نفهم عنه . واذا نحن محتاجون الى أن نتكلف السذاجة والتبسط لنصل الى قلبه وعقله ، واذا هو محتاج الى أن يتكلف ما لايطيق من التعقيد ليبلغ قلوبنا وعقولنا ، واذا نحن الى قلوب الأجانب من الأوروبيين وعقولهم أدنى منا الى قلوب الشيوخ من

المصريين وعقولهم . واذا نحن نتحدث اليهم العربية ، ولكننا فى حاجة الى الترجمان ، على حين نتحدث الى الأجانب لغتهم الأجنبية أو لغتنا العربية فنفهم عنهم ويفهمون عنا فى غير جهد ولا عناء .

نعم وقد ألتمس هذه الأسباب فيما يصوره لنا هذا الكتاب من اقدام النفس المصرية على حياتنا الجديدة هذه فى شيء من الحذر والاحتياط ، وفى شيء من الشك والريبة . وفى كثير من التمنع والمقاومة ، فنقارن بين اندفاعنا الى هذه الحياة الجديدة فى غير اناة ولا روية ، وفى غير مهل ولا تفكير ، وبين اقبال آبائنا عليها متحفظين مستائين ، لايأخذون بحظهم منها الا بعد تبصر وتدبر ، والا بعد تنخل واختيار ، كأنهم كانوا يعلمون حق العلم ان الانتقال من طور الى طور والملاءمة بين حضارة وحضارة ، والتقريب بين حياة وحياة . كل ذلك ليس من الأشياء التى تستطيع أن تتم دون أن يسيطر عليها العقل ، وينظمها حسن التدبير والتفكير ، وان شخصية الأفراد والجماعات أعز على الأفراد والجماعات والصق بنفوسهم وأثبت فيها من أن تفنيها الرغبة فى التجديد ، وانما هى شيء يستطيع أن يرقى دون أن يفنى ، وأن يتطور ويتجدد دون أن يموت أو يبتذل ابتذالا .

نعم وقد ألتمس هذه الأسباب التى تحبب الى الكتاب فى هذه السذاجة الحلوة ، التى تبدأ مع الجملة الأولى من جمل الكتاب ، ولا تزال تترقرق فيه كما يترقرق الماء فى الأغصان الخضرة النضرة فتبعث فى النفس حياة قوية ، وحنينا ليس أقل منها قوة ، وتملأ العقل اقتناعا بأن حياتنا المصرية القريبة ليست من الجفاء والجفوة ،

وليست من الخشونة والفلظة ، وليست من الذواء والذبول بحيث يظن الشباب المتهالكون على كل جديد ، الذين تفتنهم مظاهر الحضارة الحديثة ، وتخلب عقولهم وألبابهم ، فاذا هم ينـدفعون الى أمام لا ينظرون الى وراء ، واذا هم يمضون ولا يقفون من حين الى حين ، واذا هم يقتحمون بحرا لجيا ، وقد قطعوا ما كان يصل بينهم وبين الساحل من أسباب ، واذا هم لا يدرون متى يصلون ولا يعرفون كيف يرجعون .

وقد ألتمس هذه الأسباب التى تحبب الى الكتاب فى هذه العبارة السهلة اليسيرة التى برئت من كل تكلف ، وارتفعت عن كل تصنع وتحدثت الى النفس المصرية والى القلب المصرى بلغة النفس المصرية والقلب المصرى ، لم تستعر ألفاظها ولا أساليبها من القدماء الذين بعد بينهم وبيننا العهد ، ولم تتكلف محاكاة الأوربيين الذين لم يتم بيننا وبينهم الامتزاج ، وانما هى مصرية خالصة بل قاهرية خالصة ، لا تكره أن تشذ أحيانا بعض الشذوذ عما ألفته الفصاحة المدرسية والبلاغة التعليمية من التزام بعض الأوضاع والأشكال فى ادارة الجمل ، واقامة بناء الكلام بعضه على بعض . ذلك لأن الكتاب مشتق من حياة الأسرة المصرية القاهرية اشتقاقا ، فهو قطعة منها ، وهو يصورها فى معانيه كما يصورها فى ألفاظه وكما يصورها فى أساليبه . فأنت لا تكاد تأخذ فى قراءته حتى يخيل اليك انك لا تقرأ ، وانما أنت تسمع وترى ، وأنت تظن أول الأمر انك تسمع هذه الفتاة ، وتراها تتلطف لجدتها وتدور حولها تلتمس منها القصة والحديث ، وانك ترى هذه الجدة مستجيبة للفتاة فى حب وحنان ، متحدثة اليها

فى صدق وصراحة واخلاص ، ولـكن الحديث لا يلبث أن يأخذك ، واذا أنت تنسى الجدة والفتاة ، وترى هؤلاء الأشخاص الذين يدور الحديث عليهم بين الجدة والفتاة يسعون ويعملون وتسمعهم يجدون ويهزلون . واذا أنت واحد منهم ، واذا أنت تشاركهم فى حياتهم وتشاطرهم آلامهم ولذاتهم . كل ذلك دون أن تبذل جهدا اوتتحمل مشقة أو تتكلف عناء ، لأن الـكتاب قد أفرغ فى هـذا اللفظ المصرى الحلو الذى نصطنعه حين يتحدث بعضنا الى بعض ، فلا نجد فى اصطناعه ولا فى فهمه اعيـاء ولا عسرا .

قف عند قصـة عائشة هذه التى تلقاك متى بدأت قراءة الـكتاب ، فسترى أول الأمر مطرا ينهمر ، ورعدا يخفق فى أجواز الجو ، وستسمع ريحا تعصف ، ورعدا يقصف ، وسترى فتـاة معجبـة بهذا كله تنظر اليه وتستمتع به ، وتكاد أن تتلقاه ، وجدة مشفقة عليهـا تحذرها وتدعوها وتغريها بالقصة والحديث . ثم استمع للجدة وقد أقبلت عليها الفتاة تحدثها حديثا فيه جمال الذكرى وحنينها وألمها ، فقد أثارت هـذه العاصفة فى نفسها صورة عاصفة أخرى عصفت بالقاهرة منذ أعوام وأعوام ، ولـكنها انتهت الى حزن يا له من حـزن ، وانت لا تـكاد تمضى فى هذا الحديث حتى تنسى العاصفة التى يضطرب بها الجو الآن ، والتى اضطرب بها الجو منذ أعوام وأعوام ، لأن الحديث قد أثار لك شخصـا غريبا فى أول الأمر ولـكنه مؤثر محزن مثير للعطف مثير للرثاء بعد قليل ، هو شخص عائشة هـذه التى كانت ساذجة يسيرة العقل ، حلوة النفس ، صادقة الحب ، تضحك صديقاتها بسذاجتها ، وتضحك هى من هـذه

السذاجة ، تتعثر فى غير عقبة ، وتضطرب لما لا يدعو الى الاضطراب ، ثم يستبين لها الأمر فكأنما يرفع عنها الغطاء . واذا هى دهشة لتعثرها ، معجبة باضطرابها ، منكرة لهذا القصور الذى أضحك منها الصديقات وأضحكها من نفسها ، واذا هى مضحكة حين يستبين لها الامر ، كما كانت مضحكة حين يختلط عليها الأمر .
وانظر الى هؤلاء الصديقات من حولها يداعبنها ويلاعبنها ويمكرن بها ويضحكن منها ويحببنها مع ذلك ، بل يحببنها لذلك حبا كله صدق واخلاص . وكل هؤلاء النساء من هذه الطبقة الوسطى التى لا ترقى بها الثروة الى أن تكون من الأرستقراطية الحاكمة ، ولا يهبط بها الفقر الى أن تكون من الرعية المحكومة ، وانما هى طبقة بين هذا وذاك ، تستمتع بسعة فى الحياة ولكنها سعة محدودة ، هى هذه الطبقة التى أخذت تظهر وترقى شيئا فشيئا منذ بدأ تاريخنا الحديث ، وأخذنا نكون الجيش وننظم الدواوين ، ونهيىء أبناء الشعب للعمل فى الجيش وفى الدواوين فتتغير أحوالهم قليلا قليلا ، يرقون الى الترك الحاكمين بعض الشىء ، ويهبط اليهم الترك بعض الشىء ، ثم يلتقون ، ثم يمتزجون ، ثم يفنى العنصر التركى فى العنصر المصرى قليلا قليلا ، ثم تتكون هذه الطبقة التى تختصر النشاط المصرى فى السياسة والادارة والحرب والقضاء والتعليم منذ انتصف القرن الماضى . هؤلاء الصديقات من هذه الطبقة هن مصريات قد تزوجن الأتراك أو هن أتراك قد تزوجن المصريين ، ففيهن تلقى النفس التركية والنفس المصرية ، وفيهن تتمثل العقلية الشرقية ، وقد أخذت تتفتح فى استحياء لما تحمله الينا الحضارة الغربية من ألوان التجديد .

انظر اليهن وقد اجتمعن فى الضحى عند الجدة ، وهن يتحدثن ويضحكن ويتندرن بعائشة ، ويتفكهن بما حفظن لها من الأحاديث ، وهن ينتظرنها ، وقد دبرت لها اختها كيدا ، فهن يتساءلن كيف تخلص من هذا الكيد ، ثم انظر اليها ، وقد أقبلت حائرة ثائرة فهن يضحكن من حيرتها وثورتها ، ثم يستبين لها ما كان قد خفى عليها ، فاذا هى تشاركهن فى ضحك متصل ، ينقضى النهار دون أن ينقضى . ولكن أسمعت الجدة ؟ أرأيتها ؟ انها قد رات فيما يرى النائم شيئا أزعجها وملأ قلبها رعبا وخوفا ، وهى تصدق الأحلام وتشفق من تعبيرها ، وهى تقص حلمها على صديقاتها قبل مقدم عائشة ، لأن الحلم يتصل بعائشة وهى تلجأ الى الضحك وتنغمس فيه تدافع به طائف الليل ، هذا الذى ملأ قلبها اشفاقا وفرقا ولكن الطائف يتراءى لها من حين الى حين فينغص عليها هذا الصفاء الذى كانت تود لو يخلص من كل شائبة ، وقد انقضى النهار واقبل الليل ، ونشر على المدينة ظلمته وهدوءه ، ولم تكن فى المدينة سيارات ، ولم تكن أسباب الانتقال فيها يسيرة ولا منظمة ، والصديقات مبتهجات بتقدم الليل وانتشار ظلمته ، وتعسر الأوبة عليهن ، وهذه العاصفة تثور ، وهذه السحب المتراكمة قد أقبلت يسبقها البرق ويحدوها الرعد ، وهى تصب ماءها على المدينة صبا ، فليس للصديقات بد من أن ينفقن ليلة سعيدة مجتمعات ، قد فرض المطر عليهن هذا الاجتماع ، سيبتن الليلة اذن عند صاحبتهن ، وسيسمرن ما وسعهن السمر ، وها هن اولاء قد أوين الى مضاجعهن ينفقن فيها ما بقى من الليل ، ولكن عائشة لا تريد أن تستقبل النوم دون أن

تؤدى صلاتها ، فقد كان النساء فى ذلك الوقت يصلين ويحرصن على الصلاة ، ولـكن ما بال عائشة مضطربة لا تستقبل الصلاة الا انصرفت عنها لتستقبلها من جديد ثم تنصرف عنها ، اسمع لها وهى تتحدث الى صديقتها الجدة شاكية مشفقة أن الشيطان يقوم بينها وبين القبلة كلما استقبلت الصلاة ليصرفها عنها ، مخوفا لها ساخرا منها ، ملحا فى تخويفه وفى سخريته ، ان الأيام لتضمر لعائشة شرا ، وان الجدة لتنتظرهذا الشر وتكاد تتبينه ، ولـكنها تكتم حلمها عن عائشة وتخفيه عليها ، فلتكتمه ان شاءت ، ولتخفه ان أحبت ، فالأيام كفيلة بأن تعلن الخفى وتظهر المـكتوم ، وهى تبطىء فى ذلك أحيانا ، أما الآن فهى مسرعة لا تحب الابطاء ، تسمع أن البـاب يطرق ، من عسى أن يكون الطـارق ؟ فقد تقدم الليل والعاصفة ثائرة ، والمطر ينهمر انهمارا . هو رسـول الأيام الذى أقبل ينبىء عائشة بأن ابنها قد مات فى بعض الأقاليم . لقد تم تأويل الرؤيا ، ولقد تبين مكرالشيطان! ولقد قطعت الأسباب بينعائشة وبينالضحك ، ووصلت أسباب أخرى بينها وبين الحزن . فانظر اليها بعد ذلك ساذجة فى حزنها كما كانت ساذجة فى ابتهاجها ، ولكنه حزن لا يمر بك دون أن يملأ نفسك لوعة وأسى ، لأنه حزن ساذج لا تكلف فيه ، انظر الى عائشة الحزينة . وقد آوت الى مضجعها وأخذ النوم يدنو منها ، واذا ابنها الفقيد يتراءى لها ، واذا هى تقرأ له الفاتحة ولا تـكاد تأخذ فى ذلك حتى تستبق اليها أشباح من الموتى لا تـكاد تحصى ، وكلها يطلب اليها أن تقرأ له الفاتحة ، كما قرأتها لابنها ، وهى تهدىء الأشـباح وتعدها ، ثم تنفق ليلها فى قراءة الفاتحة للموتى !

أين تكون السذاجة المؤثرة المصورة للنفس المصرية فى آخر القرن الماضى اذا لم تكن فى هذا الحديث وفى الأحاديث الأخرى ، التى قصتها علينا « سهير » فى هذا الكتاب .

لقد كنت أريد أن ألم بهذه الأحاديث الأخرى ، فهى ليست أقل روعة ولا جمالا ولا تأثيرا من حديث عائشة ، ولكنى أخشى أن أطيل وأن تبلغ المقدمة قدر الكتاب ، وما أظن ان الناس يأخذون هذا الكتاب ليقرءونى أنا ، وانما هم يأخذونه ليقرءوا « سهير » فلسهير قراؤها والمعجبون بها على قرب عهدها بالتحدث الى الناس ، وأنا أحد هؤلاء القراء وأحد هؤلاء المعجبين. ومن يدرى؟ لعل اعجابى بسهير الكاتبة ، ورضاى عن سهير الطالبة من الأسباب التى تحبب الى هذا الكتاب . ولكن الذى لاشك فيه هو ان هذا الاعجاب وهذا الرضا هما اللذان يمنعانى من أن أثنى على « سهير » بأكثر مما ينبغى لها من ثناء الأستاذ الذى لم يتعود منه طلابه اسرافا فى الثناء .

طه حسين

— ١ —

عصفت الريح عاتية فى ليـــلة من ليالى الشــتاء ، وأرعدت السحب وأبرقت ، ونزل المطر كأنما فتــحت ينابيع السماء . وانزوى كل فى ركن داره يتلمس الدفء من برد قارس ، والهدوء من اضطراب عصبى ، لايرى له مصدرا الا تفاعل الانسان مع الطبيعة حوله. وجلست جدتى قرب موقدها ، وقد أشــعلت لفافة تبغ تبغى الهدوء والدفء .

ولـكننى لم أستطع الهدوء فى مثل تلك الســاعة ، ففتحت الباب وخرجت الى الشرفة أنظر البرق وأرى المطر وأستنشق الهواء المغسول ، فأحس لكل هذا لذة غريبة . وصاحت بى جــدتى بعد برهة تنصح لى أن أدخل لأن البرد قارس لا يحتمل ، فلا داعى للتعرض له لمجرد مشاهدة البرق أو المطر أو لاستنشاق الهواء .

وجدتى تعلم ان ليس يغرينى بطاعتها مثل وعد بقصة جديدة أو بحديث عن ماضــيها ، فأسرعت ترغبنى فى الدخول ، قائلة انها ستقص على ما كان فى ليلة مثل هذه منذ أربعين عاما أو تزيد .

ــ كنا يا ابنتى نحن أهل الزمن الأول لا نعرف الكلفة ولا نتصنعها . فاذا أحببنا أحببنــا باخلاص وعاشرنا باخلاص ، لا نتكلف شيئا بيننا وبين من نحب ونعاشر.

لم نكن كأهل هذا الزمن نتكلف فى كل شىء . كنا لانعرف هذه المدنية الجديدة التى تضطر المرء الى أن يصانع ويدارى ، وأن يلاطف ويترضى ، وأن يتكلف ويتصنع..

وابتسمت ، وعرفت جدتى سر ابتسامتى ، فلطالما تناقشنا حول هذا الموضوع : هى تزعم ما قالت ، وأنا أدافع عن أهل هذا الزمن دفاع من يرتبط به . وكان أشد ما يدفعنى فى هذا النقاش أنى لست أحب تحسرا على ماض ولا تمنيا لرجعته . فلولا سلطان الزمن ، ولولا هذا السحر الذى يسبغه على الماضى ما تحسر ربع هؤلاء المتحسرين ولا تمنى أقل منهم رجعته .

وكانت جدتى مأخوذة بسحر هذا الماضى الذى أحبته يوم كان حاضرا ، وعاشت على ذكرياته بعد أن أصبح ماضيا ، فلم تعر ابتسامتى اكتراثا ، ومضت فى حديثها :

ــ وكانت أحب صديقاتى الى صديقتى عائشة ،كانت يا ابنتى سليمة النية ، طيبة القلب ، سمحة الطبع ، محببة العشرة ، كان قلبها أحسن ما فيها ، ان لم يكن هو كل ما كان فيها . أما عقلها فقد كان قاصرا بعض القصور ، يعوقها عن الفهم أحيانا ، وعن الحكم على الأمور غالبا ، وكنا ــ وخاصة أختها ــ نستغل فيها هذا الضعف لنضحك منها ، لا فى سخرية كما يفعل أهل اليوم ، وانما كنا نضحك لنضحكها معنا آخر الأمر ، لا نريد بذلك الا تمضية الوقت على أحسن ما نستطيع . فاذا ما مر الفصل الذى دبرناه لها ، وفرغنا من الضحك منه بعد أن أشركناها معنا كانت هى التى تذكرنا به لنضحك منه مرات أخرى ، وكانت هى التى تلوم نفسها وتقول : ما أشد غفلتى ، كيف لم أفهم !

ـ جاءتنى يوما زائرة ، ولـكنها لعذر لم تستطع ان تمكث عندى كما كنا نحب ، فوعدت أن تأتينى فى الغد. فلما كان الغد دخلت على أختها وهى لا تتمالك نفسها من شدة الضحك . قلت لها : ما بك وأين عائشة ؟.. وكان سؤالى عن عائشة فى لهفة شـــديدة . ذلك انى يا ابنتى رأيت رؤيا فى تلك الليلة أفزعتنى. وأنت تعلمين بالتجربة ما لأحلامى من أثر فى حقيقة حياتى ، فلما لم تأت عائشة خفت عليها لأن ابنها مريض منـــذ أيام فى الريف حيث يعمل . ورغم ضحك أختها لم أستطعطرد أفكارى السود ، لـكنها قطعت على أفـكارى بقولها :

« سبقتها اليك ، ولقـــد دبرت لها فصـــلا مضحكا للغاية ، هى لا تلبس الا البرقع الأسود كما تعلمين ، وأنا لا ألبس الا الأبيض، ولـكنى اليوم أردت أن نضحك منها ، فأخذت برقعها الأسود ولبسته أنا ، وتركت لها البرقع الأبيض . وأؤكد لك انها لن تعرف كيف تلبسه ، وستظل فى حيرتها هذه طويلا ، ولست أعرف على أى شكل ستحل مشكلتها ، ولـكنها ولا شك ستضحكنا من حلها » .

ـ ومكثنا ننتظر عائشة من الصباح الى قرب الظهر. وكنت لا أزال يا ابنتى أصـــارع الأفكار فلا أقوى على صرعها . ولاحظت صـــديقاتى كآبة كنت أخفيها حتى لا أعكر عليهن صفو اليوم ، فقلن لى : مالك ، وما بك ؟ قلت : ان رؤيا رأيتها مفزعة أليمة لم أستطع التخلص من سلطانها وسلطان جوها الى الآن . قلن : اللهم اجعله خيرا ، وما رؤياك ؟ قلت : رؤيا مضطربة لا أذكر منها الا قليلا ، فكأنى فى منزلى هذا ، ولكن فى غرفة غريبة

عنى كل الفرابة ، واذا بعائشة لابسة لباسا أبيض من راسها الى قدميها ، وقد وضعت يدها على خدها ، ووجهها أصفر كالشمع ، وعيناها غائرتان من الألم ، واذا بأمى تلتفت الى وتقول : « مسـكينة عائشـة ، ضرسها وقع » ثم لم أر بعدها ولم اسمع شيئا .

ـ وجمت صديقاتى ، وكأن جو الرؤيا قد مسهن ، فكل حديث عن الرؤى له سحر عجيب يقف السامع امامه واجما . ولكن وجومنا لم يطل ، اذ دخلت علينا عائشة ، وقد وضعت البرقع على فمها وانفها وأمسكته بيدها طول الطريق ، وهى محتدة صاخبة قائلة لأختها :

« الله يجزيك ، اخذت برقعى وتركت لى هذا ، لم اعرف كيف ألبسه ، واخذت احاول ذلك بشتى الطرق، فتارة اشبكه ، واخرى أعلقه ، واخيرا لم أجد حلا الا انني أمسكه هكذا طول الطريق ، وقد ضاقت أنفاسى وآلمتنى يدى » .

ـ وكان منظرها يبعث على الضحك ، فلم نسـتطع سماع كلامها الا بصعوبة من شدة الضحك . وزاد فى ضحكنا شعور خفى بأنا تخلصنا من جو مكروه هو جو الرؤيا التى كنت أقصها . ولكنى يا ابنتى ظللت طول يومى تحت تأثر رؤياى ، ولم يمح منظر عائشة ببرقعها الأبيض منظرها وهى فى لباسها الأبيض ، كما رأيتها فى المنام .

ـ وكانت يا ابنتى كلما ازدادت غيظا زدنا ضحكا ، واخيرا اريناها كيف تلبسه ، فضحكت معنا ، وأمضينا اليوم فى ضحك ، نتصور منظرها وهى داخلة علينـا فنضحك ملء افواهنا. وتذكرهى معنا منظرها وحيرتها

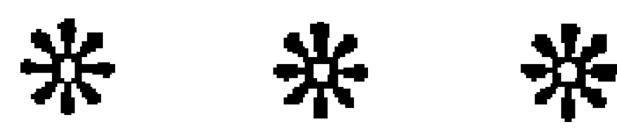
وما قاسته وكيف كان الأمرابسط مما قدرت ، فتشاركنا ضحكنا بقلب طاهر ونفس نقية .

ـ وما وافى الغروب يا ابنتى حتى اكفهر الجو فجأة ، ثم أرعدت السماء وأمطرت . كان المطر ينزل من السماء وكأن بها سقاة يفرغون قربهم على الأرض . كانت ليلة ويا لها من ليلة ، كانت كهـــذه تماما ، لازلت أذكرها وأذكر حوادثها كأنها تمر الآن أمامى جزءا جزءا .

واغرورقت عينا جدتى من ألم الذكرى ، فتألمت معها وان لم أعرف سر ألمها . لقد كانت عواطفها تنتقل الى فى يسر عجيب ، كأن أعصابنا مجموعة أسلاك كهربائية واحدة تسيطر عليها احدانا ، لا فرق بين أن تــكون هى المسيطرة أو أنا . وظللت مأخوذة بحديثها وشعورها ، فلم أنطق حرفا وان كنت حاولت جهدى .

ولاحظت جدتى ألمى واضطرابى ومحاولتى ، فقربت رأسى من صدرها وأسندته اليه بيدها فى حنان وعطف . ثم أمسكت ذقنى ورفعت رأسى حتى تلاقت عيوننا من خلل دمعى ودمعها . ثم قالت بصوت خافت حزين :

ـ يكفيك الله يا ابنتى شر ما لاقته عائشة منذ تلك الليلة الى آخر لياليها .



ـ كانت الليلة يا ابنتى كهذه حالكة أشد الحلوكة ، والطقس مكفهر ، والمطر غزير ، والرعد عال مخيف . وتعذر على صديقاتى ليلتها الرجوع الى منــــازلهن ، فقررن المبيت عندى ، وفرحنا كلنا لهذا القرار . لم تكن هذه أول ليلة بتنها عندى ، وانما كانت واحدة من كثيرات قبلها وكثيرات بعدها . كنا يا ابنتى ثلاث أسر أو أربعا

تتصادق نساؤها ويتصـــادق رجالها صـــداقة متينة مخلصة ، فكنا كلنا كأسرة واحـــدة نعيش كأخـــوات واخوة . ولم يكن المبيت عند احدى الصديقات الا شيئا عاديا ننتحل له اتفه الأعذار ، حتى يطول اجتماعنـــا فيطول سمرنا وسرورنا .

ــ وأخذنا فى السمر والضحك الى ســـاعة متأخرة من الليل . وكانت أخت عائشة كلما احست سكوتا أو شبه سكوت ، التفتت الى أختها تغيظها بأشياء وأقوال لا نتمالك اثرها من الضحك ، لأنها لم تكن تستحق كل هذا الفيظ أو الجد الذى يستولى على عائشة منها . فمثلا تقول لها أختها :

« أتدرين يا عائشة يا أختى ان الذى خلقنى خُلق الملك والوزير ، والذى خلقك خاق الكلب والخنزير ؟ »

فتحتد عائشة وتفتاظ وتصيح بها :

« حرام عليك . اسكتى يا كافرة ! استغفر الله .. استغفر الله .. انت يا بنت ! عقلك حصل فيه خلل!»

فكنا لا نمل الضحك من هذا الـكلام مهما تـكرر .

ــ وتقدم بنا الليل ، فقمنا كل منا تتلمس فراشها ، وقامت عائشة تصلى صلاة العشاء ، لأنها تعودت أن تصليها قبل نومها مباشرة . ولـكنها جاءتنى ، وكان فراشـــها جنب فراشى ، وقالت لى فى لهجة خـــوف ورهبة ، وقد اصفر وجهها :

«غريبة جدا يا أختى كلما بدأت الصلاة اليوم أرى الشيطان أمامى ، وقد لبس طرطورا أحمر ، وهو فاغر فاه ، يضحك ضحكة كأنه يستهزىء بى وبصـــلاتى ،

وأحس لوقفته هذه سلطانا عجيبا على ، فأكرر وأكرر : اللهم اخز الشيطان ، اللهم اخز الشيطان ، فتتـــلاشى صورته ، لــكن ما تلبث أن تعود ! وهكذا أظل أحاول الصلاة عبثا الى أن أمل فأتمها على عجل وفى خوف ، ولــكنى الآن لا أستطيع الصلاة بحال » .

قلت لها : خيالات تتراءى لك لضعف أعصـــابك ، أليس لك الآن أكثر من أسبوع وأنت مشغولة البال ، مهمومة لمرض محمد ابنك ؟. . وكدت أقص عليها رؤياى لولا أن ارتفعت عيناى الى وجهها الأصفر من الخوف ، فأشفقت عليها وسكت . وكأنما كانت تطارد أشـــباحا تراءت لها ، فقالت لى :

« كلا ، ان محمدا اليوم أحسن حالا كما قال لى أبوه. ولــكنى لست أدرى ما الذى يخيفنى عليه . كلما فكرت فيه أحسســت انقباضا لا أعرف له سببا ، كأنما حجر ثقيل يضغط على قلبى ، فأكاد أئن من ألم الضغط ، وعبثا أحاول أن أطمئن نفسى بالواقع ، وعبثا أكرر كلمات والده . . . ثم هذا الشيطان ماذا أفعل به ؟. . »

ـ وقالت جملتها الأخيرة بلهجتها الساذجة ، ونغمتها التى تصاحبها وقت الحيرة المضحكة ، وكدت أضحك لولا هذا الجو الذى كان يحبط بنا ، ولولا تلك الصفرة التى تعلو وجه عائشة ، والخوف الذى يتملــكها .

ـ وأقنعتها أخيرا بأن تترك الصلاة الى الغد ، فكانت تحاورنى قائلة : ولــكنى لم أؤجل فرضا باختيارى منذ بدأت الصلاة شابة الى اليوم .

ـ نامت عائشة أوتناومت ، ونمت جانبها أوتمددت، وظلت عيناى مفتوحتين متجهتين نحو عائشة فى فراشها

امامى. كنت لا اتبينها جيدا رغم حدة بصرى فى الظلام ، وكنت أخاف أن آتى بأى حركة لاتبينها حتى لا تزعج ، فقد كانت المسكينة متوترة الأعصـــــاب وجلة القلب مضطربة .

ـ كنت قد نسيت المطر والزوبعة يا ابنتى رغم شدتها وعتوها ، ولـكن الآن وقد هـــدأت كل حركة عادت اعصابى الى شىء من طبيعتها ، فأنصت الى المطر، وكان مازال يهمى ، والى الريح وكانت تعصف هائجة ثائرة . كنت أتخيل السحب فلا أرى من بينها الا عائشة بلباسها الأبيض ووجهها الشمعى ويدها على ضرسها . عائشة كما رأيتها فى الرؤيا . ومن بين أصوات الرياح والمطر والرعد رن صوت أمى ثانية حزينا هادئا متألما : «مسكينة عائشة ضرسها وقع » .

ـ وطرق باب الدار طارق ، فصحوت على صوته فزعة قلقة ، وفتحت النافذة أرقبه منها وأتسمع ما يقول ، قام اليه البواب ، واتخذت رســـالته مجراها الطبيعى حتى تصل الى ، ولـكنى، كنت قد سمعتها من نفس الطارق ، ووقفت لها واجمة لا أستطيع حراكا . ترى ماذا وراءها ، والى أين ستنتهى بنا هـــذه الليلة الليلاء ! ؟

ـ ورن صوت عائشة بجانبى خائفا وجلا كالطفل اتى امرا منكرا وهو يعترف بذنبه مستحييا نادما : « ماذا يا أختى ، ما الخبر ؟ »

ـ وحاولت ما استطعت أن أتــكلم بصـــوت عادى ، ولهجة لايستشف منهـــا اضطراب أو خوف ، فقلت : « ان زوجك يريدك حالا » ولو كنت يا ابنتى قلت لها

ان عزرائيل جاء يطلب روحك لما اضطربت أكثر مما اضطربت . قامت المسكينة ثائرة خائفة تكرر وتكرر : « قلبى قال لى ، يا ساتر يارب ، قلبى شاعر من الصبح ، يارب يارحيم » .

ــ وهرولت المسكينة ، وهرولت وراءها ، وماوصلنا دارها حتى صدمنا الواقع صدمة كادت تجن لها . لقد مات محمد ، ولم يؤخر المقدور خوف منه ، أو ترقب له . آخذت المسكينة تشد شعرها ، وتلطم وجهها وتصيح . ثم تعود الى شيء من الهدوء ، الى شيء من الاستسلام اليائس الحزين ، وتكرر بصوت مسموع كأنما تحاول أن تقنع نفسها فلا تقتنع : « قضاؤك اللهم ، وليس لقضائك مرد . انا لله وانا اليه راجعون » .

ــ تغيرت حال عائشة تغيرا تاما منذ تلك الليلة . وأصبحت يا ابنتى كثيرة الحيرة ، كثيرة الوجوم ، لا من فصول دبرناها لها ، وانما من فصول دبرها لها القدر ، وكان أغلظ منا قلبا وأقسى طبعا .

ــ كانت يا ابنتى كلما دخلت مأتما تعزى أهله فى فقيد تنصح لهن ألا يستسلمن للحزن وتقول لهن :

« لا . الحزن كفر . حزنت على ابنى الوحيد محمد ، وكان الشيطان لايدعنى مرة ، كلما صليت يأتى الى بطرطوره الأحمر وضحكته الساخرة ، ويقف أمامى على سجادة الصلاة ، ويظل يقول لى : « محمد كان جميلا . محمد كان ابنك . كان حنونا . محمد لم يكن لك غيره . كان له مستقبل باسم . ولكنه مات . مات . ربنا أخذه منك . محمد مات » حتى أترك الصلاة ،

ولكم تراكم على من فروض لم أؤدها الى اليوم .

« اياكن والحزن . انى لم أعرف صلاة مطمئنة منذ مات محمد ، ولم أعرف نوما هادئا منذ روحته ، كلما حاولت النوم يأتينى محمد يطلب الى أن أقرأ الفاتحة على روحه ، فما أكاد أتمها حتى يهجم على جيش من أموات الأهل والمعارف كلهم يصيحون : « والنبى الفاتحة لى ، والنبى الفاتحة لى » فأقول لهن : « واحدا واحدا ، انتظروا قليلا » ولكنهم يتزاحمون ، فأقرأ لهذا ثم لذاك ، فلا أفرغ حتى الصباح .

اياكن والحزن فهو كفر ... »

ـ وهكذا كانت عائشةتستمر فى لهجتها الساذجة الحزينة تقص على أهل الميت ما تلاقيه من حزن ، وكانت السامعات يتوهمن أن بها مسا ، وان عقلها اختل ، فما تكاد تقوم حتى يتهامسن :

« مسكينة عائشة ، عقلها ضاع » .

ـ ولكن لسوء حظ عائشة عقلها لم يضع .

* * *

ودوى الرعد ، وهمى المطر، وعصفت الريح ، فكررت جدتى :

ـ كانت يا ابنتى ليلة كهذه يوم مات محمد ، فاقرئي معى الفاتحة على روحه وعلى روح أمه عائشة .

وما كدنا نتم الفاتحة حتى تلاقت عيناى بعينى جدتى فاذا هما مغرورقتان والدمع يتساقط منهما فى هدوء وجلال ، وأسندت جدتى رأسى الى صدرها ، وكررت ثانية :

ـ يكفيك الله يا ابنتى شر ما لاقته عائشة ...

— ٢ —

بين الطفولة والشيخوخة جاذبيـة غريبـة وتشـابه عجيب . كلاهما قريب من هـذا العالم المجهول الذى جئنا منه وسنعود اليه . وكلاهما قليل التقدير للحياة ، يكاد لا يحفل بها هـذا عن جهـل بها ، وذاك عن علم وتجربة ، هـذا يبتسم للحيـاة ابتسام الطرب والأمل والفرح ، وذاك يبسم لها ابتسام السخر واليأس والألم .

وكثيرا ما نرى فى خلق الشيخ ما يقربه من الطفولة ، كأنما الحلقة قد تمت وعادت الى مبدئها من جديد ، وكثيرا ما يتصـادق الشـيخ والطفـل صـداقة حلوة طاهرة عميقة لاذة فيما تـكلف أصحابها من شـعور واحساس . فاذا كانت هذه الصداقة تقويها رابطة أوثق كرابطة النسب أو القرابة كانت أعمق وأدوم ..

كنت افـكر فى هـذا وأناجالسـة الى مكتبى أقرأ درسى . وكانت جدتى شـغلى الشاغل منـذ عدت من المدرسـة . فقـد عدت لأجدها نائمة تشكو شيئا من الصـداع . تعودت أن أرى جدتى دائما بعد عودتى من المدرسـة لأقبلها قبلة كانت اشـتياقا لها أول عهدى بالمدرسـة وبفراق جدتى ، ثم أصبحت بعد أن صار لى صـاحـات آنس اليهن والى لعبهن عادة أعتـدتها لا أرى لها سببا ، ولـكنى ان تركتها يوما شـعرت لتركها بشىء ولو قليل من الضيق .

دقّ الجرس ، فأسرعت الى جدتى أسألها ما تريد ، فسألتنى وقد ظنتنى خادمها : هــل عادت البنت من المدرسة ؟ فأسرعت نحوها أقبلها كعادتى .

وأضــاءت جدتى النور لتعرف الوقت من ســاعتها السحرية المعلقة على الحائط . كم كنت أحب هــذه الساعة صغيرة ، وكم تقت الى لمسها والى اللعب بها ، فــكانت جدتى تنهانى . وهأنذا اليوم أديرها بيدى ، ولــكننى ما زلت أحس ان لها شيئا من السحر ، وما زلت أكن لها غير قليل من شعور يحسه الانسان نحو الأشياء التى يألفها طفلا فتذكره دوما بأيام الطــفولة المرحة العذبة الذكريات .

قالت جدتى ، وقد رأتنى أنظر الى الســاعة : الا تنامين ، أنها الثامنة ليلا ؟ قلت : نعم ، بعد أن تقصى على قصة أو حديثا عن ماضيك . قالت : اســتعدى لنومك ، وتعالى ريثما أتذكر لك حديثا يعجبك ، فقــد كبرت الآن وأصبحت أحاديثى لك طفــلة لا يلــذ لك الآن الا أقلها .

فى ظلمــة غرفة جدتى ــ وقــد جلست جانبها على السرير ــ أخذت جدتى تقول :

ــ كنا يا ابنتى من زمن بعيد فى رشيد . كان جدك رحمه الله قد نقل مع جزء من الجيش ليعمل هناك فى حصونها . وكان منزلنا هناك معروفا لمكانة المرحوم زوجى . وكان أعيان رشيد ــ وقد أصبحوا أصدقاء جدك بعد أن أقمنا زمنا ــ يزورونه كثيرا ويزورهم ، ويجتمع بهم فى منزل أحدهم كلما استطاعوا أن يجتمعوا. كان بين هؤلاء رجل ثرى يملك منزلا فخما ، وحديقــة

واسعة مليئة بالفواكه والخضروات ، فى هذه الحديقة كثيرا ما ذهب أولادى ليلعبوا مع أبناء صاحب الدار .

ــ وكان ولدى اسماعيل أكثر اولادى حبا للعب . ولكنه كان ميالا الى الاتلاف فى لعبه ، ولكم نهيته ، ولكم حاولت معه باللين حينا ، والشدة كثيرا ، فلم أفلح معه فى كثير أو قليل ، وظل طول عمره أكثر أولادى كلفا باللعب وباغاظتى ، وظللت أعامله دون اخوته جميعا بالشدة والعنف .

ــ كنا يا ابنتى لا نعرف نظريات فى التربية ولا قواعد ، وانما كنا ننقاد فى تربية ابنائنا بفطرتنا ، وكانت العصا عندنا أكبر دواء لكل أدواء الطفولة الخلقية والنفسية ، فان ألهمتنا الفطرة طريقا غير العصا لنصل به الى ما نريد من الطفل العنيد المتلف المثير للغيظ ، كان ذلك من حسن حظ الطفل ومن حسن حظنا ، والا فان العصا أقرب ملجأ وأيسره وأسرعه فائدة .

ــ ذهب ابنى اسماعيل كعادته يلعب فى حديقة هذا الثرى ، ولكنه كان منذ أيام يحاور البستانى والبستانى يحاوره ليصل الى الكروم . كان العنب لايزال فجا حصرما ، ولكن للأطفال ولع خاص بالفاكهة الفجة لعله قلة اصطبار عليها حتى تنضج . وحاول البستانى أن يلهى اسماعيل بفاكهة أخرى وبوعود عن العنب يوم ينضج فلم يفلح معه ، كما كنت لا أفلح أنا معه . وأخيرا توعده مقسما انه اذا صعد الى الكروم وقطع فرعا واحدا فسيشكوه الى .

ــ ولكن اسماعيل اذا أراد لعبا أو فسادا فلن يعوقه شيء مهما عظم ، وكانت عناقيد العنب الخضراء المتدلية

تزيده رغبة وتشعله عزما . ففافل البستاني وتسلق السور ، فاذا ما كان فوق الكروم كسر وقطع وأكل وأفسد ما شاء له الكسر والقطع والافساد . وما أن هم بالنزول حتى لمحه البستانى فتاقاه نازلا على كتفيه وحمله وسار به الى .

ــ وبين منزلنا ومنزل صديق جدك هذا مسافة غير قصيرة ، يمر فيها المار على المنزل الذى كان يجلس فيه جدك وأصدقاؤه . ومر البستانى حاملا اسماعيل. وكان اسماعيل منذ أن لمست رجلاه كتف البستانى يصيح ويولول ، ويتضرع ويستفيث بكل مار أن يحميه مما سيلاقيه منى . وما أن لمح أصدقاء جدك حتى صاح بهم :

« ياهوه ، حشونى . أمى حتموتنى من الضرب » !

ــ والتفت صاحب الدار فعرف بستانيه ، وعرف ابن صديقه فأدرك كل شيء . طالما شكا البستانى اليه من اتلاف اسماعيل الزرع ، وطالما حاول صاحب الدار أن يشكو اسماعيل لأبيه ، ولكنه كان يشفق عليه كل مرة . وها هو اسماعيل يسير الى عقابه وانه لعقاب حق استأهله من زمن بعيد .

ــ وبعد البستانى بحمله الثائر الصائح قليلا ، فبدأت الرأفة والشفقة تدبان فى قلب صاحب الدار من جديد. وما كاد يصل البستانى الى ويشكو اسماعيل ، وماكدت

أهم لأحضر العصا أضربه بها ، حتى جاءنى خادم صاحب الدار يقول : ان سيده بالباب جاء بنفسه يستحلفنى الا أمد الى اسماعيل يدا .

لن تتصورى يا ابنتى مقدار غبطى ساعتها .

فهذا ابني يتلف مال الغير ، بل مال الصديق ، بعد أن حاولت معه كثيرا لأصرفه عن عادة الاتلاف هذه . ثم ها هو ذا يسير فى الطريق العام صائحا انى سأمينه من الضرب أمام المارين وأمام أصدقاء زوجي . ولكن هذا صديق زوجي يستحلفنى ألا أضربه ، فماذا يكون ردى عليه ؟ لن يكون الا القبول . فقبلت ، وانصرف السيد وخادمه ، وظللت أغلى من غيظى . أى عقاب انزله بهذا الشيطان بعد أن أساء الى والى صديق زوجي ؟

ـ وفكرت وفكرت ، وأخيرا اهتديت الى عقاب أعاقبه به دون أن أرجع فيما وعدت به الصديق .

ـ كان الوقت عصرا ، وكانت الشمس قد مالت للمغيب . وكنا يا ابنتى فى هذا الزمن لا ننعم بكهرباء تريحنا وتوفر علينا كثيراً من المشاغل والمتاعب . كنا اذا غربت الشمس نعمد الى مصابيح تضاء بالبترول لنضيئها واحدا واحدا ، ثم نعلقها فى عمود أو على الحائط ليشع نورها على المكان كله . وكم كنا نقاسى من هذه المصابيح ! فهى سريعة التلف تحتاج الى عناية ونظافة حتى تقوم بما يراد منها . ولكن هذا هين يسير ، وانما الخوف كل الخوف من احتمال فرقعتها وما تجره الفرقعة من حريق ودمار .

ـ لست أطيل عليك الحديث حول هذه المصابيح ، فقد وقاك الله ووقانا شرها . ولنعد الى اسماعيل فانى الى اليوم بعد نحو أربعين عاما لا أذكر هذه الحادثة الا اهتجت لها من جديد اهتياجا لا أفهم له سببا ، قد يكون ألم الذكرى ، وقد يكون شيئا آخر لا أستطيع أن أحدده .

ـ أنرنا المصابيح كلها وكان هناك مصباح خاص نعلقه فى عمود وسط صحن الدار لينير لنا الممرات والمنافع . وما كادت الخادم ترفع هذا المصباح الى مكانه من العمود حتى اتقدت الفكرة فى راسي اتقـاد الشرارة المفاجئة . ونظرت الى اسماعيل وقلت له : « سترى عقابك يا لعين بعد العشاء » ، وأكل كل من بالدار واستعدوا للنوم ، فعمدت الى اسماعيل وعريته وعلقته فى هـذا العمود تحت المصباح الذى يتهافت على نوره الناموس .

ـ كنت أسمع بهذه العقوبة من خـدمي وفى بعض القصص . ولـكنى لم أكن رأيتها أو جربتها قبل هـذا اليوم . وها هى الفكرة تأتينى وأنا فى أشد الحاجة لها ، فلم ألجأ الا اليها .

ـ وصرخ اسماعيل ، والحق يا ابنتى انى لم أطق سماع صراخه . وكان جدك متغيبا عن منزله فى مهمة من مهام الجيش ، فأغلقت أبواب الدار كلها ، ودخلت غرفتى أحاول النـوم . كان صراخ اسماعيل عاليـا متواصلا ، ثم سكت قليلا قليلا حتى لم يعد يصرخ الا صرخة خافتة قصيرة من آن لآن . عجبت الأمره وقلت لعله مل الصراخ فاستراح .

ـ جاهدت وجاهدت بين قلبى وعقلى ، هـذا ينكر عملى ويهيج شـفقتى ، وذاك يقول صبرا ان لم يـكن العقاب شديدا عاد الى ذنبه ، وفى العودة عذاب لك وله . واخيرا انتصر قلبى وخرجت من غرفتى عازمة على فك اسماعيل وغسله لينام . وكم كانت دهشتى وكم كان احتقارى لنفسى واشمئزازى منها !

ـ كان اسماعيل معلقا فى العمود ، وعلى الأرض جلست

خادمه « صبـــــــاح » وقد بلل الدمع جلبابها ووجهها ونحرها وهى لا تستطيع مسحه لأن يداها كانتا تهشان الناموس عن جسم اسماعيل . « منشة » فى كل يد تهش وتهش ، والدمع ينهمر ، وصوتها الخافت المتألم يردد كل حين :

« معليهشى ياســــيدى ! الليـــــل قــــرب ينتهى » ، واسماعيل لا يجيبها الا بقوله :

« هشى يا صباح والنبى ، هشى هنا ... وهنا »

ـ هـــذه الجارية ذات القلب الحساس لم تنم رغم حاجتها الى النوم ، وجازفت باحتمال قيامى ورؤيتها ، وما ستلاقى اذا ما وجدتها تتداخل فى أمر من أمورى . كل هذا من أجل صبى لاعبته صغيرا ، وعاشرته بضع سنوات ، وأنا أمه التى حملته جنينا ، وأرضعته طفلا، وربته صبيا ، ظللت أحاول النوم ولا أعبأ بصراخه . أية قسوة ! ما أحقر قلبى أمام قلب هذه الجارية !

ـ وقفت مبهوتة مغيـــظة من نفسى أحتقرها ، وأنا لا ارفع عينى عن « صباح » المبللة بالدمع التى لم تقف يداها عن الهش كأنها آلة مسخرة ، وكانت دمعة تنهمر من عينى لولا أن لمحتنى « صباح » فصاحت بى :

« اطردينى ياستى ، لـكن والنبى فـــكى سيـــدى اسماعيل » .

ـ لم أستطع أن أقول كلمة واحدة . وانما ذهبت نحو اسماعيل ، فأنزلته وأخـــذته الى الحمام أغسله . وما زال المسكين يبكى ، فقد كان جسمه كله ملتهبـــا ساخنا وارما .

ـ منذ ذلك اليوم أكبرت « صباح » واحتلت منزلة جديدة فى قلبى . ما رأيتها بعدها يوما الا رأيتها كما كانت فى تلك الليلة تهش الناموس عن ولدى ، وتواسيه ودمعها يجرى من شدة الألم له .

وصمتت جدتى كأنما الذكرى تعاودها . فقلت : « ولكن أين « صباح » الآن ياجدتى ؟ » قالت :

ـ ما كنت لأخرجها من دارى يا ابننى ، ولو قدموا لى أحسن جوارى العالم ، وأقدرهن على خدمتى . ولكن شاءت لها الظروف أن يكون خروجها من عندى أهون ما ينزل بها ، فقبلته مضطرة . ولقد جازاها الله على وفائها لى ، ولولدى اسماعيل خير جزاء .

ـ سرقت من جدك أشياء بعد هذه الحادثة بأعوام فاتهموها . وكانت الظروف قاسية عليها ، فاعتقد كل من بالدار انها هى السارقة . ولم أجد بين كل هذه الظروف ظرفا واحدا يبرىء « صباح » أو يبعد عنها التهمة ولو قليلا . قلبى كان كل دليلى على انها لم تكن هى السارقة . ولكن احساس القلب ان لم يستند الى شىء عقلى أو مادى لم يعره أهل الدنيا اهتماما . فباعها جدك لأنها سارقة ، فخرجت ودمعها على خدها . ولسانها يردد : « الله يعلم براءتى وهو كفيل بالانتقام » .

ـ مات جدك بعدها بأعوام ، فبحثت عن « صباح » اغفر لها ذنبها ، وأعيدها الى من جديد . ولكن القدر كان قد سبقنى فاستغفرها أو غفر لها . أصبحت « صباح » سيدة وزوجا لرجل ثرى كانت قد ماتت زوجه وله منها أولاد . فلما آنس فى « صباح » حنوا

وعطفا على أولاده تزوجها وأغدق عليها من ماله وعطفه ما تستحق .

* * *

كان النوم قد غلبنى أخيرا بعد أن جاهـــدت طويلا لأسمع تمام حديث جدتى ، فقمت الى فراشى ، وقد بدأت « صباح » وقصتها تسيطران على أحلامى .

« كم يستطيع هـذا الجيش ، لـكنه مكبل مغلول لا يقوى على شيء ، كالأسد المحبوس فى قفص الحديد ، لايستطيع الا الزئير » . هكذا قال لى أستاذى ياجدتى، وقد مر بنا الجيش المصرى يوما ، فرأيته ينظر للجنـد متألمـا يغالب دمعه . منذ ذلك اليوم لا يمر بى فريق من الجند أو أسمع موسيقاهم حتى يغالبنى دمعى وتثور نفسى . وأود لو يتاح لى سبيل الانتقام ممن أوصلوا جيشنا الى ما هو عليه .

هذا سبب اضطرابى ، فما بكاؤك أنت ياجدتى كلما مر الجيش بك أو سمعت موسيقاه ؟

قالت جدتى : يذكرك الجيش المصرى يا ابنتى بما يستطيع لو لم يضغط عليه الأجنبى بسلطانه ، ولـكنه يذكرنى بكثير من هذا وبأكثر منه . يذكرنى بجهاد أبنائى فى سـبيل الوطن ، وبهـذا القلق والألم اللذين كنت اقاسيهما أياما بلياليها ، لا أعرف معنى للهدوء أو راحة البال . ثم هو يذكرنى أولا ، وقبل كل شيء ، بدم ابنى رافت المهدر غدرا . يذكرنى برافت الشـهيد الذى لا أعرف له قبرا أبلله بدمعى فأجد فى هذا بعض الشفاء .

كنت سمعت حديث رافت مرارا من قبل ، ولـكنى اشتاق اليه دائما . وهممت أن أطلب من جـدتى أن تعيده على مرة اخرى ، ولـكنى خوف اثارة شجونها

وجمت ، فاذا هى تندفع فيه ، وكأنما كانت تحس فى اعادته شيئا من التنفيس عن جرح لم تبرئه السنين وان خففت من حر المه .

ومسحت جدتى دمعة كانت ما زالت تريد السقوط من عينيها وقالت :

ـ كنا يا ابنتى فى منزلنا هذا وهو قريب كما ترين من ثكنات الجيش الانجليزى ، ولم تكن العباسية كما هى الآن مليئة بالبيوت والعمارات ، وانما كانت بيوتها قليلة منثورة هنا وهناك ، بين البيت والبيت مسافة بعيدة ، كان بيتنا هذا ، والبيت الذى يجاورنا يكادان يكونان الوحيدين فى كل تلك المنطقة ، فلا ترى العين على مدى البصر سواهما شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا .

ـ وكان جو الوطن اذ ذاك كله غيوم كثيفة قلقة مضطربة ، فتوفيق باشا معتصم بسرايه فى رأس‌التين، وعرابى باشا من ورائه الجيش ، وقد تجسمت آمال المصريين ومطالبهم فى شخصه ، والأجانب والانجليز خاصة يرون الفرصة قد سنحت لتدخلهم فى شئون البلاد وأخذ ما يمكن أخذه منها . وكان لى اذ ذاك ثلاثة أبناء فى الجيش : اثنان فى حرس توفيق باشا وواحد فى جيش عرابى باشا .

ـ ولم يكن الجيش يا ابنتى كهذه الأيام يدخلون فيه كل من يئسوا منه فى العلم أو العمل ، لقد أخذوا الآن يرتقون فى اختيارهم وأصبحوا يشترطون فى داخلى الجيش حيازتهم الشهادات ، ولكن أيام أبنائى كانوا يأخذونهم من مدارسهم العالية بعد أن يكونوا قد درسوا بها سنتين أو ثلاثا .

وظلت جدتى تتكلم عن أبنائها ، وكم سنة درس كل واحد منهم فى دراسته العالية ، وأى فرع كان قد تخصص فيه ، ولكنى كنت أفكر بعيداً عن قولها . كنت أفكر فى هذه الظاهرة ، ظاهرة شروط القبول فى الجيش ، وأخيرا وصلت .. سياسة الاستعمار ! ما أهولها ! وما أدنا السبل التى يصل بها المستعمر الى ما يريد من المستعمرة ! كانوا يدخلون مدرسة الحربية أو البوليس كل ميئوس منه ، لأنهم لم يكونوا قد شكلوا أهل البلد كما يريدون بعد . كانوا يأخذون شر من فى هذا المجتمع الذى لم يدب فيه الفساد بعد. فلما أيقنوا من فساد المجتمع ، وأدخلوا نظام المدارس تحت سلطانهم وجعلوها قوالب يصبون فيها المصريين كما يريدون ، واستيقنوا ان المدارس أصبحت تخرج لهم نوعا من الشباب كالذى كانوا يقبلونه ، اشترطوا الشهادات وشروطا أخرى ليضيقوا العدد ، فلم يدعوا باب مدرسة الحربية مفتوحا لكل من يريد ، لئلا يتوفر العدد ، ولئلا يدخل فيها من قد يصبح زعيما حربيا يوما ما ، ومن قد ينفخ فى وطنه الروح الحربية من جديد . وما عملوا الا لاماتتها ، لأنهم لايخشون غيرها .

مسكينة يا مصر ، أصبحت أكبر شهادة تقدم للدخول فى جيشك أن يتظاهر المتقدم ، أو أن يصرح بأنه لايهمه أمرك ، وانه لا يفكر فى خدمتك . مسكينة يا مصر ، أصبح من أبنائك من تسمح له روحه ويرضى عنه ضميره اذا قال هذا القول متمسحا بأسباب مهما جلت فهى أمام حبك واهية ، وأمام ما يجب لك حقيرة دنيئة . متى .. متى يقوم منك الزعيم ؟ (١) .

(١) هذا الكتاب ألف سنة ١٩٣٥ .

وانقطعت سلسلة أفكارى على قول جدتى :

ـ كنت أبيت الليل ساهرة ودمعى لا يجف حتى الصباح . ترى لو اشتبك الجيشان ، لو احترب الاخوة ! لو قتل الأخ أخاه ! لو قتلوا جميعا ، لو فقدت ثلاثتهم ، وهم كل ذخرى ، بل هم كل حياتى ! أبنائى أين أنتم ؟ وفيم أنتم ؟..

ـ هكذا يا ابنتى كانت الهواجس تلهب رأسى ، ولم يكن لدينا كالآن جرائد نعرف منها الأخبار ، لم يكن لدينا أى شىء نستطيع الوصول به الى معرفة ما قد تم فى الاسكندرية . أربعة أشهر يا ابنتى قضيتها فى الجحيم ، أربعة أشهر كفرت .. وكفر المصريون كلهم عن سيئاتهم اى تكفير .

ـ كانت الأخبار تأتينا ، لكن متناثرة مفككة ، بعد وقوع الحوادث بأيام .. بل بأسابيع . قالوا ان الانجليز ضربوا قلاع الاسكندرية بأساطيلهم ، فارتج قلبى على أبنائى . كانوا فى الاسكندرية ، وكانوا فى حرس توفيق باشا ، ولكن من يدرى ؟.. قد يكونون أصيبوا هم أيضا . وأخيرا جاءنى خبر انهم لم يصابوا فى ضرب الاسكندرية .

ـ ولم ينته الحرج يا ابنتى بضرب الاسكندرية ، وانما كان يسير مطردا نحو شدته . ثار المصريون ثورتهم واندفعوا وراء زعيمهم عرابى باشا يريدون وضع حد فاصل بينهم وبين تدخل الأجنبى .

ـ واتهم عرابى باتهامات شتى ، ورأى عرابى أن الخديو قد خدعه الانجليز ، وانه أمن اليهم أكثر مما يجب . فلم يكن عرابى والمصريون معه ليفهموا حسن

نية الانجليز بعد ضربهم قلاع الاسكندرية وتدميرها . فأشهر عرابى الحرب على الانجليز ، وحاربهم وحاربوه. وأعلن الخديو انه غير مسئول عن أعمال عرابى ، وأصبح عرابى زعيم الأمة ، والجيش من ورائه . وحارب عرابى فانهزم ، وأخذ يتقهقر الى أن وصل الى التل الكبير . وتحصن فى التل الكبير واستعد لموقعة هائلة ، موقعة فاصلة علق المصريون عليها آمالهم وكل مستقبلهم .

ــ كان ولدى رأفت فى جيش عرابى ، وكم كنت أود لو أن ولدى الآخرين كانا فى نفس الجيش ، كم وددت لو انى قدمت نفسى فى هذه الموقعة مع أبنائى . لم أدخل الحرب ، ولكنى قاسيت بعيدة عنها ما كنت ارضى بالحرب بدلا منه . ان أهوال القتال مهما اشتدت لا تعادل آلامى وتهديد آمالى وحر انتظارى فى هذه الأيام . ولأعترف لك يا ابنتى بما اقترفت فى حق وطنى اذ ذاك . شعرت ساعتها انى لو خيرت بين موت أولادى الثلاثة ، وبين انتصار عرابى فى التل الكبير لاحترت وتمهلت لأفكر . ولم أخفى عليك ؟.. لقد سالت نفسى هذا السؤال ، ولقد سمحت لى نفسى أن اتردد وأن أميل أخيرا الى تفضيل حياة أبنائى . كم كفرت عن هذه الساعة وعن هذا الخاطر . كم لمت نفسى بعدها وقلت لها : انتظرى جزاءك على خاطر مر بك لم يكن صريحا خالصا فى جانب الوطن وفى سبيله .

ــ أيام مرت على كالسنين المليئة هولا والما وخوفا والتياعا . أيام بين خبر زحف عرابى باشا الى التل الكبير ، وبين خبر انهزام عرابى باشا فى التل الكبير .

ـ انهزم زعيم البلد ومحط آماله ، وانهزم الجيش معقد الرجاء وسبيل النجاة الوحيد ، وختم من جاءونا بالخبر قولهم بأن غدا يدخل الجيش الانجليزى القاهرة ليعسكر فى ثكنات العباسية .

ـ لن أستطيع أن أصف لك هول وقع هذا الخبر ، لقد أصبح أهل القاهرة كلهم وقد تملكهم الخوف ، ودب اليأس فى قلوبهم ، يتلهفون على الهرب بأى سبيل حتى لا يعرضوا أنفسهم لما سينزله بهم الجيش المحتل . أصبحت هذه تذهب عند تلك ، لأن بيتها يبعد عن الثكنات كذا من الأمتار ، كأنما فى مثل هذا البعد شىء من الأمان . وفكرت كما فكروا فى الهرب والاختفاء . ان بيتنا قريب جدا من الثكنات ، وفى هذا القرب خطر علينا عظيم . وكانت لى صديقة تسكن حى بولاق ، فقلت أسير اليها ، لعل فى البعد نوعا من الأمان . فاستأجرت عربة لم أجد غيرها فى مثل هذا اليوم ورتبت حوائجى ، وأركبت أطفالى الصغار ، ولكن خاطرا أفسد على كل هذا الترتيب . قلت فى نفسى : ان دخل الجيش العاصمة ، فالعاصمة كلها فى خطر ، فما معنى الهروب من حى الى حى ، ان الله ان أراد بنا الشر لحقنا أنى سرنا ، فلم الفرار من المقدور ؟ .. ولم التجىء الى صديقة ، ولا التجىء الى الله الذى سيسمع دعائى دون شك ، وليفعل بعدها ما يريد .

ـ وانزلت أولادى ودخلت دارى من جديد ، وعمدت الى المنافذ كلها فأغلقتها ، والى الأنوار فأطفأتها ، ووقفت أرقب الطريق من وراء النافذة . وصغارى يسألوننى بين حين وآخر : ماذا جرى ؟ .. وأين اخوتنا

الكبار ؟.. ومايبكيك يا أماه ؟ ! ..

ـ طالما شهدوني باكية في هذه الأيام ، ففوق اضطراب الخوف من الحرب كنت أخاف أن تطول الحال بنا فينفد ما لدى من مال . كانت القاهرة كلها يا ابنتي ـ وهي عاصمة البلاد ـ مهددة بشبح الفقر ، وخاصة الأسر التي كان يعولها من بالجيش . فما بالك بأسر الريف الفقيرة المسكينة ، وكنت أخاف على قلوب صغاري البريئة من الألم فأخفي دمعي وأقول لهم : بعد قليل تعرفون ، هيا الى ألعابكم العبوا بها . ويشهدون، ويشهد الله ان لعبة واحدة جديدة لم يروها منذ شهور ، بل منذ عام . وكأنما قد ملوا السؤال ورأوا في طاعتي ما قد يجلب لي بعض السكون. فراحوا بعيدا عني ولم أعرف ماذا عملوا الا ان أكبرهم كان يجيء من حين لحين يهدئني ويقول : صبرا يا أماه .. ألم يحضر أخوتي بعد ؟.. ألم يأت خبر من عندهم ؟.. فأقول له : دعني هنا يابني واذهب أنت لأخوتك تلهيهم باللعب أو الكلام حتى يأتينا الفرج .

ـ وعن بعد سمعت صوت الجند قادما ، فكأنما صوتهم نار دخلت اذني لتحرقهما بحرها الكاوى . وشيئا فشيئا اقتربت أصواتهم حتى ظهروا وهم يسيرون ضاحكين مهللين يصفرون وينشدون أناشيد النصر والمجد . وتساقط دمعي غزيرا حارا ، فقد كانت صورة كل واحد منهم شوكة في عيني ، أحس ألمها في رأسي المصدع الذي يكاد يسقط من ثقله . وأسندت راسي بين يدي وتركت دمعي يسقط ما شاء له السقوط ، وأنا أغلي من غيظي وحنقي . هذا الأجنبي يدخل وطني غاصبا مستعمرا ، لا لشيء الا لأنه أقوى

جنداً وعدداً . ومن يدرى ؟.. لعلهم انتصروا فى الحرب بخديعة لا عن قوة وصبر .

ـ وما كاد خيالى يوصلنى الى الحرب حتى ذكرت أبنائى، وكان منظرالجيش وشدة الفيظ قد أنسيانيهم. من يدرى ؟.. لعل هؤلاء قتلة أبنائى أيضا ! وهنا لم أطق النظر اليهم . وما أن لفت رأسى كيلا أراهم حتى لمحت ضابطا منهم يتجه نحو دارنا ويقرع البـــاب قرعا شـــــــــديدا .

ـ ولم يكن خادم بالمنزل كله ، لأنهم طلبوا الى فى هذا الحرج أن يعودوا الى أهليـــــــهم حتى تنجلى الحال ، فتركتهم لأهلهم فهم أولى بهم وأحق بما قد يستطيعون فى هذا الحرج . نعم يا ابنتى فى تلك الظروف تلين القلوب ويعطف بعضها على بعض . لم أرغم خدمى الذين تطوعوا لخدمتى ازاء أجر ينالونه ، لم أفـكر فى أنهم ينفعوننى فى مثل هــذا اليوم ، رأيتهم يومها قلوبا محرقة مثلى لا يخفف عنهــا الا الأهل والأقارب ، ورأيت أهلهم وهم يبكونهم فتركتهم ، بل حثثتهم على الاسراع اليهم . ولم يبق لى من خدمى الا عبدى وجوارى ، فلم تكن لهؤلاء المساكين أهل أو أقارب ، الا أنا وأولادى . وكان مسلك هؤلاء ومنظرهم مما يبعث على الضحك ، اولا ان الوقت حرج مخيف . فما سمعوا أخبـــار الحرب والانهزام ، حتى صـعدوا الى أعلى غرفة على ســــــــطح المنزل واعتصموا بها أياما ، يولولون ويبكون ويصرخون . ولقد تركتهم يفعلون ما يريدون ، فهذه طريقة تفريجهم عن كربهم ، وان كنت لم أعرف بالضبط سر بكائهم وعويلهم لـكن بعــد عودة أولادى عرفت انهم كانوا يندبون أولادى ويبكونهم ، وهم يعرفون انى لا أطيق هذا النوع

من البكاء ، فراحوا فى معتصمهم يبكون ما شـــاءوا ، يا لقلوبهم الطـــاهرة المخلصة ! .. قلوبهم التى تراعى مزاجى فى أشد أوقاتهم حرجا وحزنا وخوفا ! ..

ـ ولنـــعد الى الطـــارق الـــذى لم أكن حسبت له حسابا ، من ينزل له ؟ .. خدمى ليسوا فى المنزل ، ولو كانوا لمـــا عرضتهم لهـــذا الخطر ، وعبـــدى وجوارى معتصمون بحصنهم العالى ، ولن يطـــاوعنى قلبى على انزالهم . واهلى يتلخصون فى هؤلاء الأطفال الصغار . جئت مصر غريبـــة عنهـــا وما مكثت بها قليلا ، حتى تزوجت . ومات والدى الذى جئت معه بعـــد زواجى بقليـــل ، فلم أعرف بعده أقارب الا زوجى وأولادى ، واستاثر الموت بجدك فلم يبق لى الا أولادى وصـــغار أولادى ، لأن كبارهم كانوا فى الحرب .

ـ وجاءنى أكبـــر من كان معى من أولادى يقول : « أمى ، سأنزل لأرى ما يريد هذا الانجليزى ؟ » قلت : كلا ، أنا التى ستنزل اليه .. قال : « كيف يا أماه ؟ انه رجل وهو غريب ، وهو عدو سكر بنشوة النصر ، كيف تقابلينه ؟ .. وما أنا فى المنزل ؟ .. طفلة ترضع !» قلت : لدى كلمة واحـــدة . أنا التى ستنزل اليه . قال : « أمى ، انه انجليزى لا يعرف العربية ، فـكيف تتفاهمان ؟ » . فوجمت أمام صدق ملاحظته ، ولـكن لن أدعه ينزل وحده .. قلت : انزل يابنى ، انى فى اثرك . وعدوت الى المطبخ فأخذت سكينا حادة أخفيتها تحت ثيابى ، ونزلت السلم وراءه حتى جئنا الى الباب ففتحته ووقفت خلفه .

ـ ورأيت من الانجليزى رجلا فى غاية الأدب ، يكلم

ولدى بما لم أفهم ، ولكنى لمحت فيه ذوقا وأدبا واحتراما جعلنى انتظر . ولم أكد انتظر حتى صاح ولدى مهللا فرحا يقول : « امى !.. ان اخوى اللذين فى الحرب بخير وعافية ، وقد طلبا من هذا الانجليزى أن يمر بك ليطمئنك عليهما » .

ـ نسى ولدى من شدة فرحه انى كنت مختبئة . ونسيت أنا ما هو اخطر من هذا من شده فرحى : نسيت انى ازاء واحد من الجيش المغتصب ، انى ازاء انجليزى كان منظره منذ دقائق يشوك عينى ، ويصدع راسى ، ويبكينى غيظا وحنقا ، نسيت انى امام عدو غلب أمتى ، فقلت لولدى : قل للضيف يدخل ليستريح قليلا ريثما يشرب فنجانا من القهوه .

ـ رفض الضابط عرضى لارتباطه بمواعيد فرقته ، وما كاد الباب يقفل حتى صحت : ولدى ، ولدى ! هذه سكينى ، اقتله ! اقتله ! انه انجليزى ! انه هازم أمتك ، انه هازم أخيك رأفت ! انه . . . وكدت أقول قاتل رأفت لولا أنى أحسست انى سأقول كذبة هائلة .

ـ وهدأنى ولدى وكفكف دمعى وقال : أمى ! ان رأفت لم يمت ، أنا أحس هذا ، هو قادم الينا عما قريب . أمى لا تبكى ، اخوتى فى أمان .

ـ فى غرفتى المظلمة ظللت أبكى وأبكى . ولو كان هذا الضابط جاءنى ينعى ولدى ما بكيت أكثر مما بكيت . كنت ابكى وطنى يا ابنتى وانهزام ابنى رأفت . كنت أبكى أرض مصر التى أصبحت يطؤها الأجنبى ظافرا مزهوا فخورا بالنصر . مصر وطنى الذى لم أولد

به ولكنى لم أعرف لى وطنا سواه . مصر التى قضيت بها أسعد أيامى ، مصر التى سال دم زوجى وفاضت روحه من أجلها والتى سال دم أبنائى ، ومن يدرى ؟ لعل رأفت قتل فى سبيلها !

ـ ودق الباب فنزلت مسرعة ، فاذا بى أسمع شهقة وبكاء ، كان ابنى سبقنى الى الباب ، وكان الطارق ابنى رأفت ، والأخوان يتعانقان عناق الهزيمة والخيبة ، ويبكيان لا من فرح اللقاء بعد انقطاع الرجاء ، وانما يبكيان من ألم الهزيمة وذل الانكسار .

ـ وعدا رأفت الى والدمع يبلل صدره ، وعانقنى وقبلنى . وأخيرا استطاع أن ينطق : « أماه ! لاتبكى، ان اخوتى لم يصبهم أذى ، وهأنذا سليم أمامك » .

ـ ولكنه كان يخادع نفسه فى طمأنتى على أولادى. كان يحس تماما انا كلنا نسينا كل شىء فى تلك اللحظة الا مصر المهزومة . فما أتم كلامه حتى رمى راسه على صدرى وأخذ يبكى ويبكى . قلت : بنى ، أن ذل الانكسار أليم ، وان ألم الهزيمة لا يعادله ألم فى نفس الجندى ، ولكن صبرا ان الله لا يضيع أجركم . ان الله الذى يرعانا جميعا لن يرضى عن هذا الظلم ، وسينتصر الحق عما قريب . صبرا بنى ولاتبك.

وتساقطت دموع جدتى حارة ساخنة كأنما رأفت ما زال على صدرها . ثم قالت شاهقة من البكاء : والى الآن يا ابنتى لم يرفع الظلم عن مصر ، وانما ازداد بأس الظالم وعتوه .

كنت أعرف ان الحديث عن مصر يؤلم جدتى ، تلك العجوز التى عاشت عمرها وهى تغذى مصر بأبنائها

وزوجها وبقلبها . لم يعمل واحد من أبنائها الا فى الجيش المصرى ، ولم يمت زوجها الا فى خدمة الجيش المصرى ، بل فى ميدان الحرب من أجل مصر وفى سبيلها . لقد علقت هذه العجوز ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ان كان لايزال لها مستقبل ، بمصر وبآمال مصر . وكذلك أبناؤها — كلهم لم يعرفوا ميدانا للعمل الا جيش مصر . أحاديثها مع زوجها وأحاديثها مع أبنائها كلها كانت تدور حول مصر ، وها هى اليوم أحب ما تحدثني به اليها والى حديثها عن مصر .

وأردت أن أغير موضوع الكلام ، فقلت ساهية : « ولكن ابنك رأفت مات فى حرب » ، وكأنما زدت النار حطبا وأنا لا أدرى ، فقد اندفعت جدتى ثائرة ، وقد تقلص وجهها المجعد الجميل ، وجحظت عيناها الباهتتان الفائرتان الدامعتان . ومن فمها الدقيق الذى ظهرت عليه معالم الكبر والوهن ، خرجت كلماتها حارة قوية حزينة ساخطة :

— لقد غدر به اللئام ، لقد قتلوه وقتلوا عشرة آلاف جندى مصرى غدرا وخيانة وظلما . ولو كانوا يا ابنتى قدموهم الى المقصلة واحدا واحدا لكان أشرف لهم ، فهم أقوياء ، وهم يريدون فناء الجيش فليفنوه علنا . وليشجعوا شجاعة تمكنهم من احتمال اشمئزاز العالم من الظلم والجور . اما أن يتستروا وراء الحيل والخديعة ليفوزوا بمآربهم الدنيئة وباحترام العالم فى وقت واحد ، فهذا شر ما أعرف من حالات الجبن . ان الطاغية الذى يقتل ويشرد ويعذب ويسجن ليفوز باحترامى ، وان باء ببغضى واشمئزازى ، لأنه يظلم ويواجه العالم ظالما ، لأنه يظلم ويعرف لنفسه قدرها ،

فينزهها عن الخيانة والغش والخداع .

ـ ما دخل الانجليز مصر حتى عرفوا ان أخطر ما فيها جيشها . ولقد بلوا هذا الجيش فى حربهم فألفوه شجاعا صبورا هزيمته تكلف كثيرا ، وقد يعجزون عما تكلف . وما دخل الانجليز مصر حتى عرفوا ان جيشها على قلته ليس جيشا يستهان به . فقالوا ان هذه الشوكة يجب فى سبيل أخذ البلاد أن نقلعها ونستريح من خطرها . وهكذا دبروا ما يسميه التاريخ « موقعة هكس » ، وما أسميه أنا « خديعة هكس » .

ـ بعد ثلاث سنين من دخولهم مصر جاءتهم الفرصة سانحة مواتية . قامت ثورة المهدى فى السودان واستفحل أمرها ، فحشدوا عشرة آلاف جندى مصرى وأرسلوا معهم القائد « هكس » الانجليزى ولم يشك أحد من المصريين اذ ذاك فى ان الانجليز لايريدون بهذا الجيش الا أن تخمد ثورة المهدى فى السودان . فسار الجيش وآمال المصريين معلقه به ، هذه لها ابنها ، وتلك والدها أو زوجها أو أخوها ، أما أنا فكان لى فيه ولدى رأفت .

ـ ودعت يومها ولدى رافت وأنا أحس انى لن أراه بعدها ، ولكنى غالطت نفسى وقلت : هذا كان شعورى يوم ودعته ليسير مع عرابى باشا ، وها هو قد عاد سالما ، فكفكفت دمعى وقلت : سر يا ولدى والله سيرعاك ويردك سالما لأمك .

ـ سار الجيش وراء قائده سليمان نيازى باشا ، ورئيس أركان حربه هكس باشا ، وتحمل الجيش ما

تحمل من مشاق الطريق ، وألم الجوع ، والصبر على العطش . وما قاربوا « الأبيض » بعد انتصـــارهم على وكيل المهدى قربها حتى طمعوا فى فتحها ، وأرســـلوا الى الحكومة لتأذن لهم فأذنت . وهنا بدأ هكس مكيدة الانجليز . قال : انه لن يسير الى « الأبيض » الا اذا كانت القيــادة له ، والا فهو غير مسئول عن النتائج . وأسلمت القيادة له وأرســـلوا معه حكمدار الخرطوم علاء الدين باشـــا ، وســـار هكس بالجيش المصرى لفتح « الأبيض » فى طريق وعر صعب المسالك ، لا ماء فيه ولا مأوى . وأشـــار عليه علاء الدين باشـــا بألا يتبع هـــذا الطريق ، وأبان له وعورة مسالـــكه وقلة ميـــاهه وخطورته ، فأبى القـــائد الا تنفيذ خطتـــه ، وســـار الجيش جائعا عطشا ، مهددا كل آن بخروج الدراويش عليه من الأحراش . وجاعت الجياد وعطشت وسقطت اعياء ، وأصبح أمر الجيش مؤلمـــا فظيعا أشـــــــــــد الفظاعة ، أصبح جسما بدأ الموت يدب فيه من الجوع والاعياء والعطش . كل هـــذا وهكس مصمم على السير فى الطريق الذى أختـــاره . وما أن شـــارفوا ماء حتى اندفعوا نحوه فى لهفة وسرعة ، ومدوا أعناقهم من شدة العطش الى حافة المـــاء يشربونه بأقرب طريق وأسرعه. وهنا خرج عليهم الدراويش من أتباع المهدى وذبحوهم ذبحا وأفنوهم فنـــــاء . ولم يبق من الجيش كله الا قلة لا تتجاوز بضع مئات ممن استطاعوا الاختفاء بين الأشجار أو بين جثث القتلى .

ـ خديعة والله يا ابنتى دبروها وأحكموا تدبيرها . وهل يعقل أن يراد بجيش الثورة العرابية بعد ثورتهم بقليل الا الشر والدمار ؟ .. لقد خسرت انجلترا قائدا

واحـدا قبـل أن يضحى حيـاته فى سبيل اضـعاف الجيش المصرى أو الانتقام منه . اما مصر فقد خسرت مقابل هـذا القـائد الواحـد حاكما وسـتة قواد ، وعشرة آلاف جندى بضباطهم ! جازاهم الله يا ابنتى . ان عز الدنيا لا يدوم ، وسلطانهم مهما قوى فله ساعة . لهم يوم يدك فيه جبروتهم ، وتذل فيه نفوسهم السكرى بنشوة النصر .

ـ وما جاءنى خبـر تلك المجزرة حتى جزعت على رأفت كل الجزع . ولست أدرى كيف ان قلبى الذى لم يكذبنى قط لم يشا أن يصـدق موت رأفت . كان قلبى يحدثنى دائما انه حى لم يذبح مع من ذبح . قالوا ان قلة قليلة نجت ولم نكن نعرف كيف نجت ، فقلت : ان رافت فيمن نجوا ، ان رافت لم يمت . ويعلم الله انى بعد معرفة كيفية نجاتهم لم أتمن حياته وفضلت موته .

ـ ولم أكن أعرف يا ابنتى المشايخ ولا السـحر ، ولـكن صديقاتى كن يعرفن هذه الأمور ويعتقدن فيها اعتقـادا راسخا . فلما رأين لوعتى وحيرتى وآلام الشك الضعيف الأمل جدا ، قلن لى : استـشيرى الشيخ فلانا ، انه صادق لم يكذب قط . وذهبت مع احداهن عنـد الشيخ وأعلمتـه طلبى . وبعد مراسيم سخيفة لم أشعر بسخافتها الا بعدها بكثير ، بعد أن أفقت من الـكابوس المزعج الأليم قال لى : « ان رأفت ولدك حى لم يمت . وانه يهيم وحده وسط هذه الأدغال ، وانه واصل اليك وان تأخر » .

ـ زاد اعتقادى بعدها ان رأفت حى . ولـكم نهرنى

ولدى الكبير قائلا لى : « أماه ! ان رأفت مات ، فاحزنى عليه حزن الثكالى ، لكن أريحى نفسك من آلام هذا الشك وهذه الآمال التى تعرفين فى قرارة نفسك انها خائبة . ما ذهابك الى المشايخ وأنت تعرفين دجلهم وخداعهم ؟.. أريحى نفسك يا أماه واطلبى من ربك صبرا وعزاء ، فهذا خير لك » .

ـ كنت أقول دائما : كلا .. رأفت لم يمت ، قلبى يحدثنى بهذا وان كان حديثه خافتا كما لم أعهده من قبل . وكنت اثر كلام ولدى أحس بضعف الأمل ، فأسرع طورا لهذا الشيخ ، وطورا لذاك ، فيؤكدون لى جميعهم انهم يرون رأفت حيا بين الأدغال .. يسير نحوى .

ـ ان حزن الأم على ولدها لا يعادله حزن مهما جل وعظم ، لكن هذا الحزن درجات ، وللزمان أثر فيه . وأى شىء يا ابنتى لا يخضع لجبروت الزمان ؟.. ان شر ساعات هذا الحزن ساعاته الأولى . فليس أشق على الثكلى من احتمال الساعات التى تلى نعى ولدها مباشرة . ولقد قاسيت هذا الألم الممض مرارا فى رأفت ، مر على الشهر الأول وفى كل يوم يردد عقلى نعى رأفت لقلبى ، فيأبى القلب أن يصدق ، ثم يعود فيصدق ، فاذا ما بدأ أثر الزمن والعزاء ينفذان الى هذا القلب الجريح ثار القلب ثورته على القدر وعلى الدنيا وصاح بى : رأفت لم يمت ، ان القدر لن يقسو عليك أكثر مما قسا .

ـ مضى الشهر يا ابنتى وكل ساعة من ساعاته تسير كأنما قد حملت حديد العالم كله ، فهى وئيدة بطيئة

ثقيلة طويلة ، وبدأ الزمن فعله ، فكنت انسى رأفت ساعة لأذكره أياما ، كنت أقنع بموته لأثور ثانية واعتقد انه حي . وهكذا مرت على السنون يا ابنتي وأنا في حيرة وألم ، لا أدرى كيف احتملهما .

وبعد أعوام عاد من السودان بعد فتحه من كان قد شهد الواقعة ، فاستدللت على احدهم وذهبت اليه بنفسي دون علم أولادي وسألته : أتعرف ابني رأفت ، الضابط في فرقة كذا ؟.. قال : « نعم » . قلت : أين هو ؟.. قال : « قتل ياسيدتي ، أو ذبح على الأصح فيمن ذبح » . قلت وقد بدأت أبكي دون وعي : لكنه حي ؟ .. قال في شفقة وحسرة : « ولكني رأيته مقتولا بعيني » . فشهقت وقلت : هو حي ، هو حي . واخذت أبكي وأبكي . فخفف على الرجل بعض ما أجد وقال : « سيدتي : عزاء جميلا وكفاك فخرا انك قدمت ولدك على مذبح الوطن » . قلت : جزاك الله خيرا يابني .

ـ منذ أن فاه الرجل بعبارته هذه ملىء قلبي فخرا وأمنا لم أحسهما منذ شككت في موت رأفت . نعم قدمت من أجلك يا مصر شابا في العشرين من عمره ، لم يملك الا حياته فقدمها على مذبحك غير طامع في شكر أو فخر أو ذكرى . في قلبي هنا كل ما بقي من ذكرك يا رأفت . وبموتي القريب يا ابنتي تطوى ذكراه ، وكأن لم يكن . حياة الجندي ما أقسى وما أكثر ما تكلف وأشقه لكن ما انبلها وما اعظمها !

سكتت جدتي وسمعتها تتمتم : كلا يا قلب ، ان

رأفت مات ، فلا تشق الجرح شقا جديدا بعد أن بدأ يندمل .

كان قلب جدتي ما زال يقول لها : «رأفت حي » .

ودقت موسيقى الجيش مرة أخرى بمرور فرقة ثانية ، فأعادت جدتي كلماتها بنغمة حزينة فيها استسلام يائس مرير : « ويذكرني الجيش أولا ، وقبل كل شيء ، بدم ابني رأفت المهدر غدرا . يذكرني برأفت الشهيد الذي لا أعرف له قبرا أبلله بدمعي فأجد في هذا بعض الشفاء » .

— ٤ —

وقالت جدتى :

ـ كنا يا ابنتى أسعد منكم حالا مهما حاولت اقناعى بعكس هذا : كنا لا نشغل أنفسنا بما تشغلون به أنفسكم الآن . كان يوم الرجل يقضى ما بين عمله وبيته . لم تكن هناك مقاهى يضيع فيها الشباب أحسن أوقاتهم وأكثرها ملاءمة للعمل . لم يكن المار فى الشوارع يرى هؤلاء الجالسين على قارعة الطريق ، لا عمل لهم الا شرب القهوة والدخان ، أو ما هو أكثر منهما ضررا ، والا الكلام الذى لا يدور حول الخير ، بل أكثر ما يدور حول الشر . كان الصحب يجتمعون فى الدور .

قلت : وفى الدور يفعلون ما يشاءون .

قالت جدتى : ان للدور مهما قلت حرمتها ، ان الرجل مهما يفسد لن يستطيع فى بيت له حرمته ما يستطيعه فى دار لهو أو قهوة ليس لها أى حرمة خلقية . لا يابنتى ، لا تحاولى أن ترضينى عن هذا الزمن ! .. سلى الرجال أنفسهم : ألم يكونوا أسعد حالا يوم كانوا يعملون ولا شاغل لهم الا العمل يتبارون فيه ويتنافسون فى اتقانه . سليهم عن حالهم ، يوم كانت وظائف الحكومة أكبر ميدان وأفسحه لخدمة الوطن ،

ثم سليهم عن حالهم بعد أن أصبحت دور الحكومة ووظائفها أضيق الميادين لخدمة الوطن خدمة صادقة مخلصة . سليهم أحالهم اليوم ، وقد أصبحوا مشغولين بالعلاوات والترقيات ، بالانتقامات والخصومات ، بالمندوب الجديد ، والمندوب القديم ، بالوزير المستقيل والوزير الآتى ، بالنظام الجديد ، والنظام القديم ، سليهم أحالهم تلك وذبذبتهم وعدم قرار نفوسهم وتهديد مصالحهم ومعاشهم كل حين .. أم حالهم يوم كانوا كلهم أخوة ، وكلهم يدا واحدة ، وكلهم كلمة واحدة ، يسعون لغاية واحدة هى أنبل ما عرف التاريخ من غايات .

قلت : دعيك ياجدتى من رجال اليوم ، ولنا فى شباب الغد عزاء . ألا ترين كيف بدءوا ينفرون من سياسة الشيوخ ؟

قالت جدتى : لا شيوخ ولا شباب . انظرى الى هذا الشاب الذى تعقدين عليه الرجاء . انظرى اليه كم عدده وكيف حماسته اذا ما التف حول راقصة أو مغنية . ثم ابحثى عنه فى اجتماع سياسى ، أو فى مشروع اجتماعى . لا يا ابنتى ، أن الحال لا تبشر بخير الا أن تحدث المعجزة ، ومصر بلد السحر والمعجزات ، فلننتظر المعجزة ، فقد لا يطول الانتظار .

قلت : جدتى ! ما أكثر تشاؤمك ، وكم أكره حديث التشاؤم . انى واثقة من أن شباب اليوم سيحققون ما عجز عنه شيوخ الأمس . وليكن هذا بمعجزة أو بغير معجزة . سننال ما نسعى اليه ، لأنه حقنا ، ولأنا نؤمن بحقنا ايمانا نسترخص فى سبيله كل تضحية وكل ثمن . صبرا جدتى ، اننا نسعى ، وكل سعى يغذوه الايمان لابد أن ينجح .

قالت : ما أجمل تفاؤلك يا ابنتى ، ويعلم الله كم أحبه لك ، تفاءلى فلن يكون سعى الا لمتفائل ، واسعى فلن يكون نصر الا لساع . سيروا فى طريقكم فسيخفق قلبى فى قبرى فرحا لنصركم ، وسترضى روحى فى عليائها ، يوم ترى مصر حرة آمنة عظيمة مجيدة .

قلت : كنتم ياجدتى أسعد حالا ، لأن سعيكم لم يكن محفوفا بالصعاب التى تحف سعينا . ولكنا نرى فى هذه الصعاب ، وفى تلك التضحيات ، لذة جديدة . ان هذه الحوادث التى تسخطك ما هى الا دروس تلقى ، دروس قاسية تتكرر ، وفى قسوتها وتكرارها حكم غاليات .

قالت جدتى : عسى أن تجد الحكمة سبيلا الى من يفهمها . لكن دعيك من الشباب وتعالى الى الشابات أتريهن أسعد حالا من اخواتهن شابات الجيل الماضى والجيل الذى سبقه ؟ ..

قلت : بلا شك .

قالت : كل شىء الا هذا . أهذه التى تتبرج وتكشف عن أعظم جزء ممكن من جسمها وتسير فى الطريق العام لفتا للأنظار ، فلا تظفر بالطبع الا باعجاب شر من فى هذا الطريق وأحطهم خلقا . أتلك سعيدة الحال ، أم فتاة الأمس التى كانت تظل محجبة فى دارها كريمة مكرمة ، يتهافت الشبان على طلبها ، فيختار لها الوالد ذو الخبرة والدراية أصلح هؤلاء لها ، فتعيش حياتها معه يعرف لها كرامتها ويحترم مكانتها ؟ أزوجة اليوم التى تظن فى نفسها ما ليس فيها ، فتتكبر على زوجها حينا ، فاذا ما

خاصمها سعت اليه لتترضاه ، أم زوجة الأمس التى كانت تعرف مكانتهـا تماما فلا تتكبر حينـا لتـذل نفسها احيانا ؟ ..

قلت: كلا جدتى لم تكن نساء الجيل الماضى كما تصفين ، وانما وصفك هذا وصف قلة فلا تحكمى به على المجموع . كلا جدتى لا تنظرى الى ظواهر نساء اليوم فتحكمى عليهن بها . ولئن أسخطك تهتك الفتيات واهدارهن كرامتهن ، فان هذا لايسخطنى فحسب ، وانما يفجرنى غيظا . ان هذه التى ترينها تعنى بجمالها ، وتتهادى فى مشيتها وتحاول لفت الأنظار ، ان الفتاة التى تهدر كرامتها اهدارا ، ان هذه ليست فتاة اليوم ، ولكنها الضحية . هى الدرس يلقى لتتعلم الفتيات الأخريات. هى الهشيم يحرق لتزداد نارالتطهير وقودا واشتعالا . هى المادة تكثر ويسهل منالها حتى تبتذل فيعف عنها الناس . فتاة اليوم هى التى تعرف لنفسها كرامة ومنزلة ، وتعرف تماما انها ان هى حفظتهما حفظهما لها الناس صاغرين ، وان داسوهما فلا تلومن الا نفسها التى ارتضت دوسهما أو مهدت له.

فتاة اليوم تعرف عن الحياة ما لم تعرفه فتاة الأمس ، لذلك كانت آراؤهما تختلف ، ونظراتهما تختلف ، وأعمالهما تختلف . السعادة التى كانت تقنع بها فتاة الأمس تراها فتاة اليوم الحقة سعادة زائفة لا تستحق تقديرا ، بله الرضا . ولكنى لا أحدثك عن فتاة اليوم التى تستحق الاحترام والاعجاب ، لأنى ما جئت اليك محدثة ، وانما جئت سامعة ، هذا فوق ما أشعر به من تعب خفيف .

قالت : كل هذا يا ابنتى من كثرة ما تقرئين وتفكرين. طاوعينى واسمعى منى واتركى هذه الكتب ، وانظرى اى تغيير تحسينه فى صحتك . وهذا داء جديد لم نكن نعرفه ، مرض القراءة كفانا الله شره . رحم الله زماننا يوم كنت لا اترك لبناتى وقتا يقرأن فيه ابدا .. كنت أقول ان الفراغ يجلب أفكار السوء . وكانت القراءة عندى فراغا. رحم الله يا ابنتى وقتنا فقد كنت لا أسمح لبناتى أن يقرأن كتابا لم يقرأه والدهن ، أو أخوهن الأكبر من قبل . أين انتن اليوم مما كنا فيه ، وهذه المكاتب مفتوحة أمامكن يمكنكن أن تقرأن اى كتاب . اين أنتن منا ، وهأنت تعرفين ما لم أعرف ، بل ما لا أمل لى فى أن أعرف .

قلت : عفوا جدتى . ان وقتكن كان كله مشغولا . كنتن تعنين بشئون الدار عناية تستغرق كل وقتكن . أما اليوم فالمخترعات الحديثة سهلت هذا العمل تسهيلا كبيرا . والمحترفون والمحترفات قاموا عنا بما كنتن ترين عارا ان يقوم لكن به الغير ، هذا كعك العيد مثلا الذى ترين الى اليوم انه لابد أن يصنع فى البيت ، انظرى كم من البيوت تشتريه من الخارج ، وكم تتسع وتتفنن محال الحاوى فى اتقانه بعد أن لم تكن تصنعه أبدا ! ..

قالت : حقا يا ابنتى كم من الوقت كانت تأخذ منا هذه الأشياء ، كان كعك العيد يأخذ منا أسبوعا او أكثر . ونحن اليوم نجتمع كلنا فى دار احدانا نصنع لها كعكها كله ، وفى الغد عند الأخرى نصنع لها كعكها .. وهكذا حتى يأتى يوم العيد .

ــ كم كانت هذه الجلسات حلوة . جلسات لا كلفة

فيهــا ولا تصنع ، جلســات أهليــة كلها صفاء وكلها سرور . جلسات ليتكن تستطعن الاستمتاع بمثلها . لا يا ابنتى كنا أسعد حالا فى صـــداقتنا . قارنى بين جلستنا هــذه وقد لبسنا كلنا أقل ملابسنا قيمة لأنا نعرف انها معرضــة للاتســاخ ، وقد جلسنـــا كلنـــا اخوات ، ان تألمت واحـــدة تألمنا لها كلنا وأشرنا عليها بما يفرج ألمها ، بل كثيرا ما نساعدها على ازالة أسباب الألم ، واذا ضحكت واحدة ، ضحكنا كلنا معها . قارنى بين مجالسنا هــذه ومجالسكن وما يملؤها من تصنع ورياء . كان الأغلب على جلساتنا نحن الضحك والسرور والغالب على مجالسكن السخرية وتحقير الغير .

ــ هذه أيام الأعياد ، وكانت لنا أيام للأفراح أيضا . فاذا كانت بنت صديقة أو أختها ستتزوج ، فان هــذا يأخذ من وقتنا شهرا كاملا أو يزيد . كنا نذهب فى بيت العروس لنخيط لها ثيابها وكل ما سيحتاج اليه منزلها. لم نكن نعرف الخياطات ، ولم يكن لهن وجود أيامنـــا الا قليلا . وكنا نخيط لأنفسنا ملابس لهذا الفرح ، فاذا أعجبنا قماش يا ابنتى لم نكن نخفيه أو نخفى ثمنه ومحله عن صديقاتنا كما تفعل أكثر فتيـــــات اليوم المجنونات بشىء اسمه « الجديد » أو « الذى لم يسبق له مثيل » . كنا نأخذ القماش نعرضه على صديقاتنا ونبين لهن مميزاته ، فان أعجب واحدة منهن اشترينا لها مثله ، حتى شكل الملابس نفسها ، ان أعجبنا شكل عرضه بعضنا على بعض، وربما ذهبنا الى نفس الدعوة ، ونحن اثنتان أو ثلاث بنفس اللباس من نفس القماش ، وعلى نفس الشكل لا نرى فى ذلك أثرا من القبح ولا نشعر ازاءه بأقل ضيق .

فان لم يكن عيد يا ابنتى أو فرح ، وقلما كانت تخلو أيامنا منهما ، اجتمعنا اجتماعاتنا العادية ، يوما عند هـذه ، والآخر عند تلك . وكثيرا ماكنا نجتمع فى منزلنا القديم لأتفه المناسبات . كانت صديقاتى يجتمعن عندى كل أسبوع لنستحم معا فى حمام بيتنا القديم . أتذكرين يا ابنتى هـذا الحمام الرخامى الواسع العريض ؟ أتذكرين أقسامه وأحواضه ومكانه من بيتنا القديم ؟..

قلت : ان فى ذاكرتى صورة منه عجيبة غريبة ، قد دخلته مرة واحدة على ما أذكر ، ومع هـذا فان صورته فى خيالى صورة غريبة فذة ، لا أذكرها الا شعرت بشىء من الرهبة والخوف .

قالت جدتى : فى هـذا الحمام يا ابنتى كنا نجتمع جميعا أنا وصديقاتى كل أسبوع نستحم فيه معا . كم شهد هـذا الحمام من لعبنا وجرينا . كم رددت جدرانه أصواتنا وضحكاتنا . ان هذا الحمام يا ابنتى ملىء بالذكريات العذاب ، ملىء بالصحف الجميلة ، صحف زماننا الذى لن يعود . لا أذكره الا ذكرت أسعد أيام حياتى وألذها . كل حزن كان يذوب فيه ، وكل هم كنا نتركه عند بابه . لا نعرف داخله الا الضحك والبشر .

ـ كانت هـذه تساعد تلك على تنظيف ظهرها ، أو تمشيط شعرها ، وكانت شعورنا حلوة طويلة تغطى أجسادنا الى النصف أو نحوه . كانت جمالا لنا لم نعمد اليها يوما بمقص نقصها ونميتها . كانت قطعا من أجسادنا نحرص عليها ونعنى بها كل العناية . وهذا ما بقى لى من شعرى الطويل الجميل .

وأمسكت جدتى بشعرها فاذا هو طويل ناعم كستنائى ، كانت به آثار جمال عفت معالمه ، وكانت به آثار عناية ما زالت توليها اياه رغم كبرها ووهنها .

قلت : جدتى ، وما السر فى انى أخاف صورة هذا الحمام ؟ . .

قالت : يا ابنتى ان عصر هذا الحمام الجميل لم يدم طويلا . فقد ماتت صديقاتى واحدة اثر واحدة ، ولقد مات جدك واغلب أزواج صديقاتى ، فكانت لموتهم رنة حزن عميقة رجت كياننا رجا وبدلت حياتنا تبديلا . أصبحنا لا نهتم كثيرا بمرح الحياه ولهوها . لبسنا الجد والحزن يا ابنتى فلم نعد نضحك الا قليلا . وكان هذا الحمام أول ما شعر بما طرأ على حياتنا من تبديل . لم نعد اليه ولم ندخله ، اغلق الحمام واصبح مقفرا خاويا ، لا تجرى مياهه ولا تردد جدرانه صوت انسان. وأصابه يا ابنتى ما يصيب كل شيء مهجور : سكنته العفاريت والأطياف ، سكنته الأرواح بعد أن كانت تسكنه الأحياء . ما دخل خادم ينظفه بعد ماهجرناه الا جاءنى يرجونى أن أعفيه من عمله هذا ، فاذا ما قلت له : يابنى ان الذى تحسه أوهام لا صحة لها ، قال : « ياسيدتى مرينى أن أقوم لك بما تريدين الا تنظيف هذا الحمام » . وعبثا حاولت معهم وعبثا غيرتهم ، فما يكاد يأتى الخادم الجديد ويلبث اياما حتى يعرف من سائر الخدم قصة هذا الحمام ، فلا يقربه ولا ينظفه بحال .

ـ ومن حسن حظى يا ابنتى ان الحمام كما قد تتذكرين كان منزويا شيئا ما فى الدور الأسفل من المنزل،

فساعد هذا على أن نتجنبه وأن نغفل أمره .

ـ ومرت أعوام وأعوام ، والحمام مهجور من الأحياء مسكون بالأرواح حتى جاءت لك خادمك « رحمة » .
وكانت « رحمة » هذه ريفية لم تخدم الا فى بيوت الريف . وما أن وصلت الى المنزل حتى سمعت هى الأخرى قصة الحمام .

ـ وذات ليلة بينما كنا جالسين نسمر ، وقد تقدم بنا الليل ، اذ عدت نحوى « رحمة » تقول : « سيدتى سيدتى ، اخفينى عندك ! » كانت المسكينة ترتعد فرقا وقد ابيض وجهها ولمعت عيناها من الخوف. كانت ترتعش باردة اليدين وهى لا تشعر بما تأتيه من حركات . وكانت دموعها جامدة فى عينيها تزيدهما بريقا ولمعانا .

ـ فقلت لها : يا ابنتى ، ما بك يا « رحمة ؟ » وأخذت أخفف عن المسكينة ما تحسه وأهون عليها أمر ما تفزع منه . واجتمع الخدم وأصحاب المنزل حولها . منهم من كان نائما فاستيقظ ، ومنهم من كان يستعد للنوم فتركه . وأخيرا استطاعت « رحمة » أن تنطق فقالت : « سيدتى ، ان عفريتة خرجت لى من الحمام ونادتنى بصوت خافت محشرج : « يارحمة ، يارحمة » وما سمعت هذا الصوت ياسيدتى حتى عدوت على السلم أفرمنها . وأنا أحس أن رجلى انفصلتا عنى . فاذا نور خافت باهت ، ولكنه ظاهر ، وسط هذا الظلام الدامس ، تبعنى ورائى على السلم . واذا الصوت يعود ثانية : « مالك خائفة يارحمة ؟.. رحمة !.. رحمة ! » ولم التفت ورائى من شدة الخوف ، وانما

عدوت اليك هنا ياسيدتى ، ولست اعرف أين ذهبت تلك الروح » .

ـ منذ تلك الليلة يا ابنتى والخدم لا يقربون الحمام ليلا بحال . منذ تلك الليلة وكل خادم تمر بالحمام ليلا تعود الى النور خائفة زاعمة انها سمعت صوتا يناديها . وان الصوت صوت امرأة محشرج كأنما صاحبه يتألم من شيء .

ـ وكنت يا ابنتى أريد أن أتحقق مما يقولون ، فاذا ما قوى عزمى يوما أحاط بى خدمى ينهوننى عن هـذا ويستحلفوننى ألا أذهب ناحية الحمام ليلا . ولا أكذبك يا ابنتى ، فكثيرا ما كان يعوقنى خوف واضطراب عصبى عن أن أجرب الأمر بنفسى ! ..

ـ وكان أولادى ينهرون الخدم ويلومونهم على هـذه الغفلة وهـذا الجهل . وكان منهم من ذهب بنفسـه ناحيـة الحمام ليلا ليثبت لهم ان ليس ثمة شيء . ولكن حجتهم كانت دائما ان العفريتة لا تظهـر الا اذا كان الشخص وحده ، وانها تخاف النور كسائر العفاريت فلا تظهر فيه .

ـ وذات ليلة جاءتنى « رحمـة » خائفة ، تبكى من الخوف وهى تقول : « سيدتى ، لقد كذبنى سيـدى وكذبتمونى كلـكم يوم حدثتكم عن العفريتة التى تئن فى الحمام . فتعالى الى السلم واسمعى بنفسك أنينها . سيدتى ، لا أستطيع أن أمكث فى البيت بعد اليوم ، وان كنت لا أحب أن أفارقـكم بعد هذه العشرة » .

ـ وقمت يا ابنتى خائفة أستر خوفى ، فيخفى حينا ويظهر حينـا آخر . وعلى حافة السلم وقفت أنصت

الى جهة الحمام ، فاذا صـــوت يئن ويتألم ، صـــوت ليس آدميا ، وانما كثير الشبه به ، يئن ويتألم طورا خافتا ، وطورا عاليا . وكان الصوت فيما يظهر ينبعث من أبعد مكان فى الحمام ، فتردد جدران الحمام الصوت ، ويردده صحن الدار حيث السلم ، فيصل الى آذاننا ضعيفا غريبا . ولـكنه صوت أنين دون شك .

– وتمثلت صوت صديقاتي واحدة واحدة ، فاذا هو صـــوت احداهن ، صوت عائشة كما كانت تئن ســـاعة ألمها من مرضها الأخير الذى ماتت به . ولم أطق سماع أكثر مما سمعت . وقـــد كنت خائفة جـــدا . فأنرنا الأنوار ، فاذا الصوت ينبعث من الحمام كما كان لايخفيه الا أصواتنا .

– ولـــا جاء ولدى الـكبير قلت له : تعال معى . وأسمعته الصـــوت . انصت أولا وأنـكر ثانيا ، ولكنه آمن أخيرا وأحس الخوف والرهبة . قلت : يابنى هيا بنا الى الحمام ، ومعنا مصباح نكشف الأمر . قلتهـــا يا ابنتي وأنا لا اقصدها ، وأنا عازمة على ألا أنفذها ، وانما قلتها حتى أظهر شجاعة أمام ولدى . وكنت ادعو الله فى سرى ألا يقبل عرضى . وأخيرا يا ابنتى قال لى : وكأنما انتشلنى من يم كدت أغرق فى مياهه : « لا يا أماه ليس من الحكمة أن تفعل هـــذا الآن ، وانما غدا صباحا ســـننظف هـــذا الحمام وسنبحث عن مصـــدر هـــذا الصـــوت » . قلت : كما تريد يابنى . وكأنما الأرواح ستظهر فى النهار يا ابنتى أو كأنما الباحث عن العفاريت يمكن أن يعثر عليها .

– وفى الغـــد دخل ولدى وأنا وراءه والخـــدم من ورائنا فـــاذا الكلبـــة « عزيزة » وأمامهـــا ستة أجراء

ولدتهم أمس داخل الحمام المهجور الذى لم يسكنه بعدنا الا الأطياف والأرواح .

– لم ينف هذا من أذهان الخدم ان الحمام مسكون وأن الأرواح ترقص وتغنى وتنادى وتئن وتعيش فيه عيشة دائمة . وظلت سيرة الحمام وناحية الحمام بالليل غيرهما بالنهار ، ففى النهار يقربونه وينظفونه ويجلسون فيه ، فاذا ما غربت الشمس تركوه للعفاريت تظهر وتفعل فيه ما تريد .

ووقفت جدتى فى حديثها وأنصتت وقد سمعنا حركة أقدام آتية ، ونظرت جدتى نظرة من ارتاب فى مصدر هذا الصوت . فراقبتها قليلا ولكنى استطعت أن أخلص بسرعة من جو العفاريت الذى خلفه حديث جدتى وقلت لها ضاحكة :

ماذا ؟ .. عفاريت جديدة ! ..

قالت : يا ابنتى لا سمح الله . كفى الله هذا المنزل شر الحزن الذى يؤثر فى أعصاب أهله فيرهف حسهم لسماع أصوات العفاريت وحركاتهم . لم تعرف العفاريت طريقها الى منزلنا سواء أكان صدقا أم كذبا الا بعد أن انطفأ سراج البيت ، بعد أن مات زوجى . كان صوته يطرد كل وحشة وينفى كل احساس نحسه نحو المهجور من الأشياء . كان صوته يملأ البيت حياة ، فطورا مرحا ، وطورا غضبا ولكنه الحياة على كل حال ، لا الموت . منذ مات زوجى . . .

وأردت أن أداعب جدتى ، قلت : ولم لم تتزوجى ثانية ياجدتى ؟ .. ان زوجك مات وأنت فى شبابك ؟..

فالتفتت الى وكأنما كنت قد طعنتها بكلماتى . وكأنما

كانت ستندفع فى لومى ، لكنها تداركت نفسها وقد فهمت انى انما أردت مداعبتها فأخطأت السبيل ، وقالت فى لهجة مؤثرة حزينة :

ــ لا يا ابنتى ، ولا فى الدعابة أحب لك أن تقربى مثل هذا الحديث . أنا واثقة انك تقدرين ما عملت . بل أنا واثقة انك لو كنت مكانى ما سمحت لك نفسك بأن تفعلى أقل مما فعلت .

قلت آسفة نادمة : ما أردت ياجدتى الا مداعبة بريئة ، فعفوا ان كنت قد آذيت عاطفة من عواطفك ، فأنا أحرص ما أكون على ألا أمس عاطفتك ، ولو فى دعابة .

وكأنما أسفت جدتى فقالت :

ــ انا أعرف يا ابنتى بما تحسين ، وهأنذا أقص عليك شيئا طريفا فى هذا الصدد . عسى أن تكون قصتى هذه أحسن ما نختم به حديثنا الليلة ، فقد طال الحديث وتنوع ، وتشتتت أفكارنا فيه . فأصغى الى :

ــ كان زوجى ضابطا كبيرا فى الجيش ، سافر مع أكثر أصدقائه ، وهم أزواج صديقاتى ، الى حرب الحبشة . وكان وداعه لنا يوم السفر مؤثرا بالغا فى التأثير ، كأنما كان يحس شيئا مما قد قدر له . وكيف لا يحس الجندى المحارب ان حياته فى الموقعة معلقة بأوهى سبب ؟.. كم كان كريما وهو يوصى أبناءه وما يزيد عمر أكبرهم عن الثامنة عشرة أن يطيعونى وأن يرعونى فى غيابه !.. سافر يا ابنتى ، فكانت مهمتى شاقة فى غيابه . ففوق القلق الذى كنت أحسه عليه ، وفوق الخوف الذى كنت أخافه مما يحتمل أن

يلم به . فوق كل هـذا كان اطفـالى صغيرى السن ، وكانوا يحبون كثرة اللعب وكثرة التـدمير . وكم كان اسماعيل شيطانا فى هـذه المـدة !.. كان كثير اللعب كثير الاتلاف . ولـكن ولدى الـكبير كان أكثرهم هدوءا واوفرهم عقلا . كثيرا ما كان ينهى اخوته عما هم فيه . فـكان منظره هـذا يؤلمنى جدا . كم كان يؤثر فى قوله لهم : ان اباهم يجب أن يعود ليراهم أحسـن مما كانوا عليه ، كم كان حليما معهم ، وكم كان شـديد الأثر فى تهدئتى كلما هممت أن أقسوا على أحدهم فى عقاب !.. كأنما المسكين قد أحس ان عبء هؤلاء ملقى على عاتقه هو . كأنما كان يحس سلفا بما سيلقيه عليه الدهر من أعبـاء ثقال . كأنما قد أحس ان تربيـة هؤلاء ، وشق الطريق لهم فى الحياة من واجبـاته هو فى غياب أبيه .

ـ وازدادت هواجسى على جدك ، وبدات أحس أن شيئا أصـاب الجيش ، اضطره الى هـذه الغيبة . ان الحرب هائلة يا ابنتى فى كل عصر وفى كل مكان ، ولكنها كانت أكثر أهوالا ومشاق اذ ذاك . ان الاختـراعات الحديثة أن كانت قد أكسبت القوى قوة ، وان كانت قد سهلت سبل الفتك والدمار ، فانها دون شـك سهلت الموت على أصحابه ، أصبح الموت هينا يسيرا لا يكلف الا عذاب دقيقـة أو جزءا من دقيقة . زادوا فى قوة الموت ، فزادوا عدد الضحايا ، ولـكنهم لم يزيدوا الألم على من قدر عليه الموت .

ـ أما قديما ، فـكان الجندى يذوق الموت قليـلا قليلا . يسير وسـط الصحارى القفرة على ظهر حصانه أو راجلا . فيتألم من مشـاق الطريق وحره . كان العطش يفتـك بهم حتى يضـطروا الى مص الطين

ليستخرجوا منه ماء ، وأخيرا يلقى الجندي العدو ، فقلما تصيبه طعنة تدفع اليه الموت عاجلا ، وانما هي طعنة تفتح عليه أبواب الآلام على اختلافها ، أبواب آلام آخرها الموت غالبا ، ولكنه الموت بعد طول العذاب : يحس آلام الطعنة أياما ، بل أسابيع ، ثم آلام الخوف من الموت ، ثم آلام اليأس والصبر اليائس الممض . وأخيرا يأتيه الموت متهاديا متدللا بعد أن يكون قد جسم فيه كل الفرج ، بعد أن طال انتظاره له ليريحه من يأسه وحزنه وألمه .

ـ كنت أقدر كل آلام الموت وأهواله ، فأشفق على زوجي كل الشفقة . ثم أتصور حالي من بعده ، وأولادي كلهم ما يزالون صغارا يحتاجون الى ارشاده في الحياة فيزداد اشفاقي ويحز الألم في نفسي حزا .

ـ ولا أطيل عليك ، فقد نفذ المقدور ، ودق ناقوس الموت في حياتي وحياة أبنائي ، ففجر كل آمالنا ، وصبغ كل أحلامنا بصبغة الموت اليائسة الحزينة . جاءني خبر موت زوجي ، فلا أحاول أن أصف لك حزني وآلامي ، وانما يكفي أن تعرفي أنه كان الشخص الوحيد الذي كنت أعرفه وأعتمد عليه في حياتي . لم يكن لي أخ ، ولا عم ، ولا خال ، ولا أب . كان هو كل أقاربي ، وكان أبا لأبنائي ، فليس لهم من بعده غيري . علي أنا وحدي وقع عبء تنشئة هؤلاء الصغار ، وارشاد الكبار ومساعدتهم على شق طريقهم في الحياة . ولست أصف لك يا ابنتي وقع هذا الخبر في نفسي ، أطفالي ، وأولادي ، فموت عميد الأسرة ليس من الخطب المستهانة . هو الخطب الذي تتجدد الحزن من أجله كل حين . كل أمر كان يكون له قبله شأن ، كل عبء كان يكفينا حمله ، كل عمل كان يقوم

لنا به ، كل صغيرة ، وكل كبيرة تذكرنا به كل يوم مدى الحياة .

ـ وكان يسكن جوارنا رجل متوسط السن ، صديق لزوجى ، بل من أشد أصدقائه صلة به . ما كاد يسمع بموت جدك حتى جاءنا يعزينا . فلقى أولادى وقبلهم ، وانهمرت دموعه فاختلطت بدموعهم . وكان هذا الرجل كريما خيرا طيب القلب . فجعلها عادة من عاداته أن يمر علينا كلما استطاع ، يسألنا حاجة يقضيها لنا ، ويأتى أطفالى بلعب أو فاكهة أو أى شيء يكونون قد طلبوه منه . وما كان يصل الى باب المنزل حتى يرسل الى الخادم بأنه أتى ، وانه يسلم على ويسألنى : أهناك خدمة يستطيع أن نقوم بها من أجلى ، أو من أجل أولادى ، وكنت أستثقل أن اذكر له كل طلباتى ، ولا أسأله الا ما أضطر اليه فيه اضطرارا . ولكن أولادى كثيرا ما كانوا يطلبون منه أشياء يقضيها لهم ، وهو مرتاح البال راضى القلب ، لأنه كان يشعر انه يؤدى بذلك حق الوفاء لصديقه الراحل .

ـ ولكن يا ابنتى جاءنى يوما ولدى ابراهيم ومعه اسماعيل وقالا لى : « يا أماه ان الرجل صديق والدنا سألنا أن نعرض عليك امرا » قلت : وما هو ؟.. فارتبك الكبير ، ولكن اسماعيل أخذ يضحك ويأتى بحركات من يريد أن يخفى ضحكه . قال ولدى الكبير : يا أماه ، انه يعرض عليك أن تكونى له زوجة ، ففى ذلك راحة لك ولأولادك .

ـ وصعد الدم حارا فى وجهى ورأسى فألهبهما . وأخذت اسب الرجل سبا شديدا واندفعت نحو

حجرة زوجي التي ظلت مغلقة منـذ وفاته. ومن صندوق كبير كنت قد وضعت فيه كل ملابس زوجي الراحـل أخرجت سوطا سودانيا كان يحمله المرحوم ، وأسرعت بالسـوط أريد أن أنزل الى صـديق زوجي أضربه به ضربة تذكره ما هو الوفاء للزوج !

ـ ورآني اسماعيل الشيطان ، وأنا أخرج السوط ، فعرف اللعين قصدي . وعدا نحو الصديق يقول له :

ـ ياعم ، أسرع ، اهرب ، ان أمي آتيـة لتضربك بسوط المرحوم أبي . ويصف لي ابراهيم ولدى كيف بهت الرجل ودهش ، وكيف فر هاربا قبل أن أدركه .

ـ كان يرى في طلبـه شيئا عاديا ، فما دام أولادى محتاجين الى من يرعاهم ، وما دمت وحيـدة في هـذا البلد محتاجة الى من يقوم لي بأعمالي الخارجية ، فمن المعقول أن يتقدم هو الينا يعرض علينـا أن يقوم بـكل هـذه الأعمال ، وأن يكون هـذا واجبا عليه بزواجه منى .

ـ كم سخطت على هـذا الرجل وكم لعنته . وظللت مغيظة منه أياما ، بل أسـابيع . ومن يومها يا ابنتى ارسلت اليه ألا يخطو عتبة دارى أبدا . لقد ظن الرجل ان احتيـاجي الى من يقوم بأعمالي وأعمال أولادى يبرر ان أخون ذكرى زوجي . زوجي الذى مات ميتة مجيدة في سبيل الوطن ، بل في ميـدان الحرب ، غريبـا عن وطنـه بعيـدا عن أهـله . زوجي الذى عاش شريفـا ومات مجيدا ، وكان مخلصا لي ولأولادى كل الاخلاص، وكان محبا لي ولهم كل الحب ، وكان يحترمنى أشـد احتـرام . لا يا ابنتى ، لو كان زوجي أقل مما كان

ما تزوجت من بعده ، فكيف به وهو ما وصفت . ثم أولادى ، أليس لهؤلاء حق على ؟.. فكيف أتركهم ، لأعنى بزوج جديد ! ..

ـ ولكن اسماعيل ابنى أبى الا أن يجعل من قصة طلب الزواج هذه نكتة مضحكة يقصها على صديقاتى. فما يكاد اللعين يصل بيت احداهن حتى يقول لها : « اتعرفين ياخالة ماصنعت أمى بفلان ؟ » فتقول : « كلا ؟ » . يقول : « لقد همت أن تضربه بسوط المرحوم أبى ، لأنه طلب أن يتزوجها». ويتفنن اسماعيل فى الوصف ، وصفى وأنا ثائرة هائجة ، ووصف الرجل دهشا مبهوتا . فتضحك الصديقة ويضحك كل من معها.

ـ وكانت صديقاتى بعدها يلقيننى فيلمننى على هذا العمل ، ويقلن لى : « أما كنت تستطيعين أن ترديه برفق ؟ » فأقول لهن : كلا ، أنا لا أعرف معنى للرفق وأنا ثائرة ، ولا أفهم ان ذكرى المرحوم زوجى تمس أو تخدش ولا أثور .

ـ وكرت الأيام سريعة فى دورتها كأنما عصا تلهبها فتعدو لا تنظر الا الى الأمام ، فاذا صديقاتى كلهن مثلى ارامل لم تتزوج منهن واحدة بعد موت زوجها فى حرب الحبشة . وكن يتندرن ويقلن لى : « كله منك انت ، فلولا ما صنعت فى فلان لما ابتعد الرجال عنا ، ولانفروا منا . لم يطلبنا احد لأنهم ظنوا اننا سنضربهم بالسوط السودانى ، كما هممت أن تفعلى انت » . فكنت أقول القائلة : كلا ، خيرا فعلت ، ان العمر واحد ويجب أن يعاش على أكمل وجه ، امامك أطفالك حقوقهم عليك أولى من حقوق زوج جديد . لا ، خيرا فعلت ، وسيذكر لك أبناؤك انك وضعت واجبك نحوهم فوق كل شىء .

— ٥ —

كانت القبيلة هادئة آمنة سـائرة فى أعمالها العادية ، فاذا واحد منهـا يعـدو اليهـا قائلا فى خوف وهلع : « العدو » . وأنصت أهل القبيلة ، فاذا دبيب خيـل العـدو يـكاد يـكون مسموعا . وكانت أخبار وصلت القبيلة عن عتو هـذا العـدو وجبروته ، فلم تر من العقـل أن تصـبر لتجاربه ، وتصـده عن وطنهـا . وانما رأت ان الأبقى لها والأسـلم أن تحزم أمتعتهـا فى سرعة ، وأن تهاجر هـذا الوطن الذى آواها زمنا ، كارهة هـذه الهجرة ، تحس لها ألمـا دفينا بليغا . وكانت أصـوات العـدو تقترب حينا فحينا ، وكانت خيل القبيلة تعدو بما عليها نحو الجنوب الى الغرب .

ووقف شـيخ القبيلة يؤدى أمانة المشيخة الى آخر لحظة من لحظات الأمن . يدفع هـذا ويحث ذاك ، حتى يتسنى له أن يسير فى الخلف . فان شيخ القبيلة حقا يجب أن يواجه عدو قبيلته من حيث اتى .

وغربت الشمس ، وتركت وراءها شعاعا من النور شع فى الأفق ، كأنما هو ذكرى تبعثها الى أهل القبيلة . ذكرى يوم من أيام وطنهم مشمس جميل . وكان يوما فذا بين أيام هـذه القبيلة ، التى لم تكن لترى الشمس الا نادرا ، ولـكنه لم يختم الا بحادث فذ أيضـا ، هو قدوم العدو الجبار .

وفى الليل القارس البرد ، وقد اشتد بالقبيلة الجهد والتعب ، وقفت قليـــلا من ســـيرها الجنوبى السريع لتتفقد افرادها ، فاذا منهم من ضل ، ومنهم من قتل برصـــاص العـــدو . واذا هـــذه الأم البائسة التى تضم ابنتها الى صـــدرها . هـــذه الأم التى عهـــد بها شيخ القبيلة الى فارس قوى ليهرب بها الى المدينة . اذا هذه الأم تسأل عن الشيخ زوجهـــا ، فيخبرها غير واحد ، انه قتـــل برصـــاص العـــدو . وانه صـــاح بهم ، وهو يجاهد الموت : « أن جدوا فى سيركم فلا نجاة لـــكم ان لم تبلغوا المدينة قبـــل الفجر » . وهكذا أدى الشيخ واجبه الى آخر لحظة من لحظات الحياة .

وما سمع الفرســـان قول بعضهم ، حتى شـــدوا رحالهم وركبوا أفراسهم ، واستأنفوا ســـيرهم السريع المخيف . لا يعبـــأون بشىء حتى ولا بتلك الأم ، التى ما زالت تتوسل اليهم ان يتركوها تعود تبحث عن جسم زوجها لتموت الى جنبه .

وبدأت أجراس الخيل تدق دقاتها من جديد ، سريعة مضطربة خاطفة ، وبدأت قلوب الهاربين المهـــاجرين الجائعين تدق دقات لا تقل عن دقات الأجراس اضطرابا وعنفا وسرعة . وما كاد نور الفجر يختلط بسواد الليل بياضا ، حتى لمحوا أبواب المدينـــة ، فارتموا ازاءها ، منهوكين متعبين جائعين ، لا يتصلون بالحيـــاة الا بأقل الأســـباب وأوهاها .

وفى الصـــباح قام أهل المدينة من رقاد سعيد هنىء مريح ، ليروا هـــذه القبيـــلة الجائعة التعبة ، منبثة فى شوارعهم تطلب الطعـــام ولو بأعز ما يمكن أن يبـــذله الانسان ، تطلب الطعام ثمنا لفلذات الأكباد .

وكانت هذه الأم بعد أن قتل زوجها ، وحيدة بائسة ، تضم فتاتها الصغيرة التى لم تبلغ بعد الرابعة الى صدرها الذى لم يقو الحزن على أن يلهبه لضعف هذا الجسم ، وقلة ما يسرى فيه من دم الحياة . وكانت دموع الأم تنحدر من عينها على جسم هذه الصغيرة الباكية ، فتؤلف منظرا مؤلما غاية الألم كانت الأم جائعة ، وكانت الطفلة على وشك الموت ، وليس لديهما ما يبيعان أو يستبدلان به طعاما . والجوع عات جبار يخول لصاحبه أى عمل ، بل أى جريمة . ولكنه لم يستطع أن يقهر قلب تلك الأم ، فلم تستطع بعد أن تنزل عن ابنتها ثمنا لطعام تسد به حاجة بطنها الثائر .

وطافت الأم وابنتها فى الشوارع ، بطيئة الخطا واهية تعبة ، تحاول أن تسأل الصدقة من المارين ، فيخونها لسانها ولا تقوى على ما لم تتعوده نفسها من قبل .

وعلى باب قصر عظيم وقفت تنظر اليه . كأنما تسائل ربها السر فى انها هى وابنتها تبكيان كسرة خبز فلا تجدانها ، بينما صاحبة هذا القصر تنعم بكل ما فى الدنيا من نعيم . وفتحت نافذة القصر ، وأطلت منها السيدة صاحبته ، جميلة بدينة ، عليها آثارالنعمة واضحة جلية ، وآثار الاطمئنان والرضا أوضح وأبين . ولمحت تلك البائسة تجر الخطا ، حاملة عبئها الخفيف المولول الباكى . فأرسلت خادمها ينادى تلك المهاجرة .

وكان منظر المهاجرين الجائعين فى عاصمة الأتراك ، منظرا شائعا فى هذا العصر . ولقد سمعت السيدة بوصول قبلة طاردها أعداؤها فهاجرت من بقعتها حتى وصلت الى المدينة ، تعرض بناتها وأبناءها فى سوق

الرقيق ثمنا للحياة . وفهمت السيدة ان هذه لابد أن تكون مهاجرة ضلت السبيل الى سوق الرقيق .

ولما رات السيدة هـذا العبء الصغير على كتف المهاجرة ، قالت لها فى لهفة كأنما وجدت طلبتها : « أهذه ابنتك ؟ » قالت : « نعم » قالت : « أتبيعينهـا ؟ » قالت : « كلا » .

ولـكن الصغيرة ذات العينين العسليتين الواسعتين المحدقتين من الضـعف ، ذات الشعر الـكستنائى الناعم الطويل ، ذات الأنف الدقيق والفم الصغير أثارت شيئا غير قليل من العطف والحنو الشـديدين فى قلب تلك السيدة العقيم .

فقالت السيـدة : « انك جائعة فقيرة مهاجرة قد يلحقك الموت ، فتعذب ابنتك الصغيرة أمر عذاب ، فما ضرك لو بعتها فأنقذت حياتك وحياتها . هل أنت أول من يضطرها الجوع الجبار الى بيع فلذة كبدها ؟ لست الأولى وثقى انك لن تـكونى الأخيرة » .

قالت البائسة : « عفوا سيدتى ، لأن أموت جوعا أحب الى من أن أقبض ثمنا لابنتى ، أن تكون ابنتى أمة أو خادما لتشبع بطنى وبطنها . . لا لن أفرض على نفسى ولا على ابنتى ذلا أكثر مما فرضت علينا الحياة » .

قالت صاحبة القصر فى تأثر عميق : « لن تكون ابنتك أمة ، ستكون سيدة ، سيدة هذا القصر الواسع العظيم . ستكون ابنتى أنا لأنى عقيم أشتاق الى الأطفال أمر اشتياق وآلمه » ولكن السيدة وهى تقول : « لن أحرمك ابنتك ، وانما كل ما أطلبه منك هو أن أشاركك فيها . ولن تفيدى أنت من هذه الشركة :

فانك كما أرى تعفين عن أن تفيـدى من ابنتك شيئا ، وانما التى ستفيد هى ابنتك . لا تـكونى سـببا فى موتها ، انها صغيرة بريئة ، ولئن ملـكت حق نفسـك فأنت لا تملـكين حقها . هـذه فرصـة قد لا تسنح لها فى حيـاتها ، ان تربى وأن تتعلم وأن نهذب وأن تـكون كابنتى أنا . فـكرى فى الأمر قليلا ... »

ولـكن بكاء الطفله وصياحها : « اماه انى جائعة ! انى جائعة ! » وقف كل تفكير ولم يبق للام المسكينة الا ان تسلم . فقالت فى صوت تخنقه العبرات : «ولكن سيدتى ستسمحين لى ان اراها كل يوم ، او كلما زاد بى الحنين ؟ » . فالت صاحبة القصر الـكريمة : «البيت بيتك ترينها وقتما تشائين » . وهمت الام بأن ترحل . فقالت لها صاحبة القصر : « والى أين ؟ » والآن فقط فـكرت الأم ، والى أين تسير ؟ ليس لها مكان تأوى اليه ، فقد جابت طرق العاصمة خلال هذين اليومين فلم تجد أى مأوى . واستحلفتها صاحبة القصر ان تظل عندها ضيفة حتى تجد لهذا السؤال جوابا : حتى تعرف الى أين تسير .

نالت الأم من اكرام السيدة الـكريمة ما أنساها بعض آلام الذل المفاجىء الذى طرأ عليها ، وبعض آلام الطريق الشاق السريع بين الجبال ليلا ، والطريق الهـادىء الحزين فى شوارع العاصمة ، وبعض آلامها وهى شريدة جائعة خائرة القوى محطمة الأمل . ولـكن مثل هـذه الآثار لا تنمحى هكذا سريعا ، فسرعان ما أحست الأم آلاما لم تمهلها أياما حتى أودت بحياتها .

ظلت الصغيرة فى القصر مكرمة معززة ، تبذل السيدة الـكريمة من مالها ومن وقتها ومن حبها وعنايتها كل

ما يمكن أن تبذل ام حقا فى سبيل أبنتها . فكبرت الصغيره . واذا هى شابة جميلة مثقفة متعلمة بقدر ماكانت فتيات عصرها متعفات متعلمات . تجيد العزف على آلة او آلتين من آلات الموسيقى ، وتعرف آداب الاجتماعات على النحو التركى معرفه تامة متقنة حتى لتكاد تكون طبيعة ثانية لها من كثرة ما دربت عليها وما مارستها .

وشاء القدر أن يغضب السلطان على صاحب القصر زوج السيدة الكريمة ، فأمر بأن ينفى هو واسرته وأن تباع كل ممتلكاته حتى اماؤه وعبيده . وصعب على السيدة أن تبيع الفتاة بعد أن أحبتها وبعد أن انفقت فى سبيل تعليمها وتأديبها ما انفقت . ولكن أمر السلطان جبار يجب أن يطاع ، ثم هى لا تستطيع أخذ الفتاة معها وهى مهاجره مع زوجها بلا مال ولا زاد . وفكرت السيدة طويلا فى أمر الفتاة ، وأخيرا رأت انها لما لها من جمال ، وما هى عليه من تعليم وتربية قد تباع فى سوق الرقيق الى سيد عظيم يعنى بها ، ويمهد لها العيش الرغيد الهنىء . وجاءها بائع الرقيق ، فأوصته بالفتاة خيرا ، وقالت له : « أن لم تجد لها شاريا كريما فاياك أن تبيعها ، وانما عد الى بعد أيام فى ضواحى المدينة فآخذها منك ، وسأكافئك على عملك » . قال : « سيدتى ، اطمئنى ، فان خديو مصر اسماعيل باشا قد أرسل فى طلب أربعين من الجوارى الحسان ، لأنه يريد أن يؤلف منهن فرقة للموسيقى ، تعزف له فى القصر ، وقد سمعت أن فتاتك تجيد العزف على بضع آلات موسيقية ، فسيكون ثمنها غاليا ، وسيكون مصيرها الى سراى خديو مصر ،

حيث تعيش فى نعيم القصور وعز الملوك » .

فرحت السيدة أيما فرح ، فقد أصبح يستحيل عليها أن تتيح لفتاتها النعيم الذى أتاحته لها الى اليوم ، وكذلك يستحيل عليها أن تراها — وهى التى تحبها كابنتها — تذوق الذل ، والفقر ، والجوع ، بعد العز والنعيم ، ورغد العيش .

وبيعت الفتاة ، وجاءت الى مصر ، وأصبحت ضمن فرقة موسيقى الخديو اسماعيل . وعاشت فى القصر عيشة هنيئة سعيدة . كانت هى وبنات فرقتها كالأخوات حقا ، يمضين اليوم كله فى هناء ، وعزف على آلات الموسيقى ، حتى اذا جاء وقت الطعام سواء أكان ظهرا أم عشاء ، ارتدين ملابس معينة ، وعدون الى غرفة الطعام الفاخرة ، يعزفن للخديو وأضيافه أثناء تناولهم الطعام . وكان منظر هؤلاء الفتيات جميلا حقا ، وقد ارتدين كلهن ملابس واحدة ، كملابس الرجال من القطيفة الحمراء أو الخضراء ، مزينة بأزرار من الذهب ، واشرطة مقصبة . كانت فرقتهن جميلة حقا ، جميلة بأفرادها وبملابسها وبعزفها .

وكانت لهؤلاء الفتيات مكانة خاصة فى القصر ، فهن أصحاب فنجئن ليخدمن لا ليخدمن. كانت جوارى القصر و «أغواته» يخدمونهن ويقضون لهن كل حوائجهن . وكان الخديو الكريم يغدق عليهن المال اغداقا . فمال فى الصيف ، وآخر فى الشتاء للكسوة وما اليها ، ثم مرتب كل شهر لكل واحدة منهن ، كأنه أجر عما تقوم به من عمل .

وكانت العادة المتبعة اذ ذاك فى شراء الرقيق ، أن

يسمى شارى العبد أو الجارية الاسم الذى يروق له ، وأن يذكر هذا الاسم فى عقد الشراء ، وسمى الخديو الفتاة « انجساس » ، فعرفت بهذا الاسم ، ونسى اسمها القديم تماما .

عاشت « انجساس » عيشة هنيئة حقا فى القصر ، ولكن الزمن لابد أن يسير ، ولابد فى سيره من تغيير . وتبدلت حال خديو مصر ، فأراد أن يتخلص من هذا الجيش العظيم من فتيات القصر ، فأخذ يزوجهن من ضباطه وحرسه واحدة ، اثر واحدة .

هذا ما قصته على جدتى امس ، وهى تتم لى حديثها الليلة :

ــ وبين هذا الحرس ، حرس السراى ، كان ولدى الكبير يا ابنتى ، وكان وفيا لسيده ، أمينا فى خدمته . فكان مقربا محبوبا لديه . وأراد الخديو أن يزوجه فتاة طيبة كريمة جميلة من فتيات قصره ، فزوجه تلك الفتاة « انجساس » .

ــ وجاءت « انجساس » الى بيتنا غريبة عنا ، بعيدة عن جونا كل البعد ، ولكنها فى الوقت نفسه تثبت لرائيها لأول مرة انها جديرة بالحب والاحترام . زوجت أولادى بعد ذلك واحدا بعد واحد ، فلم أجد من أزواجهم واحدة نزلت من نفسى منزلة « انجساس » لا بعد طول العشرة ولا قبلها . أحببتها يا إبنتى ، فكان كل يوم يمر بعد يثبت لى انى لم أكن مخطئة فى هذا الحب ، بل يثبت لى انى مقصرة فيه ، فأود لو أستطيع أن أحبها أكثر مما أحببت .

ــ بعد عز القصر وخيره العميم الوفير ، بعد المال

الذى كان فى يديها واقرأ كثيرا ، بعد هـذا العـدد الـكبير من الجوارى السود و«الأغوات» كلهم يخدمونها ويقضون لها حاجاتها ، جاءت الى بيت زوجها ، فاذا المـال لابد فيه من اقتصاد حتى يفى بحوائج الأخوة والأم ، واذا الخدم عدد محدود يشاركها فيهم كل من فى الدار ، واذا الملبس واذا المـأكل واذا كل شىء ينقص عدده وتقل قيمته . ولـكنها كانت دائما سعيدة ودائما راضيـة ، لم أسمعها يوما تشكو ، ولم تشعرنى يوما انها تحن الى حيـاة القصر .

ـ كانت تحب ابنى وتحترمه احتراما عظيما ، وتقوم على خدمته ، وهى التى لم تخدم انسانا قبل فى حياتها . عاشت فى كنف الأم أربعة أعوام ، كان لابد لها فيها من أن تخدم ، وعاشت فى كنف السيدة التركية الثرية عشرة أعوام مخدومة مكرمة معززة ، فقد كانت تعامل كأنما هى ابنة صاحبة القصر حقا ، وعاشت فى سراى الخديو عزيزة مكرمة مخدومة يحرص الـكل على رضـاها . وجاءت الى بيتنا ، فاذا فقر نسبى ، واذا واجبات تلقى على عاتقها القاء فتقوم بها كلها مبتسمة راضية .

ـ كانت يا ابنتى تحبنى حقا وتشعرنى انى منهـا بمنزلة الأم . تحنو على وتتفانى فى راحتى وخدمتى ، فاذا مرضت جلست بجوارى الليالى ساهرة لا تنام ولا ترضى بأن يعنى بى أحد سواها . وكان ابنى يحبها حبا جما ، ويحرص على رضاها كل الحرص ويحترمها كل الاحترام. عاشت بيننا ماعاشت معززة مكرمة ، لا تقصر فى واجب نحو أحـد منا ، فلا يقصر أحـد فى واجب نحوها . عرفت كيف تستميل قلوبنا ، وكيف تشعرنا بأنها لا تمتاز منا الا بأخلاقها الـكريمة النبيلة . زوجت

ابنى رأفت فكانت زوجة جافة شرسة الطباع ، تريد أن تفرض احترامها على كل من فى البيت ، فلا تظفر الا بالسخرية والبغض . كان الخدم لا يحبونها ، وكان أبنائى الصغار يأنفون من أن يضحكوا معها او يسألوها شيئا ، أو يعاملوها أى معاملة ، الا ولدى اسماعيل ، فقد كان شيطانا معها كما هو فى كل أطوار حياته ومع كل من يعرف . كان يحاول كثيرا أن يغيظها فتثور وتفور وتسب وتغضب وتتركنا جميعا لتعتصم فى غرفتها فلا يسأل عنها أحد ، فاذا بها تعود ثانية مغتاظة حانقة. وكان اسماعيل يغيظ زوج ابنى الكبير « انجساس » فتغتاظ لكن فى غير ثوره ولا حمق . تغتاظ قليلا ولكنها ما تلبث أن تضحك معنا ومعه ، وما تلبث ان تحاول نصحه بألا يعود الى ما عمل فتظفر منه بالحب والولاء ، ولا يعود الى غيظها الا كلما ألحت عليه غريزته الحاحا .

ــ شتان بينهما يا ابنتى ، زوج ابنى رأفت و « انجساس » كانتا فى منزلة واحدة من القرابة ولكن أين منزلة الواحده من الثانية فى قلبى ؟.. بل أين منزلتها من الأخرى فى قلب كل من فى المنزل ، سادة كانوا ام خدما ؟.. ان الأخلاق والمعاملة ان لم تؤثر شيئا فى روابط القرابة فان أثرها فيما هو أعظم وأدوم وأهم ــ فى الحب ــ أثر عظيم .

ــ وماتت زوج ابنى رأفت ومات هو كما قصصت عليك ، وظلت « انجساس » معى ومع ابنتى فى البيت بعد أن وظف ولداى الصغيران فى الجيش والادارة فتركا العاصمة الى حيث كان يؤمران بالمسير فى سائر انحاء القطر . لم يبق فى البيت الا أنا والا هى وزوجها

وأولادها والا ابنتى الوحيدة التى كانت لها بمثابة الأخت . وكانت صديقاتى كثيرا ما يزرننى فكانت ترحب بهن وتجلس معهن ، فما أسرع ما أصبحت صديقة لهن أيضا يحببنها كحبهن اياى ، ويأنسن بمجلسها كأنسهن بمجلسى . وهى وان كانت لا تتقن العربية أصلا فانها سرعان ما تعلمتها وأصبحت تتفاهم بها فى يسر ، بل سرعان ما أتقنتها كتابة وقراءة اتقانا ان قل فليس يقل كثيرا عن اتقانها التركية لغتها .

ـ لست أقص عليك يا ابنتى ما قاسته «انجساس» من أولادها ، فهذا تاريخ جديد تعلمينه حق العلم ، وانما أقص عليك حديثا قديما عنها لتعرفى الى أى حد وصل بها نبل الاحساس ، والى أى حد كانت كريمة الأخلاق ، قوية الاحساس بعزة نفسها وكرامتها.

ـ كان ابنى يعمل أحيانا فى البورصة فيضارب على الأموال والأقطان ، وكان بحكم عمله هذا كثير الاتصال بالأجانب الأغنياء من نزلاء القطر ، فهذا عملهم المستحب الذى انفردوا به ، فعرفوا كيف يسيطرون على أسواق البلد التجارية ، وكيف يستنزفون أموالها استنزافا . وكانت كثرة هؤلاء من اليهود ، فهم ـ كما تعلمين ـ أهل تجارة ومال منذ وجدوا فى التاريخ . وكان هؤلاء اليهود كثيرا مايزوروننا وكثيرا ما يزورهم ، وكثيرا ما يولم لهم ويولمون له . وكانت لأحد هؤلاء اليهود ابنة شابة جميلة خليعة ، كثيرة التظرف والتقرب من الرجال ، شأن كثيرات من أمثالها. والخلاعة والتظرف هما السلاح الذى لايستطيع الرجل أن يقاومه فى حينه وان قاومه بعد . فكان أن تسلطت على ابنى تسلطا يبيح لها أن تقبل هداياه

وما ينفق عليهـــا من مال .

ـ وشاع خبر تلك الصلة فى أوساط الرجال ، فجاء الى ابنى اكثر من صديق ونصحوه بأن يبتعد عن تلك اليهوديه . فاليهود قوم يسعون وراء المـال فى كل آن وفى كل مكان . وصحبة هـذه اليهودية لن تكلفه ما ينفق عليهـا من مال فحسب ، بل ستفتح عليه أبوابا اخرى لاستنزاف المـال ، لن يستطيع هو ان يسدها ، وهو الذى يعرف للأخلاق وزنا وللعواطف قدرا .

ـ وكنت أسمع اخبـار هـذه اليهودية ، فأخفيهـا عن « انجســاس » اخفـاء ، حتى لا تعرف فتتألم . وكان ولدى ، والحق يقال ، يحس انه مندفع فى تيـار لا يليق به ولا بزوجه التى يحبها ويقـدس مكانتها . فـكان يتظرف لزوجه ، ويغدق عليهـا كثيرا جدا من حبــه ومن احترامه ، حتى لا تحس تغيرا فى معاملته لها . كان يسرف أحيـانا فى احترامها ، وينفـذ لها رغائب ما كان ينفذها لها من قبل . وكان يشعرها بحبه لها اشـعارا لم يحاوله من قبـل . وكانت هى تقبـل منه هـذا الاحترام والحب الزائدين عما ألفت منه بفرح ظاهر ورضا عظيم .

ـ وكنت أشفق عليها كثيرا حين كانت تجيئنا تلك اليهودية مدعوة مع أبيها أو أمها ، فتستقبلهما استقبالا حسنا لائقا بمقام صـــديق الزوج . وكانت تودعهما كما استقبلتهما بالحفاوة والاكرام. فكنت أسر فى نفسى : آه لو عرفت من أمرها ما تجهلين لرددت اليها الاساءة باســاءة على الأقل .

ـ وكنت أخلو بولدى ، فأحاول أن أرجعه ، فـكان

يقول لى دائما ، بل كان أول ما يبدأ به قوله : « أشعرت « انجساس » بشيء ؟ » فأطمئنه ، ولكنى أعود فأحذره قائلة : انها ان لم تشعر اليوم فستشعر غدا ، فماذا يكون موقفك منها ؟.. وهنا كان يصفر وجهه ويتألم . هنا كان يعد بأنه سيقطع كل صلة تربطه بتلك اليهودية فى فرصة سانحة . هنا كان يكاد يبكى ، وهو يستحلفنى أن أخفى الأمر على « انجساس » حتى لا تألم ، فان ألمها كان آخر ما يستطيع أن يتحمل .

ــ ومرت الأيام واذا زوج يتقدم لتلك اليهودية . فينتهز ولدى هذه الفرصة ليقطع صلته بها ، فيدعوها هى وأباها وأمها الى وليمة ، بمناسبة زواجها ليقدم لها هدية ثمينة ، هى كل ما كانت تطمع فيه تلك اليهودية من صحبته .

ــ وما ان جاء يوم الوليمة حتى حادثته فى أمر اليهودية ، ورجوته أن يعدنى أن تكون هذه آخر زياراتها لبيتنا . وأن تكون هذه آخر مرة يتصل بها أو بأبيها أى اتصال ، ووعدنى ابنى بهذا ، فكدت أبكى من الفرح ، واذا أنا أخرج من غرفته فاذا « انجساس » داخلة اليه تحمل ملابسه لتساعده على لبسها ، وما أن رأتنى مضطربة من فرحى حتى سألتنى : « ما بك يا أماه ؟ » .

ــ قلت : لا شيء يا ابنتى . قالت : « كلا ، انك مضطربة وأخشى أن يكون ابنك سبب هذا الاضطراب ، أفهمينى ما بك فانا معشر النساء أليق بأن نفهم بعضنا بعضا » . قلت مؤكدة : لا شيء يا ابنتى . قالت وكأنما قد صعب عليها أن اكتمها شيئا وهى التى لم تخف على شيئا قط ، بل لم تتعود منى كتمانا .

قالت : « أماه ! ان كنت تظنين انى لا أعرف من الأمر شيئا فأنت خاطئة » . قلت وقد أحسست انها تقصـد بالأمر نفس هـذا الذى كنت أخفيه عليهـا : وأى أمر ؟ .. قالت : « أمر الفتاة البهودية » . قلت : وماذا تعرفين عنهـا ؟.. قالت : « كل شيء » . قلت وأنا أحاول آخر محاولة فى يأس لأخفى عليها الحقيقة : وهل هناك شيء مهم خاف عن هـذه اليهودية ؟ مالها ، فتـاة عادية كغيرها من الفتيات اليهوديات والانجليزيات اللواتى يزرن بيتنـا مع آبائهن وأمهـاتهن . قالت فى تأثر عميق : « أمى ! لا تحاولى أن تخفى على ما أعرف ، بدل أن تحاولى مساعدتى على احتمال ألمى الخفى. انى أعرف صلة زوجى بهذه اليهودية . انى أعرف كل شيء» . قلت : ومن أدراك ؟.. وكيف استطعت أن تظـلى هكذا ، وكأنك جاهلة كل شيء ؟ ..

قالت : « حفظا لـكرامتى سكت وتألمت وحـدى . كنت بين أمرين : اما أن احتمل فى كتمان كما فعلت ، واما أن أعلن معرفتى الأمر ، فان أعلنت معرفتى فلا بقاء لى ثانية واحدة بين زوجى وأولادى . لن أستطيع يا أمى أن امكث مع زوجى يوما واحدا والناس تعرف انى أعرف انه لا يحبنى أو انه يخوننى . لا يا أمى ، ان كرامتى قبـل كل شيء ، قبـل نفسى ، وقبل أولادى ، ان أولادى يجب أن يكونوا كراما فلا ينبغى أن يرضوا لأمهم الا الـكرامة . وما كنت أخفى الأمر واتحمل فى صمت لولا انى قدرت الأمر تماما ووجدت ان كرامتى لا تمس فيه . كان أمامى زوجى ، رجـل احببتـه وأحبنى ، بل ما زال يحبنى حقـا ، ويحاول أن يسترضينى ، رجل لم يهنى يوما بكلمـة واحـدة بله

بعمل ، وهو يحاول بكل الوسائل أن يخفى على الأمر الذى يشعر انه يمس كرامتى ، قلت فى نفسي لعلها غلطة ومن ذا الذى لا يغلط من بني الانسان ، لعلها هفوة تورط فيها فى ظروف قاسية ، لن أقف فى سبيله الذى يريد أن يصلح به هفوته . كنت أشعر بندمه منذ أول يوم اتصل بتلك اليهودية ، كنت أحس هذا الاحترام وذاك الحب اللذين لم أعهدهما منه بهذه الوفرة ، كنت أحس انه فى أزمة نفسية وانه يحارب نفسه من أجلى ، فلم يكن أمامى الا أن أساعده على هذه الحرب . فتجاهلت الأمر أمام كل انسان الا أمام نفسي . لكن تأكدى يا أماه انى لو شعرت لحظة واحدة انه يهيننى أو انه يحب أحدا غيرى ، أو ان حبه لى قد نقص ، تأكدى ، انى لو لاحظت عليه أى تغير فى معاملته لى ، ولو لم أشعر حقا انه يجاهد نفسه جهادا شاقا من أجلى أنا ، وانه يشعر بالندم على عمله ولكن لا يمكنه لأنه ورط نفسه أمام الناس ، لولا هذا لكان بقائى معه تحت سقف واحد مستحيلا . تأكدى انى كنت آخذ أولادى وأهيم بهم هاربة ان لم أستطع ذلك مطلقة . كنت أفضل أن أحتمل آلام الفرقة من أبنائى ولا أحتمل آلام الشعور بالكرامة المجروحة ، وآلام الشعور بما سيحسه أبنائى نحوى يوم يكبرون ويعرفون ان أمهم فضلت شيئا مهما جل على كرامتها . احتملت آلام الغيرة التى تحسها كل امرأة ، والتى يحسها كل رجل يشعر ان أحدا يشاركه عواطف من يحب ، واحتملت آلام التفرد بالألم ، ومحاولات اخفاء الألم طوال سنة كاملة لا لشيء الا لأنى كنت أشعر ان زوجي اذا ما جلس الى كان يستعطفنى بكل

نظرة من نظراته وكل حركة من حركاته أن أساعده على أزمة نفسية . كان كل شيء فيه وكل شيء يأتيه كأنما يناديني : ساعديني فاني سأتغلب على نفسي من أجلك أنت . كنت اذا قال لى انه يحبنى حبا لم يحبه ولن يحبه أحدا فى حياته ، كنت اذا ما ردد هذه الجملة ، وكثيرا ما رددها فى السنة الاخيرة ، أشعر انه يكررها محاولا أن يقنع بها نفسه هو قبل أن يقنعنى انا .

أما اليوم وقد واتته فرصة لأن يقطع صلته بها ، فتأكدى انى لن أسامحه بعدها ان لم يقطعها ، ولكن ثقى أيضا انى لن أهدده بهذا ولن أعلنه بما عزمت عليه ، فأنت وهو أدرى بخلقى .

ــ استمعت اليها يا ابنتى وانا فى دنيا أخرى مما كنت احس به من مختلف الاحساسات ، فمن عطف الى اعجاب الى حب الى حنو . واخيرا خرجت من هذه الاحساسات باحساس واحد هو انى أستمع لسيدة نبيلة حقا . سيدة كريمة النفس أبية تضحى فى سبيل زوجها بكل شيء الا بكرامتها . سيدة لا كسيدات اليوم اللواتى لا يضحين فى سبيل أزواجهن الا بكرامتهن .

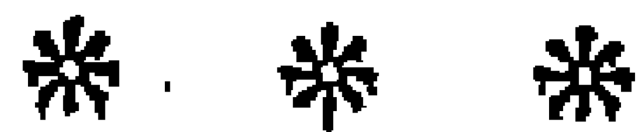
منذ ذلك اليوم يا ابنتى اختفت اليهودية من حياتنا اختفاء تاما ، جاءت هذا اليوم الى الوليمة وقدمت لها « انجساس » هديتها ، أو ثمن الساعات التى تقاضت ثمنها من ابنى مرات ومرات ، ثم خرجت من بيتنا ضيفة مودعة بالاكرام والاحترام ، ولم تعد منذ ذلك اليوم لا الى بيتنا ولا الى مجالس ابنى ، اختفت من حياتنا تماما ولم يعلم ابنى أن زوجه « انجساس »

أحسست من الأمر شيئا . سحابة مرت فى حيـاتنا كان هو أسعد منا بزوالها ، سحابة خرجت منها « انجساس » موفورة الكرامة عزيزة النفس . سحابة ما أخطرها على الحياة الزوجية ، وما أقل ما تخرج منها هذه الحياة سليمة أو كالسليمة .

ـ وسكتت جدتى قليلا ثم قالت : ان ذكرت « انجساس » جدتك يا ابنتى فلا تذكريها الا بشدة احساسها بالكرامة وعزة النفس .

قلت : جدتى ، كنت أذكرها دائما الى اليوم بذكرى جميلة غير هذه ، كنت أذكرها بقصة ما زلت أسمعها من أمى منذ كنت طفلة ، فقد قالت لى أمى انه لما اشتدت بها الآلام يوم ولادتى خرجت « انجساس » جدتى الى الشرفة فى مطلع الفجر ودعت ربها قائلة : « الهى افتد ابنتى بى ، ونجها من هذا العذاب » .

وكان أن ولدت وسميت اسما اختارته لى جدتى « آنجساس » وبعد ولادتى بأربعين يوما توفيت جدتى ، لأن دعاءها فجرا لم يخطىء ، بل أسرع طريقه نحو السماء .



هــذه القصص كتبت فى فتـــرات مختلفة ولــكنها قريبــة من الفترة التى ألفت فيها أحاديث جدتى . انها مثلها تعكس مواقف وأحوالا نفسية متماثلة لأنها تمثل مرحلة من عمرى ومن عمر مصر لها سماتها الخاصـــة وخصائصها المعروفة .

رأيت أن أنشرها مع أحاديث جدتى ، لأن المجلات التى نشرت بها كلها توقفت عن الصدور منذ ربع قرن أو أكثر . وأصبحت هذه القصص ضائعة بالفعل لأنى لا أحتفظ بأصول لها . انى دائما أحب أن أنشر جديدا ولــكن القديم له أيضا الحق فى أن يقرأ من قراء جدد .

وهـــذه القصص لو أتيح لى أن أنقـــدها لأخرجتها خارج مقاييس كثيرة استحدثت فى حيـــاتنا الأدبيـــة وأصبحت هى الوريثة الشرعية لمقاييس عاشت فى وقت كتبت فيهـــا هـــذه القصص . ولــكن الأدب فيما نعلم جميعا يحمل سماة عصره وفى الوقت نفسه يحمل بذور ما يجعله أدبا فى كل عصر .

انى أضع هذه القصص بين يدى القـــارىء وكل ما أرجوه لها أن تفتح له بابا من أبواب التفكير أو طريقا من طرق الدرس . وهـــذا حسبى .

يونيو ١٩٧٨ سـهير القلمـاوي

مثلت فأتقنت التمثيل

لقد ألفت البكاء بعد فقد وحيدها واستبدلت بالرقص والتنهدات وبالغناء النحيب . كانت تعمل فى مسرح من المسارح راقصة ومغنية ، فأصبحت تعمل فى مسرح الحياة نائحة وباكية .

فى سنة ١٧٧٦ ، قامت أمريكا تطالب باستقلالها وأعوزتها الجيوش فأرسلت تستنجد بفرنسا فأرسلت فرنسا المدد اليها بقيادة القائد « لافاييت » ذلك العظيم الذى أصبح فيما بعد من زعماء الثورة الفرنسية. ونالت أمريكا استقلالها وظلت مساعدة فرنسا لها دينا فى عنقها تترقب الفرص للوفاء به . ولكن الأعوام توالت وما زال هذا الدين غلا فى عنق أمريكا .

وفى سنة ١٩١٤ ، انفجرت الحرب العظمى فى أنحاء أوربا وقامت لها الدول وقعدت . وأخيرا أرسلت فرنسا تطالب بدينها وتلح فى طلب المدد . تذكرت أمريكا « لافاييت » وجيشه فأرسلت جيشها وفاء دين وتحية اجلال لروح البطل الخالد .

وشاعت الأنشودة المعروفة « جئنا اليك يالافاييت » فى أمريكا بين صفوف الجند وفى المسارح والمقاهى .

أنشدها القـــوم لحث الشباب على التطوع فى الجيش المرسل مددا لروح « لافاييت » ممثلة فى فرنسا ، ولكم ألهبت تلك الأنشودة من قلوب ، ولــكم أثارت من حمية الشباب ودفعت بهم زرافات الى صـــــفوف الجيش المسافر الى وطن « لافاييت » وفاء دين ورد جميل .

وشهرت تلك الأم بانشاد هـذه الأنشودة واشتهر وحيـدها بأنه أول من تطوع فى هـذا الجيش . كانت الأم تغنى تلك الأنشودة وهى ترقص رقصــة الجندى المقتول ــ رقصة تمثل وقوع الجندى الباسل فى ميدان القتال فداء للوطن وضحية للنصر ــ فـكانت تلهب قلوب المتفرجين حماســا واقداما . وأنشدتها لآخر مرة ليلة رحيـل الجيش فى المعسكر ، وكان ابنهــا من أكبــر المعجبين بها ، والمتحمسين لها . وكانت هــذه آخر مرة رأت وحيـدها . ففى الصبـاح رحل الجيش .

رجع الجيش ولـكن وحيـدها لم يرجع . فقد قتل فى ميـدان الحرب شـهيدا كما أملت عليه تلك الروح التى ألهبتها الأم بأنشودتها . لم يمت فى ساحة الوطن وانما قتـل فى ســاحة الوفاء .

وأنشد الجند « وجئنا اليك يا لافايت » ، احتفاء برجوعهم الى وطنهم فتقطعت نيــــاط قلب الأم حزنا وكمدا ، وتمثلت لها الحرب بأبشع مظاهرها . فهزأت من الجند الساذج الذى يسير الى الموت فرحا مستبسلا مضللا بكلمات جوفاء ، كالوطن ، والحرية ، والوفاء ، والشهامة . وازدرت أناشيـد الحرب وأعلام الحرب ، وكل ما يمس الحرب ، لأنها كلها ليست الا وســـائل اغراء الشباب ليقدم على الموت فتنال الأمة مطامعها . وهكذا لابد من ضحايا فى كل فوز ولابد من ثمن لكل نصر .

وبزغت شمس هذا الصباح فتململت الأم فى فراشها ، وانحدر الدمع على صدرها سخينا ملتهبا فتنهدت قائلة : « رباه ، اما فى دنياك من جديد ؟.. » ليس هناك جديد لك أيتها الثكلى ، فقد حرمت ثمار غرس تعهدته وسهرت عليه فجنى الموت ما كنت اليه تتطلعين ، وتمتع الفناء بزهر تعهدته وسقيته دم القلب . ليس لك سوى انشودة تعيدينها ليل نهار هى كل ما لك من ذكرى . نعم ليس هنالك سوى أنشوده الذكرى فردديها كلما غنت الطيور ، ورددديها مطلع الشمس ومغربها ، ردديها ما بقى فيك صوت ينشد ، ردديها ، ولتكن آخر ما يسمع من صوتك العذب الرقيق .

صحت الأم فى ذلك اليوم يملؤها شعور خفى ، انها ستلاقى وحيدها ولكن اين ؟.. لاتدرى ، لقد دعاها الجند اليوم وتوسلوا اليها لتحضر احتفالهم بمرور عام على وفاة وحيدها . ذهبت ولكنها كانت ذاهلة عن كل ما حولها . يكلمها هذا ويعزيها ذاك ، فلا تشعر بشىء الا انها ستلاقى وحيدها اليوم .

وعزفت الموسيقى أنشودة «جئنا اليك يا لافاييت» فاندفعت الأم نحو المنبر بشعور غريب ، وبدأت تغنى وترقص رقصة الجندى المقتول ، كما كانت ترقصها ليلة ترحيل الجيش ، أنصت الجند اليها بقلوب باكية، وعيون ينهمر الدمع منها انهمارا . لقد رأى كل منهم الموت بعينه فما بكى ، ورأى أصدقاءه يترنحون قتلى فى ساحة الحرب فما ذرفت العين نصف ما ذرفت لمنظر تلك الأم الثكلى ترقص رقصة تمثل وحيدها يقع قتيلا فى الحرب . سمعوا المدافع والطبول

وسمعوا الأنين وحشرجة الموت فما هلعت قلوبهم ، ولا وجلت مثلما وجلت لسماع صوت الأم وهى تنشد انشودة دفعت ثمنها غاليا .

وترنحت الأم فى رقصتها استعدادا لسقطة الموت الأخيرة ـ سقطة تمثل سقطة الجندى الباسل مقتولا فى ساحة الحرب . وهنا رأت وحيدها . نعم رأته يسير اليها بطيئا مهيبا . يسير اليها هى بعد أن قام من بين صفوف الجند مادا ذراعيه نحوها . فصرخت صرخة مروعة : « ولدى ... ولدى ... الى يا ولدى»

وسقطت كما يسقط الجندى المقتول فى ساحة الحرب .

نوبية تعبر النهر

« نوبيــة » صبيــة فى العاشرة من عمرها . تلك السن التى لا هى طفولة فيهــا البراءة والسذاجة ، ولا هى شبــاب فيه الحيوية والاكتمال . وكانت ســـمراء شــديدة السمرة . لولا عينــاها ما راعك شيء من ملامحها العــادية التى كانت أقرب الى القبح منهــا الى الجمال . ولــكن هاتين العينين وخضرتهما المعكوســة على سمرتها الشــديدة وبريقهما الخاطف اللامع كانتا قوة ترغمك على معاودة النظر الى وجهها .

وكانت « نوبيــة » تعمــل مع أمهــا فى بيت ثرى من أثرياء الصعيــد ، خادما تقضى الحاجات فى سرعة وخفــة ونشــاط . وكانت اذا وجدت مع أترابها من الفلاحات العاملات فى الغيط تباهت وتفاخرت بما تلبس من ثياب ، وبسائر ما تنعم به فى بيت صاحب الأرض . بل ربما جرها طموح الطفولة الى الادعاء ان ســيدة الدار ســوف تتخذها بنتا لها وســوف تأخذها الى مصر فى الشتاء ، ويمتد بها المجال ويتسع الى وصف ما ستجد فى مصر وما ستعطى فيهــا . ولعل هــذه الأحلام كانت تســاورها حقا . ولــكن من الفلاحات لا تعرف ان زوج سيــدها لها من البنات خمس .

كانت « لنوبية » أحلامها وآمالها وكأنما اطلاعها على الحياة المترفة التى كانت تراها كل يوم فى البيت الكبير ـ بيت صاحب الأرض ـ قد مد لها الآمال ووسع عليها الاحلام . ولولا طيبة عرفتها أترابها عنها كانت تتجلى فى اقتسامها بعض الحلوى معهن أو فى دعوتهن الى طعامها فى البيت الكبير ، لولا هذا لكرهنها ، وحسدنها ودبرن لها أمورا .

ولعل أشهر ما شهرت به «نوبية» حملها «الفانوس» فى ليالى رمضان لتمر به مع بنات القرية وصبيانها مغنين على أبواب الدور الميسره طلبا لعادة رمضان ، كما كانوا يسمونها . وهى شىء من « النقل » أو الفطائر ، أو قطع صغيرة جدا من النقود لايظفرن بها الا من البيت الكبير نادرا . وكانت « نوبية » هى التى تقود الجماعة وهى التى تحمل هذا « الفانوس» الضخم الضعيف النور وهى تتلقى العطاء فتقسمه بالعدل بينهم جميعا لا تحابى الا نفسها من حين الى حين وكأنما كانت تبرر هذا بقولها : ولم لا يكون نصيبى الأكثر ، وانا التى تحمل «الفانوس» وتقود الجماعة فى السير والغناء .

وفى آخر ليلة من ليالى رمضان منذ أعوام ، جاءت « نوبية » الى جماعتها بعد أفطار الصيام وظلت تقص عليهم من أنباء البيت الكبير ما قصدت به الى اظهار فرحها وما قصدت به الى اغاظة أصحابها واشعال نار حسدهم . كان أهل البيت الكبير يعدون العدة لزيارة موتاهم أول يوم من أيام العيد . وهذا الاعداد يتطلب صنع الفطائر وشراء الفاكهة واعداد القطع الفضية اللامعة من النقود ، الى سائر ما اعتاد أن يوزعه الأغنياء على الفقراء فى مثل هذه المناسبات .

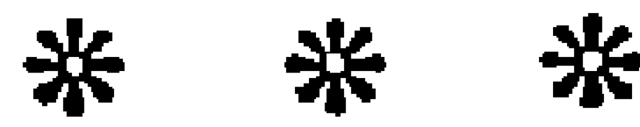
وأخذت « نوبية » تقص عليهم أنبـاء الفطائر واللحم والفاكهة والحلوى وقطع النقود اللامعة والأزهار ، وهم ينصتون اليها فى فرح واعظام لأمر ما تقص . ولكن واحدا منهم دفعه الغيظ من هذا الكلام وكأنما حسد « نوبية » على ما ترى وما ستنال مما تصف ، فقال لها : ولكنك لن تعبرى النهر معهم ، غدا .

وكان أهل القرية يدفنون موتاهم على الشاطىء الآخر وكأنما عادة قدماء المصريين ظلت متبعة الى اليوم ، فما زال النهر العظيم يؤدى وظيفته فى فصل الأحياء عن الأموات .

وأغاظ « نوبية » اعتراض صاحبها وهاجت بها حمى التعاظم والتفاخر ، فردت ان سيدة الدار وعدتها ان تأخذها معهم ، بل وعدتها أن تعطيها ما تشاء . وعادت « نوبية » الى الدار وتبينت للأسف الأليم انها لم تحصل على هذا الوعد بعد . فأخذت ترجو سيداتها الصغيرات أن يقنعن أمهن بأخذها معهن ، فلم تفلح سفارة واحدة منهن . فوسطت أمها ، فلم تفلح هى أيضا . فاندفعت بدافع الأمل الأخير الى سيدتها باكية مستحلفة ، متوسلة ، فنهرتها السيدة وهى مستمرة فى عملها المتراكم أمامها لا تدرى شيئا عما يغلى به صدر « نوبية » .

وانزوت « نوبية » فى ركن من أركان الدار الفسيحة باكية يائسة ، ولكنها ما كادت تجلس مكانهـا وهى تدمدم : أريد أن اعبر النهر معكم ، فى عناد الطفولة ، وتصميمها حتى صرخت صرخة نكراء ارتجت لها جنبات البيت ، فعدا نحوها كل من كان فى الدار كبيرا

كان أم صغيراً يسألها ما بها ؟.. فمدت يدها اليهم وهى تصرخ فى ألم أليم : « لسعة عقرب أسعفونى » .



تنفس فجر العيد متعبا كأنما قد أعياه السير فى قافلة الزمن ، وازاح طرف الستار فى ارتخاء عن يوم صحو ، رائق لم تشب زرقة سمائه سحابة واحده ، وهبت على النهر ريح ساخنة تحرك صفحته فى هدوء وتكاسل وخرج اطفال القرية فى جلابيبهم ذات الألوان الفاتحة الزاعقه يهللون ويصيحون ، وكأنما هم يعوضون العيد ما سلبته الطبيعة من حقهم فى البهجة والفرح، وسارت القوارب تعبر النهر متلاحقة مزدحمة كأنما هى تسابق مطلع الشمس الى زورة الموتى فى يوم العيد ، وكأنما أهلها يريدون أن يظفروا بشرف تمتعت به الشمس دونهم طوال عام ، وهى أول ما يطلع على مقابر هؤلاء الموتى يؤنس وحدتهم وينير ظلمتهم . وعلا صوت امرأة من قارب من هذه القوارب بصرخة الألم واعلان الحزن ، والتفت أنظار العابرين فوق قارب «صاحب الملك » يلهو به النهر ويداعبه على صفحته ، ثم نظر الناس بعضهم الى بعض نظرة المتألم المدرك للأمر ، فلم يمح آخر الليل ما قد خط أوله بعد .

وتعبت المرأة من صراخها فجلست فى قعر القارب تبكى بكاء مرا ، ثم قالت وكأنما الخاطر الجديد قد ألهاها عن حزنها شيئا : « وا كبدى يابنتى أردت أن نعبرى النهر معنا فهأنت قد عبرته » . ثم نظرت الى حيث جسد ابنتها وعادت الى عويلها العالى الحزين .

لم لا ترقص ..؟

جلسنا بعد العشاء صامتين .. كل يفكر فى عالمه البعيد الذى لايرتبط بعالم من يجلس الى جانبه بأوهى سبب . فهذا أمريكى ، وذاك انجيزى ، وثالث فرنسي . لكل منا ماضيه الحافل بالذكريات ، ومستقبله المليء بالآمال و لأمنيات .

قالت ربة الدار : اليس عند أحدكم مشروع لقضاء سهرة ؟ .. فكان الجواب صمتا ووجوما .

قالت : هيا اعملوا شيئا ، اذهبوا الى المسرح ، الى السينما ، أو فكروا فى قضاء سهرة فى المنزل اذا اردتم . كان الفرنسى بملابس الضباط الرسمية ، لأنه رجع من حفلة زواج عصرا ، ولم يغير ملابسه للعشاء .

فقال : هيا نرقص .. قال الكل : هيا نرقص ،

وازيحت السجاد ، ودارت « الاسطوانات » ، وبدأ الرقص . ووقف الأمريكى بجانبى يتابع الرقص بنظره ولا يتقدم لراقصة يطلبها للرقص . وكان موقفه يبعث على التساؤل والعجب.. فقامت ربة الدار اليه وقالت : الا ترقص ؟.. نحن محتاجون اليك ، لأن الراقصات اكثر من الراقصين .. قال : كلا ، قالت : أما يكفى انه

ينقصـــنا راقصون ؟.. قال : لا أريد أن أرقص .. واستمر واقفا مكانه .

وأفاض القوم في الحديث عنه . انه عجيب الأطوار، لو كان لا يتقن الرقص لعذرناه .. قالت الانجليزية : لقد راقصني مرة يوم دعاني الى حفلة السفارة الأمريكية ، وكان يرقص رقصـــا مدهشـــا .. قالت ربة الدار : راقصك بضع دقائق لأداء الواجب فقط ، كما قلت لي ، قالت : نعم . ثم لم يرقص بعدها حتى الصبـــاح . قالت له ربة الدار : لابد أن أعرف لم لا ترقص ؟ .. قال : لا شيء كل ما في الأمر انى لا أريد .

وما كاد الكلام يدور حول موضوع آخر ، حتى مد يده مسلما منسحبا لينام . « ولكنها التاسعة ليس الا » . قال : « أريد أن أنام » .

تذكرت بعد دقائق رســالة تليفونية لابد لى من أدائها وكانت الآلة بجوار باب غرفته . وما كدت أدير آخر رقم حتى سمعت انة خافتة ، ترى ما به ؟.. لا حق لى أن أقتحم عليه غرفته ، ولكن أكان الصــــوت صوته ؟.. ماذا نفعل ؟.. رجعت فاذا ربة الدار ترجونى ان احمــل اليه كأســـا من عصير البرتقال انها مشغولة فى تقديم الكئوس للآخرين . كدت أعتذر ، ولكنى حملت الكأس وسرت ، وفى الطريق وقفت . اذ كان يتألم حقا ، فما دخولى عليه غرفته وأنا لم أدخلها قط . ولكن كيف أعود ، واذا عدت ، ألا تحمل اليه الكأس ربة الدار ، فاذا كان يتألم حقا فأى ارهاق ستر هقه بكثرة سؤالها والحاحها . لقد كدت أصرخ فى وجهها أن دعيه وهى تلح عليه فى السؤال منذ دقائق وهو محمر الوجه زائغ البصر .

وسمعت حركة أقدام ، فأسرعت وقرعت الباب ، وانتظرت رده . وكانت ربة الدار ، فقالت : من آخر الدهليز ، ألم يجبك بعد ؟.. خفت أن تأتى هى ، لست أدرى لم ، لذلك شعرت انى انقذت لما سمعت صوته يأذن بالدخول . فتحت الباب ، وقلت له : هاك كأسا من البرتقال . وكاد يقول : لا اريد .. ولكنه قام ليأخذ الكأس . لقد كان أحمر العينين من البكاء . وبدافع الشفقة على الغريب المتألم ، قلت له : تشجع . فنظر الى نظرة حيوان خائف مرتاب يريد أن يفهم . ومد يده ليأخذ الكأس ، وكنت ما زلت على عتبة الباب ، فتركتها له ، وهممت بالرجوع ، فاذا الكأس تسقط بين أيدينا ، واذا هو يجذبنى من ذراعى ويقفل الباب ، قائلا : أرجوك لا تحدثى صوتا لئلا تجىء وترهقنى بالسؤال . وعرفت من يقصد ، ولكنى هممت أن أفتح الباب وأتركه يتصرف كيف شاء ، فقال : أرجوك . فوقفت .

كان يلهث مترقبا ، وتحسست له الأصوات فلم يكن الا الأنغام الراقصة ، وضحك الراقصين ، قلت له : « اطمئن . لا شىء . لم يسمعوا شيئا » . قال : « أرجوك » . قلت : « ماذا ؟ » قال : « الموسيقى أوقفيها ، انها تكاد تذهب بعقلى » . قلت : «تجلد . أتظن انى مستطيعة هذا ، وهبنى أوقفتها ، أتريد وابلا من السؤال فى مقابلها » . لم يدعنى أكمل جملتى حتى ارتمى على مكتبه يبكى . لم أدر ماذا أفعل ؟ .. أأتركه على تلك الحال وأتجاهل حزنه الفائر ؟.. كلا ، لا أستطيع أن أتكلف هذا البرود . انه غريب يتألم فنسيت تحفظى ، وقلت له : مالك . وفى لحظة الصمت

ادركت انى لم يكن لى أن أسأله هـذا السؤال ما شأنى به . وطافت برأسى سريعا جملا تمحو اثر هذا السؤال حتى لايضطر الى الرد . ولـكنها كانت كلها تشعر بالبرود وعدم الاكتراث . فلم أقو على نطقها وسـط هـذا التألم الحزين . لم يدعنى أفـكر طويلا ، فقـد رفع رأسـه وقال : « آه لو كنت أنساها » . قلت : « وما يمنعك ؟ شيء من قوة الارادة وانسها » . قال : « انك لا تعرفين شـيئا . انها ماتت » . قلت : « ولـكنك لم تمتها » . قال : « لا . لا . ماتت لأنها كانت تحبنى » . لقد مانع أهلى فى زواجنا . آه ، كم أمقتهم لهذا . كم أمقتهم السخفاء . انها ليست من طبقتى ، كلا . هـذا عذر انتحلوه . انهم كانوا يريدون لى أخرى . فقلت لها : صبرا ، سأذهب فى عمـل لمدة عامين ، وأعود لك معتمدا على نفسى فى معاشى ، فان قبلوا الزواج فبها ، والا فسنتزوج رغم ارادتهم ونعيش بما اكسب . فقبلت .. وقبل أن أسافر رجتنى الا أراقص غيرها ، الا اذا اضطررت لأداء واجب ، لأنى عرفتها فى مرقص . فوعدتها . ولا زلت الى اليوم وفيا لهذا الوعد . لا أسمع أنغام رقص الا ذكرتها . ولا أخلو لنفسى الا طافت برأسى كل حوادث رجعتى وأنا مشوق الى رؤيتها ، فاذا بها قد ماتت قبل أن أعود بأيام . إن محادثاتنا ترن فى أذنى دائما كأنما قد تعمـدت أن أحفظها عن ظهر قلب . بل ما أكثر ما أتخيلها أمامى فأجلس اليها اتحدث فى شئونى وأسمعها وهى تملى على ما يجب أن أعمل . لقد فررت من القـارة كلهـا وعبرت المحيط وجئت هنا فى هذه المدينة المليئة بأسباب الفرح لا لأنساها ولـكن لأنسى اساءة أهـلى الى .

ولاحاول أن اغفر لهم ولـكنى لم أستطع . آه يارب ألم تـكن تسنطيع ابقـــاءها أياما حتى أعود لأراها وامحو اسباب حزنها وضعفها » .

واندفع فى حزنه الأليم يسخط على القـــدر والزمن والحياة دون حرج دينى ، بل دون أى ايمان . أشفقت عليه وقلت له : « مهلا .. لعل وراء كل تعاســتك تلك حكمة لا تفهمها » . قال : « حكمة . أنا لا أومن بشىء بعدها . لو كنت أومن بالآخرة لانتحرت لألقاها أو لأسمع أخبـــارها ، ولـكنى لا أومن بشىء مطاقـا مطلقـــا » .

قلت : « تشجع .. الا تتصـــور ان هناك من هم اتعس منك » . قال : « مستحيل » . قلت : « تصور ان حبيبتك عاشت ثم ارتـكبت ما احتقرتها من أجله » . قال : « كنت أقتلهـا » . قلت : « تصور انك جبنت عن قتلهـا لا خوفا وانما احتقـارا واشمئزازا . تصور انك احببتها ورفعتهـا فى حبـك الى السماء ، فاذا هى تنزل من عليـاء ما رفعتهـا اليه يوما بعـد يوم ، واذا انت تفيق يوما فتجدها لا تستحق شيئا بعد أن كنت لا تجد ما يستحق أن يداس بقدمها . تصور انك بنيت من حبـك لهـا تمثالا تضـيف اليه كل يوم آية من الجلال والجمال حتى انك لم تتمالك من أن تركع له متعبدا فاذا التمثال يسقط أمام عينيك قطعة قطعـة حتى ينهـار كله ولا تبقى الا قاعدته . وياليتها تنهـار هى أيضـا ، بل يا ليتك تستطيع كسرها أو محوها ، انها ثابتة لا تتزعزع . باقية حيث هى ، تذكرك دائما ان تمثالا كان عليها يوما ما وانك كنت تركع له متعبدا » .

« تصـــور انك بدل أن تذكرها فى جمـــال الذكرى

الطاهرة والحب الذى لم يدنس بشائبة ولم يمسه الا الموت ، الذى لا سلطان لمخلوق عليه ، تصور انك كنت تذكرها وتذكر انها ماتت فى الحياة ، إنها تحطمت أمامك وانتهت ولم يعد لك فيهـا حتى أمل فى الآخرة التى يؤمن بها كل مؤمن حولك . تصـور انك كنت تذكر مشاقك فى رفعها عن حيـاتها الأولى . كيف سـقطت قليلا لتعينها على الارتفـاع فوق حيـاة لعنتهـا معك فاذا هى تجذبك الى ما أردت أن تنقذها منه ، واذا هى تسقط لا حيث كانت ، ولـكن الى أحط من ذلك بكثير ولا يسعك ولا يسع كبرياؤك الا أن تقول لها هنيئا لك ما اخترت لنفسك . ثم تسير فى الحياة وقاعدة التمثال لا تزال هناك ثقيلة على القلب تذكرك دائما ان تمثـالا كان عليهـا يوما ما ، وانك كنت تركع له متعبـدا . ويفيض حزنك فلا تملك نفسك أحيانا من أن تركع حيث كنت تركع دائما ، ثم ترفع عينيك نحو التمثال فاذا الفراغ الذى لا يتبعه الا الفراغ وتعثر يدك فى تراب التمثال المنهـار فتمسكه بين يديك وتضغط عليه لعل شيئا من حرارة الحياة فيك تعيـد اليه تماسكه ، ولـكنه ينهار دائما ابدا بين يديك متساقطا فى خور وضعف نحو الأرض التى كان منها . كأن الحياة التى شععتها فيه لا يمكن أن تصـل اليه . وتذكر انك خدعت يوما بمثل هـذا التراب الحقير فتنثره فى عنف وتمسح يدك من اثره مشمئزا ، ولـكن دمعك ينحدر بدله فى حذر وضعف وحزن ، دمعك الذى حسبته وكتبه كبرياء نزل متهاديا محرقا على قاعدة التمثال التى تأبى الا ان تبقى والا ان تذكرك بأن تمثالا كان عليها يوما ما وانك كنت تركع له متعبدا » .

« تصور انك لا تستطيع أن تفرج عن نفسك بالدمع لأن كبرياءك تثور دائما وتسائلك فى احتقـــار على أى شيء تبكى ، فتقول معهـــا : نعم ، على أى شيء نبكى ؟ فــكر فى انك تملك دمعك ان تذرفه كريما أبيا لأنهـــا ماتت كما عهدتها ، لم تمس حبك بما يؤثر فى جمـــاله مهما تــكن حالها . ثم اجعـــل هـــذه الذكرى متعـــة لا شقاء ، وسر بنورها فى الحياة كما لو كانت معك ، لأنها لم تــكن ألا معك . واذا صـــادفت هؤلاء الذين تناثرت احلامهم ودكت آمالهم وحطمت تماثيلهم وحاروا بين دمعهم وكبريائهم ، فســـاعدهم على أن يزيلوا هذه القواعد التى لا تزال أبدا تذكرهم ان تمثالا كان عليهـــا يوما ما ، وانهم كانوا يركعون له متعبدين » .

لقد جف دمعه وهو ينظر الى ، كأنما قد أدرك كل شيء ، وقمت مسلمة ، فمد يده وقال : « تشجعى » . فضحكت وقلت : « كلا يا صـــاحبى ليست تلك حالى وانما تلك حال صديقة أحبها أصدق حب وأقواه » . قال : « ما أشقاها » . قلت : « كلا انها لا تحدث أحدا بآلامها الاى . حتى ان النـــــــاس يقولون ما أسعدها . انها مؤمنة . انها تسير فى الحياة وابتسامة الرضا تنير وجهها كأنما تقول لنفسها : « أن الله يريد بذلك أمرا ، بل انها تقولها فعلا فى هدوء وايمان » . قال : « ما اعجب الشرق ! » .

أنـــا الـــورد .

كان اليـــوم حـــارا حالمـــا يمر بأهل الأرض مرور الذهول ، فهدء كل حى هـــدوءا راضيـــا لا أثر للمقاومة فيه ، وسكنت كل حركة كأنما الـكل ينصت الى مرور هـذه الساعات الثقال ، ويتحسس لها صوتا يخيل اليه انه سيسمعه ، وتلـكأت الساعات بطيئة ساكنة ، كأنها لا تسير ، بل كأنها الجزيرة الحالمة وســـط بحر الزمان المضطرب .

كنت أسير فى هــذا الحر وحدى راجعة من عمل لم يكن شـاقا الا لأنه أرغمنى على الخروج فى مثل هذا اليوم ، وطافت برأسى افــكار هادئة حزينة لم أعرف لها سببا ، كانت الصــور والأفــكار تمر برأسى مضطربة فى تراخ كأنها الاعيب بين يدى طفـل لا يعرف من أمرها أكثر من أنه يلهو بها متبرما ، لا يريد الا أن ينـــام ، ولـكنه لايدرك ماذا يريد .

وكانت الحديقة على جانبى الطريق زاهية الخضرة الا ان حشائشها مسترخية نائمة ، لأن الحر أضعفها وانعسها ، وزهر الليمون ينفث عطره العبق القوى الذى تشعه الحرارة وتنشره تملأ به الجو مخدرا للأعصـــاب ناشرا فى الدنيـــا احساسات حالمة ذاهلة .

ومن بعيد انساب صوت البستانى الصغير من هذا الفضاء الى أذنى ، غريبا أولا ، ثم منسجما ثانيا :

« ياللى انا الورد .. وانت المساء بتسقينى » .

صوت هادىء مطمئن يشجى لاطمئنانه وهدوئه . صوت فيه بحة ملائكيه وامتدادة حالمة ، بنغم مستسلم هادىء ، وان يكن مطمئنا فانه لا يخلو من هذا الحزن الذى لا تفلت منه أفرح الأغانى الشرقية .

واقتربت بخطواتى المتثاقلة نحو الصبى وهو يعمل فى الحشيش ، يقلع ويسوى ، ويقص فى نشاط عجيب.

انه يستمد حياته من مصدر خفى ، كل ما حوله يثيم ويخدر الأعصاب ، ولكن ينبوعا صافيا من الفرح والرضا يترقرق فى صدره الفتى . ان فرحه يطرب لا بقوته ، ولكن باطمئنانه وغرابته وسط هذا النوم والركود . وكرر الصبى مواله ، وأخذ يعيد :

« ياللى أنا الورد .. وانت المساء بتسقينى » .

ويده تعمل فى حركة دائمة ، يده السمراء المصرية النحيفة التى لم تعرف البطالة منذ قرون وقرون . ما أعجب هذا الاطمئنان فى عالم يغلى بالقلق ! وما أجمل هذا الرضا وسط دنيا تضطرب بالسخط ! ان بستانى الصغير يحمل فى صدره سرا سماويا قد اودعه دون أن يشعر به . ان فيه نفحة من عل تنير له الظلام ، وتنعش له الموت . ان فيه قدرة تهدىء العواطف وتطمئن البحار المضطربة لتسير بمركبه الصغير، كالجدول هادئا آمنا لا الى غاية معلومة ، ولكن ليسير أبداً .

ورفع الصبى عينيه الى ، وقد وقفت دون أن أشعر، مسمرة حيث أنا ، أنتظر أن يصيبنى رذاذ من هـذا الاطمئنان والرضا . لقد أيقظتنى نظرته الى. انه يظننى قد ضللت الطريق ، فهو يشير الى الطريق العام قائلا :

« من هنـــا ياست » .

وانى لأسير وفى قلبى حسرة ، وفى نفسى انقباض ثقيل . ليته يدلنى على هـذا السر الذى فى قلبه ، ولأضيع بعدها فى الحياة المقفرة ما أضيع . الطريق العام . ليت كل ما ضللت عنه كان أمره كالطريق العام. آه كم كان يـكون يسيرا اذ ذاك . آه كم تسهل الحياة وتشرق و . . . . .

« يالى أنا الورد .. وانت المـاء بتسقينى » .

عاد الصبى الى غنائه . انى مررت به كغمامة تمر بشمس الصيف ، لتتركها أسطع مما كانت ، ولينسى أمرها حتى من استظل بها دقائق أو ثوان .

ورفعت منديلى أمسح العرق المنساب على جبهتى ، انى عرقت من حر السير ، وبستانى الصغير يغنى للتعب والحر ، وترتفع أغنيته فى فضاء من حرارة الصـيف وعبق زهر الليمون ، لتعود فتهب على وجهـه نسيما رطبا منعشا ينشطه للعمل .

ثم طوانى الطريق العام . ففرقت فى ضوضاء آلاته ، وأحاديث أهله . ان لبستانى جنته وأغنيته . أما أنا فقد مزقت أوتار حنجرتى ، وأصـبحت وكأنما قـد خلقت لأعيش أبدا وسط هـذه الآلات ، وتلك الدمى الآدمية ، أسمع أصـوات الأولى فتؤذى الحواس ، وأنصت لحديث الأخرى فيعيا العقل وبشقى القلب .

خـــــلود

عجيب أمرها « خلود » هذه . انها ظلت تفرى المثال لمسكين اغراء ملحا ، فلما أيقنت من قلبه تدللت وتجنت. انه لايزال يذكر اول يوم لاقاها فيه . كان فى مدينـــة نائية عن وطنه ، وكان يعد نفسه لامتحان السنة النهائية فى كلية الهندســـة ، وكان العمـــل قد أتعبه ، فخرج الى غابة قريبة من فندقه الذى كان يسكنه منذ أعوام وحيـــدا ، ليخفف شيئا من تعبه ، وليستعيد شيئا من نشاطه ليواصل الدرس ، وقد قرب موعد الامتحان. ولـكن « خلود » المـاكرة كانت فى الغابة . لأى سبب؟ لايدرى أحد . فلاحت له جميـــلة فتـــانة مرحـــة ، وجاءت تسليه عن تعبه ، وتمنيه بأشياء مبهمة معقدة ، ولـكنها كانت جميلة خلابة . انه لايزال يذكر كيف واعدته على اللقاء فى الغد ــ نعم فى الغد .. فقد كانت لا تســـتطيع عنه صـــبرا ــ فى نفس المـكان وفى نفس الساعة . انه لايزال يذكر كيف خف ثانى يوم للقائها بعد أن قضى ليلة صفراء ، لم يغمض له فيها جفن ، ولم يهدأ له اضطراب .

ولقد صـــدقت « خلود » وعدها ولاقته باسمة ، تشع الحياة من قدها ويفيض ماء الصـــبا من وجهها المشرق وعينيها البراقتين ، وفمها الضاحك الجميل .

لقد مضى على هذا اللقاء أعوام وأعوام ، و « خلود » هى هى لم تسر دقيقة نحو الكبر . ولقد سألها فى هذا اليوم عن اسمها ، فلم يكن يعرفه بعد ، فلما قالت « خلود » : تعجب أشد العجب ، وقال : اسم شاذ عجيب . قالت : ولم ؟ قال : انه غيرمألوف. قالت : وما فائدة الاسم ان كان شائعا ؟ أليس يطلق الاسم ليميز صاحبه ؟ وكلما كان الاسم شاذا عجيبا كما تقول ، كان أمعن فى الدلالة على صاحبه .

قال : انه اسم جميل على كل حال .

لقد ذهبت جهوده هباء هذا العام ، ولم يجسر على أن ينقدم للامتحان ، بل انه لم يمتحن الى اليوم . انه لم يعد يفكر الا فى « خلود » هذه .

آه . ما امكرها . انها لما أيقنت من قلبه عبثت به. انه يعرف أين هى ، انه يعرف الطريق الموصل الى بيتها الذى لا تعجب هندسته حتى الطالب الصغير فى مدرسة الهندسة ، ولكنه أصبح يزور عن هذا الطريق اذا صادفه ويشيح بوجهه اذا رأى بيتها أمامه . ولكن هذا الازورار ، وما فيه من ألم ، لم يكن ليمنع المثال من أن يزور « خلود » من حين الى حين ، يحاول أن يبين لها خطأها فيما تسلكه من سلوك ، وسوء تصرفها فيما تأتى من أعمال .

قالت له « خلود » يوما : « أيها الحبيب ، لو تعرف نفسك . مالك وللهندسة ؟ انت لم تخلق لتصفف الطوب والحجر » .

قال : « ولكنى سأنطق الطوب والحجر » .

أى مسكين ! انه لم يدر كيف قال هذه الجملة التى

لم يـكن قد شعر بمعناها من قبل . وصاحت «خلود» فرحة منتصرة : « الآن بدأت تحس شيئا من نفسك . انت لابد أن تنطق الحجر . دع الاتجار والعمــل ، واخلص بنفسك وروحك لانطـاق الحجر . حجر يقول شيئا يا للاعجاز . ألسنا نعبد الله لأنه خلق من الجماد حيـــــــــاه ... »

ولم تنته « خلود » من حديثها حتى أقسم المثـــال معاهدا ان يهب نفسه وحيـــاته لمحاوله انطاق الحجر .

ولـكن ما أمكرها . انها لمـا أيقنت انه لن يستطيع أن يفلت من قسمه لعبت به وسحرت منه .

كم من مرة ذهبت اليهـــا وهو يحمل تمثالا قضى فى صنعه الأيام ، وأحيـــانا الأشهر الطوال سابحا فى عالم لذيذ وخيـــال جميـــل ، مقفلا على نفســــه حجرته الضيقة لا يـكاد يرى أحدا . كم نسى طعامه حتىأحس الدوار . كم نسى نومه حتى شحب واصفر لونه وخارت قواه .

وأخيرا حمـــل اليها التمثال ، ولـكنها ضـــحكت منه . فعلا ضحكت منه . وكانت ضحكتها رنانة طربة . وقالت له : « ياحبيبى .. ان هذا التمثال يضحكنى كسره بربك أو احفظه عندك ، فقد ينفع أن يـكون أى شىء آخر ، الا أن يـكون هـدية أقبلها منك لأضعهـا فى قصرى » .

لقد بلغت بها الجرأة أن تسمى هذا المنزل العجيب ، الذى لايرضى عن هندســته حتى الطالب الصغير فى مدرســة الهندســة ، قصرا ! هــذا المنزل الحقير قصر ! وقصر لا تستطيع أن تحتفظ فيه بمثل هــذه

الآية الفنيـــة . لقد ظنت الفريرة انها ما دامت تملك بضعة من التماثيل التى مات أصحابها من زمن بعيـــد سحيق فان هـــذا يكفى لأن يسمى هذا المنزل العجيب قصرا ..

ولو فعلت « خلود » هـــذا واقتصرت عليه لاحتمل منها المثال هـــذا الغرور ، وهذا السخف ، ولـكنها المـاكرة لمـا ايقنت من قلبه وحيـاته ، راحت تلعب به لعب الـكرة .

فهذا مفغل عظيم ، يدخل منزلها حاملا تمثالا هو آية الفظاعة والنشوز فى الفن ، فتبتسم له وتقبـل هديته فى ظرف وتلطف . وهذا شاعر سخيف مجنون لايعرف من الشعر الا أن يظهر بهذا المظهر المزرى القـــذر ، يكتب لها قصيدة تضحك ، لبعدها عن كل ما له مساس بالشعر الحق من قريب أو بعيـــد ، فتبتسم له وتأخذ القصيـــدة فى رفق كأنما هى حجاب ســـتضعه على قلبها ليقيها عين الحسود ، وهـــذا مفن يقضى نهـاره باكيا مستبكيا يأتيها بنشيد للحرب كله بـكاء ورخاوة ، فتسمع لغنائه المـائع وتأخذ « الاسطوانة » منه لتضعها فوق « الفونوغراف » فى رقة محيرة . وهـــذا ممثل ، وهـــذا كاتب ، وهـــذا فيلسوف أيضا . كل هؤلاء المـأفونين المدعين المجانين يجالسونها وهى تبتسم فى وجوههم وتتظرف معهم . الا هـــذا المثال المسكين ، فانها لا تـكاد تحفل بأمره ما داموا هم معها . مع انها هى التى أغرته ، وهى التى الحت عليه ، وهى التى من اجلها هجر الحياة التى يقبل عليها كل هؤلاء اقبـــالا مذلا حقيرا .

انها غادرة « خلود » هـــذه . انها لا ترتجع ، انها

لا تسمع النصح ، ولا تفيق لنفسها ، وكيف تفيق ما دامت تسكن هذا المنزل العجيب الذى تصر على تسميته قصرا !.. وما دامت تلقى هذا الجيش الحقير من بطانتها !.. ألم ينبهها المثال الى هراء كل هؤلاء .

ألم يرها بنفسه ، وألم تر هى بنفسها كيف انه لا ينقضى يوم أو يومان على الأكثر فاذا التمثال الذى قبلته من هذا المثال الحقير تراب ، واذا القصيدة التى أعجبت بها قد انمحت سطورها ، ولم تبق الورقة الا بيضاء ناصعة البياض ، واذا الأغنية تدار على « الفونوغراف » وتدار فلا يسمع منها الا حفيف الابرة الدائرة .

ولكن « خلود » شريرة حقا . انها تضحك من كل هذا ولا تحزن ، لا لتفتت التمثال ولا لانمحاء القصيدة ولا لتلاشى الأغنية . ولماذا تحزن وكل يوم يأتيها جديد ؟ ولماذا تأسى وكل يوم يدخل فى قصرها الذى لايرضى عن هندسته حتى الطالب الصغير فى مدرسة الهندسة ، آلاف المثالين ، والشعراء ، والمغنين ، والممثلين ، والرسامين ، والكتاب ، والفلاسفة .. كل هؤلاء فتنوا بها ، كل هؤلاء يقدمون لها القرابين ، وهى تتقبل وتضحك وتبسم لتتقبل وتضحك وتبتسم من جديد .

ان المثال لن يطيق أكثر مما أطاق . انه ذاهب اليها بهذا التمثال هذه الليلة ، فان قبلته عاد يحاول اصلاح أمرها ، وان لم تقبله كسره على رأسها وعاد ، لن تراه ولن يراها . لقد جاوز الأمر أقصى حدوده .

وحمل تمثاله الأخير وسعى فى هذه الطريق التى كان

يزور عنهـا أذا صـادفته ، ودخل هذا المنزل الحقير الذى كان يشيح عنه بوجهه أذا راه . واذا « خلود » مضطجعه على ترسيها الطويل تتتاءب فى ملل أوتعب ، وحولها زهور ذابله ، واوراق محيت منها القصائد ، وقطع مكسره من تماثيل بسمت ى وجه صانعيها ، وعلى « الفونوغراف » كانت تدار أسطوانه لا يسمع منها الا حفيف الابره الدائره . مسكينة « خلود » قد تـكون عادت الى رشـدها وعقلهـا . قد تـكون فهمت أخيرا ان ما يقدم اليها كذب وهراء . هاهى ذى ترحب بمقدم المثال لاول مرة بعد أن سكنت هذا المنزل العجيب وبعد به العهد الذى كان يلقاها فيه فى الغابة هناك فى البلد النائى عن وطنه . قالت بصوتها الطروب : « ماذا تحمل الى ياحبيبى ؟ » . قال : « تمثالا انفقت فيه ما أنفقت من جهد ، وأذبت فيه من حيـاتى ما أذبت . انظرى يا « خلود » انه يكاد يقول شيئا » . قالت : « ارنى اياه » وكشف الغطـاء ، فاذا تمثال « لخلود » رائع حقا . « خلود » كما رآها يوم قالت له : ان الأسماء الشاذة أمعن فى الدلالة على أصحابها ، انها حجرا تكاد تقول هذا . ولم تستطع أن تتكلف هـذه المرة ، ولم تستطع أن تضحك منه ، وانما قالت له : « ما أغباك ياحبيبى » وحملق المثال قائلا : « ماذا تريدين ؟ . . »

قالت : « ان تماثيلك كلها رائعة . ان هذا التمثال آية لو لم تقدم فى حياتك الى غيره لـكفاك » .

ان « خلود » جميلة حقا . انها عادت الى رشدها . والمثال يرجو أن تقبل هديته وهو واثق من انها ستقبلها ويقول لها : « سترين كيف يبلى قصرك بما فيه ولا يبلى هذا التمثال . ستفيقين فى الغد ، لا على قطع مكسورة ،

ولكن على تمثال يكاد يحيا مثلك لولا أن صانعه انسان . »

ولكن ، ماذا تقول « خلود » ؟.. انها عادت الى دلالها وتجنيها ، انها تقول : ولكنها لا تستطيع أن تقبله الآن .

قال المثال : « وماذا تعنين بهذا ؟.. أين ومتى تريدين أن أقدمه لك لتقبليه ؟ » .

قالت « خلود » : « هناك اذا سرت فى الشارع العام ، ثم سرت طويلا طويلا الى نهايته ، ستجد بعد التعب مقبرة الأموات . وهناك سأنتظرك لتقدم الى التمثال » .

لعن الله ذوقك يا « خاود » . مقبرة الأموات يلتقى فيها الحبيبان لتقبل الحبيبة فيها أول هدية من حبيبها؟ ولكنها تقول هذا جادة وقد لبس وجهها لباس العزم لأول مرة .

قال المثال هازئا : « ومتى هذا اللقاء الشعرى البديع ياربة الحسن وملكة الجمال ؟ »

قالت : « بعد مائة عام » .

لقد جنت « خلود » ما فى ذلك ريب . مسكينة تلك الجميلة الغريرة ، انها لا زالت تقول وكأنما قولها الجد كل الجد : « أقسم لك بأنى سأفى بعهدى ، ولن نفترق من بعدها أنا وأنت . سألقاك فى المقبرة بعد مائة عام » .

انها تمعن فى الجنون . مسكينة خلود ؟ ..

ولكن ما دامت تعيش فى هذا المنزل العجيب الذى

أصرت على أن تسميه قصرا ، وما دامت تقرب هـذه البطاقة من المأفونين الحقيرين ، فماذا كان ينتظر لها ؟..

وحمل المثال الحزين تمثاله ثقيلا الى معمله ، وأقامه بين ما كان هناك مما رفضت خلود من تماثيل . ووقف يتأمله بعد أن هدأت ثورته وبعد أن بعدت عنه فكرة تحطيم كل شيء . انه أحب الحياة ، وسينفق حياته هنا في المعمل بعيدا عن « خلود » ، كما كان بعيدا عن سائر الناس من قبل . نعم سيزوره طيفها كثيرا ، وسترن كلماتها الجادة الوحيدة التي سمعها منها : « سألقاك في المقبرة بعد مائة عام » . وسيهز رأسه أسى وحزنا . وسيذكر كيف كان لقاؤه اياها في أول موعد ضربته في الغابة الجميلة ثاني يوم بعد الغروب. وسيذكر كيف انها لم تخلف ميعادها فيفيض به الألم والحنين .

مسكينة «خلود» ، ان أمرها لأعجب مما كان يظن ، لقد جنت دون شك . ولكن ماذا كان يمكن أن ينتظرها ما دامت قد أصرت على أن تعيش في هذا المنزل العجيب الذي تدعوه قصرا ، والذي لا يمكن أن يرضى عنه حتى الطالب الصغير في مدرسة الهندسة ؟.. نعم وماذا كان يمكن أن ينتظرها ما دامت قد أصرت على أن تلقى هؤلاء المأفونين المغرورين كل يوم بالترحاب وتقبل هداياهم التي لم تكن لتعيش أكثر من يومين ؟..

حـــــديث آمنـــــة

كنا على شـــاطىء البحر يعلو حديثنا أمواجه حينا ، ويتيح السكوت لصـــوت الأمواج أن تملأ آذاننا حينا آخر ، حتى مرت بنا آمنة . رشيقة القوام ، مشرقة الوجه ، باسمة الثغر ، يزيدها جمالا بساطة ما تلبس وحسن اختيـــار ما تتزين به .. واذا صديقتى تقول : هذه آمنة . فنظرنا اليها جميعا وابتسمنا تحية لها ، فابتسمت وســـارت فى طريقها . ولـــكن صـــــورتها لم تغادر عيوننا ، فقد انبرت صديقتى تسألنى : ما رأيك فى آمنة تلك ؟ قلت : انها طيبة على أساس من الخلق متين فيما سمعت . قالت : انما أسأل عن شكلها ؟.. قلت : انها لجميلة أو تـــكاد تـــكون ، انى لم أرها الا مرات قليلة ، وأكثر ما رأيتها عابرة كما عبرت بنا الآن ، ولـــكنك انت صديقتها وزميلتها ورأيك فيها أصـــدق من رأيى . قالت : انى لأراها جميلة جـــدا ، ولـــكن كانت منا من تراها قبيحة . كم أثارت فى نفوس زميلاتها الحسد وهى لا تدرى انها تثير فى نفس أحد شيئا . كان لها عالمها تسبح فيه ، ونحن من حولها نظن انها معنا ونحار فى أمرها ، فلا هى تغضب أحدا ، ولا هى ترضى عن أحد . كنا نراها باردة جامدة متكبرة ، فمنـــا من

احتملتها ولم يغير هذا من نظرتها اليها ، ومنا ، وهذه كانت كثرتنا ، من أبغضتها ونفست عن بغضها وحسدها بالحط من شأن جمالها ، بل بمهاجمتها أحيانا . ولكنها كانت كالنجم عالية لا تحس بهذا الصخب الذى يتصاعد من سكان الأرض . كم ظلمناك يا آمنة ! كنا نظن هذا كبرا منك وزهوا بجمالك واعتزازا بمالك ، فقد كنت أيسر منا حالا وأسعد حظا . ولكن حسدنا اياك كان أجدر أن يكون شفقة بك . فمن العسير أن تحرم المرأة مالا وجمالا ، ولكن الأعسر منه أن تمنحهما فلا يتيسر لها أن تنعم بهما . لقد صرفت حياة آمنة عن مالها وجمالها صرفا ، واذا هى تشقى ولا تعرف لنفسها من الشقاء مخاصا .

ثم سكتت صديقتى وعلا صوت الأمواج صوتها وتنبهنا جميعا من غفوة الانصات اليها . ولكنى لم أطق أن أسمع من حديث آمنة هذا القدر دون أن أعرف ما أوحاه . فقلت : ومن أين يأتى الشقاء تلك المخلوقة الهادئة الجميلة ؟ قالت : من قلبها ، وانه لقلب كبير عظيم له جلال مظهرها وجماله وعذوبة حديثها وحلاوته. ثم سكتت الصديقة هنيهة ، كأنما تحاول أن تستعيد الذكريات ، واندفعت فى كلامها بعد حين لم تنتظر سؤالا ولا استفسارا ، ولكنها ، كعادتنا فى سرد ما لا يعرف من الأخبار ، استحلفتنا الا تنقل الى أحد مما سمعنا شيئا ، فأكدنا لها ذلك ، فقالت :

كان ذلك فى يوم صاف مشرق دافىء من أيام ابريل ، يوم لن أنساه ، فقد هز مشاعرى أكثر من أى يوم من أيام حياتى ، وكنا فيه فى المدرسة وقد دق جرس انتهاء الدرس . فاندفعنا نحن المعلمات الى غرفتنا

وكأنما قد أنقذنا انقاذا . واذا آمنة ندخل علينا متأخرة كعادتها ، فقد كانت تحب تلميذاتها ويحببنها حبا عجيبا ، فاستطاعت بهذا الحب أن تقهر ملال الدرس وسخافة التلميذات المشاكسات . ولكنها ما كادت تستقر في كرسيها حتى دخلت علينا تلميذتنا هدى ، وهي صبية في الخامسة عشرة من عمرها ، كثيرة الاجتهاد ، شاذة الذكاء تكاد تكون قبيحة لولا بريق من الذكاء يلمع في عينيها الكبيرتين ، وابتسامة مشرقة تشع في وجهها أبدا . وكنا جميعا نحب هدى هذه ، لأنها كانت رقيقة الاحساس ، مهذبة الطباع ، ذكية الفؤاد ، تدل تصرفاتها جميعا على انها من أصل طيب يمتاز بالرقي أكثر مما يمتاز بالمال .

واقتربت هدى من آمنة وقالت : انى آسفة على ما قد بدر منى فسامحينى . فنظرت اليها آمنة مضطربة تكاد تدمع عيناها ، وقالت في شيء من الجفاء لم نعهده فيها : لقد سامحتك . ولكن هدى انفجرت في البكاء وهي تقول : انت آخر من كنت أريد أن أغضبها منى . فقامت آمنة تهدىء من روعها وتجفف دمعها وهي تقول لها : لم أغضب منك . عودى الى صاحباتك يا هدى والعبى معهن بدل أن تضيعى وقت راحتك في تلك الغرفة الثقيلة . انى لست غاضبة . انى أحبك ياهدى فعودى . وكأنما كانت تريد آمنة أن تخلص منها في سرعة ، ولكن هدى تعلقت بها وهي تجهش بالبكاء قائلة في صرخة شاذة : وأنا أحبك ، أحبك أكثر من أمى . ليتك كنت أمى . نعم ! ليتك كنت أمى ! ولم تكد آمنة تسمع هذا حتى سقطت على كرسيها ، وأخذت احدانا هدى من يدها وأخرجتها

الى الحديقة . والتفت أنا الى آمنة فقد كنت لها الصديقة الوحيدة اذ ذاك فاذا يداها كالثلج وعيناها غائرتان من الاعياء . فخشيت أن يكون قد أصابها شيء ، فضغطت على يدها وقلت لها : مالك يا آمنة ؟ قالت : لا شيء لا شيء . ودق الجرس واندفعنا الى حجر الدرس ، ولكن آمنة اعتذرت الى الناظرة ، وعادت الى منزلها متعبة .

ولما عدتها فى هذا المساء وجدتها تذرع غرفتها ذهابا وايابا فى اضطراب عنيف . وجلست اليها أهدئها واستحثها على الكلام ، ففى البوح بما تكتم شفاؤها ، فقصت على قصتها :

كان ذلك منذ أعوام كثيرة مضت وآمنة تستقبل الحياة فى طهارة الفتاة الطيبة واستبشارها . قالت : ولم أكن أرى فى هذا المستقبل البعيد شيئا . لم أكن أحلم بالأمومة ولا بالزوجية ، كلا ولا بالحب . كان مستقبلى البعيد غدى وما سأعمل فيه مع صديقاتى فى المدرسة . لست أدرى لماذا ظللت الى هذه السن المتأخرة ، فقد كنت فى العشرين تقريبا لاتداعبنى أحلام تداعب كل فتاة قبل هذه السن بأعوام . لعل تربيتى كان لها أكبر الأثر فى ذلك ، فأنت أعلم بأسرتى وأحوالها . وكانت أختى الصغيرة هى سلوتى . أحبها كما كنت أحب دميتى . ولكن العجيب انى لم أتمن أن تكون لى بنت فى جمالها . ولو قد تمنيت ذلك واحسسته لربما انقذت مما قد وقعت فيه . لست أعرف كيف أبدأ حديثى اليك ، ولكنى أظن انه قد بدأ عندما مرضت أختى الصغيرة مرضها الأخير ، فعادها الطبيب وفى صحبته عمى سعيد كما

كنت ادعوه ، فقد الفت أن أراه فى بيتنا منذ كنت طفلة . كان صديق أبى وشريكه فى تجارته وزوج ابنة عمه التى كانت تزورنا قليلا ، لأن أمى لم تكن تألفها ولا تحبها . وكان بغض أمى لها لا يفسر بما كان يشاع من ان أبى كان سيتزوجها ليس غير ، ولكن لشراسة تلك السيدة وقسوة قلبها أكبر الأثر فى نفور الناس منها . وكانت تزورنا وكأنها مضطرة الى تلك الزيارة ، لأن زوجها كان يحب أبى حبا جما ، وكان يحب ان يجلس اليه ليتحدثا فى شئون تجارتهما أحاديث طويلة. وكان عمى ، كما تعودت أن أدعوه ، أكثر من أبى علما وأقل مالا . ولعل فى قول أبى انه شريكه كثيرا جدا من التجاوز ، فلقد كان فى الواقع يساهم فى تجارة أبى بمقدار ضئيل ، ولكنه كان يقدم لهذه التجارة فى اخلاص كل ما كانت تحتاج اليه من خبرته القانونية ومعرفته العامة بالدنيا والناس . فلقد كان مثقفا ثقافة ممتازة . عاش فى أوربا أعواما وزار أكثر بلادها ، ودرس عن كثب أسواقها التجارية ، كأنما كان يميل بفطرته الى التجارة فلم يسعفه رأس المال . فلما اتصل بأبى صلة النسب والصداقة التى مهدت لهذا النسب وجد عنده ما كان ينقصه فنمت ثروة أبى على يديه نماء عظيما ، وأصبح عنده هو من رأس المال ما لم يكن يطمع فى أن تيسره له خبرته العلمية وحدها .

ولكن مالى أطيل عليك فى هذا ! لقد كان كل منهما مكملا لصاحبه فى الحياة العملية ، وكذلك كانا فى حياتهما الروحية فيما كنت أحس . وثقل المرض على أختى فى أيامها الأخيرة فكانت زيارته لنا يومية ثم عجزت أمى عن العناية بالمريضة الصغيرة اذ مرضت

خوفا وقلقا ، ولم يكن بد من أن أمرض أنا الاثنتين .
أتذكرين تغيبي عن الدراسة اذ ذاك شهرا كاملا ؟ . .
ثم ماتت أختي وطال مرض أمي وشقاؤها ، ولكنها شفيت لتعيش كما ترينها الآن حزينة والهة على تلك الصغيرة الجميلة . فلم يبق لها بعدها الا أنا ، وأنا كما ترين لا أملأ فراغ قلب أو بيت .

ألفت عمي وأحببته حبا بدأ أبويا وانتهى عنيفا . ولعله هو الذي أيقظ في هذا الشعور النائم الحالم بالحياة والحب . فمنه سمعت أولى كلمات الاعجاب الملتهبة بالعاطفة الصادقة . ولكنه كان يقاوم هذا الحب مقاومة عنيفة لا من أجل زوجه ولا من أجل هدى ، فهدى تلك ابنته ، ولكن من أجلي أنا .كان يقول لي ان الفرق بيننا في العمر أكثر من ربع قرن ، فان أسعده هذا الحب مدى الحياة فلن يسعدني أنا الا أعواما قصيرة . وكنت أنفي عنه هذه الفكرة . ولكني لم أكن أفكر يوما في أن أكون له زوجة .كان حبه لي حبا أفلاطونيا كما يقولون . يعبدني كما يعبد الوثنيون أصنامهم ولا يكاد يلمسني كما يخشون هم لمس ما يعبدون . وعشت في هذا النعيم عاما ، لا أفكر الا في متى ألقى عمي سعيدا ، ومتى أخلو اليه لنتحدث فيما كان يجيده من فنون الحديث . والعجيب انه لم يكن ليشير الى زوجه ولم أكن لأشير اليها أنا أيضا ، كأننا كنا لا نريد أن نعكر صفو أحلامنا بالواقع المرير . وفجأة عرض علي في يوم من الأيام أن أتزوجه ، فبهت لهذا العرض . وكنت أسمع طوال هذا العام انه كاره لعيشه مع زوجه ، ولكني كنت قد ألفت هذه الأخبار لأنه لم يهنأ في عيشه معها يوما .

ولكن حبه لهدى كان مضرب الأمثال ، وكنت أعلل بقاءه مع زوجه واحتماله أخلاقها بحبه لهدى . فماذا حدث ؟.. قلت له : انى لا أريد . قال : فكرى فى الأمر ، وتركنى . وفكرت فوجدته مستحيلا . كيف أحرم طفلة كهذه من أمها مهما تكن ، وقلت له : ان آخر رأيى كأوله لن أحرم هدى من أمها . قال : انى أحبها أكثر منك وأنا أدرى بصالحها . قولى انك لا تريدينني أنا . قلت : هو هذا ، ولن أحرم هدى من أمها . وكان هذا آخر ما كان بيننا .

وظل عمى سعيد يدخل بيت أبى فلا أتحاشاه ، ولا أتعمد لقاءه . وفترت حرارة الحب لولا جمرات صغيرة تحت الرماد ، بل لقد مرت بى فترات كنت أنظر اليه ، فأعجب مما كان بيننا من عاطفة حارة . حتى فضت الشركة بينه وبين أبى ، ورحل هو الى أوربا لأعمال تجارية قد تنقذ ثروته من الضياع . فحزنت لفراقه ، ولكنى فى الوقت نفسه ارتحت اذ ظننت انه قد أسدل الستار على كل ما كان بيننا . ولكن أخباره عادت تملأ البيت من جديد . واستقل بتجارته ، ولم ير أبى لذلك سببا ، ولكنى كنت على يقين منه . وافترقا صديقين . وعاد لتجارة أدر رواجها فى هذه الحرب ، حتى ان ثروته لم تنقذ فحسب ، وانما تضاعفت ، ولولا وفاته منذ أعوام لأصبحنا من أغنياء الحرب .

وفى هذه الأثناء كبرت هدى وجاءتنى تلميذة منذ العام الماضى . فأيقظ مظهرها هذا الحب القديم من مدفنه ، وبدأت أفكر فى عمى سعيد من جديد ، ترى ما أحواله ؟.. قالت لى أمى مرة كأنما تروى خبرا عابرا : ان هدى بنت فلانة عندك فى المدرسة ؟ قلت :

نعم . قالت : كيف هى ؟.. قلت : ذكية طيبة . قالت : ما اشقاها ! قلت : لماذا ؟.. قالت : بأمها . قلت : ولكن لها أبا تحسد على حبه لها . قالت : انه أفلس . فخرجت من الغرفة حتى لا يلحظ على أحد شيئا . ترى لماذا أفلس ؟.. وهل كنت أنا عاملا فى هذا ؟.. فلقد كنت السبب ولا شك فى استقلاله عن أبى ، وربما كان هذا هو سبب افلاسه . ولكنى اعتدت أن أدفن هذه الآلام بالخروج اليك ، فكنت آتيك على غير ميعاد لنتحدث . أتذكرين ؟.. قلت : أذكر ، ولكنك لم تقولى شيئا من هذا . قالت : وكنت أريد الا أقول شيئا أبدا ، فلقد كنت على يقين من امرى حتى اليوم . كنت كلما نظرت فى عينى هدى الواسعتين البراقتين قلت فى نفسى : كم وفقت فيما ارتأيت لحياتى من مسلك . ألست أستطيع اليوم أن أنظر الى هاتين العينين مرتاحة الضمير قويه القلب فلا يرتد بصرى ولا أشيح بوجهى خجلا منهما !.. انى لم أعذب تلك المخلوقة الساذجة ولم أضح بها لأسعد أنا . كم كنت على حق !.. انى ألقاك يا هدى فأعطف عليك فى حرية واطمئنان ورضا عن نفسى .

وكانت كلمة أمى : « ما أشقاها بأمها » ترن فى أذنى أحيانا فأفكر فيها طويلا وكثيرا . فلقد كبرت ، وعرفت من أخبار هذه الأم كثيرا . انها لا تعيش الا ظلا لزوجها وامر هدى يأتى فى المرتبة الثانية أن أتى . فان حنا عليها زوجها ، وأنفق عليها فى سعة من ماله خفت حدتها ولانت قسوتها . ولكن الويل لهدى ، بل لكل من يمر بحياتها اذا ما جفاها زوجها ، أو قتر عليها فى المال . وهذا هو قد

افلس ، والافلاس يستتبع شذوذا فى الخلق ونفورا من الناس ، بل كرها لهم . ترى اتعانى من جفاء ابيها لامها كما كانت تعانى طفله ؟.. انها اليوم صبيه تفهم كل شيء حولها . ترى اتشقى بهذا الفهم ؟.. وكنت أسائل نفسي كثيرا . اخيرا كان ما فعلت ام شرا ؟.. ألم اكن أستطيع ان أنقذ هذا الرجل من الافلاس ، وانقذ هدى من قسوة أمها ، ولكن الحرم هدى امها ؟.. هذا مستحيل . انها لن تحس قسوه أمها الا الى حين ، ثم تعود فلا ترى احدا كهده الام .

وهكذا انقضى العام الماضى ، وأنا أفكر فى هدى وفى نفسى . أسائل نفسى مرات فى اليوم : أخيرا كان ما فعلت أم شرا ؟.. وأنا لا اريد أن أستطلع شيئا ، أو أسأل عن شيء . وفى يوم رأيت عمى سعيدا من بعيد ، وكانت الصلة بينه وبين أسرتنا تكاد تكون قد قطعت بعد أن أصبحت لا تعتمد الا على قرابة أبى لزوج سعيد وكره أمى لها . وجمعت طرفا من شجاعتى وتقدمت اليه وصافحته . فصافحنى ثم تحاشانى وسار فى طريقه ، يا لهول ما قد تغير !.. ان التجاعيد ملأت وجهه وبهت نور عينيه حتى كاد يطفأ . انه الآن رجل قد جاوز الخمسين بقليل ، ولكنه يبدو فى الثمانين من عمره . وعدت الى نفسى ذلك اليوم باكية حزينة أسائلها فى حرارة : أخيرا كان ما فعلت أم شرا ؟.. وأبعدت الموضوع فى عنف وجهد وأنا أقول : وهل يمكن أن تكون الفرقة بين أم وابنتها خيرا ؟..

واخيرا لا اطيل عليك ، فقد رأيت اليوم وسمعت مارأيت وسمعت : « ليتك كنت أنت أمى » . نعم حتى هدى معقلى الأخير الذى كنت أعتصم به فى انى ما فعلت

الا الخير يسقط أمامى كأن لم يكن. حتى هدى تريدنى بعد نحو عامين من معاملتى لها كتلميذة أن أكون لها اما . ان صرختها لم تكن صرخة عابرة . انها صرخة من الأعماق ونداء من القلب . انها تحبنى ، وكان يمكن أن تحبنى وتسعد بدل أن تشقى بحب أمها . ترى أقال لها أبوها شيئا ؟ ..

واستمرت آمنة تتحدث كأنما تناجى نفسها وهى تبكى . كم رثيت لها ! حقا لقد كانت صرخة هدى صرخة شاذة ، ولكن أأقول لآمنة اننا ذهلنا لها جميعا ؟ .. كلا ! ..

قلت لآمنة : انها صبية لا تدرك شيئا ، ولم يكن فى صوتها وقد سمعتها أكثر من احساس عادى بالندم لأنها أغضبتك . ومن هى من تلميذاتك التى تحب أن تغضبك !.. ثوبى الى رشدك . لقد فعلت خيرا ، وكان اتماما لهذا الخير الا تظلمى نفسك وتستجيبى لأحد الكثيرين الذين طلبوا يدك وكانوا لك أكفاء . قالت : انى لا أزال أحبه . قلت : هذا وهم يجب ان تخلصى نفسك منه . لقد فعلت خيرا ولا تفكرى لا فى هدى ولا فى سعيد . ان الأم ان كانت وحشا ضاريا فهى أحن على ابنتها من زوج الأب . فكرى فى انك كنت ستصبحين اما لغير هدى ، وفكرى فى امكان المساواة بين هدى وبين ابنتك . صدقينى يا آمنة لقد فعلت خيرا . خففى من عبرتك ، وانظرى الى الحياة . انها تقبل عليك اقبالا ، فلك فيهما المال والجمال ، ولعمرى انهما لكفيلان باسعاد أشقى امرأة . استبشرى والبشر يأتيك . قالت آمنة فى هدوء : يا ليت هذا يكون . وخرجنا الى النزهة ثم عدنا وقد

اطمأنت نفس آمنة كثيرا .

ولكن آمنة لم تعد الى المدرسة أسبوعا وأسبوعين. وكنت كلما ذهبت اليها قالت : انى لا أطيق أن أرى هدى . قلت لها : كلا !.. بل ترينها وترينها وتنظرين الى عينيها الواسعتين وأنت مطمئنة سعيدة . انك لم تكونى سببا فى شقائها . اعطفى عليها ما شئت أو تجنبيها ان شئت ، ولكن لا تنسى أن تنظرى اليها وأنت رافعة الرأس مطمئنة القلب . لقد جنبتها أن تبكى لتسعدى . قالت مستبشرة : أحقا ما تقولين ؟ قلت : كل الحق .

وبعد أسابيع عادت آمنة الى درسها ، ولكن هدى لم تعد ، فقد انتقلت الى مدرسة أخرى لسبب لاندريه . أقالت لأبيها شيئا فتصرف هكذا فى ابنته ، أم ان المقادير هى التى تصرفت فى أمر آمنة هذا التصرف ؟.. وتابعت آمنة عملها فى اطمئنان وهدوء ونشاط . وسرعان ما عادت الى سمائها . وفترت صداقتنا لأنها لم تشجع على استمرارها ، وابتعدت عنها تحقيقا لسعادتها ، فقد أكون لها ذكرى لا تحب أن تمر بفؤادها كثيرا . وعاد قلب آمنة مقفلا كالحصن. كم اشتقت أن أعرف ما يدور بهذا القلب من عواصف واضطراب !.. ولكن آمنة لم تشجع أحدا على الدنو منها . وهاهى ذى تسير الى اليوم بيننا فى جمالها وجلالها تعلو وجهها الجميل مسحة من الحزن لا يراها الا الأقربون .

ثم سكتت صديقتى هنيهة لتقول كأنما هى تقول لنفسها : ترى أخيرا كان ما فعلت آمنة أم شرا . حقا لست أدرى .

ومرت بنا آمنة عائدة بعد أن انتهت من زيارة أو رياضة ، فتأملتها فاذا فى ابتسامتها مرارة تزيد من جمال ثغرها ، واذا فى عينيها حزن يزيدهما عمقا وسحرا ، واذا هى فى جمالها وجلالها ومن ورائها البحر بامتداده واتساعه كالمركب الضائع فى لجج البحار . انها أروع صورة للهائمين على وجوههم فى هذه الأرض لا يدرون أعلى بر النجاة نهايتهم ، أم فى هذه الأعمال السحيقة المخيفة سيكون المصير .

قصة معبد

اذا قلت المحال رفعت صوتى
وان قلت اليقين أطلت همسى
أبو العلا المعرى

من أيام شهر يوليو وكأنما حرارة الطقس قد مدت فى ساعات هذا اليوم الصائف الحار فأصبح كأنه الأبد لا يشعر بانتهاء . فخرجت الى تلك الصحراء القريبة التى أحس فيها وحدها الحرية ، والتى أعود منها دائما ، وقد فهمت هذا الكلام الذى أقرؤه فى الكتب حول معانى الحرية ولا احسه فى حياة تبدأ أيامها قيودا ، وتنتهى قيودا . وما كدت أسير فى الصحراء وأستنشق هواءها الجاف حتى بعث فى نفسى على دفئه نشاطا لم يكن لأى شىء سواه أن يبعثه ، واذا هذا النشاط يغرينى بالسير ، واذا أنا مطمئنة الى هذا الابعاد فى الصحراء ، وكأنى واثقة انى مهما قضيت فيها من الزمن فسأعود قبل أن ينتهى هذا اليوم الطويل . ولا يعرف سحر الصحراء الا من سار فيها راغبا فى هذا السير الذى لا يوصل الى غاية ، ولا يقصد به قطع الطريق . فلعل أجمل ما فى الصحراء هو هذا الشعور المطمئن بالضياع . انه شعور عجيب يجمع بين نقيضين ، وليس أبلغ فى التأثير فى النفس من اجتماع المتناقضين .

وعن بعـد لاح لى بنـاء لم أكن رأيتـه من قبل . فقلت فى نفسى : لعلى اتجهت اتجاها جـديدا . ولم استرسل فى هـذا التفكير ، فقد كان شىء غامض يسرع بخطـاى نحو هـذا البنـاء ، فأسرعت حتى كدت أعدو عدوا ، والبنـاء تظهر لى معالمه وتقترب ، فأعجب لهذه القبـة الشامخة من بنـاها فى هـذه الصحراء ، ترى ومن يعمرها ؟.. أهى أثر قديم ، أم ان أحدا يسكنها سـأحدثه ويحدثنى فأرى صـاحب هـذه العزيمة الجبارة الذى بنـاها أو صاحب هـذا الحظ السعيد الذى يعيش فيها ؟.. ترى لم أفرد نفسه هنا وسـط هـذا الفضـاء الواسـع ؟.. أعابد هجر الحيـاة مختارا ، أم سجين أفردوه قسرا وانتقاما ؟.. لا ولـكن القبـة كبيرة فخمة ، ولا يمكن أن تكون لفرد . انه معبد قديم فيما ياوح . وعدوت .. وعدوت ، واذا بنـاء فخم ليس فى المدينة ما يماثله أو يدانيه . انه يذكرنى بالمعـابد التـاريخية القديمة ، فان شـيئا فى حجارته وفخامته يوحى بالخلود والأبد . ولـكن أمره عجيب فهو جـديد ولا شـك ، ولـكنه مهمل اهمالا فاحشا ، فلم يبق من جـدته فيما يظهر الا معالم لولا وضوحها لـكانت قلتهـا كافيـة لخفائها . وكنت كلما اقتربت أحسست وحشـة ورهبـة كانتـا كفيلتين برجعى أو اثبـاتى حيث أنا لولا حب الاستطلاع . واذا أنا قد كدت أصـل الى أسـوار المعبـد الخارجية فأرى شـيخا لفتنى أليه مظهره . فقد كان يجلس على الأرض ، وفى يـده عود قصـير يداعب به الرمال فى هـدوء وتأمل طويلين حالمين . وما كاد يحس خطواتى حتى رفع جفنيه فى تثاقل . ولم يـكد نظره يرتفع الى أكثر من سـاقى حتى عاد الى رماله يداعبها كأن نسـمة من نسـمات

الصحراء مرت على وجهه الأسمر الدقيق . فوقفت هنيهه اتامل هذا الشيخ فى ملابسه البيضاء الناصعه . ولحيته نعصيـة التى توحى بالهيبة والوقار ، ووجهه الوسيم الشاب الذى لا تـكاد تلمح فيه أثرا الا يسيرا للتجاعيد . وكان لهذه اللحية البيضاء على الوجه الأسمر الشاب لسحر جميل . وتأملت أنفه الدقيق وجبهته العريضة ، وسألت نفسى : ماذا تكون أخلاق رجل هذه ملامحه ؟.. ثم ابتسمت فى نفسى من مثل هذه الأفكار تلوح لى فى هذا الموقف . وافقت ، واذا انتظاري قد طال ، فبدأت أحس شيئا من الارتباك ، فلولا هذه الخطوط القصيرة التى كان يرسمها الشيخ فى بطء لم يكن من الصعب أن أظن ان هذا الذى أمامى تمثال دقيق الصنعة ، قد ألقى فى الصحراء القاء . ترى ماذا يمكن أن أقول له ؟.. واذا صوت من بعيد ، فنظرت فاذا طائفة من الشبان تدخل هذا المعبد الفخم ، وتختفي وراء الأسوار الحديدية التى أحاطت به . وقبل أن أفكر فى شيء كنت أعدو نحوهم لأسألهم عن أمر هذا المعبد ، ولكنهم تواروا داخله قبل أن أقطع نصف المسافة التى تفصل هذا الشيخ عن الأسوار . فعدت مرة اخرى ، ولما لم أجد هذا الشيخ قد تحرك نفد صبرى ، فقلت : « ياسيدى » وكأنما كان صوتى يحرج من جوف الأرض لا من حلقى . وما كدت أنطق بهذه الكلمة حتى رفع الى بصره فى تثاقل ، فاذا عينان حادتان تنفذان الى نفسى ، فأحس كأنها عارية خجله تكاد تتلاشى من خجلها فى هذا الفضاء ذرات متناثرة ، واذا صوت وقور نقى يقول : « وماذا أتى بك يا بنتى الى هنا ؟ ». قلت : سيدى وما هنا هذه ؟

ولماذا تنظر الى هكذا ؟ وأحس الرجل انى خائفة أحاول اخفاء خوفى فى التلهف على معرفة ما لم أكن أعرف . قال : « أما هنا يا بنتى فهذا المعبد . وأما نظرتى فاغفريها لى ، انى لم أرفع البصر عن الرمال منذ أعوام ، ولم أر الا لونها الأصفر الأبيض حتى كدت لا أميز الألوان». قلت : وكيف تعيش؟.. قال : « انى أعرف بعض سدنة هذا المعبد فهم يقومون بخدمتى ، ولكنى لا أرفع بصرى اليهم لأنى لا أريد أن أراهم . ولولا انى لا أملك البعد عن هذا المعبد ما أطقت العيش هنا فى جوار هؤلاء . عودى يا بنتى من حيث أتيت فان فى صوتك اخلاصا ، وفى ملامحك سذاجة يقتلهما هذا الجو الخانق » . قلت : «ولكن ماذا يضطرك الى هذا ياسيدى ، وامامك المدينة واسعة ولن تعدم من الأصدقاء فيها من ييسر لك عملا تعيش منه قرير العين فلا تحتاج الى هؤلاء الذين لا تطيق أن ترفع فى وجوههم بصرك ؟ » . فابتسم الشيخ ابتسامة عابرة من جهلى وقال : « انى لا أطيق الاقامة فى المدن والبيوت . عودى يا بنتى . ألم أقل لك ان فيك اخلاصا وسذاجة ؟ »

وعاد يداعب رماله فى حركة أن تكن أسرع من حركاته الأولى فانها ما تزال بطيئة حالمة . وخفت ألا يجيبنى فقلت : سيدى ، سأعود فى الحال ، ولكن لى رجاء . قال ولم يرفع بصره : « حتى أنت ! » قلت : وماذا ؟.. قال : لا تعملين الا بثمن . قلت : رجائى أن تقص على قصة هذا المعبد ، وأؤكد لك انى لن أسألك شيئا ، ولن أستفسرك عن شىء ، قص على من أمره ما شئت ، واحذف من خبره ما ترى ، ولكن

لا تدعنى أذهب وفى النفس ظمأ الى معرفة أمر هـذا المعبـد فأعود اليه وأنت لا تريد أن أعود . قال : كلا يا بنتى ليتك تعودين ، وقد تبدلت الحال ، بل ليتك جئت الى هنا منـذ أعوام اذن لتلقيتـك بالترحاب ، ولدخلت المعبـد فلا تبرحين . ولـكن ... ثم رفع بصره الى السماء ، وتنهـد تنهيـدة مكتومة حائرة ولم يقل أكثر من « يارب » ثم صمت . وشع نداؤه حارا فى الصحراء وفى جوار المعبـد احساسـا بخشية الله لا يمكن أن يوصف . انه غيبة عن هـذا العالم يتصـل الروح فيهـا بشىء غامض قوى فتغمر النفس سعادة ويسرى فيهـا أمن . وأفقت على أصـوات منـكرة تنبعث من هـذا المعبـد ففزعت وهممت بأن أعـدو هاربة ، وقد خيل الى أن وحوشـا ستنطلق فى اثرى ، لولا ان الشيخ قال لا تفزعى يا بنتى انهم يرتاون آياتهم فى الصلاة ، اجلسى على هـذه الصخرة فسأقص عليك قصتهم ، وانها لحقيرة مؤلمة ، ولـكنهم لا يقدرون الا على هذا . استريحى يا بنتى فلقد سرت طويلا واهتزت أعصـابك هزات عنيفة لم تتعوديها ، انى قـد علانى المشيب منهـا وأنا فى شرخ الشبـاب . قلت فى نفسى ان أمره لأخطر مما قد دار فى خلدى . هـذا الصـوت النقى الوقور ، وهـذه اللحية البيضاء ، وهـذا الوجه الشاب ، ثم هـذه الجلسة التى لا يفيق منها ويكاد يقضى حيـاته فيهـا . ان أمره لأعجب من أمر المعبد . قلت : سيـدى أتحدثنى حديثك أنت ولنترك أمر المعبـد ومن فيه ، فقد تضـاءل شـأنه بعد ما سمعت من أصوات سدنته المنكرة ؟.. قال : ان قصتنا لواحدة.

منـذ أعوام طويلة جاء الى هـذه الصحراء نفر من

شبان المدينة عرفوا الحياة يقينا ، فزادهم يقينهم بها ايمانا ، وتطلعوا الى خير ما يتطلع اليه انسان ، فزادهم تطلعهم حماسة واخلاصا ، وأجمعوا ان خير ما ينفقون فيه أعمارهم هو التفرغ لعبادة من خلقهم مستعينين على التقرب اليه لا بالصلاة والتسبيح فحسب ، ولكن بالسعى أيضا وراء المعرفة ، والبحث عن الحقيقة . ففى السعى وراء المعرفة تسبيح ، وفى البحث عن الحقيقة صلاة . وقالوا : اننا لنفرغ لعبادتنا يجب أن نبعد عن المدينة وما فيها من لهو وزيغ ومطامع واغراض، ونقيم هنا فى هذه الصحراء لا نزور المدينة الا مضطرين أو ساعين ، نحتك بالناس لنعرف طبائعهم ، ونعامل الناس بالقدر اليسير الذى نحتاج اليه لمعاشنا ، أو بالقدر الذى يمليه علينا حبنا لمعرفة الانسان هذا المجهول الذى أتعب العلماء والباحثين منذ خلقوا . وفيما عدا ذلك فمقامنا فى هذه الصحراء يعين بعضنا بعضا ، على ما يدرس ويقوى صوت أحدنا أصوات اخوانه فيما ترتفع به من تسبيح بحمد الله . وقليلا قليلا قويت جماعتهم ، وبهرت فكرتهم بعض أهل المدينة ، فمنهم من انضم اليهم بروحه ونفسه ، ومنهم من وجد فى فكرتهم مجالا لخلود الذكر ، فقال لهم نبنى لكم معبدا . وراق لهم هذا العرض وتقبلوا فضل هؤلاء المخلصين وتفاءلوا به . وقالوا : هكذا يمن الله علينا ليشجعنا على السير فيما بدأناه . وتنافس الناس فى المدينة لاقامة هذا المعبد لهؤلاء المؤمنين ، منهم من دفع من ماله لا يبتغى الا المشاركة بما يملك فى تحقيق فكرتهم الجميلة ، ومنهم من رأى فى ذلك فرصة للمباهاة والظهور .

والانسان قد فطر على التنافس والتفاخر . وشيئا فشيئا شيد هذا المعبد الفخم . لو رأيته يا بنتى يوم كمل بناؤه ! لقد كان آية من آيات الجمال ، كان عليه ضوء من السماء كأنما السحب قد انقشعت من فوقه وحده فأنارته وقد حجبت النور عن سائر ما حوله . كان لؤلؤة مضيئة لامعة فى رمال هذه الصحراء الباهتة . ودخل الشبان معبدهم ، وعكف كل منهم على ما كان يعكف عليه من قبل . ولست أذكر من أمرى شيئا الا انى كنت أهيم فى هذه الصحراء ، وفى ذاكرتى خيالات مفرقة ، وصور قديمة عن معابد سكنتها حينا وخرجت منها لا أدرى كيف ولا متى . فرأونى هائما فى الصحراء فأدخلونى معهم وأكرمونى وأحبونى ، فأحببتهم جميعا حتى انى لم أطق أن أقيم فى غرفة بعينها من غرف المعبد ، ورجوتهم الا يكون لى مكان معين فيه ، وان يأذنوا لى بزيارة من أشاء منهم . فحياتى التى جبلت عليها تأبى على الاستقرار فى المعابد . وفرحوا لهذا وازدادوا بى تعلقا ، وفى خدمتى تفانيا ، وعاشرتهم زمنا .

لو سمعت يا بنتى أناشيدهم التى كانوا يسبحون بها ربهم لكل مطلع شمس ومغربها !.. كانت أصواتهم أجمل نغم يمكن أن يسمعه الانسان . أصوات آدمية بلغت من الصفاء أقصى مبلغ ، ومن الحلاوة ما لايمكن أن تصل اليه آلة مهما تكن . وكان ترتيلهم يتصاعد من هذه القبة اللازوردية فى طريقه الى السماء ، فيحس سامعه ومنشده انهما قد رفعا من فوق هذا الأرض وقد أصبحا شيئا آخر غير اهلها شيئا قريبا من عالم الملائكة بروائه وجلاله . حتى

اذا خرج الصوت من القبة وتجاوبت أصداؤه فى قبة السماء ، ثم أخذت أنغامه تغيب فاسحة لغيرها ملىء الصوت حنانا ، وفتح بحلاوته آفاقا وآفاقا ، من الجمال والجلال والروعة ، واذا الأطيار تدنو زرافات من أطراف الصحراء تدخل المعبد وتخرج منه محلقة مع الصوت فى آفاق السماء مرددة ألحان التسبيح خجلة أول الأمر من أصواتها ثم متشجعة بعد حين ، مغنية أصواتها الخاطفة القصيرة فى هذه الأنغام المليئة الطويلة . ان الأصوات الوحشية التى سمعتها الآن ، والتى أفزعتك هذا الفزع الذى أشفقت عليك منه . لا يزال أصحابها يريدون من سامعها أن يكشف لهم عن مثل هذه الآفاق ، ونسوا أو تناسوا أنهم لا يتطلعون اليها ولا يحسون من الحنين اليها شيئا ، بل ان صورها أصبحت لا تدور بخيالهم الذى ملىء رياء وزيفا ومآرب تفسد عليهم الحياة نفسها .

ومكثت معهم زمنا ، فاصطفيت أحدهم وأحببته أكثر من اخوانه . لقد كان أدقهم تصورا لفكرة هذا المعبد ، وأشدهم تحمسا لها ، وان حنينه الى الوصول الى الكمال فى أمر هذا المعبد كان أقوى من حنين اخوانه ، لسعة خياله واتقاد حسه ، وامكان روحه أن يحلق فوق ما تشغل به النفس عادة من أمر هذه الحياة . وكان كثير التأمل شامل النظرة ، فاتسع صدره لما لم تتسع له صدور الآخرين وقوى جلده وصبره على ما لم يقو عليه جلد الآخرين وصبرهم . وكنت أراه من حين الى حين ينتحى مكانا فى المعبد يطيل فيه التفكير فأعاونه ، واذا هو يفضى الى بدخيلة نفسه فى سذاجة الرجل العظيم ،

ورقة القلب الكبير . وكان اخوانه يحسون هذا الجو الذى شع عليهم فى المعبد ، وهو مشبع بالمحبة والخلوص للتعبد ، فلم يفاروا من حبى له وانما فرحوا به ، ولم يشغلوا أنفسهم بأمر اقصائه عنى، أو بحسبان ما يمكن أن يطرأ على علاقتنا من تغيير بفعل الزمن أو الظروف أو الناس ، وانما شاركونى فى حبى له ، فأحبهم هو وفسح لهم الطريق الى قلبى . وكثيرا ما حدثنى عنهم يحاول أن يكشف لى ما ظن انى لم اكن أعرف من محاسنهم . وفى يوم أرادوا أن يكون لهم رئيس ينظم أمر جماعتهم ، وأعمالهم وبحوثهم ، فلم يجدوا خيرا مما اصطفيت فبايعوه فرحين به. وارتفعت أصواتهم بالدعاء والشكر على ما وفقوا له فى أمرهم فكانت فى أحلى نغم وأرقه وأصفاه . ونظرت حولى فى أرجاء المعبد فتمتعت عيناى بجمال الفن وروائه : فهذه تماثيل صنعوها وقد وضعوا كلا منها على قاعدة تظهر أدق ما فى فنهم من آيات . ودخلت أشعة الشمس من قبة المعبد الزرقاء الصافية ، من تلك الفتحة الصغيرة فى القمة ، فتلاعبت بهذه الزرقة والقت على التماثيل الوانا وأشعة ، فزادت فتنتها . وكمل جمالها . وهذا أحدهم عاكف فى ركنه يقرأ ويكتب ، وهذا آخر يفكر ويتأمل ويطيل التفكير ويتعمق التأمل ، وهذا ثالث ينحت ويصور ، وتلك جماعة تتناقش وتتحدث ، وأخرى تصلى وتتعبد .

وكانوا قد افردوا جزءا من المعبد يستقبلون فيه شبان المدينة الجدد الذين يريدون أن يتعرفوا أمرهم فمنهم من كان يقرأ معهم ويتعبد فتحلو له الاقامة ، ويمكث معهم وقد عاهدهم وعاهد نفسه أن يظل منهم

مدى الحيـــاة . ومنهم من كان يرى فى حيـــاة العزلة تلك مشقة لا قبـل لمثله بها فيرجع الى المدينة شاكرا حامدا وفى نفســـه منهم أطيب ذكرى واخلص حب . وســـدنة المعبـد يرحبون به اذا قرر المكوث معهم ، ويودعونه آسفين محزونين اذا قرر الرجوع الى المدينة. وهو اذا مكث فى المعبـد أصبح من ســدنته يقوم على خدمته كهؤلاء الذين ســبقوه يعمــل فى اخلاص ونشاط كل ما من شـأنه أن يجمل المعبـد وييسر الحيـــاة الطيبـة لمن فيه ، يتعاون معهم فى ذلك حسب ســنه ومواهبــه . حتى اذا نما هــذا الوافد الجديد واكتمل بدأ يضيف هو أيضا من جهــده الى جهودهم ما يحقق فـكرة عبـادة الخالق صلاة وعلما .

وكان منظر هؤلاء الوافدين الجدد طريفا بديعا ، فقد كانوا يتحسسون جدران المعبد ، كما يتحسس الريفى الجلف قطعة من الحرير ، كأنما فى اللمس وحده لذة فائقة . وكانوا يتطلعون الى كبارهم ، كما يتطلع الطفـل الى أبيه فى اعجاب وحب ورغبة شــديدة عميــاء فى أن يقلده ، فهم يسيرون وراءهم يسألون فى الحاح عن كل ما يخطر لهم ، والآباء يحدبون عليهم ويفتحون ما أغلق دونهم وينيرون ما أظلم عليـــهم . فاذا أتى من الوفود الجديدة من يسأل سؤالا كانوا هم سألوه من قبـــل ضحكوا منه ضحكة لذيذة ، كأنما يرون فيه أنفسهم من جديد .

وأحب صـــاحبى هؤلاء الجدد ورأى فيهم حجرا أساسيا فى بنــاء المعبد . ان حيـــاة الانسان لقصيرة ، وفـكرة المعبـد أبدية أزلية . ترى من يقوم بها اذا أقعدت السن من بدءوا غير هؤلاء الشبان . ومن خير ما

تخدم به فكرة المعبد أن تكون الخطوة الجديدة فيه خيرا من السابقة ، وأن يكون الذين سيلون الأمر فيه خيرا ممن يلونه الآن . ونحمس صاحبى بتحمسه لكل فكرة صائبة تلوح له ، وقال لهؤلاء الجدد : اننا نريد ان نعدكم لتكونوا خيرا منا . وملأ الغرور الطموح المحبب نفوسهم المتطلعة الشابة فقالوا : وانا لنرجو أن نكون كذلك . قال : ان معبدنا هذا واحد من آلاف المعابد القامة فى صحارى العالم الشاسع الواسع . ومن الخير لهذا المعبد أن يعرف القائمون بأمره ، لا ما يدور فى معبدهم فحسب كما يعرفون الآن ، ولكن ما يدور أيضا فى تلك المعابد الأخرى حتى يقفوا على أحسن الوسائل التى تتحقق بها فكرة المعبد العظيمة . ان من المعابد الأخرى القديم ، وان منها ما قد مرن فى التجارب قرونا ، فليذهب كل منكم الى معبد من تلك المعابد وسيرحب به أهله دون شك ، فليمكث فيه زمنا ، ثم ليعد البنا وقد عرف ما لم يكن له أن يعرف لو أقام هنا طوال عمره مهما أخلص. لقد زرت هذه المعابد مرارا وأقمت حينا فى غيرها ، ولكن الزمن يسير ، والكمال لا يدرك فى جيل ، فلتذهبوا اليها ولتقيموا فيها ، ولتحسنوا الدرس والأناة فى الدرس ، لعل فيكم الخير لمستقبل هذا المعبد المقدس . وتحمس الشباب الطموح لفكرة الرحلة فى ذاتها ، وأكبر أستاذه أكثر مما كان يكبره بعد أن ظن انه قد بلغ النهاية فى اجلاله واكباره . وودع أهل المعبد أخوانهم الصغار الراحلين ، وفى نفوسهم حسرة على فراقهم ، وفى تفكيرهم رضا عما سيكون منهم حين يعودون .

ومنذ ذلك اليوم الذى تولى فيه صاحبى أمر المعبد وأخذ يعنى بحاضره ومستقبله أحسست فى نفسى أمنا ورضا ، واطمأننت الى ان الحياة فى هذا المعبد ستسير كل يوم نحو غايتها ، وستبعد عنها الغاية كلما بدت دانية فينعم سدنته بأمتع لذات الحياة ، لذات السعى الى غاية لا تدرك ، فلا يمكن السأم أن يتطرق الى حياتهم ولا يمكن كسل النجاح أن يميت نفوسهم اذا ما وصلت . انهم سيسعون أبدا وستفنى حياتهم فى هذا السعى وهم راضون متحمسون ، بل وهم محتقرون كل من يريد أن يريحهم أو يغريهم أن يستبدلوا بغايتهم غاية أدنى وصولا وأيسر سعيا .

وبينما كنت أحس الطمأنينة كلما فكرت فيهم كنت أحس القلق اذا ما فكرت فى نفسى : ما مقامى هنا بل ما مجيئى ومتى ذهابى . انى يا بنتى لا أعرف شيئا عن نفسى ولا أدرى من حياتى الا خيالات صور مشتتة غامضة . ولو تركت الى نفسى حينا لاتسع الوقت لأن أعرف من شأنها شيئا ، ولكنى موكل دائما بأمر ، مشغول بفكر . وأحسست يوما وأنا أجول حول المعبد برغبة فى أن أمعن فى هذه الصحراء . لقد كانت الصحراء أمامى كل يوم ، فما أحسست لجمالها اغراء ولا لسحرها فتنة . ولكنى فى ذلك اليوم أحسست اغراءها وفتنتها ، وأستطعت بعد مشقة أن أقاوم احساسى فلا أتيه فى مجاهيلها . فلما عدت الى صحبى اذا بهم قلقون مضطربون يتحدثون فى أمر جاءهم من المدينة ، فهذا حاكمها أرسل الى رئيسهم يريده أن يشخص اليه . وعاد منهم من المدينة من عاد ، فقد كانوا يخرجون اليها اما للدرس واما للمعاش ،

فقالوا ان أهل المدينة فى أشد حالات الاضطراب ، فقد قام عليها حاكم متكبر جبار يريد أن يخضع فيها كل شىء لأمره . فلما قاوموه تعسف وقتل فأذعنوا مرغمين ، وفى صدورهم براكين من الغيظ ، وفى نفوسهم فيض من ألم الذلة وذل المسكنة . وظل الحاكم عاما أو نحو ذلك لا يستطيع أحد الا موافقته على ما يفعل أو يقول . وترامت اليه أخبار المعبد وما ينعم به أهله من حرية وكرامة ، فعز عليه أن يكون حر أو كريم لا يخضعه لسلطانه ، فأرسل الى رئيس المعبد ليسير اليه . ولا يعرف السدنة الآن ماذا سيكون من أمرهم مع هذا الطاغية ، واضطربت نفوسهم أشد اضطراب . ولأول مرة أحسست انى غريب عنهم ، وانى لا احس ما يحسون ، ولا أفكر فيما يفكرون ، ترى ماذا جعلهم يضطربون ؟ ولأول مرة أيضا أحسست الندم لأنى قاومت اغراء الصحراء وفتنتها . وتطلعت الى صاحبى فاذا هو الوحيد الذى لم يضطرب ، واذا هو يتحدث اليهم بما أصبحت أفهمه وان غابت عنى بعض معانيه . انه أخذ يعيد الطمأنينة الى قلوبهم ، واذا هم يفيقون من حديثه أقوياء متحمسين . وتجاوبت الحماسة فى نفوسهم فقويت وازدادت قليلا قليلا حتى ملأت قلوبهم . انهم لن يفرطوا فى رئيسهم ، ولن يذهب الى الحاكم لأنه دعاه . ان حاكم المدينة لو طرق بابهم ما أجابوه . وما لهم وما يتناحرون من أجله هناك ! انهم زاهدون فى السلطان ، راغبون عن المال ، حسبهم من عيشهم هذه الحياة التى يحيونها مفعمة بلذة القرب من الله سبحانه وتعالى يتعبدون ويدرسون فيحسون حجب الكون تتكشف

لهم حجابا حجابا ، وفى كل كشـــــــف لذة تطغى وسعادة تغمر .

ولـكن الحاكم لم يصبر على هـذا الثبوت له ، واذا جنـده يقتحمون المعبـد ويخرجون الرئيس بالقوة . ولا تسألى يا بنتى عن الهلع الذى اعترى تلك الجمـاعة المؤتلفة المتحابة . وكانت غضبتهم غضبة قوية دوت بها الصحراء كلها . انهم لن يرتضوا غير رئيسهم ، ولابد أن يرد اليهم . وسعى اليه من سعى فى عزلته وجفـاه من جفـاه . وهدأ الزمن من ثورة النفوس ، واذا الشدة كعادتها تـكشف عن حقيقة النفس ، وسرعان ما كشفت عن تلك النفوس التى سما بها الجو حولها ، ففارت فيه وهى ليست منه . فلمـــا نضبت الـكأس ظهرت رواسبها التى كانت تعوم فيهـا . ان هؤلاء القلة الذين كانوا النواة الأولى لم يحسنوا اختيـــــار اخوانهم ، فضموا اليهم بعض من فقه فـكرة المعبد وبعض من لم يفقهها أصلا . بل لقد ضموا بعض من بهره بناء المعبد ، ولـكنه عاش غريبا فيه يساير أهله وهو لا يحس انه منهم . كل ما فى الأمر انه وجد فى المعبـد أمنا ودعة لم يتوافر له خارجه ، وظن أن سيكون لهذا المعبـد شـأن دنيوى سريع ، فماذا عليه لو شـارك فى هـــذا الشأن منــذ الآن فيكسب بمر الزمن . لقد كانوا أعرف بطبيعة الحياة . والانسان من هؤلاء المثاليين المؤمنـــين الأولين .

وكان أمرالوافدين الجدد مضطربا بين هؤلاء وهؤلاء ، منهم من آمن مع الأولين فاقتنع بوجهة نظرهم ، ومنهم من عاد بعد قليـل فآمن بوجهـة نظر هؤلاء العمليين ، ونسوا ثورتهم العظيمة ، فالزمن كفيل بأن ينسى أعظم

الأشياء وأجلها شأنا فى الحياة . أما سدنة المعبد ، فلقد غفلوا أو تغافلوا عما بينهم من اختلاف ، وكانت أصوات العمليين تضيع فى أصوات المخلصين وعمقها وهم يرتلون من قلوبهم ، فظلت انغامهم تخرج حارة قوية مع ان عددا ليس بالقليل منهم كانت تراتيله لا تجاوز الشفاه خجلا وخوفا .

ولكن المحنة أتاحت لهؤلاء العمليين أن يتكلموا وأن تعلوا أصواتهم الخائفة ، ومر الزمن فاذا أصواتهم تعلو فى الترتيل ، واذا اصواتهم تعكر صفو هذا اللحن الصافى الرقراق . وقال قائلهم : انه كان يجب على رئيسنا أن يجيب الحاكم فلا يعزله ولا يعذبه . وقال آخر : ان للحاكم سلطانا على كل شيء وسلطته مهما بالغ فيها يجب الا تعارض ، والا ضاعت هيبة السلطان فى كل زمان ومكان . ولكن ظل من المؤمنين الأولين من يقول انه ليس للحاكم أن يتدخل فى أمرنا ، اننا لا نتعرض له ولا لسلطانه ، فنحن قوم جعلنا بيننا وبين المال والسلطان آمادا واسعة . والمال الذى يأتينا من المدينة ان هو الا قرابين أهلها الينا لا يدفعه الحاكم من ماله ولا يتكلف فى سبيل ايصاله الينا شيئا . ولكن صوت هؤلاء المؤمنين وان يكن كله اخلاصا فقد كان فيه غير قليل من فتور خيبة الأمل والاشمئزاز ممن حولهم ، فلم يكونوا ينتظرون الا أن ترى الجماعة فى مثل هذا الموقف رأيا واحدا تراه أول الأمر ولا تحيد عنه الى النهاية .

وغضب سدنة المعبد المخلصين وتلاميذهم ما شاءوا ، ولكنهم عرفوا آخر الأمر ماحاولوا نسيانه ، وهو ان الحاكم الظالم لاتقاومه الا جماعة متماسكة كل التماسك .

أما هم فقد تفككوا ، وظهرت لهم العناصر الغريبة عنهم التى تعيش بينهم ، وعادوا سيرتهم الأولى ، وقد فترت حماستهم ونظر بعضهم الى بعض بعين الريبة والشك ، كل منهم يظن فى صاحبه ما لايظهر . لقد كانت التجربة قاسية . ثم أرسل الحاكم أوامره فحاولوا أول الأمر مقاومته ، ثم أذعنوا وولوا عليهم من ارتضاه الحاكم حتى لا تنفذ فى المعبد الا أوامره . لقد نقب هذا الرئيس الجديد أول ثغرة فى حصن المعبد المقدس ، فقد جعل للحاكم فيه أمرا لم ينته ، بل ازداد على مر الأيام .

ومنذ ذاك يا بنتي اتصل أمر المعبد بالحكم القائم اتصالا أفسد عليه كل أموره . فالذين كانوا من أبنائه يقضون النهار فى البحث والتسبيح لله ، والليل فى التهجد والتفكير والتأمل ، أصبحوا يقضون اليوم فى المدينة باحثين عن الأسباب التى توصلهم الى رضا السلطان وعطفه ، وليلهم فى التفكير فى وسائل هذا التقرب وكيفيته . فاذا صحا خيالهم وألم بهم المامة ما ، لم يفكروا فى جنات عدن ، وانما تخيلوا ما يمكن أن يصلوا اليه من سلطان ، وما يمكن أن ينعموا به من مال . وأصبحت صلاة المؤمنين المخلصين منهم تجمد على جدران المعبد الخرساء الباردة قبل أن تنزلق فى طريقها الى السماء . وبذلك أصبحت الحياة فى المعبد جحيما لا يطاق . وأمر الرئيس الجديد ، ونهى وأطاعه بعضهم ، وتحاشاه الآخرون ، فقرب وأبعد ، وأفسد ما شاء له الافساد .

ويشاء الله ، جلت حكمته أن تعارض ، أن يعود فى تلك الآونة شبان المعبد المسافرون فى صحارى

العالم ، وفى قلوبهم حماسة الشباب المؤمن ، وفىعقولهم علم وأمل واسع عريض ، فاذا المعبد حوله أسوار لم تكن أيام كانوا فيه . فنفرت نفوسهم من تلك القضبان الحديدية ، وما ترمز اليه من معنى السيطرة والسلطان ، بل من معنى القيد والذل . ولكنهم جاوزوا الأسوار ، واذا وجوه اخوانهم وكبارهم توحى بنفرة أشد وخوف أقوى . انهم لم يرحب بهم أحد ولم يهش لمقدمهم انسان ، وتقدموا للعمل فلم يشجعهم أحد ، بل أحسوا رغبة خفية فى التخلص منهم . ولما عرفوا حقيقة الأمر وجموا حينا ، وأفاقوا من وجومهم فريقين : فريق زار معابد الصحراء زيارة عابرة لم تذك فى نفسه نارا ، بل أخمدت ما أضاء له أساتذته الأولون فى معبد الصحراء هذا ، لذلك آثر أن ينحو نحو من رآه فى المعبد يقوم بالامر ، وقد أسبغ عليه سلوكه هذا مسحة فلسفية استمد منها بعض ما يدافع به عن نفسه أمام اخوانه . واستمر يصعد فى سلم المادة وهو آمن مطمئن يفسر انتقاد اخوانه حسدا ، ويرى تأنيب ضميره رجعية ، واذا هو وحش كتلك الوحوش التى سمعت أصواتها ، وارتفع صوته يقوى أصواتها فازدادت غلاظة ونكرا . وأما الفريق الآخر فقد آثر الانزواء فى المعبد بعيدا يخفت من صلاته ويدارى من تسبيحه وقد انصرف عن كل أمر فى المعبد ، لايكاد يدرى مما يدور فيه شيئا ، وهو غارق فى الدعاء الله أن تنجلى المحنة وأن تعود للمعبد حياته الأولى . ولما طالت بهذا الفريق الأعوام ثبت من ثبت ، وتغير منه من تغير ، بل فر منه من المعبد من فر .

وهكذا فقد المعبد الروح الذى يحدب عليه ، وأصبحت عقول سدنته وقلوبهم خارجة عنه وان ظلت أجسامهم فيه . ولم أطق العيش معهم ، فخرجت الى هذه الصحراء أجوبها من جديد ، وعدت اليه بعد أعوام لما ترامى الى سمعى من أن رئيسهم القديم عاد اليهم . ولكم تألمت عندما وقع بصرى على المعبد بعد أن تركته طوال هذه الاعوام !.. ان القبة الزرقاء أصبحت رمادية مما تراكم عليها من تراب . ان الجدران اللامعة الملساء قد تآكلت ، وتحفرت ، كأنما نخر فيها السوس . ان الأرض البيضاء الناصعة قد اسودت من اقدام الوافدين الذين هان عليهم أمر معبد ، هان على سدنته من قبل . ان الهواء الطلق الجميل الذى كان يمر بالمعبد فى جلال الحرية وشمولها أصبح يدخله من خلل قضبان كأنما هى أنابيب لا تطلقه الا بمقدار . ورحت الى صديقى أروى ما فعلت به المحنة فاذا هى قد تركت فيه آثارها . لقد بلا فيها ما لايمكن لانسان أن يبلوه ليظل ايمانه كما هو واخلاصه كما كان . نعم ان اخلاصه لم يطفأ . انه ما كاد يطأ بأقدامه أرض المعبد ، ويسمع أصوات بعض المخلصين من صحبه حتى نسى أو تناسى ما كان من أمر السدنة طوال هذه الأعوام . وبدأت حرارته تثير المكان ، وبدأ السدنة يلتفون من حوله ، وبدأ ترتيلهم خافتا ، ولكنه كان صافيا ، واذا الأطيار تعود فرادى لتحلق حول القبة الزرقاء تتلقى الأنغام فترددها خجلة من تردادها الرفيع ، ثم متحمسة شيئا فشيئا حتى يفنى صوتها فى عمق أصوات السدنة المخلصين . ودخلت المعبد من القبة الزرقاء تريد أن تقبع فيه من جديد ،

ولكن صدها ما رأت . ان العناكب متراكمة على جدرانه ، وان وجوه سدنته ساهمة ، وعيونهم زائغة ، أكثرها عالق بالأرض يحسب ويزن ، ولا يتطلع الى السماء ليحلم مطمئنا .

وسار الزمن بالمعبد فى حالته الجديدة خطوات ، تحسبونها أشهرا أو سنوات ، واذا الرئيس نفسه قد يئس من أمر المعبد . لقد كان الفساد فيه أشمل من أن يوحى بأمل فى اصلاح . ان جهاد الاصلاح أعسر من جهاد الانشاء ، ومقاومة أهل المعبد أنفسهم أعسر وأشق من مقاومة السلطان . ان هؤلاء الغرباء الذين ظلوا فى المعبد وأصبح الأمر لهم الى حد بعيد كان من الصعب اغفالهم ، ومن الأصعب التعاون معهم . ولم يكن الرئيس قوى الثقة بأبنائه الشباب ، فقد أظلم نظرته اليهم ما بلاه فى كبارهم ، فظلمهم وظلم نفسه ، بل ظلم المعبد فيهم . ولم تكن هذه القلة المخلصة الصافية من شباب أبنائه بكافية عددا لتعين على اصلاح جبار كالذى تتطلبه الحال . وهى قد ألفت العزلة والحذر من المشاركة فى أمر ، فلما جاء الرئيس كانت هى أيضا ضعيفة الأمل فى الاصلاح أو عودة الحال . وحاول الرئيس ما حاول ثم مل وسئم ، وظلت هذه القلة عاكفة على نفسها لم تسأم ولم تيأس كل اليأس . واتصل اليائس بالمتفائلين منهم ، فغلب بأسهم الحار تفاؤلهم الخجل الفاتر . ولم تعد للرئيس حياة فى مثل هذا الجو ، ففر يائسا الى المدينة ، يشق لحياته طريقا آخر ، ويرسم لنفسه غايات جديدة ، لست أدرى من أمرها شيئا : أتتصل آخر الأمر بالمعبد ، أم هى قد

قطعت كل ما بينهما من أسباب .

ان أعمار الرجال يا بنتى لقصيرة ، وان قصرها وحده لخليق أن يشع فى النفس معانى وتقديرات تقلب وجهة النظر الى الحياة كلها . فاذا ما تقدمت هذه الأعمار وأحس أصحابها لأول مرة احساسا قويا انها ستنتهى بعد حين ، وان هذا الحين ليس طويلا كما كانوا يحسونه فى الشباب ، أشع هذا الاحساس فى نفوسهم من الأحاسيس والمشاعر ما هو كفيل بأن يغير مجرى الحياة . ولكن ما لنا وللرئيس !.. لقد هجر المعبد وهجره معه الأمل فى عودة الحال سيرتها الأولى .

وهكذا يا بنتى ظلت أمور المعبد تسير من فساد الى فساد ، ومن يأس الى يأس ، حتى نصبوا عليهم أخيرا شرهم خلقا وأبلدهم حسا ، وأضيقهم أفقا . رجلا لايدرى من أمور الدنيا الا ما يفيده وينفعه نفعا ماديا . انه كبعض حيوان الصحراء الذى لا يفيق من نومه الا على خطر يهدد حياته ، واذا هذه الغفلة الطويلة والنوم العميق يستحيلان الى يقظة وذكاء لا قبل لهذا الحيوان بهما . فاذا ما زال الخطر عاد يغط فى نومه وينعم بغبائه من جديد . ولا تسألى عما أفسد فى نفوس أهل المعبد وأموره ، فكما ان الروح السامى يرفع من حوله الى عليين كذلك ينزل الروح الشرير بمن حوله ضعاف النفوس الى أسفل سافلين . ووصلت الحال أخيرا الى ما قد سمعت من صوت ، وما رأيت من مناظر .

قلت : سيدى ولماذا ولوا عليهم شرهم ؟ قال : انه أمر السلطان . لقد كان أهل المدينة يرسلون

خيراتهم الى أهل هـذا المعبد وهم يرونها قربانا لأهله وتقربا الى الله وسـدنته ، وكثيرا ما أسفوا على انها ليست أكثر مما يرسلون بالفعـل ولـكنهم اليوم ، بفضل سوء الحال عندهم وفى المعبد نفسه ، أصبحوا يحسون انهم يدفعون الى أهله ما لايستحقون ويمنون عليهم بما ليس لهم فيه حق . وسدنة المعبد لا يهمهم من هـذا شىء . انهم ساعون دائما لملء بطونهم حتى يغطوا فى نومهم ، وتضخيم أصـواتهم اذا ما أفاقوا . وهم يرون فى ضخامتها جلالا ، وفى نكرها اشـعارا بعظمتهم ، وهـذه أصـواتهم تعلو من جـديد ، انصتى اليها .

قلت : سيـدى ، ولـكن أليس عنـدك أنت أمل فى عودة الحال ؟ قال : انى لا أعرف الا ماضيا وحاضرا ، أما المستقبل فلا يـكشف لى عنه الا سدنة مخلصون ، وقد مات هؤلاء من دنيـاى . قلت : ولـكن تلك القلة من شـبابه الا تصحو يوما ؟ قال : من يدرى ! .. نعم من يدرى ! ..

ثم عاد يداعب رماله بعوده من جديد . وخفت أن يصمت فقلت : ولـكن أليس هناك ما يمكن أن يعمل ؟ ولـكنه لم يجب . ولو قد أجاب لضـاع صـوته فى تلك الصيحة المنـكرة التى سـدت الآفاق من سـدنة المعبـد ، تثير فى النفس خوفا واشمئزازا بعيدين كل البعـد عن الاجلال أو الاعظـام . قلت : سـيدى ! ولـكن الشيخ ظل كما هو لا يتحرك . وفجأة هبت الريح قوية أول الأمر ، ثم عاتية قاسية حتى رفعت كثيرا من رمال الصحراء الى آفاق السماء ، فأقفلت عينى حتى لا تعميها ذرات التراب ، فاذا الخوف يبلغ

منى مبلغا عظيما ، فهذه أصوات منكرة وسط الظلام ، وتلك رياح عاتية تكاد تقتلعنى من الأرض. وصحت فى خوفى : سيدى أين أنت ؟ .. ولكنى لم أسمع لنفسى صوتا . وازدادت العاصفة قوة ، فاذا بى أندفع الى حيث لا أدرى ، أعدو كأنما الرياح هى التى تحملنى .

وفجأة وجدت نفسى على أبواب المدينة وقد كان النهار الطويل أن ينتهى وعدت الى بيتى متعبة ، ومنظر المعبد وشيخه وحديثهما ، بل الصوت المنكر ، ملء نفسى وخيالى . وما كاد الصباح يلوح هادىء النسيم ، كأنما الطبيعة تستريح من جهاد عاصفة أمس ، حتى أسرعت الى الصحراء أبحث عن المعبد وشيخه فلم أجد لهما أثرا . وطال بحثى وتجوالى حتى كلت قدماى ، وعاودت البحث مساء وصباحا أياما ، وأياما بلغت أشهرا ، وأعواما ، حتى يئست من أمرهما . ترى ابتلعتهما عاصفة الصحراء ، أم حملتهما الى صحراء أخرى من صحارى الأرض . ولما بلغت حيرتى أشدها شككت فى أمرنفسى ، فسألتها : أرأيتهما فعلا ، واستمعت الى الشيخ حقا ؟ .. قالت : أما ذاك فليس فى أمره شك .

قلت : ولكن أين ذهبا . قالت : أما المعبد فلا يمكن أن يكون قد رفع على متن الريح . وأما الشيخ فقد كان أكثر تعلقا بالأرض ولصوقا بها من أحجار المعبد على ضخامتها . قلت : اذن أين هما ؟ .. قالت : فى الصحراء . قلت : وما لى لا أراهما ؟ .. قالت : انها صحراء صامتة خرساء قاحلة جرداء ، ولكن عليها أزخر حياة وملؤها أشهى حديث ،

ولا يحس حيـاتها ولا يسمع حديثها الا من أحبهـا ، ونسي نفسه فيهـا . قلت : وهل أحب الصحراء مثلى أحد ؟ .. قالت : انسيت العاصفة وما أثارته فيك من خوف واضطراب ! .. مما سررت ؟ .. وعلام حرصت ؟ أعلى الصحراء ؟ .. قلت : لقـد زالت العاصـفة . قالت : ولـكن آثارها لا تزال . وهل يزول في الوجود شيء .

الحقيقة

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟»
« قرآن كريم »

تململت فى فراشها وظلت تنظر ذات اليمين وذات الشمال ثم تغمض عينيها وتفتحهما ثانية وتفكر أين هى هيه .. أين هى ؟ ... آه .. هى فى المستشفى ، وقد جاءت اليها منذ أيام ؟ منذ أسابيع ؟ منذ شهور؟ لاتدرى ولكن لم جاءت ؟ يقولون انها مصابة بمرض عقلى أنهك أعصابها . وحياتها فى خطر من جرائه . هاها ! مضحك أهذا كل مافى الأمر ؟ .. ولكن أين أختها ؟ لقد كانت جالسة هنا منذ حين ولقد أوصتها أن تكتب كل ما تمليه عليها ، ولكن الظاهر انه لم يكن هناك ما يملى ، فقامت وضحكت ضحكة عصبية عالية . هاها الساذجة ، الا تدرى أن رحلاتى فى عالم الأرواح أصبح يحوطها جو غريب ، جو يقبض الأنفاس فلا أستطيع التحرك ولا التكلم ولا .. ولا التفكير . . ترى هل اوفق ؟ اعينينى أنتها القوى الخفية ، أعينينى : ارحمينى ، فما فى مطلبى اجحاف ولا ظالم ولا طمع . كل ما اريده هوان اعرف الحقيقة .

دخلت الاخت وعلامات السهر بادية عليها : اصفرار في الوجه ، وورم في العينين وخمول ووهن في الأعصاب .

« اين كنت ؟ آه من لى بهذا الاطمئنان ، بل هـذا البرود الذى يسود حياتك ، انت لا تعرفين عما اريد ان اعرف شيئا ، ومع هذا انت لا تأبهين بشيء . ايمـان مطلق وهدوء تام . ثم هؤلاء الأولاد أولادك ماذا علمتهم عن الحياة ، عن الموت ، عن الله ، عن الحساب : عن الروح .. لاشيء ، لا شيء ، لانك لا تعلمين شيئا ولاتريدين ان تفكرى لتصلى الى شيء » .

« كفاك اختاه ما انت فيه من وهن الاعصاب . اريحى راسك قليلا . لقد شغلت هـذه المسائل رءوس آلاف الناس قبلك ، وستشغل رءوس آلاف الناس بعدك . ولن يوفق اليها أحد لأن الله أراد ذلك ، وارادة الله ليس لها مرد » فصاحت فيها .

« لم ينه الله عن البحث والتفكير ، ولم يأمرنى الا أعرف شيئا عن هذه الأشياء ، اقتربى هنا ، ماذا كتبت ؟ لا لا أريد شيئا من هذا : أكتبى ما أمليه عليك كله أكتبيه رسالة منى الى أهل هذا العالم كلهم ، سأعرف الحقيقة اليوم ستقودنى اليها قوة خفية لاأعرف عنها شيئا الآن ولكن سأعرفها بعد حين . اياك أن تفوتك كلمة واحدة أو اشارة واحدة . افهمت ؟ » .

« نعم اختاه ، سأكتب كل شيء » .

لقد كانت دائمة الصمت كثيرة التفكير . اتسـعت دائرة تفكيرها على مدى الأيام حتى شملت اعوص ما فكر فيه الانسان واغمضـه . ولم تصل الى العشرين من عمرها الا وشغل تفكيرها هذا الكون بما فيه من قوى

خفية . قوى تتلاعب بالانسان كيفما شاءت وهو لايدرى من أمرها شيئا . يحاول ويحاول ولكن سرعان مايعرف ضآلة المرحلة التى اجتازها أمام ذلك الخضم المظلم من الأسرار والخفايا .

اشفقت عليها امها مما هى فيه ، وحاولت أن تدخل الى تلك النفس المفكرة الصامتة الحزينة بعض ما يسليها أو يريح فكرها ، ولكن نصيبها كان الفشل المؤلم .

وهاهى ذى الايام تجرى سريعة والأم يزداد اشفاقها، وخوفها والفتاة تزداد نحولها وضعفها، وتزداد احتقارها لكل شىء فى العالم الا ما تفكر فيه . كل متعة تنظر اليها كما ينظر الشاب الى الاعيب صباه ، واذا ما رغبها احد فى أية لذة او سلوى هزت كتفيها وقالت : «لست ادرى ما هذه السذاجة ؟ لقد ألقى الكم مدبر هذا الكون بهذه الألاعيب لتلهوا بها عن اللذة الكبرى : لذة العلم : لذة معرفة الحياة وما بعدها » .

ساءت حالها على مر الايام فارغمت على ملازمة الفراش فى مستشفى الأمراض العقلية ، ولكن ذلك لم يمنعها من مواصلة التفكير . وكثيرا ما قرأت فى كتب الدين وكثيرا ما قرأت القرآن الكريم ، تقف عند بعض آياته فتسترسل فى التفكير العميق ، وكثيرا ما وقفت عند الآية (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) . حملت الآية أكثر ما يمكن من معانى الاستهزاء والسخرية «وهؤلاء الناس لايعلمون شيئا ، ولكنهم لايجتهدون فى أن يعلموا شيئا . قنعوا بما لهم وفسروا العلم بتلك المحاولات التافهة التى يقضون العمر فى تحصيلها وكأنها

هى العلم . لقد انشغلوا عن العلم الحق ، عن أهم ما يتشوقون اليه . لقد خدعوا انفسهم والبسوها ثوبا من الايمان والاطمئنان وهم يعلمون فى قرارة نفوسهم انه ليس الا مبردا للنار المتقدة ، وملطفا لهـــــذا التطلع الغريزى » .

جلست الأخت قرب سرير اختها وأخـذت تلاحظها وتدون بعض هذه الملاحظات وانتظرت والقلم فى يدها ان تكتب ما تمليه عليها كما وعدت ، ولكن النعـــاس غلبها فنامت . لم يطل نومها حتى قامت فزعة مذعورة على صوت اختها المحشرج وهى تصيح صـيحة منكرة قائلة : « لن تفتر عزيمتى مهما سرت ، فسر بى أيها النور ، سأتبعك ، سأتبعك فوق الجبال ، فى اعمـاق الأنهار ، فى السماء ، فى جوف الأرض تعلو وتنخفض ولكنى اتبعك . لن ارجع كما رجعت قبل اليوم ، ولن انظر الى نفسى فتشغلنى عنك ، سر أنا وراءك » .

كتبت الأخت واستمرت هى تقـول « بدأت أفهم ، نعم عرفت ، ولـكنى لا أقوى على التعبير عما أعرف ، لماذا ؟.. كلا لن أفكر فى هذا ، سر ، سر ، أيها النور انى وراءك ، آه ألهذا اذن نموت ، ولهذا اذن نحيا ، نعم ولهذا يجب الا نعرف . فهمت . عرفت ، ولكن يجب أن أعرف أشياء أخرى ، يجب أن أعرف يجب أن أعرف السر الأعظم سر ، سر ، انى وراءك » . « نعم لقد عرفت كل هذا أيضا ، ولكن كيف أعبر عنه فلأحاول ، لا ، لا أقوى سأعبر عندما أعود الى ماذا أسميه ؟ الى هـــذا الملعب ، الى روضة الأطفـــال ، الى ما يسمونه العالم . ها ! ها !

« لقد أعياني السير ، أما آن لى أن أعرف الله ، أن اعرف القوى المهيمنة على كل شيء ، عـــلى كل ملاعب الاطفال هذه ، ما أكثر عددها وما اشد اعتداد كل منها بنفسها ! كأن ليس هناك سواها . لقد عييت ، ولكن كلا كلا ، سأسير ، سرانى وراءك ....

« رهبة شلت حواسي ، لقد امتزج هذا النور الذى اتبعه بالظلام حوله ، ولقد كانا قبل يزيد كل منهما فى قوة الآخر .. جو غريب لا هو ظلام ، ولا هو نور شيء ثقيل ينزل على رئتى ، الـكلام عسير ، والتنفس شاق ... ستار هائل عظيم أمسكت بطرفه يد خفيـــــة . سيزاح هذا الستار دون شك ووراءه الحقيقة الكبرى. كل ما فى ينبض بذلك ، ازداد الثقل على رئتى ... لا استطيع التكلم ، الستار يزاح ، التنفس عسير عسير ، لقد قضى كل شيء ، سأعرف سأعرف ، سينزل الستار، هو ينزل بالفعل قليلا .. قليلا ، سأعرف سأعرف ، قليلا ، بطيئا ، لقد عر .. فته .. آه .

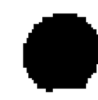
ودوت صرختهـــا قوة كالرعد مرعبة محشرجة ، ثم ساد الصمت ، صمت عميق ، عميق رهيب مخيف ، وقفت الأخت عن الكتابة فزعة مذعورة ولكنها لم تقو على تحريك رأسها ناحية أختها المريضة . حاولت أن تنادى فلم تفلح ، وأخيرا أدارت راسها فصرخت هى الأخرى صرخة مروعة ، أمامها عينان جاحظتان خيل اليها انهما فصلتا من الرأس ، وانهمـــا كل شيء على الفراش . وحولهما عروق نافرة زرقاء متوترة مشدودة. اغمضت عينيها وفتحتهما مرة ومرتين ، وأخيرا استطاعت بعد لاى أن تمد يدها لتلمس الجسد امامها ، فردت يدها قشعريرة شديدة مكهربة ، ودوى صوت هائل رن فى

اذنيها . تبينته فاذا هو ضحك استهزاء، ضحك غريب الصوت متواصل ، وكأنه آت من عالم آخر ، ليس لها به عهد ، ضحك ، بل اغراق فى الضحك ، ثم ماذا ؟ صوت كلمات ، صوت هادىء رزين ولكنه مسموع برغم هذه الضحكات الهازئة العالية المتواصلة . ماذا يقول ؟ ماذا ؟.(هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون؟).

كتاب الهلال القادم :

لغز أم كلثوم

وكلمات أخرى ...



بقلم

رجاء النقاش

يصدر ٥ يولية ١٩٧٨ ـ الثمن ١٥ قرشا

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص • ب رقم ٤٩٣
السيد هاشـــم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

هـــذا الكتـاب

مؤلفة هذا الكتاب يعرفها القراء فى الوطن العربى ، ويعرفونها خارج الوطن العربى أكثر .. وهى ليست فى حــــاجة الى تعريف أو تقديم ، لأنهـا قدمت نفسها بقلمها منذ وقت طويل .

ان الدكتورة سهير القلماوى نموذج ومثال للمرأة العربية الرائدة وللأستاذة المثالية ، وهى نموذج ومثال للكاتبة الدقيقة الرقيقة .

والقلم بين أنامل الدكتورة سهير القلماوى فكرة ونغم ، وهى توقع أفكارها على قيثارة مبدعة ، وتعرف أن الكلمة هى كل شىء للأديب ، لأنها عدته ، ولأنها مادته .

الكلمة ليست لفظا يلقى بغير انتقاء ، ولكنها اختيار وتدقيق ، وهى أداة التفكير والتعبير معا .

وفى هذا الكتاب أفكار كتبتها سهير القلماوى بكل نفسها ، بكـل احساساتها وقدرتها على التعبير الفنى الجميل .

اننا لا نكتب نقدا لهذا الكتاب الذى يعتبر من أهم الآثار الأدبيـة فى حياتنا المعاصرة .. فقد كتب هذا النقد عميد الأدب العربى الدكتـور طه حسين حين قدم لكتاب تلميذته . وقد نشر هذا النقد .

هذا كتاب جميل لابد أن يقرأ فى وقت يحتاج القارىء العربى الى شىء جميل مفيد يقرؤه وينفعه .

١٥ قـرشـا